

الكثير من

مشروع رؤية جديدة للفكر العربي

من بداية حتى المرحلة الناصرية

في ١٢ جزء

الجزء الثالث

من يومه إلى الله

الحكاية



مِنْ مَهْنَةٍ إِلَى اللَّهِ

الدكتور طيب تزي

مشروع رؤية جديدة للفكر العربي
متدياً من المرحلة المعاصرة
في ١٢ جزءاً

من يهواه إلى الله

الجزء الثالث

المجلد الأول



جميع الحقوق محفوظة للدار دمشق

الطبعة الاولى

٨٥ - ٨٦

موافقة ١١٣٩٨

تاريخ ١٢ / ٥ / ١٩٨٥

دمشق - شارع بورسعيد - هاتف ٢١١٠٤٨ - ٢١١٠٢٢
بيروت - الحمراء - شارع المقدسي - بناء يونس



تنويه

١ - قدم بعض من نعرف من الباحثين الذين اطلعوا على مخطوط هذا الكتاب في مرحلة تصحيح ملازمه ملاحظة أغفلنا الأخذ بها قصداً ، وذلك بالرغم من أهميتها وخطورتها الذاتيتين ؛ تلك هي أنه كان علينا في سياق المعالجة - وخصوصاً في الفقرة المعنونة بـ «الفكر اليهودي وموقعه من الفكر العربي» - أن نأتي على ما يمكن ضبطه تحت حد «الفكر الصهيوني - العربي» ، الذي يظهر بصيغ متعددة ، منها القول بـ «قومية صهيونية» أو بـ «الصهيونية بمثابرتها قومية حيوية» .

وقد أغفلنا ذلك لكونه غير مندرج في حقل المهمات الدراسية التي وضعناها نصب أعيننا في هذا المبحث . وبالطبع ، سوف يتعين علينا أن نأتي عليه في سياق لاحق من «مشروع الرؤية» الذي نعمل على استكمالها .

٢ - باحث آخر من الذين اطلعوا على المخطوط في طور تصحيح ملازمه أبدى رأياً جديراً بالاهتمام ، وإن كنا فضلنا الأخذ به ، أيضاً ، في موضع لاحق من «المشروع» . والرأي هو أنه من دواعي البحث أن نكون قد أنجزنا ، كمقدمة لهذا الكتاب ، معالجة أولية لحركة البحث التاريخي العربي في تاريخ الدين . أما إرجاؤنا ذلك لموضع آخر من «مشروع الرؤية» فيأتي من أنه هو نفسه يكون بحثاً بذاته . وهذا يعني أننا ألزمتنا أنفسنا بالابتعاد عن «نقد» للدين وللفكر الديني وللفكر الذي أرخ لهذا وذاك قبل تقصي المسألة نفسها من داخلها ، أي حركة ولادة وتبلور وتعضي النسق الديني نفسه .

٣ - اقتضى الوجه الفني التقني من اخراج الكتاب الذي نقرأ فيه أن يأتي هذا الأخير في مجلدين اثنين . ويمكن أن تضاف الى ذلك الوجه بعض الملاحظات التي

تتصل بسهولة تناول الكتاب المذكور والتعامل معه ، تلك الملاحظات التي قدم أمثالها... في حينه - جمع من الزملاء والأصدقاء والطلبة بخصوص كتاب «من التراث إلى الثورة» .

٤ - أرى من واجبي ، أخيراً ، أن أتقدم بالشكر والامتنان لثلة من الزملاء والأصدقاء والطلبة الذين قرأوا المخطوط كلياً أو جزئياً ، وقدموا في سياق ذلك ملاحظات هامة على بعض المسائل المطروحة فيه ، تلك الملاحظات التي أخذت بعظيمها ، فكانت ، بذلك ، جسراً خصباً للحوار العلمي الديمقراطي . ولا يفوتني أن أشكر السيدين جاك الدبس واندريه سلامة [مؤسسة التنضيد التصويري] اللذين منحا الكثير من الاهتمام للمخطوط ، بحيث جاء خالياً ، تقريباً ، من الأخطاء المطبعية .



بعد أن صدر «الفكر العربي في بواكيره وآفاقه الأولى» - وهو الجزء الثاني من «مشروع الرؤية الجديدة» - تولدت حوافز جديدة عميقة لمتابعة العمل . أما المواقف التي انطلقت منها هذه الحوافز فيمكن ضبطها وتلخيصها بثلاثة رئيسية ، ظهرت لدى جمع من المثقفين والباحثين والكتاب العرب ، الذين أبدوا وجهات نظر حيال الكتاب المذكور . أعلن الموقف الأول عن نفسه بمثابة تسفيهياً اعتبارياً (ومن الراجح جداً أن يكون أصحابه قد انطلقوا من عقيدة «استاذية غير مقدرة») . أما الموقف الثاني فقد تمثل بحذر نقدي ، هو أميل إلى الدحض منه إلى التقليل (وقد أفدنا الكثير من الآراء والملاحظات التي ندمها أصحابه) . أخيراً الموقف الثالث ، ونجده بارزاً في الترحاب النقدي الغامر ، الذي استقبل به ممثلوه الكتاب إياه .

ليس من شأننا ، هنا ، أن نفصل القول في تلك المواقف الثلاثة وفيما انتهت إليه من نتائج إيجابية وسلبية . ذلك أن مثل هذا الأمر ينبغي توفيره - في حال كونه ضرورياً - لطبعة جديدة من الكتاب المعني . إنما ذكرنا هذا الذي ذكرناه كما نشير - على هامش البحث - إلى مسألة نراها ذات دلالة منهجية خاصة ، على الصعيد الذي نحن جادون في تقصيه هنا . إن ما نعينه بذلك هو أن السير قديماً في «مشروعنا» - الذي نراه قد أخذ في التحول إلى خطة عمل استراتيجية للبحث العلمي في الوضعية العربية تاريخياً وتراثاً ، وكذلك وبطبيعة الحال راهناً - أصبح من مقتضياته الداخلية أن نتناول تلك المواقف الثلاثة تناولاً نقدياً مدققاً وصارماً . بل إن ما يمكن أن ينشأ ويتبلور - في سياق العمل - من مواقف أخرى إزاء «المشروع» المعني في أجزائه الناجزة واللاحقة التي ستنجز ، لا يسعنا ، والحال كذلك ، إلا أن ننظر إليه من نفس الموقع ، النقدي المدقق والصارم .

لقد غدا الحديث عن مجموعة من الأعمال والأبحاث ، التي صدرت في الأعوام الأخيرة (وضمنها «من التراث الى الثورة - حول نظرية مقترحة في قضية التراث العربي» ، و«الفكر العربي في بواكيره وآفاقه الأولى») ، مقترناً بالحديث عن عملية تأسيس مرحلة نوعية جديدة في البحث العلمي ، التاريخي والتراثي العربي . إن هذا القول وإن وجبت إحاطته الشديدة بحذر نقدي فائق ، وتحفظ من جدلية الحد الأدنى والحد الأقصى ، وكذلك وإن برزت نقاط تمايز ومواقف خلافية بين تلك الأعمال والأبحاث ، فإنه (القول) يبقى - في توجهه العام والرئيسي - صحيحاً وضرورياً . وفي هذه الحال ، لا يخرج التواضع ، صادقاً كان أو كاذباً ، عن أن يكون أمراً نافلاً ، أي غير ذي أهمية دلالية على الصعيد المنهجي النظري ، الذي يضبط هذا الكتاب ويخترقه سطوحاً وعمقاً . فعملية التأسيس تلك ، إرهابيات ومصائر ، هي أكبر من أن تُغيب في ردهات اعتبارات غير تلك ، العلمية المنهجية ، التي نأخذ بها وننطلق منها في عملنا . إذ أن الأعمال والأبحاث المنوه بها ، وما يقترب منها أو يشير إلى منحائها المنهجية الأساسي من أبحاث ودراسات في المراحل السابقة عليها والمعاصرة لها ، لم تعد ملك الأفراد الذين انجزوها فحسب ؛ فهي إذ أعلنت وانتشرت ، فإنها تحولت إلى ملك جميع الفاعلين في حقل البحث العلمي في التاريخ والتراث العربيين في ضوء الجدلية التراثية ، خصوصاً ، والجدلية المادية التاريخية ، بصورة عامة .

إن «مرحلة ما بعد بيروت ١٩٨٢» ، بما تنطوي عليه من جدلية نوعية وخطورة فائقة ، وضعتنا مجدداً وبوتائر قصوى ، أمام المهمة القديمة المتجددة دائماً ، ألا وهي ضرورة الممارسة الدؤوبة والنافذة لعملية تصويب أفكارنا ، وتدقيقها إذا كانت خاطئة ، أو كانت لا تستجيب لشرائط الصحة النظرية المعرفية (الإبستمولوجية) ؛ وكذلك تعميق النتائج التي توصلنا إليها ، ووضعها في سياقها من السابق وما يمكن أن يكون لاحقاً لها . ولكن ليس من شأن ذلك - على الأخص ما يتصل منه بالشق الثاني - أن يعني دعوة تبشيرية أخلاقية أو سياسية . إن مثل هذه الدعوة لا تعدو أن تكون - خصوصاً بعد أن ولجنا المرحلة المشار إليها حتى العمق - وجهاً جديداً قديماً من أوجه الإشكالية في البحث التاريخي والتراثي

العربي ، وذلك بالرغم من امتلاكه حداً كافياً من المشروعية الاجتماعية التاريخية والتراثية .

يبقى أن نعلن أن المواقف الثلاثة التي برزت حيال كتاب «الفكر العربي في بواكيره وآفاقه الأولى» - ويمكن أن تبرز كذلك إزاء هذا الكتاب الذي بين أيدينا - وإن كانت جميعها حائزة على مثل تلك المشروعية ، إلا أن واحداً منها ، وهو الأول (التسفيهي الاعتباري) ، يمكن الاكتفاء بالثناء لأصحابه من ذوي الفكر البائس والبؤس الفكري «غير المقدر حق قدره» . فهو ، باحتوائه نزوعاً «أبويًا» إلى تسفيه الجديد ، المتصل بحقل عمل أولئك ، وإلى التشقي منه ، يلجأ - في الحالة التي نحن بصدددها - إلى إثارة موقف ارتيابوي تجاه البحث في المراحل العربية الموعلة في القدم ؛ وذلك من موقع مزاعم متعددة من أمثال الزعم التالي ، وهو أن «مادة البحث» مفتقدة على هذا الصعيد . ولعل هذا الموقف الارتيابوي ، الذي يبديه أولئك حيال الجديد المعني ، ليس إلا أمراً مفتعلاً وملفّقاً دفع به أصحابه لا للتعبير عن إشكالية قائمة في إطار البحث العلمي في التاريخ والتراث العربيين ، وإنما للإعلان عن شخصيتهم النغلة في تسفيه «الجديد» ، أيّ جديد يمكن أن يكون له علاقة بنشاطهم المعني ، طالما أنه لم يمر عليهم ، أو لم يعمدوه باستاذيتهم «غير المقدرة» .

بيد أن مسألة الارتيابوية إزاء البحث في المراحل الفكرية العربية المتقدمة ، لا تجد مصدرها فقط في مثل تلك «الاستاذية غير المقدرة» . إنها تبرز ، كذلك ، بمشابتها موقفاً حقيقياً يتأتى عن قصور نظري معرفي في إطار البحث العلمي التاريخي والتراثي . وهذا الوضع بالذات ينبغي أن يمنح أهمية مخصصة . فالبحث فيه يستوجب اللجوء المعمق والدقيق لأدوات البحث العلمي ومناهجه المتاحة والمحتملة .

لقد واجهنا مثل ذلك الموقف تجاه كتاب «من التراث إلى الثورة» . كان هذا حين أعلن البعض أن التصدي لصوغ أو لاقتراح نظرية منهجية في قضية التراث العربي ، يقتضي الانتظار إلى ما بعد انجاز عملية «تجميع التراث العربي» كاملاً ، غير منقوص . وقد أشرنا ، في حينه ، إلى أن هذا الموقف «الإرجائي» يرتكن إلى نقطة رئيسية حاسمة ، تلك هي افتقاده البعد الجدلي التاريخي والتراثي ، أي

الانضباط بمقتضيات السياق الشخص والمجرد ، والنسبي والمطلق ، والخاص والعام لما يوضع تحت مِبْضَع البحث ، نعني «مادة البحث» .

وجدية المسألة ، التي نحن بصددھا ، تظهر بوجه آخر من أوجهها ، إذا وضعنا في الحسبان أن جلّ ممثلي دينك الموقفين يقبعون تحت ظلال الجامعات والمؤسسات العلمية العليا ، وخلف وسائط الاعلام المرئية والمقروعة والمسموعة في العالم العربي . فهؤلاء جميعاً يمارسون ، من مواقعهم المتشعبة تلك وبصورة «أكاديمية» و«اعلامية جماهيرية» ، منسقة احياناً وليس دائماً ، عملية تعميم الارتياحية بقصورها المنهجي النظري وبخطورتها الايديولوجية . وفي المحصلة ، لا فرق كبيراً عميقاً بين من يلبس من اولئك ، زعماً ، لبوس العقلانية أو المادية عموماً والمادية الجدلية التاريخية خصوصاً ، وبين فريق من الأساتذة والمدرسين الليبراليين الذين تتلمذوا على أفلاطون أو جيمس دوي أو برغسون أو كروتش أو هايدغر وياسبرز . إن هؤلاء واولئك يعلنون ، إذ يقرون بالضرورة المبدئية للبحث في مسائل التاريخ والتراث العربيين ، أن هذا البحث إقماً سابقاً لأوانه (وما يأتي سابقاً لأوانه مصيره الاخفاق) ، أو إنه يمثل واحدة من مهمات مجموعات عمل كبرى علينا أن ننتظر قدومها في مستقبل قريب أو بعيد . وإذا ما تتبعنا آلية التفكير التي تحكم شخوص دينك الفريقين وتنعكس في سلوكهم العملي المباشر والعفوي ، فإننا سوف نظن أن انتظارنا ذاك لنشوء مجموعات العمل المنوّه بها لن يكون أكثر من انتظار «غودو» .

ومن ناقل الأمور أن نشير إلى أننا ، هنا ، أبعد ما نكون عن الزعم (الوهم) بأننا وحدنا قادرون على انجاز مهمات ذلك البحث الكبير عمقاً وسطحاً ؛ بل إنه ، أساساً ، ليس بإمكان أحد ، بمفرده ، أن يزعم ذلك لنفسه ، مهما كانت قدراته العلمية منظمة ومنضبطة وموسوعية الأفاق والاحتمالات . ولكننا ، في نفس الحين ، نرى في الموقف التعجيزي ، اللاجدلي ، للفريق الأول من اولئك رغبة ضمنية مأكرة ومكابرة في تعليق تلك المهمات والبحوث المعقودة عليها ، وإعلانها غير ذات أهمية راهنة أو مستقبلية محتملة .

والحق ، إننا في إشارتنا الى غياب البعد الجدلي ، التاريخي والتراخي ، من موقف من نعنهم ، هنا ، لم نكن قد ذكرنا إلا واحداً من الأسباب الكامنة

وراءه . لكن لعلنا نتبين سبباً آخر له ، هو ، بدوره ، ذو بعد دلالي على هذا الصعيد . فالبعض من هؤلاء ، على الأقل - وهو غير قليل في اللوحة الثقافية العربية الراهنة - يمثل وريثاً شرعياً لأحد أوهام عصر النهضة العربية ، المخفقة حتى مرحلتنا هذه الراهنة (ونحن نعني بهذا الإخفاق الفترة النهضوية الممتدة من أواسط القرن التاسع عشر وحتى الآن) . أما الوهم المعني ، هنا ، فهو التمرکز على الذات (مركزوية ثقافية ذاتية) ؛ أو لنقل بصيغة أكثر تكثيفاً وقرباً من دوي الأحداث الراهنة ، إنه يتجلى - ضمن ما يتجلى فيه - في إحدى لوثات «مرحلة ما بعد بيروت ١٩٨٢» ، وهي السفاهة والنفاق ، مع غرور دونكيشوتي وانطواء متمركز على الذات ومؤسس على هوس «استاذية غير مقدرة» من قبل «الآخرين» . كما يظهر ذلك الوهم في حالة من الجبن الخبيث والملفح برداء من الشجاعة والوقار يلف صاحبه نفسه به ، ليقنع بالابتعاد عن «جلبة الآخرين» وضوضائهم .

إن وضعية العجز تلك ، المكروسة ذاتياً من قبل أولئك وغيرهم ، ثري كم هو معقد ، حقاً ، وعسير أن يمارس المرء فيها دور الناقد الفكري التاريخي والتراثي ؛ كما تطرح أمام منظومتی السيكولوجية الاجتماعية والسيكولوجية الثقافية مشكلات كبرى تتصل بتكوين الثقافة والمثقفين العرب ، بمختلف انتماءاتهم الطبقية وتياراتهم الايديولوجية وتوزعهم الجغرافي (في المشرق والمغرب العربيين ، كما يصح هنا أن نقول) ، ناهيك عن مستوياتهم وآفاقهم النظرية المعرفية (الإبستمولوجية) . وقد يكون محتملاً أن تسهم صيغة «المثقف العضوي» ، كما طرحها انطونيو غرامشي (١٨٩١ - ١٩٣٧) ^(١) ، في استبطان واستظهار وقنونة تلك الوضعية ؛ وذلك على الرغم من بعض التحفظ النقدي الذي يمكن أن يبرز إزاء هذا المصطلح .

وقد نضبط القول في ذلك النمط المشخص من المثقفين إذ نعلن أنهم ، حصراً ، يستمدون شخصيتهم الثقافية وحضورهم الثقافي من كونهم إيديولوجيين الإخفاق والأزمة والهزيمة ، الايديولوجيين المخفقين المهزومين المأزومين .

(١) انظر في ذلك مثلاً :

Antonio Gramsci: Zu Politik, Geschichte und Kultur, Reclam 1980, Ausgewählte Schriften , Verlag Philipp Jun. Leipzig, S. 219-232.

يبقى أن نشير إلى ما لا يجوز ألا يشار إليه في هذا السياق الإشكالي ، وهو أن «مرحلة ما بعد بيروت ١٩٨٢» لا يمكنها أن تحتل وجود هذه الوضعية الثقافية النغلة (الفاسدة) ايدولوجياً ونظرياً معرفياً ، إلا إذا ظهر أن الغزوة التتارية الكبرى الجديدة ، التي انطلقت من الداخل والخارج ، لاتعنيها في شيء ، من حيث نتائجها الجغرافية والفكرية والسياسية ، وكذلك السيكلوجية الاخلاقية .



ليس من شك في أنه ، حقاً ، حدث فائق الدلالة والطرافة أن يتواءت البدء بتحرير هذا الجزء الثالث من «مشروع رؤيتنا الجديدة» مع أحداث بيروت ١٩٨٢ ، وأن ينشر في البدايات الأولى من «مرحلة ما بعد بيروت ١٩٨٢» . فلقد قدمت النتائج الأولية لهذه المرحلة أدلة عملية كبرى وعميقة على هيمنة الوضعية الثقافية النغلة المومي إليها ، فيما سبق ، في الوضعية الثقافية العربية الراهنة ، وذلك على نحو لم تستطع استخلاصها وطرحها وتعميمها مثبات من الكتب والدراسات والأبحاث التي صدرت ، على الأقل منذ عام ١٩٦٧ . هاهنا ، يجد الباحث التاريخي والتراثي نفسه أمام مهمات نوعية عظيمة تكمن ، في بعض منها ، في الالتفاف على البحث العلمي من مواقع تلك الأدلة ، بهدف اغنائه وتعميق أدواته واستبصار آفاقه ، وكذلك بغية تدقيق منطقاته وتصويبها ، إن لزم الأمر ؛ وهو ، في الحقيقة ، لازم قطعاً وبكل الاعتبارات .

فنحن نقدم هذا البحث «من يهوه الى الله» في مرحلة بلغ فيها السيل الزبي . لقد بلغ فيها الاضطراب والقلق والتبعثر والتداخل ، على صعيد المشكلات الدينية والسياسية والطائفية والوطنية والتراثية الخ . . . ، حداً من الفظاعة والعنف لم يكن من السهل أن يتصوره المرء قبل عقد أو عقدين من الزمن العربي . يضاف إلى ذلك أنه من سمات هذه المرحلة ، على الصعيد المنهجي النظري ، ما يلاحظ من اضطراب وتعثر في المفاهيم والمصطلحات والحدود المتعلقة بتلك المشكلات في تجلياتها ومظاهرها الايديولوجية ، بحيث يكاد البحث العلمي فيها أن يجد نفسه أمام آفاق مسدودة مستنفدة ، أو أن يتحول إلى نوع من المغامرة العابثة اليائسة . (ونحن نعيش الآن ظاهرة بروز فيض من الكتابات العربية التي تحمل ذينك النمطين من الدلالات) .

إن هذه الوضعية تفرض نفسها على الجميع ، دون استثناء ، حتى على أولئك الذين يتجاهلون تحت غطاء من ايديولوجية تفاؤل لا تاريخي لا تراثي ساذج . هذا

مع الملاحظة بأن وسائل العنف الجسدي والارهاب والدكتاتورية والاستعداد في الداخل والخارج أصبحت الأسلوب الأغلب والأكثر حضوراً في حسم الإجابة عن الكثير من المسائل والقضايا ، التي تطرحها المشكلات المعنية ، على الصعيدين النظري والعملي .

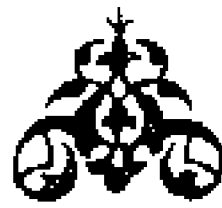
ولعل الموقف الأكثر طرافة واستفزازاً ، في نفس الوقت ، هو ذلك الذي يعبر عنه جمع من المثقفين والسياسيين حين يخلصون من معالجتهم لـ «مرحلة بيروت وما بعدها» إلى النتيجة التالية : ألا ترى إذن ؟ كل ما حدث هو تصديق لموقفنا وبرنامجنا وآرائنا ؛ لقد اثبت ذلك صحة تحليلنا النظري والسياسي ! فهؤلاء الذين يزعمون أنهم فوق «الأزمة» ، هم أكثر الفرقاء غوصاً فيها .

وإذا كنا في الجزئين - الأول والثاني من «مشروع الرؤية الجديدة» - قد اخترقنا ما يقترب من تلك الوضعية المركبة المعقدة بقليل أو كثير من ردود الفعل الصاخبة المدوية من طرف الآخرين ، سلباً أو إيجاباً ، فإن محاولتنا الحالية المتمثلة بـ «من يهوه الى الله» سوف لن تسلم من أمثال ردود الفعل تلك . بل لعل هذه الأخيرة ستكون ، في هذه المرة ، أكثر عنفاً ويقظة ، وأطول مدى . فتلك المحاولة - بطبيعة المشكلات التي تجعل منها موضوع بحث لها - تنطوي على عناصر من الإثارة والحساسية ما يجعل منها حقلاً لحوار أو لحوارات ملتبهة . لم ذلك ؟ على الأقل بسبب من أن المشكلات المذكورة تمثل الماضي العربي (والشرقي عموماً) في أكثر أشكال حضوره راهنية وإثارة وتداخلاً في المصالح الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المباشرة . فهذا «الماضي» يبرز من حيث هو أحد تجليات الوضعية العربية الراهنة ؛ طبعاً ضمن الخصوصية النوعية ، بما تنطوي عليه - بطبيعة الحال - من قانونيات وأسئلة ذاتية نفهمها بعلاقتها مع ذلك الماضي من موقع قانون العلاقة الجدلية بين الداخل والخارج . فنحن في هذه الحال إزاء الماضي مستمراً في الحاضر ، متشابكاً به ، وفاعلاً فعّالاً فيه ؛ أو إزاء التاريخ في استمراره التراثي بصيغة الموروث ، أي بصيغة الفعل المركب ، الذي يتضمن الكثير من آفاق التردد والحسم والنكوص والاحباط ، في آن واحد (وقد كنا واجهنا مثل هذه الوضعية ، وإن عبر أنساق أخرى من المشكلات المنهجية النظرية ، في «من التراث الى الثورة») .

من هنا ، كانت بالنسبة إلينا ضرورة قصوى أن نتخذ مواقف الحذر والتحفظ

العلميين النقاديين في معرض معالجة «من يهوه الى الله» . فنحن وإن كنا ، في بحثنا هذا ، متكئين ، ضمناً وعلى نحو غير مباشر ، إلى همّ يتسم بالراهنية المشخصة ، إلا أننا لن نجعل من هذا الأخير منطلقاً نفعوياً (براغماتياً) لبحثنا إياه وضابطاً منهجياً له . وإذا كنا قد أتينا على هذه القضية المنهجية وما يتصل بها تفصيلاً في «من التراث الى الثورة» ، فإن أهميتها المبدئية الفائقة تبرز ، أيضاً ، هنا ، أي بسياق البحث التطبيقي في المسائل التي سنأتي عليها في الكتاب المائل بين أيدينا . بيد أن النظر إلى هذا الأخير بمثابته بحثاً تطبيقياً منهجياً سبق أن بسطنا الحديث فيها وعرضنا لها ، لا يتعارض مع ما يمكن أن نواجهه من بعض الخصوصية في التنهيج للمسائل الخاصة به (أي للبحث) . فالأمر يظهر ، هنا ، ضمن مستويين ، أو لنقل تَجَلِّيَّين من التنظير المنهجي ، واحد عام وآخر خاص ؛ مع الاضافة الجوهرية التالية ، وهي أن هذين كليهما يشيران إلى بعضهما بعضاً إشارة الواحد الى الاثنين والاثنين الى الواحد . وهذا نفسه ما نستطيع تعميمه على سائر الأجزاء المكوّنة لـ «مشروع الرؤية الجديدة» ، بحيث نواجه المنهج مطبقاً والتطبيق منهجاً .

من هذا الموقع ، نُقبل على دراسة الوضعية التاريخية التراثية الممتدة من يهوه الى الله ، معلنين - في البدء - أن ذلك سيكون مشروطاً بأدوات البحث النظرية المعرفية المتاحة أولاً ، وبما تقدمه تلك الوضعية من مصادر ومراجع ووثائق ثانياً .



القسم الأول

تمهيد في ما هو عام
ومدخل إلى ما هو خاص

في ما بين الأديان «الشرقية» الثلاثة من تواصل تراثي وتفاصيل تاريخي أو العمومية والخصوصية التي تحكم إليهما

اكتسب البحث في الانساق الدينية الثلاثة الكبرى ، اليهودية والمسيحية والاسلام (المحمدي) ^(١) ، تقاليد مديدة عريقة ، ومتشعبة الاتجاهات والآفاق . وانطلاقاً من واقع الحال التاريخي والتراثي المشخص لهذه الأديان ، لانجد في ذلك ما يدعو إلى الدهشة والاستغراب استنكاراً أو تهميشاً . فدورها كان - على امتداد مراحل تاريخية طويلة ومتنوعة - في تصاعد مضطرد ونمو غزير ، في الصيغ والتلونات التي ظهرت فيها . وقد تنوعت هذه الأخيرة تنوع تلك المراحل وما جسدت من وضعيات اجتماعية محددة في المنطقة العربية ؛ وهي عموماً كذلك ، في ما نظن ، حتى مرحلتنا العربية المعاصرة .

ونرى أن ذلك الأمر الأخير يغدو مقبولاً ومفهوماً ، حالما مدرجه في حدوده التاريخية والتراثية النسبية . وإذا كان هذا الأمر أكثر انطباقاً على المسيحية والاسلام

(١) نود التنويه ، في هذا السياق البدئي ، بأن الحديث حين يرد في الكتاب المائل بين أيدينا عن «الاسلام» ، فإنه يعني الاسلام في صيغته «المحمدية» ، إلا ما نشير إليه في موضعه . فنطلق في هذا من القرآن نفسه ، الذي يعلن عن وجود «الاسلام» ، أيضاً ، بمثابة عقيدة دينية وجدت قبل محمد . هذا الاقرار تنبيه ، مثلاً ، في الآية القرآنية التالية : «قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون» . (سورة البقرة ١٣٦) . وسوف نأتي على هذه المسألة ثانية وبتفصيل في الجزء التالي من «مشروع الرؤية الجديدة» .

مما هو على اليهودية ، فإنه - في جملته وعموميته - يصحح على الثلاثة معاً ، كما يستقي بعض مصداقته الواقعية مما تجري الدعوة إليه حالياً ، في المنطقة العربية ومناطق أخرى ، تحت شعار «الدين لا يقهر» ، و«الدين بديل عن العلم لا يقهر» ، وأخيراً «الدين نذ للعلم لا يقهر» . وجدير بالقول أن هذه الدعوة المتواترة بين الهجوم والدفاع وبعض التهادن ، تنطلق بوتائر متميزة تمايز وظائفها ودلالاتها وآفاقها في بعض بلدان «الشرق الاسلامي» ، ذات التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية ماقبل الرأسمالية ، وبعض بلدان «الغرب المسيحي» الرأسمالي والرأسمالي الامبريالي .

صاغ ارنست رينان (١٨٢٣ - ١٨٧٣) في أبحاث شهيرة له حول «تاريخ نشوء المسيحية»^(١) الأطروحة الشهيرة التالية ، وهي أننا نحن المعاصرين إن أردنا أن نكون لأنفسنا تصوراً دقيقاً أو قريباً إلى الدقة عن المجموعات المسيحية الباكرة ، فإنه لن يتسنى لنا تحقيق ذلك ، إذا انطلقنا من مقارنتها بالمجموعات المسيحية الكنسية المعاصرة لنا ؛ في حين أن النظر إليها بمشابهة للمجموعات البروليتارية (العمالية) المحلية والمرتبطة بالمنظمة البروليتارية الأهمية ، هو ، وحده ، الذي يتيح لنا أن نضع أيدينا على المعقد المركزي للمسألة المعنية . ولقد عقب فريدريك انجلز (١٨٢٠ - ١٨٩٥) ، فيما بعد وفي بحثه الموسوم بـ «حول تاريخ المسيحية الباكرة» ، على تلك الأطروحة الرينانية قائلاً : إن رينان «نفسه لم يعرف كم من الحقيقي كمن فيها»^(٢) . أما مصداقية ذلك الحاسمة فقد نهضت ، من حيث الأساس ، على أن وجه المقارنة بين كلتا الحركتين ، المسيحية والاشتراكية الحديثة ، يتضح ويفصح عن نفسه من خلال تفصي وضبط دلالة وتأثير الانتشار الكبرى التي سجلتها كلتاها إبان نشوئها وانطلاقاتها الأولى . فلقد غدت المسيحية «بعد ثلاثمائة عام من نشوئها دين دولة معترفاً به للامبراطورية الرومانية ؛ كما أنه خلال ستين عاماً بالكاد انتزعت الاشتراكية لنفسها مركزاً حقق لها الانتصار بصورة مطلقة»^(٣) .

1) Ernest Renan: Histoire des Origines du Christianisme, Vol. 1-8, Paris 1863- 1883.

2) Marx, Engels: Ueber Religion- Dietz Verlag Berlin 1958, S. 257.

3) Ebenda- S. 256.

أما اليهودية فقد سلكت ، في نشوئها وتبلورها وتطورها ، طريقاً آخر متميزاً ، بحدود بيّنة ملحوظة ، محتفظة ، مع ذلك ، بنواظم أساسية مشتركة مع المسيحية عامة ، ومظاهرها الأولى على نحو خاص ، تلك المظاهر التي تمثلت - في حينه - بـ «المسيحية - اليهودية» . ولعلنا نقول بصيغة معممة لا تخلو من بعض الإجحاف بأنها - في أساس الأمر - نشأت من صلب العقائد الشرقية القديمة ، تلك العقائد التي مثلت ، إذ ذاك ، أوجهاً وأنساقاً واحتمالات من الذهنية الاسطورية ، دون أن تكون مماثلة لها أو صوراً (نسخاً) أخرى عنها ، كما يرى البعض ؛ وكذلك ، في نفس الوقت ، دون أن تكون قد تجاوزتها ، جذرياً ، في مداخلها وركائزها الرئيسية ، وفي بعض ما طرحته من آفاق دينية (توراتية) .

ولقد عانت من تناقض نموذجي كبير ومديد اكتسب ، شيئاً فشيئاً ومع تعاظم وتفاقم الوضعية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية ، وكذلك الإتيية ، طابع الصراع المفتوح ، والمحتمل دائماً . ذلك هو التناقض بين إلهها (يهوه) السائر صعوداً - في الحالة الإجمالية العامة - باتجاه كوني (عالمي) من طرف ، وبين تصورها الإشكالي عن الشعب اليهودي المختار (المصطفى) من طرف آخر ، هذا التصور الذي قاد لاحقاً الى نتائج خطيرة على صعيد العلاقة بين «النحن» و«الغير» ، بين «الجيتوية» و«الاندماج» ، وأخيراً بين «المركز» و«الهامش» (١) . (وسنأتي على تناول ذلك لاحقاً وفي حينه) .

(١) حول ما يتصل بـ «الشعب المختار المصطفى» ، نقرأ في «العهد العتيق» مايلي : «لأنك شعب مقدس للرب إلهك وقد اصطفاك الرب لتكون له شعباً خاصاً على جميع الشعوب التي على وجه الأرض» . (الكتاب المقدس - ويحتوي على العهدين العتيق والجديد ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٦٠ ، سفر تثنية الإشتراع ١٤/٢ - ونشير هنا إلى أن كل ما يرد في هذا الكتاب من شواهد «الكتاب المقدس» ، مأخوذ عن هذه الطبعة ، إلا ما يرد من شواهد أخرى يشار معها الى مصادرها) ؛ «أنا الرب الهكم الذي فرزكم من بين الأمم» (الكتاب المقدس - سفر الأحبار ٢٠/٢٤) ؛

«فإنكم تكونون لي خاصة من جميع الشعوب لأن جميع الأرض لي» . (الكتاب المقدس - سفر الخروج ١٩/٥) .

أما ما يتعلق بالاله الصاعد باتجاه «الكونية» ، فنقرأ الآيات التالية : «إن العالم كله أمامك =

ومن الراجح أن الفيلسوف الهولندي (ذا النسب العائلي اليهودي) باروخ سبينوزا (١٦٣٢ - ١٦٧٧) كان أحد الأوائل - إن لم يكن الأول - الذين كشفوا - على نحو تاريخي نقدي مركز ، عن ذلك المعطى ذي الأهمية المنهجية النافذة في فهم تاريخ اليهودية ، من حيث هي دين وموقف سياسي ، وفي أطوارها المتنوعة نسبياً . نشهد ذلك في كتابه الشهير بـ «البحث اللاهوتي السياسي»^(١) ، الذي أحدث ، في حينه وكما هو معروف ، عاصفة كبرى من الاستنكار والتشهير في الأوساط الدينية عموماً ، واليهودية منها على نحو مخصص .

ومن طرف آخر ، نلاحظ أن التناقض المتوه به أثار اهتماماً متزايداً في صفوف الباحثين في تاريخ الدين والايديولوجيا الدينية النظرية ، وذلك بالعلاقة مع البحث في المسيحية^(٢) . كما أنه من المحتمل أن يشير مجموعة من التساؤلات والملاحظات حول الحدث الاجتماعي التاريخي والحدث الايديولوجي والمعرفي النظري ، وكذلك حول تطورها ضمن وضعيات مشخصة ومتباينة ومتعددة .

وقد ظهر في سياق التطور الديني ، بما فيه الكفاية من الوضوح ، أن

= مثل ما ترجع به كفة الميزان . . لكنك ترحم الجميع لأنك قادر على كل شيء . . لأنك تحب جميع الأكوان . . إنك تشفق على جميع الأكوان لأنها لك أيها الرب المحب للنفوس» . (الكتاب المقدس - سفر الحكمة ١١/٢٣ - ٢٥ ، ٢٧) ؛

«ياإله الآباء يارب الرحمة يا صانع الجميع بكلمتك» . (الكتاب المقدس - سفر الحكمة ١/٩) ؛ «الرب متعال على كل الأمم وفوق السماوات مجده» (الكتاب المقدس - سفر الزمير ٤/١١٢) ؛ «انظروا الآن . . . إني أنا هو ولا إله معي» . (الكتاب المقدس - سفر تثنية الاشتراع ٣٢/٣٩) .

1) Baruch Spinoza: Der Theologisch-politische Traktat (Reclam) Verlag Philipp Reclam jun. Leipzig 1967, besonders S. 50-53.

٢) من هؤلاء نشير ، على سبيل المثال ، إلى :

F. Engels- Bruno Bauer und das Urchristentum. In: Marx. Engels- Über Religion, a.a. O., S. وكذلك ول ديورانت : قصة الحضارة - مجلد في جزئين ، الجزء ٢ (الشرق الأدنى) ، ترجمة زكي نجيب محمود ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٣٤٢ - ٣٤٣ ؛ مكسيم رودنسون : المشكلة اليهودية عبر التاريخ - ضمن مجلة (الطلعة ، القاهرة مايو ١٩٧٠ ، ص ١١١) .

التناقض المذكور لم يكن قابلاً للحل اجتماعياً وايدولوجياً (دينياً) في إطار اليهودية ذاتها . لكنه فيما بعد ، أي مع تولد البديل التاريخي التراثي (الدين المسيحي ، البولسي بالتحديد) ، غداً ممكناً ، وكذلك ضرورياً ضرورة ملحة . فلقد انطوى هذا الأخير على عناصر فعالة وحاسمة ، بقدر رئيسي أولي ، كما يصبح ديناً عالمياً ، يقدم - بطريقته الدينية الخلاصية الخاصة - ما لم تستطع اليهودية تقديمه (وحله) من أجوبة دينية خلاصية على مواقف عملية متزايدة وملحة ، وضمن ظروف متجددة من التطور التاريخي . في هذا المعقد من المسألة ، جدير بنا أن نورد الصيغة التي طرحها كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) ، تعبيراً عن أحد أوجه العلاقة الشاملة بين اليهودية والمسيحية . لقد قال : «كان المسيح ، مسبقاً ، اليهودي المنظر ؛ ومن هنا ، فإن اليهودي هو المسيح العملي ؛ كما أن المسيح العملي تحول ثانية إلى يهودي»^(١) .

إن التحول ذا الأبعاد والدلالات البعيدة من اليهودية الى المسيحية وإن كان ، والحال كذلك وضمن أحد معانيه الكبرى ، تحولاً من محلية مغلقة (جيتوية) الى عالمية منفتحة ، فإنه لم يؤد الى قطع العلاقة البنيوية النظرية والنفعية بينهما ، وذلك على النحو المكثف الذي ابرزه ماركس . هذا أولاً ؛ إضافة الى ذلك الأمر وإتماماً له ، يمكن التحدث عن وجود وجه آخر من العلاقة بين الطرفين المعنيين ، وذلك انطلاقاً من أن التحول المومي إليه مثل ، أيضاً ، عملية انتقال معقدة من عالمية محدودة مضيق عليها من قبل وهم «الشعب المختار المصطفى» الى عالمية «أومية» منفتحة رحبة . وإذا كان الأمر كذلك ، فإن اليهودية (وكذلك المسيحية) «حافظت على نفسها ليس رغماً عن التاريخ ، وإنما من خلاله»^(٢) ، ويفضله .

وإذن ، لم تكن العلاقة بين النسقين الدينيين علاقة «بحسب الجسد» ، جسد يسوع ، فقط ، كما سيعلم لاحقاً بولس ، عمود المسيحية الكنسية ؛ لقد كانت ، كذلك وجزئياً على الأقل ، بحسب البنية العقيدية الداخلية نفسها .

1) Karl Marx: Zur Judenfrage. In: Marx, Engels- Werke I, Dietz Verlag Berlin 1961, S. 376.

2) Karl Marx: Ebenda- S. 374.

بصيغة أخرى نقول : ان العلاقة المعنية كانت ذات طابع أقوامي (إذا اعتبرنا أن اليهود كانوا في مراحل متأخرة من تاريخهم يشكلون قوماً واحداً بدرجة أو بأخرى ، وكذلك إذا انطلقنا من وجود تاريخي لشخص يسوع المسيح الذي سيظهر في هذه الحال بصفته يهودياً) ؛ كما كانت ذات نسيج ايديولوجي ديني .

بيد أن وجهاً من أوجه الاعتراض والتحفظ لابد وأن يبرز على صيغة «العالمية الأمية المفتحة» للمسيحية ؛ ونحن لا نرى أن ذلك في غير محله . إذ سوف لن يكون دقيقاً ، لا من موقع البنية السوسولوجية الايديولوجية ولا من موقع السياق التاريخي والتراثي للمسيحية ، أن نرى في تلك «العالمية» صيغة شاملة ووحيدة الهيمنة في نطاقها (أي المسيحية) . هاهنا ، أيضاً ، نواجه ما واجهناه على صعيد اليهودية من تناقض بين موقفين متواترين متوازيين ومتداخلين ، وإن على نحو يغدو فيه - في مرحلة تاريخية لاحقة - أحد هذين الأخيرين الغالب والأكثر رجحاناً بالقياس إلى الآخر . ولابد أن نعلن أننا إذ نعالج المسألة المطروحة في ضوء ذلك المنظور ، فإننا نكون قد انطلقنا - من حيث الأساس - من البنية الاجالية العامة لكل من النسقين الدينيين المعنيين في هذه السطور . وهذا ، بدوره ، يتضمن القول بأننا ، إذ ذاك ، نصرف النظر عن تينك البينيين في مكوناتهما الخصوصية التفصيلية . ولعلنا نوضح ذلك ، من زاوية أخرى للمسألة ، فنقول أننا ، في الحالة الثانية ، نتناول ذينك النسقين من جهة أن الواحد منهما يمثل تموضعاً بنيوياً تاريخياً ، معلقين إلى حين - والحال كذلك - سياقه التراثي الاستمراري . من هذه الزاوية المنهجية ، نستطيع أن ننظر إلى الأناجيل المتعددة ، «القانونية» و«غير القانونية» apocrypha ، على أنها أحجار متعددة ومتنوعة ومتميزة في بناء واحد ؛ وكذا الأمر فيما يتصل بأسفار «العهد العتيق» .

إن «انجيل متى» يغدو ، ضمن ذلك النظر للمسألة ، انجيلاً مسيحياً ، شأنه في ذلك شأن الأناجيل الأخرى ، حتى وإن احتوى عناصر كثيرة ومفصلاً عنها مباشرة من اليهودية ، بحيث يقود ذلك إلى ما سيسمى في حين تال «المسيحية - اليهودية» ، أو حتى «النصرانية» في مرحلة متأخرة وباعتبار «الاسلامي» ، كما سنحدده في حينه ^(١) .

(١) إنطلاقاً من هذا الموقع ، يصبح غير دقيق أن نقول بأن «المسيحية هي مسيحية بولس ويوحنا» .

فإذا ما عدنا إلى مسألة «العالمية الأهمية المفتحة» ودققنا فيها ، كما تعلن عن نفسها في الانجيل المذكور ، واجهنا دعوة واضحة وحازمة إلى نبذ «الأمم» ، وإلى الاقتصار في التبشير على أوساط اليهود ، الذين سيعتبرون - في هذه الحال - أهل المسيح «بحسب الجسد» :

«ودعا تلاميذه الاثني عشر واعطاهم سلطانا على الأرواح النجسة . . . هؤلاء الاثنا عشر ارسلهم يسوع وأمرهم قائلا إلى طريق الأمم لا تتجهوا ومدن السامريين لا تدخلوا . بل انطلقوا بالخري إلى الخراف الضالة من آل اسرائيل»^(١) ؛
«... لم أرسل إلا إلى الخراف الضالة من بني اسرائيل»^(٢) .

ذلك الموقف «الاسرائيلي - اليهودي» سوف يجري التخلي عنه في سياق اضطراب الأحداث السياسية والدينية ، وملاحقة المسيحيين من قبل اليهود . وإذا ذاك ، يصبح الأمر في نصاب آخر : ليس اليهود ، الخراف الضالة ، هم المعنيين برسالة يسوع ، بل المعنيون بذلك هم نقيضهم ، أي أولئك «الآخرين - الغوييم» ، الذين نظر اليهود إليهم على أنهم النقيض القطعي والكامل لهم ، من حيث التكون «الإثني» والديني اللاهوتي :

«الحق أقول لكم إنني لم أجد مثل هذا الايمان في اسرائيل ، أقول لكم ان كثيرين يأتون من المشرق والمغرب . . . وأما بنو الملكوت فيلقون في الظلمة البرانية»^(٣) ؛

«لذلك أقول لكم ان ملكوت الله يُنزع منكم ويعطى لأمة

= (نلدره اليازجي : بحث في أصول العلاقة القائمة بين المسيحية واليهودية - ضمن مجلة «الكاتب العربي» ، دمشق تموز ١٩٨٢ ، ص ٢٤) .

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس متى ١٠/٥ .

(٢) نفس المصدر والمعطيات السابقة ، ٢٤/١٥ .

(٣) نفس المصدر والمعطيات السابقة ، ٨/١٠ - ١٢ .

تصنع ثمره» (١) ؛
وهكذا ، ف «اذهبوا الى العالم اجمع واكرزوا بالانجيل للخليفة
كلها» (٢) .

وجدير بالتنويه بأن النصوص ، التي نتعامل معها هنا وفي مواضع أخرى في
هذا المبحث ، لا يسعنا أن نأخذها على أنها منسجمة مع بعضها ، وعلى أنها تكون
وحدة متسقة بنيوياً وتاريخياً تراثياً . فإذا ما واجهنا نصوصاً متناقضة في سفر واحد أو
في انجيل واحد أو على مستوى عدة أنجيل ، فإن من شأن ذلك أن يعني أن هذه
الأخيرة أو ذاك الانجيل أو ذلك السفر لم يكتب أو تكتب من قبل مؤلف واحد ، أو
مجموعة واحدة أولاً ، وفي مرحلة تاريخية واحدة ثانياً . ومن هنا ، لم يكن مما يثير
الشك أو التساؤل أو الاحتجاج أننا واجهنا نصين متناقضين في انجيل متى . وهذا
الحكم يغدو أكثر وضوحاً ، حين نأخذ بعين الاعتبار العملية الموضوعية والذاتية
(الكتابية) المعقدة ، التي كان على المسيحية أن تمر بها كي تصل - بالصيغة البولسية
الحازمة - الى حدود التمايز بين الشخص وبين اليهودية (وسنأتي على هذه
المسألة ثانية في موضع آخر لاحق) .

وإذا عدنا إلى المسيحية وقدرتها على تمثّل النزوع «الأممي العالمي» المفتوح
والرحيب ، وعلى تقديم الحلول «المسيحية - الخلاصية» للمشكلات الكبرى
المعلقة ، استبان لنا أن تلك العملية نفسها ، الموضوعية والذاتية ، لا يمكن أن تُفهم
بمبادئها تجسيدا متكاملاً للتحويل من «محلية يهودية» إلى «عالمية مسيحية» فحسب ؛ إذ
إلى جانب ذلك ومن خلاله وبالتداخل فيه ، هنالك معطى آخر من شأنه أن يقدم
أدلة على القول بأن المسيحية ظلت - حتى في أكثر أشكالها المسيحية «نقاء» ، وهو
الشكل البولسي - تعلن عن انطوائها على عناصر واتجاهات يهودية . نقول ذلك ،
ونحن نرى أن تقديم الأدلة على وجوده يمكن أن ينطلق من «الكتاب المقدس»
نفسه . فبولس - ناهيك عن غيره ، من أمثال بطرس الذي يختلف عنه جزئياً بطبيعة
الحال - ظل يرى في اليهود إياهم البؤرة الحقيقية للمسيحية ؛ أي انه ظل ، باعتبار

(١) نفس المصدر والمعطيات السابقة ، ٤٣/٢١ .

(٢) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع للقديس مرقس ١٥/١٦ .

ما وبأفق ما ، ينطلق من أن القبلية (السُّبطية) اليهودية مثلت - عبر «الناموس» الذي حملت رأيته - الشرط العقيدي والتاريخي الضروري الذي يسبق المسيحية ، ويهيء لها ، ويستمر تراثياً فاعلاً فيها ، وكذلك الذي تجد فيه هي نفسها مسوغاتها ومشروعيتها التراثية .

إن ذلك التواصل التراثي بين كلا الدينين يعلن عن نفسه بوضوح عبر «النصوص المقدسة» . ونحن نرغب الآن في استنطاق هذه الأخيرة ، بغية ملاحظة المسألة المعنية في مظانها الأصلية ، أي في سياقها النصي الداخلي ، ومن ثم دون تحميلها (للمسألة) بعداً تحليلياً تأويلياً . يقول بولس ، أبو الكنيسة المسيحية ، كما تعتبره هذه نفسها :

«إن لي غماً شديداً ووجعاً في قلبي لا ينقطع ، ولقد وددت لو أكون أنا نفسي مُبْسَلاً عن المسيح من أجل اخوتي ذوي قرابتي بحسب الجسد ، الذين هم اسرايليون ولهم التبني والمجد والعهد والاشترac والعبادة والمواعيد ورؤساء الآباء ومنهم المسيح بحسب الجسد الذي هو على كل شيء إله مبارك مدى الدهور آمين» (١) .

وعلى ذلك ، فالتصور الخاص بـ «الشعب المختار المصطفى» ، شعب اليهود ، «شعب التبني والمجد والعهد والاشترac والعبادة والمواعيد» ، أي شعب المسيح بحسب الجسد وبحسب التبني والمجد الخ . . . إن هذا التصور لم يفارق المسيحية بحال من الأحوال ؛ بل على العكس من ذلك ، فلقد وجدناه موروثاً مباركاً لها ، مكتسباً - من هذا الموقع - شخصية «الأمة المقدسة» . وهذا ما نواجهه معلناً بوضوح على لسان يسوع المسيح ، حيث يؤكد في انجيل متى الذي كان - برأي بعض الباحثين كما سيأتي معنا لاحقاً وفي حينه - أول انجيل حرر ، بأنه (أي المسيح) لم يأت لينقض الناموس اليهودي ، وإنما ليكمله ويستكمله (٢) .

(١) نفس المصدر السابق - رسالة القديس بولس إلى أهل رومية ٩/٢-٥ .

(٢) «لا تظنوا أنني أتيت لأحل الناموس والأنبياء اني لم آت لأحل لكن لأتمم . الحق أقول لكم انه الى أن تزول السماء والأرض لا تزول ياء أو نقطة واحدة من الناموس حتى يتم الكل» . (نفس المصدر السابق - انجيل ربنا يسوع للقديس متى ٥/١٧-١٨) .

بيد أننا إن أعلنّا أن التعبير الذهني الديني للمسيحية لم يخرج عن دائرة النظر اليهودية (ربما مع استثناء يوحنا في إنجيله) ، فإن الحركة المسيحية، في بُعدها البشري الاجتماعي المشخص، تجاوزت تلك الدائرة وسبقتها ، وفرضت ، من ثم ، وضعية جديدة على صعيد الايمان الديني في أوساط الجماهير المؤمنة من عبيد وفلاحين ، بصورة مخصصة ورئيسية . وهذا ، بدوره ، يدعو للقول بأن الوجه الشعبي التطبيقي من الدين المعني غالباً ما كان يسبق وجهه النظري قوة وتشعباً وفاعلية ، ويتدخل ، بنحو أو آخر ، في بنائه النصّي الداخلي (١) .

ونلاحظ الأمر ذاته في الدين الاسلامي المحمدي ؛ طبعاً مع الأخذ بعين الاعتبار التمايز في الصيغ والمعطيات والدلالات والوظائف ، الذي نواجهه على صعيد الدين الجديد المنوه به ، بالقياس الى الدينين السابقين عليه . فإذا كانت المسيحية قد أعلنت ، في حينه ، أنها الوريث الشرعي للناموس اليهودي ، على نحو ما واجهناه - خصوصاً - في مسألة «الأمة المقدسة» ، فإن الدين الاسلامي سار على طريق مماثل ، من حيث الأساس العام المعني في هذا السياق من البحث : إن التناقض المنوه به سابقاً بين «عالمية أممية» مفتوحة و «محلية أقوامية دينية» مغلقة ، نستطيع استجلاءه بسهولة في ذلك الدين . فإذا يعلن هذا الأخير (الاسلام) نفسه وريثاً لما سبقه من أديان (٢) ، فإنه لا يجد نفسه بعيداً عن عدم الاتساق والمفارقة حين ينطلق من الله «رباً للعالمين» جمعاء ، رباً «للمستضعفين في الأرض كلها» (٣) ،

(١) هذه الوضعية ، التي نلاحظها في حركات فكرية عديدة في التاريخ العالمي ، ربما وجدت تعبيراً عنها فيما كتبه غوستاف لوبون في كتابه (حياة الحفائق - ترجمة عادل زعير ، مطبعة دار إحياء الكتب العربية لأصحابها عيسى البابي الحلبي وشركاه ، الطبعة الأولى ١٩٤٩ ، ص ٣٣) : «ولا تلبث الشعائر المشتقة من العقائد أن تكتسب قوة أعلى من قوة العقائد نفسها ، فالعقائد قد تُجهل أو يُنسى فيها ، ولكن الشعائر تحترم على الدوام» .

(٢) «إن هذا في الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى» . (قرآن - سورة الأعلى ١٧-١٨) ؛ «نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل» . (القرآن - سورة آل عمران ٢) .

(٣) «الحمد لله رب العالمين» . (قرآن - سورة فاتحة الكتاب ١) ؛ «ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين» . (قرآن - سورة القصص ٤) .

وجين يعلن - في الوقت نفسه - خطابه التالي بلسان القرآن وموجهاً للعرب : «كتم خير أمة أخرجت للناس» (١) . ان تصور «الشعب المختار» أو «الأمة المقدسة» أو «الأمة الأخير» يمثل ، والحال على ذلك النحو المطروح ، ناظماً مشتركاً بين البنيات الداخلية لتلك الأديان «الساوية» الثلاثة ؛ هذا بالإضافة إلى أنه (أي التصور المذكور) ظهر ، أيضاً وبصيغة إرهابية أولية ، في الذهنية الاسطورية لعالم الشرق العربي القديم ، مما يجعلنا نلاحظ عملية التطور الذهني في هذا الأخير وقد انتظمت في خط من التواصل التراثي بين تلك الأديان مجتمعة من طرف ، وبين ما سبقها من مظاهر ذهنية اسطورية من طرف آخر . (وسوف تواجه مسألة التواصل التراثي هذا في اسبقة أخرى لاحقة من هذا البحث) . ولا بد من القول بأن ذلك الحكم لا يجوز أن يقود إلى تغييب نسبة الموقف المعلن عنه في الأطراف الثلاثة تلك ؛ كما لا يجوز ، من جهة أخرى وبمنس القدر من الأهمية المنهجية والنظرية ، أن يؤدي إلى التفريط بالخصوصيات الكبرى والهامات التي تنطوي عليها هذه الأخيرة ، والتي تجعل منها ماهي عليه مفردة ، أي بمثابقتها انساقاً دينية متبايزة متباينة عن بعضها بعضاً ، بهذا القدر أو ذاك وضمن هذه الاحتمالات والأفاق أو تلك .

وإذا بقينا في حدود ذلك «الناظم المشترك» بين بنيات الأديان المنوه بها ، وجدنا أن تصورات «الشعب المختار أو المصطفى» و «الأمة المقدسة» و «الأمة الأخير» - وهي تصورات ينطوي الأول والثالث منها على توجه جنسي (عرقى) ضماني أو مفصح عنه ، كما يحتمل الثاني منها وجود مثل هذا التوجه - توازيها وتتداخل فيها عناصر من النزعة الدينية التأمية . ومن خصائص هذه النزعة أنها تتفق ، دون صعوبة كبرى ، عن وجه من أوجه التمرکز على الذات والانغلاق بما قد ينشأ عنه ، في ظروف خاصة مناسبة ، من تعصب وتزمت وعدائية إزاء «الأغيار» ؛ مع التحفظ التالي ذي الطابع الخصوصي ، وهو أن اليهودية - كما هي مقدمة في «العهد العتيق» - برزت ، هنا ، الدينين الآخرين بصيغ نوعية مثيرة تبلغ حدود الهمجية المدمرة :

(١) القرآن - سورة آل عمران ١١٠ .

«... سبع أمم أعظم وأكثر منك... اسلمهم الرب الهك بين يديك
وضربتهم فأبسلهم أبسالاً . لا تقطع معهم عهداً ولا تأخذك بهم رافة . ولا
تصاهرهم ابنتك لا تعطها لابنه وابنته لا تأخذها لابنتك . . . تنقضون
مذابحهم وتكسرون انصابهم وتقطعون غاباتهم وتحرقون تماثيلهم
بالنار» (١) . ولم ذلك ؟ «لأنك شعب مقدس للرب الهك وإياك
اصطفى» (٢) .

والمسيحية ، التي تلح في أحد توجهاتها على تصور «التكميل للناموس
اليهودي» ، تلجأ ، من طرف آخر ، الى تقديم المسيح على أنه ، بعد إذ أتى ،
اصبح الكل بالكل (٣) . وبذلك ، فهي تنفي احتمال مجيء نبي أو دين آخر :
«فذاك الذي نزل هو الذي صعد أيضاً فوق السماوات ليملأ كل
شيء» ، من حيث هو «ابن الله» (٤) .

وإذا كان المسيح يسوع هو ابن الله ، الذي يملأ كل شيء ، فإذن لنندع ،
«كلام البداة في المسيح ولنأت الى الكمال . . .» (٥) .

ولكن ما العمل ، وقد ظهر أنه بالرغم من نفي ولادة أنبياء مخلصين جدد بعد
المسيح ، أعلن عن ولادة النبي محمد ، الذي ستكون له - عبر «كتاب الله» - قدرة

(١) الكتاب المقدس - سفر تثنية الاشتراع ١٧ / ٣-٥ .

(٢) نفس المصدر والمعطيات السابقة - ٦ / ٧ .

(٣) نغض النظر ، هنا ، عن التصور الانجيلي الذي يمنح المسيح بعداً كونياً مطلقاً في القبل والبعد
وما بينها ، بحيث يغدو الكون نفسه تعبيراً ذاتياً عنه ، كما يغدو نفسه تعبيراً عن الكون ؛ ومن
ثم ، يصبح الأمر منوطاً بعلاقة متضايقة بين ذات تتحول موضوعاً وموضوع يتحول ذاتاً :

«هو المبدأ البكر من بين الأموات لكي يكون هو الأول في كل شيء» . (الكتاب

المقدس - رسالة القديس بولس إلى أهل كورنثي ١ / ١٨) ؛ «إن يسوع المسيح هو هو أمس

واليوم وإلى مدى الدهر» . (الكتاب المقدس - رسالة القديس بولس إلى العبرانيين

٨ / ١٣) .

(٤) الكتاب المقدس - رسالة القديس بولس إلى أهل أفسس ٤ / ١٠ ، ١٣ .

(٥) الكتاب المقدس - رسالة القديس بولس إلى العبرانيين ٦ / ١ .

نافذة هائلة على الخلاص والتخليص تفوق قدرة المسيح وتتجاوزها !؟^(١) لقد ظهر محمد ليؤكد ، كما أكد سلفه ، أن الأبواب قد أوصدت ، أخيراً ، أمام نبوات جديدة بعده :

«ما كان محمد أباً أحداً من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين»^(٢) .
وليس من شأن هذا الأمر أن يتوقف هنا ، أي في نطاق ما يبدو حداً أقصى له ؛ ذلك لأن اتجاه التمرکز على الذات والانغلاق والشعور بالاكتمال الذاتي لا يظهر أفاقاً فقط ، بل في العمق ، كذلك أو من حيث الأساس . فخاتم النبوة هو استمرار النبوات السابقة ، كما هو شيء أعظم في ذاته . ذلك أنه إذا كان الاسلام هو الحركة الدينية الممتدة من ابراهيم الى محمد^(٣) ، فإن نهاية هذه الأخيرة هي ، أيضاً ، قمتها . أما هذه القمة فهي الحركة المحمدية ، أي الاسلام المحمدي نفسه ، الذي ولد في القرن السابع .

(١) في هذا السياق من مواجهة الموقف ، ليس ذا أهمية أن نذكر بالنبوة التي يطلقها يسوع ، حسب ما ورد في «انجيل برنابا» ؛ ذلك لأن هذا الأخير ينظر إليه في - أوساط المسيحية الرسمية - من حيث الأساس - بعين الارتياح والشك وعلى أنه خارج دائرة الانجيل والنصوص «القانونية» . فقد جاء في الانجيل المذكور ما يلي :

«حينئذ قال يسوع : أيها الاخوة إن سبق الاصطفاء لسر عظيم حتى إنني أقول لكم الحق أنه لا يعلمه جلياً الا انسان واحد فقط وهو الذي تتطلع إليه الأمم الذي تنجلي له أسرار الله تجلياً فطوياً للذين سيصيحون السمع الى كلامه متى جاء الى العالم لأن الله سيظلمهم كما تظلمنا هذه النخلة بلى إنه كما تقينا هذه الشجرة حرارة الشمس المتلظية هكذا تقي رحمة الله المؤمنين بذلك الاسم من الشيطان .

أجاب التلاميذ : يا معلم من عسى أن يكون ذلك الرجل الذي تتكلم عنه الذي سيأتي الى العالم ؟ أجاب يسوع بابتهاج قلب : انه محمد رسول .. الله . (انجيل برنابا - ترجمه عن الانكليزية الدكتور خليل سعاده ، مع مقدمة الناشر السيد محمد رشيد رضا ، طبع على نفقة مطبعة المنار ، القاهرة ١٩٠٨ ، الطبعة الصادرة عام ١٩٥٨ ، ٨٣/١٦٣) .

(٢) القرآن - سورة الأحزاب ٤٠ .

(٣) «قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه . . .» (القرآن - سورة آل عمران ٨٤-٨٥) .

هاهنا يبرز امران اثنان يوضحان ما نحن في صدد معالجته . الأمر الأول -
وقد كنا واجهناه من قبل في سياق آخر - يقوم على الاقرار الضمني والمفصح عنه
بتاريخية تراثية ضمنية للاسلام ، بحيث يعني ذلك أن ما أتى به محمد لا يخرج عن
أن يكون امتداداً لما سبقه . أما الأمر الثاني فيعلن عن نفسه عبر تصور التمام الكلي ،
الذي تبلغه تلك الحركة الدينية في شخص حلقتها الدينية المحمدية . وهنا ، في هذه
الحلقة المفصلية ، تلتقي الصيغة الأفقية للاتجاه المحمدي نحو التمرکز على الذات
بصيغته العمقية ، إذ نراه يعلن بلسان ممثله محمد :
«أنا سيد ولدِ (آدم) ولا فخر» (١) .

أما هذه الأفضلية في السيادة على بني آدم فيشرحها ابن الديبع الشيباني
الشافعي في نفس المكان ، حيث يقول : انها «تفضيله - صلى الله عليه وسلم - على
جميع النبيين والمرسلين» (٢) .

هكذا إذن ، إذا كان الأمر على ذلك النحو ، إذا كان قائماً على التناقض بين
العالمية (الكونية) للاله وبين «الشعب المختار المصطفى» أو «الأمة المقدسة» أو «الأمة
الأخيرة» أولاً ، وعلى النزعة التامة بصيغة التمرکز على الذات والانغلاق ثانياً ، فإننا
حالئذ ، نستطيع أن نستنبط خطأً ناعلاً آخر بين الأديان الثلاثة المعنية هنا ؛ ذلك هو
أحادية البعد في الرؤية التاريخية ؛ حيث يجري النظر الى التاريخ على أنه ذو نسق
واحد ، وذو هدف واحد يتحقق عبر تسنم أحد تلك الأديان سדרه المنتهى
القصوى . وجدير بالقول أن هذا الناظم يغدو مفهوماً بذاته ، حالما نذكر بالمصدر
الأكبر الذي تنطلق منه هذه الأديان جميعاً ، وهو الوحي ؛ بغض النظر عن
التجليات والصيغ التي يظهر بها هذا الأخير في كل من تلك منفردة .

إن الوضعية المآتي عليها هي ، كما يتضح من مساق المعالجة ، نموذجية
الطابع على صعيد الذهنية الدينية المنسقة المنظمة ؛ نعني بذلك الذهنية

(١) ابن الديبع الشيباني (وجيه الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد) : حداثق الأنوار ومطالع
الاسرار في سيرة النبي المختار صلى الله عليه وسلم وعلى آله المصطفين الأخيار - في قسمين ، حققه
عبد الله ابراهيم الأنصاري ، أشرف على طبعه يحيى عباره ، طبع على نفقة صاحب السمو الشيخ
خليفة بن حمد آل ثاني أمير دولة قطر ، القسم الأول دمشق ١٩٧٩ ، ص ١٧٧ .
(٢) نفس المرجع والمعطيات السابقة .

اللاهوتية ^(١) . فهذه الأخيرة تطرح المسألة الخاضعة لمبضع البحث هنا ، بلسان ممثليها من لاهوتيين وفقهاء ، على النحو النموذجي القطعي التالي : هنالك ديانة واحدة تتحقق فيها الآن ، أي بعد أن تعاقبت الأديان المختلفة ، شرائط التمام الديني الإلهي ، بحيث ينصهر في هذا «الآن» «القبل» و «البعْد» بصيغة قطعية مثلى . أما ما عداها (يعني ما سبقها وليس بحال ما أعقبها أو ما يمكن أن يعقبها لأن الاعتراف محصور بالسابق وليس بما يمكن أن يكون لاحقاً) ^(٢) فليس في متسع أن يظهر أكثر من كونه خطوة على الطريق إلى ذلك «التمام» . ومن هذا الموقع ، بالضبط ، تتمزق عناصر التاريخية التراثية ، التي واجهناها في المسيحية والإسلام بصيغة إرهاصات أولى جادة وواحدة ، لتتحول - والحال على ذلك النحو - إلى لحظات ما وراثية (ميتافيزيقية) - لا تاريخية لا تراثية ؛ وهذه من شأنها أن تُضفي على دينك الدينين شخصيتين متفردتين تفرداً قائماً على التام والكمال ، ومن ثم على الاكتفاء الذاتي ، إضافة إلى عناصر محتملة من التعصب والتزمت يمكن - في ظروف معينة مناسبة - أن

(١) إذا كان الحديث يدور ، في هذا المجال ، على تلك الأديان المنسقة المنظمة ، فإنه ليس من شأن ذلك أن يقود إلى الاعتقاد بوجود قطيعة أيديولوجية (دينية) بينها وبين ما سبقها من المظاهر الدينية أو الأسطورية في الشرق العربي القديم . في هذه الحال ، ينبغي ألا يغيب عن ذهن المؤرخ الباحث النموذج البارز الذي تقدمه ، مثلاً ، الأسطورية الإيلية الكنعانية . فهنا ، نواجه «إيل» رباً للأرباب ، وخالق المخلوقات ، أبدياً وأباً للبشرية والآلهة جميعاً ، بحيث لا نستطيع إلا أن نقر بوجود شكل من أشكال النزوع إلى الواحدية الأحدية . وهو ، إلى ذلك ورغم ذلك ، يظل يمثل على نحو خاص «الها للشعب المختار» ، «شعب إيل» الكنعاني . رعد كنا ، فيما سبق ، قد أشرنا إلى خط التواصل التراثي بين الذهنية الأسطورية في الشرق العربي عامة وبين الأديان المنسقة المنظمة ، التي نحن في صدد البحث فيها الآن ، على صعيد تصور «الأمة المقدسة الخ . . .» . انظر حول ذلك : اللآلئ - من النصوص الكنعانية ، بقلم كبير كهنة أوغاريت إيلي ميلكو (عن : «التوراة الكنعانية» للعالم هـ . ي . ديل ميديكو - نقلها إلى العربية مع تعليق مفيد عنونوق، منشورات مجلة فكر ، الطبعة الأولى ١٩٨٠ ، دون ذكر مكان النشر . يحال إلى الفصلين الأول والثالث) .

(٢) ذلك لأن «اللاحق» لا يمكن أن يرقى إلى «السابق» . وقد عبر عن ذلك محمد في حديث له قائلاً : «خير القرون القرن الذي أنتم فيه ، ثم الذي يليه ، ثم الذي يليه» . (عن : البرت حوراني - الفكر العربي في عصر النهضة ، بيروت ١٩٧٧ ، ص ١٩) .

تنفجر ضد «الآخرين» من «هراطقة» و «كفار» بالنسبة إلى المسيحية والاسلام ،
وضد «الغوييم» ، أي كل ما لا يدخل في حيز اليهودي بالنسبة إلى يهودية «العهد
العتيق» بصورة عامة مجملة (١) .

(١) إن تصور التام والكمال والاكتفاء الذاتي هذا نتيجه على صعيد اليهودية ومن موقع الدمج بين
الإثني الأقوامي والديني المقدس ، فيما كتبه موشيه ليلنبلوم . فعلى هذا الصعيد ، نقرأ مايلي :
«إن الأمة كلها هي أعز علينا من كل التقسيمات المتصلة المتعلقة بالأمور الأرثوذكسية الليبرالية في
الدين . عندما يتعلق الأمر بالأمة يجب أن تحتفي الطائفية . . . فلا مؤمنون ولا كفار ، بل الجميع
أبناء ابراهيم واسحق ويعقوب . . . لأننا كلنا مقدسون ، سواء كنا غير مؤمنين أو أرثوذكسيين» .
(أرثر هرتزبرج : الفكرة الصهيونية - تحليل تاريخي ومختارات ، ترجمة لطفي العابد وموسى عتر ،
إشراف الدكتور أنيس ضايغ وتعريف أسعد رزوق ، بيروت ، منظمة التحرير الفلسطينية ،
مركز الأبحاث ١٩٧٠ ، ص ٧١) .

أما في إطار المسيحية ، فإننا نقرأ النموذج التالي من التصور المعني بقلم أحد الآباء
المسيحيين ، وذلك في معرض نقده لأحد الكتاب المسيحيين : «ليست المسيحية كنعانية أو فينيقية
أو عربية أو يونانية أو يهودية . . . هذه شقشقة . وليست المسيحية ثورة قومية اجتماعية . .
وليست حرب طبقات . . هي أرفع من هذا كله» . (اسبيروجبور : رد على أبحاث حول العلاقة
بين المسيحية واليهودية - مجلة «الكاتب العربي» ، فصلية تصدر عن الاتحاد العام للأدباء والكتاب
العرب ، دمشق ، العدد الرابع ١٩٨٢ ، عدد خاص ، ص ١٢٥) .

وإذا ما انتقلنا إلى المستوى الاسلامي المحمدي من المسألة المناقشة هنا ، فإننا نواجه مثل
ذلك الموقف القطعي (والاستعلائي) ممن يتخذ التصور المأتمني عليه فوق . فعلى سبيل المثال ، نقرأ
ما يعلنه محمد ظافر القاسمي رداً على ما طرحه المطران جورج خضر للمناقشة تحت اسم
«القصص القرآني المتعلق بمولد المسيح وطفولته» : «ليس في القرآن قصص عن المسيح ، في
القرآن كلمة حق» . وجدير بالذكر ان القاسمي قال ذلك في سياق نقد تعصبي للأنجيل
المسيحية . وقد لقي رداً ذا دلالة عميقة من قبل الياس خوري ، الذي قال : «اليوم شهدنا نموذجاً
على عدم الاعتراف (بالآخرين) ، فحين تستخدم كلمة القصص كما وردت في نص خضر ، فإنها
تفسر بوصفها مساساً بالوحي وتخلف مشكلة فكرية . كأنه من غير المسموح مناقشة بعض
المسائل ، ومن المسموح به مناقشة مسائل أخرى تمس عقائد الآخرين» . (ورد نقد القاسمي على
ص ٩٨ ، ونقد خوري على ص ١٠٢ ، ومحاضرة المطران جورج خضر بعنوان «المسيحية العربية
والغرب» على ص ٨١-٩٧ من كتاب : دراسات ومناقشات - المسيحيون العرب ، مجموعة من
المحاضرين والمناقشين ، مؤسسة الأبحاث العربية ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٨١) .

وإذا ما أجبنا النظر ، ثانية ، فيما أعلناه ، في موضع سابق ، من أن التناقض بين « العالمية » و « المحلية » وبين « الأهمية » و « السببية » لم يجد حلاً له في اليهودية وإنما وجدته في شخص بديلها التاريخي التراثي الكبير ، المسيحية ، فإننا ، أنشد ، سوف نلقى أنفسنا مدعوين الى وضع هذا الرأي نفسه في سياقه من العملية التاريخية التراثية النسبية . أما هذا السياق فيعني ، ضمن ما يعنيه ، تناول الأديان الثلاثة إياها على أنها تشكل بنية واحدة بأنساق ثلاثة .

ان تشديدنا على هذا الأمر يتأتى من المعطى التاريخي التراثي التالي ، وهو أنه حين جرى انتقال من النسق الأول (اليهودية) الى النسق الثاني (المسيحية) ، ثم من هذا الأخير الى النسق الثالث (الاسلام) ، فإن البنية الدينية لهذه الأنساق ، جميعاً ومجتمعة ، ظلت محافظة على الناظم المشترك بينها . أما أن يفهم من قولنا بنية دينية واحدة وبأنساق ثلاثة لهذه البنية أنه يؤدي الى تغييب للحدود الفاصلة بين تلك الأنساق أو إلى إضعافها ، فإن هذا خلف منطقي ومكابرة إزاء الواقع المشخص . إذ من موقع التواصل والتفاصيل التاريخيين التراثيين ، تبرز أمامنا ليس الوحدة التراثية للأنساق المعنية فقط ، بل كذلك تمايزها وتباينها على أساس الخصوصيات التي تحكمها ، وتعلن عن شخوصها ، وتجعل منها بنيات متجاوزة تاريخياً .



إشكالية العلاقة بين «الشرق» و «الدين» : بين الجغرافية والدين ، وبين الاقتصاد والدين

أ

في معرض البحث - كائناً ما كان شكل هذا البحث - في الأديان الثلاثة ، اليهودية والمسيحية والاسلام ، يلاحظ المدقق أن ثمة أمراً فرض نفسه في أوساط معظم الباحثين في تاريخ الأديان أو في سوسيولوجيا الدين أو في سيكولوجيته الخ . . . (ناهيك عن اللاهوتيين والمؤمنين) ، وذلك الى درجة من القوة بحيث غدا يمثل قاسماً مشتركاً بين هؤلاء وواحداً من أوجه «مادة البحث» المتعلقة بنشاطهم الدراسي ؛ نغني بذلك بروز «الشرق» بمثابته «مهبط الأديان السماوية» تخصيصاً . ويقصد بهذه الأخيرة ، عادة وكما يظهر من الطروح التي يقدمها حول ذلك اولئك ، الأديان الثلاثة التي أتينا على ذكرها . وإذا كان جل الباحثين قد أخذوا بهذه الأطروحة ، إلا أنهم رغم ذلك اختلفوا وتمايزوا في النظر إليها من مواقع دلالاتها ووظائفها التاريخية والاجتماعية الاقتصادية والايديولوجية . والأمر تجاوز هؤلاء الباحثين ، ليتحول الى معطى مقرب به على صعيد الوعي الشعبي العام في معظم بلدان «الشرق» . فلقد كتب رائد النهضة الحديثة في مصر (وربما كذلك في العالم العربي عموماً) رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣) ، معبراً عن ذلك الوعي . حدث هذا بعد عودته من اوربا (فرنسا) ، أي بعد اكتشافه لـ «الغرب» اجتماعياً وسياسياً وصناعياً ، وكذلك دينياً . فهو يعلن «أن بلاد اوربا أغلبها نصارى ، وبلاد الدولة العلية هي بلاد الاسلام بهذه القطعة ، وأما بلاد آسيا فلإنها منبع بلاد الاسلام ، بل وسائر الأديان وهي أوطان الانبياء والمرسلين وبها نزلت سائر الكتب السماوية وهي تتضمن أشرف الأماكن والأرض المباركة والمساجد التي لا تشد

الرحال إلا إليها» (١) .

فآسيا هي ، بحسب الطهطاوي المكان المقدس الذي فيه «نزلت سائر الكتب السماوية» . ولعل آسيا كانت تعني عنده حصيلة الشرق ، الذي «تشرق منه الحكمة السماوية» . وعلى صعيد بلد شرقي آخر غير مصر ، يكتب أحد الأتراك (الشرقيين) مؤكداً على الصلة الداخلية الضرورية بين الشرق والدين ، من حيث هو كذلك : « ان الشرق منشأ الأديان . ونحن الشرقيين كنا عمالاً للدين ولنا به علائق حسنة فعالة» (٢) . ويعلن شرقي عربي ، هو أنور الجندي ، ان الرسائل السماوية من ابراهيم الى محمد لها دلالات خاصة تتصل بالتاريخ العربي والأمة العربية والأرض العربية ، بحيث تغدو حصيلة هذا الثالث مجتمعاً ، أي ان الكاتب يختزل الشرق بـ «العرب» : «كان نبي الله ابراهيم علامة على المرحلة التي بدأت به ونختمت برسول الله محمد وكان علامة على المنطقة والأمة وأرض الأديان . ولا ريب ان دين ابراهيم والأنبياء من أبنائه جميعاً كانوا يحملون أصول الفكر الانساني المنزل من السماء . . هذا الفكر الذي تبلور من بعد في صورة عالمية - بعد أن كانت قومية - وفي صورة كاملة ، في الاسلام خاتم الرسائل السماوية . .» (٣) .

والتأكيد على تلك الأطروحة «الدينية الشرقية» نلقاه أيضاً ، بنفس الحماسة وإن من مدخل آخر ، لدى كتاب غربيين . فهنا نواجهها وقد تحولت الى تأكيد على أن المسيحية وان انتشرت في الغرب ، فإن حصنها الحصين يبقى كامناً في الشرق . هذا الرأي نلقاه لدى فرانك كراين ، الذي يقدمه الشرقي (العربي) الارشمندريت انطونيوس بشير ، بمثابته «فيلسوف امريكا وانضج فكر في هذا العصر» (٤) . يقول

(١) محمود فهمي حجازي : أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي ، مع النص الكامل لكتابه وتخليص الابريز - دراسة وتعليق ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ ، ص ١٥٧ .

(٢) لطفلي ليفونيان : مكتبة الاخلاقيات الدينية ، الكتاب الأول (ماهو الدين) ، ترجم عن التركية بعناية المطبعة الاميركانية - بيروت ١٩٢٩ ، ص ٢٣ .

(٣) أنور الجندي : التفسير الاسلامي للفكر البشري - الاسلام والفلسفات القديمة ، دار الاعتصام (دون ذكر لمكان النشر) ، ١٩٧٧ ، ص ٢٣ .

(٤) فرانك كراين : لماذا أنا مسيحي - عربي بتصرف قليل الارشمندريت انطونيوس بشير ، مصر ١٩٢٦ (كلمة العرب ص ٥) .

الفيلسوف المذكور : «وفي عقيدتي أن المسيحية ستصادف انتصاراً اعظم في الشرق مما صادفت في الغرب . ذلك لأنها لن يقضى عليها أن تغوص في أوحال المجادلات العقيمة التي غاصت فيها في العالم الغربي ، لأن هذه الخصومات لا تبلغ الى الشرق إلا ضعيفة ممزقة كل ممزق» (١) .

لم الأمر على هذا النحو ؟ هل الدين مقترن جغرافياً بـ «الشرق» ، وهل الشرق هذا مقترن ايديولوجياً بـ «الدين» ؟ من البين الواضح أن الاجابة بـ «نعم» تكمن في ذلك النسق من الفهم الايديولوجي للمسألة المعنية ، فإذا وصلت المسيحية الى الشرق بعيدة عن المباحثات والمجادلات «العقيمة» فإنما هي تصل الى «نبتها» الأصلي ، الذي ليس من شأنه وطبيعته ، من حيث هو كذلك ، أن يرتكن إلى «الحوار» و «الخصومة الفكرية أو الدينية» . وإذا ما تقصينا الأمر بمزيد من التدقيق والتعميق ، وجدنا من الكتاب والباحثين والأدباء والسياسيين «الشرقيين» من يرى ذلك الرأي بمثابته تحديداً لـ «واقع الحال الشرقي» المستعصي على التقدم والتطور ، وضبطاً منهجياً عاماً له . فميشائيل نعيمة يكتب ، من موقع هذه الرؤية ، مقارناً بين الشرق والغرب : «ان الشرق يستسلم لقوة اكبر منه فلا يحاربها والغرب يعتقد بقوته ويحارب بها بكل قوة . والشرق يرى الخليفة كاملة لأنها صنع الاله الكامل . والغرب يرى فيها كثيراً من النقص ويسعى لتحسينها . الشرق يقول مع محمد : (قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا) . ويصلي مع عيسى : (لتكن مشيتك) . . أما الغرب فيقول : (لتكن مشيتي)» (٢) .

وينقل انطون سعادة قولاً لوالده الدكتور خليل سعادة ، مثبتاً إياه بعد التقديم التالي : «وكم يخالف هذا التفكير السطحي (أي تفكير نعيمه) المتمركز في تحديد التصور بالأمر الواقع ، رأي الدكتور خليل سعادة في روحية الشرق الدينية» (٣) . أما قول خليل سعادة المعني فهو التالي : «الدين في الشرقي قطعة من

(١) نفس المرجع والمعطيات السابقة - ص ٢٨٣ .

(٢) ورد هذا النص في : انطون سعادة - المحاضرات العشر ١٩٤٨ ، سلسلة النظام الجديد ، منشورات عمدة الثقافة في الحزب السوري القومي الاجتماعي ، دون ذكر لمكان النشر وتاريخه ، ص 128 .

(٣) نفس المرجع والمعطيات السابقة - ص 127 .

حياته . فهو يحسب الحياة وسيلة لتشريف الدين (تقوى الله والفناء الروحي في وحدة الوجود) لا الدين وسيلة لتشريف الحياة والسمو بها . . . »^(١) .

وبذلك ، نكون أمام نصّين يكرسان الرأي بأن الشرق متدين ، في أساسه وفي أصوله ؛ وهو ، من ثم ، متخلف عن «الآخر» - الذي يعني هنا الغرب - أولاً ، أو متميز ومختلف عنه في الدين في الحالة الثانية . ولما كان الدين «منفرزاً» في جلد الشرقي ، فإن هذا الأخير سيبقى كذلك ، أي مستسلماً ، متواكلاً ، خاملاً ، ينظر إلى الحياة من منظور الدين وليس إلى الدين من منظور الحياة . ومن طريف الأمر ان نستكمل اللوحة بالموقف الذي اتخذته انطون سعادة رداً على ميخائيل نعيمة ، وموافقةً على الشق الثاني من الأطروحة التي قدمها والده (خليل سعادة) . بيد أنه إذ يفعل ذلك ، فإنه يفعل من موقع الاستنكار والرفض لما اعلنه نعيمة من «جمود شرقي» مقترن ، أصلاً ، بالأديان السماوية ، وفي ضوء الاقرار بأن الأديان مهبط الشرق بسبب من «علة طبيعية» ، على الأرجح : «وهذا كلام إذا أزلت منه زخرف التعبير الأدبي الشعري لم تجد فيه حقيقة واحدة غير جهل شؤون الحياة وتطورها منذ ظهر الانسان على مسرح الطبيعة وجهل التاريخ وفلسفته . فالشرق ، لعلة طبيعية على الأرجح ، حاول من قبل (تحسين الخليفة) . وقد (حسنّت) الأديان الخليفة تحسیناً كبيراً ، ولا شك . ولكنها عصت كل تحسين جديد نشأ بعد احكامها . . . »^(٢)

ان تلك المواقف والآراء (ربما باستثناء جزئي لرأي انطون سعادة) كنا قد واجهناها - في واحد من أصولها الرئيسية الكبرى - بصيغة المركزية الاوربية ، التي كان هيجل ورينان على رأس من بلورها تاريخياً وفلسفياً . يكفي أن نورد بعض ما قاله هيجل في هذا الشأن ، لكي نتبين أسس ذلك الرأي : ان العرب - وهم أحد شعوب الشرق - «لم يطرحوا أي مبدأ أعلى ، حق ، للعقل الواعي لذاته ، وبالتالي ، لم يدفعوا بالفلسفة إلى الأمام» . أما السبب الكامن وراء ذلك فيعود إلى

(١) نفس المرجع والمعطيات السابقة .

(٢) نفس المرجع والمعطيات السابقة - ص 129 .

أنهم لا يعرفون «مبدأ آخر ، سوى الوعي ، أي لا يعرفون سوى المبدأ الخارجي»^(١) .

لسنا ، الآن ، في معرض مناقشة ذلك الموقف المركب بدلالته المركزية الأوروبية . إلا أننا ونحن نعالج الاطروحة «الدينية الشرقية» ، التي ليس من الضروري أو في الغالب أن تقود إلى مركزية أوروبية (أو شرقية - وهي الوجه الآخر من تلك) ، لا يسعنا تجاهل واحد من أوجه المسألة الخاضعة للبحث ؛ ذلك هو الحضور التاريخي الكثيف والملاحظ للظاهرة الدينية عموماً في الشرق ، ولتجلياتها «السمائية» اليهودية والمسيحية والإسلامية ، على نحو مخصص . هذا أمر لا سبيل إلى الشك فيه ، وذلك إلى الدرجة التي نجمل للبعض فيها أن الدين ، فعلاً ، يمثل «خصوصية شرقية» ، وأنه ، ومن ثم ، يقدم المفتاح المنهجي لدراسة الشرق وفهمه في بنياته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والروحية ، وكذلك الثانية .

إن تلك الوضعية ، مجتمعة ومعقدة ، هي التي حدثت بماركس أن يطرح السؤال (التساؤل) المنهجي النظري التالي : «لماذا يظهر تاريخ الشرق بمثابة تاريخاً للدين ؟»^(٢) . إن البحث في المسألة ، بأصولها التاريخية والتراثية وبأسسها البنيوية الداخلية ، هو وحده القادر على الإجابة عن ذلك التساؤل الإشكالي . ومن هنا ، كذلك ، يغدو غير صحيح أن تُتزع تلك الوضعية من سياقها التاريخي المشخص ، أي من الظروف المركبة التي أوصل إهمالها المركزيين الأوروبيين إلى ما وصلوا إليه من نتائج . إننا نعني بذلك ضرورة الحذر من الحكم على الوضعية المعنية حكماً أخلاقياً قذحياً من شأنه أن يمهّد الموقف باتجاه الاطاحة بالعوامل التاريخية البعيدة ، التي كمنّت وراءها والتي جعلت هيجل ، على سبيل المثال ، يعلن أن الشرق شرق لأنه لم يعرف سوى المبدأ الخارجي ، أي الوعي^(٣) .

(١) ج . ف . ف . هيجل : الأعمال الكاملة - مجلد ٨ ، ص ٣٣٨ (بالروسية) .

(٢) 2) Marx. Engels: Ueber Religion, a. a. O., S. 97.

(٣) مثل هذا الحكم الأخلاقي القذحي قد نواجهه في البحث العميق الذي كتبه خليل أحمد خليل بعنوان (العرب ومفهوم التقدم ، مجلة الوحدة ، السنة الأولى ، العدد ٢ ، تشرين الثاني ١٩٨٤) . فعلى الصفحة (٤٥) يكتب الباحث : «إننا «لا نستطيع استرجاع خرافة هيجل القائلة أن العرب شعب بلا فلسفة (أي بلا علم وبلا عقل)» . ويتابع الباحث حديثه ضمن نفس السياق

والطريف الدال ان نلاحظ أن بعض المركزويين الشرقيين (المسيحيين أو الاسلاميين) يرون في ذلك الذي سماه هيجل مبدأ خارجياً مبدأ «داخلياً» ، تكمن خصوصيته في أنها «لاتقاس بالطوارئ أو بفترات معينة ومحددة في حياة الشعوب مهما كان تأثيرها»^(١) . ويكرر المركزويون الشرقيون - في هذا السياق - ما يعلنه عادة بعض الغربيين من ان الغرب إفساد للشرق ؛ فلقد أفسد الغرب المسيحية حيث تلقفها غريباً ، أي حيث انتزع عنها «اصالتها وخصوصيتها» . فكما أعلن فرانك كراين (فيلسوف امريكي وانضج فكر في هذا العصر ، كما سماه الارشمندريت انطونيوس بشير)^(٢) ، يعلن كذلك عوني بشير ، بطريقة التكرار ، أي بطريقة ينفذ فيها يده عن التزامه بـ «خصوصيته» التي لا تقاس بالطوارئ أو بفترات معينة ومحددة في حياة الشعوب مهما كان تأثيرها : «أخذ الغرب منا المسيحية الشفافة فأغرقها في المادة ، وقتلتها كنيسة قروناً عديدة ، محولة روحانيتها العظيمة الى اقطاع واقنان ...»^(٣)

ان «الشرق» يظل ، والحال كذلك ، شرق «الشفافية والروحانية واللامادية» ، أي - بكلمة - انه «شرق العالم» ، حيث تشرق منه الحياة الأصلية ؛ في حين أن الغرب هو «غرب العالم» ، حيث تغرب منه الحياة الأصلية ، أي حيث تصل الحياة اليه لتودعه وتتجاوزته وتعلن الرحيل الى حيث كانت . وفي كلتا الحالتين ، المركزوية الغربية والمركزوية الشرقية ، نواجه المشكلة ، كما هو ملاحظ وبين ، قائمة بكل ثقلها ، طارحة السؤال ثانية وثالثة ورابعة ، ذلك الذي صاغه ماركس والذي أثبتناه فوق : لماذا يظهر تاريخ الشرق بمثابته تاريخاً للدين ؟

محددات خرافات ارنست رينان و«مطولات الامبريالية والصهيونية» .

(١) عوني بشير : الاسلام والآخرين - محاولة لرؤية المسافات ، مجلة (مواقف ٣٤ ، كانون الأول ، كانون الثاني ، شباط ١٩٧٩ ، ص ١٤٣) .

(٢) انظر ذلك في مكان سابق من هذه الفقرة .

(٣) عوني بشير : نفس المرجع الأسبق ومعطياته - ص ١٤١ - ١٤٢ .

ب

في هذا الجزء من «مشروع الرؤية» ، أي في «من يهوه الى الله» ، نضع على عاتقنا محاولة البحث في ثلاثة أنساق عقدية من التاريخ الديني الشرقي عموماً (والعربي على نحو خاص) ، وهي تلك التي حصرناها باليهودية والمسيحية والاسلام . وإذا كانت هذه المهمة تعلن عن نفسها بمثابة معالجة لأنساق ثلاثة من الذهنية الدينية ، فإنها ستظهر - من الآن وعبر البحث في متون المسألة ضمن الفصول اللاحقة - حرصها المنهجي النظري على اكتشاف النواظم والعلاقات المفصلية ، التي تربط فيما بينها جميعاً . سنفعل ذلك (وقد أعلننا فيما سبق عن بعض منه بصيغ معجمة مجملة) من موقع الوضعيات الاجتماعية الاقتصادية والسياسية والثقافية التي تولدت فيها تلك الأنساق وتبلورت ، وذلك وفق الضرورات التي يقتضيها هذا البحث . كما سنواجه الأمر المعني بصورة أكثر تخصيصاً ، أي من موقع البنيات والمنظومات المحددة لاسيقتها الداخلية . وإذا كنا سننهض بهذه المهمة من الموقعين المعلن عنها ، فإننا ، إذ ذاك ، لن نرى في هذين الأخيرين بنائين راسخين متجاورين تجاوز الخططين المتوازيين ، أو لحظتين اثنتين الثانية منها مشتقة من الأولى اشتقاق المفعول من الفاعل . فليس من شك في أن نظرة سطحية مبسطة مثل هذه للمسألة من شأنها أن تغلق الكثير من الأبواب والنوافذ في وجه البحث العلمي في المسألة المعنية ، بل إنها قميئة بأن تعلق البحث العلمي الجاد في ذينك البناءين .

إن المنهج الذي يرى في البنائين إياهما حلقتين متداخلتين متشابكتين (دون الاطاحة بالخصوصية النسبية كثيراً أو قليلاً لكل منهما) ، هو ما نرى فيه أداة نافذة لاستقصاء الخط التاريخي التراثي المنطلق من «يهوه» إلى «الله» . في هذه الحال ، نجد أنفسنا وقد أمسكنا بالظاهرة الايديولوجية الدينية ، المعنية هنا ، في سياقها التاريخي والتراثي المشخص ، أي في مجرى نشوئها ، من حيث هي نحو من أنحاء البنية التحتية نفسها ووجه من أوجهها . وحينئذ ، أيضاً ، يكون قد تعين علينا أن

نبحث في تاريخية تلك الظاهرة وفي تراثيتها بمثابتها (أي الظاهرة) تحولاً من دائرة البنية التحتية الى دائرة الذهنية الاجتماعية أو الوعي الاجتماعي .

ذلك أمر على غاية الأهمية المنهجية على صعيد البحث في تاريخ الأديان الثلاثة المحددة آنفاً (وكننا في الجزء الثاني من مشروع الرؤية قد لاحظنا أهميته أيضاً ، بل خصوصاً في نطاق التكونات الذهنية الاسطورية في العالم العربي القديم) . سوف يتضح لنا ، في مجرى البحث ، أن اليهودية والمسيحية والاسلام وإن اكتسبوا صيغاً ذهنية كتابية ، فإنهم - على الأقل في ارمصاصاتهم الأولى - برزوا بمثابتهم مواقف ووظائف وأوجهاً من العلاقات الاجتماعية الانتاجية ذاتها .

ومن الطريف الدال ، في هذا المفصل المنهجي من المسألة ، ما كتبه كارل ماركس في أحد هوامش «الرأسمال» ، تعليقاً على رأي صدر في صحيفة المانية امريكية عام ١٨٥٩ ، يتحفظ فيه صاحبه على نظرية ماركس المتعلقة بالاتساق والتطابق الجدليين بين البنية التحتية والآخرى الفوقية . فلقد أعلن ماركس أن الصحيفة المذكورة «تقول ان رأيي بأن اسلوب الانتاج المحدد والعلاقات الانتاجية المتطابقة معه كل مرة ، وباختصار (ان البنية الاقتصادية للمجتمع هي الأساس الواقعي الذي تقوم عليها بنية حقوقية وسياسية وتطابقها أشكال اجتماعية محددة من الوعي الاجتماعي) . . . إن هذا كله صحيح بالطبع بالنسبة إلى العالم الراهن ، حيث تسيطر المصالح المادية . ولكنه غير صحيح لافياً يتصل بالعصر الوسيط حيث سيطرت الكاثوليكية ، ولا فياً يتعلق بأثينا وروما ، حيث سادت السياسة . . . (بيد) انه واضح بما فيه الكفاية ان العصر الوسيط لم يكن بمتسع ان يعيش من الكاثوليكية ، وكذلك العالم القديم بالنسبة إلى السياسة . بل على العكس من ذلك ؛ فالطريقة والاسلوب ، اللذان من خلالها حققوا حياتهم ، هما اللذان يوضحان لماذا مارست السياسة هناك والكاثوليكية هنا الدور الرئيسي»^(١) .

من مناقشة ماركس السابقة للكاثوليكية والسياسة ، نستنبط ثلاث اطروحات ، هي ذات علاقة تضافية وثيقة بما نحن بصدد البحث فيه .

1.) K. Marx: Das Kapital - erster Band, erstes Buch. In: Marx, Engels- Werke, Band 23, S. 96, Dietz Verlag Berlin 1968.

الاطروحة الأولى تمثل إجابة عن السؤال الإشكالي ، الذي أوردناه سابقاً عن ماركس ، وعن مسألة «الشرق مهبط الأديان السماوية» ، على النحو الذي واجهناها فيه لدى جمع من الباحثين واللاهوتيين : أن يكون الشرق «مهبط» تلك الأديان ومرتعها الخصب ، لا يعني أن شعوبه بنت مجتمعاتها وفق تصوراتها وآفاقها الدينية ، وأنها عاشت ، من حيث الأساس ، من هذه التصورات والآفاق وبمقتضاها . فالتاريخ اليهودي والمسيحي والإسلامي (المحمدي) هو ، في واقع الحال ، تاريخ الوضعيات الاجتماعية التي تولدت ونمت فيها وانطلقت منها التصورات والآفاق الخاصة بالأديان الثلاثة المعنية ؛ ومن ثم ، فهو تاريخ هذه التصورات والآفاق بمثابتها تصورات وآفاق تلك الوضعيات وتعبيرات عنها .

إن ذلك الموقف صحيح ، حيث يكون متعلقاً بالأديان إياها ، من حيث هي أنساق ذهنية ذاتية (عقيدية) ، أي بصفتها بنيات ذهنية مستقلة ، إلى حد ضروري ، عن البنيات الاجتماعية الاقتصادية المطابقة لها ، بدرجة أو بأخرى وعلى نحو أو آخر .

الاطروحة الثانية تكمن في النظر إلى اليهودية والمسيحية والإسلام على أنهم صيغ بنيوية مركبة . والحكم هذا وارد وبين سواء في مراحل النشوء والتعاضد أو في مراحل الانتظام ضمن أنساق من الذهنيات الذاتية العقيدية ، وكذلك حتى حين يكون (الحكم) في الحالة الأولى أكثر رجحاناً وهيمنة . إن سوسيولوجيا البنى وسيكولوجيا البنى - وليس بحال من الأحوال البنيوية Structuralism - هما الأكثر نجاعة من أجل تفصي الإوالات المستترة والظاهرة لتلك الأديان ، من حيث هي صيغ بنيوية مركبة . فهذه الأخيرة تعلن عن نفسها ، والحال كذلك ، مشاركة فاعلة في كلا الحدين ، الاجتماعي الاقتصادي والذهني الذاتي . بل إن تعبير «المشاركة» هنا ربما أضعف من القضية المعنية . فلعلنا نقول ، إذن ، إن تلك الصيغ تتمثل في الحدين المشار إليهما ، دون أن نعني بذلك أن عناصر منها بعينها ثابتة تتوزع على الحد الأول ، وأن عناصر أخرى ثابتة بعينها تتوزع على الحد الثاني .

وإذا ما عملنا على صوغ الموقف الذي نحن في صددده بمزيد من التحديد والتدقيق ، فإن القول التالي يغدو ممكناً، وهو أن الدين عموماً - وضمنه بطبيعة الحال

تلك الأديان الثلاثة - قبل أن يصبح محض ايدولوجيا ، استطاع «أن يؤدي وظيفته (أيضاً : ط . تيزيني) بصورة مباشرة بوصفه علاقات انتاج» ؛ ومن ثم ، كان لابد من توافر «شروط تاريخية بالغة الخصوصية . . حتى لا يكون الدين أكثر من مجرد ايدولوجيا ، حتى يكون محض مسألة شخصية ، محض تصور غير علمي للعالم» ؛ وإذ ذاك ، يحتفظ الدين «بمظهر اقتصادي من دون أن (يتدخل) مباشرة في الانتاج» (١) .

وجدير بالاهتمام المركز أن الدين لا يؤدي وظيفته أو شطراً أساسياً منها ، بصورة مباشرة ، بوصفه علاقات انتاج في مجال ما أسماه كلود ليفي شتراوس «الهيكل السوسيولوجي للفكر الهمجني» (٢) فحسب ، أي في نطاق علاقات اجتماعية بدائية . إن تلك الصفة يمكن أن تلازم الدين ، كثيراً أو قليلاً ، حتى ضمن علاقات غلبت عليها السمات الحضرية القبلية (الطبقية) ، أو الحضارية المشاعية القروية . وعلينا هنا أن نشير ، بشيء من التقدير ، إلى أن ذلك الوضع أدى برهط من الباحثين إلى أن يروا في الاحساس الديني ، في ارهاصاته وتوجهاته الأولى ، إحساساً اجتماعياً ووظيفة اجتماعية ، تتبلور وتبرز في الوجود العائلي والوجود الاجتماعي (العشيري والقبلي) ، كليهما .

إن هذا المعطى التاريخي الديني ربما سمح لنا بالنظر إلى الوجود الديني وقد انشعب إلى مرحلتين كبيرين ؛ مع الإشارة الضرورية إلى أن تصنيفات وتقعيدات أخرى لذلك الوجود واردة في هذا المجال ولا تتعارض بحال مع ما تأتي عليه الآن . فوفق ذلك ، نتبين الدين في المرحلة الأولى البكرة ، نسيجاً من انسجة العلاقات الاجتماعية الاقتصادية المباشرة نفسها ؛ بينما يظهر ، في المرحلة الثانية ، متميزاً بوضوح عن تلك الأخيرة ومستقلاً - بصور نسبية - عنها ، بحيث يغدو الدين هنا ، على حد تعبير موريس غودوليه كما ورد فوق ، ذهنية (أي ايدولوجيا) مكرسة من قبل العلاقات المنوه بها ومكرسة لها .

(١) موريس غودوليه : الماركسية أمام مشكلة المجتمعات ما قبل الرأسمالية - ضمن (جان شينو ، بوجين فارغا ، موريس غودوليه : حول نمط الانتاج الآسيوي ، دار الحقيقة بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٢ ، ص ٢٨٤ ، ٢٨٥) .

(٢) انظر مع المقارنة : المرجع السابق ومعطياته ، ص ٢٨٤ .

ولكن الدين ، من حيث هو توجه ما ورائي ، لم يكن قد تولد مع الانسان بمثابته أحد مقوماته البنيوية الأولية ، بل بصفته واحداً من أبعاد تطوره التاريخي اللاحق ^(١) . ولقد توصل فريق من باحثي الأديان ومؤرخيها الى صوغ وتسجيل تركيب للمرحلتين الكبيرين في التاريخ الديني والى النظر لهذا التركيب على أنه نتيجة متميزة من نتائج بحوثهم . بيد أن بعضاً منهم فهموا ذلك بمثابته كشفاً - على الأقل - ضمناً لـ «انسانية» الدين ، أي لاقتراحه ، «أصلاً» و«فطرة» ، بالانسان العاقل Homo Sapien .

ففي بحث هيرفه روسو ، نقرأ ما يقودنا إلى هذا الرأي ، مع الملاحظة بأن الباحث المذكور يرى في اليهودية والمسيحية والاسلام وغيرهم نماذج كبرى للتطورات التاريخية الدينية . يقول هيرفه روسو : «الفئة الاجتماعية ، في عهودها الأولى ، تتبدى ملتزمة بروابط محض دينية مما جعل بعض المؤرخين يعتقدون بأن الاحساس الديني ليس إلا احساساً اجتماعياً» ^(٢) . ويتابع روسو موضحاً شخصية ذلك الالتحام بين الانسان القديم والدين ، معلناً أنه (الالتحام) يضع ايدينا على معقد المسألة التالية ، وهي أننا بذلك «نوضح (لأصل) الديانات التاريخية بل (أساسها) الدائم الباقي» ^(٣) .

نود أن نخلص الى الاطروحة الثالثة ، التي لعلها تكون قادرة على الاجابة عن طرف من السؤال المعقد ، الذي كنا قد واجهناه في موضع سابق من هذا

(١) في كتابنا «الفكر العربي في بواكيره وآفاقه الأولى» ، دمشق ، دار دمشق ١٩٨٢ ، تناولنا هذه المسألة على نحو مباشر وآخر غير مباشر ، ولكن دائماً بصورة مشخصة عموماً . (راجع ضمن ذلك خصوصاً الفقرة ذات العنوان «التكوين البدئي في الذهنية الاسطورية العربية القديمة» ، ص ٢٣٣ - ٣٦٨) . كذلك يمكن الرجوع الى البحث الهام التالي :

G.A. Guraw: Hat es immer einen Glauben an Gott gegeben? (In: Philosophie und Gesellschaft-Herausgegeben von Werner Pfah u. Hans Schulze, Akademie- Verlag, Berlin 1958, S. 473- 483).

(٢) هيرفه روسو : الديانات - ترجمة متري شماس (ضمن : ماذا أعرف - المنشورات العربية ، رقم ٢٥ ، دون ذكر لمكان النشر وتاريخه) ص ١٠١ .

(٣) نفس المرجع السابق ومعانياته - ص ١٤ .

الكتاب : لماذا يظهر تاريخ الشرق بمثابة تاريخاً للدين ؟ لماذا تظهر اليهودية والمسيحية والاسلام كما لو أنها التاريخ الحاسم للشرق ؟ وأخيراً ، لماذا يظهر الشرق وهذه الأديان على انها صنوان أو وجهان لبعد واحد ؟ ان ذلك السؤال المركب ، الذي طرحه ماركس ولم يجب عنه عينا ، نستطيع أن نستنبط طرفاً من الاجابة عليه حالما نضع ما بحثنا فيه حتى الآن تحت حدّ «التجادل التاريخي والتراثي» بين الدين من حيث هو علاقة اجتماعية انتاجية ، وبين الدين بصفته أحد أنساق الذهنية (الايديولوجية) . وإذا ما فعلنا ذلك ، غدا تاريخ الشرق إياه ، وفي وجهه من أوجهه على الأقل ، تاريخ علاقات اجتماعية انتاجية تظهر بصيغة أو بصيغ دينية ، وذلك باعتبار أن هذه الأخيرة ظلت ، كثيراً أو قليلاً ، حائرة بين كونها بعداً من ابعاد العلاقات تلك ، وكونها ما تزال في طور امتلاك سمات مستقلة عن هذه ، تتحرك وفق منطوقها النبوي الذاتي ^(١) .

بيد أن هذه الاجابة تولد ، بدورها ، سؤالاً آخر ذا طابع خصوصي . ذلك هو : لماذا برز الدين ، هنا في الشرق العربي وبعد اكتسابه بعداً وأفقاً ايديولوجيين ، بمثابة الشكل الايديولوجي المهيمن في اللوحة الذهنية الايديولوجية ، إن لم نقل الوحيد ؟ وعلى نحو أكثر تدقيقاً وتفريداً ، نسأل ثانية ، لم لم تنشأ ، بالتحديد ، فلسفة الى جانب الدين في مراحل الأولى ؟ ثم ، بعد إذ نشأت ارهاصات علنية (غير سرّية) من التفكير الفلسفي ، لماذا كان عليها أن تعلن

(١) أن يظهر التاريخ ، من حيث هو كذلك ، تاريخاً للفكر عامة أو لأحد اشكاله الخاصة ، مثل الدين أو الفلسفة ، فان هذا أمر محتمل ضمن الظروف الاجتماعية الاقتصادية (الانتاجية) المشار اليها فوق ، أولاً ؛ كما أنه محتمل ، ثانياً ، في حال نشوء أوهام من نمط معين تكرر مثل هذا الاحتمال . فإذا ما وضعنا ، مثلاً «موسى الديني» مقابل «موسى الفلسفي» ، برز أمامنا ذينك الاحتمالان الاثنان ، الأول ممثلاً بـ «موسى الديني» ، والثاني ممثلاً بـ «موسى الفلسفي» ، الذي يكتسب - في مثل هذا السياق - شخصية «هيجل الفلسفي» .

من ذلك الموقع للمسألة ، يصح أن نورد ما قاله Robert Tucker في كتابه (Philosophy and

Myth in Karl Marx- second Edition Cambridge University Press 1979, Printed in the U.S.A., P. 79):

«كان هيجل موسى فلسفياً قاد الإنسانية الى الأرض الموعودة في الفكر . لقد انشأ كوناً في الخيال ، علماً ذهنياً يصل فيه الانسان ، في سير التاريخ ، الى أن يعرف نفسه كإله» .

عن نفسها وتفصح عبر الدين ، وتحت رايته ، وبطموح التطابق معه على نحو ما تتطابق الاختان من أم واحدة ؟ هذا السؤال المركب نظرحه في الحين الذي نغض النظر فيه عن اللحظات القليلة التي عبّرت فيها عن نفسها بعض المواقف الفلسفية الالحادية أو الهرطقية المستنيرة ، تلك المواقف التي نشأت وتعضّت وتبلورت ليس خارج الدريشة الدينية فقط ، بل كذلك على أساس المناهضة الصريحة لها ؛ ولذلك ، فهي ظلت - عموماً واجمالاً - هامشية ضئيلة الفاعلية ، وقابعة في ظل الأحداث الكبرى .

إن البحث في اليهودية والمسيحية والاسلام ، تاريخاً وتراثاً وبنى ذاتية ، من شأنه ، والحال كذلك ، أن يضع أيدينا على المفاتيح الكبرى التي بمقدورها أن تقودنا إلى افتراضات أولية حائزة على ما يكفي من عناصر الدقة بما يتيح لها الدخول في دائرة الاجابات الصحيحة المحتملة على الأسئلة الأنفة الذكر . إلا أن هذا الأمر حتى إذا تم انجازه ببعد ايجابي كثيراً أو قليلاً ، فإن تقصي مسألة الأشكال الذهنية السابقة على تلك الديانات وفي ضوء المسألة المطروحة هنا ، يبقى يمثل مهمة لا مناص من اقتحامها واختراقها ؛ ذلك لأن هذه المهمة تتصل بتلك اتصالاً منهجياً نظرياً ، بقدر ما ترتفع بها تاريخياً تراثياً ، وكذلك بنوياً . وقد عملنا نحن على أن ننجز ذلك (في الجزء الثاني من مشروع الرؤية الجديدة) بصيغته الجوهرية المعممة والمعممة . ومن هنا ، فإن الكتاب الذي نقرأ فيه الآن (وهو الجزء الثالث من المشروع المذكور) سيجد نفسه أمام ضرورات البحث في مستويات وصيغ ايدولوجية (دينية) أكثر اتساقاً وتجريداً وهيكلية ؛ نعني بذلك الثالث «الساوي المقدس» ، اليهودية والمسيحية والاسلام .

ولقد اتضح في سياق حديثنا - ضمناً أو على نحو مفصح عنه - أن الأديان الثلاثة ، التي نجعل منها موضوع بحثنا هذا ، هي تلك التي نشأت وتبلورت في الشرق العربي ، تخصيصاً ، حيث امتدت بعدئذ واتسعت في تأثيراتها - عمقاً وسطحاً - الى الدرجة التي اجمع عليها جمهور غفير من شعوب العالم . ذلك يعني

أنه بين بذاته أننا نتحدث ، هنا ، عن فلسطين وما بين النهرين والجزيرة العربية ،
تحديداً .

من طرف آخر ؛ إذا كنا ننتقل من أن فلسطين وما بين النهرين (العراق) -
وربما كذلك وبحدود ما مصر - مثلت أرض الولادة لليهودية ، ومن أن الجزيرة
العربية هي أيضاً أرض الولادة بالنسبة للإسلام ، فإن هنالك من يعلن أن فلسطين
لا تعني شيئاً أساسياً على صعيد نشوء المسيحية (١) .

وقد كان Bruno Bauer (١٨٠٩ - ١٨٨٢) ، الهيجلي الشاب ، أحد من
أرسى دعائم هذا الاتجاه . وبسبب من أن الفيلسوف المذكور كان يهدف من وراء
ذلك ، ضمن ما يهدف ، إلى تصديق اسطورة المسيحية وإلى تقصي تاريخيتها ،
فقد استطاع ، فعلاً ، أن يثير جملة من المسائل الدقيقة الهامة ، التي جعل منها علم
نقد الأديان الحديث والمعاصر جزءاً أساسياً من بنيانه . وفي سياق هذا النشاط المعقد
والمحفوف بالاشكالات اللغوية والتاريخية والدينية ، توصل برونوباور إلى الاعتقاد

(١) واضح من سياق بحثنا ، هنا ، أننا نغفل بعض الآراء الجديدة الراهنة ، غير المكتملة وربما
كذلك غير الناضجة بعد والتي يعمل اصحابها من خلالها على تقديم نظرية أو اجتهاد جديد حول
أصول اليهودية (والمسيحية والإسلام كذلك) . من ذلك الكتاب الذي لم يصدر بعد لكيال
الصلبي والذي سيكون بعنوان «التوراة جاء من جزيرة العرب» . وملخص هذا الاجتهاد
يكمن ، كما قدمته مجلة (المصير - العدد ٢٠ ، تشرين الثاني وكانون الأول ١٩٨٤ ، السنة
الرابعة ، بيروت ، ص ٧) في مايلي : «ان النظرية التي يحاول تطويرها الدكتور كيال الصلبي
هي أن احداث العهد القديم ترتبط بقصة حدثت في التلال الساحلية ، غربي جزيرة العرب ،
والتي تشكل اليوم مقاطعتي حسيب وجنوب الحجاز . فهناك أنشأ داود وسلطان مملكتها . وهناك
ينبغي البحث عن أصول اليهودية والمسيحية والإسلام . وتأسيساً على ذلك ، ربما كان يهود
فلسطين المحتلة يعيشون - من وجهة النظر الصهيونية - في البلد الغلط . لأن احداث العهد
القديم لم تحصل في فلسطين بل في جنوب غرب الجزيرة العربية . وهذا الافتراض تعززه كمية
من البراهين الجغرافية واللغوية التفصيلية مما يسمح لنا في ان نقول ان نظرية جديدة وجديده
أوشكت ان توجد . . والمنهج الجديد الذي استخدمه الدكتور كيال الصلبي في دراسته العهد
القديم ، يحاول أن يطبقه ، كذلك ، على الرواية المعتمدة للأناجيل . وهو يعتقد أن وقائع
الأناجيل قد حدثت ، هي أيضاً ، في الجزيرة العربية . ففي الجزيرة منطقة اسمها (ناصره) وواد
اسمه (جليل) وأماكن أخرى . . . »

بأنه «لا الجليل ولا القدس ، وإنما الاسكندرية وروما هما اللتان كانتا مهد الولادة للدين الجديد» (١) .

بيد أنه لم يكن من السهل أن يركن الباحثون الى ذلك الرأي ؛ خصوصاً وأن الدراسات التنقيبية والنظرية التاريخية أخذت تغدق على هؤلاء من الكشف ما قد يدعو ، على الأقل ، إلى الحذر إزاء الرأي المعني . ولنا أن نلاحظ أن بعض معالم هذا الحذر كانت قد أعلنت عن نفسها في مراحل سابقة على هذا القرن العشرين . ففي القرن التاسع عشر نلاحظ أن انجلز ، الذي منح دراسات برونو باور حول المسيحية الباكورة اهتماماً خاصاً من نشاطه الفكري التاريخي والتنظيري ، ما كان يوسع أن يوافق على الرأي الباوري المأتمني عليه . لقد أعلن ، في تعقيب له على هذا الأخير ، أن حسم الموقف سيكون مرهوناً بما سيتم من كشف جديدة في روما والشرق ، ومصر منه بشكل خاص ، أكثر مما هو مرهون بالنقد النظري التاريخي (٢) .

وفعلاً ، فإن دراسات جديدة مستندة الى ماتم على صعيد الأبحاث التنقيبية الأثرية قدمت مجموعة من الركائز والأدلة المتناسكة بما فيه الكفاية للركون الى القول بأن فلسطين تمثل المنطقة الأولى والأهم لولادة المسيحية . على هذا الصعيد يبرز ، مثلاً ، بحثان صدرتا في باريس ؛ الأول لـ Prosper Alfari ، والثاني لـ Maurice Bucille . في هذين البحثين ، تقدم أدلة موثقة على تعددية الأصول التاريخية والجغرافية للمسيحية ، إنما عبر ما يعتبر أصلها الأول المتمثل بفلسطين وسورية ، اللتين يضمهما الساحل السوري الفلسطيني (٣) . ولا بد لنا من أن نضيف ، في هذا

1) Friedrich Engels: Zur Geschichte des Urchristentum, In: Marx. Engels- Ueber Religion, a. a. O., S. 262.

2) Ehenda.

٣) صدر البحث الأول في باريس عام ١٩٥٩ تحت عنوان

Origines sociale du christianisme, Publications de L'Union Rationalist,

وترجم إلى الألمانية تحت عنوان

Die sozialen Urspruenge des Christentums, VEB Deutscher Verlag der Wissenschaften, Berlin 1963.

ونحن هنا نعتمد الترجمة الألمانية المذكورة .

الموقع من المسألة ، بأن ارهاصات من ذلك النظر إلى أصول المسيحية تعود إلى جبهة من اللاهوتيين والمؤرخين القدامى لليهودية . في طليعة هؤلاء ، نواجه اثنين تركا بصمات كبرى على مسيرة واتجاه التأريخ لليهودية ، وهما فيلون الاسكندراني (٢٠ق.م - ٥٤ أو ٦٠ م) ، وفلافيوس يوسفوس من القدس (اورشليم) والذي عاش من ٣٧م حتى ١٠٠ . وجدير بالذكر أن هذين كليهما كانا ينتميان إلى فرقة «الاسينية» اليهودية في فلسطين ، التي انطلقت منها المسيحية ، بدرجة أو بأخرى وجزئياً على الأقل ، وحملت وشمها الذي اعادت بنائه وظيفياً .



== أما البحث الثاني فقد صدر بعنوان :

La Bible, Le Coran et la science, Edition Seghers, 31 Rue Falguière, 75. 725 Paris, Codex 15, وقد ترجم إلى العربية تحت عنوان : دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة - دار المعارف القاهرة ١٩٧٨ . أما نحن فنعتمد هنا الترجمة المذكورة . نضيف إلى ذلك كتاب Martin Robbe الذي صدر بالألمانية تحت عنوان : Der Ursprung des Christentums, Urania Verlag Leipzig, Jena, Berlin 1967, وقد تأثر صاحبه فيه بكتاب Prosper Alfari's السابق الذكر .

ولعلنا نضم إلى ذلك البحث الذي كتبه عصام الدين حفني ناصف تحت عنوان : المسيح في مفهوم معاصر - دار الطليعة بيروت ، الطبعة الأولى آب ١٩٧٩ . ففيه مجموعة من المعطيات الهامة المتعلقة بالقضية المطروحة في كتابنا الآن .

القسم الثاني

في رحاب يهوه
رب البدو والرعاة والجنود ،
والمسيح المخلص

الفصل الأول

من «اليهودي» إلى «اليهودي» ومن اليهودي الى «الغير - الغوييم»

١

تصور «المركز - الهامش» ونقيضه ، أي اندماج بـ «الغير - الغوييم»

لعل ما كتبه مرة ول ديورانت عن اليهود حقيقي ، إنما نصف الحقيقة . فلقد أطلق الحكم التاريخي التالي المترع بالإشكالية ؛ ذلك هو «أنهم لم يوجدوا تاريخهم ، بل ان تاريخهم هو الذي أوجدهم» ^(١) . ان الاقرار التام بهذا الحكم (الاطروحة) لابد أن يقود الى الاعتقاد بأن تاريخ اليهود هو ، في نهاية المطاف وفي جوهر المسألة ، تاريخ «الآخرين» ، أو بأنه أُملي عليهم إملاءً من قبل هؤلاء أو من قبل غائية قبلية «ما» . ويكفي أن ننوه ، هنا ، بأن الأخذ بمثل هذا الاعتقاد يمثل - على الأقل - خرقاً صريحاً لجدلية العلاقة بين موضوع التاريخ وبين ذاته . فإن يكون اليهود (أو أي شعب آخر) موضوعاً للتاريخ محضاً ، أي موضوعاً للحدث التاريخي ، ليس إلا ، ان هذا لابد أن يعني - أساساً - أن التاريخ البشري يعلن عن ذاته عبر عوامل وحواجز غاشمة صماء ، تنعدم فيها الأفعال والمبادرات والحواجز الارادية الذاتية ؛ وذلك خُلف . فالأمر ، كما يفصح عن نفسه ، يدور على تاريخ بشري ، أي على فاعل ، بمعنى ما وقدر ما ، وعلى مفعول ، بمعنى ما وقدر ما

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة ، الجزء الأول من المجلد الأول (نشأة الحضارة - الشرق الأدنى) الطبعة الثالثة ، ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٣٢٨ .

أيضاً . وهذا - في تفسيره الأكثر سذاجة والأكثر تعقيداً - يصح على المجتمعات البدائية والأقل نمواً وتقدماً ؛ كما ينطبق ، بطبيعة الحال ، على تلك التي دخلت عالم الحضارة التطبيقية .

ونستطيع ، كذلك ، أن نشق موقفاً آخر من أطروحة ديورانت سالفة الذكر . ذلك هو أن عنصري الحرية والمسؤولية في تاريخ اليهود ، من حيث هم تجمع بشري بصيغة قبائل (أسباط) أو طبقات أو فئات الخ . . ، معدومان على نحو كلي ؛ مما يجعل كل ما حدث ويحدث في حياة هؤلاء إلى إرادة خفية ، يطلق عليها ديورانت اسم «التاريخ» ، ويطلق عليها رهط من اللاهوتيين التوراتيين اسم «الرب يهوه» . وإذا كان الأمر كذلك ، فإنه يغدو مقبولاً - من طرفنا ووفق منطق الموقف إياه - أن نحدد تلك الإرادة باسم توراتي آخر ، هو «الرب المخلص المسيح» ، أو «رب الجنود» . إذ أن هذا الأخير هو

«الرب الهكم السائر أمامكم هو يحارب عنكم . . وكما رأيتم في البرية من أن الرب الهكم حملكم كما يحمل المرء ولده في كل طريق سلكتموه» (١) .

إن الحديث عن «تاريخ» لليهود يصنعهم هو دون أن يسهموا هم في صنعه ، يبرز - والحال على هذا النحو - بمثابته ضللاً اصطلاحياً منطقياً ينطلق من تعامل اعتباطي مع المصطلح عامة ، ومع مصطلح التاريخ بصورة مخصصة ؛ كما يمكن ، أيضاً ، أن يتحول إلى نفاق أيديولوجي ، قد يراد له أن يستثير إحساساً من التعاطف الأخلاقي الفاجعي مع مصائر شعب ليست هي أبداً من صنعه .

وليس من ريب في أن منهجاً في «النظر التاريخي» مثل هذا من شأنه ، في الحالة الدنيا ، أن يجعل من التاريخ اليهودي (بل ربما كذلك التاريخ البشري العام) قدراً قُبلياً يُمسك بمصائر الناس في القبل والآن والبعد ، ولادة وضبطاً وتحكماً . ومن ثم ، فإن البحث العلمي في ذلك التاريخ يغدو أمراً نافلاً في الحد الأدنى ، وغير ممكن في الحد الأقصى . وعلى ذلك ، إذا كنا قد وطننا العزم على البحث في التاريخ المشار إليه ، فلنمّا نكون ، بذلك ، قد عبرنا عن أننا وضعنا أنفسنا أمام مهمة معقدة

(١) الكتاب المقدس - سفر تثنية الاشتراع ١/ ٣٠ - ٣١ .

حقاً ، تنطوي على ضرورة القيام باستقصاء الاحتمالات الممكنة ، التي لعلها تقدم مادة البحث لدراسة «علمية» لليهود كظاهرة دينية وانطلاقاً من سياقهم التاريخي والتراثي . وهذا ، بدوره ، يجعلنا ننظر إلى التاريخ اليهودي على أنه نسق من أنساق التاريخ العالمي العام ؛ معلنين ، بذلك ، أننا إذ نقدم عليه من موقع الاقرار بخصوصية نسبية لا بد أن ينطوي عليها بسبب من أن العام هو عام مجرد بقدر ما هو خاص مشخص ، فإن الحديث عن استثنائية أو فوق - تاريخية له لا يدخل في حقل بحث تاريخي يتمتع بحد أدنى من الجدّة .

ان ما يلفت النظر ، للوهلة الأولى ، في البنية السياسية والدينية الأخذة في التعضي والتبلور للأوساط اليهودية المهيمنة هو ذلك الاقتران التضائفي بين السلطة السياسية (ومن خلفها الاقتصادية الاجتماعية) من جانب ، والسلطة الدينية من جانب آخر . وهذا الاقتران كان من الأهمية بحيث استطاع - في سياق التطورات اللاحقة في التاريخ اليهودي - أن يترك سماته وبصماته العميقة على مجمل العلاقة بين ما سيتبلور شيئاً فشيئاً بمثابته طبقة عليا على الطرف الأول ، وبين بقية الأنساق الطبقيّة والفتوية والقبلية على الطرف الآخر .

فلقد كان هنالك عاملان اثنان أسهما في توليد ذلك الاقتران وفي تعميقه وتوطيده . العامل الأول كمن في غمط الانتاج الاقتصادي نفسه ، الذي غدا في مراحل لاحقة السائد والمهيمن . فهذا الأخير تحدد بعلاقات انتاجية زراعية تراوحت بين العبودية والمشاعية القروية . وقد تعايش هذا النمطان الاقتصاديان الى جانب بعضهما بعضاً الى حين أصبح الثاني منها الأغلب والأرجح . فالعلاقة مع الأرض تبلورت هنا بصيغة «حيازة» لها من قبل الطبقات العاملة عليها ، وذلك لصالح «ملكيتها» الحقوقية من قبل الطبقة العليا ، إضافة إلى ملكيتها الواقعية غير الكلية . ومن ثم ، ليس دقيقاً أن ننظر إلى الملكية ضمن التجمع اليهودي ، الذي أخذ في الاستقرار نسبياً في فلسطين ، على أنها ذات طبيعة عبودية كلياً أو من حيث

الأساس^(١) .

نستطيع أن نتيين تلك الوضعية ، أيضاً ، من خلال بعض نصوص التوراة التشريعية . ان الأرض - وقد كانت أداة الانتاج الرئيسية - هي ملكية الرب وحده . فهو ، وحده وبمفرده ، الذي يمتلك حق التصرف بها كما يشاء ؛ ذلك لأنه هو الذي «وهبها» لأبنائه من الرعية . وإذا وضعنا في اعتبارنا أن «الرب» هو التمثيل اللاهوتي للطبقة العليا من التجمع اليهودي ، بما في ذلك أو في مقدمته فئة الكهنة ، اتضح لنا أن هذه الطبقة هي التي امتلكت - حقوقياً كلياً وواقعياً غير كلي - الأرض ، التي يعمل عليها الفلاحون والعبيد باعتبارهم حوزة لها ، ولهم فيها حق التصرف ، بالحدود التي تقتضيها العملية الانتاجية الزراعية . بهذا الخصوص ، نقرأ في «سفر الأحبار» مايلي :

«والأرض فلا تُبْعُ بثأناً لأنها لي الأرض وإنما انتم غرباء ونزلاء عندي»^(٢) .

إن الطبقة الارستوقراطية كانت سيدة الموقف على الصعيد الاقتصادي . وهذا ما مكن أقدامها بقوة على الأصعدة الأخرى من الحياة اليهودية «العبرانية» ، وبالدرجة الأولى الصعيد السياسي السلطوي المباشر . هذا الموقف نواجهه واضحاً لا يحتمل اللبس . فكما أن «الملك» للرب وحده ، فكذلك «الحكم» لا يخرج عن أن يكون امتداداً لسلطته الكونية الكلية :

« . . . فإن الحكم لله وأي أمر صعب فارفعوه إليّ حتى أنظر فيه »^(٣) .
إن أمراً على غاية الأهمية يبرز أمامنا من سياق البحث هذا ؛ ذلك هو الاقتران الموضوعي (الاقتصادي) والذاتي (السياسي الايديولوجي) بين وظيفتي المالك والملك (الحاكم) ، وذلك إلى درجة أنها كلتيهما ظهرتنا من حيث هما جانبان لوضعية واحدة (وهذا ما كنا قد أتينا عليه بصيغته العامة حين تناولنا الدين في مرحلته السابقة على

(١) انظر حول ذلك مع المقارنة :

Martin Robbe: Der Ursprung des Christentums, a. a. O. n S. 31- 32.

(٢) الكتاب المقدس - سفر الأحبار ٢٥ / ٢٣ .

(٣) الكتاب المقدس - سفر تثنية الاشتراع ١ / ٧ .

تحويله إلى ايديولوجيا محض).

ولنا أن نجد في التصور التوراتي للعلاقة المذكورة بين الرب (الكاهن) والحاكم جذراً عميقاً لعملية الاندغام بين تينك الوظيفتين ، خصوصاً ضمن ما يسمى في التاريخ اليهودي السياسي بـ «عهد القضاة» . لقد كان الرب هو الملك . والرب هذا ، يهوه ، يسمع ويرى الكل والجزء ، ولكن هو نفسه لا يرى لا من قبل الكل ولا من قبل الجزء . وإذا سمح بأن يرى ، فَمِنْ خَلْف . ان «كلمته» هي التي تحيط بكل شيء ، وتحكم كل شيء . وإذا ما سُمعت هذه الكلمة ، فمن قبل الأنبياء والقضاة المختارين ، فحسب ؛ مثلها في ذلك مثل «رؤيته» من خلف . ولما كان أولئك الأنبياء والقضاة هم الأخير ضمن «الشعب المصطفى المختار» ، فإنهم يبرزون بمثابتهم وسطاء بين الرب والشعب . يبقى أن نقول ان فئة المختارين المصطفين من الشعب المختار المصطفى هي الكهنة ، الذين تدرج في دائرتهم كل المهام المتمثلة بمراقبة عملية تنفيذ كلمة الرب وضبطها ، في حدود الشريعة اليهودية - الذين هم بالأصل صانعوها .

على ذلك النحو ، كان الطريق معبداً أمام عملية ظهور وبروز طبقة الارستوقراطية الكهنوتية من موقع كونها تمتلك - ضمناً على الأقل - الحق الشرعي الرباني لإحكام القبضة على رعاياها من «الشعب المصطفى المختار» . أما العنصر الذي أسهم ، إيهامياً ذهنياً ، في تدعيم هذه «الشرعية الربانية» ، فقد كمن في إلحاق الشعب نفسه في حقل القداسة ، أي في مخاطبته وكأنه يقف في صف واحد مع تلك الطبقة ، من حيث المساواة والمسؤولية ، ولذلك ، فهو إن أصبح شعباً مصطفى مختاراً ، فإنما لأنه مقدس ؛ أولعلنا نقول ، هو مقدس ، لأنه «بالأصل» مختار ربه وصفيه (١) .

والحق ، إن ذلك الموقف يضعنا أمام ما كنا قد واجهناه على صعيد دراسة الفكر الاسطوري الشرقي القديم ذي الأصول المشاعية القروية من ضرورة التمييز

(١) انظر حول ذلك نقدياً :

Robert R. Hillers: Covenant, the History of a biblical Idea, the Johns Hopkins Press Baltimore and London, third Printing 1973, P. 78- 79.

بين غطتين اثنين للمنتج الرئيسي ، الفلاح أو البدوي (اليهودي) الذي في طور التحول الى فلاح . النمط الأول هو الواقعي ، الذي يمثل هدفاً أول للاستغلال الاقتصادي من قبل الطبقة الاريستوقراطية العليا . أما النمط الثاني فهو الوهمي (الاسطوري ، أي موضوع الاسطورة في الحالة الأولى ، والتوراتي في الحالة الثانية^(١) فعلى صعيد المنتج الواقعي ، لا نكاد نقرأ شيئاً كثيراً لدى من كتب الأساطير الشرقية القديمة والعهد القديم ، والتوراة منه بصورة خاصة . أما المنتج الوهمي فهو ما نقرأ عنه الكثير ، وذلك انطلاقاً من اعتباره سيد الموقف .

في ذلك المنعطف من المسألة ، نثين العملية التي انجزها الكهنوت اليهودي في اتجاهها الرئيسي . فلقد قامت على ابراز اليهودي المنتج الوهمي ابرازاً ايديولوجياً دينياً ، بحيث انتزعت منه سماته الشخصية (الاقتصادية الانتاجية) ، لتجعل منه شخصية مجردة عامة تلتقي مع الآخرين (افراد الطبقة الاريستوقراطية الكهنوتية) وكأنه - مرة أخرى - واحد منهم .

هاهنا ، يبرز العامل الثاني ، الذي أسهم في توليد وتعميق الاقتران التضايقي السابق الذكر بين السلطة السياسية والدينية . ولعلنا نحدد هذا العامل بأنه الوهم الايديولوجي الذي تمثل - خصوصاً - بنجاح الطبقة العليا في ايهام الأدنى بأنهم وهؤلاء معاً يشكلون بنية واحدة ليس فقط على صعيد ما اعتبر نسقاً إثنياً ، وإنما كذلك في الحقول الاجتماعية الاقتصادية والسياسية والدينية والحقوقية^(٢) . ومن الممكن أن نعتبر هذا العامل الثاني ملحقاً من ملاحق العامل الأول أو محصلته الايديولوجية . ولكننا إذ نميل إلى هذا الموقف ، فإننا نبقى نحافظ على الخصوصية النوعية التي

(١) انظر حول ذلك كتابنا : الفكر العربي في بواكيره وآفاقه الأولى - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ص ٤٨٤ - ٤٨٦ .

(٢) على الصعيد الحقوقي الديني النظري ، كان ينظر الى الجميع على أنهم متساوون في واجباتهم المتمثلة بالخضوع للقانون الديني (الكهنوتي) . ومن ثم ، فقد «كان الاخلاص للقانون الديني هو القاعدة المطلقة للحصول على العون الالهي» . (غاستون بوتول وآخرون : الحروب والحضارات - ترجمة أحمد عبد الكريم ، اصدار مركز الدراسات والبحاث العسكرية ، دمشق ١٩٨١ ، ص ٧٨) .

تمتلكها هذه «المحصلة» إزاء العامل الأول ، أي نمط الانتاج الاقتصادي المأتي عليه آنفاً . بيد أن ذلك الوهم الايديولوجي يكف عن أن يظهر «حقيقياً» ، حالما نخضعه للوضعية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المشخصة . حالئذ ، تبرز تلك القبضة «الذهبية المقدسة» وقد انقضت على ضحيتها «المقدسة» لتقدمها على مذبح يهوه ، الرب الذي لا يهدأ ولا يزول غضبه إلا بعد أن يرى الوفير من الأضحيات والهدايا والنذور قد رفعت اليه تعبيراً عن الخضوع المطلق للملكوته الكلي ، وعن الشكر على نعمه .

هكذا نتبين أن الكهنة جسدوا ، في أساس الأمر وعموميته ، «المركز» ، في حين مثل الشعب اليهودي (وسوف نأتي لاحقاً على هذه التسمية) «الهامش» . أما هذا الأخير فقد استمد شخصيته من المعطى التاريخي التالي ، وهو أن اليهود العبرانيين إذ تكونوا ضمن اطار «شعب يهودي» ، أو لنقل ، إذ وعوا أنفسهم على أنهم كذلك ، أي تجمع بشري يهودي ، فإن اللحظة الدينية غدت وجه هذا التجمع وقاعدته ، في آن واحد . ومن أجل ادراك معمق لكون تلك اللحظة الدينية هي القاعدة ، أيضاً ، نذكر بما قلناه سابقاً حول الدين كموقف اقتصادي اجتماعي وسياسي ، قبل اكتسابه شخصية ايديولوجية ، متميزة ايديولوجياً ^(١) .

ان «هامشية» الشعب اليهودي - مقابل «مركزية» كهنته - تمحورت من خلال العلاقة الناعمة الضابطة لها . إذ على الرغم من الصراعات التي اندلعت بينهما في أدوار تاريخية ومناسبات متعددة ، فقد ظل الكهنة أسياد الموقف . أما ذلك فنعني به أن أطراف الصراع كلها كان عليها أن تكتسب شخصية الكهانة أو

(١) ان هذه الوضعية التي تترد ، هي كذلك ، الى وضعية اقتصادية اجتماعية حضارية (بمعنى مرحلة انتقال من نمط الحياة الرعوية القبلية الى نمط الحياة الزراعية المستقرة والأمنة نسبياً) ، يعبر عنها أحد إلخاخامات بصيغة حاخامية ، أي بلغة توراتية ، حين يدعوها «مملكة الأحبار» : «عندما وجدت اسرائيل نفسها وجدت إلها ، وعندما اضاعت اسرائيل نفسها أو عندما بدأت تعمل لمحو نفسها كان من المؤكد أنها سوف تشكر إلها» (ورد هذا النص في مقال السيرجون ريتشموند «تنقية الجوانب» - ميدل ايست انترناشيونال ، سبتمبر ص ٩ : عن : الدكتور عبد الوهاب محمد المسيري - الايديولوجية الصهيونية ، دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة ، سلسلة : عالم المعرفة ، الكويت ، ديسمبر ١٩٨٢ ، القسم الأول ، ص ٢٣١) .

تلبسها ، لكي تستمد شرعيتها أمام نفسها أولاً ، وأمام خصومها المتصارعة معهم ثانياً . ومن هنا ، فقد اكتسب الكهنوت طابعاً وظيفياً متحولاً تحولاً الوضعية الاجتماعية الاقتصادية والسياسية . وهذا ، بدوره ، يتضمن القول بأنه إذا كان علينا أن نحدد شخصية المنتصر من تلك الأطراف والمهيمن في الوضعية المومي إليها ، فإنه - حالكذ - لابد أن نواجهه ممثلاً بالكاهن الأكبر (أي الجهاز الكهنوتي الأعلى) ، الذي يتمحور حوله - طوعاً أو قسراً - عدد من الأجهزة والجيوب الكهنوتية المتوسطة والصغيرة وما بينهما .

وعلى ذلك ، يتضح أن مقولتي «المركز» و«الهامش» هما ، في نطاق الشعب اليهودي ، وضعيتان متحولتان متغيرتان أولاً ، وتنطلقان ، ثانياً ، من أن هذا الشعب - من زاوية الحالة التاريخية والتراثية المشخصة - تكون في سياق تكون وتبلور الوهم الايديولوجي بأنه شعب كهنوتي . فلقد كانت عملية التكون هذه قد تمثلت بنشوء تجمع بشري قبلي نيطت به مهمة تحقيق مصالح مادية اقتصادية ، وبرعاية اله اتفق على الأخذ به ضامناً لإنجاح هذه المهمة ، وحامياً لأطراف التجمع المذكور ، وكذلك محدداً للمهدف الأكبر لهذا الأخير ، وهو اختيارهم «للاستيطان في فلسطين (أرض الميعاد)»^(١) . وفي سبيل مزيد من التدقيق في دائرة النظر الى هذه المسألة نقول ، ان ذلك التجمع ظهر وبرز كما لو أنه تجمع ديني ، بحيث أن هذه «الدينية» لم يُنظر إليها مقحمة من خارج ، وإنما اعتبرت تجسداً له وتجسياً ، تحميه وتضمن نجاح مهماته الكبرى والصغرى ، وتعايشه معايشة الظل للظليل ، والظليل للظل و«الخيمة للمخيم» . أما السبب الذي يكمن وراء ذلك ويهيمن عليه ، فيقوم على أن «الله قد حلّ في الأمة وبذا أصبحت اسرائيل مشبعة بروح الله ، بالروح القدس»^(٢) .

ان ذلك «الشعب الكهنوتي» قدمه الكهنوت ، المهيمن ضمن اليهود ، من خلال التوراة على أنه شعب «مقدس» ، لأنه «مختار مصطفى» ؛ أو على أنه شعب «مختار مصطفى» ، لأنه مقدس :

(١) انظر : غاستون وآخرون - الحروب والحضارات ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٧٨ ، ١٤٠ .

(٢) آرثر هرتزبرج : الفكرة الصهيونية - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٩٧ .

«فإنكم تكونون لي خاصة من جميع الشعوب لأن جميع الأرض لي .
وأنتم تكونون لي مملكة أحبار (التشديد مني : ط . تيزيني) وشعباً مقدساً»^(١) .
ولعلنا نضيف وجهاً آخر من المسألة من شأنه أن يوضح ، بمزيد من التمعن ، ذلك
الدور الكبير الذي مارسه الايديولوجية الدينية لدى اليهود في مملكتهم ، «مملكة
الأحبار» . فالهيمنة التي مارسها هذه الايديولوجية في حياتهم يمكن أن نفهمها على
أنها هيمنة مؤسسة قائمة على أنها «فوق وظيفية» . فإذا كان الكهنوت قد اكتسب
طابعاً وظيفياً متحولاً تحول الوضعية الاجتماعية الاقتصادية والسياسية ، كما أشرنا من
قبل ، فإن وظيفيته هذه بعد اذ نشأت وتبلورت ، جبت كل الوظائف الأخرى في
المجتمع ، حيث استوعبتها بجعلها جيوباً لها وأقنية تنطلق منها وتقود إليها .

إن ذلك المصطلح «فوق الوظيفية» ، الذي يأخذه مكسيم رودنسون من
عالم الاجتماع جورفيتش ليفر في ضوءه هيمنة الايديولوجية الدينية والجماعات
الدينية في الماضي الاوربي^(٢) ، لا يتسنى له فهمه على صعيد الوضعية اليهودية التي
نحن بصدددها إلا إذا وضعناه في سياقه الشخص من هذه الوضعية ، أي في علاقته
مع خصوصية المسألة اليهودية ، ذات الطابع النسبي على كل حال . أما هذه
الخصوصية فلعلها تبرز من خلال اعتبار الوظيفة الدينية ليس فقط شاملة ومهيمنة ،
وإنما ، كذلك ، بمعنى أنه على كل أشكال النشاط الاجتماعي والاقتصادي أن تتجلى
بصيغ دينية ، على نحو ما وبأفق ما . هذا أولاً ، من ناحية أخرى ، سوف
تستبين لنا خصوصية تلك المسألة حين نبحث في ما سنحدده على أنه صراع
حضاري - وهذا هو في واقع الحال وفي الوضعية التي نحن بصدددها أحد المظاهر أو
أحد التلونات غير المباشرة للصراع الطبقي - بين ركائز الارستوقراطية القبلية
الرعوية والمثلة بالكهنوت الرسمي وبين طلائع الطامحين من اليهود الى الاندماج
بالمجتمع الزراعي (الكنعاني وغيره) . وبطبيعة الحال ، ثمة أوجه أخرى من المسألة
المعنية سنعرض لها في حينه .

(١) الكتاب المقدس - سفر الخروج ١٩ / ٦-٥ .

(٢) انظر : مكسيم رودنسون - المشكلة اليهودية في التاريخ ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ،
ص ١٠٥-١٠٦ .

والحق ، إن تصور «مملكة الأحرار» نواجهه ، كذلك ، في المسيحية والاسلام ، وإن من موقع خلفية اقتصادية واجتماعية حضارية أخرى ، إضافة إلى اختلاف وتميز في السياق الوظيفي . فتصور «القداسة» يقتصر ، من حيث الأساس ، بـ «الأمة المقدسة» المسيحية وبـ «الأمة الأخير» الاسلامية . وإذا ما دققنا أكثر وأعمق في معطيات المسألة ، فإننا سوف نلاحظ أنها - على المستوى الديني اللاهوتي - ترتد إلى كيفية تصور تلك الأديان الثلاثة ، مجتمعة ، للعلاقة التي لا بد وأن يُقرَّ بوجودها بين يهوه والرب الأب والله من جهة ، وبين الانسان من جهة أخرى . فهذه العلاقة تتم ، لدى الاسلام (المحمدي) ، عبر الكلمة القرآنية التي يبلغها محمد للناس بصفته «نبياً» ؛ بينما نجدتها في المسيحية متجلية في المخلص يسوع نفسه ، المخلص الذي هو ابنٌ من حيث هو آب ، وآب من حيث هو ابن (١) .

أما التفرد والطرافة ، اللذان يُقادان - في هذه العلاقة لدى اليهودية - إلى حدودهما القصوى ، فيبرزان من خلال النظر إلى «الأمة المقدسة» ، «الأمة المصطفاة» ، أي «مملكة الأحرار» على أنها هي نفسها ، كلاً وجزءاً ، الانسان الذي يتوجه إليه يهوه . هاهنا ، ينعدم الوسيط ، لينحلَّ في المتوسط من أجله نفسه ؛ إنما دون أن يسفر ذلك عن حلولية أو واحدة وجودية . ولعل ذلك يجد بعض مصادره في الفكر الطوطمي ، أو - باحتمال أكبر وأدعى إلى الدقة - في الفكر الطوطمي والوثني الاسطوري ، الذي ازدهر في بابل وكنعان ، وكذلك لدى الحثيين القدماء (٢) .

لقد حدث الأمر بحيث أريد لليهود أن يكون حسهم الديني الكهنوتي شديداً خصوصياً كثيفاً شدة وخصوصية وكثافة حسهم بالتميز والاصطفاء الإلّيين ؛ مما

(١) ان هذا الأمر ، أي ظهور «الوسيط» المسيحي في يسوع المسيح نفسه كمخلص ، لا يتعارض مع النظر إليه ، في نفس الآن ، بمثابة «الكلمة» الالهية المجسدة : «في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله . هذا كان في البدء عند الله . . . والكلمة صار جسداً وحلَّ فينا وقد أبصرنا مجده مجد وحيد من الأب مملوءاً نعمة وحقاً» (الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس يوحنا ١/١ - ١٤ ، ٢) .

(٢) قارن ذلك بما ورد في : عبد الوهاب محمد المسيري - الايديولوجية الصهيونية ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٢٨ .

يجعل الديني إتنياً واللاتني دينياً . وهذا ، بدوره ، يجعلنا نرى أن كتاب «العهد القديم» هو ، أيضاً ، كتاب تاريخي يؤرخ لليهود بمشائهم تجمعاً أقوامياً وبما تقتضيه حياتهم من علاقات اقتصادية واجتماعية وسياسية الخ . . . ، وإن كان هذا التاريخ مضمناً ، ومرمّزاً ، وزائفاً في حالات كثيرة . ومن هنا ، يصح - نسبياً وبمعنى معين - ما «يقال (من) أن العهد القديم سجل لتاريخ شعب والعهد الجديد سجل لتاريخ عقيدة» (١) .

إن النظر إلى أن الاتني والديني يمثلان وجهين لوضعية واحدة ، كان من شأنه أن يخلق الوهم بأن خصوصية اليهود ذات بعد مطلق اطلاقاً أولاً ؛ كما كان من شأنه ، أيضاً ، أن يولد الارادة «الدينية واللاتنية» لسد كل منافذ اندماجهم بالشعوب المحيطة بهم ثانياً ، وذلك بدعوى أن هذا الاندماج يخالف «طبائع الأمور» ، أي طبائع الشخصية اليهودية المتفردة (٢) . ومن البين ، أوعلى الأقل من الزاجح جداً أن يكون قد كمن وراء ذلك رد الكهنوت المهيمن على عملية الاندماج الواقعية ، التي تمت بين «رعاياء» من طرف وبين «الغوييم» من طرف آخر . فلقد انطوت تلك العملية على نتائج فيها الكثير من عناصر الدمار والتجاوز له : فقدانها لجموع اليهود من الطبقتين الدنيا والوسطى ، بما يقدمونه له من ضرائب وذبائح وأضحيات . . . أي خسارته لـ «البقرة الحلوب» التي يعيش على ما تقدمه من غلات ومن قوى بشرية يحارب بها «الأعداء» . وطبعاً ، كان له ما يريد ، بحدود كبيرة ملحوظة . وضروري أن يقال ، في هذا السياق ، أن الكهنوت إذ انجز تلك المهمة المصيرية ، فإنه نجح فيها ليس من موقع رغبته واضرارته ومصالحه هو فحسب ؛ لقد كان للمعطيات الاقتصادية والاجتماعية ، التي رافقت عملية تبلور اليهود كتجمع بشري ملتحم التحاماً مباشراً وكثيفاً بالحس الديني ، دور بارز في ذلك .

(١) انظر في ذلك : غصام الدين حفي ناصف - المسيح في مفهوم معاصر ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٤١ .

(٢) لايفوت الباحث أن يلاحظ - بمعرض الخوض في هذه المسألة - أن الفكر الصهيوني الحديث والمعاصر تبني المودوث اليهودي المتمثل بـ «مملكة الأحبار» بعناية وحساسية فائقتين ؛ فوجد فيه إحدى ضلالاته الكبرى ، التي من شأنها أن تدعم جهوده باتجاه تكوين «مملكة الأحبار الجديدة» - اسرائيل ، المظهمة والمعمدة بالحلقة العليا للرأسمالية ، الامبريالية .

يبقى أن نشير إلى أن تهيكل الشعب اليهودي على ذلك النحو الكهنوتي وإن انطوى على لحظة مشددة من الاستقلالية والتفرد ، فإنه - في استقلاليته وتفرد هذين - لم يكن بعيداً عن أن يكون تجلياً خصوصياً لبنية اجتماعية طبقية ، يرد الحديث عنها في مكان لاحق من هذا الكتاب .

والآن ، إذا كان المنحى الأول للتصور اليهودي عن المركز والهامش يصب في الداخل ، في داخل التجمع اليهودي عامة ، فإن المنحى الثاني لهذا التصور يتجه نحو الخارج . هذا يعني أننا ، هنا ، نواجه نمطاً جديداً من العلاقات المركبة والمتداخلة والمختزقة من قبل بعضها بعضاً .

إن «المركز» ، الممثل بالشعب اليهودي كله ، كهنوتاً رسمياً مهيمناً وكهنوتاً شعبياً خاضعاً ، يبرز من حيث هو الموقف المقابل لـ «الهامش» ، والتميز عنه إطلاقاً ، والمناهض له ضرورة . فهذا الأخير يقدم على أنه تمثل بكل الشعوب التي لا تنضوي تحت حد «يهودي» ؛ أي إنه الآخر «الغوييم» .

ولما كانت المقابلة بين دينك الطرفين مطلقة الطابع شاملة الأبعاد ، فإن التمثيل والتشخيص يغدوان ملغيين في نطاق المركز ، الذي يبرز - والحال كذلك - بمثابته نسيجاً واحداً ونسقاً موحداً ؛ وكذا الأمر ، أيضاً ، فيما يتصل بهامش ، الغوييم . ففي النظر إلى هذا الأخير ، ينتفي التمثيل والتشخيص والتحديد ، ليغدو الأمر متعلقاً ببنية بشرية واحدة ، تستمد شخصها من كونها خارج دائرة المركز اليهودي ، وداخل دائرة الهامش الغوييمي . وبصيغة أخرى متميزة نستطيع القول بأن المسألة المطروحة ، هنا ، تمثلت بتغييب الشخص والمحدد والعيني في كلا الجناحين ، المركز والهامش ، بحيث أدى الموقف إلى نفي الزمانية والمكانية ، أو - على الأقل - إلى جعلها ظاهرة ملتبسة في أعين «المركزيين» جميعاً ، بمن فيهم وبنسبة ما فريق الكهنة . ولعلنا نعلن ، بما فيه الكفاية من الثقة التاريخية ، أن تلك الوضعية شاركت الوجود اليهودي ورافقه وتداخلت فيه منذ الإرهاصات الأولى لتشكله الأقوامي (الإثني) والديني ، وفعلت به فعلاً أكثر عمقاً وشمولاً مع النفي البابلي وبعده .

وربما وجدنا خطأ حديثاً من أنماط التعبير عن تلك الوضعية ممثلاً بـ «الجوانية» *intériorité*، التي يأخذ بها ممثلون لـ «مدرسة فرانكفورت» ، هوركهايمر وأدورنو وبنيامين . فالجوانية هذه تعني عند هؤلاء «اليوتوبيا» ، التي تقفز فوق المكان والزمان ، لتقود إلى «أرض الميعاد» الموسوية ^(١) . فهنا ، نلاحظ موقف تغييب الزمان والمكان بمثابته معادلاً لتغييب التاريخية والتراثية ، من حيث هما شخصتان . وهذا ، بدوره ، إمعانٌ ذاتوي في الرغبة بتجاوز «الأغيار» تعبيراً عن الطموح إلى الانتقام للعجز الداخلي ، أوللخوف منهم واحتقارهم . ونبقى نشير - في هذا المعقد للمسألة - إلى أن تلك الوضعية تتحول إلى أحجية تتمنع على البحث العلمي التاريخي والتراثي إذا أغفل الدور القيادي الفاعل والحاسم - إلى درجة ضرورية - الذي مارسه فئة الكهنة على هذا الصعيد . أي إن اغفال هذا الدور سيفقد الوضعية المذكورة شخصيتها المحددة ، ويصب - من ثم - في الأطروحة المعروفة التي أتينا عليها فيما سبق ، وهي أن «الجميع» من اليهود سواء بسواء ، لا فرق بين مايوجد ضمنهم من أنساق متميزة بعض التمايز ، إن لم تكن متناقضة ومتصارعة .



(١) انظر : مارك جيمينيز - السلطة والزمنية عند ماكس هوركهايمر (ضمن عرض قدمه الياس مرقص لندوة فكرية في باريس عن هوركهايمر يومي ١٠ و ١١ أيار ١٩٨٤ ، مجلة الوحدة ، باريس حزيران ١٩٨٤ ، ص ١١٢) .

تصور «المركز - الهامش» ووجهه الآخر : «الشعب - الطبقة»

ههنا ، حيث نكون قد بلغنا ما بلغناه من تحديد وضبط لتصور «المركز - الهامش» ولنقيضه المتمثل بالاندماج بـ «الغير - الغوييم» ، فإننا نجد أنفسنا وقد غدونا - منساقين من الآلية الداخلية لذلك التصور - وجهاً لوجه أمام ما يتممه ويوضحه ويشير إليه ، أو ما يمثل الوجه الآخر منه . انه وضعية «الشعب الطبقة» أو «الطبقة - الشعب» . وجدير بالقول أن هذه الوضعية في غاية الطرافة السوسيولوجية والايديولوجية الدينية . فهي تمثل حالة إن لم تكن استثنائية ، فإنها - على كل حال - تبقى تجسد وضعية متميزة غاية التميز بالقياس الى ما سبقها وما عاصرها وما لحقها من وضعيات في تاريخ الشرق العربي ، مع الاضافة بأن «تميز» الوضعية المعنية لا يخرج عن كونه خاضعاً لدرجة عليا من النسبية . وهذا من شأنه أن يجعلنا نعالج الوجه الثاني من التصور المعني ليس على نحو مستقل عن وجهه الأول ، بل عبر ما يربطه به من صلات مرئية وغير مباشرة .

لقد بدا الشرخ الاجتماعي الطبقي ، الذي نهض بين «الشعب الكاهن» والسلطة الارستوقراطية «الكاهنة» ، كما لو أنه تبدد وتلاشى أمام الشرخ الذي «ظهر» قطعياً ما بين هؤلاء جميعاً ومجتمعين من طرف ، وما بين «الآخرين الاغيار» جميعاً ومجتمعين من الشعوب من طرف آخر . وما أسهم في تعميق هذه الحالة أن ذلك الشرخ ظهر على أنه عامل التوحيد الأكبر لجموع اليهود «الكهنة» شعباً وسلطة طبقية ارستوقراطية . ولعلنا نلاحظ أن هذه الحالة أخذت تتضح بمزيد من العمق والاتساع مع انبلاج عالم المسيحية المبكرة ، حيث ظهر في الأوساط الدينية من اطلق

عليهم «اليهود المسيحيين» و «المسيحيين الأعمى». فعلى الرغم من أن رابطاً عقيدياً ، وتنظيماً ، إلى حد ما ، جمع هؤلاء بأولئك ، وهو الدين الجديد ، المسيحية ، فقد ظل أولئك (اليهود المسيحيون ، أي اليهود الذين تمسحوا والذين سوف يدعون بالنصارى) ينظرون إلى المسيحيين من «الأمم» الأخرى بكثير من الريب والحذر وعدم الثقة ، وكذلك الاحتقار والإذلال .

بل إن الأمر ذاك اكتسب ، فيما بعد شيئاً فشيئاً ، طابع الخصومة والصراع والقتال المسلح بين الفريقين المعنيين . وبطبيعة الحال ، لايجوز التنكس للافتراض بأن عوامل عديدة ومتشعبة ومتداخلة كمنت وراء ذلك الموقف . بيد أن واحداً من هذه العوامل كان ، ولاشك ، مرتيناً بما أطلقنا عليه علاقة «المركز اليهودي» بـ «الهامش الغوييمي» .

إن ذلك العامل ، المهم بدلالاته التاريخية والاجتماعية والذي دفع رهطاً من الكتاب السياسيين باتجاه إنجاز دراسات في المسألة اليهودية من موقع تصور «الشعب - الطبقة»^(١) ، كان فريدريك أنجلز قد ألح المح إليه ضمناً ، دون أن يفرد له بحثاً خاصاً . فلقد كتب ، في معرض مناقشته لأراء برونو باور حول المسيحية المبكرة ، مايلي : «اليهودية ، أيضاً ، سلكت طريقاً باتجاه الدين العالمي ؛ لكن أبناء إسرائيل (اليهود) ظلوا يمثلون دائماً اريستوقراطية ضمن المؤمنين والمختونين (من الشعوب الأخرى)»^(٢) .

وإذا ما لاحقنا المسألة بمزيد من التدقيق سطحاً وعمقاً ، استبان لنا أن نشوء المسيحية نفسها كان مرتيناً ، من حيث الأساس العام والإجمالي ، بتجاوز تلك الارستوقراطية الايديولوجية (الدينية) اليهودية ، ذات الجذور الشعبية والسلطوية الرسمية ، على حد سواء ، أي - وهذا ما يهمنا في سياقنا الآن - بتجاوز تصور «المركز والهامش» . وكما هو قابل للاستنباط من المعطيات التاريخية العامة ، فقد كان على المسيحية أن تبقى عاجزة عن تحقيق تلك المهمة إلى أن أتيج لها أن تتحول -

(١) انظر بصورة خاصة : ابراهام ليون - المفهوم المادي للمسألة اليهودية ، ترجمة وتقديم عماد نويهض ، دار الطليعة بيروت ١٩٦٩ .

(2) Friedrich Engels: Bruno Bauer und das Urchristentum (In: a.a.O., S. 162).

ضمن ظروف الامبراطورية الرومانية النازعة الى العالمية في بدايات القرن الرابع اثناء عهد الامبراطور قسطنطين - الى دين عالمي (أعني بتعبيرها) قادر على أن يستوعب معظم الاتجاهات الدينية والفلسفية في حينه . وقد ترتب على ذلك أن تسقط المسيحية ، في صيغتها العالمية هذه ، عناصر كبرى كانت قد انطوت عليها في مراحلها الباكرة . من هذه العناصر ، مثلاً ، تلك التي ظلت تشكل وشماً بارزاً في «رؤيا يوحنا» ، هذه الرؤيا التي اتضحت فيها وأعلنت عن نفسها - بحسب ما يرى بعض الباحثين - المعالم الأولى الباكرة والأكثر قدماً للدين الجديد ، المسيحية (١) . ومن هنا اذن ، فإن وضعية «الشعب - الطبقة» يمكن النظر إليها بمثابة تجسيدا للتصور اليهودي الكهنوتي حول المركز والهامش ، أو تعبيراً عنها ضمن ما قد يوجد من تعبيرات أخرى .

في هذا المنعطف من البحث ، نجد أنفسنا وقد واجهنا ضرورة التمييز بين مستويين من المسألة المطروحة . المستوى الأول يتمثل بالموقف الايديولوجي التوراتي ، وينهض عليه ، ويكتسب به صيغته التسويغية «الكهنوتية المقدسة» ؛ أما المستوى الآخر فيظهر عبر الوضعية الاجتماعية المشخصة ، التي أحاطت باليهود واخترقت وحددت حياتهم العامة الطبقة والفئوية والأقوامية (الأتنية) . ان التمييز بين المستويين المذكورين من شأنه أن يضع أيدينا على مفاتيح الحياة اليهودية الواقعية ، التي لا تستطيع نصوص «العهد العتيق» أن تعطينا لوحة صحيحة عنها . هذا أولاً ؛ وثانياً ، يقودنا ذلك التمييز الى اكتشاف آلية تكوّن الأوهام الايديولوجية في ذلك «العهد» ، تلك التي تظل ، مع ذلك ، حائزة على حدٍّ من الواقعية من حيث هي تعبير عن رغبات الكهنوت ومطامعه ومطامحه . وهنا ، نجد ضرورة النظر الى التمييز المعني على أنه نسبي الطابع ، ليس إلا . فنحن نلاحظ أن تصور المركز - الهامش يتحدر ، في أسّ الأمر ، من الذهنية الكهنوتية المهيمنة في نصوص «العهد العتيق» عامة ، ونصوص التوراة (الأسفار الخمسة) على نحو خاص . وهذا يتضمن القول بأن تلك النصوص ، جميعاً ، تأثت عن الأصول الكهنوتية ، التي كانت مهيمنة سياسياً ، وكذلك عن تلك التي مارست وزناً سياسياً ضمن جلّ

(١) انظر حول ذلك ، على سبيل المثال :

Ebenda ، وكذلك Prosper Alfari: Die sozialen Urspruenge des Christentums, a.a. O., S. 3.

اوساط المعارضة . بتعبير آخر يمكن صوغ الأمر على النحو التالي : ان الايديولوجيا الدينية التوراتية هي التي جسدت متن التصور المعني والأشكال التي قُدم بها ؛ وهي ، كذلك ، التي قدمت الحجج والأدلة ، بلسان كبار الكهنة وصغارهم ، للدفاع عن الشخصية اليهودية «المتفردة المتميزة» . فلقد كان ذلك ذا أهمية حيوية خاصة بالنسبة الى مصالح الكهنوت المتمركز في مفاصل الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . ذلك لأن عدم الالتحاق على هذا الطراز من الشخصية ، كما سنوضح ذلك لاحقاً على نحو مخصص ، فهم من قبل الكهنوت إياه بمشابهة أمراً ينطوي على كثير من المخاطر التي قد يلحقها به . في طليعة هذه المخاطر وفي حذها الأدنى أنه يؤدي إلى اندماج اليهود في الآخرين الأغراب (الغوييم) ، بدرجة أو بأخرى و كلياً أو جزئياً . وإذا ما حدث أن تم ذلك ، فإن عملية انتقال من حالة البداوة والرعي الى حالة الزراعة كانت لابد وأن تترتب عليه ، أو أن تكون واحداً من احتمالاته . وهذا ، من طرفه ، لم يكن ليفهم من قبل قمة الهرم (الكهنوت) ، ضمناً وصراحة ، إلا من حيث هو سيرٌ على طريق تقويض مصالح هؤلاء الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، أي - بتعبير أكثر تكثيفاً - تقويض هيمنة «المركز» اليهودي على «الهامش» اليهودي .

بيد أن ذلك المستوى الايديولوجي التوراتي للمسألة ماكان له ، على الصعيد العملي الأكثر تعقيداً وتركيباً وتمتعاً من ذلك التصور (الحلم - الوهم) الكهنوتي ، أن يفرض نفسه بصور قطعية وشاملة وحاسمة . وهنا ، نواجه المستوى الآخر ، الاجتماعي المشخص للمسألة المعنية . فالتجمع القبلي (اليهودي) ، الذي تمحور حول الاله الجديد واكتسب شخصيته «المشروعة» عبر «وثيقة العهد» التي قطعت بالدم والمحرقات والاضحيات بين الطرفين ، أخذت تهزه التحولات العاصفة أحياناً والخفيضة الواعدة أحياناً أخرى . حدث ذلك في الحين الذي شرع أفراده ، الأدين منهم خصوصاً ، يجدون أنفسهم وجهاً لوجه أمام معطيات اقتصادية (زراعية) واجتماعية وسياسية جديدة في نطاق البلد الجديد ، الذي «يسيل اللبن فيه والعسل» . هاهنا بالضبط ، برزت عملية الاندماج ونشطت مع شعب هذا البلد نشاطاً بارزاً مضطرباً ، مما هدد بمخاطر جدية على كيان التجمع «الديني الإثني» ، وعلى رأسه الكهنوت ، بمفاتيحه الاقتصادية والسياسية الكبرى .

ان ما يتضح من ذلك وما نرغب ، نحن بدورنا ، التأكيد عليه ، هو أن
الايديولوجيا الكهنوتية وإن اختطت لنفسها جذوراً عميقة في الحياة العامة (والخاصة
أيضاً) لليهود ، فإنها لم تتمكن من أن تتحول الى وضعية الشمول والقطعية .
وهذا ، بدوره ، يشير الى أن تصور «المركز - الهامش» التوراتي ظل ، في حقيقة
الأمور ، أعجز من أن يمثل الوضعية بكاملها ؛ لكنه ، دائماً وكما الملحنا من قبل ،
جسد شخصية الكهنة الأعلى ، وعبر عن مطامعهم ومطامعهم ومثلهم العليا على
الأصعدة الأربعة ، الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية . وما يشير الانتباه
ذلك الأمر النموذجي الذي تمثل بمطالبة الكهنوت لجمهوره بأن يجدد دائماً وأبداً
«وثيقة العهد» مع الرب ، أي معه . وقد كان هذا يحدث ، خصوصاً ، في خضم
تعاظم عمليات الاندماج بالآخرين من شعوب المنطقة في حفل التزاوج والعلاقات
الاقتصادية الزراعية . ووصل الموقف مراراً إلى حالة من الخطر ، بحيث أن الموجة
الاندماجية اخترقت حتى أوساط أبناء الكهنة الكبار ، مما جعل السلطة الكهنوتية
العليا تلجأ الى تدابير عنيفة لتحويل دون ذلك ، أو تخفف من وطأته . ولعل عزرا
يقدم واحدة من أكثر الصور عنفاً على هذا الصعيد (١) .

(١) لنتمعن جيداً في الصورة التالية ، التي يسجلها عزرا توثيقاً لتاريخ «الكفاح من أجل الاعتزال
ضد الاندماج» ، ومن ثم في سبيل عقد «وثيقة عهد» جديدة مع الرب . ولكن بعد «تنقيحها»
وضبطها بضوابط دلالاتها الواقعية للشخصية :

«ولما صلى عزرا واعترف باكياً وهو منطرحُ قدام بيت الله اجتمع إليه من اسرائيل جمع كثير
جداً من الرجال والنساء والأولاد لأن الشعب بكوا بكاء شديداً . فأجاب شكناين بمحييل
من بني عيلام قال لعزرا إنا لقد تعدينا على إلهنا وأخذنا نساء غريبات من أمم الأرض غير أن
لاسرائيل الآن رجاء في هذا . لنبتن الآن عهداً مع إلهنا على اخراج جميع النساء وأولادهن
جرباً على مشرورة سيدي . . . فأطلقوا نداء في يهوذا وأورشليم الى جميع بني الجلاء ان
يجتمعوا الى اورشليم . وأن كل ما لا يجيء في ثلاثة أيام على حسب مشورة الرؤساء
والشيوخ تُبسل كل امواله ويفرز هو عن جماعة أهل الجلاء . . . وجلس جميع الشعب في
ساحة بيت الله مرتعدين من هذا الأمر ومن الأمطار . فقام عزرا الكاهن وقال لهم انكم قد
تعديتم واتخذتم نساء غريبات لتزيدوا في اثم اسرائيل . . . » (الكتاب المقدس - سفر عزرا
١٠/١-٣، ٧-١١) .

وإذا كان الأمر كذلك ، فإن تصور «الشعب - الطبقة» لم يجد مجال تحقيقه إلا في فترات خاصة ومتقطعة من التاريخ اليهودي أولاً ؛ كما لم يكن هذا التحقق في تلك الفترات إلا جزئياً ، غير شامل ثانياً . نقول هذا وذاك ، مع الاضافة بأن النصوص وحدها (العهد العتيق) هي التي دعت الى الأخذ بمثل ذلك التصور ، إجماعاً أو على نحو مفصّل عنه ، ولكن بصيغ حازمة . من طرف مقابل ، لعل الباحث في تلك النصوص لا يعدم وجود البعض منها الذي يقدم حججاً على نقض التصور المذكور . إلا أن هذا الاحتمال الأخير وإن أعلن عن نفسه حقاً ، فإن السياق الأساسي والعمومي لنصوص العهد العتيق تظل متآخية مع تصور «الشعب - الطبقة» ، وموالية له ، ومعرضة على التفكير فيه والأخذ به : إن الأساسي لا يلغي الثانوي ، بل يُقرّبه عبر إعلان هيمنته عليه . وهذا «الثانوي» نفسه هو الذي شكل نوافذ وكوى للفكر «الأخر» الذي جعل منه «الهراطقة» سلاحاً في كفاحهم ضد المهيمنين من «مستقيمي الرأي» .

ومن هنا ، كان من العسير بمكان أن نكتفي بما قال - في هذا الحقل من المسألة - ابراهام ليون تحت مصطلح «الشعب - الطبقة» ، بقدر ما هو - من طرف آخر - غير وارد قطعاً أن نقر بما طرحه مكسيم رودنسون ، على عواهنه ، من أدلة لرفض هذا المصطلح ودحضه . ولهذا ، فإن دراسة تاريخية تطبيقية تغدو أمراً مطلوباً من أجل تقصي المسألة المعنية ، وذلك ضمن افتراض تاريخي عقلي وتاريخي نصي . وإذا ذاك يستين لنا ، بما فيه الكفاية وبقدر ما هو ضروري ، أن اشتطاط الباحثين في موقفيهما المشار إليهما قمين بأن يطيح بواحد من المداخل الأساسية الى فهم المسألة إياها .

لقد انطلق ليون من أن اليهود حافظوا على بقائهم بسبب من أنهم مثلوا حالة خاصة متميزة تتحدد في أنهم ، من حيث هم كذلك ، وُجدوا كـ «شعب - طبقة» . أما أن يكون هذا الشعب قد وجد هكذا ، أي شعباً في طبقة أو طبقة في شعب ، فإنما لكونه اقترن ، في جوهر المسألة ، بوظيفة اجتماعية اقتصادية محددة ، تلازمه من حيث هو ؛ والمعنى بهذه الأخيرة يتحدد بوظيفة التجارة والمال . ويوضح ليون رأيه هذا من خلال فهم العلاقة بين الطبقة والشعب (العرق) في المجتمعات ما قبل

الرأسمالية على أنها علاقة متضايقة (١) .

وقد رفض مكسيم رودنسون هذه النظرية ، لأنها - برأيه - لا تفسر لنا شيئاً من الوضعية التاريخية اليهودية . إنها ، في اعتقاده ، «لا تفسر شيئاً . . . ، ولا تفسر بقاء اليهود في أوروبا ، قبل الحروب الصليبية أولاً ، حيث كانوا يمارسون كل المهن الممكنة ويزاولون مهنة الإقراض ، وهذا لا يفسر الواقع إلا بشكل جزئي حتى في أوروبا لأن أغلبية اليهود لم يكونوا من رجال المصارف ولا يفسر لنا أي شيء في اعتقادي ولا يفسر لنا أي شيء بالنسبة للشرق الاسلامي حيث كان اليهود يمارسون كل المهن على اختلاف أنواعها ولكنهم بقوا مع ذلك ، ومن الواضح أننا بحاجة الى تفسير أشمل» (٢) . وبذلك ، فنحن ، هنا ، إزاء رفض لما يمكن أن يمثل مشكلة يهودية ، بصورة ما وبدرجة ما ، مشكلة من النوع الذي يمكن ضبطه بمصطلح ما كمصطلح «الشعب - الطبقة» ، وخصوصاً في المراحل التاريخية السابقة على

(١) يكتب ابراهام ليون (المفهوم المادي للمسألة اليهودية - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٧) مايلي : «يشكل اليهود في التاريخ ، قبل أي شيء آخر ، مجموعة اجتماعية لها دور اقتصادي محدد : إنهم طبقة أو على الأصح شعب - طبقة .

إن هذا التطابق بين الطبقة والشعب (أو العرق) هو غير استثنائي في مجتمعات ما قبل الرأسمالية ، حيث تتميز الطبقات الاجتماعية ، غالباً ، بطابع قومي أو عرقي» . ويتابع ليون على نفس الصفحة مستشهداً بـ A. Thiery الذي يقول : «ليست الطبقات السفلى والطبقات العليا في عدة بلدان إلا شعوباً غازية أو شعوباً مستعبدة من عصر سابق ، وقد شكل عرق المحتلين طبقة نبيلة مرفهة طفيلية . أما العرق المحتل ، فلم يعش من السلاح ، بل من العمل» . ويضيف ليون الى ذلك ما قاله كاوتسكي بهذا الصدد (على نفس الصفحة) : «يمكن لطبقات مختلفة ان تكتسب طابعاً عنصرياً معيناً ، ومن جهة أخرى ، ان تلاقي أعراق مختلفة - مخصصة كل منها في عمل معين - يمكن أن يؤدي إلى احتلال كل عرق مركزاً اجتماعياً متميزاً ، ضمن الجماعة ، ومن المعقول عندئذ أن يصبح العرق طبقة» .

وينتهي ابراهام ليون الى ما يدعوه «قانون الاندماج» ، الذي يحدده على النحو التالي (نفس المرجع ، ص ٣٢) : «حيثما يتوقف اليهود عن تشكيل طبقة (- شعب) ، تختفي بشكل أو بآخر خصائصهم العرقية والدينية واللغوية ، ويندمجون» .

(٢) مكسيم رودنسون : المشكلة اليهودية عبر التاريخ - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص

. ١١٠

الحروب الصليبية الأوروبية ، والسابقة على الاسلام في الشرق العربي .

والحق ، اننا نلاحظ وجود مثل وجهة النظر هذه لدى فريق من الباحثين ، الذين يربطون نشوء «المشكلة اليهودية» بعملية تفسخ النظام الاقطاعي في أوروبا في المرحلة الممتدة من القرن الثاني عشر الى القرن الخامس عشر^(١) . ومن ثم ، يغدو البحث في التاريخ اليهودي ما قبل القرن الثاني عشر تاريخاً ليس فيه ما يشير من المواقف اليهودية المشكليه ، التي اقترنت بوضعيات اليهود الاقتصادية الاجتماعية والسياسية والايدولوجية الدينية) .

لعل ذلك الرأي يقوم على تبسيط مبالغ فيه للمسألة اكثر مما يعبر عن واقع الحال التاريخي . فمع الإقرار بأن عملية انهزام النظام الاقطاعي في أوروبا استتارت ، في حينه ، جملة من المواقف التي اكسبت اليهودية وجهاً مشكلياً جديداً ونوعياً ، وكذلك خطيراً ، إلا أن هذه المواقف ، وأخرى غيرها ، كانت قد أعلنت عن نفسها بصيغ أولى بسيطة ، على الأقل منذ ولادة الكهنوت اليهودي ، من حيث هو مشروع طبقة اجتماعية وقائد ايدولوجي (ديني) . بالطبع ، هذا الأمر كان قد مكّن

(١) انظر ، على سبيل المثال : بدیعة أمين - المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية ، بيروت ، دار الطليعة ١٩٧٤ . وكانت الباحثة قد نشرت تلخيصاً لكتابها هذا قبل صدوره في مجلة : دراسات عربية ، بيروت ، السنة الحادية عشرة ، تشرين الثاني ، العدد (١) ١٩٧٤ ، وذلك تحت عنوان : موضوعات عن المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية ، ص ٤٧-٥٧ . فعلى الصفحة ٤٩ من هذه الأخيرة ، تكتب بدیعة أمين مايلي : «ان المشكلة اليهودية لم تبدأ إلا حوالى القرن الثاني عشر في الجزء الغربي من القارة الأوروبية وذلك نتيجة لولادة طبقة جديدة من التجار الأوروبيين المسيحيين وبعد نشوء مؤسسات وبيوتات مالية ومصرفية وتجارية مسيحية أخذت تمارس في هذا الجزء من القارة ما كان يؤديه حتى ذلك الحين التاجر والصيرفي والمرابي اليهودي الفرد من خدمات تجارية وصيرفية وربوية . وقد رافق تنامي هذه الطبقة في بلدان أوروبا الغربية المختلفة في الحقبة الواقعة ما بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر تقريباً المشكلة اليهودية التي كانت واحداً من مظاهر انحطاط النظام الاقطاعي وزواله» .

وجدير بالذكر ان المؤلفة ، في رأيها ذاك ، تنطلق من ابراهام ليون ، الذي يرى في القرن الثاني عشر بداية تفاقم جدي لوضع اليهود في أوروبا الغربية . (انظر : ابراهام ليون - المفهوم المادي للمسألة اليهودية ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٧) .

لنفسه وتبلور ونما ضمن ظروف اقتصادية وجغرافية شديدة التعقيد والتركيب .
وحين نقرن هذه المسألة بولادة الكهنوت المعني هنا ، فإنما يهدف الإشارة الى المعطى
العام التالي ، وهو أن وجود الكهنوت ذاك كان مشروطاً بسيادته الشاملة بحدود
الضرورة على التجمع القبلي اليهودي ، وباستمرار هذه السيادة عبر حوافز دينية
ايدولوجية ، كان في طبيعتها ، خصوصاً ، الايهام بالتميز الديني والإثني .

وضروري ، في هذا السياق البالغ الحساسية ، أن نأخذ بعين الاعتبار
العميق الحركة الموضوعية الغالبة والنموزجية ، التي كانت تدفع اليهود باتجاه
الاندماج مع السكان الأصليين في فلسطين اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً ، أي
باتجاه الاندماج في مجتمع زراعي تجاري متقدم بالقياس إلى البداوة والرعي . وهذا
الاتجاه هو الذي أعلن الكهنة عن مناهضته بكل الوسائل المتاحة ، مهما بلغت من
الشدة والعنف ، ومهما استدعت من الضحايا البشرية من جانب الطرفين ، طرف
«الرعية» وطرف الأعداء . كما ينبغي ، ضمن نفس السياق وإن بمستوى آخر من
المسألة ، التمعن في الواقعة التالية ذات الدلالة الدينية البليغة ، وهي أن عملية
الاندماج تلك كان عليها أن تعني ، ضمن ما عتته ، مناهضة الآلهة المحلية (يهوه
على نحو خاص ومركز) ، وبالتالي مناهضة من يرعاها ، وينظم شؤونها ، ويلوذ
بحمايتها ، ويسيطر باسمها اقتصادياً وسياسياً ودينيّاً ؛ نعني بذلك ، بطبيعة
الحال ، فئة الكهنوت . وقد ظهر هذا الأمر هاماً وخطيراً وذا آفاق مستقبلية
واعدة ، لأنه كان - في حقيقته - تعبيراً عميقاً عن صراع طبقي وحضاري بين الكهنة
المهيمنين من طرف ، وبين بقية اليهود أو معظمهم من طرف آخر .

وهكذا ، فنحن إذا ما وضعنا بحسباننا ذينك الأمرين كليهما ، من حيث هما
عنصران يتمم الواحد منهما الآخر ، وضحت أماننا الارهاصات الباكورة لـ «المشكلة
اليهودية» . فهذه الأخيرة يمكن تحديدها أو تحديد ملامح رئيسية منها - والحال على
النحو المقدم - بأنها مشكلة العلاقة المأزومة والمعقدة بين التوجه الطبيعي الضروري
نحو الاندماج الطبيعي بمجتمع متقدم والانفتاح عليه والانطلاق منه في تلبية
الاحتياجات المعاشية لجموع «الجياع المحرومين» من اليهود العبرانيين من طرف ،
وبين الشخصية الطبقية والفئوية والايدولوجية (الدينية) للكهنوت المهيمن ،

الكابحة لكل مامن شأنه أن يؤدي الى تحقيق ذلك التوجه الجامح من طرف آخر (١) .

إن تلك الوضعية حملت في احشائها وشماً مميزاً ومميزاً ، لايسع الباحث المدقق إلا أن يأخذه بعين الاعتبار العميق في حال معالجته له «المشكلة اليهودية» . أما هذا «الوشم» فينهض على أنه لما كانت اللحظة الدينية الكهنوتية اليهودية تضعف أو تُنم عن بعض ضعف (وهي هنا تجسد ، ضمن ما تجسده ، موقفاً اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً وكذلك إتنياً) ، كانت العلاقة المأزومة ، المنوه بها ، ترتد الى وراء لصالح الاندماج بمجتمع آخر (المجتمع الكنعاني الفلسطيني) ، بكل حقوله وشرائنه ، بما في ذلك الحقل الديني نفسه . فهذا الأخير ، الذي مثل - في حينه - طريقاً لا بد من سلوكها والمرور بها لتحقيق الاندماج ، اختلف ، في دلالة الاندماجية البعيدة المدى ، اختلافاً جذرياً وعميقاً عن الحقل الديني اليهودي المُسقط أو الذي في طور الاسقاط أو الإنهاك .

فانطلاقاً من الدلالة الاندماجية تلك ، برز الحقل الأول (الكنعاني) مختلفاً متميزاً عن ذاك (اليهودي) ، خصوصاً على الأصعدة الاقتصادية والاجتماعية والالتنية والسيكولوجية .

لقد انطوى على طاقات دينوية حافزة ولحظة مشددة من لحظات الفعل الاقتصادي الزراعي ، بما في ذلك من توجه عقلي تفاؤلي حيال الطبيعة والعمل .

١٤١ ان الحديث ، مكثفاً ومدققاً ، عن عملية الاندماج اليهودي بالمجتمع الزراعي الكنعاني على نحو خاص ، له - هنا - مسوغات قصوى . فقد كمنت أهمية هذه العملية في أنها حددت ، إلى درجة ملحوظة ، مصائر العلاقة بين اليهود أنفسهم من حيث هم «مركز» متمثل باريستوقراطية قبلية مغلقة ، و «هامش» مجسد بأفراد مضطهدين من قبل هذه الأخيرة ونزاعين الى الاندماج بـ «الأغيار - الغوييم» الزراعيين . فلقد كانوا يتوقعون من هذا الاندماج ان يحققوا تحررهم (انفلاتهم) من اريستوقراطيتهم المتسلطة ، ومن ثم تحسين اوضاعهم الاقتصادية ، وانخراطهم في استقرار اجتماعي . ويبدو أن عملية الاندماج تلك سارت اشواطاً بعيدة ، وذلك الى درجة ان قسماً من اليهود فضلوا البقاء في فلسطين مع اقربائهم الكنعانيين على الذهاب الى مصر مع من ذهب منهم بسبب حالات الجفاف الكثيرة ، التي كانت تلم ببعض مناطق فلسطين . (انظر حول ذلك :

Mantle G. Gamoran- The New Jewish History, The Union of American Hebrew Congregation, New York.N.Y., fourth Printing 1960, P. 63).

نقول هذا مع الإشارة الضرورية الى أن طرافة الموقف تكمن في أن الانغلاق اليهودي جرى ضبطه وتكريسه من قبل اللحظة الدينية اليهودية ، القائمة على عنصر التوحيد الالهي ، المقترن ، ضرورةً ، بتصور يهوه رباً للحرب وللجنود المختارين والممتازين المتميزين ، بحيث تحول هو نفسه (الانغلاق) إلى أحد أوجه هذه اللحظة وإلى واحد من مقتضياتها البنيوية ^(١) ؛ في حين أن الاندماج اقتصر ، لدواعٍ واحتياجات داخلية حثيثة ، بعناصر كبرى وواسعة من الوثنية الطبيعية التعددية ، التي تخضع - في نهاية المطاف وفي التحليل النهائي - لنمط من انماط الواحدية .

ألا نجد أنفسنا ، والحال كذلك ، تجاه معطى تاريخي وتراثي يتطلب منا الوقوف بحذر وتحفظ شديدين إزاء ما يعلنه بعض الباحثين من أن التطور التاريخي والتراثي هو- في كل الأحوال وعلى نحو قطعي - تطور من الأدنى إلى الأعلى ومن البسيط إلى المركب ؟ ١٩ نطرح هذا التساؤل ونحن - في نفس الحين - نعلم أننا في الحالة التي نعالجها نواجه مستويين اثنين يلتقيان ويتقاطعان ، عبر أقبية متميزة ومتوسطة ، في حدٍّ ما من التصور الواحدي ، نظراً إلى أن «الوثنية التعددية» الكنعانية ظلت تخفي في متنها الداخلي ناظماً توحيدياً يخترقها في العمق ، من حيث الأساس . والأمر هذا يظل محافظاً على صحته حتى حين نكون حيال حالة من نمط ما يسمى «الثالث» أو «السابع» في الذهنية الكنعانية . أما لماذا عرضنا المسألة على أنها اتجاه من الواحدية اليهودية الى التعددية الكنعانية ، فلأن الأمر طرح ، في سياقه الاجتماعي والسياسي ، هكذا .

(١) ينقل سهيل ديب في كتابه (التوراة - تاريخها وغاياتها ، دار النفائس بيروت ، الطبعة الثانية ، ص ٤٩-٥٠) عن آرثر روبن قولاً ورد في كتابه المعروف تحت عنوان The Jew of the Present: A socio-scientific Study, Berlin 1904. في ذلك القول تبين مدى النجاح الذي احرزه الكهنة المهيمنون في مهمتهم ، وإن كان هنالك مبالغة لا تاريخية في تقرير ذلك ، وغياب للتحليل الاجتماعي والتاريخي الشخص : «ان زعماء اليهود الأولين قد خططوا بدقة لكي يبقى اليهود كتلة واحدة متماسكة ، وذلك باتخاذهم سلسلة من (الاجراءات الاستثنائية) بحيث أصبح (انعزال اليهود واقعاً كاملاً وازلياً) ، وأمكن ابقائهم طوال هذه القرون تحت سيطرة زعمائهم الكاملة ، وهؤلاء قد اثبتوا ، على مرّ الأجيال والعصور ، كفاءة نادرة في هذا الحقل إذ خلقوا جيلاً بعد جيل من اليهود الذين كيفت عقولهم لقبول فكرة (العرق الذي نشأ وترعرع وراء الجدران المحصنة) مما يؤدي منطقياً وواقعياً ، الى بقاء سيطرة الزعماء» .

فلقد نظر الكهنة اليهود ، في سلوكهم تجاه الكنعانيين وفي انطلاقهم من اهتماماتهم وهمومهم ومصالحهم المشخصة ، الى الذهنية الكنعانية على أنها وثنية تعددية الشخصية ، من حيث البعد الجوهري وفي صلب الموقف . ومن أجل مزيد من تدقيق الحالة المعنية ، علينا أن نضيف بأن تلك «الوثنية التعددية» إذ لاحت في أعين أولئك الكهنة مظهراً من مظاهر الاندماج أو نتيجة من نتائجه ، فقد غدت مجابته والتغلب عليها شأناً من شؤون الحفاظ على المصالح المهددة ، مصالحهم ومصالح من يتمحور حولهم ويكمن وراءهم . ثم ، إذا ما تبين لنا أن «الوثنية التعددية» إياها مارست ، على الصعيد الديني والسياسي وبأشكال ملحوظة ، وظيفة ديمقراطية تفاؤلية حافزة (نفهمها بمثابته أحد احتمالات العلاقات المشاعية القروية التي يتمتع بها فلاحو المشاعات القروية خصوصاً) ، فإن بعداً آخر من المسألة المطروحة يبرز ليضيء عملية القمع التي قادها الكهنة المستبدون ، بدون تحفظ وفي معظم الأحوال ، ضد الطامحين من اليهود الى الالتحاق بصفوف أولئك الفلاحين ذوي الأصول «الوثنية التعددية»^(١) . إننا ، إذن ، أمام ظاهرة طريفة مثيرة تستحق اهتماماً مركزاً وشاملاً من اهتمام الباحثين في التاريخ الديني والسياسي والاقتصادي ، وكذلك اللغوي الدلالي .

(١) ان هذه الوضعية القائمة على تساوق بين الاندماج من طرف ، وبين تبني الهة «الآخرين» الكنعانيين خصوصاً من طرف ثان ، تغيب عن ملاحظة جمع كبير من الباحثين والكتاب (واللاهوتيين بطبيعة الحال) . فلقد اعتبرت الوضعية المعنية ، التي مثلت - كما لاحظنا - تجسداً لصراع أو خصومة «المراطقة الأبقين» من اليهود مع ساداتهم والتحاقاً كلياً أو جزئياً من قبلهم بصفوف «الأعداء - الغوييم» ، دليلاً على «لامبدئية» اليهود مع إلههم الغاضب يهوه . بتعبير آخر أكثر تخصيصاً يمكن القول بأن هذا الموقف ينظر الى تلك الوضعية من موقع اخلاقي ، مجرد عن اللحظة التحليلية المشخصة تاريخياً وتراثياً . ذلك ما نواجهه ، في وجه من أوجهه واحتمال من احتمالاته ، في وجهة النظر التالية التي عبر عنها علي ابو عساف في (التوراة والتراث - ندوة جماهيرية اشترك فيها اضافة الى الباحث المذكور حرب فرزات ومحمد مجفل وادارها عبد الرحمن الحلبي ، مجلة : المعرفة ، دمشق آذار ١٩٨٤ ، ص ١٢٥) : «عبادة (يهوه) كانت لتلبية حاجة . والدليل على ذلك بأنهم عندما يرغبون (أي اليهود) يتخلون عن عبادته ويعبدون الرب (بعل) في فلسطين» .

الفصل الثاني

التاريخ اليهودي - من الوحي إلى الواقع المشخص

١

«التاريخ وحي والوحي تاريخ»

ان البحث في التاريخ اليهودي يبدأ ، حقاً ، ويفصح عن نفسه بصور «عادية» ، حيث يرى الباحث فيه ، ببساطة ، تاريخاً بشرياً ليس إلا ، مثله في ذلك مثل تاريخ أي شعب آخر وأي دين آخر . بصيغة أخرى ومن زاوية ثانية واردة يمكن القول ، إن الباحث يخطو الخطوة الأولى على طريق التقصي العلمي المتواضع والرصين ، حين يضع بين قوسين كل مامن شأنه أن يقود نشاطه إلى حقل المطلقات ، سواء أكانت ايديولوجية (دينية) أو عرقية (إثنية) وغير ذلك من هذا القبيل . ان هذا المطلب البحثي ، المبدئي وذا الحد الأدنى الضروري ، يشكل على صعيد التاريخ لليهودية ، شعباً وديناً ، نقطة ذات حساسية وأهمية خاصتين ؛ ذلك لأن تجاوز هذا المطلب يعلق البحث في ذلك التاريخ ، عُيلاً إياه إلى ظاهرة إعجازية خارقة .

وسواء فهمت تلك الظاهرة سلباً أو إيجاباً ، أي إدانة لها مع الإقرار بوجودها أو تأكيداً عليها والتمجيد بها ، فإن المسألة ، على صعيد الموقف المنهجي النظري ، تظل واحدة : إنها خرق لمقتضيات وشرائط البحث العلمي التاريخي أولاً ، وامتهان للرغبة المشروعة في الوصول الى الحقيقة التاريخية ثانياً ، وربما كذلك توظيف نفعوي (براغماتي) لوضعية الاضطراب والتشويش واللاانضباط المترتبة على ذلك ثالثاً .

في سياق هذا الموقف المركب والبالغ الحساسية ، يمكن ملاحظة نسقين اثنين من وجهات النظر التي تدور في فلكه . النسق الأول صهيوني ، وما يتمحور حوله أو يمتح من أصوله ، يرى في التاريخ اليهودي تعبيراً عن مزاجية مباشرة وعضوية بينه وبين الوحي الإلهي اليهودي . في هذا الصدد ، يقول بوهر ، أحد أهم منظري هذا الموقف : « التاريخ وحي والوحي تاريخ » ^(١) . ومن هنا وحسب الكاتب المذكور ، فإن اليهود « أمة تحمل وحيًا عبر تاريخها المقدس » ^(٢) . ان اليهود ، من حيث هم كذلك ، يمثلون - إذن ووفق النسق الأول المنوه به - معطى « تاريخياً » ذا طبيعة « استثنائية » . وإذا كنا وضعنا هذه « التاريخية » بين قوسين ، فلنمّا للتعبير عن أن الحديث ، هنا ، عن « تاريخ » يغدو - على الأقل - أمراً نافلاً لا يستحق الاهتمام ، وذلك بسبب من أنه لا ينطوي على دلالة واقعية ، تاريخية نوعية : انهم يمثلون ظاهرة اعجازية خارقة ، استثنائية ، أي لا تخص التاريخ ، البشري على الأقل أو بطبيعة الحال ! ولذلك ، وهنا نواجه النتيجة الأكثر إثارة واستفزازاً ، فهم شعب مختار ، شعب القداسة ، على عواهنها . وهذا ما يترتب عليه - ضرورةً - ألا ينظر إليه من موقع مقاييس البحث العلمي التاريخي والتراثي العادية و « المتواضعة » بسبب أصولها البشرية العامة .

إذا كانت وجهة النظر تلك تمثل النسق الأول اللاتاريخي ، الوحيوي ، في معالجة التاريخ اليهودي ، فإن النسق الثاني من المعالجة المذكورة وإن ظهر بمثابته خطأ معارضاً للنسق الأول ، إلا أنه مع ذلك يبقى يمثل معه وجهين لمسألة واحدة ، ولموقف واحد . ان ممثلي هذا النسق الثاني - ويتحدرون جغرافياً من مناطق شتى ، بما في ذلك المنطقة العربية - ينطلقون من أطروحات ايديولوجية متعددة ، تنصدها اثنتان رئيسيتان وفاعلتان في حقل فاعليتهما . الأولى منهما تتمثل بالقول بأن اليهود هم ، بفطرتهم وبما هم يهود ، أشرار ، عنصريون ، يستحقون اللعنة قبل الرثاء . فإذا ما ميزنا ، مثلاً ، بين « الابراهيميين » و « الموسويين » و « اليهود » ، كما يريد أن يفعل أحد سوسه صاحب الكتاب الموسوعي الموسوم بـ (مفصل العرب

(١) ادثر هرتزبرج : الفكرة الصهيونية - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٣٣١ .

(٢) ادثر هرتزبرج : نفس المرجع والمعطيات السابقة - ص ٣٣٦ .

واليهود في التاريخ - حقائق تاريخية تظهرها المكتشفات الأثرية) ، فان هؤلاء الآخرين هم - برأي الباحث المذكور - «اليهود العنصريون المرتبطون بدين (يهوه) الذي كتبه الأحبار»^(١) . ومن هذا الموقع الأخلاقي التعميمي ، يكتب كذلك لوقا زودو ، استاذ اللغات الشرقية القديمة في جامعة شيكاغو ، في دراسة نشرت له باللغة العربية^(٢) ، مايلي : «هذه الأوامر والفروض اليهودية أو الموسوية ، لا فرق ، اضافة الى النزعة العنصرية المتجذرة في ذراتهم . . احاطتهم بسياج من التعصب» . وجدير بالاشارة الى أن الجريدة العربية ، التي قدمت الاستاذ المذكور مع دراسته تلك ، أعلنت أنه كتبها «حول حقيقة (التشديد متي : ط . تيزيني) اليهودية» .

أما الأطروحة الثانية فينطلق أصحابها من النظر الى اليهودية والصهيونية على أنها توأمان صنوان أو وجهان لعملة واحدة . ولعلنا نقول ، ان هذه الأطروحة تجد أصداء واسعة لها في الوعي الشعبي العربي بصورة عامة ، ذلك الوعي الذي ينهل من مصدرين اثنين يلتقيان في نقطة مشتركة ، هي العداء لـ «اليهود» . أما المصدران هذان فالأول منهما ديني ، بينما الآخر سياسي . فعلى صعيد الكتاب والباحثين ، نقرأ لدى جورج كنعان الحكم التالي الذي يقود الى تلك النقطة المشتركة : «كانت اليهودية ، أو الصهيونية . لا فرق . فهما وجهان لعملة واحدة»^(٣) . وجدير بالذكر ان الباحث المذكور نفسه كان في كتاب آخر سابق له قد قدم موقفاً مغايراً لذلك ، مما يجعلنا نقر وجود اضطراب او قلق منهجي في موقف الكاتب ، إن لم نر فيه تعبيراً عن تطور هذا الموقف . والمهم في ذلك أن الموقف الثاني لا يصب ، بالضرورة ، في تلك «العملة الواحدة» : «اكتبُ . . الى اليهودي الذي ، يحاول مبعوثو الصهيونية اصطياده ، بإغرائه وحمله على (الهجرة الى اسرائيل

(١) ص ٢٩١ من الجزء الأول من الكتاب المذكور ، الطبعة الرابعة ، الناشر العربي للاعلان والنشر والطباعة والترجمة ، دمشق ١٩٧٥ .

(٢) جريدة الشرق ، بيروت الثلاثاء ١٦ تشرين الثاني ١٩٨٢ ، ص ٩ ، الحلقة الثالثة .

(٣) جورج كنعان : وثيقة الصهيونية في العهد القديم - توزيع دار النهار للنشر ، بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٢ ص ١٢ .

لأنها المكان الوحيد الذي يستطيع فيه تحقيق حياته كيهودي»^(١) . والمثير في الأمر أن الباحث يثبت ، مباشرة بعد ذلك النص وعلى الصفحة نفسها ، انموذجاً من اجابات يهودية بصيغة ردّ على تلك الدعوة الصهيونية ، مشيراً (أي الباحث) الى المصدر المباشر الذي استقاه منه ، وهو (The Israel Digest, 28,6,1968). أما اجابة اليهودي فهي التالية : «ولماذا يتحتم علي أن أعيش حياة يهودية كاملة ؟ أوليست عندي عقائد كمئات الملايين ومليارات البشر ، من الصينيين والهنود والزنوج ، والفقراء أيضاً ؟ مالي ولهذه الفكرة القومية ؟» .

ليس من مقتضيات هذا الجزء الثالث من «مشروع الرؤية الجديدة» ، الذي نقرأ فيه الآن ، أن نبحث في ذينك النسقين المنهجيين ازاء التاريخ اليهودي ، إنما أتينا على طرف من مواقفها للتدليل على أن الانطلاق منها للبحث في التاريخ المذكور قمين أن يؤدي الى نتيجة واحدة حازمة : التعمية المنهجية على صعيد المسألة المعنية ، وذلك بتعليقها منطقياً وتاريخياً ، أي بازالتها وتجاوزها كمشكلة تاريخية ، مثلها في ذلك مثل كل المشكلات التاريخية التي لا تُفصّل مغاليتها إلا اذا انطلق من سياقها الشخص ، أولاً بأول .

من هنا ، كان لابد من أن نعود بالمسألة اليهودية المختلف حولها - ومن ضمنها التصور اليهودي - الى ارهاصات التاريخ الأولى الباكورة ؛ مُعمّلين النظر في تحولاتها وامتداداتها التراثية ، وواصلين بها الى المنعطف الكبير الأول ، المسيحية ، الذي قدم نفسه بديلاً وحيداً و«شعبياً» عنها وحلاً للمشكلات التي عجزت عن حلها وللأخرى التي امتجدت مع المرحلة الجديدة ؛ متتهين أخيراً الى المنعطف الكبير الثاني ، الاسلام ، الذي ، هو بدوره أيضاً ، قدم شخصه بدلاً عن هذه وتلك وعن كل ماسبقه من أديان «لاساوية» وأفكار «بشرية ارضية» . سوف نعمل على استقصاء تلك الوضعية المركبة والمعقدة ، إنما باتجاه اختراق السمات الرئيسية للخصوصية التي يستحوذ عليها كل من أطراف هذه الوضعية أولاً ، واستجلاء كيفية

(١) جورجى كنعان : سقوط الامبراطورية الاسرائيلية - ملحق : نداء الى يهود العالم ، دار الطليعة بيروت ١٩٨٠ ص ٢٠٥ .

أو كفاءات «الاختيار التاريخي التراثي»^(١) ، التي مارستها الأطراف المعنية تجاه بعضها بعضاً ، ثانياً .

وفي فصل المقال ومنعطفه ، نغدو أمام الموقف التالي : أن يكون «التاريخ وحيًا والوحي تاريخاً» ، يعني أن كلتا الظاهرتين تصبحان فوق شرائط البحث ، أيما بحث ، وفوق متطلباته . ولما كنا ، هنا ، قد وضعنا على عاتقنا ، بالضبط ، مهمة البحث التاريخي والتراثي في اليهودية - وخلفيتها المسيحية والاسلام . فإنه قد تعين علينا أن نعلق المشروعية الدرسية المنهجية والنظرية المعرفية (الابستمولوجية) لتلك الأطروحة ، وذلك للبقاء متطابقين ، بالحد الأدنى (الذي هو في نفس الوقت حد أقصى) مع مستلزمات التماسك المنطقي والمنهجي التاريخي والتراثي . وإذا ما تم ذلك الأمر ، فإنه يغدو من الشرعية العلمية المنهجية العامة بمكان أن نبدأ بعملنا المعني في هذا البحث ؛ طامعين من ورائه الى اكتشاف الإواليات التاريخية التراثية ، التي كمنت خلف ظهور الأطروحة المذكورة وتبلورها واتساع تأثيرها في بعض الأوساط الثقافية والدينية ، ومن ثم إلى تحديد العوامل التي جعلت منها تبرز بمظهر الحقيقي ، وتمارس فعلاً ليس ضئيلاً في التاريخ اليهودي . بصيغة أخرى نريد القول ، ان الكشف عن آلية نشوء «المظهر» الحقيقي لـ «الجوهر» الزائف الوهمي لتلك الأطروحة ، هو كشف عن العلاقة المحتملة بين الايديولوجيا الوهمية الايهامية والواقع المشخص ؛ وهو ، كذلك ، وبنفس القدر من الأهمية ، تبصر في التساؤل الدال التالي : كيف تتحول تصورات وهمية ايهامية بعينها الى فعل يوحى بأنه حقيقي ، وماهي الوظيفة الاجتماعية والايديولوجية لعملية الايجاء هذه ؟

وإذا كان الأمر كذلك ، فإن تعاملنا مع «النص المقدس» ينبغي أن يتسم بكثير من الحذر والدقة والتحفظ ، وذلك بإخضاعه للسياق التاريخي والتراثي المشخص وعبر الألفية الضيقة التي تقود وتضبط ممارسة قواعد النقد الداخلي والخارجي ، بما

(١) بالرغم من أننا - في مسار هذا البحث - سنأتي على تطبيق القانون المنهجي المذكور ، إضافة الى استعادة معاللة المنهجية الرئيسية ، فلعله من دواعي الدقة ضمن عملية المتابعة للموقف المطروح في هذا البحث أن يعود القارئ الى الفصل الذي يعالج القانون المذكور في كتابنا «من التراث الى الثورة - حول نظرية مقترحة في قضية التراث العربي - الطبعة الثالثة ، دمشق (دار دمشق) وبيروت (دار الجيل) ١٩٧٨» .

يقتضيه من تقصّر واستجلاء لأهم اللحظات «النصّية» فيه وللعناصر التي تندرج في نطاق الترميم النصّي المنهجي . ان هذا أمر في غاية الأهمية المنهجية ، بقدر ما يمثل حداً أدنى لمعالجة نصوص «الكتب المقدسة» ، بصورة عامة وإجمالية . ومن هنا ، كان ما كتبه شارل مالك حول طريقة «قراءة» الكتاب المقدس ، بما يشتمل عليه من عهد قديم (عتيق) وآخر جديد ، موقفاً لا يستجيب لمتطلبات وشرائط البحث التاريخي النقدي . فنحن نقرأ لديه على صعيد تلك «القراءة» ما يقود - على الأقل - إلى تهميش أهمية تلك المتطلبات والشرائط : «كل شيء يتوقف على هذا الكتاب . غير أن فهمه يقتضي سبعة أمور .

(١) يقتضي شيئاً من التعبد والخشوع الشخصيين ، كي يفهم نصه بالمعنى الذي عناه مؤلفوه»^(١) .

ان ما يعلنه شارل مالك ، هنا ، يثير مسألتين اثنتين ، كلتاهما تمثل موقفاً من مواقف عملية التهميش المنوه بها . المسألة الأولى تكمن في اعتبار المؤلف المذكور للكتاب المعني (الكتاب المقدس) أساساً يتوقف كل شيء عليه ؛ فكأنما نحن ، هنا ، أمام مصدر يكفي ذاته بذاته ، ويشكل ينبوعاً مطلقاً لكل ما سبقه وما تلاه . وهذا ، بدوره ، يقودنا الى وهم «المعجزة» ، الذي نواجه ما يماثله أو ما يقترب منه تحت اسم «المعجزة اليونانية» ، تلك التي يقول بها أيضاً في الكتاب نفسه ، الذي اخذنا منه الشاهد الأخير . أما المسألة الثانية فتفصح عن نفسها عبر ما يطلبه شارل مالك من القارئ لـ «الكتاب المقدس» بغية «فهمه» ، وهو أن يعيش «شيئاً من التعبد والخشوع الشخصيين» . ان هذا المطلب هو ، بصيغة أخرى ، دعوة لقراءة «الكتاب المقدس» من موقعه ، أي قراءة تقوم على الاحساس بالقداسة ، ومن ثم بالشعور بالانفلات التاريخي والتراثي . ومن هذا الموقع ، تتحدد مهمة فهم التوراة والانجيل بأنها قراءة توراتية وانجيلية . ولكننا في هذه الحال وإن كنا نستطيع القول بأننا «نفهم» الكتاب المقدس فهماً قداسياً ، إلا أننا لا نجد ما يسوغ الزعم بأننا نبحت فيه بحثاً تاريخياً نقدياً ومن حيث هو موضوع بحث علمي يكتسب جدارته عبر موقف واحد ، هو الاستجابة لمتطلبات وشرائط هذا البحث وحده .

(١) شارل مالك : المقدمة - القسم الأول ، المجلد الأول ، دار النهار للنشر بيروت ١٩٧٧ ، ص ١٠٨ .

خطوط رئيسية في التكون التاريخي اليهودي : النص التاريخي

ان تاريخ فلسطين المعروف لا يبدأ بتاريخ اليهود فيها . ذلك أمر أصبح بمثابة حقيقة عامة يجمع عليها علماء التاريخ . فلقد كان هذا البلد أهلاً بالسكان وبالتكوين الحضاري الزراعي ، حينما دخله من سيعرف باليهود بطريقتين رئيسيتين ، هما الغزو المسلح ، والتسلل السلمى البطيء ^(١) . ولعله أقرب الى الدقة التاريخية العامة الإجمالية أن نحدد التاريخ القديم المعروف لفلسطين بمرحلتين اثنتين كبيرين . المرحلة الأولى - وهي الأساس والأكثر قدماً - تتمثل بدخول الكنعانيين اليها ، أولئك الذين نزحوا من الجزيرة العربية منذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد ، وتوطنوا ، من ثم ، في ما يسمى الآن سورية ولبنان وفلسطين ^(٢) . في هذا الحقل من المسألة العقديّة ، يعلن الباحث البرايت : «انه لدينا من البراهين والأدلة على أن الكنعانيين اصحاب اللغة السامية الغربية استقروا في فلسطين في أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد ، حيث عثر على اسماء كنعانية ترجع الى الاسرة الخامسة المصرية ٢٩٥٦ ق.م ؛ كما وردت كلمات كنعانية في المدونات المصرية من عصر الأهرام (في القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد)» ^(٣) .

- ١) انظر : فيليب حتي - خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى ، المجلد الأول ، الدار المتحدة للنشر ، الطبعة الأولى بيروت ١٩٧٥ ، ص ١٢٧ .
- ٢) انظر : نفس المرجع السابق ومعطياته ، ص ١١٩ - ١٢٠ ، وكذلك : أحمد سوسة - العرب واليهود في التاريخ ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٤٦-٤٧ .

3) W. F. Albright Archaeology and the Religion of Israel- Baltimore, 1942, P. 68.

أورد هذا الشاهد أيضاً : أحمد سوسة - العرب واليهود في التاريخ ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٤٧ .

إن من شأن ذلك إن أخذ به أن يسمح لنا بالقول ، ان التاريخ الثقافي اللغوي المعروف والمكتوب في فلسطين يبدأ مع الكنعانيين . وإذا ما تعذر علينا أن نعرف اللغة أو اللغات التي تكلمها معمر والمغاور والكهوف في جبل الكرمل في العصر الحجري القديم أو مؤسسو مدينة أريحا في العصر الحجري الحديث ، فإن أمراً آخر يتصل بالمسألة نعرفه حق المعرفة ، على الأقل في صيغته العامة والمجمع عليها ؛ ذلك هو غياب أي أثر أو أي تأثير لغوي في بلاد الشام قبل دخول الكنعانيين في الألف الثالث قبل الميلاد . وعلى ذلك ، فالكنعانية ، التي كانت الأقدم ضمن «اللغات السامية»^(١) في تلك البلاد ، أصبحت مهيمنة ليس في الأوساط السامية - ما عدى الآراميين - فحسب ، بل كذلك ضمن الشعوب الأخرى التي دخلت فلسطين في مراحل لاحقة متأخرة ، مثل الفلسطينيين واليهود العبرانيين المتحدرين ، جزئياً على الأقل ، من أقوام حثية في القرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد^(٢) .

أما المرحلة الثانية من التاريخ الفلسطيني المعني ، فقد برزت عبر حركتين عسكريتين استهدفتا فلسطين ، البلد المتقدم اقتصادياً زراعياً بالقياس إلى ذلك العصر . الأولى تمثلت بالعبرانيين (اليهود) ، الذين دخلوا هذا الأخير «عند منصرم القرن الثالث عشر» قبل الميلاد ، وذلك حيث هاجروا من مصر أو أرغموا على الهجرة منها ؛ ثم استطاعوا بعد حين ، عند مطلع القرن الثاني عشر ، أن يدعموا مواقعهم في بقعة جبلية من المنطقة الغربية للأردن ، ولكن ضمن شروط اقتصادية وبشرية لم تكن تحمل توسعاً سكانياً كبيراً^(٣) . وفي غضون عملية استقرار أولئك (العبرانيين) في المنطقة المشار إليها ، انطلقت الحركة العسكرية الثانية ، متمثلة بالفلسطينيين (البلاست) ، الذين تحددوا من الأقوام الإيجية (أهل السواحل أو

(١) نستخدم هذا التعبير رغم تحفظنا عليه . وقد سبق أن تناولنا هذه المسألة ، بنية ومصطلحاً ، في الجزء الثاني من «مشروع الرؤية الجديدة» ، أي في «الفكر العربي في بواكيره وآفاقه الأولى» ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً .

(٢) انظر مع المقارنة : ارنولد توينبي - تاريخ البشرية ، الجزء الأول ، نقله الى العربية الدكتور نقولا زياده ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٨١ ، ص ١٣٣ .

(٣) انظر : فيليب حتي - خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٢٦ - ١٢٧ .

شعوب البحر) (١). كان ذلك في أوائل القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، حيث احتلت تلك الأقوام بعض السواحل السورية العليا . وقد انطلقوا من هناك باتجاه مصر بهدف احتلالها ؛ وكان ذلك في عهد رعمسيس الثالث (١١٩٨ - ١١٦٦ ق.م) ، الذي استطاع بعد جهود كبيرة أن يصدّهم عن مصر في معركة بحرية اندلعت بين الطرفين حوالي سنة ١١٩١ قبل الميلاد . فكان عليهم ، تحت وطأة ضربات المصريين النافذة ، أن يرددوا إلى الساحل الفلسطيني الجنوبي في المنطقة الممتدة من غزة جنوباً إلى أسفل يافا شمالاً . وهناك أسس هؤلاء الفلسطينيون خمس مدن (دول مدن) تمتد من الشمال إلى الجنوب ، وهي غزة واشقاون (عسقلان) وجت وأشدود وعقرون (٢) .

ولقد أشرنا ، في سياق البحث ، إلى أن العبرانيين (اليهود) كانوا ، في أثناء ذلك ، قد استطاعوا تحقيق استقرار أولي في المنطقة الفلسطينية التي احتلوها . وهذا ، بدوره ، يتضمن القول بأن الحركتين المعنيتين تزامنتا ، بانطلاقيتهما ، في مرحلة واحدة ، من حيث الأساس التاريخي ، أي من حيث استقرارهما في المنطقة المذكورة جغرافياً وبدرجة أو بأخرى اقتصادياً واجتماعياً (٣) .

على ذلك النحو ، يتضح أن تاريخ اليهود (العبرانيين) الأكثر ثقة يبدأ . . . بخروجهم من مصر (حوالي ١٢٣٤ - ١٢١٥ ق.م) ، (٤) . أما ما يقوله البعض (وفيليب حتي منهم) من أن هذا التاريخ يبدأ مع «هجرة» لهم من الجزيرة العربية عند مطلع القرن الرابع عشر ، فإن ذلك ما يُشك فيه شكاً مسوّغاً وشديداً ، ولا يصمد للنقد التاريخي . فباحث مثل فيليب حتي وجد نفسه - بالرغم من رأيه ذلك -

(١) حول انسياح هذه الشعوب في العالم القديم ، راجع : ارنولد توينبي - تاريخ البشرية ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١١٣ - ١٢٢ ؛ وكذلك جزئياً : أحمد سوسة - العرب واليهود في التاريخ ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٥٧ .

(٢) انظر حول ذلك : المرجعين السابقين بنفس المعطيات (ارنولد توينبي ص ١١٤ ، ١١٥ ، أحمد سوسة ص ١٥٧ ، ١٥٨) .

(٣) انظر : ارنولد توينبي - تاريخ البشرية ، نفس المعطيات السابقة ، ص ١١٤ .

(٤) فيليب حتي : خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٢٧ .

مضطراً الى الركون للموقف الحائز على ارجحية الصحة التاريخية ، وهو الذي أثبتناه فوق (١) . وكما هو معروف ، فان وجهاً كبيراً من أوجه الخلاف على هذا الصعيد يتأتى عن الغموض والتشوش اللذين سادا فترة طويلة في الوضعية المتعلقة بالتمييز بين لفظتي (عبري Hebreux) و (خبيرو Hapiru) . فلقد اعتقد كثير من الباحثين ، فضلاً عن الكهنة وشطر كبير من المثقفين اليهود ، أن اللفظتين كليهما تعبران عن أمر أو مضمون واحد . فـ «العبري» هو ، وفق ذلك الاعتقاد الشائع ، الشخص نفسه المتحدر من «الخبيرو» ، أي من القبائل التي كان لها ارتباط ما وصلة ما بالآراميين ؛ بحيث يغدو العبريون (اليهود) ، والحال كذلك ، ذوي أصول آرامية قريبة أو بعيدة . وبطبيعة الحال ، فإن الأخذ بذلك القول تترتب عليه وتنبثق منه نتائج متعددة وذات طابع تقريرى حاسم على مجمل الأصعدة التاريخية والعقيدية الدينية والاجتماعية (٢) .

(١) نلاحظ وضعية من القلق والاضطراب في رأي حتى ، المتعلق بهذه المسألة ، من خلال ما ورد في ثلاثة كتب له . ففي «خمس آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى - نفس المعطيات السابقة ، ص ١٢٦ ، ١٢٧» ، يكتب مايلي : «دخل العبرانيون بلاد كنعان بهجرتين - وإن كانت الهجرتان غير محدديتي المعالم - الأولى منهما كانت عند مطلع القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وهي هجرة لها صلة مع مقدم الآراميين ، والثانية كانت هجرتهم من مصر عند منصرم القرن الثالث عشر» . ولكنه في نفس السياق يعود ليعلن حازماً : «يبدأ التاريخ الحقيقي للعبرانيين بخروجهم من مصر (حوالي ١٢٣٤ - ١٢١٥ ق.م)» .

أما في كتابه «موجز تاريخ الشرق الأدنى - ترجمة الدكتور أنيس فريجه ، دار الثقافة بيروت ، تاريخ مقدمة المؤلف للكتاب ١٩٦٥ ، ص ٨٢» ، فيعود ليؤكد على أن «العبران يتبعون الى جموع الآراميين الذين هجروا الجزيرة العربية ليستقروا في البلاد التي سماها الاغريق فيما بعد سورية» . لكنه في كتابه الموسوم بـ «تاريخ سورية ولبنان وفلسطين» ، يضع الأمر في نصاب آخر اذ يعلن انه «يحيط الغموض ببدء وجود العبرانيين في سورية الذي سجل بشكل اسطوري تقليدي» ؛ ولذلك «يبدأ» . تاريخ بني اسرائيل الحقيقي كشعب ، بالخروج من مصر» . (ماخوذ عن : مفيد عرنوق - رسائل تل العمارنة تسقط انتساب اليهود الى ابراهيم ، مجلة : صباح الخير ، بيروت عدد ٣٦٦ عام ١٩٨٣ ، ص ٣٤) .

(٢) من البواعث الأساسية على هذا الاعتقاد ما جاء في التوراة على لسان يعقوب :
«ثم تحيي وتقول بين يدي الرب إلهك أن أبي كان آرامياً تائهاً فهبط مصر» . (الكتاب المقدس - سفر تثنية الاشتراع ١٠/٥) .

بيد أن أبحاثاً عديدة - وبعضها هام - أظهرت اضطراب ذلك الرأي (الاعتقاد) أو ضعفه ، على أقل تقدير . فإذا كان هنالك ما يقترب من الإجماع على صحة القول بأن اليهود (العبرانيين) دخلوا إلى فلسطين من مصر عند منصرم القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، فإن ما يسميه البعض من الباحثين - وقد ذكرنا فيليب حتى منهم آنفاً - «الهجرة الأولى» لليهود من الجزيرة العربية إلى بلاد كنعان وعبر صلة ما مع مقدم الأراميين إلى هنالك ، أو ربما كذلك عبر الاختلاط والاندماج بهم في بداية القرن الرابع عشر ، وجد في دراسات تاريخية وأثرية ولغوية نقداً ذا دلالة تاريخية بعيدة المدى وتنطوي على كثير من أرجحية الصواب . ان مثل هذا النقد نجده لدى سيغموند فرويد في معرض حديثه عن «الخروج من مصر» : «فإلى هذه البلاد (كنعان) كانت عشائر من الأراميين المحبين للحرب قد تسلمت غازية ناهبة بعد تقويض الهيمنة المصرية ، مشيرة بذلك إلى المكان الذي يمكن فيه لشعب مقتدر أن يمتلك أراض جديدة . ونحن نعرف أخبار هؤلاء المحاربين من الرسائل المكتشفة عام ١٨٨٧ في سجلات مدينة العمارنة المتهمة . فهي تسميهم باسم (عابيرو) ، وقد أطلق هذا الاسم فيما بعد ، لسنا ندري كيف ، على الغزاة الجدد اليهود : العبرانيين الذين ما كان في استطاع رسائل العمارنة ان تسميهم لأنهم قدموا في زمن لاحق» (١) .

فإذن ، كان من دواعي الالتباس في فهم اللفظتين «عبري» و «خبير» أن صُحفت الأخيرة لصالح الأولى ، بحيث قاد ذلك - ضرورة - إلى دمج العبريين

(١) سيغموند فرويد : موسى والتوحيد - ترجمة جورج طرابيشي ، دار الطليعة ، بيروت الطبعة الأولى حزيران (يونيو) ١٩٧٣ ، ص ٤٧ . انظر كذلك : رولف رايخارت في المقدمة التي وضعها لكتاب احمد سوسه (العرب واليهود في التاريخ - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٧) . ويعلم Grohmann بصيغة التأكيد واحدة من نتائج بحثه في العلاقة بين الأراميين والخبير : «من المؤكد ان العنصر العربي البدوي في شبه جزيرة العرب ، وهو على الأرجح مصطلح مرادف لتسمية (آرام) و(عبيرو) و(خبير) ، وجد في الأصل في المنطقة التي تمتد بين سورية وبلاد ما بين النهرين. والتي تعد أقدم مركز للساميين»

A. Grohmann: The Arabs «The Encyclopedia of Islam, New Edition, 1960, Vol. I, P. 255).

أورد هذا الشاهد أيضاً احمد سوسه : العرب واليهود في التاريخ - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٩٩ .

والخبيرو أو العابيزو في شعب واحد ، يُمنح لاحقاً سمات «إتنية ودينية» واحدة مشتركة . ولا يخفى على الباحث أن نشوء مثل هذا الالتباس وإن اعتبرنا أنه قد نشأ على نحو عفوي ، تاريخي ولغوي ، وراثي بعد ذلك ، فإنه وظف وجبراً لخدمة مواقف سياسية محددة لعلها تجد حذها الأشمل والأكثر فاعلية في وجهة النظر التاريخية الخاصة بالصهيونية المعاصرة . نضيف إلى ذلك ، ونحن نلاحظ المسألة المعنية ونعابنها في احتمالاتها ، أنه حتى لدى أولئك الباحثين والمؤرخين ، الذين يقولون بالنظر الى اللفظتين على أنها تعبران عن قوم واحد أو اقوام واحدة ، تظل صيغة الجزم والحسم والقطع غير واردة في كتاباتهم^(١) ، في حين أن اتجاه الجزم والحسم والقطع ممكن فيما يتصل بورود لفظة «خبيرو» أو «عبيرو» في السواح تل العمارنة .

ونظن ، في هذا المعقد من المسألة ، أنه ذو أهمية خاصة أن يميز بين اللفظتين المعنيتين تمييزاً واضحاً ودقيقاً ، إذ من شأن ذلك ، إن تم على نحو تاريخي مدقق ، أن يقود إلى النتيجة التالية ، وهي أن اليهود (العبرانيين) دخلوا فلسطين بعد الكنعانيين أولاً (وهذا واضح بذاته) ، وبعد الخبيرو الأراميين ثانياً^(٢) . وإذا كان هنالك من يشكك في الشطر الثاني من النتيجة إياها ، فإنه يكفي التذكير بالمعطى التاريخي التالي ، وهو أن السواح تل العمارنة ، التي أقامها منفتح حوالي عام ١٢٢٥ قبل الميلاد ، لا تأتي على ذكر اليهود (العبرانيين) لا من قريب ولا من بعيد . وعلى ذلك ومن موقعه ، نستطيع أن نُجمل عملية الدخول الأقوامية لفلسطين بثلاث حلقات كبرى تمت بالتتالي ؛ تلك هي الحلقة الكنعانية أولاً ، والحلقة الأرامية (الخبيرو) ثانياً ، وأخيراً الحلقة التي مثلها العبرانيون اليهود والفلسطينيون .

(١) من هؤلاء ، على سبيل المثال ، ول ديورانت ، الذي يكتب مايلي (قصة الحضارة - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٣٢٣) : «ومن المرجح - وإن لم يكن من المؤكد - أن (الخبيرو) الذين تتحدث عنهم هذه الألواح كانوا من العبرانيين» .

(٢) انظر : أحمد سوسة - العرب واليهود في التاريخ ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٩٨ - ١٠٠ ، وكذلك : مفيد عرنوق - رسائل تل العمارنة تُسقط انتساب اليهود الى ابراهيم ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ؛ هذا بالرغم من أن أحمد سوسة (في نفس المرجع السابق ومعطيائه ، جزء ٢ ، ص ٨٨٣) يرى في كلمة «عبري» مرادفاً لكلمة «عبيرو» ، بحيث تغدو هاتان الكلمتان في حالة التقابل مع كلمة «يهودي» .

ونحن وإن كنا ، في هذا البحث ، ننطلق من أن «العبري» هو تعبير آخر عن «اليهودي» ، فإن المسألة تبقى ، بالرغم من ذلك ، مستغلقة فيما يتصل بالسؤال التاريخي البدئي التالي ، الذي طرحه رولف رايخارت ، دون أن يجيب عنه : إذا أصبح من المؤكد أن لا علاقة تربط بين اليهود والخبيرو الآراميين ، فهلا «توجد حقاً» رابطة دم بين الموسويين واليهود ؟ وهل كانت حقاً تلك الجماعة الخارجة من مصر حملة مصرية صرفة باتجاه الشمال كما يقول الدكتور أحمد سوسة ؟ فما هي بالضبط اللحظة التي يمكن ابتداءً منها الكلام عن اليهود واستعمال (مصطلح يهودي) ؟» (١) .

ليس في مخطط هذا الكتاب أن نتناول بالتنقيب والتقصي السؤال السابق قصد الإجابة عنه على نحو قطعي ، أو على نحو قريب من ذلك . ولكننا ، سعياً منا لايجاد مرتكز ومنطلق تاريخيين منهجين فيما يتصل باليهود أو بالعبرانيين اليهود في التاريخ ، فإننا نأخذ بالرأي التالي ، الذي لعله يقدم الافتراض الأكثر رجحاناً في هذا الحقل المحفوف بالمحاذير والإشكالات ، أو الذي بمستطاعه - على الأقل - أن

(١) رولف رايخارت : مقدمة كتاب أحمد سوسة (العرب واليهود في التاريخ - نفس المعطيات السابقة) .

إن الباحث المذكور ، رايخارت ، الذي يشكك في رأي أحمد سوسة الوارد في الشاهد ، لا يرى ما يراه هذا الأخير من أن «عصر اليهود» . . يبدأ في القرن السادس قبل الميلاد في أعقاب السبي البابلي ، وهو عصر يهودي بحث قائم بذاته أيضاً بلغته وثقافته وديانته ويمثل بداية اليهودية» . (نفس المرجع السابق مع معطياته ، ص ٣٥) . وما نراه أن الفصل القطعي ، الذي يؤكد عليه أحمد سوسة بين «الموسوية» و«اليهودية» في القرن الثالث عشر قبل الميلاد (انظر ، إضافة إلى الشاهد السابق من المرجع ذاته ، ص ٢٧) ، يجعل السؤال التالي وارداً وملحاً : من أين تحدر يهود السبي والدياسبورا (الشتات) ؟ هل كان السبي بذاته «صانع اليهودية» ضمن أقوام لم يكونوا يهوداً ؟ فإذا ما أجبنا بالإيجاب على هذا السؤال ، فإننا ، حالئذ ، سوف نجد أنفسنا متساقين باتجاه التكرار لواقعة تاريخية ثابتة ، وهي أن من سبي من فلسطين إلى بابل ، سبي بصفته يهودياً أو عبرانياً يهودياً . والوصول إلى مثل هذا الموقف من شأنه أن يعقد مجدداً المسألة المطروحة ، وذلك بإحالتنا إلى مزيد من المواقف الجزئية والثانوية التي تبعد عن تلك الأخيرة . وهنا نلاحظ نزوعاً باتجاه انتزاع المنهج التاريخي النقدي من قدرته على صوغ السؤال وعلى طرحه وعلى توليد واستنباط النتائج .

يطرح السؤال المناسب الذي يقود إلى افتراضات خصبة في الحقل المذكور :

كانت تقاليد العبرانيين في القرن الرابع عشر قبل الميلاد قريبة «من تقاليد الحثيين وشعوب ما بين النهرين . ومن المرجح أنهم كانوا يتكلمون لغة قريبة من اللغة الحوية Hevian (كتابتها هيروغليفية استخدمها الحثيون الأوائل) . ولما كان الههم يدعى (يه) أو يهوه فتمة صلات لغوية وعرقية كانت تربطهم بالحثيين والحويين الساكنين في البلاد . إذن الافتراض هو أن العبرانيين يؤلفون بقايا الحثيين الذين اجتاحتهم مملكة بابل بتاريخ ١٩٠٠ قبل الميلاد . ونحن نلاحظ أن التوراة تعتبر دوماً الحثيين والحويين على صلات طيبة» . ويتابع هـ . ي . ديل ميديكو ، ملقياً ضوءاً على عملية ظهور العبرانيين (اليهود) في فلسطين ، بصورة يمكن قبولها ، إذا ما ميز بين الحثيرو ، الذين وفدوا من أور وانضمت اليهم القبائل الآرامية من طرف ، وبين تلك البقايا الحثية (العبرانية) من طرف آخر : «ومن ثم تحت ضغط شعوب آتية من الشمال هاجر العبرانيون مخترقين الصحراء السورية نحو فلسطين عابرين نهر الأردن للتمركز في جريشو ومن ثم وبعد حروب عديدة بالغت فيها التوراة استقرار المهاجرين الجدد في البلاد . فسكن أبناء إسرائيل (العبرانيون) بين الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليوسيين واتخذوا بناتهم زوجات لهم واعطوا لأبنائهم بناتهم كما عبدوا آلهتهم (قضاة ٣/٥-٦) . وقد اندمجوا جيداً بأبناء البلاد حتى قال لهم النبي حزقيال (١٦/٣-٤٥) (أمكم - أي سلاتكم - حثية وأبوكم أموري) . ورغم اجتياحهم البلاد ، استمر الكنعانيون يبرزون على مسرح التاريخ حتى الاحتلال الآشوري أيام ملوك يهوذا وإسرائيل الذين لم يكونوا دوماً من العبرانيين» (١) .

في ضوء ذلك وضوء معطيات أخرى ، نستطيع القول - وهو قول يبدو أنه غدا في أوساط علمية مرموقة مقبولا - بأن العبرانيين قبل أن يحاولوا الدخول إلى مصر ، كانوا قد تبعثروا بأنحاء متعددة في ما بين النهرين وسيناء بامتداد البادية ،

(١) هـ . ي . ديل ميديكو : من تقرير له رفعه الى المؤتمر الدولي الرابع للمستشرقين في باريس عام ١٩٤٨ . (ضمن : هـ . ي . ديل ميديكو : اللائىء - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٥٧) .

ممتزجين ، في غضون ذلك ، بمن اقترب منهم أو عاش معهم من الشعوب الأخرى عن طريق سلمى أو قتالي ^(١) . ومن ثم ، فقد ترتب على ذلك أن تكون الحصيلة ثغراً من الأمشاج (الاخلاط) الأقوامية ، التي كان عليها أن تعاني من عملية تحول واسعة وبطيئة وطويلة قبل أن تحقق شخصية فيها حد من التجانس الأقوامي النسبي .

وإذا ما قبلنا برأي فيليب حتي القائل بدخول العبرانيين (الذين يعتبرون في هذه الحال من بقايا الحثيين) في هجرتهم الأولى إلى بلاد كنعان (سورية تحديدًا) عند مطلع القرن الرابع عشر ، دون أن نقبل الشطر الأول من رأيه القائل بتحدّر أولئك من الجزيرة العربية ، فإن تاريخ استيطان القبائل الآرامية على ضفاف الفرات الأوسط يعود إلى ما قبل منتصف الألف الثاني قبل الميلاد ؛ في حين أنهم أخذوا بالتزوح باتجاه الجنوب داخل سورية في القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد ^(٢) . وبطبيعة الحال ، فإن العبرانيين (الحثيين) ، الذين هاجروا إلى كنعان عند مطلع القرن الرابع عشر ، أي تقريباً في نفس الوقت الذي دخل فيه الآراميون سورية ، ما كان لهم أن يصلوا إلى هناك إلا وقد أخذ اختلاطهم واندماجهم

(١) انظر ، على سبيل المثال ، ما يكتبه هذا الصدد J.H. Breasted : « في فلسطين اختلطت شعوب سامية بشعوب منحدرّة من المناطق الجبلية الشمالية . وهذه الشعوب وبنوع خاص الأناطولية القديمة هي غير سامية الوقت فيما بعد الشعب الحثي Hittites الذي خلف في فلسطين طابعاً إبتنولوجياً مميزاً بالنسبة لبقية الأعراق السامية وهو الأنف المعكوف الذي كان من المعتقد بأنه من المميزات السامية وبنوع خاص اليهودية . بينما هو كما نرى اليوم يعود إلى السلالة الأناطولية . فهو إذن غير سامي انتقل إلى الساميين عن طريق التمازج السلافي » . (ضمن : هـ . ي . ديل ميديكو - نفس المرجع السابق ومعطياته ، دراسة إضافية لمفيد عرنوق ، ص ١٥٦) .

(٢) انظر : فيليب حتي - خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ . ونود القول بأنه يوجد اتفاق عام بين الباحثين حول المرحلة التاريخية التي استوطن فيها الآراميون في منطقة الفرات الأوسط (انظر مثلاً : طه باقر - مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، في جزئين ، الجزء الأول ص ٢٦٨ - ٢٦٩) . غير أن فيليب حتي نفسه ، في كتاب آخر له بالانكليزية ، يحدد ذلك التاريخ بمرحلة أقدم من تلك ، أي بقبل الألف الثانية قبل الميلاد . (راجع ذلك في : P.Hitti- History of Syria, London 1951, P. 162).

بالآخرين مأخذهما على صعيدين اثنين بارزين ، الاتني والديني (والثقافي عموماً) ، ناهيك عن الصعيد الاقتصادي الزراعي ؛ وذلك بحيث غدا الحديث ممكناً عن نسق بشري ينطوي على سمات عامة مشتركة بمعنى ما ويحدد ما ، مع الإشارة الى أن هذه السمات المشتركة ظهرت بصفاتها تلك بقدر ما عززت عبر وجود الشعوب الأخرى المحيطة ، وبقدر ما اختُرقت عمقاً وسطحاً من قبلها هي نفسها .

لنا ، إذن والحال كذلك ، أن نفهم الوقائع اللاحقة على نحو يجعلنا نرى في تلك القلون والبقايا الحثية ، وقد أعيد بناؤها أفقاً وسطحاً ، جذوراً لليهود العبرانيين ، وإن لم تكن جذورهم الوحيدة . لقد ازداد عددهم ، حيث انضمت اليهم جموع من القبائل الجوالة أو انضمت هذه الى تلك ، مكونة معها - شيئاً فشيئاً - تجمعاً بشرياً يمثل ، بمعنى ما وبقدر ما ، نسقاً اقوامياً جديداً . ولا بد أنهم ، وقد انتشروا في ما بين النهرين وسيناء بامتداد البادية ، قد تسللوا الى مصر عن طريق سلمي حيناً وحربي قتالي حيناً آخر ، كما هو مشهود لدى القبائل الرحل التي تبحث عن متجمعات لها . في مثل هذه الحالة ، يغدو من الصعب أن يُقطع بصورة جازمة نهائية بالتاريخ الذي دخلوا فيه مصر ^(١) ؛ كذلك يصعب من العسير أن يحسم الموقف في مسألة الخروج واليه ، الذي تقدمه التوراة على أنه استمر اربعين عاماً ، دون رفضها (المسألة) عموماً اعتقاداً بأنها لا تخرج عن كونها أمراً وهمياً ، وكذلك دون رفض المحاولات الهادفة الى بحثها بمثبتاتها ترميزاً لوضعية ما .

إن ما يمكن القول به ، دون تجاوز الاتساق العام للأحداث التاريخية ، يقوم على أن تلك القبائل الجوالة ، ذات الانساق التكنولوجية المتعددة والمختلطة ، كانت قد وجدت نفسها - تحت ضرورات معيشية قاسية وقاهرة - أمام خيار واحد ، وهو الخيار الصعب ؛ ذلك هو التسلل السلمي البطيء أو الحربي الجزئي الى مصر ، إلى

(١) من طرف آخر ، يبدو غير متسق مع التواريخ التي أثبتنا عليها أن يقال بأن دخولهم الى مصر كان عام ١٦٥٠ ق.م. ، كما يرى Petri في كتابه Egypt and Israel (ضمن : ول ديورانت - قصة الحضارة ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٣٢٤) . أما رأي ديورانت وآخرين غيره فيقوم على عدم القطع النهائي بذلك : «ولسنا ندري متى دخل اليهود مصر ، وهل دخلوها اخرازاً أم عبيداً» . (ول ديورانت : نفس المرجع السابق ومعطياته) .

وادي النيل الحصب وذي السمعة الكبرى في الشرق ، في حينه . بيد أن اقامتهم هناك لعلها لم تستمر طويلاً ؛ إذ أنهم أخرجوا أو خرجوا من هناك ، بعد أن تحولوا أو تحول معظمهم الى أعمال السخرة ، مثلهم في ذلك مثل جموع غفيرة من المصريين انفسهم ^(١) . ولعلنا نتبين ، هنا ثانية ، اتجاهات جديدة ولحظات جديدة على صعيد مزيد من الاندماج بين الاقوام الدخيلة والمصريين ، أو لنقل - وهذا بدوره هام على نحو خاص - على صعيد تعدد المصادر الذهنية الدينية (الثقافية) وربما كذلك وبدرجة ما الاتنية لتلك الاقوام .

ومما يدعو الى التأمل العميق ، في نطاق هذه المسألة ، الافتراض المثير بأن خروجهم من مصر كان تعبيراً عن اضطراب عن العمل الشاق . إن الأخذ بهذا الافتراض ، الذي اقترحه وقدمه Ward ^(٢) ، ينطلق من التوراة ذاتها (وربما كان ذلك نقطة ضعف في هذا المنطلق) ، حيث توجد آيات في تلك الأخيرة تشير إلى ذلك وتوحي به . والمسألة ، كما قد يبدو ، تظهر بمثابتها دعوة صريحة الى العبرانيين للعمل ، تلك الدعوة التي قد يكون هؤلاء رفضوها أو تلكأوا عنها بين الحين والآخر بغية ممارسة واجباتهم الدينية ، التي يطالبهم بها - بصيغة التحريض الخفي أو ربما كذلك المعلن - كهنة متنفذون نهمون : متنفذون ، بمعنى الحفاظ ، بصورة دائمة حثيثة ، على جموع رعاياهم هؤلاء دينياً وتنظيمياً وسياسياً ؛ ونهمون ، بمعنى حرصهم الشديد والمنظم على أن يقدم أولئك واجباتهم تجاههم كاملة غير منقوصة من الذبائح والاضحيات والنذر والهبات الخ . .

لنقرأ بعض الآيات التوراتية ، تفصيلاً منا وضبطاً لتينك الداليتين ، الدينية والاقتصادية ، في نطاق التصور الكهنوتي ، وفي نفس الوقت ، تفصيلاً وضبطاً

(١) لعلنا نجد في بعض آيات سفر أيوب ما يشير إلى مثل هذه الحالة من العسف الاقتصادي الاجتماعي ، الذي عانى منه العبيد والفلاحون من أعمال السخرة . فهذا العسف يصل الى درجة يتمنى فيها أولئك أن يغادروا هذه الحياة ، غير مأسوف عليها ؛ إذ حالئذ يكفون عن أن يشعروا بذلك :

«هناك يكف المنافقون عن البلبال وهناك يستريح مهبطو القوى . هناك الأسرى

يقرّون جميعاً ولا يسمعون صياح المسخرة» . (الكتاب المقدس - سفر أيوب ٣/١٧ - ١٨) .

(٢) انظر : ول ديورانت - قصة الحضارة ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٣٢٦ .

لموقف الملك المصري (الفرعون) من الكهنة ومن رعاياهم ؛ فنتبين ، إذذاك ، أن هؤلاء الآخرين وحشوداً من المصريين كانوا ، معاً ، خاضعين لمطرفة وسندان الطرفين الكبيرين المتخاصمين ، كهنة العبرانيين اليهود وملوك المصريين ، الذين يجسدون في شخصهم ثلاث وظائف كبرى ، وظيفة الملك ووظيفة المالك ووظيفة الكاهن :

«وبعد ذلك دخل موسى وهرون وقالا لفرعون كذا قال الرب إله إسرائيل أطلق شعبي لكي يعيدوا لي في البرية . فقال فرعون من هو الرب فاسمع لقوله وأطلق إسرائيل لا أعرف الرب ولا أطلق إسرائيل . قال إله العبرانيين وإفانا فنذهب مسيرة ثلاثة أيام في البرية ونذبح للرب إلهنا لئلا يصيبنا بوباء أو سيف . فقال لها ملك مصر لماذا يا موسى وهرون تعطلان الشعب عن أعمالهم امضوا إلى ائقالكم . وقال فرعون هوذا قد كثر شعب الأرض فكيف إذا أرحتاهم من الأعمال . وأمر فرعون في ذلك اليوم مسخري الشعب ومديرهم قائلاً . لا تعطوا الشعب تيناً بعد ليصنعوا اللبن مثل أمس فما قبل بل ليذهبوا هم ويجمعوا لهم تيناً . ومقدار اللبن الذي كانوا يصنعونه أمس فما قبل افرضوه عليهم ولا تنقصوا منه شيئاً فانهم مترفحون ولذلك هم يصرخون ويقولون غضي ونذهب لإلهنا . ليشقل العمل على الشعب فيشتغلوا به ولا يلتفتوا إلى كلام الكذب» (١) .

خرج اليهود العبرانيون أو أخرجوا من مصر - وهذا هو المحتمل الراجح - متجهين نحو المنطقة المجاورة الخصبة عموماً ، فلسطين ، البلد الذي «يسيل فيه اللبن والعسل» . ويبدو أنهم وجدوا أنفسهم ، في طريقهم الطويل المنهك ، أمام ضرورات اقتصادية جغرافية خطيرة حياتياً ، تمثلت بفقدانهم أهم أمرين في رحلتهم القسرية هذه ، وهما مصادر العيش والأمن ؛ ولم يكن ذلك وضعاً غير مألوف في منطقة صحراوية تحيط بها المخاطر البشرية والمناخية . وإذا كان لنا أن نشك شكاً قوياً في قصة «الأربعين عاماً» ، أي في هذه العقود الأربعة الطويلة بالنسبة إلى تلك

(١) الكتاب المقدس - سفر الخروج ٥ / ٩-١١ .

الرحلة ، فإن أمراً آخر يبدو ، في هذا الاطار ، مقبولاً ، وهو أن مسيرة من الإجهاد والاضطراب والخوف واحتمالات الجوع الدائمة كانت قد فرضت نفسها على المهجرين أو المهاجرين من مصر . لقد حدث ذلك رغم وجود الرب يهوه ، رب الرعاة والجنود والمهجرين المرهقين ، الباحثين عن الطعام والاستقرار .

ولعل قصة «التيه» ، الذي ألمّ بتلك الجموع من الجوع ، تبدو ، ضمن واقع الحال المشار إليه ، أمراً ذا بعد دلالي واقعي . فهي «تصف مسير قوم من البدو الذين كانوا طوال عهدهم قوماً رحلاً ، كما أن هزيمتهم للكنعانيين ليست إلا مثلاً آخر لانقضاء جموع جوع على جماعة مستقرين آمنين . وقتل المهاجرون من الكنعانيين أكثر من استطاعوا قتلهم منهم وسبوا من بقي من نسائهم ، وجرت دماء القتلى أنهاراً» (١) .

وجدير بالذكر أن سادة (كهنة) تلك الجموع من البدو الجوع الذين عاشوا في مصر ، كعبيد غالباً ، حياة فيها حدٌ عام من الكفاية الاقتصادية على الرغم من قسوة أشغال السخرة التي خضعوا لها ، استطاعوا أن يخلقوا لهم (أي لتلك الجموع) حوافز ومسوغات دينية أخلاقية لأعمالهم التدميرية تلك إزاء الكنعانيين ؛ كما تمكنوا من أن يزرعوا فيهم ويخصبوا أمرين خطيرين مثلاً ، في حقيقة الأمر ، شرطين

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٣٢٦ . من المصادر غير المباشرة ، التي نتحدث عن «الخروج» من مصر ، ما اكتُشف مكتوباً على اللوحة التي تعود إلى عهد منفتاح (حوالي ١٢٢٥ ق.م) . ضمن ذلك ، وردت المعلومات الإخبارية التالية (عن : ول ديورانت - نفس المرجع السابق ومعطياته ، ص ٣٢٤) :

«لقد غلب الملوك وقالوا (سلاماً) .

وخربت تخمينو .

وهدئت أرض الحثيين ،

وانتهت كنعان ، وحلت بها كل الشرور ، ...

وخربت اسرائيل ، ولم يعد لأبنائها وجود ،

وأضحت فلسطين أرملة لمصر .

وضمت كل البلاد ، وهدئت ؛

وكل من كان ثائراً قيده الملك منفتاح .

ضروريين للتغلب على الكنعانيين . الأول منها تجسد بالوحدة الدينية الايديولوجية القطعية ، التي تمجورت حول «يهوه» ، وانطلقت منه ، وتعززت تحت جبروته ذي الحضور الكثيف و«غير المرئي» . أما الشرط الثاني فقد تمثل بالانضباط القتالي الحربي قيادة وخضوعاً وتنفيذاً ، وذلك على نحو جعل من الوسيلة هدفاً ، مع إفقاد هذه الوسيلة - الهدف كل الأبعاد والآفاق ما عدى واحداً منها : القتل للقتل ، والتدمير للتدمير ، والإبسال للإبسال الخ . . وفي هذا وذاك ، كانت تلك الجموع (الاخلاط) من البدو (العبرانيين) المرحّلين ، والمترعين بالحقد على من يحوزون على الأرض والاستقرار ، تجد نفسها متوافقة ومنسجمة مع اعتقاداتها ومثلها العليا المتحدرة من

«الشرية التي أمر الرب بها» (١) ،

والتي ترى في تنفيذ ذينك الأمرين «زكاة للرب» (٢) .

ولعله إذ غدونا أمام هذه المحصلة الدقيقة للمسألة ، يصبح يسيراً أن نتبين

(١) الكتاب المقدس ... سفر العدد ١٩/٢ .

(٢) ان هذه اللوحة المقدمة عن كيفية غزو اليهود العبرانيين لكنعان لا تجد لدى رهط من الباحثين والدارسين قبولا . فهؤلاء يرون أن الغزو المذكور لم يتم على النحو الذي تعرضه الثورة بصفته عملية قتالية دموية ، مما يضع حداً للمنهجية التوراتية المتبجحة بأعمال «القتل والإبسال والتدمير» حيال «الأعداء» . وقد طرح روجيه غارودي هذه المسألة من موقع ما اعتبره تناقضاً بين نصوص توراتية . بخصوص ذلك ، يكتب مايي : «فكتاب القضاة يورد عن الدخول إلى أرض كنعان رواية مناقضة لما يرويها كتاب يوشيا الذي يشير إلى أن القبائل المتحررة تحت لواء دولة واحدة وقيادة واحدة ، كانت أثناء مرورها تقتل السكان . بينما يشير كتاب القضاة إلى أن الدخول إلى كنعان بدأ بتسلل بطيء ومسالم على الأغلب ، وعنيف أحياناً ولكن دون مجاهبات كبيرة مع سكان المدن الكنعانية المزودين بعربات قتال يصعب منالها على القبائل الرحل التي تعمل كل منها لحسابها الخاص» (روجيه غارودي : ملف اسرائيل أحلام الصهيونية وأضاليلها - جريدة السفير بيروت ١٨/٣/١٩٨٣) .

وإذا صح ذلك ، فإنه يقدم أدلة جديدة ودلالات كبرى على الدور الايديولوجي الديني المتميز ، الذي مارسه النخبة الكهنوتية في صوغ وبلورة ايديولوجيا الانتقام والتدمير التوراتية ، وفي منحها طابع الشمول والالزام الديني الاخلاقي في اوساط «الرعية» من اليهود العبرانيين ، وكذلك في اوساط أخرى من الشعوب المحيطة ، كوجه من أوجه الأيهاام والهيمنة .

معتقداً آخر لها - وهذا هام على نحو خاص بالمعنى الاقتصادي والسيكولوجي - ، ذلك هو تكون موقف إشكالي من الأرض لدى اليهود العبرانيين : فهذه هي ، في وقت واحد ، الرغبة والشؤم ، الطموح والإخفاق ، وأخيراً الباعث على توليد علاقة عدائية ووهمية بين الواقع والفكر ، بحيث يُصعد الواقع فكراً وهمياً ايهامياً ، ويحول الفكر الوهمي الايهامي إلى الواقع الأعلى القطعي . وإذا كان الأمر كذلك ، فإن التعامل مع «الواقع» لابد وأن ينطوي على احتمالات الصدام معه ، ولكن ليس عبر أدوات ايديولوجية ومعرفية لها به صلة واقعية ما ، وإنما من خلال ذلك الفكر الوهمي الايهامي . وهنا ، يكون المرتع خصيباً للفاجعة والأزمة والمأساة والحقد والاضطراب والشعور بالذنب أو بالخطيئة ، خطيئة ما . ونستطيع أن نشخص ذلك الموقف الإشكالي من الأرض عبر التقليد الذي نشأ في أوساط المعنيين هنا وأشارت إليه التوراة ، أي كتاب ذلك المرتع الحصب للفاجعة والأزمة الخ . ذلك هو الاهتمام الخاص بالمنقول من كل ما هو خفيف وثمين ، وبصورة أكثر تخصيصاً الذهب . فكما أن «الكتاب المقدس - العهد العتيق» هو أثمن ما يملكونه على صعيد «الكلمة» ، كذلك تبرز المعادن الثمينة (وستكتسب فيما بعد شخصية المال ، النقد ، تخصيصاً) بمثابة أهم ما متاح لهم امكانية امتلاكه على صعيد «المعدة» ، بعيداً عن الحاجة إلى أرض مستقرة وتتطلب الرعاية والاهتمام والخبرة .

وإذا قلنا ، أخيراً ، أن الموقف الإشكالي من الأرض المأثي عليه مارس دوراً ملحوظاً في تكوين الشخصية الاقتصادية والسيكولوجية والشعوبية (بمعنى العلاقة مع الشعوب المحيطة) لأولئك ، فإن عملية الاندماج مع هذه الأخيرة ظلت تبرز طريقاً ممكناً لكثير من هؤلاء للخروج من المأزق التاريخي الاجتماعي .



من النص التاريخي الى النص الاقتصادي الاجتماعي أو من هايل إلى قابيل

ليس من قصدنا ، هنا في المبحث الذي بين أيدينا ، أن نعود الى العلاقات الاجتماعية الاقتصادية ، التي تمثلت بنمط الانتاج الاقتصادي الرئيسي في فلسطين القديمة (الكنعانية) . فلقد كنا ، في الجزء السابق (الثاني) من «مشروع الرؤية الجديدة» ، قد قمنا بمحاولة أولية لتحديد ملامحه الكبرى العامة ، ^(١) فوجدنا أنه يقوم - بوجهه الرئيسي - على العلاقات المشاعية القروية . أما هذه الأخيرة فقد رأيناها بارزة عبر ثلاث خصائص تتم بعضها بعضاً . الخصيصة الأولى نهضت على أن السقاية الاصطناعية مارست في الزراعة دوراً ثانوياً ، غير هام في الحياة الاقتصادية العامة . وقد ترتب على ذلك أن يكون الانتاج الزراعي الفائض من الدرجة الثانية أو الثالثة ، من حيث تقرير وتحديد سمات النمط الاقتصادي السائد . ومن طرف آخر ، كان ذلك قد انطوى على الوضعية التالية ، وهي انه كان للأمطار الموسمية المنتظمة ، في غالب الأحيان ، دور مرموق وفاعل في الإرواء الزراعي .

أما الخصيصة الثانية فقد كمنت في أن حجم الانتاج الصناعي اليدوي كان ، بصورة نسبية ، غير ضئيل ؛ بل لعله كان بارزاً وملحوظاً ، بحيث أنه كان قادراً - بحدود عامة ضرورية وبالعلاقة مع الإرواء الزراعي الموسمي ومع تعاظم الحركة التجارية والرأسمال التجاري - على تغطية الاحتياجات الاقتصادية المتنامية بشكل مضطرد نسبياً (في حدود المجتمع المشاعي القروي) للطبقة العليا والفئات العليا

(١) انظر : طيب تيزيني - الفكر العربي في بواكيره وآفاقه الأولى ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١١٢-١١٤ .

النهمة من المجتمع . وقد ترتب على هذا الوضع أن البحث التاريخي أخذ يكتشف أهمية الأطروحة التالية ، وهي أن «الفيني أو الفينيقي» هو الكنعاني لعصر الحديد . والكنعاني هو اسم الفينيقي في العصر البرونزي»^(١) .

أخيراً تبرز الخصيصة الثالثة ، وهي التي تتلخص بنشوء حركة تجارية واسعة النطاق على الصعيد الخارجي (والداخلي بدرجة أقل) ، ومدعمة بتراكم مضطرد للراسمال التجاري .

تلك خصيصات ثلاث تتمحور حولها السمات الرئيسية العامة لنمط الانتاج الاقتصادي في فلسطين المعنية ، وذلك بمثبتها جزءاً جغرافياً واقتصادياً اجتماعياً من بلاد الشام . ونحن إذ نتحدث عن فلسطين هذه ، فإننا نطلق من أن الأخبار الأولى عنها تتحدر من مصادر مصرية قديمة ، تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد^(٢) .

لقد مارس الكنعانيون القدماء الزراعة وتربية الدواجن في منطقة جغرافية قدمت لهم ما يكفيهم من الأمطار التي لا تنقطع في الأوقات النظامية^(٣) ؛ وهم ، إلى ذلك وإضافة إليه ، اهتموا بصور ملحوظة بالتجارة وبالأعمال والصناعات اليدوية . وقد فعلوا ذلك وهم تحت تأثير أكبر دولتين في العالم ، في حينه ، وهما مصر وبابل . وفي مرحلة لاحقة ، تبلور الاتجاهات الأساسية الكبرى لنمط

(١) نسيب وهيب الحازن : «من الساميين الى العرب - بيروت ١٩٧٩ ، ص ١٦ .

(٢) انظر : Martin Robbe- Der Ursprung des Christentums, a.a. O., S. 30 .

(٣) كتب يوسفوس اليهودي في القرن الأول بعد الميلاد أنه كان في فلسطين من «الأمطار ما يكفي حاجة الزراعة ، وأنها جميلة ، وأن بها كثيراً من الأشجار ، وأنها مملوءة بفاكهة الحريف البري منها والمتزرع . . . وأن هذه الأشجار لا تروى بالأنهار رياً طبيعياً ولكنها تنال ما تحتاج اليه من الرطوبة من ماء المطر الذي لا ينقطع عنها قط» . (ضمن : ول ديورانت - قصة الحضارة ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٣٢٢) .

ويضيف ول ديورانت الى ذلك قائلاً (نفس المرجع السابق ومعطياته) : «وكانت أمطار الربيع التي تسقي الأرض تخزن في الأيام الخالية في صهاريج أو ترفع الى سطح الأرض مرة أخرى من آبار كثيرة العدد ، وتوزع في أنحاء البلاد في شبكة من القنوات . . . وكانت الأرض التي تروى بهذه الطريقة تنتج الشعير والقمح والذرة ، وتجد فيها الكروم ، وتثمر أشجارها الزيتون والتين والبلح وغيرها من الفواكه على منحدرات الجبال جميعها» .

المشاعات القروية ، وذلك حيث يقيم الهكسوس (ملوك الرعاة) هناك دولة ذات سمات مشاعية قروية واضحة ومتبلورة . حدث ذلك بدءاً من حوالي عام ١٨٠٠ قبل الميلاد ، وهو تاريخ دخول الهكسوس الى فلسطين . ولكنه لم ينته بانتهاء حكم هؤلاء هناك ، بل استمر فيما بعد ، أي بعد مئتي سنة ، تحت حكم المصريين . فلقد حافظ هؤلاء على العلاقات الاجتماعية الاقتصادية ، التي كانت قائمة هناك . ولكن ما إن خرج المصريون من فلسطين ، حتى سقطت السلطة المركزية فيها لمراحل تاريخية مديدة ^(١) .

وإذا كان الأمر على ذلك النحو ، فإن غزو اليهود العبرانيين (بقايا الحثيين المختلطين بشعوب المنطقة) لفلسطين في مطلع القرن الثالث عشر قبل الميلاد اسهم بقوة في تعميق اتجاه التبعر على صعيد السلطة السياسية هناك ، وفي تعقيد العلاقات الاقتصادية والاجتماعية (بمعنى تحويلها الى علاقات مركبة واكثر تنوعاً) . فلقد كان هؤلاء إبان دخولهم الى البلد المذكور في المرحلة النهائية من العلاقات البدائية المشاعية - وهذه هي بطبيعة الحال غير العلاقات المشاعية القروية التي تحدثنا عنها فيما سبق - . أما وجه ذلك التعقيد فيكمن في أن كلا الفريقين ، الدخيل والمقيم الأصلي تأثرا بهذه العملية ، عملية اقتحام البلد المستقر اقتصادياً وارغامه على الاستجابة السريعة والتبوء السريع مع ظروف ووقائع جديدة من النهب الاقتصادي والتخريب الزراعي ، على الأقل في المراحل الأولى من عملية الاقتحام هذه .

لقد كان على تلك الأقوام ، من طرف آخر ، أن تخضع نفسها لعملية طويلة وعسيرة ومعقدة من التبؤ ، بشكل أو بآخر ولكن بدرجة أولية ضرورية ، مع الوضعية الجديدة ، وبصورة خاصة في الحقلين الاقتصادي والاجتماعي والديني الايديولوجي . وهذا ما حدث فعلاً ؛ إنما بشكل جزئي اكثر مما هو كلي ، وبطيء معقد صعب اكثر مما هو سريع بسيط وسهل . ولا سبيل الى تجاوز المطلب التالي ، وهو أنه من أجل التمعن في آلية ما حدث هنا ، ينبغي أن نلاحظ أمرين اثنين ، وأن نمحها اهتماماً مركزاً .

الأول منهما يتمثل بكون تلك الأقوام (الأمشاج) دخلت فلسطين في سياق

1) Martin Robbe: Der Ursprung des Christentums, a. a. O. 6 S.3.

اقتراها دينياً ذهنياً بـ «يهوه» . وفي الحالة التي نتحدث عنها الآن ، مثل هذا الأمر تجسيدا دينياً مشخصاً للجناس الذي أخذ بالتأيز اقتصادياً واجتماعياً (طبقياً) عن الآخرين من أبناء قومهم وبالإثراء المضطرد على حسابهم . وبتعبير آخر نصوغ هذه الفكرة التي نراها بالغلة الأهمية والدلالة التاريخية ، فنقول ان دخول اولئك الى فلسطين تم بفعل التحريض الاقتصادي المعاشي المباشر (بحوافز دينية ايديولوجية) وغير المباشر (عوامل القمع السياسي) ، الذي نظمته هذا الجناح وقاده وضبط أهدافه . بل لعلنا نتبين هذه المسألة من موقعها الوظيفي ، فنرى فيها تحديداً للموظيفة الرئيسية التي نيطت بعملية التمحور حول يهوه ، رب الأرض (الخصب) والجنود (الحرب) والكهنة (المنظمين للرعية اقتصادياً وحربياً ودينياً) . فهذه الوظيفة تنهض - والحال كذلك - على انجاز مهمة احتلال الأرض الفلسطينية ، حيث «يسيل اللبن والعسل» ، أي حيث تتمكن تلك الأخطا الاقوامية المشردة والجائعة من أن تنهي تشردها وجوعها التاريخيين . وهذه الوظيفة تظل محددة لتلك المهمة حتى في حال التخلي عن تصور «البلد الذي يسيل فيه اللبن والعسل» ؛ ذلك لأن المسألة تحددت ، في حينه وعلى نحو مشخص ، بالدخول إلى هذا البلد الذي لم يعد هنالك من خيار آخر سواه .

ان تلك العملية الوظيفية وإن ظهرت بثلاثة محاور ، فإنها ترتد ، في أساس الأمر وشموليته ، إلى محور رئيسي واحد ، ذلك هو تخليص الأخطا الاقوامية المعنية من حالتها التشرد الجغرافي والجوع الاقتصادي . وهذا هو ، في واقع الحال ، محور اقتصادي اجتماعي . بيد أن تحويله الى وضعية ناجزة كان قد استلزم الملحظتين الآخرين ، الحربية والدينية ، بحيث نشأت بينهما وتبلورت علاقة ايديولوجية وطيدة قائمة على قداسة كليهما ، مما يضعنا أمام ما سيتضح لاحقاً تحت اطار «الحرب الدينية المقدسة» و«الدين الحربي القتالي» ، ومن ثم «يهوه رب الجنود» . ولا يجوز أن يغربن عن بالنا ، في هذه الحال الدقيقة المحددة ، أن نظرات تلك الأخطا البدوية المشردة والجائعة لمجتمع متقدم في سلم الحضارة التطبيقية المدنية (وهو المجتمع الفلسطيني آنذاك) ^(١) ، اخترقتها نزعتان اثنتان مدمرتان ،

(١) يكتب محمد محفل ، معبراً عن أحد أوجه هذه الحضارة في مرحلة الغزو اليهودي (العبراني) لفلسطين : «كانت بلاد كنعان في ذلك الزمن تعد ١١٨ مدينة أو قرية كبيرة» . (ضمن ندوة : ...

حققد منصهر بكراهيمة وحسد ، ومطامخ ملحفة فى الغزو والتدمير والامتلاك . وهاتان النزعتان كلتاهما تتوجان - فى جماع الموقف - بروح انتقامية حربية متحفزة للوثوب على الخصم والسطو على كل ما يمتلكه بعد «شرب دمه» (١) .

أما الأمر الثانى فىكم فى أن عملية التبيؤ المرتقبة والمطلوبة فى حال نجاح الغزو ما إن بدأت تأخذ بعض أمدائها وآفاقها وتطرح مشكلاتها واعتباراتها الخاصة ، حتى طفقت تواجه عوائق جدية وخطرة ، ومهددة لها فى حالات عديدة . وإذا ما عملنا على ملاحقة المصادر التى انطلقت منها هذه العوائق ، فإننا سوف نلاحظ وضعاً طريفاً مثيراً وذات دلالة مستقبلية هامة على الصعيدين الاقتصادى الاجتماعى والدينى الايدىولوجى . فتلك المصادر - أو على الأقل بعضها وأهمها - تتبينها متمثلة بتلك القوة الاجتماعية ذاتها التى عملت ، تحريضاً وتحفيزاً وقيادة ، على دخول فلسطين وعلى الاستئثار بخيراتها وميزاتها الجغرافية الطبيعية ، ضمن كل الطرق والأماكن المتاحة ، نعنى بها فئة الكهنوت القبلى (البدوى) ، النازع منزع الارىستوقراطية الاقتصادية الاجتماعية والحربية .

لقد كان من مقتضيات وشروط تحقيق مطامع ومطامخ تلك الفئة الاجتماعية (الدينية) الدخول فى رحاب تناقض ذى أوجه اقتصادية واجتماعية وايدىولوجية (دينية) : فمن طرف كانت مطامعها ومطامخها تلك بغزو ارض «اللبن والعسل» ، تدفعها دفعا باتجاه هذه الأخيرة ، بما يقوم عليها من ثط اقتصادى انتاجى متقدم تاريخياً بالقياس الى العلاقات الانتاجية الخاصة بجحافل الأخلاط البدوية المتقدمة نحو فلسطين ، أى بما تنطوى عليه (الأرض) من احتمالات تمثلها واستيعابها حضارياً (بمعنى التحول من البداوة إلى الزراعة) . ومن طرف آخر ، أخذت تلك القوة الكهنوتية تتحسس مخاطر هذه الاحتمالات عليها ، وخصوصاً حيث حققت عملية

= التوراة والتراث - اشترك فيها الاساتذة حرب فرزات وعلى ابو عساف وعمد محفل وإدارها الاستاذ عبد الرحمن الحلبي ، مجلة - المعرفة ، دمشق العدد ٢٦٥ آذار ١٩٨٤ ص ١٠٠ . (١)

«هوذا شعب كلبوة يقوم وكشبل ينهض لا يربض حتى يأكل الفريسة ويشرب دم الصرعى» . (الكتاب المقدس - سفر العدد ٢٣ / ٢٤) ؛ «قد رأيت هذا الشعب فإذا هو شعب قاسى الرقاب» . (الكتاب المقدس - سفر تثنية الاشتراع ٩ / ١٣) .

التمثل والاندماج بسكان الأرض الجديدة ، الكنعانيين ، وتأثر ملحوظة ، أي حيث أخذت جموع من اليهود العبرانيين في الانصهار بالوضع الاقتصادية الزراعية ، وبالحياة العقيدية الدينية ، والقواعد والضوابط والتقاليد الاجتماعية لأولئك وفي عقردارهم .

هنا في هذا المنعطف الحرج ، أخذت تتبلور على أيدي الكهنوت محاولات أولى باتجاه إيجاد وضعية صارمة من الانعزال حيال «الآخرين» والرفض لهم والشعور بالتمييز إزاءهم ، وذلك في أوساط «رعائاه» من اليهود العبرانيين عموماً ، وأوساط من اندمج منهم بأولئك الآخرين (الكنعانيين) أو كان في طور الاندماج ، على نحو الخصوص . لقد شرع الكهنوت يدرك بحس اقتصادي طبقي مرهف أن «المياه تجري وراء ظهره» ، وأنه ، من ثم ، مهدد بأن يُغدر به في عقرداره ، أي في قلب أتباعه . وهنا بالضبط ، بدأت معركة كبرى وهائلة ومديدة بين اتجاه الاندماج (والانصهار) الحضاري الطبقي الجديد من جديد من طرف ، واتجاه المحافظة على «النقاء» من طرف آخر ، مع الاستمرار في مطلب الحرس على امتلاك خيرات مجتمع «العدو» الحضاري الجديد ، دون الانخراط في سياقه الداخلي والخضوع لحركته الدينامية الداخلية . وهذا ما عني وما كان عليه أن يعني ، بالضرورة ، الدعوة اللاهثة الى تدمير الآخرين (الخطر المحدق) ، ولكن بعد الاستحواز على إرثهم ، أي - وبتعبير أكثر اتصافاً ودقة - بعد السطو على هذا الإرث . كان على ذلك أن يتم ، بحيث يغدو وطن أولئك حقاً شرعياً ومصوناً لهم ، بينما يغدو هؤلاء اغراباً في وطنهم ، إن أتيحت لهم امكانية البقاء فيه :

«واعطيك أرض غربتك لك ولنسلك من بعدك جميع أرض كنعان ملكاً مؤبداً وكون لهم الها»^(١) .

ولقد مهد لانجاز هذا الأمر «الجلل والمعجز» بما سبق وأعلن في «الكتاب المقدس» من «عهد مقدس» قطعه الرب يهوه (لنقرأ هنا : الكهنوت) لرعيته المشردة الجائعة في (قادش) ، وذلك في نطاق حلف «مقدس» تم بين الأخلاط الأقوامية القبلية لهذه الرعية والمتحدرة من الحثيين وغيرهم من شعوب المنطقة آنذاك ، على نحو ما أتينا

(١) الكتاب المقدس - سفر التكوين ٨/١٧ .

عليه في موضع سابق^(١) . وجدير بالانتباه والتمعن أن المصالح الاقتصادية والسياسية والتنظيمية ، التي قُبعت وراء ذلك الحلف - العهد ، وجدت دعماً نافذاً وكبيراً في تصورين (وهميين) اثنين ، تبلورا وتوطدا أكثر فاكثراً في الأوساط الرسمية والشعبية لتلك الأخلاط . التصور الأول قام على أن هذه الأخيرة تنحدر من «أصل اتني» واحد ، هو جدّها الأكبر والمشارك «إبراهيم» . أما التصور الثاني فقد تحدّد بالاعتقاد بأن لها الهاً خاصاً بها (هو يهوه) ، يضمن لها مصالحها الحيوية ويحميها من الأعداء .

والمدقق في دينك التصورين يتبين أنهما كليهما يتصلان ، على نحو أو آخر ، بالذهنية الطوطمية ، التي ترى فيما تظن أنه أصلها الاتني البعيد ، الهاً خالقاً مهيمناً . وكما هو بين ، فإن «الأصل» يبرز ، هنا ، أيضاً (أي إضافة إلى أصليته) ، حضوراً دائماً مستديماً^(٢) ؛ أو لنقل إن ذلك الأصل اذ يبرز على ما هو عليه ، فإنه لا بد وأن يكون ذا حضور دائم مستديم . وجدير بالإشارة (التي سنفصل فيها لاحقاً) أن «يهوه» لم يكن ، من حيث الأساس والبدء ، الهاً ابتدع من

- (١) يبدو أن هذه الأخلاط الأقوامية لم تكن ، في تصورها عن «العهد المقطوع» مع الرب ، أول من استحدثته وأخذ به في المنطقة حتى ذلك الحين . فبحسب G.E.Mendenhall في كتابه Law and Convent ، نلاحظ أنه في القرن الرابع عشر قبل الميلاد حدث أن «قطع عهد» بين أحد الملوك الحثيين وشعبه . (انظر حول ذلك أيضاً : Martin Robb: Der Ursprung des Christentums, a.a.O., S.40) في هذا السياق لا بد ، بطبيعة الحال ، من أن نذكر أنه من الراجح كثيراً أن «عهد الرب يهوه» مع شعبه اليهودي العبراني يمكن أن يكون قد انطلق مستلهماً تقاليد ذلك «العهد» الحثي . ولا يخفى أن هذا ممكن تماماً ، خصوصاً أننا لاحظنا أن اليهود العبرانيين يتحدرون ، في بنيتهم الأساسية البعيدة ، من الحثيين ، خصوصاً على الأقل . يبقى القول بأن فكرة «العهد» الذي يقطعه رب أوسيد أو أمير مع شعبه ، نجد أحد مصادرها الرئيسية في التكوينات القبلية الجوّالة . فلقد كان من شأن من يقطع ذلك «العهد» أن يقدم لأفراد هذه التكوينات وعياً وشعوراً بالحماية والتأسيك والتضامن والاطمئنان في صراعهم المحتمل دائماً مع الخصوم المنافسين على الكلاً والماء والأرض .
- (٢) انظر حول ذلك مع المقارنة : غاستون بوتيول وآخرون - الحروب والحضارات ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ص ١٤٠-١٤١ ؛ وكذلك : محمد محفل - التوراة والتراث ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٩٨ .

قبل تلك الأخلاط الأقوامية الاثنتي عشرة ؛ لقد اتصل «يهوه» هذا بأصول أخرى تعود إلى شعوب المنطقة التي عرفت بها هذه الأخيرة ، وخصوصاً المدينيين منها .
هكذا ، إذن ، كان على الحلف الوليد أن يُمنح بعداً دينياً (أخلاقياً) وعاطفياً ذا أصول «إتنية ودينية» بعيدة الجذور وغامضة السمات والطابع . إذ أن وضعاً من هذا الطراز من شأنه أن يتحول إلى قوة مادية بشرية كاسحة غير منضبطة وضاغطة في حياة الوافدين الجدد ، بحيث يستطيعون تحت تأثيرها الحافز أن ينفذوا إلى أهدافهم «الربانية المتميزة» . من هذا الموقع - ومواقع أخرى متممة - ، غداً ممكناً وضرورياً كل الضرورة أن يخاطب الربُّ يهوه موسى أمام شعبه ، مستثيراً فيه وفيهم هيب الآمال الحاقدة المتحفزة والنوازع القتالية الانتقامية ، مشوبةً بفضول البداوة الضامرة المشردة إزاء الزراع «المتخمين والمستقرين» . إن «عقدة حضارية» - هي في أحد اعتباراتها الرئيسية الخفية موقف اجتماعي طبقي - كان عليها أن تفصح عن نفسها شيئاً فشيئاً وعلى نحو متصاعد ، لتتحول في لحظات مناسبة إلى تيار مدمر لكل ما يعترضه ويقف في وجهه ، إن أتيحت له امكانية التدمير .

في ضوء هذه «العقدة الحضارية» ومن موقع احتمالات تحولاتها وانفجاراتها ، لعلنا نستنبط إحدى الدلالات الرئيسية للقصة الاسطورية الشهيرة بإسمي «هابيل وقابيل» ، الأخوين الغريمين . فبحسب هذه القصة ، نعلم أن قابيل كان مزارعاً يحرث الأرض ويعيش من منتوجها المنتظم الوفير ، بينما كان أخوه هابيل راعي غنم ، يقيم أوده مما تقدمه له الأغنام والطبيعة على عواهنها . وهذا يعني ، كما هو واضح ، أن العلاقة بين الأخوين هي - في أساس الأمر الاجتماعي الاقتصادي - علاقة بين الزراعة والبداوة ، بين الاستقرار والتنقل والترحال ، وكذلك ومن ثم بين «النظامية» و«الصُدْفية» على صعيد الطبيعة الجغرافية والنشاط البشري . وبصيغة أخرى مشخّصة أكثر ، نرى تلك العلاقة قائمة بين الاستقرار والطمأنينة الضرورية حيال مصادر العيش المقترنة بنظام فصلي دوري تقويمي (من التقويم ، الرزنامة) ، من طرف ، وبين التجوال والبحث الدؤوب اللاهث عن مصادر للعيش ضمن شروط من احتمالات الاقتتال والانزمام والتجفّز والهلع ، من طرف آخر . والقصة الاسطورية تخبر عن أمر هام وملفت ، تتحدث عنه التوراة بما فيه الكفاية من التفصيل ؛ ذلك هو أن قابيل المزارع يقتل أخاه هابيل راعي الغنم ،

ليجد نفسه وقد أصبح عارياً ووجهاً لوجه أمام لعنة الرب يهوه ، الذي يراقب من موقعه ما يحدث ، تلك اللعنة القاصمة المكلفة والتي عليه أن يحملها وشماً بارزاً أبدياً في وجهه .

إن فعل «القتل» ذاك المُقترف من قبل المزارع قابيل انطوى على دالتين اثنتين أتينا بصيغة من الترميز المعقد ، ومن شأنها أن تقدماً مفتاحاً لتقصي المسألة التي نحن بصددھا . الدلالة الأولى منها تتمثل في الإقرار الضمني بأفضلية الزراعة والزراع على البداوة والبدو ، وفي الرغبة الملحة اللاهثة للدخول في عالمها الواعد الرحب ، بما يحدثه من اطمئنان واستقرار وكفاية . أما الدلالة الثانية فتبرز من خلال الادانة الربانية الخازمة للقاتل قابيل ، (أي ادانة البداوة للزراعة) . ولكن ، كيف يكون ذلك ، والأمر - كما يقتضيه واقع الحال الاقتصادي المصلحي المباشر - ينبغي أن يكون على نحو آخر معاكس ؟! كيف تُفضّل البداوة ، والحال كذلك ، على الزراعة ؟!

إن النظر إلى الإشكالية ، الغنية بآفاقها التاريخية الاقتصادية والسيكولوجية والتي يطرحها ذلك التساؤل في سياقها التاريخي والاجتماعي المشخص ، يتيح لنا أن نتبين تلك الإدانة - في أحد معانيها الرئيسية الحاسمة - بمثابة تعبيراً فاجعياً عن الإخفاق الكبير المديد ، الذي لحق باليهود العبرانيين الرعاة على امتداد مراحل ليست قصيرة ، في تحقيق وجود اقتصادي اجتماعي ملحوظ ينهي لهائم الصحراوي وراء الغيث ، ويضع حداً لتشردهم في صحاري تبتلع الحرث والنسل بكتبانها اللاهبة العملاقة . ومن ثم ، فالإدانة (اللعنة) هي ، هنا بالضبط ، ترميز ديني لرفض أمر ما كان الطموح (وما يزال) منصّباً عليه ، إنما دون نجاح ملحوظ في انجازه . فكأننا ، في هذه الحالة المأساوية ، المضمّنة المرمّزة ، حيال الثعلب الضامر جوعاً والذي مرّ بالكرم المتخّم بالعنب الوفير الناصج ، فسأل لعبه ؛ وهمّ في صنع أمر ما ، لكنه ما إن اقترب من اكوام العنب الشهية ، حتى اندفع الكرام ، ذو العيون اليقظي ، باتجاهه والعصى الغليظة في يده ؛ فما كان من الثعلب المقهور والمخيّب الآمال إلا أن صعد الموقف المأساوي إياه ، بحيث حول العنب الحلو المذاق إلى حصرم حامض شديد الحموضة . إن تحويل العنب الى حصرم هو الترميز

القسري فعلاً والطوعي ظاهراً لعملية تحويل الكهنوت اليهودي للاخفاق الحضاري (الزراعي) ، الذي لحق به ، الى فضيلة زائفة مطموح بها . ومن ثم ، فإن صنع «الذيلة» وتوليدها من «الفضيلة» هو جماع القول في موقف ذلك الكهنوت المقهور والمسغور ، في آن واحد وعلى نحو متعمد^(١) .

ان النص التوراتي ، المتعدد المناحي والاحتمالات والأوجه والذي يتحدث عن تلك الوضعية الطريفة ، بطريقته النخبوية الاستعلائية الخاصة ، يقدم مفتاحاً كبيراً لأدراك ما أطلقنا عليه «عقدة حضارية» ضمن أوساط الكهنوت المعني . ولكنه كذلك ، أي النص ذاك ، يلقي أضواء هامة على العملية المعقدة والمركبة والسادجة ، في آن واحد ، لتشكل التصورات الدينية الوهمية ، وذلك عبر توهيم الشخص الواقعي وتشخيص الوهم والإيهام . وما أشرنا إليه من «ترميز قسري» يمكن أن نرى فيه ضبطاً ذهنياً لآلية عملية التشكل تلك للتصورات الدينية الوهمية .

في النص التوراتي ، نواجه «العقدة الحضارية» المنوه بها على النحو التالي :
«فكان هابيل راعي غنم وقاين (قابيل) كان يحرث الأرض . وكان بعد أيام أن قاين قدم من ثمر الأرض تقدمة للرب . وقدم هابيل أيضاً شيئاً من أبكار غنمه ومن ميانها . فنظر الرب إلى هابيل وتقدمته ، وإلى قاين وتقدمته لم ينظر . فشق على قاين جداً وسقط وجهه . فقال الرب لقاين لم شق عليك ولم سقط وجهك . ألا إنك إن أحسنت تنال وإن لم تحسن فعند الباب خطيئة رابضة وإليك انقياد أشواقها وأنت تسود عليها . وقال قاين لهابيل أخيه لنخرج إلى الصحراء . فلما كانا في الصحراء وثب قاين على هابيل أخيه

(١) جدير بالقول ، في هذا السياق من المسألة ، أن جيمس فريزر في كتابه «الفولكلور في العهد القديم» - الجزء الأول ترجمة د . نبيلة إبراهيم ، مراجعة د . حسن ظاظا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢ ، ص ٧٣ - ٩٠ ، لم ينتبه الى هذه الدلالة الهامة لمقتل هابيل بيد أخيه قابيل ، لك الدلالة التي لعلها تكون حاسمة في إلقاء أضواء ساطعة على الصراع المعقد والمديد بين البدو ن اليهود العبرانيين (وخصوصاً سادتهم الكهنة) من طرف ، وبين العلاقات الزراعية وتحتلها في فلسطين الكنعانية من طرف آخر .

فقتله . فقال الرب لقائين أين هابيل أخوك . قال لا أعلم أليّ حارسٌ لأخي . فقال ماذا صنعت ان صوت دماء أخيك صارخ إلي من الأرض . والآن فملعون أنت من الأرض التي فتحت فاهها لتقبل دم أخيك من يدك . وإذا حرثت الأرض فلا تعطيك قوتها أيضاً . تائهاً شارداً تكون في الأرض» (١) .

أن ذلك النص المكثف والذي يجبر عن قصة هي - في الأصل التاريخي ما قبل المكتوب - ذات مصادر أقدم كثيراً من الوجود التاريخي المعروف لليهود العبرانيين (بقايا الحثيين المختلطة مع شعوب المنطقة آنذاك) ، يرينا كيف استلهم هؤلاء - ممثلين بكتبهم الكهنة الأعلى - القصة المذكورة استلهاماً تراثياً ذا طابع «توراتي خاص» . لقد فعلوا ذلك ، بحيث عبرت القصة - بأسلوب سيكولوجي تضميني وتصويري مشير - عن العالم الذهني لسادتهم فيما يتصل بمخاطر عملية الانتقال المعقدة والمتعبة بالآلام من قحط البداوة وقلقها إلى رخاء الزراعة واستقرارها . فالوصول إلى هذه الأخيرة والعيش ببحبوحتها في أرض «اللبس والعسل» ، فلسطين ، أمر مرغوب فيه ومستهدف وضروري بذاته ؛ ولكنه ، بما يجلب من نتائج مستقبلية (فقدان مصدر الثراء والرفاه والاستغلال ، الممثل بجمهور اليهود العبرانيين الذين لا بد وأن يندفعوا ، بحس اقتصادي تلقائي ، باتجاه الكنعة لتحقيق أحلامهم في عيش منظم وآمن ومستقر) ، يمثل كابوساً مخيفاً وخطيراً ؛ إنه الفردوس المفقود في الحالة التي يطمح فيها للوصول إليه . ولذلك فهو فردوس يحمل ، تَوّاً ، عناصر افتقاده .

ولعلنا نرى أن تلك الوضعية المضطربة تعلن عن اتجاهاتها العامة والخفية بمزيد من التخصيص والوضوح ، حين نضع في اعتبارنا قصة الآلام الأخرى ، قصة «الخروج» و «التيه» ، التي من المرجح كثيراً أن تكون حائزة على أفق ما من الصحة التاريخية والمصادقية الواقعية . نقول ذلك مع الإشارة اللازمة إلى أن الأخذ بهذا الرأي لا ينطوي ، ضرورةً ، على القطع بتصديق مأساة «التيه طوال أربعين عاماً» ؛ هذا مع العلم أن في هذه الأخيرة ما يُغري بتصديقها ، أو ما يدعو - على

(١) الكتاب المقدس - سفر التكوين ٢/٤ - ١٢ .

الأقل - الى منحها حداً من المصادقية ؛ ذلك أنها - كما أشرنا من قبل على لسان ول ديورانت - تصف مسير قوم (أو أقوام) من البدو ، الذين كانوا طوال عهودهم وحتى حينه ، قوماً رحلاً ، كما أن هزيمتهم الحربية للكنعانيين ، بطريقة توراتية أو بأخرى ، ليست إلا مثلاً آخر لانقضاخ جموع متكثلة متحالفة من الجياع الضامرين على جماعة مستقرين آمنين .

وبسبب من أن جموح الكهنة (السادة) باتجاه وضع اليد على فلسطين ، البلد «الموعود» و «عطية» الرب يهوه ، كان أقوى وأكثر فاعلية وتأثيراً من أيّ تحسب لتأثجه البعيدة الخطرة المحتملة وغير المحتملة ، إضافة إلى أنه جسد الخيار الذي لعله كان فعلاً الوحيد للخروج من «مازق» حياة الرحالة ، بسبب من ذلك نقول ، إنه كان ضرورياً أن يحدث ما حدث - تعبئة وقيادة وتنفيذاً - على أساس طاعة مطلقة عمياء من قبل جموع اليهود العبرانيين لمن نصبهم الرب (أو نصبوا هم أنفسهم) وسطاء مباشرين بينهم وبينه ؛ نعني هؤلاء ، طبعاً ، الكهنة . ان «العهد» المقطوع ، بالدم ، وبشريط متصل من القرابين والأضحيات والندور الخ . . بين الرب من طرف ، وبين هؤلاء وأولئك من طرف آخر ، يتضمن شرطين اثنين قطعيين ، لا يصح واحد منهما دون الآخر ، وبهما - مجتمعين متضايفين - تتحقق الأهداف الكبرى : أن يمنح الرب المبارك أرض كنعان لشعبه المختار المصطفى دون تباطؤ أو تلكؤ وفق ذلك العهد المقدس ، وأن يطيع هذا الشعب - من طرف آخر متمم - ربه (كهنوته) جزماً وقطعاً ويسلك طريق الوفاء والاخلاص له هو وحده ، لا شريك له .

هاكم صيغة العهد الأمر الجازم ، بكل ما تنطوي عليه من حقد البداوة المتوترة على الزراعة الآمنة ومن تربصها الشملي بها :

«إنكم جائزون الأردن إلى أرض كنعان ، فتطردون جميع أهل الأرض من وجهكم وتبيدون جميع منقوشاتهم وأصنامهم المسبوكة ومشارفهم تدكونها . وتملكون الأرض وتقيمون بها فإنني قد أعطيتها لكم ميراثاً . ترثون الأرض بالقرعة على حسب عشائركم الكثير تكثرون له نصيبه والقليل تقللونه له وما خرج لأحدكم بالقرعة فليكن على حسب أسباط آبائكم تتولون ميراثكم . وإن لم تطردوا أهل الأرض من وجهكم كان من تبقونه منهم كإبرة

في عيونكم وكحربة في جنوبكم يضايقونكم في الأرض التي أنتم مقيمون بها». وإذا لم يمثل الاتباع لتلك الأوامر المطلقة ، أوامر الرب الكهنوتي أو الكهنوت الربوبي ، فإن الأمر لا يحتمل سوى نتيجة واحدة قطعية وتأويل واحد :

«فيكون أني كما نويت أن اصنع بهم اصنع بكم»^(١) .

وجدير بنا أن نولي المعطى التالي اهتماماً دلاليّاً مركزاً ، وهو أن تلك العلاقة (العهد) بين الرب وشعبه الخاص بعد أن نشأت وتبلورت في نطاق البداوة وبعد ذلك في مرحلة الانتقال منها الى الزراعة ، وجدت نفسها أمام تناقض مؤرق من طراز جديد . هذا التناقض برز بين الرب (أي الكهنة) من جانب ، وبين الآخرين من شعوب المنطقة (خصوصاً الكنعانيين منهم) والأتقيين من شعبه الذين اندمجوا بهؤلاء أو كانوا على الطريق إلى ذلك ، من جانب آخر . ويبيّن أن التناقض المعني طرح نفسه بمثابة اختباراً قاسياً ومريراً ومخرجاً لمدى جذبة الرب في موقفه من عهده وفي تهديداته الأمرة ، وكذلك - ومن طرف مقابل - لمدى طاعة شعبه في الامتثال له . وهو ، لهذا ، كان قد مثل الشرخ الأعظم وذا الطابع المستديم في ثقة الواحد بالآخر .

لقد انطوى التناقض المذكور على مجموعة غزيرة ومتنوعة من المواقف والاحتمالات المستقبلية على صعيد العلاقة بين الطرفين إياهما . وهذه المواقف والاحتمالات لم يكن من شأنها ، إجمالاً وعموماً ، إلا أن تقود الى الفجيرة الدائمة أو شبه الدائمة في حياة اليهود - شعباً وكهنة - وفي تصوراتهم الدينية للتاريخ وللرب ولشخصيتهم . (وجدير بالإشارة أن مثل هذه الوضعية النموذجية ما تزال حتى عصرنا الراهن ذات حضور ملحوظ ، وإن بصيغ وأسئلة تستجيب لواقع الحال الجديد وللجهود التي يبذلها على هذا الصعيد «الكهنة الجدد» ، أي ممثلو الصهيونية نظرية وممارسة) .

فالكهنة ، الذين طرحوا التاريخ على أنه تحصيل حاصل معبر عنه بالعهد المعني بين الرب وشعبه ، وعلى أنه ، من ثم ، علاقة الوحي الرباني فيما بينهما ، وجدوا أنفسهم ، عبر صور مضطربة من الفواجع وخيبات الأمل ، أمام كل شيء

(١) الكتاب المقدس - سفر العدد ٣٣/٥١ - ٥٦ :

ما عدى ذلك «العهد» وهذه «العلاقة» . حدث هذا لأن أحد طرفي العلاقة خانها ، إذ انفضَّ عنها «دون سابق انذار» ، ودون احترام للمحرمات والمقدَّسات . فلقد كان لاحتكاكه بـ «الأغيار - الغوييم» نتائج مثل وقع السيف : إنه وجد نفسه ، في سياق ذلك ، مستفزاً باتجاه ماضٍ ، فترة من الزمن ، يخشى الاقرار به لنفسه ، وهو التشكيك في تلك المحرمات والمقدَّسات ، وباتجاه الطموح الدفين للاندماج بأولئك الأغيار ، الذين تبلورت صورتهم في ذهنه من خلال كونهم يمتلكون الفضيلتين العظميين ، اللتين يفتقدنهما هو طُوراً ، وهما الكفاية الاقتصادية الزراعية ، والاستقرار والأمن . لم لا يشكك بكل القيم والموروثات ، التي انطبعت في شخصه على امتداد الزمن الصعب ، وحالت - حتى حينه - دون النفاذ إلى عالم يحميه ويكفيه ! إنه يفعل ذلك ، حيث وجد ، أخيراً ، لُقيته ومبتغاه . هذا أولاً ؛ من ناحية أخرى كان لاحتكاكه بأولئك ، الذين لم يكن يعرف عنهم شيئاً سوى أنهم «الآخرون ، الأعداء» ، قدرة توطدت شيئاً فشيئاً باتجاه التسويغ الديني لاندماجه بهم دينياً ، محدثاً ذلك ، بدأ بيد ، مع عملية الاندماج الاقتصادي والاجتماعي والعائلي .

لقد كانت المؤثرات المعاشية الجغرافية الجديدة كبيرة عليه وعملقة ، بحيث امتلك الشجاعة والحزم على أن يخرج «عن الطوق» ، ويصل إلى المبادرة الكبرى : تقبّل «الوثنية الكنعانية» ، وثنية الأقوام الجديدة في العوالم الجديدة . وفي الطريق إلى تقبل هذه الأخيرة وإلى الامتثال لمقتضياتها لدواعٍ أتينا عليها ، كان اليهودي العبراني البدوي قد اكتشف - بطريقته العملية المباشرة - أنها (أي تلك الوثنية) متفوقة على «يهواه» في نقطتين كبيرتين وحاسمتين ؛ الأولى منها نهضت على أن الوثنية المعنية وإنْ ظهرت تعددية البنية ، فإنها كانت - ضمن منظومة من الأنساق والعلاقات التي تمثل دلالاتها المشخصة المباشرة على الأصعدة التي عنته - قادرة على إبراز ما كمن وراءها وداخلها ، وهو الوحدة . وهنا تبرز النقطة الثانية ، التي نلاحظ أنها اتضحت بشكل أكثر فاعلية وتأثيراً وإفصاحاً في مجال العلاقات البشرية الزراعية المباشرة . أما السبب في ذلك فيكمن في أن تلك الفاعلية وذلك التأثير وهذا الإفصاح كمنوا - وهنا معقد المسألة الدقيق - في وجه من أوجه الممارسة الديموقراطية التعددية ، أو على الأقل في توافر احتمالات نشوء وترعرع مثل هذه الممارسة في مجتمع

زراعي . وعلينا أن نضيف ، تحديداً لهذا المجتمع وضبطاً له ، أن الفلاحين وليس العبيد - يشغلون فيه موقعاً لا يقترب من موقع «الشور» فأقد الحق الاقتصادي والبيولوجي والحقوقي ، أي موقعاً مدعماً بمقولة «الانسان» الفاعل في «الطبيعة» فعلاً تغييرياً وعبر قصدية واعية بحد ضروري أولي .

وإذا كان الأمر على ذلك النحو الانعطافي ، فإن «العهد المُعجز» لم يعد قادراً على الزعم بالصمود ، على الأقل ، دون هزات وعواصف وشكوك ، وكذلك دون مواجهة الدعوة الحثيثة الى أن يُقضى عن حياة الناس الطامحين إلى الولوج في العالم الجديد .



مواجهة العالم الجديد عبر اشكالية الأقنية الثلاث :

الاندماج والحرب والتجارة

دخل اليهود العبرانيون فلسطين ليواجهوا وضعية مركبة مشكلة وذات أبعاد ثلاثة ، سوف يتاح لها ، شيئاً فشيئاً ، أن تمثل عقدة (مشكلة) تاريخية اجتماعية واقتصادية وسيكولوجية في حياتهم ، وفي العلاقة بينهم وبين الآخرين من شعوب المنطقة . تلك هي وضعية الاندماج ، والحرب ، والتجارة . ومع أن كلاً من هذه الأبعاد الثلاثة سيكون له طابعه الخاص والمستقل نسبياً عن نظيره الآخرين ، إلا أن علاقته بهذين تبرز ، هي أيضاً ، بمثابتها عنصراً أساسياً من عناصر تحديد طابعه (بنيته) ذاك .

لِمَ الحديث عن تلك الأبعاد الثلاثة ، وماهي المسوغات لذلك ، وأخيراً ماهي المنطلقات المنهجية التاريخية التي ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار أثناء معالجته ومناقشته ؟ بادئ ذي بدء ، نواجه ضرورة التأكيد على الواقع الجغرافي الخاص ، الذي كان أحد عوامل تحديد تلك الأبعاد في فلسطين . إن هذا الواقع تمثل ، بوضوح ، بوقوع فلسطين بين عواصم العالم الكبرى آنذاك ، وهي عواصم مصر ودجلة والفرات . فلقد ترتب على هذا الموقع الحرج والمعقد والاستراتيجي ، في آن ، أمران اثنان . الأول منهما تجسد بوجود احتمالات دائمة لنشوء صراعات وحروب وخصومات متصلة أو متقطعة بين تلك العواصم ، وذلك بسبب من احتوائه (بلد فلسطين) على ثروات طبيعية متعددة ووافرة ، وكذلك انطلاقاً من موقعة العسكري والسياسي والثقافي الاستراتيجي .

أما الأمر الثاني فقد اتضح وبرز وتضاعف من خلال حركة الاتجار مع

العواصم المذكورة قسراً أو طوعاً أو بكلتا الطريقتين وبسلوك مجموعة من أشكال العنف والتسلل السلمي أو القتالي ، بحيث أن التجارة غدت عصباً أساسياً وكبيراً في الحياة الاقتصادية العامة للبلد المعني . ان الحرب والتجارة مثلاً ، على هذا الصعيد ، وجهين متلازمين وضروريين لمسألة واحدة ولواقع واحد . وقد كان من المقتضيات الأولى للموقع الجغرافي المذكور أن سكان فلسطين الكنعانية ، والعبرانية اليهودية جزئياً لاحقاً ، كانوا ، غالباً ، لا يجدون أنفسهم إلا أمام خيار قطعي واحد للخروج من المأزق الذي يولده توزيعهم وتمزقهم على أيدي حراب الخصمين الأكبر ذلك هو الالتحاق بواحد منها اقتصادياً وبشرياً والصراع إلى جانبه ضد الآخر . وفي حالات أخرى ، كان ذلك الخيار ذا طابع قسري يميل إملاءً من قبل الطرف الأقوى ، ويأخذ من ثم طابع الإلحاق . ولعل احتمالاً آخر كان يتولد عن ظروف الصراع المشخصة ، وهو أن يرغم سكان فلسطين على تقديم الجزية للطرف المنتصر عيناً أو سخرة ، ويكسبوا - لقاء ذلك - استقرارهم الاقتصادي والبشري ، وإن كان ذلك في جل الأحوال مترافقاً مع خسارة استقلالهم السياسي والتنظيمي .

وفي الحق ، كانت الحرب من العوامل الكبرى التي غالباً ما أدت إلى تراجع الزراعة أو ، في بعض الأحيان ، إلى تدميرها عموماً . كان يكفي ، مثلاً ، أن تندلع شرارة الحرب بين العملاقين المتخاصمين بسبب مشكلات تتصل ببلديهما أو بسبب المنافسة العنيفة على فلسطين ، لكي تؤدي إلى تخريب حقولها التي أخصبتها الطبيعة والأيدي البشرية الواسعة على مدى عشرات السنين . ومن ثم ، يغدو البدء بإعمار البلد من جديد أمراً ضرورياً مفروضاً فرضاً حياتياً ، رغم صعوبات جمة هائلة على صعيد القوى البشرية والأدوات الانتاجية والتنظيم الاقتصادي والسياسي وسواه (١) .

وكما هو الحال بالنسبة الى الحرب ، برزت التجارة ، كذلك بمثابقتها عنصراً متمماً وضرورياً للعملية . فالحرب ، منافسةً وصراعاً على فلسطين ، كانت تنطوي على أهداف غير عسكرية مباشرة ، في طليعتها التمكن من الوصول الى الطرق

(١) انظر مع المقارنة : ول ديورانت - قصة الحضارة ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٣٢١ - ٣٢٢ .

التجارية الكبرى ذات الحساسية الاقتصادية والجغرافية والعسكرية ، التي كانت فلسطين نفسها تمثل أحد محاورها الرئيسية . ولعلنا نتبين ، هنا بالضبط ، أحد البواعث العميقة على انتشار النقد ، من حيث هو معادل معترف به للسلع التجارية المتبادلة ، وذلك في مرحلة تاريخية (حوالي عام ٦٥٠ قبل الميلاد) اتسع فيها وتعاضم الرأسمال التجاري والرأسمال الربوي بوتائر عالية ملحوظة

ومن خصائص ذلك الموقف وأفاقه الايديولوجية الدينية الملفتة ، أننا نفتقد ، لدى كتاب اليهودية الأوائل ، تصور الجنة والثواب والعقاب في عالم آخر غير عالمنا ، بحيث يبرز هذا الأخير بصفته مبتدى الوجود ومنتهاه . ولقد كان من شأن وضع دقيق مثل هذا أن حوافز عديدة وفاعلة تكونت وبرزت باتجاه التأكيد على عملية الاقتناء المادي والتوسع في النشاط الاقتصادي والتجاري دون محاذير ، وعلى نحد دفع بعملية التناقض الطبقي ، وما يلحق به من اضطهاد واستغلال طبقيين ، إلى أمام . إضافة الى ذلك ويدأ بيد معه ، نلاحظ أن اليهود العبرانيين - بسبب من الفاعلية الكبرى للتجارة الداخلية والخارجية أولاً ، ووجود احتمالات مفتوحة في معظم الأحيان لاندلاع حروب طاحنة مدمرة ثانياً ، ونشوء توقعات كبيرة لتغير البنية السكانية والتطويع بالاستقرار لفترة مديدة على الأرض المستهدفة ثالثاً - وجدوا أنفسهم أمام ضرورة توسيع الاقتصاد النقدي الربوي القابل للحمل والنقل ، والذي يجعلهم قادرين على أن يكونوا في أي مكان ، دون أن يترتب على ذلك فقدانه أو فقدان الكثير منه .

وإذا وضعنا في اعتبارنا ، عند هذه الحلقة النوعية من المسألة المطروحة ، عنصر الاندماج (والانصهار) ، الذي سيتحول ، في أثناء التطورات اللاحقة ، الى مشكلة حثيثة في حياتهم القلقة - وسيأتي الحديث عنه بمزيد من التفصيل بعد قليل - فإننا ، حالئذ ، سوف نقر ما قاله هاينرش هاينه عن «الكتاب المقدس» اليهودي من أنه «كنز الهيكل الحقيقي» ، الذي لم يحترق ولم يتلف أثناء الهجمات التي تعرض لها «الهيكل» في القدس ، ومن أنه - من ثم - يجسد إلهاً محمولاً في كل مكان يجد فيه العزاء مَنْ فقدته ومن فقد «هيكله» ، ويمثل ، بالتالي ، هيكلًا (وطنياً) يحمله «المختارون» المطاردون الى حيث يستقر بهم المقام^(١) . أننا نقر بذلك ، ولكن

1) Heinrich Heine: Zur Geschichte der Religion und Philosophie in Deutschland- Reclam Bibliothek, Leipzig 1966, S. 49.

ليس لتتوقف عنده ، وإنما لتتبعه بقول آخر يخترقه ويتشابه به ويشكل ، كذلك ، خلفيته البعيدة المغيبة بردهات «القداسة الربانية» ؛ ذلك هو : أن التجارة والروح الحربية والمال والشعور بالتميز والاصطفاء ، هي العناصر الكبرى الثابتة - نسبياً ولكن بدرجة واضحة - التي صُنعت لليهود العبرانيين من قبل سادتهم الكهنة ، «المصطفين بين المصطفين» ، وذلك بمثابقتها وطناً عالمياً جوالاً ، يحملونه حيث كانوا وإلى حيث يرتحلون ، مصوغاً بـ «العهد العتيق - المتجدد»^(١) . غير أن هذا «الوطن» بقدر ما كان مجسداً على نحو مادي واقعي مكثف ، فإنه - بسبب من تنقله الدائم وقلقه وعالميته دون موطنه - لم يكن ، في أحد أبعاده الكبرى ، أكثر من وهم يثير الآلام والأمال . ولكن ، لم ذلك ، وما مصادر وهمية هذا «الوطن العالمي» الجوال واللامشخص إلا عبر الأحداث المأساوية المثيرة ؟

(١) جدير بأن يشار ، وهنا ، إلى أن التجارة كانت تمارس دوراً ملحوظاً حتى في مرحلة البداوة الجواله لليهود العبرانيين . فمع الإقرار بأن الرعي كان يمثل الشريان الاقتصادي الرئيسي في هذه المرحلة ، فإنه يبقى صحيحاً أن نقول بأنه «كان لليهود فضل كبير على تطور العلاقات التجارية في فلسطين نظراً لوجودهم على طول الطرق الرئيسية ، فكانوا ينتقلون من بلد لآخر عبر الحدود السياسية والحواجز الطبيعية حاملين السلع من وطن لآخر . ولم يتخل اليهود عن هذه المهمة تماماً ، حتى بعد استقرارهم في فلسطين وامتزاجهم بالكنعانيين بحكم موقع فلسطين الجغرافي الذي يجعلها طريقاً للمواصلات الثلاث» . أما أن يكون اليهود قد استمروا بالتجارة بعد استقرارهم في فلسطين ، فإن ذلك أمر لا مجال للشك فيه ؛ بل أكثر من ذلك ، فعل العكس من صيغة التخفيف التي يستخدمها الباحث في ذلك النص (انظر : عبد الوهاب محمد المسيري - الأيديولوجية الصهيونية ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ص ١٧) ، نجد أن تلك الأقوام مارست التجارة في المرحلة المنوه بها بمزيد من الاتساع والتواصل والشمول .

وبطبيعة الحال ، ينبغي التعقيب على ذلك بأن دولة المدينة إسرائيل هي التي كان سكانها «يمارسون بأكثريةهم الزراعة والتجارة» . وكانت إسرائيل تقيم علاقات تجارية نشيطة مع فينيقيا وسورية و«أصبحت بحكم موقعها على مفترق الطرق المؤدية إلى آسيا وما بين النهرين ومصر ، بلداً تجارياً» . في الوقت الذي بقيت فيه اليهودية الواقعة في القسم الجبلي الأصعب من بلاد الرعاة المتخلف» . (انظر : Scramuzza V. and Machendrich P. The Ancient World. N.Y., P.126) وكذلك : يوري ايفانوف - احذروا الصهيونية ، دراسة حول أيديولوجية وتنظيم وممارسة الصهيونية ، منشورات وكالة انباء نوفوستي ١٩٦٩ ، ص ١٣) .

ها هنا ، نكون قد دخلنا عمق المشكلة التي طرحناها تحت حدة «الاندماج» اليهودي العبراني مع شعوب المنطقة عامة ، ومع الشعب الكنعاني بصورة مخصصة . إن هذه المشكلة تبدأ بفرض آثارها ونتائجها البنيوية التحويلية في أوساط أولئك اليهود ، وكذلك وبأشكال مباشرة وغير مباشرة في حياة جيرانهم الكنعانيين ، خصوصاً مع نشوء وتبلور واتساع دائرة «العقدة الحضارية» ضمن قطاع السادة الدنيويين الدينيين ، أي ضمن الكهنة . فلقد أخذت ريح اندماج رعيتهم بالشعب الكنعاني (الزراعي) تعصف بمصالحهم الاقتصادية وبهيمنتهم الاجتماعية والسياسية والايديولوجية (الدينية) : لقد حل الوقت الذي أخذت فيه «البقرة الحلوب» - جمهور البدو من اليهود العبرانيين - تدبر ظهرها لسادتها النهمين ، بعد أن شرعت في اكتشاف العالم الجديد ، عالم الزراعة المثير الرحيب ، بما يحمله من استقرار وأمان وانتظام معيشي اقتصادي . ولعله من بالغ الأهمية الإشارة إلى أن منطقة فلسطين نفسها مثلت - بحكم مناخها وانطلاقاً من مستوى التطور الذي حققته على صعيد النظام الانتاجي الاجتماعي والكشوف المتصلة بالمعادن - نقطة جذب هامة ايضاً بالنسبة الى القوى الاجتماعية الخارجية المتقدمة في سلم التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والديني ، وبصورة خاصة في مصر . ولذلك ، كان مفهوماً بذاته ، من موقع المصالح المعيشية الاقتصادية ، أن تقوم تلك الجموع البدوية بما يلزم من جهود باتجاه «التقرب» من الفلسطينيين الكنعانيين والتمثل بهم ، ومن ثم الاندماج بهم ^(١) .

وإذا كان الكهنوت قد أخذ يتحسس ويكتشف ، بمعانيته الطبقية وتجربته المباشرة ، خطورة اندماج رعاياه ضمن علاقات زراعية (ذات سمات مشاعية قروية عموماً) ينكسر فيها ، نسبياً ، سيف الارهاب الاقتصادي والسياسي والديني وتنفتح

(١) «كانت فلسطين منطقة ملائمة بحكم مناخها للزراعة ، التي ظهرت هنا منذ أقدم العصور . . . وكما تذكر الوثائق المصرية القديمة التي ترجع بتاريخها الى الألف الثالث قبل الميلاد ، فإن فلسطين كان يسكنها من الساميين من كان بعضهم رعاة وبعضهم الآخرين مستقرين في الزراعة . وكانوا يسكنون في قرى محصنة ، ويعرفون الاسلحة المعدنية . وعادة ما كانت الجيوش المصرية تهاجم هذا البلد» . (تاريخ العالم - أكاديمية العلوم السوفيتية ، المجلد الأول ، ص ٣٩٢ ، بالروسية) .

فيها بعض كوى الديمقراطية ، فإنه أدرك - كذلك بمعاينته التطبيقية وتجربته المعنية - أن مثل تلك العلاقات من شأنها أن تسهم في زيادة إثرائه هونفسه ؛ وهذا الأمر يمكن أن ننظر إليه بمثابة حالة متحدرة من مقتضيات الطرافة التي فرضها الموقف الجديد القسري . ذلك لأن المضطهدين سوف تزداد مصادر دخولهم كماً ونوعاً ، بحيث يتحولون ، هم بدورهم ، الى موضوع للاضطهاد والنهب أكثر ثراءً واتساعاً وتنوعاً : سوف تكثر الاضاحي والمحرقات والنذر والضرائب الخ . . وسوف تكون امكانات واقعية لجنيها وحيازتها (١) .

بيد أن الكهنوت ، الذي عمل على أن يظل أميناً لمصالحه التطبيقية ومنسجماً مع مقتضياتها واحتياجاتها ، كان يرى أن ازدياد ثرائه المرتقب - ضمن الوضعية الجديدة المتبلورة - لن يكون إلا إلى حين ، ومن ثم ، فهو (الثراء) ليس مطلوباً على عواهنه ، وإنما ضمن حدود معينة . إذ ان الكهنوت سيجد نفسه فيما بعد ، أي في حال الدخول في العالم الجديد ، أمام الحكم التاريخي الحاسم التالي ، وهو الاضمحلال بصيغته التقليدية ، التي امتلك وعيه الذاتي عبرها . ذلك أن عملية اندماج جمهور الرعايا المنتجين بالمجتمع الجديد إذ تأخذ في طرح نفسها بوتائر ملحوظة ، فإنها سوف تولد ، على نحو أو آخر وبهذه السرعة أو تلك ، ما يغطيها ويكافئها ويحفظها على أصعدة البنى الفوقية ، السياسية والحقوقية والدينية الايديولوجية ، وغيرها . فعلى الأقل ، سوف يكون من دواعي ومستلزمات عملية الاندماج تلك ، المتصاعدة عمقاً وسطحاً ، أن يجري تبني واستلهاام الهيكل الديني

(١) يستشهد عبد الوهاب محمد المسيري في كتابه (الايديولوجية الصهيونية - القسم الأول ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٥) بفكرة ملفتة للانتباه ترد في كتاب Salo W. Baron, and Kahn. Arcadius et al. Economic History of the Jews. Ed. Nachum Gross. New york Schocken Books, 1975. P. 30). الفكرة المعنية هي أن اليهود العبرانيين القدامى بعد أن استوطنوا وأرض فلسطين واستقروا فيها واختلطوا بالكنعانيين (أول الشعوب التي سكنت فلسطين) اشتغل كثير منهم بالزراعة . ويبدو أن القطاع الزراعي كان هو القطاع الغالب في اقتصاد الممالك اليهودية قبل النفي البابلي (٥٩٧ ق.م) بل وبعده . ويمكن أن ننظر الى تاريخ اليهود القدامى ، دون تبسيط مبالغ فيه ، على أنه لا يختلف كثيراً في سماته الرئيسية عن تاريخ شعوب المنطقة ، التي تطورت من مرحلة رعوية بدائية إلى أخرى زراعية أكثر تركيياً .

الكنعاني القائم على الوثنية (التوحيدية في التحليل الأخير للموقف وعلى نحو ما أوضحناه في مكان سابق) . وإذا ما تم ذلك وتحول الى وضعية عامة وشاملة بقدر ضروري في أوساط المندمجين الجدد ، فإنه سوف يكون تعبيراً ضمنياً ومفصلاً عنه عن صفة ضخمة وقاصمة للتوحيد القبلي النخبوي اليهودي ، أي للكهنة ، من حيث هم كذلك ، وفي عقر ديارهم .

وكما هو بين واضح ، فإن في ذلك المعطى التاريخي الانعطافي الممثل بعملية الانتقال من تصور ديني توحيدي ، بمعنى ما ، الى تصور وثني ، ظاهراً ، ما يدعونا الى التأمل التاريخي والتراثي النقدي من موقع جدلية التقدم والتطور التاريخيين التراثيين ، خصوصاً وتحديدأ . ان ذلك يفصح عن سماته الداخلية الرئيسية بمزيد من العمق والخصوصية ، حالما نضع في اعتبارنا أن عملية الانتقال تلك كانت قد عنت ، عملياً في أقل تقدير ، تحقيقاً لآفاق تقدمية هامة على مجمل الأصعدة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية .

على أساس ذلك الوضع التاريخي الاجتماعي المحدد والمخصص دون لبس ، كان موقف الكهنوت اليهودي من الاندماج اليهودي بالمجتمع الجديد قد اكتشف صيغته الأكثر حزمًا وتوافقًا مع مصالح هذا الكهنوت ، وهي اعلان حرب مقدسة وشاملة لاهوادة فيها على أولئك الذين أقدموا على تلك «الفعلة» الاقتصادية واجتماعياً (تزاوجياً) ودينياً . ان الواحد منهم لا يجد مفرأ من أن يُقتل قتلاً ، ويرجم رجماً .
وجدير بالتبصر أن مصادر تاريخية (١) - اضافة إلى التوراة (٢) - تعلن بوضوح ودون

(١) لقد اتسعت عملية الاندماج الى درجة قريبة من الانصهار بالكنعانيين ، خصوصاً . فعلى الصعيد الاقتصادي ، انخرط اليهود العبرانيون ، بصورة عميقة وشاملة ، في الحياة الزراعية ، بحيث أعلن المؤرخ اليهودي الروماني يوسفوس فلافيوس (من القرن الأول الميلادي) قائلاً : نحن لسنا شعباً تجارياً ، وإنما شعب زراعي . (ضمن : Grayzel, Solomon- A. History of the jews

from the Babylonian Exile to the Present 5728- 1968. New York: The New American Library, 1968

P.12).

(٢) هنالك مواضع كثيرة جداً تشير الى الأهمية الكبرى التي مارسها الزراعة في حياة اليهود العبرانيين . فالحديث عن أدوات العمل الزراعية (مثلاً في سفر القضاة ٣/ ٣١ ، الكتاب المقدس) ، وعن المنتجات الزراعية (مثلاً في نفس المصدر السابق ومعطيته ١١/ ٦) ، يواجهنا على قدم وساق في «العهد العتيق» .

غمغمة أو رمزية أن عملية الاندماج إياها سارت ، في بدايات دخول اليهود
العبرانيين الى فلسطين عمقاً وسطحاً ، مما أخذ يشكل خطراً جدياً متعاضداً في وجه
ذلك الكهنوت ، بالرغم من التراجع الذي لحق بهذه العملية بسبب من عدم انتصار
الزراعة في حياتهم بالحدود الشاملة (١) .

ومن هنا ، فإن الأمر إياه لم يكن يحتمل أي تسامح أو تفكر أو إرجاء . ففي
«سفر العدد» (٢) ، نقرأ الآيات التالية ، التي لا تبقي على أي شك في أن الاندماج
كان فعلاً في تصاعد وتعاضد ، هذا إذا لم نتحدث عن «الانصهار» في ميادين
المجتمع الجديد المختلفة :

«وأقام اسرائيل بشيطيم وأخذ الشعب يفجرون مع بنات موب .
فدعوا الشعب إلى ذبائح آلهتهم فأكل الشعب وسجدوا لآلهتهم . وتعلق
اسرائيل ببعل فغور فاشتد غضب الرب (لنقرأ : الكهنة - ط . تيزيني) على
اسرائيل . فقال الرب لموسى خذ معك جميع رؤساء الشعب واصلبهم للرب
أمام الشمس فتصرف شرّة غضب الرب عن اسرائيل . فقال موسى لقضاة
اسرائيل اقتلوا كل واحد من تعلق من قومه ببعل فغور . فإذا رجل من بني
اسرائيل قد أقبل وقدم إلى إخوته امرأة مدينية على عيني موسى وعيون كل جماعة
بني اسرائيل وهم ييكون عند باب خيباء المحضر . فلما رأى فنحاس بن
اليعازار بن هرون ، الكاهن قام من وسط الجماعة وأخذ رُمحاً في يده . ودخل
وراء الرجل الاسرائيلي إلى القبة فطعنهما كليهما الرجل الاسرائيلي والمرأة في
بطنها فكفت الضربة عن بني اسرائيل ، وكان الذين ماثوا بالضربة أربعة
وعشرين ألفاً» .

(١) يكتب Ruppin حول نكوص الحياة الزراعية في حياة اليهود العبرانيين مايلي ، معلناً أن ذلك هو
الذي كمن وراء نكوص عملية الاندماج الكبرى في تاريخ هؤلاء : «لوتعاضد اليهود الزراعة
لتشتوا في أنحاء العالم وهذا ما قد يؤدي بعد عدة أجيال إلى اندماج كامل ببقية السكان ، بالرغم
من الفارق الديني الكبير . لكن تعاضدهم التجارة وتجمعهم في المدن ، حملهم على تكوين
مجموعات متميزة وحياة اجتماعية منفصلة ، لا يترددون ولا يتزاجون إلا فيما بينهم» . (ضمن :
ابراهيم ليون - المفهوم المادي للمسألة اليهودية ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٣١) .
(٢) ١٣-١/٢٥ (ضمن : الكتاب المقدس) .

ودون أن نمنح ثقتنا العمياء لتلك المبالغات «المعهودة» في عدد القتلى ، التي تظل - في الأحوال العامة - تمثل سيكولوجية القهر والحقن الحاقدا لدى الكهنوت ، تتابع النص تحليلاً وتدقيقاً ، لنلاحظ أن «الرب» قد هدأت سورتة وتوقف حنقه واستكانت غيرته المُرعدة ، بعد أن حدث الذي حدث ؛ وهو ، لهذا بالضبط ، سيكافئ الكاهن الشجاع الغيور على «ربه» اعظم مكافأة ، ذلك الكاهن الذي أخذ بقتله الرجل والمرأة شعلة الانفجار والتمرد :

«وكلم الرب موسى قائلاً . ان فنحائس بن اليعازار بن هرون الكاهن قد ردّ سخطي عن بني اسرائيل بغيرته لي فيما بينهم حتى لم أفن بني اسرائيل في غيرتي . فلذلك قل هاءنذا معطيه عهد سلامي . فيكون له ولنسله من بعده عهد كهنوت أبدي جزاء غيرته لإلهه وتكفيره عن بني اسرائيل» .

وبمزيد من التفصيل في الموقف ، تخبرنا التوراة عن عملية الاندماج والانصهار ، التي تمت بوتائر حثيثة وكبرى بين اليهود العبرانيين وشعوب المنطقة ، بحيث يكاد الأمر يبدو وكأن تلك العملية قد استكملت مقوماتها الرئيسية البشرية الجنسية والاقتصادية والدينية ^(١) . ولقد حدث ذلك ، بحيث أن «الشعب اليهودي الذي هجر ديانة آتون التي لقّنه إياها موسى اعتنق عبادة إله آخر عمت بصلة وثيقة الى بعل الشعوب المجاورة» ^(٢) . بيد أن الكهنة ، الذين أعلنوها حرباً ضروساً ضد

(١) من ذلك ، مثلاً ، ماجاء في «سفر القضاة ٣/ ٩-١٤ ، ١٥ ، ١٨ ، ٢٠-٢٣ ، الكتاب المقدس» .

«فأقام بنو اسرائيل بين الكتعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين . واتخذوا بناتهم زوجات لهم وأعطوا بناتهم لبنيتهم وعبدوا آلهتهم . . . ونسوا الرب الههم وعبدوا البعليم والعشتاروت . فاشتد غضب الرب على اسرائيل . وتعبد بنو اسرائيل لعجلون ملك موآب ثمانى عشرة سنة . فصرخ بنو اسرائيل للآ الرب فأقام لهم الرب مخلصاً أهود بن جيرا البنياميني . . . فأرسل بنو اسرائيل على يده هدية الى عجلون ملك موآب . . . فلما فرغ من تقديم الهدية . . . فتقدم إليه أهود وكان جالساً . . . فمد أهود يده اليسرى وأخذ السيف عن فخذه اليمنى ووجأه في بطنه . ففاض القائم أيضاً وراء النصل واطبق الشحم وراء النصل لأنه لم ينزع السيف من بطنه وخرج فرثه» .

(٢) سيغموند فرويد : موسى والتوحيد - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١١٥ .

حملة لواء الالهة «الأخرى» من اليهود العبرانيين والشعوب الأخرى ، في آن واحد ، استطاعوا أن يحققوا ، شيئاً فشيئاً وبنفس طويل لاهت ، نتائج ملحوظة باتجاه تكريس العزلة الواقعية وشعور التميز والاصطفاء وممارسات العنف والحقد المسلح إزاء تلك الشعوب . فهذه الأخيرة تغدو مُدانةً محترقة من المهد إلى اللحد بصفتها «غوييم» ، أي بمثابة جموعاً هُملاً من الأغراب لا يستحقون أكثر من اللعنة والإبادة «بحد السيف» .

وجدير بالذكر أن تلك النتائج الملفتة سوف تتاح لها لاحقاً ، مع السبي الأول إلى بابل عام ٥٩٧ قبل الميلاد ، امكانات وآفاق جديدة ، بحيث تكتسب أبعاداً أكثر التهاباً وعنفاً ، إضافة إلى ماسيلا حظ من نشوء وتبلور شعور «بالذنب والخطيئة» في أوساط المسيئين . فلقد عمل الكهنوت - وهذه كانت فرصة تاريخية ذات قيمة قصوى بالنسبة لهؤلاء - على تفسير ذلك السبي على أنه عقاب من الرب يهوه لشعبه العاق الأبق ورد عليه بسبب من أنه أدار ظهره له ، حيث اندمج مع «الوثنيين - المشركين» ، الذين لا يقيمون له (ليهوه) وزناً . إن ذلك الشعور بالذنب والخطيئة سوف يكون مثار فعل متسع الآفاق والاحتمالات من كلا الطرفين ، الكهنوت وأفراد الشعب المقهور والمخيب الآمال ، على حد سواء . ففي هذه الوضعية بالذات ، تتسع الحركة «الخلاصية» سطوحاً وأفقا ، وتتسع معها - أيضاً - حركة الملاحقات والأرهاب والصليب . وهذا كله سوف يكون لبنات على طريق انبعاث الآمال مجدداً بنشوء مخلص جديد ، كان «يسوع المسيح» آخر العنقود فيها حتى حينه . وهذا يعلن عن أن أشكالاً جديدة من الصراع الداخلي بين القمة الكهنوتية والقاعدة من جمهور اليهود ستولد على صعيد التطور التاريخي ، محدثة - على هذه الطريق - لوحة جديدة من الخلاصيين والمصلوبين ، وكذلك من المناهضين والقامعين لهؤلاء .

وتأتي سنوات «الشتات» الطويلة ، لتحدث تحولاً هائلاً في وضعية الكهنة والجمهور اليهودي العبراني ، على حد سواء . فهنا ، في بابل ، العالم الحضاري الرحيب الجديد ، يجد أولئك أنفسهم أمام امكانات واسعة النطاق من النشاط الاقتصادي الزراعي والمالي الربوي والتجاري ، وكذلك الديني المتنوع الاحتمالات ، فينخرطوا في هذه الحياة الجديدة بجد ونشاط كبيرين ، وبتشجيع

مباشر من الأوساط السلطوية في العالم المعني . ولقد ترسخ هذا الوضع المتميز في أوساطهم العامة والخاصة بكثير من الفضول والترحاب ، بحيث وصل الى درجة أنه قد «أصر زعماء السبط البابلي على أن تُتلى في جميع بلدان سبي اليهود الصلوات من أجل صحة حكماء بابل قبل أي شيء آخر»^(١) . وفي هذه الحال ، لا نرى أساساً للظن بأن السبط اليهودي المذكور لجأ الى ذلك الموقف تجاه «حكماء بابل - ملوكها» من موقع نفاق أرغم عليه أو ضغط مورس ضده ؛ ذلك لأن الحياة البابلية الجديدة الفسيحة ملكت عليه كل اتجاهاته ورغباته ، وأدخلته في حركة نشطة وواسعة من التبادل الاقتصادي التجاري والاجتماعي والايديولوجي الديني . وهنا ، يصح أن نورد ما قاله L. Brentano في هذا الصدد : «أن النصوص المكتوبة بالحروف المسماة المكتشفة مؤخراً تشهد على أن النازحين اليهود قد اشتركوا اشتراكاً نشيطاً في الحياة التجارية . ومارسوا عملية التسليف بالربا ، هذه العملية التي كانت متبعة بشكل واسع بين سكان بابل ، كما كانوا تجاراً كباراً»^(٢) .

ان زعماء الاسباط (أي القبائل المنخرطة كثيراً أو قليلاً في الحياة الاقتصادية الزراعية والمالية والتجارية الجديدة) ، الذين مارسوا الوظيفتين الحاسمتين ، الدنيوية والدينية ، لم يكن بوسعهم أن يضربوا صفحاً عن المكتسبات المادية والاجتماعية التي ولّدتها وضعية المهجر البابلي . فانساقوا ، هم بدورهم ، بل ربما في طليعة الجفيع ، باتجاه تعميقها ، خصوصاً وأن امتيازاتهم ومراكزهم السياسية والتنظيمية الدينية ظلت باقية بأيديهم بطريقة أو بأخرى . إذ أن عملية اندماج أفراد الاسباط وإن لقيت أمداً واسعة ومجالات رحبة في بابل ، فإنها ظلت دون حدود الشمول والاكتمال . نعني بذلك أن انغلاقاً نسبياً للسبط إزاء الاسباط الأخرى أولاً ، وانغلاقاً نسبياً لهذه ، مجتمعة ، حيال المحيط الجديد ثانياً ، ظل قائماً . بل لعنا نوعاً في هذا الاتجاه لنرى ان ذلك الانغلاق النسبي كان أحد البواعث والعوامل المباشرة وغير المباشرة على تشكيل الاتحادات المهنية ضمن أوساط اليهود في بابل ، تلك الاتحادات التي احتفظت ، والحال كذلك ، بسمات تنظيمية «دينية وإتنية» بمعنى ما وبدرجة ما .

Salo W. Baron: A social and religious History of the Jews, 2- d add, Vol. V. N.Y, 1957, P. 25.

L. Brentano: Das Wirtschaftsleben der antiken Welt. Jena 1929, S. 80.

وإذا كان اتجاه الكهنة الزعماء ، في أساسه البعيد والمغلف بكثير من التورية والتقية ، قد ركز على وحدة الدين واللغة لليهود دعماً وتوطيداً «لتميزهم» وانغلاقهم الجيتوي ازاء الآخرين وحفاظاً ، من ثم ، على مصالحهم واهدافهم ، البعيدة على الأقل ، فان ذلك لقي - في ظروف الاستقرار المشاعي القروي في بابل - تعزيزاً منطلقاً من واقع الحال آنذاك . فتقسيم العمل كان قائماً على أساس المهنة والجنس والدين ^(١) ، بحيث أتيح لليهود ، زعماء كهنةً وأفراداً ، أن يحافظوا على بنياتهم المهنية والدينية ، والجنسية كذلك وإن بحدود أولية . ومما يدعم هذا الرأي أن النظام المشاعي القروي في بابل قام ، في بنيته التنظيمية الادارية والسياسية ، على أساس وجود مشاعات قروية تمتلك استقلالاً ذاتياً نسبياً تجاه السلطة المركزية . وفي هذه الحال ، كان زعماء المشاعات اليهودية يمثلون وسطاء بين أفراد اسباطهم من طرف والسلطة المركزية تلك من طرف آخر ، يقومون بجمع الضرائب والالتزامات الأخرى من هؤلاء الأفراد ليقدموها ، بدورهم ، إليها . ومن هنا ، فإن تنظيم المشاعات القروية لم يكن دائماً على أسس اقتصادية بحتة ، وإنما كان كذلك في أحيان أخرى - مثل الحالة التي نحن الآن بصدددها - ذا طابع ديني وجنسي (إتني) . ولعلنا نواجه - في هذه الحالة - ما بحثنا فيه في فصل سابق من هذا الكتاب ، وهو أن الدين نفسه - حيث لم يكتسب بعد شخصية ذهنية مستقلة بحدود واسعة تجعل منه أحد أنساق البنية الذهنية الفوقية - يظهر بمثابته أحد أشكال الوجود الاقتصادي الاجتماعي شبه المباشرة وأحد صيغ تنظيم هذا الوجود .

بيد أن «الانغلاق» ، الذي أتينا عليه من حيث هو نسبي ، كان - في واقع الحال - نسبياً بفعل عاملين اثنين رئيسيين . الأول منها تمثل بالزواج المختلط الذي انتشر على نطاق واسع من قبل الطرفين وتحت حماية السلطة البابلية بين اليهود والبابليين . أما العامل الثاني فقد تجسد بحركة تجارية منتظمة فتحت لليهود أبواباً جديدة على عوالم الآخرين ، وإن لم تكن هذه الحركة واسعة النطاق . علاوة على ذلك وبالعلاقة معه ، كانت اللغة اليهودية العبرانية القديمة تجد نفسها شيئاً فشيئاً

(١) انظر مع المقارنة : يوري إيفانوف - احذروا الصهيونية ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص

مضطرة للانحسار أو للتفوق أمام وجه اللغة الآرامية (١) ، بحيث أسهم ذلك في مزيد من تعميق ميول الاندماج والانصهار ، ومن الخروج عن دائرة الكهنوت اليهودي وعليها .

كان زعماء الأسباط الكهنة ، أساساً ، ينظرون الى عملية الاندماج والانصهار تلك بشيء من الريبة والقلق والتحسب المستقبلي ، ولكن دون أن يكون ذلك باعثاً على مناهضتها من قبلهم ، على الأقل بحزم وبشكل مكشوف : أولاً ، لأن مصالحهم المادية والدينية السياسية كانت في حوز أمين ، وذلك بسبب طبيعة التكوين الاقتصادي والمهني التنظيمي للتجمعات المشاعية القروية في بابل ؛ وثانياً ، من موقع عجزهم عن الظهور بمظهر المناوئ لتلك العملية ؛ فمن شأن ذلك ، إن حدث ، أن تترتب عليه نتائج محددة ، هي الدخول في صراع غير متكافئ ابدأً مع السلطة البابلية ، مما جعلهم (زعماء الأسباط) مرغمين على غض النظر عن ذلك ، وعلى دخول فريق منهم في عملية الاندماج نفسها .

في سياق تلك الوضعية كلها ، كان «يهوه» يجد نفسه ، على الأقل ، محاصراً من قبل الاله المحلي وبمن يدور في فلكه من آلهة مشاركة أو صغيرة . بل لعنا نقول انطلاقاً من واقع الحال الجديد المثير في بابل : ان يهوه أخذ - ضمن حركة خفية وبطيئة ولكن متصلة - يكتسب وظائف جديدة تناسب مع واقع الحال ذاك في وجهه الديني المعبد بالبانثيون البابلي . فمن جهة أولى ، انتزعت منه سمات الوحدانية والنخبوية لصالح إقرار قسري ضمني ومفصح عنه بتعدد ألوهي ، في أضعف الأحوال ؛ ومن جهة أخرى أفقد مصداقية «وثيقة عهده» ، التي أقامها مع شعبه العبراني اليهودي ، والتي بموجبها يأخذ على عاتقه هو وحده ، رب الأرباب ، أن يمنحه أرض الاغيار كلهم ، بمن فيهم أو في مقدمتهم الكنعانيون في فلسطين .

لقد انكسرت شوكة الكهنوت فعلاً وفي أكثر المسائل التي وقف فيها قبل ضدها (الاندماج) ، واندحرت مطاعمه وتهشمت آماله تحت وطأة مزايما المجتمع البابلي الجديد بصدمته الحضارية ، التي أوقعت هؤلاء تحت تأثيرها . فهنا ، وجد تحقيقاً

(١) انظر مع المقارنة : نفس المرجع السابق ومعطياته - ص ١٤ .

عملياً مكثفاً لمصالحه ، وإن لم يكن على نحو كلي . فبدلاً من أن يكون أفراد الاسباط تحت قبضة زعمائهم الدينيين الدنيويين فقط ، كما كان الحال في مرحلة انتقاليهم من البداوة الى الزراعة وفي شطر من هذه المرحلة الثانية ، أصبحوا - الآن - تحت قبضة أخرى ، هي السلطة البابلية المركزية . ومع ذلك وبفضله ، كانوا يخطون أنفسهم لكونهم خرجوا من الهيمنة المطلقة الحديدية لزعمائهم أولئك : ان بابل تحولت في أعينهم الى «البلد الموعد» الذي ينجون منه ، فعلاً ، «اللبن والعسل» ، الى جانب «الحكمة البابلية الرفيعة» ، ولكن دون أن يكون ذلك قد تم بفعل يهوي قسري ، كما كان محكوماً أن يحدث فيما يتصل بفلسطين الكنعانية . وإذا كان الأمر قد أصبح على هذا النحو ، فقد «كان من الصعب التوقع أن يترك اليهود ، بعد أن اغتنوا ، بابل الخصيبة من أجل هضاب اليهودية الجرداء»^(١) . إن ذلك لم يكن وارداً ، قطعاً ، حتى بعد أن أصدر قورش ، امبراطور الفرس ، لاحقاً (عام ٥٣٨ قبل الميلاد) أمراً يسمح لليهود في بابل بموجبه بأن يعودوا الى فلسطين ضمن كل التسهيلات الممكنة والمتاحة . وعلى حد قول الخاخام الأكبر لانكلترا العام ١٩١٧ ، فقد «أصدر قورش أمراً . إلا أن الجماهير الرئيسية للشعب اليهودي بقيت في بابل»^(٢) .

1) A. T. Olmstead: History of the persian Empire. phoenix Book 1960, P. 57.

2) N. Sokolow: History of Zionism, vol. II, P. 160.

من هنا ، ندرك لماذا أعلن قورش مسيحاً من قبل مجموعات يهودية ، معتمداً على أيدي «الرب يسوع» ؛ ولكن دون أن يكون ذلك قد حال دون رفض هذا الأمر القسورشي من قبل تلك المجموعات . إضافة الى ذلك ، تضع تلك الواقعة يدنا على مسألة سنأتي عليها مفصلاً في موضع لاحق ، وهي تشكيك معظم الدراسات التاريخية التوراتية والانجيلية بالمسيح كشخصية تاريخية واقعية . لقد أعلن اليهود العبرانيون قورش مسيحاً ، لأنه أراد أن يحررهم من «الشنات والأسر» ، رغم أنهم - كما أشرنا - فضلوا البقاء في هذا البلد الجديد ، الذي جعل منهم «مواطنين عاديين» ، متمتعين بحياة اقتصادية واجتماعية متقدمة :

«هكذا قال الرب لمسيحه لكورش الذي اخذتُ بيمينه لأخضع الأمم بين يديه وأحلُّ أحقاء الملوك لأفتح أمامه المصاريع ولا تغلق الأبواب . . . واعطيك كنوز الظلمة ودفائن المخايء لتعلم أنني أنا الرب الذي دعاك باسمك اله اسرائيل» . (الكتاب المقدس - نبوة اشعيا ٤٥/٢٤) .

لاشك أنه كان على يهوه في حال مثل تلك أن يتخلى عن شخصيته التي اكتسبها على أيدي كهنة الهيكل الاورشليمي ، أن يتخلى عن كونه ربّ البدو والجنود ، ومن ثم وبشكل خاص عن سمته الكبرى : مخلصاً . لقد تصدع «العلاق الكوني» مفسحاً الطريق أمام عمالقة جديدة ، إنما - هذه المرة - دون عهد جديد ملزم . وإذا ما استرجعنا ما أوردناه عن هاينرش هاينه من أن التوراة - مجسداً بيهوه ومجسداً له - مثل وطناً يحمله أصحابه حيث يوجدون وإلى حيث يرتحلون ، فإننا نلاحظ أن هذا «الوطن» أخضع هو نفسه لـ «وطن آخر» ، هو بابل بزراعتها وبرجها وآلهتها . لقد رفض حَمَلَةُ ذلك «الوطن الهرم» أن يعودوا إلى فلسطين ، أولاً ، لأن مصالحهم الحيوية تحققت هنا ، وربما بوتائر لم يتعودوا عليها إطلاقاً حتى حينه ؛ وثانياً لأن فلسطين (كنعان) لم تكن بالنسبة إليهم إلا أرض غربة ^(١) . تلك كانت عملية تحول عميق في البنية الداخلية لـ «يهوه» ، أدى إلى زعزعة وتصديع هذا التصور (الوهم) ، مولداً آفاق جديدة ، باتجاه إله مفتوح على الجميع ، بمن فيهم «الغوييم» . وبالطبع ، نستطيع أن نتبين هذا التوجه في التصور البابلي للاله والآلهة ، بحيث يمكن القول أن تجربة اليهود العبرانيين في بابل كانت حاسمة ، بمعنى ما ، فيما يتصل بالتطورات اللاحقة التي ستلحق بهم . أما البحث العلمي التاريخي في هذه الحقبة من التاريخ اليهودي فلم يعرها ، بعد ، أهميتها التي تمتلكها ، لا من حيث الوجود اليهودي في بابل ، ولا بما يتصل بتلك التطورات اللاحقة . ولا بد ، والحال كذلك ، من تغيير هذه الوضعية .

لم يكن الموقف الذي اتخذته جمهور اليهود من أمر قورش سهل الوقع على زعمائهم . إذ أن بقاءهم حيث كانوا (في بابل) ، كان لا بد وأن يعني - في نهاية المطاف - اندغامهم في المجتمع البابلي . لقد أدرك أولئك الزعماء القيّمون خطورة الموقف الفادحة ، رغم ما يمكن أن يوحي به التكوين الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والديني «المغلق» ، الذي يجدونه بديلاً عن الوضع البابلي ، من آفاق تفلؤلية ضئيلة . إن هذا الوعي النفعي المصلحي القلق بالحالة القائمة ، هو الذي كمن وراء ما سماه أرنولد توينبي «مؤسسة فريدة» والذي استنبطه زعماء اليهود في

(١) «وأقمت معهم عهدي على أن اعطيهم أرض كنعان أرض غربتهم التي نزلوا بها» .
(الكتاب المقدس - سفر الخروج ٤/٦) .

بابل . لقد تمثلت هذه المؤسسة بـ «الكنيس» ^(١) . وإذا ما صدقنا جيمس باركس ، فإن الكنيس البابلي كان الأول من نوعه في التاريخ اليهودي العبراني ^(٢) .

ان استحداث الكنيس جسّد رد الفعل الواعي والقلق والمخطط ، الذي انطلق من أوساط أولئك الزعماء تجاه عملية الاندماج اليهودي العبراني في المجتمع البابلي . وهذا من شأنه أن يكون قد عني أن انشاء المؤسسة الدينية المذكورة أريد له أن يكون رآياً للصدع الكبير الذي عصفت بالبنية الدينية عمقاً وسطحاً ، تلك البنية التي تمحور حولها النفوذ الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والديني للكهنة ، والتي استمد منها هذا الأخير شخصيته الشرعية المهيمنة على هذه الأصعدة . وعلى ذلك ، فقد كان انشاء «الكنيس» أمراً ذا أهمية قصوى . إنه كان الخطوة الأولى الضرورية على طريق الانقاذ المستقبلي ؛ ذلك أن ما كان يعادله أو يفوقه في الأهمية ، تصدع تحت قبضة الأعداء ، ونعني بذلك «الهيكل المقدس» في القدس . وهنا ، يغدو دقيقاً أن نقول : ان «تدمير الهيكل وإجلاء» (المؤسسة) اليهودية إلى بابل جرّدوا الكهنة الوراثيين من دورهم . . . وقد كان الكنيس (المؤسسة) الجديدة التي ملأت الفراغ» ^(٣) .

ومن تعقيدات الموقف وطرائفه ومشكلياته السيكلوجية والايديولوجية أن «أصدر رجال الدين لأول مرة في بابل مرسوماً يستطيع بموجبه كل يهودي أن يعلن عن امتلاكه أربعة فدادين وهمية في فلسطين» ^(٤) . ان يوري ايفانوف ، الذي يورد هذا الشاهد في كتابه حول الصهيونية ، يسبقه بتعليق يعلن فيه مايلي : «أما فيما يختص بالتعلق المادي بفلسطين فقد كان موجوداً كما تدل على ذلك الوقائع في شكل مشيط للعزم شيئاً ما (بالنسبة للصهاينة) : كانت القوانين تتطلب من أجل القيام بعدد من العمليات المالية ، أن يملك كل يهودي قطعة أرض» ^(٥) . ان القول بأن ذلك

(٢) ارنولد توينبي : تاريخ البشرية - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٩١ .

2) J. Parkes: End of an Exile. London 1954, P. 92.

(٣) ارنولد توينبي : تاريخ البشرية - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٩١ .

(4) Salo W. Baron: ibid., P. 27.

(٥) يوري ايفانوف : احذروا الصهيونية - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٦ .

المرسوم كان ذا طابع مثبت للعزم بالنسبة الى أولئك ، يمكن أن يكون مقبولاً ، ولكن من موقع التحفظ التالي ، وهو أن يفهم المرسوم المعني بمثابته تعبيراً مباشراً عن رغبات الزعامة الكهنوتية لليهود البابليين في المحافظة على حد ضروري أدنى من التماسك الديني والجنسي (اللاتني) واللغوي بين أفراد أسباطها ، ذلك التماسك الذي أريد له أن يقف حائلاً دون اندماج أولئك في المجتمع البابلي ، وإن يحافظ ، من ثم وبصورة خاصة على استمرار هيمنة الزعامة تلك على الأصعدة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية (١) .

وإذا كان السبي قد لحق بهم بسبب «غضب الرب» الذي استهانوا به وبوصاياهم وأوامره ، فإنه (السبي) أتى بعد تدمير ما ابتناه لهم ربهم هذا ، وفقاً للعهد الذي قطعه على نفسه تجاههم . ان الكهنة لقادرون ، دائماً وفي كل الحالات والتوقعات ، على أخذ المبادرة الدينية المناسبة لمنح وضعيات الفجيعة أو السعادة ، التي تلحق بهم وبرعيتهم ، تفسيرات وتسويغات ربانية من شأنها أن تضع «الملح على الجرح» ، وتخلق القناعة الداخلية والرضى والاستسلام . فإذا ما مرت بهم ظروف من الطمأنينة والرضا والرفاه ، ارجعوا ذلك الى أنهم حافظوا على العهد الابدي ، اي التزموا بعبادة يهوه وحده دون شريك له وقدموا له من المحرقات والنذر والأضحيات الخ . ما يرضيه . وإذا ما ألمت بهم الكوارث والعواصف والمحن ، جعلوا ذلك تعبيراً مباشراً عن سخط هذا الرب الغيور ، الذي لا يحتمل رؤية شعبه المختار وقد غرق في عبادة آلهة أخر ، وعزف ، من ثم ، عن تقديم واجباته تجاهه عبثاً وكفاية ، وشرع يبحث عن حلول لمشكلاته الحيوية خارج «الجيتو» الذي حُشر فيه .

(١) لا تخفى الدلالة الخلاصية (المسيحانية) التي تنطوي عليها فكرة امتلاك قطعة ارض من البلد الموعود . فمع القول بان هذه الفكرة تعود ، بالأساس ، الى عقائد الجنس - الخصب الأولى في ما بين النهرين ومصر وغيرها لتكتسب لاحقاً ، في المسيحية والاسلام ، صيغاً أخرى متميزة ، نلاحظ أنها اكتسبت لدى الأوساط الكهنوتية المهيمنة في بلاد الشتات اليهودي ، وبصورة خاصة بابل ، طابع الفجيعة الدينية الاخلاقية القصوى والاستغلال الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الأقصى ، في آن واحد . فلقد تحولت الفكرة إياها وعلى أيدي صانعيها الى فزاعة في أعين افراد الاسباط ، بغية تحريضهم على الانعزال والتفوق والمحافظة على الشعور بالتميز والاصطفاء ، والى دريئة لاختفاء المصالح الحقيقية البعيدة الكامنة وراءها .

ولا بد أن نكون قد لاحظنا أنه قد بني على أساس تلك العلاقة المثيرة بين الرب اليهودي العبراني وبين مختاريه ومصطفيه موقف ايديولوجي شمولي ومباشر . فبقدر ماهو ذو بعد شمولي فعل الرب يهوه وتأثيره في الحياة العامة البشرية (والطبيعية) ، كانت كذلك وسائط التأثير ذات طبيعة شمولية ومباشرة ، تلك الوسائط التي تتمثل بـ «العين الراصدة» ، نعني بذلك الكهنة : ان هؤلاء يمثلون العين الراصدة مباشرة لكل ما يحدث وما سيحدث ، لا تخفى عليهم صغيرة ولا كبيرة ؛ كما أنهم لا يمكن أن يتساحوا بما لا يتفق مع مقتضيات «الناموس» و «الشريعة» . وإذا كنا قد ميّزنا بين «الرب يهوه» من طرف و «وسائط تأثيره» من طرف آخر ، فإنما نكون ، بذلك ، قد انطلقنا من وهمية الموقف التي صاغها اولئك الكهنة . كان ضرورياً ألا يندغم «الرب» هؤلاء وألا يندغم هؤلاء به . فتوجيه الذهن الى ماهو علوي مفارق ، بدرجة ما ، والى ماهو مجرد وغير مباشر ، بدرجة اكبر ، يجعل من هذا قوة نافذة تتمتع بسمة «المعجز الخارق» وبوظيفة الفعل الكلي .

ومن ذلك الموقف بالذات ، أي جعل العلوي المفارق اكثر سمواً وقدرة وشمولاً ، انطلق الكهنة في توليد علاقة بينهم وبينه ، بحيث يبرز (الكهنوت) ممثلاً للعلوي المفارق وليس مندغماً به ، ووسيطاً بينه وبين جمهور المختارين وليس امتداداً ذاتياً له . وبناء على هذا الأساس المتين ، المدعم نصياً توراتياً ، نواجه القوة الكهنوتية وقد تمكنت ليس فقط من إحكام قبضتها الدينية الايديولوجية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية على رقاب «المختارين المصطفين» ، وإنما كذلك من استحداث نسق يكاد يكون جديداً تماماً على صعيد العلاقة بين السلطة والسرب (الاله) . فهذه العلاقة هي ، أولاً ، ذات بعد كوني ؛ وهي ، ثانياً ، ذات شخصية قمعية صارمة ، تتمثل بـ «قوة الجنود والقتال والحرب والانتقام» ؛ وهي ، ثالثاً ، قوة مشخصة عينية ومعممة مجردة ، في آن واحد ، وعلى نحو يسمح بالتدخل فيما تعلنه النفوس وما تضرمر ، وذلك من موقع عالم رباني مفارق وعلوي يدرك كل شيء ولا تدركه الأعين . ونستطيع أن نضيف الى ذلك أن تلك العلاقة المركبة تتجسد وتتجلى بـ «الكلمة الخالقة والحكيمة بذاتها» ، والتي بمقتضاها يحيط الرب بالعالم ويحكمه ويضبط مصائره .

تلك الحشيات الربانية السلطوية أريد لها ، بما هي موقف مركب ، ان تجعل

من الكهنوت قوة عليا لا تنازع ولا تقهر ، على الأقل على الصعيد الذهني
الايديولوجي ، وما يوازيه ويتدخل به من مهمات اقتصادية واجتماعية وسياسية .
لقد عمل هو نفسه على أن يظهر بهذه القوة ، بحيث تكمن في يده هو فقط امكانية
التقويم والمقاومة والترميم والاثابة والمعاقبة . اننا نواجه مثل هذا الموقف المركب في
«الكلمة» ، التي القى بها رب الجنود الى إرميا ليعمل هذا بمقتضاها وينجز ما هو
مطلوب منه حيال الشعب العاق والمبتلى (أي المعاقب) ، بسبب عقوقه ، بالكوارث
الجسام والدمار الوحشي :

«الكلمة التي كانت إلى إرميا على جميع اليهود . . هكذا قال رب الجنود
إله اسرائيل قد رأيتم كل الشر الذي جلبته على اورشليم وعلى جميع مدن يهوذا
وهامي اليوم خربة لا ساكن فيها . بسبب شرهم الذي صنعوه ليسخطوني إذ
ذهبوا ليقتروا ويعبدوا آلهة أخر لم يعرفوها هم ولا أنتم ولا آبائكم . وقد
أرسلت إليكم جميع عبيدي الانبياء مبكراً في الإرسال قائلاً لا تصنعوا رجساً
مثل هذا فإني أمقته . فلم يسمعوا ولم يميلوا سامعهم ليرتدوا عن شرهم ولا
يقتروا لآلهة أخر . فانصب سخطي وغضبي واضطرم في مدن يهوذا وفي
شوارع اورشليم فصارت خربة مستوحشة كما في هذا اليوم» (١) .

بيد أن الشعب «العاق الأبق» أصر على الايغال في عقوقه وأبوقه إزاء الرب
الغاضب المرعد ، حيث لم يثن عن الاستمرار في عبادة آلهة أخر ، أي عن الاندماج
في حياة الشعوب المحيطة به والتي تحتل موقعا متقدما في سلم التطور الحضاري
(الزراعي الطبقي) . فلقد رأى ، بتجربته الخاصة المباشرة ، كيف هو قادر على ان
يحقق وجوداً أفضل في ظل العلاقات الجديدة . اضافة الى ذلك ، كان المندمجون قد
حققوا ، فعلاً ، خطوة ليس من السهل أن يتراجعوا عنها ، تلك هي أنهم ارتبطوا
بمصالح اقتصادية اجتماعية وبالتزامات عائلية زوجية . وهذا ما جعل المندمجين
يتخذون موقف المناهضة لـ «يهوه» ووسيطه «الكهنوت» ، عاقدين العزم على
الاستمرار على ما هم فيه :

«فأجاب إرميا جميع الرجال العارفين أن نساءهم يقترن لآلهة أخر وجميع

(١) الكتاب المقدس - نبوة إرميا ٤٤ / ٦-١ .

النساء الواقفات في محفل عظيم وجميع الشعب الساكنين في أرض مصر (١) في
فتروس قائلين . ان الكلام الذي كلمتنا به باسم الرب لا نسمع لك . بل
نعمل بحسب كل كلام يخرج من أفواهنا مقترين للملكة السماء وساكنين لها
سكناً كما عملنا نحن وآباؤنا وملوكنا ورؤساؤنا في مدن يهوذا وشوارع اورشليم
فشبعنا خبزاً وكنا بخير ولم نر شراً (٢) .

ان ذلك النص (الجواب) يحوز على أهمية منهجية وتاريخية بارزة بالنسبة الى
دراسة «العهد العتيق» والتاريخ اليهودي ، بصورة عامة . فهو يقدم لنا انموذجاً حياً
على حركة المعارضة والمقاومة المعلنة والخفية ، التي كانت تظهر بين الحين والآخر في
نطاق الجمهور اليهودي ضد سادته المتنفذين «مدنياً» و«دينياً» . وثمة ملاحظة تكمن
في النظر إلى «النصوص المقدسة - العهد العتيق» على أنها تمثل ، بدرجة ما وبطريقة
التضمين والتفريع والإقرار السلبي ، وثيقة على وجود حركة المعارضة والمقاومة
تلك . وبذلك ، فإن ما يقدمه كتبة النصوص المعنية تحت اسم «الشعب المختار
المصطفى والموحد دينياً عقيدياً» لا أساس تاريخياً له ، وليس هو ، من ثم ، الا أحد
أوجه ايدولوجيا الكهنوت الوهمية الايمانية . وبهذا المعنى ومن هذا الموقع ،
نستطيع أن نرى في نصوص «العهد العتيق» وثيقة تاريخية ، ولكن بعد أن يعاد النظر
في الدلالات الوظيفية التي تنطوي عليها ، بحيث يستجيب الموقف للسياق
المشخص ، الذي انطلق منه ونما فيه .

لقد كان واضحاً ، بما فيه الكفاية ، لجمهور اليهود أن تحقيق الاندماج بل
الانصهار بشعوب المنطقة ، يعني «الخير» بالنسبة اليهم ، يعني أن يأكلوا ويشربوا
ويأمنوا في وضع مستقر . فهم ، لذلك وبعد أن دخلوا تلك التجربة بكثير من
العمق - كما يبدو - ، أخذوا موقف المناهضة للمحاولات التي رمت إلى اعادتهم
لخظيرة السيطرة الكهنوتية السبئية المغلقة ، والمحكومة آلتها بوجود سبط متسلط
مستغل باسم «رب الجنود» . لقد ناهضوا ذلك ، وناهضوا معه ضمناً رب الجنود
ذاك نفسه ، الذي أضفى عليه طابع المخلص - المسيح ، مخلصهم هم ، في حين

(١) إشارة الى من تبقى من اليهود العبرانيين في مصر .

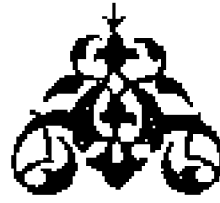
(٢) الكتاب المقدس - نبوة إرميا ٤٤/١٥-١٧ .

أنهم تبينوا ، بتجربتهم الواقعية المباشرة ، أنه لم يكن إلا مخلص ذلك السبط وحده . ومن هنا ، فهم يعلنون ، بشجاعة كبرى وبعيداً عن أي لبس ، ما تحققوا منه عبر تجربتهم الحية تلك ، واصلين الى حدود هرطقة دينية واضحة وفاعلة ، يمكن النظر اليها على انها ارهاص على طريق تكون الهرطقات المتقدمة لاحقاً على صعيد التوزيع اليهودي السياسي والايدولوجي :

«ولكن منذ أن أهملنا التقدير للكمة السماء وسكب السكب لها صرنا

محتاجين الى كل شيء وفنينا بالسيف والجوع»^(١) .

أي مهذين البلائين اللذين سلطها علينا «اخوتنا» في «اليهودية العبرانية» ، أولئك الذين يقدمون أنفسهم ممثلين للرب ومجسدين له ، على حد سواء .



(١) الكتاب المقدس - نبوة إرميا ١٨/٤٤ .

موقع الفكر اليهودي من الفكر العربي

استبان لنا من استقصاء المعطيات المركبة والمعقدة ، التي أحاطت بعملية اندماج اليهود العبرانيين ، وبالعوامل الداخلية (الكهنوتية أساساً) لمناهضته ، أمر ذو أهمية منهجية أولية بالنسبة إلى ادراك الاسيقة والآفاق والاحتمالات اللاحقة للمسألة ؛ ذلك هو أنهم ، في مراحلهم التاريخية حتى ذلك الحين ، كانوا يتحركون ويفعلون اقتصادياً واجتماعياً ودينياً (أيدولوجياً) من موقع انتائهم ، مناصفةً ، إلى المجتمع الذي عاشوا فيه وإلى «خارجه» ، في آن واحد . وهذه الصورة المثيرة لعلها تتضح ، على نحو أكثر دقة وشمولاً وعينية ، عبر وجهها الآخر المقابل ، أي الوجه الذي انطوى على الدلالة السلبية لكيفية انتائهم . فإذا كان انتاؤهم قد تم للمجتمع وخارجه على سبيل المناصفة ، فهم - والحال كذلك - لم يكونوا منتمين ، حقاً (بمعنى الاتساق والتوازن) ، لا إلى المجتمع ولا إلى خارجه . ذلك أن العلاقة الجدلية (هنا بمعنى الفاعلية التاريخية والتراثية عمقاً وسطحاً) بين مجتمع ما وخارجه لا تحتل إلا معادلة «طبيعية» واحدة ، تلك هي الانتماء إلى الداخل (المجتمع) أولاً ، ليكون ، من ثم ، الانتماء إلى الخارج ممكناً . ان حداً أدنى ضرورياً من التوازن الجدلي بين طرفي العلاقة لا يمكن أن ينجز بعيداً عن الحركة الذاتية للمجتمع بنسيجه الداخلي ، وعن معطياته ذات الطابع الاحتمالي . وهذا ما يجعلنا نواجه جدل الداخل والخارج بمثابة انطلاقاً من الداخل باتجاه الخارج ، وذلك بحيث يغدو الخارج نفسه وجهاً من أوجه الداخل وصيغة من صيغ التعبير عنه .

ولعله ضروري وذو دلالة لافتة ، على هذا الصعيد من المسألة ، أن نعرض لما طرحه اسحق دويتشر بخصوص «اليهودي اللايهودي» ؛ لأن من شأن ذلك أن يلقي مزيداً من الأنواء على إشكالية «المناصفة» في الوجود اليهودي بصفتها حلاً «نصفياً»

مأزوماً لمسألة الاندماج (والانصهار) بالشعوب «غير اليهودية» ، بغض النظر عما يمكن أن يتمخض عنه موقف دويتشر من نتائج مقبولة أو غير مقبولة .

يكتب اسحق دويتشر عن سبينوزا وهابسه وماركس وروزالوكسمبرغ وتروتسكي وفرويد ، «هؤلاء الثوريين العظام في الفكر الحديث» ، على حد قوله ، بأنهم «ذهبوا جميعاً إلى ما وراء حدود اليهودية . . . وهم يمثلون كل ومحتوى الكثير مما هو أعظم ما في الفكر الحديث . . . هل كان ثمة شيء مشترك بينهم . . . إنني لا أومن بالعرقية الفريدة لأي عنصر ، ومع ذلك أعتقد أنهم كانوا في الحقيقة يهوداً جداً على نحو ما . . . كانوا بصورة قبلية استثناء من حيث كونهم يهوداً عاشوا على تخوم حضارات وديانات وثقافات قومية مختلفة ، لقد ولدوا وتربوا على تخوم عصور مختلفة . . . عاشوا في حدود أهمهم وفي زواياها وشقوقها ، وكان كل منهم في المجتمع وفي خارجه في ذات الوقت . ولقد كان ذلك هو الذي مكنهم من أن يرتفعوا بفكرهم فوق مجتمعاتهم ، وفوق أهمهم ، وفوق عصورهم وأجيالهم» (١) .

ليس من شك في أن ما يعلنه دويتشر ، هنا ، يمكن أن يمثل افتراضاً مغرياً باتجاه الحقيقة ، أو على الأقل باتجاه طرح أولي صحيح للسؤال . بيد أن تدقيقاً في ذلك الافتراض أو الطرح قد يثير ظلالاً من الشك فيه . فالحالة التي يتحدث عنها الكاتب تنصل ، من حيث الأساس العام ، بأناس لا يتمنون إلى اليهودية - بمثابتها موقفاً دينياً (ايديولوجياً) - إلا على سبيل التقليد الوراثي ، ذلك التقليد الذي خضع هو نفسه لعملية عميقة وطويلة من الاندماج بمجتمعاتهم المعنية . ومن ثم ، فهذه الحالة مختلفة نوعاً وبنية عن الحالة التي نحن بصدد البحث فيها ، أي حالة يهود ظلوا يعيشون وضعية من الاضطراب والقلق والنوسان بين الاندماج والانغلاق ، في حين أن قبضة الكهنة الربانيين تلوح لهم مرعدة متوعدة . هذا أولاً ؛ من ناحية أخرى وعلى نحو التخصيص ، لا نرى ان تلك الشخصيات الفكرية والأدبية والسياسية برزت في العصر الحديث انطلاقاً من كونها يهودية أو ذات انتماء يهودي ، أو خاضعة لتأثيرات وحوافز يهودية كامنة . وحتى إذا كان هذا الاعتبار الأخير وارداً على نحو أو

(١) اسحق دويتشر : دراسات في المسألة اليهودية - دار الحقيقة بيروت ، نقله إلى العربية مصطفى الحسيني ، الطبعة الأولى ، شباط ١٩٧١ ص ١٨ ، ١٩ .

آخر وبدرجة أو بأخرى ، فإنه - في التحليل النهائي للموقف - يرتد إلى وراء لصالح الوضعية الاجتماعية والتاريخية التراثية المشخصة ، التي وجدوا فيها عمقاً وسطحاً . وإلا لم لم تظهر في عصر النهضة البورجوازية العربية الحديثة ، مثلاً ، شخصيات يهودية كبرى توازي في تأثيرها وعمقها التاريخي والسياسي والفكري ، على الأقل ، الشخصيات الإسلامية والمسيحية والعلمانية في نفس العصر ؟ هذا مع العلم أن جموعاً من اليهود كانوا يعيشون في العالم العربي ، وما يزال قسم كبير منهم إلى الآن باقياً هناك .

في هذا السياق البالغ التعقيد والحساسية ، ليس عديم الدلالة ما ينقله مكسيم رودنسون عن كتاب «اليهود» لمؤلفه بيرفيت من «أنه من الممكن أن يكون أي شخص في أوروبا من أصل يهودي»^(١) . فهل يتعين علينا ، إن صح هذا الاحتمال ، أن نصل إلى النتيجة المثيرة التالية ، وهي أن تاريخ أوروبا ، منذ انتشار اليهود فيها وتوطنهم في مجموعة من بلدانها ، غداً تاريخاً يهودياً ، أو التاريخ اليهودي ، على هواهه ؟!

وإذا ما عدنا إلى جدل الداخل والخارج ، الذي عرضنا له فيما سبق بسماته العامة الأولية ، وجدنا أطروحة دويتشر وقد تهاوت نهائياً ، أو - بالحد الأدنى - فقدت مصداقيتها كحل شمولي للمسألة المعنية . ذلك أننا ، من هذا الموقع نفسه وفي ضوءه ، نستطيع أن نتبين العوامل الكبرى والثانوية ، التي كمنت وراء عملية اندماج الفلسطينيين ، الذين وفدوا إلى فلسطين في الفترة التي وفد فيها تقريباً ، أيضاً ، اليهود العبرانيون إلى هذا البلد ، بمجتمعهم الكنعاني الجديد في حقوله المختلفة المتنوعة . وفي سبيل الاقدام على كشف وجه الاختلاف ، الذي أفصح عن نفسه بقدر أو بأخر ، بين الموقف الفلسطيني من طرف والموقف اليهودي العبراني من طرف آخر تجاه عملية الاندماج في ذلك المجتمع ، الجديد بالنسبة إليهما كليهما ، يجدر التحذير من الوقوع في مقارنات ومقاربات تبسيطية ، والوصول منها إلى نتائج متسرعة تقوم على انتزاع الحدث الخاضع للبحث من سياقه التاريخي والتراثي

(١) مكسيم رودنسون : المشكلة اليهودية عبر التاريخ - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص

المشخص ؛ ذلك لأن تعقيد الأمر وتداخل أوجهه واحتمالاته وقلقها ، من شأنه - سعيًا وراء حلول ناجزة - أن يسهل الانجراف باتجاه ذلك المحذور .

في ضوء ذلك التبصر المنهجي للمسألة ، نستطيع القول ، بصيغة التعريف بالسلب - ولذلك أيضاً بما فيه الكفاية من الثقة - بأن ما أنجزه الفلسطينيون على صعيد العملية الاندماجية بل الانصهارية في فلسطين (كنعان) ، ظل ، في عمومه وإجماله ، معلقاً بالنسبة إلى الكتلة العظمى من اليهود العبرانيين ، الذين مثلوا - في حينه وكما أوضحنا - أخلاطاً اقوامية متحدرة في معظمها وشمولها من أصول أو شبه أصول حثية . ومن هنا ، فإن ما توقعنا عنده ، في معرض بحثنا في الاندماج اليهودي ومناهضته ، لا نجد له وجوداً بيّناً وملحوظاً على صعيد تاريخ الفلسطينيين منذ دخولهم فلسطين . وإذن ، لنا أن نقرر في حدود الموقف التاريخي الذي عاجلناه ، ووفق المنطق الداخلي لصيغة التعريف بالسلب المذكورة ، الأطروحة التالية القائمة على تحديد الغائب عبر الشاهد : اننا نعرف ما نعرفه عن اليهود العبرانيين في فلسطين من خلال ما لانعرفه عن الفلسطينيين .

تلك الوضعية ، بالذات ، جعلت من تاريخ الفلسطينيين تاريخاً يدخل في السياق العالمي والمحلي «العادي المتنظم»^(١) ، في حين جعلت (الوضعية) من التاريخ اليهودي العبراني تاريخاً «استثنائياً» ، بمعنى ما ، هو المعنى الذي أفصح عن نفسه فيما سبق . ومع ذلك ، أو رغم ذلك ، تظل هذه «الاستثنائية» ظاهرة تاريخية تراثية مشروعة كل الشرعية ضمن الوضعية المنوه بها ، والتي ولدتها وأحاطت بها إيزازاً وإثارةً ، على نحو أو آخر . وإذا ما بلغنا هذا المعقد الدقيق من المسألة ، وجدنا

(١) يكتب Lods حول ذلك النموذج التاريخي «التميز» باستجابته العادية الطبيعية لضرورات المحيط الجديد ، قائلاً إن الفلسطينيين قد تكنعوا بسرعة في حوالي القرن الحادي عشر قبل الميلاد ، وذلك على امتداد فترة ثقل عن ١٥٠ عاماً بعد استقرارهم على أرض فلسطين (انظر : A. Lods: Israel from its Beginning to the Middle of the Eight Cent., translated by S.H. Hook, London 1932, P 59, 127-128).

ويكتب أحمد سوسة ، الذي يورد أيضاً ذلك الشاهد ، منطلقاً من التوراة : «ان الاله الرئيس (داجون) الذي كانوا يعبدونه (أي الفلسطينيون) هو نفس راجون الذي ورد ذكره في التوراة . وهو بلاشك الاله (داجان) اله الغلة ، الذي كان يعبد الكنعانيون» . (أحمد سوسة : العرب واليهود في التاريخ - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٥٨ - ١٥٩) .

أنفسنا ، ثانية وبمزيد من الثقة ، أمام قوله ماركس النافذة : إن اليهودية حافظت على نفسها ليس رغماً عن التاريخ ، وإنما من خلاله ، وبفضله .

في شخص هذه الوضعية المثيرة لاهتمام المؤرخ وللباحث في المنهج التاريخي والتراثي ، نتبين واحداً من البواعث الرئيسية على ضرورة الاجابة عن السؤال التالي ، الذي ربما يبدو للبعض ساذجاً : إذا كان الأمر كذلك ، فكيف لنا ، إذن ، ان نعالج في هذا البحث ، الذي بين أيدينا ، التاريخ اليهودي عموماً - والتصور اليهودي من ضمنه - بمثابته أمراً يندرج في مشروع رؤية جديدة للفكر العربي منذ بواكيره وحتى المرحلة المعاصرة ؟

إنها - والحق يقال - مسألة شائكة ومفعمة بالحساسية العلمية التاريخية والايديولوجية وكذلك السياسية ، كما هو بين على الأقل في مرحلتنا العربية والعالمية الراهنة . بيد أن اثنين من أوجهها ، بالحد الأدنى ، إن كان لها أكثر من هذين الاثنين ، لابد أن يكونا التاليين (ونحن نحاول ان نكون دقيقين في صوغ طبيعتهما) . الأول منها ذو طبيعة انتروبولوجية ، في حين أن طبيعة الثاني تراثية . ففياً يتصل بالوجه الانتروبولوجي من المسألة ، نلاحظ أن عملية الاندماج وسمت ، إلى حد كبير وعميق ، ملامحه الرئيسية العامة . فإذا ما تكلمنا ، على الأقل ، على المراحل الأولى من الوجود اليهودي العبراني في فلسطين ، كان لنا أن نقر بأن عملية الاندماج تلك استطاعت أن تحقق ، في حينه وتحت تأثير عوامل يهودية (ضمن الأوساط اليهودية) وأخرى خارجية ، وتأثير ملحوظة وراسخة ، بقدرهام . ووتائر الاندماج هذه هي التي سمحت لليهود ، أو بالأحرى لشطر منهم أن يتحولوا إلى الحياة الزراعية الجديدة ، بكل ما اقتضته من استقرار اقتصادي نشط واندماج اجتماعي وجنسي عائلي وديني (وقد عالجنا في موضع سابق من هذا الكتاب بعض التفاصيل التي رأيناها أساسية من مسألتنا الراهنة) .

لقد حدث ذلك الاندماج رغم الكوابح الكبرى والصغرى ، التي حاولت أن تسد عليه المنافذ والتي انطلقت من مواقع القيادات الكهنوتية اليهودية على نحو أو آخر ، ولكن بكل الوسائل المتاحة . بيد أن الحاجات الاقتصادية والاجتماعية والجنسية العائلية لجمهور اليهود كانت ، في تأثيراتها وآفاقها ووظيفيتها ، أكثر قوة

وفاعلية وحسباً . فبغض النظر عن مراحل الانتقال الأولى ، التي تمكن فيها الكهنة الزعماء من إحكام قبضتهم على أوائلك ، نكاد لا نسجل ، في المراحل اللاحقة ، إجماعاً يهودياً على الانعزال الفعلي ، وعلى الشعور بالتميز والاصطفاء تجاه الشعوب الأخرى . إن هذا القول يظل محتفظاً بصحته حتى في الحالة التي تتصل بشخصيتي الدولتين اليهوديتين ، إسرائيل ويهوذا . بل لعلنا نوغل في الأمر إذ نقول ، ان قيام هاتين الدولتين نفسه كان ، بمعنى ما ، تعبيراً ذا دلالة خاصة عن تزعزع وضعية الانعزال وعن إخفاقها ، أي عن عدم قدرة دعاة الانعزال والانغلاق والتميز على الصمود أمام تيار الحياة الجديدة الدافق في كنعان .

وإذا سرنا خطوة أخرى إلى أمام ، وجدنا أن مما يُشك فيه شكاً شديداً أن نعتبر دولة داود وسليمان في القرن العاشر قبل الميلاد دولة يهودية عبرانية ، وذلك على الأقل لاعتبارين اثنين رئيسيين : هيمنة المقومات الاجتماعية والثقافية الكنعانية فيها على نحو واضح ومؤثر ، وعدم تكون اللهجة العبرية (وهي ذات أصول آرامية) حتى ذلك الحين ، تلك اللهجة التي كتبت التوراة بها لاحقاً . وقد وردت تلك الوقائع الهامة على لسان مكتشف المخطوطات القديمة «مندنهل» ، رداً على أسئلة طرحها عليه أحمد سوسة . ويضيف الباحث المكتشف إلى ذلك الأمر الأفكار التالية ، التي نقلها بأصلها في اللغة الانكليزية :

«... I have maintained for many years now that the empire of David and Solomon was a typical ancient pagan near eastern State: it ended up in political Chaos and destruction because it, like the other ancient pagan States, was much more concerned with Power and Glory than functioning in Way that was at all compatible with the well- being of the citizens or neighboring States. It was a through rejection of the prophetic message of Moses, and Suffered the Consequences...»^(١)

إن ما يهمننا في الشاهد الأخير هو الإشارة إلى أن دولة داود وسليمان كانت ، من حيث البنية الدينية ، وثنية المحتوى والظاهر ، بالمعنى الذي حددناه في مكان سابق ، أي ذات طابع ديني أيديولوجي انطلق من معطيات النظام الاجتماعي

(١) انظر : أحمد سوسة : نفس المرجع السابق ومعطياته ، مجلد ٢ ، ص ٥٠٨ ، ٥٠٩ .

والاقتصادي الزراعي ، الذي كان مهيمناً في فلسطين الكنعانية .

ودون أن نذهب بعيداً في تفصيل عملية الاندماج ، المعنية هنا ، نتوقف ، بما يقتضيه واقع الحال ، عند التساؤل التالي : هل ينبغي علينا ، إذن والحال كذلك ، أن نحافظ على مقولة « النقاء الجنسي - الإثني » لليهود و « انعزالهم » في العهود التاريخية المأثي عليها فيما سبق ؟ ليس من شأن ما قدمناه من وقائع ومعطيات تاريخية أن يدعم قولاً مثل هذا . فكما كانوا (اليهود العبرانيون) في بدايات تشكيلهم امشاجاً أقوامية غير متجانسة اثنيّاً (ودينيّاً) برز منها ، بصورة خاصة المنحدر الحثي ، فإنهم ظلوا ، كذلك فيما بعد ، يحملون ، بدرجة ما ملحوظة ، هذا الطابع ^(١) . نقول هذا بالرغم من نشوء مجموعة من السمات التي جعل منها قاسماً مشتركاً بينهم وناظراً عاماً لهم ، وذلك بفعل الضغوط الهائلة والمتصلة ، التي مارسها الكهنوت القيادي بوعي في هذا الاتجاه أولاً ، وبحجم التراكم المتعاضم في التقاليد العامة والخاصة ثانياً .

وعلى ذلك ، يغدو غير دقيق وغير متسق مع وجهة النظر التاريخية المشخصة ، ما يعلنه ول ديورانت من « أن اليهود كانوا أنقى أجناس الشرق الأدنى غير النقية ، لأنهم لم يتزوجوا من الأجناس إلا كارهين » ^(٢) . فهذا القول لا يجد ما يسوغه

(١) نلاحظ هذه الوضعية المحددة أيضاً في نطاق البلدان التي تُقي إليها قسم من اليهود ، وبصورة خاصة طبعاً بابل . فمن المعروف تاريخياً أن الآشوريين أقصوا في القرن الثامن قبل الميلاد جموعاً كبيرة من اليهود من اسرائيل ويهوذا إلى أماكن متعددة نائية ومنعزلة في العراق . وقد تمثل ذلك بما سماه بعض الباحثين « الأسباط العشرة المفقودة » ، تعبيراً عن أن هؤلاء أبعدوا عن أعين اليهود الذين بقوا في فلسطين . (انظر : أحمد سوسة - نفس المرجع السابق ومعطياته ، ص ٥٢٠ - ٥٢١) . وقد اندمجوا عموماً في المجتمع الآشوري البابلي الجديد عن طريق الحياة الاقتصادية العامة والتزاوج المختلط والعادات والتقاليد الاجتماعية والدينية الحالية ، بحيث أن اليهود الذين سباهم لاحقاً (في القرن السادس قبل الميلاد) نبوخذ نصر من فلسطين إلى بابل رأوا « في المنفى اسباطاً يهودية كثيرة العدد وحسنة الحال ، نشأت هناك في القرن الثامن (ق.م) . وقد اكمل الوافدون الجدد صفوف هذه الاسباط » . (N. Ausubel: The Book of Jewish Knowledge. N.Y., 1924, P. 126)

(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٣٢٨ .

ويقدم أدلة عليه حتى في نصوص «العهد العتيق» نفسها^(١) ؛ بغض النظر عن المعطيات والوقائع ، التي أتينا على البعض منها والتي ترفض ذلك القول رفضاً موثقاً .

إذن ، وبعد الذي قمنا بمعالجته وتفحصه ، نسأل ثانية : ما موقع اليهود عموماً ، والفكر اليهودي على نحو خاص ، من التاريخ العربي ؟ لعل الاحتمال قائم في هذا الحقل لبروز رأي يجعل من تعبير «التاريخ اليهودي» أو «الفكر اليهودي» منطلقاً للقول بأن هذا الفكر أو ذاك التاريخ يشكل وضعية فكرية وتاريخية خاصة تماثل في خصوصيتها - النسبية على كل حال - ما نطلقه تحت حدّ «التاريخ العربي» و «التاريخ الفرنسي» الخ . . .

بغض النظر عن أن ذلك الأمر يلح عليه الموقف الصهيوني الحديث والمعاصر ، أي بغض النظر عن الوجه الايديولوجي الذي ينطوي عليه الرأي المشار إليه أو على احتمال توليده (ورعايته) ، لا بد أن نأخذ بعين الاعتبار أمراً ذا بال كنا قد أتينا على طرف منه في سياق سابق ؛ ذلك هو أن عملية الاندماج اليهودي العبراني بالمجتمع الكنعاني وإن لم تكن - بطبيعة الحال - قد ماثلت عملية الاندماج العميقة والشاملة التي انجزها الفلسطينيون في المجتمع المذكور ، فإنها - بالرغم من ذلك - احتوت بعض الدلالات والميول التي تشير الى ما يقترب من تلك ويحايتها . بل لنقل - بتعبير أكثر تدقيقاً - ان صيغة الاندماج اليهودي العبراني مثلت إرهاصاً لم تتح له إمكانية التكامل والتوسع إلى حيث يصبح تاجاً حائزاً على «الاعتراف الشرعي» من كلا الطرفين ، أي إلى حيث يغدو اليهود الذين كانوا في فلسطين وجهاً من أوجه المجتمع الكنعاني الزراعي ، وشكلاً من أشكال التعبير عنه .

وفي سبيل مزيد من التخصيص في المسألة المطروحة ، ينبغي القول بأن الكنعانيين القدامى - وهم الذين تحدروا بالأصل من الجزيرة العربية كما أوضحنا ذلك في حينه - لم يحافظوا على شخصيتهم الإثنية العامة بعد دخول أقوام متعددة الى

(١) راجع في موضع سابق من هذا الكتاب ما كنا أوردناه من نصوص توراتية تدعم هذا الرأي .

فلسطين واستقرارهم فيها في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد ، وضمنهم
أو في مقدمتهم الفلسطينيين وما سُمّي بـ «شعوب البحر» عامة . فلقد اختلطت بهم
تلك الأقوام الى حد الاندماج والانصهار ، وذلك بحيث لم نعد نحولّين بالتحدث
عن كنعانيين بالمعنى الإثني المخصص ، أي بمعنى انتائهم البعيد والخالص الى منطقة
الجزيرة العربية ، أو الى ما يطلق عليه بعض الباحثين اصطلاحاً «الاصول السامية»
(وهذا الاصطلاح غير دقيق ، وكنا قد تعرضنا له في الجزء الثاني من مشروع الرؤية
الجديدة) ؛ إنما يبقى الحديث وارداً في حدود الاعتبار الانتروبولوجي الحضاري .
بل لعلنا نضيف أن البنية الديموغرافية الجديدة لکنعان اكتسبت ، والحال كذلك ،
صيغة اتنية جديدة نسبياً ، هي صيغة الأمشاج الأقوامية الجديدة ، تلك التي وجدت
اتساقها الانتروبولوجي ، وكذلك الإثني والانتوغرافي ، في شخصية كنعانية موحدة
وحدة الخواص بالعام . وهذا ، بدوره ، يشير الى أن تلك الوحدة البشرية الجديدة
أتت بمستوى أكثر غنى عمقياً وبنية أكثر تركيباً وتنوعاً أفقياً عن ذي قبل .

في هذا المنعطف من سيرورة الموقف ، المعقد حقاً ، يبدو أنه أصبح من
الممكن أن نقول ، ان من اندمج من اليهود العبرانيين في تلك الشخصية النوعية
الموحدة ، تحولوا هم أنفسهم الى واحدة من المنظومات المتعددة التي ألقت نسيج هذه
الأخيرة ، ولحمتها وسداها . وإذا أخذنا بهذا التوجه المنهجي للمسألة ، وجدنا
أنفسنا أمام المثال المناسب ، الذي طرحه بيرفيت في كتابه «اليهود» والذي كنا أتينا
على ذكره فيما سبق . فالباحث المعني إذ يرى أنه من الممكن أن يكون أي شخص في
أوروبا من أصل يهودي بسبب عملية الاندماج اليهودي فيها طوال فترات تاريخية
متعددة ، وخصوصاً في فترات استتباب العلاقات الاقتصادية والاجتماعية في
المجتمعات البورجوازية الأوروبية ما قبل الامبريالية ، فإنه (الباحث) يطلق على
هؤلاء الناس عبارة ذات مدلول يدعو الى التأمل ، وهي «اليهود المجهولون»^(١) .
ولعلنا نذكر بأنه قد حدث مثل ذلك الوضع أو ما يقترب منه أو ما يشابهه أثناء
المراحل الأولى الباكورة من دخول اليهود الى فلسطين . ان أمثال اولشك اليهود
«المجهولين» وجدوا ، ولا شك ، ضمن البنية السكانية الكنعانية (في فلسطين) ،

(١) انظر : مكسيم رودنسون - المشكلة اليهودية عبر التاريخ ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ،
ص ١٠٦ .

دون أن نكون الآن في الحالة الدراسية التي تسمح بمعرفتهم وبمعرفة مظاهرهم اللاحقة . ولكن ذلك لم يكن ليغني ، ولا بشكل من الأشكال ، أن الشخصية الكنعانية ، ولاحقاً الفلسطينية ، أصبحت ذات طابع يهودي عبراني ؛ وذلك بنفس القدر الذي لم تستطع فيه الأقوام الأخرى التي وفدت إلى فلسطين أن تطبع تلك الشخصية بسماتها المهيمنة من قبلها هي نفسها .

وإذا كان الفلسطينيون قد استطاعوا أن يجعلوا من اسمهم الخاص اسماً عاماً لبلد الكنعانيين (أي فلسطين) ، فانهم فعلوا ذلك ، من حيث الأساس والعمق ، بعد أن انجزوا عملية اندماجهم وانصهارهم هؤلاء ، وليس العكس . وبالمقابل وبطبيعة الحال ، فإن هذه العملية الاندماجية والانصهارية لم تكن قد تمت من موقع التأثير من طرف واحد وموقع واحد ، أي تأثر الفلسطينيين بالكنعانيين . فلقد تأثر هؤلاء ، ولا ريب ، بالوافدين الجدد كلهم ، منفردين ومجتمعين ، ومنهم الفلسطينيون ، ولكن هذا إذ تم ، فإنه تم بحيث استطاع فيه أولئك الكنعانيون المحافظة على شخصيتهم المهيمنة عموماً (بالمعنى الاجتماعي والاقتصادي والثقافي الانثروبولوجي) . ولعل السبب الذي كمن وراء ذلك الوضع تمثل - في الغالب الأرجح - في أن المجتمع الكنعاني الزراعي (بمجزاته الزراعية والتقنية والاجتماعية) جسّد ، بالنسبة إلى جموع القبائل الرحالة الوافدة ، القوة المتفوقة الأكثر تماسكاً والأقدر على تمثل الغير وصهره في شريان حياتها الزراعية المستقرة والمنظمة والأمنة .

ومن هنا ، فقد ظل المجتمع الكنعاني محتفظاً بـ «كنعانيته» ، أي بقدرته على ممارسة الحسم الأخير في تحديد وضبط السمات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الانثروبولوجية للمجتمع القائم . وإذا كان هذا الأخير قد أطلق عليه - في نهاية المطاف - اسم أحد الشعوب التي حلت ترحالها فيه ، وهو الفلسطيني ، فإن هذا تم من موقع القاعدة الشهيرة التالية ، وهي تسمية «الكل» بـ «الجزء» ، أحد أجزائه ، ليس إلا .

أما الوجه الثاني (التراثي) من المسألة التي نجد هنا في تفصيلها ، مسألة فيما إذا كان التاريخ اليهودي عموماً - والتصور الديني اليهودي من ضمنه - يندرج في إطار

التاريخ للفكر العربي ، فيظهر من خلال النظر الى «العهد العتيق» من «الكتاب المقدس» على أنه لا يخرج عن أن يكون ، في بنيته الأساسية وفي مفاصله الكبرى ، موروثة متحدراً من ثلاثة مصادر رئيسية يتنظمها ناظم مشترك ، هو كونها شرقية (وعربية بالمعنى الذي يستعيض فيه الباحث عن تحديد السامية بتحديد العربية) ؛ تلك هي المصدر الكنعاني والبابلي المُسَوَّم (من السومرية) والمصري . ان هذا الأمر لم يعد سراً على صعيد البحث العلمي التاريخي في التاريخ الديني اليهودي ؛ فلقد استطاع كثير من العلماء أن يدللوا عليه عموماً وتفصيلاً من خلال مجموعة كبرى من الأمثلة التاريخية العينية . وفي حقيقة المسألة ، نحن لا نهدف - الآن - البحث فيه وفي تفصي أوجهه واتجاهاته المتعددة والمتشعبة . إن ما يهمنا من ذلك يكمن في التمعن بأطروحة محددة ، من شأنها ، إن وضعت في سياقها الذي تحوز ، أن تقدم عدداً من المداخل المنهجية النظرية لفهم وضبط الأمر ، الذي نحاول ، هنا ، أن نمسك بأطرافه أو بواحد مفصلي منها^(١) .

(١) نكتفي ، في هذا المستوى من الأمر المطروح ، بإيراد مثال واحد يوضح ما نعنيه بـ «المصدرية الشرقية - العربية» للعهد العتيق : «عندما اكتشفت مكتبة (آشور بانيبال) في مدينة نينوى التي كانت أعظم مكتبة في التاريخ ، وكانت تضم أكثر من عشرين ألف رقيماً وكل رقيم يمكن أن يكون كتاباً لأنه يحتوي مواضيع معينة . . هناك ظهرت عشرة ألواح هي (الواح الخليفة) . وهذا الاكتشاف تكرر في مدينة بابل وفي مدن أخرى . ولقد كانت ألواح (مدينة نينوى) من القرن السادس قبل الميلاد ، لكن الواح بابل أقدم من هذه بكثير حيث تعود الى القرن السابع عشر والثامن عشر قبل الميلاد . ولقد حصل خلاف كبير في أوربا إذ وجدوا أن قصة الخليفة الواردة في سفر (التكوين) منقولة حرفياً عن الألواح العشر الموجودة في بلاد ما بين النهرين وتصور الخليفة» . (علي أبو عساف : ندوة التوراة والتراث - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٠٣-١٠٤) . أما روجيه غارودي فيطرح التساؤل المشروع التالي ، الذي يشير الى القضية المعنية ، هنا : «كيف يمكن للمرء أن يتصور أنه من جرّاء السبي الثاني لدى البابليين والفراغة لم تستمد الثقافتان اليهودية واليونانية خلال ازدهارهما الرفيع نسغ حياتهما من صميم ثقافات الكلدانيين . . أو من الثقافة المصرية وفلسفة اخناتون التوحيدية . . ؟» . (روجي غارودي : ما يعد به الاسلام - ترجمة قصي أناسي وميشيل واكيم ، دار الوثبة ، دون تاريخ نشر ، ص ٣٤) . ونشير ، أخيراً ، إلى أننا قد عالجنا هذه القضية (علاقة العهد العتيق بالموروث الشرقي العربي) ، بمزيد من التخصيص والتفصيل ، في كتابنا (الفكر العربي في بواكيره وآفاقه الأولى - نفس المعطيات المقدمة سابقاً) .

تلك الأطروحة تتمثل بتحديد وضبط وصوغ الكيفية التي تمت فيها عملية امتلاك ذلك الموروث الشرقي (العربي) من قبل كتاب «العهد العتيق» ، أي من قبل أولئك الذين صاغوا وقدموا ، بلغتهم وآفاقهم الثوراتية النخبوية إجمالاً وعموماً ، الموقف اليهودي العبراني من الدين والاقتصاد والسياسة والجنس والحقوق ، وغيرها . فلقد تمت هذه العملية ، كما ألمعنا الى ذلك سابقاً وفي أكثر من مكان ، ضمن ظروف معقدة اتسمت بالانتقال من حالة بداءة ورعي بسيطة أولية ، على الصعيدين الاقتصادي الاجتماعي والذهني الايديولوجي ، إلى مجتمع زراعي كان قد انجز - حتى حينه - استقراراً وتقدماً ملحوظين على ذينك الصعيدين كليهما .

وبتعبير تراثي نقول - وهذا هو معقد المسألة ووجهها الذي نرغب في إضاءته - كان ذلك الانتقال قد وضع أمام المعنيين بالأمر (اليهود العبرانيين) مهمة معقدة غاية التعقيد ، ألا وهي الاستجابة الفاعلة النشطة لوضعية جديدة تمتلك من عناصر الجدة النوعية ما يمكن أن يجعلها ، بالحدود النظرية وضمن الظروف التي أحاطت بها ورافقتها ، مستحيلة ، ومن ثم غير ذات آفاق مستقبلية ايجابية . لم ذلك ؟

لاعتبارين اثنين كبيرين ؛ الأول منهما تجسد بالتأيز الطبقي البنيوي الأساسي بين البداءة والرعي من طرف والزراعة من طرف آخر ، بحيث أن انتقالاً من الأوليين الى الثانية كان يقتضي ، ضرورةً ، تغييراً جذرياً وعميقاً في السلوك الانساني عموماً ، أي دخولاً - من أبواب واسعة - في حقل جديد من العلاقات بين الناس ، وبينهم وبين الطبيعة ، وذلك الى الدرجة التي يغدو الحديث فيها وارداً وممكنأً وضرورياً عن نمط جديد (زراعي) من الشخصية الانسانية . ولعلنا نلاحظ أن عنصراً من عناصر التواصل التراثي بين الوضعيتين الاجتماعيتين المذكورتين يمكن تبيينه في شخص الأرض . فهذه الأخيرة تبرز في كليتيهما بمثابتهما منطلق الفعل الانتاجي الاقتصادي وموضوعه : الرعي يتجه نحو الأرض ويستقي منها نسغ وجوده ، وكذلك الزراعة .

ولكن .، إذا كان هنالك مثل ذلك العنصر من التواصل بين الوضعيتين المعنيتين ، فإن عنصر التفاصل النوعي بينهما هو الأرجح والأحسم في الموقف على صعيد ما حدث عملياً . أما هذا الأخير فيتجلى - في الحقل الذي نلاحقه هنا - بطبيعة ، أولنقل بخصائص العمل المطلوب انجازه في سياق الانتاج الزراعي ،

تلك الخصائص التي تقتضي وجود حدود ملحوظة وكبرى من المهارات التقنية والاجتماعية العامة والسيكولوجية الفردية .

لقد كان على اليهود العبرانيين ، الذين دخلوا كنعان ، أن يعيدوا النظر في بناهم الاجتماعية والاقتصادية والتنظيمية والايديولوجية الدينية ، لكي يتمكنوا - والحال على النحو المأني عليه - من الانخراط بعمق في المجتمع الجديد ؛ أي كان عليهم أن يُقدموا على الاندماج والانصهار فيه ، محققين - شيئاً فشيئاً ، ببطء لكن بثقة ونجاح - عملية كنعنتهم التاريخية . وهذا وإن حدث فعلاً بنجاح في حالات معينة يمكن رصدها وضبطها ، فإنه كان عليه أن يعني التضحية بجمل معطيات وقيم العالم البدوي الرعوي : كان على الفروسية ، بجموحها وقلقها ولهاثها وراء ضحاياها ، أن تسقط لحساب الاستقرار والانتظام والانضباط ؛ وكان على الغزو القتالي الذي يدمر النسل والزرع أن يفسح الطريق لاحترام «الأرض» والاندغام بها واكتشاف الاتحاد بها ؛ كما كان على الزعامات البدوية المتناثرة والمتعددة أن يطاح بها لصالح حل ضروري من مركزية ووحدة الزعامة والقيادة .

أما الاعتبار الثاني ، الذي عقد عملية انتقال اليهود العبرانيين من عالم البداوة والرعي إلى عالم الزراعة ، فقد تجسد بالجهود الدؤوبة والمركزة ، التي بذلتها القيادة الكهنوتية باتجاه تكريس وواع لعزل رعاياها عن المحيط الجديد ، وباتجاه التأكيد المضحخ على «أصالتهم» وتميزهم واصطفائهم إزاء مثلي ذلك المحيط : أن غمّلك ما يمتلكه الآخرون دون العيش معهم والعمل معهم والاندماج بهم ، أو على الأقل الانفتاح عليهم ؛ ذلك هو فصل المقال القطعي في تلك الجهود المتميزة .

والآن ، إذا وضعنا الاعتبارين المأني عليهما بحسباننا ومن موقع كونهما يشكلان وجهين لقضية واحدة ، فإن أمراً ذا أهمية خصوصية بالغة يتضح أمامنا وقد فرض نفسه فرضاً على بساط البحث ؛ ذلك هو تعقد واضطراب العلاقة التراثية بين الوافدين من اليهود العبرانيين المعابن بالايديولوجيا الكهنوتية اليهودية القائمة على وهم «الشعب المختار المصطفى» والمتحد في «حلف» لا يهزم مع يهوه من طرف ، وبين الموروث الذي وجدوا أنفسهم أمامه في البلد الجديد من طرف آخر .

فمنذ البدء الباكر ، تولدت علاقة تكتنفها عقد التواتر بين الحقد والعداء والحسد ، والنفاق والتزلف ، وكذلك الرغبة الدفينة ، المنصع عنها أحياناً والمتنكر لها أحياناً أخرى ، في تحقيق حد من التفاهم والالتقاء أو التزاوج والاندماج . اذ بغض النظر عن الحركة الموضوعية ، التي تمثلت باندماج جموع من اليهود العبرانيين في المجتمع الكنعاني ، نلاحظ أن تيار الرفض ومناصبه العداء لتلك الحركة من طرف الكهنوت المتزعم ، قد ولّد أشكالاً عديدة من الاضطراب في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسيكولوجية والجنسية في أوساط اليهود عامة ، وأوساط أولئك الذين حققوا منهم درجة أو أخرى من اندماجهم أو كانوا على طريق الاندماج بصورة خاصة . ان وضعاً من الاضطراب والتوتر والتأزم في العلاقة بينهم وبين وسطهم الكنعاني الزراعي المنفتح ، والبابلي كذلك لاحقاً ، كان من وراء اضطراب علاقتهم مع موروث هذا الوسط ، ومن ثم ، مع موروثهم هم انفسهم أيضاً . فلقد برزت فئات منهم وجدت نفسها بين أن ترى في ذلك الموروث موروثاً تطمح للانتماء إليه ولتمثله والاستجابة لمقتضياته الذهنية والواقعية المشخصة ، أو أن ترفضه خوفاً من فزاعة الكهنوت اليهودي المحذر . أما أوساط هذا الأخير فقد اتخذت منه موقفاً استراتيجياً حازماً واستفزازياً ، بالمعنى التاريخي والتراثي : السطو عليه ، مع الإعلان الشامل عن عداء سافر لتتجيه ومبدعيه من كنعانيين وبابليين ومصريين ، وغيرهم .

تلك العلاقة المزدوجة والمضطربة والمأزومة ، في كلتا الحالتين المومي اليهما ، كمنت وراء موقع «الفكر اليهودي العبراني» من الفكر العربي ، وحددت خصائص هذا الموقع وحدوده وآفاقه . فهذا الموقع يبرز ، في ضوء العلاقة المنوه بها ، من حيث كونه هشاً أو نغلاً ، أو ، لنقل كذلك ، مشبوهاً ، أو هذا جميعاً ومجتمعاً . ان تلك «الحيثيات» المحددة للفكر المعني لا ينبغي أن نأخذها على محمل أخلاقي ، أي لا يجوز أن ننطلق في فهمنا لها من منهجية تنظر الى المسائل في وظيفتها الاخلاقية أولاً وأخيراً . ان المنهج التاريخي النقدي (المادي التاريخي) لقادر على وضع تلك الحيثيات في سياقها الشخص ، دون الانزلاق في أقنية ادانة أخلاقية قبلية . ومن هنا بالضبط ، يصبح السؤال التالي في مقدمة الأسئلة التي ينبغي أن نطرحها على هذا الصعيد : لم دخل الفلسطينيون التاريخ الكنعاني الفلسطيني (العربي) ،

وأصبحوا وجهاً من أوجهه وعاملاً من عوامله وشكلاً من أشكال التعبير عن شخصيته ، بينما ظل جل اليهود العبرانيين يعيشون على هامش هذا التاريخ حيناً ، وقريباً منه حيناً آخر ، وبعبداً عن أعماقه في كل الأحوال ؟ الإجابة الممكنة والمحتملة عن ذلك ، في خطوطها العامة ، أو لنقل ، أحد الأوجه الكبرى من هذه الإجابة يكمن في تقصي وتحديد الدور الانتقامي والمشرع بالمقدد الاقتصادية والسياسية والدينية ، الذي مارسه الكهنوت اليهودي القيادي إزاء «الأغراب» و«أهل البيت» ، على حد سواء وبمستوى واحد من العسف والمناهضة والتشهير .

ان ذلك «العيش الهامشي» ، محدداً بـ «مناصفة» في التصرف مع «النحس» و «الآخر» ، قدم علاقة معقدة طريفة بين الداخل (الكنعاني الفلسطيني) والخارج (اليهودي العبراني) ، وقاد الموقف الى صيغة هجينة من تلفيقية بين - بينية انطوت على نتائج كان من نتائجها العصف والاطاحة بالتوازن والتماسك المطبقين والسيكولوجيين للشخصية اليهودية العامة (شخصية الجمهور العام) . فلقد ظل ذلك (الخارج) متمتعاً على التحول الى نسق من أنساق ذلك (الداخل) . هذا أولاً ؛ أما الوجه الآخر من المسألة فيفصح عن نفسه من خلال الدور الذي مارسه أولئك الذين أصبحوا مجهولين من اليهود العبرانيين ، أي الذين أتيحت لهم إمكانية الانصهار في المجتمع الجديد اقتصادياً واجتماعياً وذهنياً . فهذا الدور ، الذي غدا رصده واستفصاؤه - في شخصيته الخفية البعيدة (وذلك بحكم المصائر التي لحقت بوضعية حاملية المندمجين) - أمراً على غاية الصعوبة والعسر ، فإنه كان قد شكل حلقة وصل عميقة وهامة بين المجتمع الكنعاني بأمشاجه الأقوامية الجديدة ، التي انصهرت فيه واكتسبت شخصيته ، من طرف ، وبين هامش هذا المجتمع أو هوامشه التي ظلت ، بدرجة أو بأخرى ، تعيش حالة التشنج والنوسان والبين - بينية تجاهه من طرف آخر .

وإذا ما أخذنا باعتبارنا المنهجى ذلك الطراز من الشخصية التي حددت وضبطت ونمت تلك الهوامش وامتداداتها النسبية في «المركز» ، الذي هو المجتمع الكنعاني ، وجدنا - وهذا له دلالة الناقد بالنسبة الى المسألة المطروحة هنا - أن هذا الأخير وإن امتلك شخصيته الزراعية والاجتماعية المتقدمة والموحدة في حدود

الوضعية الحضارية العامة المهيمنة فيه ، فإنه لم يكن بمتسعه أن يبقى هو نفسه وعبر آليته الداخلية محايداً إزاءها (أي الهوامش المعنية) ؛ خصوصاً وأن هذه الأخيرة لم تكن ، في غالب وجودها وعموميتها ومن حيث هي كذلك (أي هوامش) ، لتطمح الى المهادنة أو المسالمة أو - على الأقل - المحايدة تجاه «الآخرين» . إن سياق الأحداث الانعطافية كان يفرض على المجتمع الزراعي الكنعاني أن يأخذ موقفاً ذاتياً فاعلاً من جل أولئك الوافدين من وراء الحدود ، الذين رفضوا ، بمكابرة وإصرار واستعلاء ، أن يدخلوه بمفاتيحه الخاصة به (العالم الزراعي ، المشاعي القروي) ؛ وأعلنوا - بأشكال مباشرة شتى وتحت وطأة القيادة الكهنوتية اليهودية واعتبارات أخرى - أنهم لن يدخلوه إلا مدمرين مصدعين ؛ ومن ثم ، فهم لم يطلأوا واحتته الزراعية الخصيبة والتي مثلت حصيلة فعل مديد من الانتاج الحضاري ، إلا في سياق الفعل المناهض لهذه الحصيلة ، أي عبر العمل على تقويضها ؛ إضافة الى المحافظة على الجيتوية (الانعزالية) ، وعلى شعور التميز والاصطفاء اللتين والدينيين .

وجدير بالتبصر العميق ما أتينا على ذكره في سياق آخر سابق ، وهو أن الكهنوت اليهودي المتزعم استمد جبروته وهيمنته شبه الكاملة ، في بعض الفترات من التاريخ اليهودي العبراني ، من عناصر اقتصادية وسياسية واجتماعية ودينية ايديولوجية . ولكن ابرز وأخطر جانب في هذا العنصر الأخير نهض على أن الكهنوت إياه كان يحتمي وراء اله (يهوه) من مقتضياته الألوهية أن يرى ولا يرى ، أن يأمر بالفعل ولا يؤمر به ولا يُعترض عليه ، أن يهيمن ولا يهيمن عليه ، أخيراً أن يقود الجيوش الى الظفر أو الى النكبة ولا يحاسب^(١) . ومن هنا ، من هذا الموقع الخلفي ، الخطير بخلفيته ، ظهرت تلك العملية - على الصعيد النظري وكذلك العملي - بمثابة فعلاً منطلقاً من موقف واحد ونسق وظيفي واحد ، هو اللاهوت

(١) يكتب غاستون بونول وآخرون في (الحروب والحضارات - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٤٣) مايلي ، محلدين إحدى الوظائف الكبرى ليهوه (أي للكهنوت اليهودي) : «على الرغم من أن هذا الإله لا يرى على شكل انسان أو أي شيء آخر ، فإنه يظل دائماً (اله الجيوش) الاسرائيلية يقف في وسط المحاربين ويدير عملياتهم ويقدم لهم النصائح والارشادات اثناء الالتحام بالمعارك» .

السلطوي أو السلطة اللاهوتية . ولذلك ، لا يعود هنالك ما يدعو إلى طرح الاتهام أو التساؤل على هذه الأخيرة أو التشكيك بمواقفها وأهدافها وطرائقها التي تتبع ، خصوصاً في أثناء الأحوال «الاستثنائية» ، كشن القتال ضد «الغوييم» الكنعاني ومناهضتهم . ان ذلك الوضع يشير إلى أن المجتمع الكنعاني المفتوح والمفتوح لم يعد - مع اختراق الأمشاج الأقوامية المتعددة لبنيته - بمنأى عما يحدث «في هوامشه» المتحفزة والنزاعة إلى الانتقام ، أي إزاء من رفض التعرف إليه بما هو عليه - ناهيك عن التحول إلى أحد روافده - وظل مع ذلك يوجه حرا به باتجاهه .

ان الفكر العربي ، بأنساقه المتعددة جغرافياً ، لا بد له - والمسألة على النحو الدقيق المرهف الذي أتينا عليه - من أن يتسع في عمقه ومخزونه التاريخي والتراثي ، بحيث ينطوي على تلك الحقول والأقنية من التاريخ وامتداده التراثي ، تلك التي جسدت - بالمعنى الدلالي المباشر وغير المباشر - لحظات فاعلة سلباً أو إيجاباً من مساقه الخاص نسبياً . وهو - من موقع هذا الاعتبار الناهض على جدلية الداخل والخارج - يجد نفسه ، كذلك ، مدعواً إلى النظر المعمق في هذه الحقول والأقنية والامتدادات المتعددة الأوجه ليس من ذلك الموقف فحسب ، بل أيضاً من حيث أنها كانت بُعداً من أبعاد مرحلة انتقالية خضعت لها ، بأشكال وصيغ تدعو إلى التأمل ، أمشاج أقوامية خارجية ، دون أن تتاح لها امكانيات التماسك والتوازن والتناغم مع أهدافها الحيوية البعيدة .

ان تناول «الفكر اليهودي» من ذلك المنظور التاريخي والتراثي الجدلي يجعلنا ، اذن (وهنا معقد الإشكال الذي لاحقناه عمقاً وسطحاً) ، نرى فيه لوناً من ألوان الفكر الكنعاني الفلسطيني (العربي) ، بمعنى ما ؛ وتعبيراً مباشراً عنه ، إلى حد ما ، وغير مباشر بحد أكبر ؛ ولحظة من لحظات مواجهة اختراقه بأفقين اثنين متضايقين ، واحد باتجاه نفسه ، وآخر باتجاه الوافدين من الامشاج اليهودية العبرانية .

وإذا ما نقلنا ذلك الموقف المركب والمرهف إلى مستوى التشخيص (الضبط) التاريخي والتراثي ، بدت أمامنا بعض الوقائع في صيغ مثيرة ملفتة ، وبحيث يكون من شأنها أن تلقي ضوءاً ساطعاً على ما نحن بصدد البحث فيه . فعلى الصعيد اللغوي النظري والتاريخي ، يقدم بيير روسي الملاحظة الهامة التالية : «ان العبرية

ليست (هي) اللغة الأصلية لليهودية التي كان تعبيرها الحي والمحكي أولاً هو الآرامي ، ثم العربي : وذلك بسبب كون اليهودية قد شاركت الديانات المصرية والبابلية والأورفية والمسيحية أو الإسلامية مصيرهن . . . وإنه لمن غير الطبيعي أن الرحي المصمم من أجل الوعظ والإرشاد والصلاة الشاملة ، والمعد من أجل الفهم الشعبي ، قد أصبح سجين اللغة العبرية ، وهي كتابة مخترعة من أجل جماعة صغيرة كهنوتية . أما اليهود الشرقيون ، الذين لم ينقطعوا عن التعبير باللغة العربية ، فقد عرفوا كيف يعطون الأدب العربي والفكر العربي والعلم العربي ممثلين يشار إليهم بالبنان» (١) .

وقد ظهرت تلك الوضعية «اللغوية» التاريخية في واحد من الأعمال الأساسية الكبرى ضمن البناء الأيديولوجي الديني الخاص باليهود العبرانيين ، بحيث أن ذلك يقود إلى تدعيم النتيجة التعميمية التي خلصنا إلى صوغها توتاً . فالبحث العلمي التاريخي المديد أثبت «أن أول ترجمة للتوراة اليهودية تتمثل في نص يوناني ألف في الإسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد تحت حكم بطليموس الثالث ، في الوقت نفسه الذي جمعت فيه الآثار الهوميرية الملحمية أو السرية التي نقلها إلينا التقليد المأثور سليمة شبه كاملة . فمصر إذا المصدر الأم للعهد القديم ، انه فكر عربي هيليني أشرف على ملحمة داود وأخيل . . . كما أن من المنتظر أن تربك أصالة النص السبعيني الاغريقي التي لا تناقش والتي هي المصدر للتقليد العبري . . . أصالة النص هذه تربك علماء اليهوديات الذين يعاندون في ألا يروا إلا الترجمة العبرية» (٢) .

وإذا غدا الأمر على هذا النحو من الوضوح اللغوي والتاريخي - وهو حقاً شيء حاسم بمعنى ما على صعيد المسألة المطروحة - فإننا نجد من المسوغات والخوافر المنهجية التاريخية والتراثية ما يدعونا ، ونحن متسقون ومتطابقون مع ذلك

(١) بيري روسي : مدينة ايزيس التاريخ الحقيقي للعرب - ترجمة فريد جحا ، الجمهورية العربية السورية ، وزارة التعليم العالي ، دمشق ١٩٨٠ ، ص ٢٠ ، ٢١ .

(٢) نفس المرجع السابق ومعطياته - ص ٢١ . وقد أشار إلى هذه المسألة التاريخية التوراتية ، ضمناً ، أيضاً موريس بوكاي في كتابه : دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٨ .

الوضوح ، إلى ادراج التاريخ «اليهودي» - واليهودي الايديولوجي عموماً - ضمن مهمات «مشروع رؤية جديدة للفكر العربي منذ بواكيره وحتى المرحلة المعاصرة» . ومن هنا ، كذلك وبنفس المشروعية النظرية المعرفية التاريخية والتراثية ، كان البحث المائل بين أيدينا تعبيراً عن الخط الناظم للحركة التاريخية التراثية «من يهود إلى الله» ، وكذلك ضبطاً له ومحاولة لاكتشاف قانونيته الداخلية الفاعلة .

ولا ينبغي أن يفوتنا القول بأن تلك الحصيلة التي خلصنا إليها ، في معرض البحث في العلاقة بين «العربي» و«اليهودي» ، تحتاج الى مزيد من الملاحقة بصيغة ما قد يجذّ على صعيد المكتشفات الأثرية «التوراتية» . لكننا في نفس الوقت نرى أن الجانب المنهجي من دراسة تلك العلاقة سيجد نفسه أمام ضرورة تعميق أسسه وخصائصه ، بحيث يغدو قادراً على اختراقها بمزيد من الدقة والإحاطة . فلا شك أن المسألة المعنية ذات أهمية خاصة ضمن المسائل التي عالجناها ؛ كما أنه تترتب على طريقة معالجتها نتائج من شأنها الإسهام في إضاءة هذا الموقف أو ذاك من المسائل المشار إليها .



الفصل الثالث

إشكالية المسألة التاريخية للعهد العتيق

١

«القراءة المركبة» لنصوص العهد العتيق

في اعلاننا عن الرغبة بالبحث في «الفكر اليهودي» التأسيسي ، نكون قد حددنا ، من حيث التوجه العام والرئيسي ، إطار هذا البحث وموضوعه ؛ ذلك هو «العهد العتيق» تخصيصاً . ولكننا إذ حددنا اطار وموضوع بحثنا من موقع ذلك العهد ، فإننا - في نفس الوقت - لا نكون قد أغفلنا الأهمية التي تمثلها الكتابات اليهودية العبرانية الأخرى ، تلك الكتابات التي لعل «التلمود» يشكل أهمها أو عمادها . بيد أننا ننطلق ، هنا ، من أن العهد العتيق هو الذي يقدم الصيغة الايديولوجية اليهودية في أهم بناها وآفاقها الأولية النظرية والحاسمة . وهذا يشير ، من طرفنا ، إلى أن كتاب العهد يمثل الهيكل الناظم والأساسي من الفكر الذي نجعل منه الآن موضوع بحث لنا . ومن هذا الموقع إياه ، تواجه المهمة المطروحة أمامنا وقد انشعبت الى صعيدين اثنين ؛ الأول منها يتمثل بالوجه التاريخي الوثيقي للعهد العتيق ، في حين أن ثانيهما يتعلق بوجهه البنيوي التراثي .

سوف نبحث في ذينك الوجهين كليهما من موقع اتصالهما على نحو من الأنحاء ، ومن موقع انفصالهما نسبياً . ففي الاتجاه الذي يقود إلى اتصالهما ويشير إليه ، نلاحظ أنها يجسدان عملية تكون تاريخي وتراثي يشكل البعد التاريخي منها مقدمة ومدخلاً ، بينما يمثل بعدها التراثي امتداداً وحصيلة . وفي كلتا الحالتين ، حالة البعد التاريخي وحالة البعد التراثي ، تظل تلك العملية ذاتها تجسيدا لسياق واحد بتجليين اثنين . أما من منظور الانفصال القائم بين البعدين المعنيين ،

فلاحظ أنه في الحالة الأولى تبرز إشكالية الحدث التاريخي والبحث التاريخي ، وأنه في الحالة الثانية تفصح عن نفسها إشكالية الحدث التراثي والبحث التراثي . وهذا بمجمله تعبير عن الإقرار المنهجي بالخصوصية النسبية التي يتمتع بها كلا الفريقين إزاء بعضهما بعضاً .

ولن يكون سهل المنال أن نغطي تلك اللوحة المركبة المعقدة ، والمفعمة بالحساسية التاريخية والتراثية والسياسية ، تغطية كاملة أو شبه كاملة . ذلك لأن الكثير من المسائل المتصلة بهذه اللوحة بصورة مباشرة وغير مباشرة ، سوف لن يكون بمقدورنا استنباط أجوبة عليها أو تحديد ملامحها الأساسية الكبرى إلا عبر مسائل أخرى تفصح عن نفسها عبر أفنية أخرى ، أو ربما عبر طريق مليء بالأخطار وأوجه القصور التاريخي ، أو التراثي ، أو السياسي ، أو حتى النظري المعرفي .

إن التشكل التاريخي للعهد العتيق ، على ما هو عليه من امتلاك لشخصية محددة السمات ومستقلة إزاء تشكله التراثي ، يبقى فهمة وإدراك اتجاهاته وآفاقه مشروطاً بدرجة أو بأخرى وبمنحى أو بآخر ، بذلك الأخير . كما يمكننا القول إن تشكله التراثي - على ما هو عليه من امتلاك لشخصية مستقلة بحدود ما ومعنى ما إزاء تشكله التاريخي - ليس بمتسع الباحث أن يحيط بحركته الذاتية بعيداً عن هذا الأخير وفي ضوئه ، وكذلك من موقع الاحاطة به . وهذا ، منظوراً إليه في اتجاهاته الأساسية ، يشير إلى أننا أمام عمليتين اثنتين متضائفتين تضائفاً جديلاً ، بحيث إذا أشير إلى الواحدة منهما ، فإنما يعني ذلك إشارة مخصصة إلى الثانية ؛ وكذلك ، أيضاً ، بحيث إذا نظر إليهما مستقلتين عن بعضهما ، فإنما بمعنى الإقرار باستقلالية نسبية للواحدة تجاه الأخرى ، ليس إلا .

بعد هذا الذي أتينا عليه ، نرى ضرورة الاعلان ، على نحو مسبق ، عن أننا سنواجه - في سياق بحثنا للعمليتين المومي إليهما - وضعية على غاية الطرافة المنهجية ، وربما كذلك الفريدة ؛ تلك هي التداخل المثير والعميق والمشرط تضائفاً فيما بينهما ، وذلك إلى درجة تصل إلى حالة الاختلاط والتشابك ، وإلى حيث قد يصبح الأمر مدعاة للالتباس ومثاراً للتشويش والاضطراب النظريين المعرفيين . ومع ذلك ، بل ربما بسبب ذلك ، تبقى المهمة قائمة ، وتقضي ، من

ثم ، القيام بعمل من شأنه أن يستجلي أبعادها وآفاقها العامة الأولية والدالة وظيفياً على الصعيدين التاريخي والتراثي .

ان البحث في تاريخ «العهد العتيق» يفصح عن نفسه عبر مقدماته الأولى ، من حيث هو عملية في غاية الصعوبة والإشكالية المنهجية النظرية والتطبيقية التاريخية والتراثية . كان الأمر على هذا النحو ، وما يزال كذلك ، بحدود ملحوظة ، الى مرحلتنا المعاصرة . نقول ذلك بصورة عامة إجمالية ، أي بالمعنى الذي يتناول ذلك الأمر في مساره العام الكلي . بيد أن مجموعة من الدراسات والأبحاث والاستقصاءات استطاعت ، منذ أمد غير طويل ، بالمقياس التاريخي التراثي ، أن تنجز خطوتين اثنتين باتجاه الهدف المذكور ، وذلك بمشابتها تمهيداً للدخول في مستوى البحث العلمي في المسألة المعنية . وهما (أي الخطوتان) من حيث هما كذلك ، مثلنا ، أيضاً ، شرطاً خارجياً ضرورياً لاختراق هذه الأخيرة ، بحيث أن هذه الشرطية الخارجية تبرز ، في نطاق البحث الميداني ، بصفاتها شرطية داخلية تمس البنية الخاصة بهذا الأخير . ولاشك أن ذلك ، من طرفه ، يشير إلى الأهمية البنيوية للخطوتين المعنيتين ولدلالاتهما على صعيد التجادل بين الخارجي والداخلي .

الخطوة الأولى تمثلت في تحقيق انتزاع طابع القداسة الدينية عن نصوص «العهد العتيق» ، بحيث أرغمت هذه النصوص - ممثلة بحملتها من الكهنوت اليهودي - على أن تتحول الى موضوعات دينية ايديولوجية خاضعة ، بكل بساطة وتواضع ، لمواقف ووجهات نظر نقدية (دنيوية) . ولايهم ، هنا ، أن تكون هذه المواقف ووجهات النظر ذات طابع تاريخي أو سيكولوجي أو أخلاقي ، الخ . . أي اننا لسنا بمعرض المفاضلة بين المناهج المتفقة ، عموماً وإجمالاً ، على نقدية الموقف من النصوص المعنية . ما يهم فيها ومايجوز على الاهتمام المبدئي كمن في العملية المحفوظة بالمحظورات والمخاطر لإخراج النصوص المعنية من الدائرة الماورائية العقيدية المأخوذ بها من موقع وثوقية ناجزة ، إضافة إلى تزمّنية عدائية محتملة . أما الخطوة الثانية فقد تبلورت في ظهور جملة من الدراسات التطبيقية المباشرة ، التي أبرزت في شخوصها

بعض نماذج الموقف النقدي الجديد من النصوص «العهدية» ، وقدمت ، من ثم وعبر ما قدمته من معالجات ونتائج وآفاق ، إمكانية القول بوجود حلول أخرى للمشكلات التاريخية والتراثية غير تلك المنطلقة من الوثوقية المنوه بها . إن دائرة البحث النقدي اتسعت واضطردت ، والحال كذلك ، عمقاً وسطحاً ؛ عمقاً بمعنى أنها اخترقت النص الديني ضمن حركة تحليلية وتركيبية تعيده الى سياقه الداخلي الشخص الذي انطلق منه ونما من موقعه ، كما تعيد إليه حياته المستلبة من قبل المطالب التقديسية الماورائية والوثوقية ؛ وسطحاً باعتبار أن كل أوجه الانتاج الذهني البشري - بما في ذلك الإيديولوجيا الدينية - غدت ، بصفتها موضوع ومادة بحث ، من اختصاص ذلك البحث وحده . وقد ترتب على ذلك أن أصبح المطلب ضرورياً باسقاط كل ما من شأنه أن يدخلنا ، بحثياً ، في عالم من المحظورات والمحرمات ، سواء أكان ذلك باسم حساسية دينية أو أخرى سياسية .

ولقد أبنّا ، في موضع سابق من هذا الكتاب وبعبارة اقتضاها سياق الموقف ، الدور الريادي الملحوظ الذي قام به الفيلسوف سبينوزا على هذا الصعيد المُشكّل والمعّب بالمحاذير والحساسية الدينية والسياسية ، مما جعله يدفع لقاء ذلك ثمناً كبيراً تمثل بحريته . وإذا كان الرائد المذكور قد جسد ، في حينه ، ظاهرة شبه فريدة ومتفردة في الحقل المعني هنا ، فإن مراحل التطور البشري اللاحق جعلت من الأبحاث التاريخية التوراتية - والدينية عموماً - جزءاً ذا أهمية خاصة من أجزاء البحث التاريخي النقدي على نحو الإجمال والتفصيل . وفي هذه الحال ، كان على التوراتيين وعلى نظرائهم من اللاهوتيين المنطلقين من مواقع دينية أخرى أن يدعنوا للأمر الواقع «الكثيف» بمطامحه النقدية .

وجدير بالقول أن العمل الذي أنجز في نطاق التوجه البحثي الجديد ، ما يزال - رغم أهميته الريادية - في طور من البداية ، الذي لا يسمح بالقول بأداء وضعاً عميقاً وشاملاً (نسبياً) من الأبحاث التطبيقية في التاريخ الديني عموماً واليهودي خصوصاً قد أرسيت دعائمه . وإذا كان الأمر كذلك ، فإن القيام ببحث جديد على هذا الصعيد البكر ، لا بد وأن يجد نفسه أمام واحدة من الضرورات المبدئية الأولى لهذا البحث ، وهي إعادة النظر في ترتيب وتصنيف الموقف المنهجي أولاً ، وفي تنسيق وضبط المعطيات والوقائع المتوافرة تحت أيدينا والتي تندرج في

نطاق «مادة البحث» ثانياً ، وذلك وفق ما تقتضيه عملية التنهيج المطلوب صوغها مجدداً . ولا ينبغي الظن بأن هاتين الخطوتين تمثلان شرطين خارجيين ، ليس إلا ، للعمل التاريخي النقدي . إنها ، وكما نوهنا بذلك قبل حين ، يتحولان في أثناء العمل نفسه ، إلى جزء صميمي من اجزاء موضوع البحث ذاته ، وذلك من خلال الكوى التي تنطلق منها تأثيراتها في البنية الداخلية لهذا الموضوع نفسه .

أخيراً يمكن القول بأن تحقيق التحول على صعيد منهجية البحث في التاريخ الديني لا يمثل موقفاً علمياً فحسب ؛ إنه يتطلب ، كذلك ، النظر فيما يوجد من التباسات اجتماعية وثقافية وسياسية ، وذلك بمثابرتها عامل تحفيز لهذا الموقف أو عامل كبح ^(١) .

يجري الحديث ، عادة ، عن «العهد العتيق» تمييزاً له تاريخياً وبنوياً عن «العهد الجديد» . أما الأول فيُرى بأنه يخص اليهود العبرانيين ، في حين أن الثاني يتصل بـ «المسيحيين» ، الورثة الشرعيين لهؤلاء .

ان مطلب النقد التاريخي البنيوي يبدأ هنا ، في هذه الأطروحة المبسطة الخاطئة ، إذ يعمل على اكتشاف عوامل وعناصر التشابك والتداخل في العهدين ، بحيث لا يؤكد فقط على التفاصيل التاريخية بينهما ، وإنما كذلك - وكما سنوضح

(١) إذا أخذنا بعين الاعتبار الرضعية العامة المتصلة بالبحث الديني ، أمكننا القول ، مع موريس بوكاي في كتابه (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٩) : «ان معالجة الكتب المقدسة من خلال علم الدراسة النقدية للنصوص شيء قريب العهد .. ففما يخص العهد القديم والعهد الجديد ، ظل الناس يقبلونها على ماها عليه طيلة قرون عديدة . ولم تكن قراءة الكتب المقدسة تؤدي إلا إلى اعتبارات مدحية وكان مجرد التعبير عن أي روح نقدية ازاء الكتاب المقدس خطيئة لا تغفر . وكان القساوسة هم الصفوة التي تستطيع بغير عناء أن تكون لديها معرفة اجمالية عن التوراة والاناجيل .

وبعد أن أصبح نقد النصوص علماً ، فقد كان له الفضل في أن جعلنا نكتشف مشاكل مطروحة وخطيرة في أحيان كثيرة . غير أنه لا بد من أن نصاب بخيبة الأمل عندما نقرأ كتباً كثيرة تدعي أنها نقدية ولكنها لا تقدم في مواجهة الكثير من مشكلات التأويل الحقيقية إلا تفسيرات مدحية تهدف إلى ستر حرج المؤلف وحيرته» ..

لاحقاً - على توصلهما التراثي بأشكال تبدو لبعض الباحثين غير ممكنة وغير متوقعة .
وتخبرنا أسفار العهد «الأول ، العتيق» أن هذا العهد تم قطعه بين الرب يهوه من
طرف ، وبين «مُختاريه ومصطفيه» من القبائل الجواله اللاهشة وراء الأمان
والاستقرار والحالة بعالم يسيل فيه «اللبن والعسل» من طرف آخر . لقد عاهدهم -
وهو الطرف الأول الذي يُملي الموقف ويحدده - على أن يمنحهم «ذلك العالم» مع
تقديم الضمانات الكفيلة بتحقيق ذلك ، ولكن بعد أن يعلنوا انصياعهم مقابل
ذلك - وهذا هو شرط انجاز تلك الضمانات - لأن يكونوا شعبه بجدارة ، بما يقتضي
ذلك من وفاء وطاعة لا تعرف الاعتراض واستبسال حتى الفداء في الدفاع عن
قداسه المتمثلة بوحدانيته المطلقة .

ان صيغة العهد المقطوع بين الفريقين المعنيين تنطوي على إعلان مباشر
بالمصلحة النفعية المتبادلة . فهو - والحال كذلك - شكل من أشكال العقد بين
طرفين يتفقان بموجبه على انجاز أمر ما يلتزم كل منهما بشروطه . بيد أن هذا الالتزام
«المتبادل» ليس هو ، في حقيقة الأمر ، متبادلاً . ذلك لأن يهوه - الفريق الأول
والذي ينبغي أن ندغمه بشخص الكهنوت الأعظم - لا يُملى عليه ، وإنما هو الذي
يُملى ويقرر ويثيب ويعاقب بحسب النتائج . إن الكهنوت وإن أعلن عن التزامه
بشروط العهد ، فإنه ظل قادراً على محورة الموقف باتجاه واحد فقط ، يخدمه هو
ويدافع عن مصالحه ورغباته ويكرسها بفعل ذاتي قسري ؛ دائماً وأبداً حين تظهر
علائم الاضطراب وعدم التوازن في مجريات «العهد» ، فإن المسؤول عن ذلك هو
الطرف الثاني . وهنا ، نستطيع أن نبين أحد الجذور الكبرى لتصور «التضحية
والأضحية والقربان» . فحيث تلوح في الأفق مثل تلك العلائم ، كان على جمهور
«المختارين المصطفين» أن يقدموا ليهوه ما يرده عن غضبه المقدس عليهم ، ويعيده
طرفاً راضياً عن عهده الأصلي معهم . إننا نلاحظ ، في هذه الوضعية ، وجهاً هاماً
من أوجه الضمانات المستقبلية التي أوجدها الكهنوت «ذو الرؤية المستقبلية» في سبيل
استمراره بصفته قوة دينية (سياسية) قصوى في الحالتين القصويتين ، الانتصار
والاندحار ، التنامي والتراجع ، الانفراج والتأزم ، ففي كليهما يظهر هذا
الكهنوت الحاسم الفاعل القادر ويعبر من خلالها عن حضوره المستديم؛ ولكن من
يدفع الثمن هو هو في الحالتين (الجمهور المذكور آنفاً) ، في حين أن من بحصد الثمار

يبقى ، كذلك هو هو في الحالتين (الكهنوت) .

ان الترابط الوظيفي الجدلي بين الفريقين يبرز ، كما هو واضح ، بصفته عملية فاعلة منتجة من طرف واحد ومتلقية مستهلكة من طرف واحد . وهذا يضعنا وجهاً لوجه أمام شخصية الكهنوت الطامحة إلى أن تكون كلية الحضور وكونية الظهور وفاعلة فعلاً قطعياً أمرياً .

انطلاقاً من تلك السمات الكهنوتية ومما يحيط بها من رغبات وظيفية مشخصة ، نستطيع أن نصوغ الوضع اليهوي (الكهنوتي) الأساسي كما يفصح عن نفسه في العهد اليهوي .

هاهنا نتبين ثلاثة مواقف أحاطت بالعهد الرباني المقطوع ؛ تلك هي : (١) ظروف إبرام العهد المريعة باتجاهاتها ودلالاتها الاقتصادية والسيكولوجية ؛ (٢) تثبيته وتكريسه بعلامة جسدية دائمة هي الختان ؛ (٣) تحديد المهام التي نيّطت به ، وفي مقدمتها انتزاع ملكية أرض الآخرين (الغوييم) ، ونقلها إلى يدي طرف العهد الثاني ، أي «شعب المختارين المصطفين» .

ولابد أن نلاحظ أمراً ذا أهمية حاسمة من أجل ادراك الفكرة الأولى المحورية في التصور الكهنوتي اليهوي لـ «العهد» . ان هذا الأمر يتحدد بتلك المهمة المنوّه بها ، وهو انتزاع الأرض من الآخرين أولاً ، والحقاقتها بهم (اليهود العبرانيين) ثانياً . فنحن ، هنا ، أمام طراز من الأيديولوجيا الشمولية التسلطية ، التي تجعل من الأرض ملكية وحيازة مسألة المسائل في بنائها المحوري . وما يلفت في ذلك يقوم على طرح هذه المسألة ليس من موقع اجتماعي ، وإنما من موقع إتنو-اصطفائي يكمن في معارضة شعب بشعب وجنس بجنس . وهذا من شأنه ، في نهاية المطاف ووفق الآلية الداخلية لتلك الأيديولوجيا ، أن يقود إلى توليد مواجهة بين ذينك الجنسين (اليهودي العبراني والكنعاني الفلسطيني) وبجانبية بينهما ؛ مؤكداً في سياق ذلك على تغييب المشكلات (الأخرى) الاجتماعية والسياسية والاقتصادية القائمة بين التشكلات الطبقيّة في نطاق كلا الشعبين . والذي يتمم هذا الموقف ويفصله ويشخصه يكمن في إثارة الخوافز على تدمير الشعب الآخر من قبل الشعب الأول ، حتى وإن استجاب هذا الأخير - طوعاً - لمطلب التخلي عن أرضه . وعلى ذلك ،

فنحن نستطيع أن ندرج «العهد اليهوي» المعني في نطاق تلك الايديولوجيا الشمولية
التسلطية ، أي بمثابة أحد الأوهام الايديولوجية التي طرحها الكهنوت اليهوي
شمولاً وتسلطاً .

بيد أن صيغة العهد الرباني تلك كانت قد سبقتها صيغة أخرى قدمت الموقف
البدئي للرب يهوه وجسده تجاه الكون ، ممثلاً بمحظي الرب هذا وصفه نوح . وإذا
دققنا في الأمر بمزيد من التعمق في الصورة التوراتية الكونية (الكوسمولوجية) ،
وجدنا أن هذه الصيغة الأخيرة كانت بمثابة تجسيد لمهمة أولى أكثر بدئية ، هي إعادة
تنظيم الكون بعد فساد ، والعمل على إنقاذ الناس الأخيار فيه بعد غرقه بفعل
الطوفان الكبير :

«ورأى الرب أن شر الناس قد كثر على الأرض وأن كل تصور أفكار
قلوبهم إنما هو شر في جميع الأيام . فندم الرب أنه عمل الانسان على الأرض
وتأسف في قلبه . فقال الرب أحو الانسان الذي خلقت عن وجه الأرض
والانسان مع البهائم والدبابات وطير السماء لأنني ندمت على خلقي لهم . أما
نوح فتال حظوة في عيني الرب» (١) .

وهنا ، يعلمنا هذا الرب الحانق الغاضب من الناس كيف أخطر نوحاً
بالأمر الحاسم ، وماهي السبل التي لفته إياها ليتدارك الحدث الجلل :

«فقال الله لنوح قد دنا أجل كل بشر بين يدي
فقد امتلأت الأرض من أيديهم جوراً فهذا أنذا
مهلكهم مع الأرض . اصنع لك تابوتاً من
خشب قطراني واجعله مساكن . . . وها أنذا أت
بطوفان مياه على الأرض لأهلك كل جسد فيه
روح حياة من تحت السماء وكل ما في الأرض
يهلك» (٢) .

وإذا كان نوح قد لقي هذه الحظوة عند ربه ، فإن ذلك تم من موقع
«العهد» ، الذي أقامه هذا الأخير معه :

(١) الكتاب المقدس - سفر التكوين ٦/٨٥ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطيته ٦/١٣-١٤، ١٧ .

«وأقيم عهدي معك فتدخل التابوت أنت وبنوك . . ومحا الله كل قائم كان على وجه الأرض . . وبقي نوح ومن معه في التابوت فقط . . فخاطب الله نوحاً قائلاً . اخرج من التابوت . . وبنى نوح مذبحاً للرب»^(١) .

تلك كانت مسوغات «العهد الأول» ومجرباته ونتائج الكونية البشرية . انه عهد رباني قُطع مع من نيّطت به المهمة العظمى (أو التكليف الأعظم) : قيادة الكون بعد أن رُمّم من الفساد الذي لحق به على يد «الانسان» . هل يتعين علينا أن نرى في هذا الرب (يهوه) نمطاً مختلفاً ومتميزاً عن ذاك الذي ستتضح سماته بعد الدخول في العهد الثاني ؟ لعل هذا السؤال يتأتى من النزوع الانساني الاجتماعي ، الذي يكاد يكون هو الأظهر في شخصية يهوه (الرب) الأولى ؛ ذلك أن قراره باغراق العالم في طوفان كوني ، تولد بعد إذ رأى الجور الذي لحقه (الانسان) بالعالم ، والشر الذي تكاثر وأصبح المهيمن .

ولكن كيف نستطيع ايجاد علاقة بنيوية ما بين يهوه هذا من طرف ويهوه التالي ، أي الذي سيطيح بذلك النزوع الانساني الاجتماعي مع إعلانه «العهد الثاني» ؟ ربما أجبتنا عن ذلك بأمرين اثنين . الأول منها قد يكون كامناً في أن يهوه ، في عهده الأول ، كان مازال متأثراً بشكل أو بآخر بالترساة الدينية اللاهوتية للكنعانيين خصوصاً . ويعزز هذا الرأي ما سنأتي عليه لاحقاً من أن «يهوه» نفسه انحدر ، أصلاً ، من تلك الترساة ذاتها . أما الأمر الآخر فيتضح حالما نأخذ باعتبارنا أن مرحلة «العهد الأول» الكوني لم تكن بعد قد اختُرقت بنفاذ وتركيز من قبل الصراعات والخصومات بين الوافدين من اليهود العبرانيين من جانب ، والشعب الكنعاني وغيره من جانب آخر .

بيد أن ذلك لا يعني غياب العلاقة بين كلا العهدين والتواصل الطقوسي والذهني الديني بين تجلياتهما . إن علامة العهد الثاني هي ، بحسب ذلك ، القوس التي

«جعلتها في الغمام . . وتكون القوس في الغمام وأبصرها لأذكر العهد الأبدي بين الله وكل نفس حية»^(٢) .

(١) نفس المصدر السابق ومعطياته ٦/١٨ ؛ ٧/٢٣ ؛ ٨/١٥-١٦-٢٠ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطياته ٩/١٣-١٤ ، ١٦ .

فكما هو بين ، تظهر «علامة» هذا العهد ، هي أيضاً ، بمثابرتها ذات طبيعة كوسمولوجية (كونية) . إضافة إلى ذلك ، نستنبط من السياق الذي انطلق منه العهدان أنها يشتركان بنقطة محورية في النصوص التوراتية ؛ تلك هي أنها يتمحوران حول حدث «فريد» يثير أقصى المواقف مأساوية وأكثرها عصفاً بـ «الراهن البائس» . فالأول منهما يأتي بعد حلول حدث هائل ، كان ثمنه أن أغرق الكون برمته ، ماعداً نوحاً وصحبه ، في طوفان قضى على الزرع والضرع . ومن ثم ، فهو يظهر على أنه نقلة كبرى من الفوضى إلى النظام ، ومن القحط إلى الخصب ، ومن البؤس إلى السعادة : إن انصياح نوح للرب في كل ما يصنع تفكيراً وعملاً ، هو الذي جعل منه ومن صحبه القوم المختارين المصطفين لديه ، والجديرين برعاية خاصة منه . وليس هنالك ما يحول دون الاستمرار بذلك العهد ، إذا خرق من الطرف الثاني (أي ذرية نوح) ، بحيث يبرز «العهد الآخر» ، من حيث هو بديل عن ذاك . ومن ثم ، فالحال وإن كان مشروطاً بأمر ما ، إلا أن شرطيته هذه ليست على عواهنها .

في تلك الوضعية المركبة ، نواجه أربع لحظات نوعية تخرقها طولاً وعرضاً ، تلك هي اللاتاريخية ، والعنف ، والفاجعية ، والنزوع إلى الهيمنة . وهذه ، ولاشك ، لحظات ذات أهمية منهجية ونظرية في استجلاء ما نحن في سبيل البحث فيه . ولما كانت هذه اللحظات قائمة في نسيج «العهد الثاني» ، الذي ستحدث عنه الآن ، فاننا سنركز مبضعنا باتجاهها ضمن السياق التالي .

إن «العهد الثاني» ، الذي يغدو العهد الأكثر حضوراً وظهوراً في الحياة اليهودية العبرانية ، يتم بين الرب يهوه وبين صفيّة الثاني ابراهيم ، الذي يقدم لنا على أنه أحد أحفاد نوح . وهنا ، أيضاً ، يحدث ما يحدث من اضطراب وتخلخل في نطاق وضع جغرافي وبشري فاجع ، هو حياة القحط الصحراوية ، التي تحيط بالبداءة وتخرقها عمقاً وسطحاً . ولذلك ، لم يكن بوسع «العهد» المعني أن يغض أطرافاً عن مسألة «البديل» ، الذي سيكون من شأنه أن يتجاوز تلك الحياة تجاوزاً إيجابياً ، بالمعنى الاقتصادي الوظيفي . وقد اختير البديل حقاً وفعلاً ؛ اختير في إحدى المناطق المجاورة الأكثر خصباً وثراءً واتساعاً ، وهي بلاد كنعان (الفلسطينية) ، حيث «يسيل اللبن والعسل» :

«بعد هذه الأمور كان كلام الرب إلى أبرام في الرؤيا قائلاً لا تخف يا أبرام
أنا ترس لك وأنا أجرك العظيم جداً»^(١) .

إن إبراهيم ، الذي أصبح لاحقاً أبرام ، بعد أن كافأه الرب بتسميته «أبا
جمهور أمم»^(٢) ، يريد أن يعرف من ربه هذا ما الذي يعنيه ذلك «الترس» على
الصعيد العملي المباشر ، إذ أن (أبرام) آمن
«بالرب فحسب له ذلك برأ»^(٣) .

واستجابة لتلك الرغبة في المعرفة ، يعلن يهوه ، بلهجة الوائق القطعي ، أنه يهبه
«هذه الأرض (كنعان) ميراثاً»^(٤) .

ولكن أبرام يلحف في السؤال دون تراجع :

«يارب بماذا أعلم أنني أرثها»^(٥) .

وإذا كان الرب قد حسم الموقف لصالح ذلك العهد ، أي لصالح شعبه الذي
«اختاره واصطفاه» ، فإنه قرر أن يكون الختان علامة تدل عليه :

«فتختنون القلفة من أبدانكم ويكون ذلك علامة عهد بيني

وبينكم . . فيكون عهدي في أبدانكم مؤبداً»^(٦) .

ويتهيئ الرب من ذلك الموقف التقريري القطعي إلى مستوى العنف ، حيث يهود
حازماً من سينقض عهده من بني شعبه :

«وأي أقلق من الذكور لم تَحْتَن القلفة من بدنه تقطع تلك النفس من شعبها إذ
قد نقض عهدي»^(٧) .

(١) نفس المصدر السابق ومعطيته ١/١٥ .

(٢) إن اسم «أبرام» هو صيغة الجمع من اسم «إبراهيم» . (انظر : عصام الدين حفني ناصف -
المسيح في مفهوم معاصر ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٧) .

(٣) الكتاب المقدس - سفر التكوين ١٥/٦ .

(٤) نفس المصدر السابق ومعطيته ١٥/٧ .

(٥) نفس المصدر السابق ومعطيته ١٥/٨ .

(٦) نفس المصدر السابق ومعطيته ١٧/١١ ، ١٣ .

(٧) نفس المصدر السابق ومعطيته ١٧/١٤ .

ذلك هو واقع الحال فيما يتصل بالعهد الثاني ؛ وهو ، كما يتضح من مساق
المعالجة ، ذو طابع بشري تنظيمي وسياسي اقتصادي . ولا ريب أنه ، بطابعه
هذا ، ينطلق من «العهد الأول» ويرتكز عليه . وإنه ، والحال كذلك ، لمن
المحتمل أن ننظر إلى العهدين كليهما من موقع واحد مشترك ، وضمن توجه يؤدي
إلى سمات متشابهة أو ، ربما كذلك ، متماثلة . ذلك الموقع وهذا التوجه يتمثلان
باللحظات الأربع التي أتينا على ذكرها فيما سبق ، وهي اللاتاريخية والعنف
والفاجعية والنزوع إلى الهيمنة . فنحن حين تحدثنا عن ظروف ومعطيات ونتائج
«العهدين» ، كنا قد واجهنا هذين الأخيرين وقد أوضحنا عن كونهما حصيلة فعل
إعجازي يتجاوز الممكن والمحتمل . أما هذا الفعل فينجزه صاحبه (يهوه الرب)
بمثابته ممتلكاً لقدرتين اثنتين عظميين : أن يكون عنيفاً صارماً وحازماً ، لا يعرف
التلكؤ في كل ما يقرره ويقدم على فعله (شديد العقاب) ؛ وأن يكون مهيمناً هيمنة
مطلقة ، لا تشاركه فيها أية قوة أخرى محتملة (لا شريك له) . وبهذه الهيمنة وذلك
العنف ، ينتزع لنفسه ، من بين جميع الأرباب الكبيرة والصغيرة ، حق الوجدانية
الفاعلة (السلطوية) ، بحيث يجد أكثر أشكال التعبير عنه وضوحاً ونضوحاً في كونه
رباً للحرب والجنود ، يقودهم وينظمهم ويدير عملياتهم ويحقق لهم الانتصارات .
وهذا ، بحق ، يجعلنا ننظر إليه بصفته الكل بالكل ؛ إنما من موقع كونه العنف
بذاته (١) .

إن «العنف» الرباني لكي يكون غير مشروط ، على عواهنه ، كان لابد وأن
يتجاوز التوضع التاريخي الشخص ، أو المحتمل أن يكون كذلك . ولذلك ،
فاللاتاريخية والعنف يجسدان ، هنا ، لحظتين حاسمتين - إلى جانب لحظتين
أخرين - في الأيديولوجيا الكهنوتية اليهودية . إذ أنه من مقتضيات الموقف الكهنوتي
اليهوي في صيغته المتزعمة ، أن يُعمى الحدث التاريخي ويغيب ، وذلك بتحويله
إلى فعل إعجازي ، خارق . وهذا ، بتعبير آخر ، انتزاع للموقف المذكور من
سياقه التاريخي (والتراثي) ، وذلك على نحو يجعل من احتمالات نشوء عنصر من
الشك والتشكيك في الموقف المعني أمراً خارجاً عن دائرته ، ومن ثم ، فهو - بدءاً

(١) «يتضح هنا مدى ... عدوانية (اله إسرائيل) وشغفه بالحرب وسفك الدماء ...» .
(غاستون بوتول وآخرون : الحروب والحضارات - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٤٣) .

وأساساً - مدانٌ مرفوض . وتنفيذ فعل الإدانة هذه بشكل أو بآخر (بطريقة جسدية أو اجتماعية أو أخلاقية تشهيرية) ، يظهر وكأنه تحصيل حاصل لما يبدو حقاً في أيدي الكهنوت لامتلاك أقدسية العنف السلطوي .

ان ما يتضح من ذلك كله يتمثل ، بالنسبة إلينا ، بعنصر ذي أهمية منهجية عقدية على صعيد البحث التاريخي في نصوص «العهد العتيق» ، ألا وهو أننا لا نستطيع إنجاز مثل هذا البحث في ضوء المنطلقات «التاريخية» لأسفار ذلك العهد . فهذه المنطلقات ليس بمتسعهما ، من حيث الأساس الأولي الذي يقتضيه الموقف التاريخي النقدي ، أن تستجيب للشروط الأولية لذلك البحث ، أو أن تصوغها على سبيل الافتراض . إنها لا تستطيع القيام بذلك لأسباب ربما تكون كثيرة متعددة . لكننا لا نستطيع أن نغفل ما نراه أساسياً ضمنها ، وهو ذلك المتمثل بالتالية : أولها يكمن في أن الأسفار المعنية تخلط خلطاً مثيراً ، وعبر القدرة الاختزالية للرب ، بين الأزمنة التاريخية؛ وثانيها يقوم على انتزاع الأحداث التاريخية من اسبققتها المشخصة التي تجد تجسدها فيها وعبرها ؛ أما ثالثها فيتمثل بمنح الحدث الديني الأيديولوجي قدرة اعجازية خارقة ، بحيث يغدو خارج الضبط البشري ومتنعاً عليه ؛ في حين ان السبب الرابع منها ينهض على كون تلك الأسفار «تؤرخ» لوقائع عديدة بل هائلة ، ما يمكن أن يكون قد حدث منها فعلاً حدث قبل ذلك بأزمنة مديدة طويلة ، مما يحول - والحال كذلك - دون الوصول إلى الأحداث بعينها ، أي في تموضعها التاريخي ؛ يبقى السبب الخامس ، الذي نراه هاماً ومثيراً لكثير من أوجه التعقيد والاستحالة في البحث بأسفار «العهد العتيق» ، وهو ذلك الذي يعلن عن نفسه من خلال امتزاج الموقف التاريخي بالموقف التراثي وامتزاج الحدث التاريخي بالحدث التراثي ، بحيث يؤدي ذلك إلى اضطراب الوضع ، وإلى قلق الحقيقتين التاريخية والتراثية ، على حد سواء . (ويبدو أن مثل هذه الحالة نواجهها في معظم حقول البحث في التاريخ الديني للأديان عامة ، ومن ضمنها «الأديان السماوية» ، مما يدعو الباحث إلى التبصر بشكل مضطرب ويقظ في ما يبحث فيه من «مادة بحث تاريخية أو تراثية»^(١) .

(١) حين يكون الأمر المطروح على هذا النسق المركب ، يغدو من اللازم أن يميز الباحث المؤرخ بين قضيتين اثنتين متضايفتين ، الأولى منها تتصل بالوثائق الكتابية التي نشأت أسفار العهد العتيق

هكذا ، إذن ، يغدو البحث التاريخي في «العهد العتيق» إياه ، وبأحد المعاني الرئيسية البارزة لهذا البحث ، دعوة مبدئية للانطلاق من مواقع الشك المنهجي الضروري والمسوّغ في ما صنعه الكهنوت اليهودي العبراني القيادي على صعيد تثبيته (العهد العتيق) ، وتكريسه ، وإظهاره بمظهر الحقيقة المطلقة والمنسجمة مع ذاتها ومع الأحداث التي تتكلم عنها وتخبّر . فكأننا ، والحال كذلك ، إزاء مهمة جديدة ودقيقة تكمن في العمل على إعادة بناء الموقف الاشكالي في نصوص الكتاب المعني ، وذلك بحيث تغدو البنية الداخلية لهذه النصوص هدف بحث يضعنا أمام سياقها التاريخي والتراثي . وكما هو بينّ ، فإن عملاً مثل هذا لا بد وأن يعني دعوة الى انجاز أمر على غاية الأهمية والخطورة المنهجية النظرية ، وكذلك الحساسية الايديولوجية الدينية والأخلاقية والسياسية ؛ وذلك نظراً لما أثاره ويشره «العهد» المذكور من قضايا تاريخية وتراثية ضخمة ، وكذلك نظراً لخصوصية الصعوبات الكبرى التي تعترض البحث المومي إليه ، وتخرقه عمقاً وسطحاً منذ قرون طويلة من الزمن وبكل اتجاهات النظر والبحث .

وجدير بالاشارة المعمقة إلى أننا إذ نواجه مثل تلك القضايا الملحة والمعقدة ، في حين واحد ، ونحاول معالجتها بالمستوى المعلن عنه ، فإننا نجد أنفسنا وقد غدونا وجهاً لوجه أمام إحدى الخصائص الرئيسية الحاسمة لـ «الوعي اليهودي اليهودي» . فهذا الأخير يبرز ويُفصح عن نفسه بمثابته وعياً موحداً ومركباً. أما أن يكون موحداً ، فذلك لأنه ينطلق من طموح الكهنوت اليهودي العلي لجعل وعيه (ذهنيته العامة) وعياً شمولياً بالمعنى الايديولوجي الديني الاخلاقي أولاً ، وملزماً بصورة وثوقية قطعية لكل الأنساق الاجتماعية القائمة ضمن التجمع اليهودي

= على أساسها وصيغت من مواقعها في أما القضية الثانية فتنهض على تحديد مدى التزام بين أحداث التوراة مع الأحداث التاريخية ، التي تعلن تلك الأسفار (زعماً أو حقيقة) أنها تؤرخ لها أو تعبر عنها . القضية الأولى هي الأقل إشكالية وتعقيداً ، في حين أن الثانية تثير مشاكل تاريخية وتراثية جمة وغير متكافئة في الأهمية . ومن هنا ، يعلن المؤرخ بصورة مشروعة بأن تلك «الوثائق» هي التي نسأل عنها ، وليس عن تزامن أحداث التوراة مع تزامن أحداث تاريخية أخرى ؛ لأن في التوراة أحداثاً تتزامن مع الثاني وربما مع (آدم) . (قاسم طوير : ندوة التوراة والتراث - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٩٠) .

العبراني ثانياً . ومن ثم ، فهو - هنا - وعي مهيمن ، ووعي الهيمنة الاجتماعية والذهنية ، في آن واحد . وحيث يكون ذا طابع تركيبي ، فإنه يدلّ على أن الكهنوت المعني ماكان في قدرته أن يجعل من وعيه ذاك وعياً شمولياً و كلياً ، على نحو كامل . فقد كان عليه أن يصطدم بوعي «الآخرين» من اليهود العبرانيين أنفسهم . فهؤلاء لم يكونوا فقط في المستوى الذي أتاح لهم أن يكونوا بعض معالم وعي خاص بهم ذي صبغ ذهنية محددة ؛ لقد استطاعوا ، كذلك أن يمنحوا هذا الوعي أشكالاً مضبوطة من التجلي العملي التطبيقي ، تمثلت في حينه بالعملية الأكثر أهمية وحضوراً ، وهي الاندماج بـ «الغوييم» الكنعاني (وربما كذلك الانصهار) ، أو على الأقل ، النزوع لتحقيق هذا الاندماج .

وإذا كان أولئك «الآخرون» من اليهود المندمجين قد كوّنوا ، حقاً ، لحظة أساسية من لحظات وعيهم الخاص ، المنفصل نسبياً عن الوعي الكهنوتي اليهودي ذي البعد النزاع إلى الشمولية ، فإنهم ظهروا - والحال على النحو المعلن - بمشابهم وضعية اجتماعية وذهنية (وعينية) ذات بعدين أو جناحين اثنين . البعد الأول يتجه نحو الداخل (اليهودي) : وهنا ، يعلن المندمجون عن أصولهم اللاتنية الأقوامية ، التي لم يفقدوها تماماً ، سواء أكان ذلك بفعل قصدي انطلق منهم أو من ملاحقهم من الكهنة المتنفذين ، أو بفعل الاستمرارية التراثية في التقاليد . أما البعد الثاني فيتجه إلى الخارج (الكنعاني وغيره) ، الذي يعبر عنه طموح أولئك بالاندماج بشعوب المنطقة (خصوصاً الكنعاني منها) ، معلنين عبر ذلك عن موقفين ، موقف الرفض والادانة والممانعة من قبل القيمين عليهم من الكهنوت ، وموقف اكتساب خصائص تلك الشعوب ، بحيث يصبح ما كان «خارجاً» «داخلياً» أو أحد أوجهه المحتملة وتوجهاته النازعة إلى التحقق ، على الأقل .

هاهنا بالضبط ، نسجل حدّاً ما من الميل باتجاه نشوء وتبلور لحظة فاعلة من الوعي التاريخي والتراثي ، المغاير لذلك الذي يسم الوضعية اليهودية والمناهض لها ، بدرجة أو أخرى، في آن واحد . وبصيغة ثانية محتملة ينبغي القول، ان سقوط أو هُزال اللحظة اللاتاريخية المحددة للوعي اليهودي كان لابد وأن يمر على طريق عملية اندماج فصائل من اليهود بالشعوب الأخرى المحيطة بهم ، ومن ثم على طريق انطلاق وعي يهودي آخر، في وجهه البنيوي الرئيسي - وعي زراعي دنيوي منفتح ودي

ميل ما للتجلي بالوعي الجديد ، ووعي «الغوييم» . وإذا كان الأمر كذلك ، هل لنا أن نقول بأن الوعي اليهودي العبراني ، في بواكيره ولواحقه ، كان - في بنيته الداخلية وآلية تكونه الخاصة - مشروطاً بفعل الوعي الآخر ، ووعي الشعوب المحيطة باليهود العبرانيين ، خصوصاً ، أو على الأقل مع بدايات تاريخهم بالنسبة الى الكنعانيين في فلسطين ؟ إننا نميل ميلاً شديداً إلى هذه النتيجة ، التي نرى فيها تحديداً وضبطاً للعلاقة بين «الداخل» و«الخارج» ، وبين «الذات» و«الموضوع» ، على صعيد الوجود التاريخي والتراثي لأولئك اليهود العبرانيين .

ولكننا وقد وصلنا الى ذلك المنعطف الدقيق من تحديد مقولة «الوعي اليهودي العبراني» ، نغدو أمام ضرورة صوغ مسألتين من مسائل هذا الوعي المعرف له والناظمة .

المسألة الأولى هي تلك التي تعبر عن الآلية البنيوية الداخلية لذلك الأخير : وهنا يصح أن نقول على سبيل التعريف البنيوي المنطقي ان هذا الوعي هو ووعي يقوم على التناقض والثنائية ، اللتين تنتهيان الى حد من الوحدة في حال التحاق المندمجين بالمندمج بهم التحاقاً يصب في الانصهار أو في ما يقترب منه . وهنا ، من هذا الموقع بالضبط ، كانت الاحتمالات دائماً قائمة ومفتوحة لتولد أشكال معقدة ومضطربة من المواقف الفاجعية ، التي غالباً ما كانت تنتهي الى مواقف فاجعية أخرى . ولعل هذا الأمر يسمح لنا بتحميل ووعي التناقض والثنائية ذاك بعداً من أبعاد الغربة والاغتراب ازاء ما كان يحيط به من أحداث . وهذا ، بدوره ، يكشف عن أن الوعي المذكور كان في حالة من الحمل الدائم المستعصي ، والذي لم يقدر يوماً إلى ولادة تامة ، وإنما كان ينتهي بولادة قيصرية ، ليعاود الطريق ثانية بالأم مخاض جديدة وعسر واضطراب متلاحقين . وبذلك ، يغدو متاحاً لنا أن نرى في الوعي اياه ، أيضاً ، وعياً فاجعياً مستعصياً .

المسألة الثانية تتضح في أن بحثنا بوعي التناقض والثنائية المشار إليه قادنا إلى اكتشاف أحد أوجه الخلفية البعيدة لانجهاات المعارضة والمقاومة المفصح عنها ، أو التي لم تخرج عن طور التقية في أوساط اليهود العبرانيين .

ذلك أنه من خصوصيات الموقف ، على هذا الصعيد ، أن تنشأ المعارضة

والمقاومة المذكورتان ضمن شرطين اثنين متبادلين تبادلاً تضافياً ، الداخلي (خصوصة الى حد الصراع السياسي والمسلح بين الفرقاء اليهود العبرانيين على أساس مصالح اقتصادية وسياسية ودينية) ؛ والخارجي (فعل الاندماج بالشعوب المحيطة) . بل ربما نستطيع القول ، انه غالباً ما كان للشرط الخارجي الدور الأكثر حضوراً وفاعلية وحساً^(١) . وهذا كله ومجتمعاً سنلاحظ أنه سيمارس فعلاً ملحوظاً في سير التطورات اللاحقة والمتلاحقة ، التي ستتقاطع مع الحدث التالي الكبير ، الذي هو نشوء المسيحية اليسوعية ، خصوصاً الصيغة البولسية منها .

ولا بد من القول بعد إذ بلغنا ما بلغناه من تحديد للسمات الرئيسية لـ «الوعي اليهودي» ، ان نصوص «العهد العتيق» تشكل - بالحدود التي أتينا عليها وبالصيغة اللاهوتية والاسطورية المرمزة والمضمّنة في الحالات العديدة التي تبرز فيها - مادة «وثيقة» للتمكن من الوصول الى اكتشاف دالاتها ومتوازياتها التساريخية المشخصة .

والآن ، إذا انطلقنا من أن «العهد العتيق» سُجل على مدى مراحل طويلة من الزمن ، فإن سؤالين اثنين يبرزان بل يلحان على البروز ضمن هذا الصعيد : كيف كانت الوضعية قبل الإقدام على تسجيله من قبل مجموعة كبيرة أو صغيرة من الكتّاب أولاً ، وهل بمسئطاعتنا أن نحدد البدء التاريخي بتسجيله ثانياً ؟ إنها سؤالان أوليان تتوقف على الاجابة عنهما ، باتجاه ما وبأفق ما ، جملة من المسائل والمشكلات ، التي تعترضنا أثناء البحث في البنية الاجتماعية والذهنية (الايديولوجية) للتشكلات اليهودية العبرانية .

والحق ، ان ما يتصل بالسؤال الأول لا نلاحظ أنه يخرج - في أساس الموقف وإجماله - عن معظم النصوص التي تتصل بالاسطورة والدين في مراحل عديدة من

(١) يبدو أن الصهيونية الحديثة والمعاصرة استفادت من هذه الوضعية ، حيث وصلت الى اطروحتها الشهيرة : السامية (اليهودية العبرانية) مشروطة بالاسامية ، أي بالعداء للسامية ممثلاً - حسب الاتجاه المذكور - بما لا يندرج في دائرة اليهودي السامي (والتشديد هنا على السامي اليهودي مستنبط من حيثيات تلك الأطروحة) .

التاريخ البشري . فهذه وتلك (أي النصوص الاسطورية والدينية السابقة على التوراة ثم النصوص التوراتية هذه) لم تجذ الأحداث التي تُعلم عنها تعبيرها الكتابي مباشرة مع ظهور هذه الأحداث وبروزها . كانت هنالك مرحلة طويلة كثيراً أو قليلاً ظلت فيها الأحداث المعنية بعيدة عن أن تصاغ بنصوص كتابية مضبوطة ومحددة ، بل بقيت تعبر عن نفسها بالروايات الشفهية التي كان يجري تناقلها من جيل إلى آخر . ونرى أن أحد أسباب ذلك يكمن - في غالب الظن - بعدم نشوء الكتابة حتى ذلك الحين أو ، على الأقل ، في عدم انتشارها عمقاً وسطحاً وعلى نحو يسمح باستخدامها طريقة نظامية لتوثيق وضبط الأحداث الاجتماعية والاقتصادية والطبيعية وغيرها . ومن المعروف أن الكتابة ظهرت في مراحل ليست موعلة في القدم ، بالقياس إلى عمر التاريخ الانساني ؛ فظلت ، والحال كذلك ، متخلفة عن الحدث «الذهني» الكبير ، الذي ظهر في فترة ليست متأخرة كثيراً عن ظهور الانسان العاقل Homo sapien ، ألا وهو اللغة .

ان تلك المرحلة الانتقالية فيما بين نشوء اللغة - حتى الأشكال الأكثر بساطة وبدئية منها - وبين استحداث الكتابة بحرف ما وبأدوات تقنية ما ، هي التي كانت ، في واقع الحال ، الزمن التاريخي الذي ظلت فيه الأحداث البشرية والطبيعة منفصلة من الضبط والتسجيل الكتابيين ؛ وبالتالي ، فإنه صحيح أن نعتبر هذا الزمن بمثابة حجر الزاوية لـ «النقل الشفهي» . ولعلنا نخولون بأن نفهم هذا الأخير تراثياً ، أي من موقع ما يسمى في الأدبيات الاسلامية لاحقاً بـ «العنونة» . فقد أريد لهذه الأخيرة - أيّاً كانت درجة المصداقية التاريخية والتراثية التي تنطوي عليها - أن تكون ذاكرة البشرية إزاء ما يُلم بها وبالطبيعة من أحداث كبرى أو صغرى ؛ تنقل التجربة البشرية من جيل إلى آخر ، مسهمة بذلك في توسيع هذه التجربة وفي المحافظة عليها . وهي (العنونة) تدخل - في معناها وتوجهها هذين - في نطاق «الوعي الاجتماعي» .

بيد أن «العنونة» وإن ظهرت - في صيغتها الاسلامية - بأشكال متقدمة افتراض فيها الاهتمام المركز بعناصر الدقة والمصداقية الى درجة تحولت فيها عملية التوثيق إلى واحد من المطالب الكبرى لمن عني بها بحثاً وتقصيًّا ، فإنها (في أشكالها

الأولى التي نحن بصدد الحديث عنها الآن) مارست وظيفة أخرى متميزة تستحق الانتباه على صعيد المسألة المطروحة . فلقد كونت أحد أوجه المحافظة الذهنية على عملية التبيؤ البيولوجي والاقتصادي والسيكولوجي مع المحيط الطبيعي والاجتماعي . وهي ، إلى ذلك وإضافة إليه ، ظهرت (العننة) - عموماً - كموقف جماعي اشترك في صوغه وتناوله ونشره الشعب بكامله ، بعشائره وقبائله وأسرته وتكوناته الطبقية الأولى . ولعلنا نقول ، بمزيد من التحديد والضبط التاريخي والبنوي ، ان السحر وشطراً من الاسطورة (في مراحلها الأولى) شكلا المثنى من العننة ، أي المنقول الشفهي الملخص للأحداث ، وكذلك المعبر عنها . فلقد جرى تثبيت وضبط كثير من المراسيم والأعراف والطقوس والرقى والتعاويذ عن طريقها ، وكذلك كثير من الصلوات والتمنّات . وهذا يضع أيدينا على إحدى أهم الأبنية التي وصلتنا عبرها تلك المواقف السحرية والاسطورية في مراحل متأخرة من التاريخ .

وإذا كان الأمر قد سار على ذلك النحو ، فقد واجهنا وضعاً نموذجياً في تلك المراحل وعلى صعيد التوضع الزماني للأحداث التاريخية والتراثية : لقد اختلطت الأزمنة ، واختلطت الأحداث ، واختلطت أسيقة السرد للأحداث ؛ فظهر ذلك عبر الطريقة أو الطرق التي تم فيها تقديمها وتفسيرها وتمثلها (فهمها) . بتعبير آخر وكما سيقول المرء لاحقاً ، اختلط الموقف التاريخي بالموقف التراثي ، فكان أن اضطرب الموقفان كلاهما في أذهان السحرة وكتبه الأساطير ، التي وصلتنا كاملة أو منقوصة ، بحيث أن الباحث المؤرخ المعاصر يجد نفسه أمام أكثر أشكال التعبير السحري والاسطوري والديني تعقيداً وتضميناً وترميزاً ، وكذلك غموضاً .

تلك كانت الوضعية التاريخية والتراثية ، التي يرجح أنها كانت المرحلة التي سبقت عملية تسجيل الأسفار الأولى من العهد العتيق ، أي الأسفار الخمسة الأولى (التوراة) ، أو ما سيعرف لاحقاً تحت اسم Pentateuque . وهذا نستطيع أن نفهمه - في حدوده المنطقية التاريخية الأولى - بمعنى أن المرحلة البعيدة المذكورة هي التي قدمت «المادة الشفهية» الأولى ، التي ستنتقل منها لاحقاً عمليات التحرير والتسجيل الكتابية للعهد المعني . على هذا الأساس ومن موقع التبصر في عملية التحول من «الشفهي» إلى «الكتابي» ، يمكننا أن نصل إلى فكرة ذات خطورة منهجية

في فهم الصيغة الكتابية للعهد العتيق ، وهي أن «المادة الشفهية» إذ عمل على تسجيلها وضبطها لغة ، كان عليها أن تفقد الكثير من شخصيتها «الأصلية» لصالح غط الفهم والتمثل والصوغ اللغوي ، الذي أنجزه الكتبة إزاءها في مراحل تاريخية متعددة ومتعاقبة . هاهنا وعلى ذلك الطريق ، كان على «الحدث» أن يفقد «حقيقته» - بدرجة أو بأخرى ومبجى أو بآخر - مرتين ، مرة في مرحلة التناقل الشفهي المتعدد والمتنوع والمديد (العننة) ، ومرة أخرى في مرحلة صوغه كتابة بأقلام متناوبة تاريخياً ومتباينة أو متناقضة ومتصارعة اجتماعياً . وعلى ذلك ، لا بد وأن يبدو مقبولاً ومفهوماً أنه من الخطأ التاريخي التراثي والمنهجي النظري أن يمنح الباحث ثقته جزافاً ودون تحفظ وحذر لما وصل إليه من نصوص تم إنجازها في مجموعة من الحكايات السحرية والأساطير والكتب الدينية (المقدسة) .

ان ذلك - مأخوذاً بمجمله ومجموعه - يوصى الى واحدة من الإشكاليات الكبرى ، التي تعترض الباحث في «العهد العتيق» ، وفيما يناظره من نصوص دينية وغير دينية . وإذا ما صدقنا ما يرويه هذا «العهد» من أحداث هائلة ومتشعبة ، وانطلقنا من أنه يمتلك مصداقيته التاريخية والتراثية - وهو أمر يجب أن نتحفظ عليه تحفظاً شديداً ودقيقاً - أمكننا أن نورد ما كتبه ، في هذا السياق المترع بالحراجة المنهجية النظرية ، Edmond Jacob في كتابه «العهد القديم - العتيق» : «يحتمل أن ما يرويه العهد القديم عن موسى والآباء الأولين لا يتفق إلا بشكل تقريبي مع المجرى التاريخي للأحداث . ولكن الرواة كانوا يعرفون ، حتى في (مرحلة) النقل الشفهي ، كيف يضيفون الأناقة والخيال حتى يربطوا بين أحداث شديدة التنوع»^(١) .

بيد أن الرأي الخاص باختلاط الأزمنة والأحداث والتاريخ والتراث في مرحلتي النقل الشفهي والتسجيل الكتابي لنصوص «العهد العتيق» وإن قاد إلى الإقرار بضياح أو - لنقل على الأقل - باضطراب «حقيقة» الأحداث التي يدور عليها القول ، فإن أمراً أساسياً وذا بال ، في هذا الحقل «الملغم» ، يبقى قائماً ويعبر عن

(١) موريس بوكاي : دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢١ .

نفسه بدلالات وقرائن تاريخية وتراثية ؛ ذلك هو ان جماع الموقف في تلك النصوص ينطوي - بصيغة رمزية غالباً - على ايجاءات واشارات ضمنية ، على الأقل ، تحيلنا إلى «الحقيقة الضائعة أو المضطربة» . ومن هنا ، كانت ضرورة النظر في البحث بنصوص العهد العتيق على أنه بحث في النص وفي ما قبله وفي ما بعده ، أي فيه وفيما ينطوي عليه ، مباشرة وعلى نحو غير مباشر ، من مثل تلك الايجاءات والاشارات التاريخية والتراثية . ونحن من طرفنا ، نطلق على هذا النسق من البحث «القراءة المركبة» للنص المعني ، الذي يمثل موضوع البحث ومنطلقه .

ان وصولنا الى تحديد نتيجة المسألة المطروحة على أنها ، أساساً ، مسألة قراءة مركبة للنص المدروس ، يجعل من هذا الأخير موضوعاً قابلاً ، على سبيل الاحتمال ، للمعالجة من عدة مداخل تتمم بعضها بعضاً وتخترق بعضها بعضاً . بيد أنه ينبغي التنويه بأن من خصائص هذه القراءة أن يُنطلق منها وفيها عبر جدلية «البعيد - ويعني هنا مرحلة النقل الشفهي» و «القريب - ويتحدد بمرحلة التسجيل الكتابي» : ان ماهو - في سياق أول - بعيد ، يغدو - في سياق آخر - قريباً . ولهذا الجدلية دلالة خاصة بالنسبة للملاحقة النص في تجليه التاريخي وفي تحوله الى النص في امتداده وتواصله التراثي ؛ ومن ثم ، فإن هذه الجدلية حين تُهمل ، فإنه ، إذ ذاك ، يُفَرِّطُ بالقدرة على تقصي النص ذاته، حيث يظهر كما لو أنه ذو بنية واحدة ينصهر فيها التاريخي بالتراثي والتراثي بالتاريخي ، وحيث يظهر كما لو أنه ذو بنية منشطرة بمنحيتين ، واحد تاريخي وآخر تراثي .

ان دراسة «العهد العتيق» في ضوء ذلك الموقع التنبهجي الجدلي لا يسمح باكتشاف بنيته الناجزة فقط ، بل يقدم - كذلك - مفاتيح ملاحقته ضمن عملية تكونه وسيرورته ، وافتراضات أولية مدعمة باتجاه العلاقات القائمة بينه وبين نظرائه من النصوص الدينية وغيرها .



هزال الحدث التاريخي بتغييبه عبر الحدث التراثي

يفترض بعض الباحثين ^(١) - من موقع بعض الأسباب والعوامل - ان اليهود العبرانيين بدأوا باستخدام الكتابة لحفظ انتاجهم الذهني ونقله إلى أجيال لاحقة منهم ، بعد أن كانوا قد تمكنوا من تحقيق استقرارهم جغرافياً واقتصادياً في كنعان (فلسطين) ، أي في نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد . ومن الأهمية بمكان أن نشير ، من طرف آخر ، إلى أنهم حين دخلوا البلد المذكور ، كانوا بدواً أميين . وحيث أقاموا هنا وتبنوا بعض أشكال الانتاج الزراعي والحياة الاجتماعية القائمة (دون أن يعني ذلك اندماجاً إلا بحدود عامة وأولية بسكان البلد الجديد) ، تعلموا الكتابة الكنعانية وكتبوا بالحرف الكنعاني ^(٢) . وعلى صعيد المكتشفات الأثرية ، ظهر أن نقش السلوان ، الذي يعترف العلماء بأنه أقدم كتابة بالعبرية ، مكتوب بالقلم العبري القديم ، الذي يقترب في هجائه من النقوش الكنعانية ^(٣)

وبطبيعة الحال ، لا يترتب بالضرورة على الأخذ بهذا الافتراض أن يُعتقد بأنه وجدت ، في حينه ، إمكانيات مسمحت بالقيام بتسجيل دقيق أو ما يقترب منه لذلك الانتاج . فالدخول في مرحلة الكتابة لدى اليهود العبرانيين لم يكن ليُعني قطيعة كلية مع مرحلة النقل الشفهي للانتاج المذكور ؛ بل ان هذه الأخيرة استمرت فاعلة نشطة في تلك لمدة وصلت إلى قرنين من الزمن ، أي إلى القرن الحادي عشر قبل

(١) انظر المرجع السابق بمعطياته المذكورة ، ص ٢١

(٢) انظر : حرب فرزات - ندوة التوراة والتراث ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٩٢ .

(٣) انظر : اسرائيل ولفنسون - تاريخ اللغات السامية ، مصر ١٩٢٩ ، ص ٨٣ .

الميلاد ، أي إلى حيث يمكن ارجاع المدونات الأولى من أسفار العهد القديم ^(١) .
وجدير بالذكر أنه في هذا القرن أيضاً تأسست المملكة الاسرائيلية ، التي أرسيت
فيها دعائم هيئة الكتبة العليا بمثابرتها المؤسسة الثقافية (الدينية) الرسمية ، التي نيّطت
بها مهمة المحافظة على نصوص العهد العتيق . أما تلك المدونات الأولى فقد تكونت
من أناشيد متعددة ، ومن نبوءات يعقوب وموسى ، والوصايا العشر ، والنصوص
التشريعية . وقد أدخلت هذه المدونات جميعها في متن العهد العتيق على نحو متفرق
من فصوله وأسفاره .

وفي مرحلة لاحقة يفترض أنها في بدايات الألف الأول قبل الميلاد ، القرن
العاشر ، أو ربما - بترجيح أكبر - في القرن التاسع ^(٢) ، يتم تدوين «الرواية
اليهودية» . وهذه الرواية هي التي مثلت ، لاحقاً ، البناء الهيكل الرئيسي للأسفار

(١) انظر حول ذلك : موريس بوكاي - دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ، نفس
المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٣ . إلا أن هنالك رأياً آخر جديراً بالتمعن ، يعلن أصحابه «أن
أقدم الكتابات اليهودية القديمة تعود إلى القرن التاسع قبل الميلاد ، وهي مكتوبة بأبجدية لا تختلف
بأي شيء عن الأبجدية الفينيقية» . تاريخ العالم - أكاديمية العلوم السوفيتية ، نفس المعطيات
المقدمة سابقاً ، ص ٤٩١ .

(٢) انظر حول ذلك : موريس بوكاي - دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ، نفس
المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٣، ٢٨ .

وإذا أخذنا هذه المعطيات وغيرها مما يتصل بتحديد المراحل الأولى لكتابة النصوص
التوراتية ، كما طرحها جمع من الباحثين (مثلاً : ول ديورانت - قصة الحضارة ، نفس المعطيات
المقدمة سابقاً ، ص ٣٦٨-٣٦٩ ، أحمد سوسة - العرب واليهود في التاريخ ، نفس المعطيات
المقدمة سابقاً ، ص ٣٣٨ ؛ حرب فرزات - ندوة التوراة والتراث ، نفس المعطيات المقدمة
سابقاً ، ص ٨٣) وجدنا أن ما يعلنه جمع آخر من الباحثين على صعيد هذه المسألة ، يثير الكثير من
التساؤل . فمحمد محفل يكتب حول ذلك ، دمجاً بداية الكتابة التوراتية بكتابة الطبعة السبعينية
وماتلاها من طبعات للتوراة : «لا يمكننا اعتماد القول ببداية كتابة التوراة بدءاً من الألف الأول قبل
الميلاد كوثيقة ، لعدم وجود مثل هذه الوثيقة . لدينا الطبعة السبعينية ، ثم تأتينا الطبعة (البشيطلة)
بالسريانية ، وتأتينا الطبعة (الفولقاطة) باللاتينية . وتواريخ هذه الطبعات كما هو مفترض
بمنتصف القرن الثالث من ٢٥٠-١٥٠ ق.م بالنسبة للسبعينية ...» (محمد محفل : المرجع
الآخر مع معطياته ، ص ٨٦) .

فالتبعة السبعينية المذكورة هي ، كما هو معروف ، ترجمة يونانية للتوراة تقرر «منذ القرن :

الخمسة الأولى من التوراة ، أي ما يعرف بأسفار موسى الخمسة . وظاهر أن إطلاق تعبير «يهوية» على تلك الرواية مشتق من اسم الرب «يهوه» ، الذي هيمن وبرز فوق كل الأرباب لدى محري هذه الوثيقة .

وبعد مرحلة ليست طويلة ، تكونت رواية أخرى تحت اسم «الرواية الألوهيمية» ، أضيفت إلى الأولى ، لتمثلاً معاً نصّين متمايزين من حيث التسمية الإلهية ، وموجودين في سفر التكوين ، أي في السفر الأول من أسفار موسى الخمسة . فبدلاً من يهوه ، نواجه هنا «الوهميم» . ولعل هذا الاسم هو اسم جمع وليس اسماً مفرداً ، بحسب رأي بعض الباحثين ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل . وإذا ما وضعنا في اعتبارنا أن هذه الرواية الألوهيمية نفسها تنقسم ، بدورها ، إلى قسمين ، ظهرت أمامنا ، بوضوح ، إمكانية تفتيت الأسفار الموسوية الخمسة وتجزئتها ، وذلك على نحو ينفي عنها تصور الوحدة النصّية المنطقية والدينية .

تظهر بعد ذلك - في القرن الثامن قبل الميلاد - على رأي بعض الباحثين ، أو في القرن السابع قبل الميلاد ، بحسب البعض الآخر منهم - وثيقة ثالثة ، هي «سفر التثنية» ، الذي يعتبر أحد أسفار التوراة الخمسة . وتستمر عملية التدوين ومعها ، كذلك ، عملية التفتيت والتجزئة للنصوص ، حيث نواجه نصاً رابعاً للتوراة ، يدعى بـ «النص الكهنوتي» . أما مرحلة تكونه فيعتقد أنها تعود إلى القرن السادس قبل الميلاد ، أي إلى وقت النفي والتشتت ، أو ما بعده .

وقد ظهر لاحقاً أن المسألة الخاصة بمصادر التوراة - أسفار موسى الخمسة - أكثر تركيباً وتعقيداً واتساعاً مما كان معتقداً لدى جل الباحثين التوراتيين ^(١) . «فني

الثالث بعد الميلاد فقط أن تحرر بالعبرية . . تلك الترجمة اليهودية التي ظلت حتى ذلك الوقت مصوغة باللغة العربية - الآرامية» . (بيروسي : مدينة إيزيس التاريخ الحقيقي للعرب - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢١-٢٢) .

(١) حين يتضح أن هذه المسألة تُفضي - عبر مزيد من تفحصها وتفصيلها - إلى مواقف ووضعيات أكثر تركيباً وتعقيداً واتساعاً ، فإن ذلك لا يخرج عن طبائع البحث العلمي التاريخي والتراثي . ولاشك أن الإقرار بمثل هذا الرأي لا يمكن أن يقود إلى التشكيك في قيمة ما ينجز على صعيد البحث المعني ؛ كما لا يستطيع أن يؤدي إلى «تعليق» مسألة التأريخ لكتابة أسفار العهد العتيق» . وعلى هذا ، فحين يعلن البعض - بالرغم من ذلك - عن الشك في قيمة ذلك البحث

١٩٤١ استطاع أ. لودز A.Lods أن يميز في الوثيقة اليهودية ثلاثة مصادر ، وفي الوثيقة الإلهيمية أربعة ، وفي سفر التثنية ستة ، وفي النص الكهنوتي تسعة ، وهذا (دون حساب الإضافات الموزعة بين ثمانية محررين) ، كما يقول الأب ديفو . ومنذ فترة أكثر قرباً وصل التفكير إلى (أن كثيراً من نواميس أو قوانين أسفار موسى الخمسة كان لها ما يوازيها خارج التوراة وفي فترة تسبق بكثير التاريخ المنسوب إلى هذه الوثائق) ، وإن (عددًا من روايات أسفار موسى الخمسة يفترض وجود مصدر آخر أكثر قدماً من ذلك الذي يفترض أن هذه الوثائق قد خرجت منه) (١) .

إذا كان الأمر ، إذن ، على هذا النحو المركب والمعقد فعلاً ، فإنه تبرز أمامنا ، على التو ، مجموعة من النتائج ذات الدلالات الكبرى والغنية بالآفاق البحثية بالنسبة إلى قضية الأصول التاريخية والتراثية للتوراة ، وللعهد العتيق بصورة عامة . تلك النتائج نستطيع أن نصوغها كما يلي :

١ - أن نصوص أسفار العهد العتيق - الماثلة أمامنا بأشكالها الحالية والتي قد لا نسمح لأنفسنا بوصفها بـ «الناجزة» انطلاقاً مما قد يحدث على صعيد إدخال إضافات أو تعديلات جديدة عليها - تمثل صيغة ملققة عن مجموعة من النصوص المتعددة الأصول والمناحي ، والمتنوعة بكتبتها وبالمعلقين والشرح عليها وبالمفسرين لها ؛

٢ - «الحقيقة» ، التي تطمح تلك الأسفار إلى تقديمها ، تقدم نفسها ، بوضوح ، على أنها - على الأقل - ذات شخصية مركبة ، ومن ثم ، فإن القول بأن

على نحو كلي ، واصلًا إلى حدود المطالبة بتعليقه ، فإنه من المحتمل أن يكون قد انطلق ، في موقفه التشكيكي ، من أن تلك الأسفار تشكل كتاباً «مؤخداً» ارتبطت به «الامة» اليهودية منذ نشأتها ، وارتبط هو بها . (انظر مثل هذا الرأي لدى اسبيروجبور في رد له على ندوة التوراة والتراث - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، حيث يكتب على الصفحة ١٩٦ مايلي : «أما مسألة تواريخ كتابة أسفار العهد القديم ، فبعد أكثر من ٢٠٠٠ - ٣٣٠٠ سنة ، لا يبقى لنا سوى تركيب النظريات حول الكتب والتواريخ والمقارنات الأدبية والتاريخية . انما الحقيقة الثابتة هي أن العهد القديم هو كتاب أمة ارتبطت به منذ نشأتها حوله يوماً بعد يوم»).

(١) موريس بوكاي : دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٩ .

هذه الأخيرة تنطوي على مصداقية (بمعنى التماسك المنطقي الداخلي) ومصداقية نظرية معرفية تاريخية (بمعنى أداء الحدود الضرورية من التطابق النظري المعرفي التاريخي بين نصوص العهد العتيق من طرف والأحداث والوقائع والأسئلة التاريخية التي تتحدث عنها) ، يمثل وهماً ايديولوجياً نيطت به وظيفة محددة من قبل الكهنوت اليهودي ؛

٣ - ان نصوص العهد العتيق الماثلة أمامنا بأشكالها الحالية تقدم ، في شخصها نفسه وفي مجمل الأمر وأساسيته ، موقفاً تراثياً ، قبل أن تكون ممثلة لموقف تاريخي . ذلك لأن هذا الأخير يجري تغييبه في النصوص المعنية لصالح عملية متصلة ومضطردة من مواقف الاستلهام التراثي والتبني التاريخي والعزل التاريخي . وجدير بالذكر أن تلك العملية تمت وظيفياً من مواقع ومداخل بؤرة واحدة مهيمنة . أما ما نعنيه بذلك فهو أننا ، هنا ، نواجه تحييراً لـ «الحديث التاريخي» الواقعي الشخص أو المتوهم المختلف لصالح مجموعات من اليهود العبرانيين ذوي المواقع المختلفة الوظائف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية ، ولكن الناحية صُعُداً وبشكل متصل باتجاه التمحور الوظيفي السلطوي ، الديني والسياسي والاجتماعي والاقتصادي . وكما يشير سياق الحديث الذي أفضنا فيه ، في مواضع سابقة ، فإن هذا التمحور تجسد في شخص الفئة - الطبقة الكهنوتية .

تلك النتائج الثلاث المستنبطة من مجريات عملية صوغ «النصوص العتيقة» سوف نجدها تكون قاسماً مشتركاً في منها من ألفه إلى يائه ، محدثة - بذلك - صعوبة منهجية أمام البحث النقدي التاريخي والتراثي في النصوص إياها . ولعل هذا الأمر - وأموراً أخرى ليست ضئيلة - يجعل من هذه الأخيرة بعيدة كل البعد عن أن تكون موضوع بحث تاريخي ، أو يجعلها - في أقل تقدير - ذات قيمة ثانوية هامشية على هذا الصعيد ؛ في حين أنها تبرز من حيث هي مادة بحث لأنساق علمية متعددة ، منها البحث التراثي .

في مثل تلك الحال البالغة التركيب والتعقيد ، تبرز الأهمية الخاصة لعملية تقصي تاريخ استلهام أو تبني أو عزل «النص العتيق» . إذ من شأن ذلك أن يسهم في اكتشاف دلالاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والايديولوجية ، وأن يضيء - من

ثم - كيفية انجاز تلك العملية وحدودها . يتم ذلك ضمن اعتبارات متعددة متنوعة ، منها المطابقة بين النص والمرحلة التاريخية التي يخبر عنها في سياقه . وفي هذه الحالة ، يمكن الإمساك بدلالاته تلك حتى وإن لم يكن (أي النص) متحدراً من المرحلة المشار إليها ، وكذلك - وهذا له أهميته المخصصة - حتى إذا كان هذا النص ملفقاً باسم غير تاريخي أو بأسماء غير تاريخية (وهمية) .

إن تلك الأوجه المنهجية من المسألة المطروحة يمكن أن تكون مداخل إلى فهم إشكالية تكون التوراة (أسفار موسى الخمسة) ومجموع نصوص العهد العتيق ، بصورة عامة . وإذا ما عملنا على تكثيف وضبط هذا الرأي ، أمكننا القول بضرورة التمييز بين نسقين اثنين من البنى النصية ، واحد كاذب ، وآخر صادق . أما إطلاقنا صفتي الكذب والصدق على ذينك المستويين ، فيتم بالمعنى التاريخي وبالدلالة التاريخية . وإذا كان هذا الاعتبار يقودنا إلى اضمفاء صفة المصدقية التاريخية على النسق الثاني من البنى النصية وإلى نزعها عن النسق الأول من هذه الأخيرة ، فإن ذلك لا يعني أن هذه النسق الأول (الكاذب) يفتقد إلى الدلالة التاريخية والتراثية وإلى الإيجاء التاريخي التراثي ؛ إنه يظل حائزاً على مثل هذه الدلالة ، ولكن ضمن لون محدد من خصوصية الموقف .

إننا وإن كنا نواجه كثيراً من الشك في صحة المعلومات المقدمة حول أماكن وشخصيات توراتية عديدة ومتفرعة باتجاهات شتى ، مثل شخصية موسى ^(١) ؛ فإن الأمر ذاته نلقاه في نصوص أخرى من العهد العتيق . ففي النصوص المسماة «الكتب التاريخية» ، ظهر أن أحداثاً معينة ومعروفة ويجري تناقل أخبارها على مدى مراحل طويلة ، مثل تدمير مدينتي جيريشو Jéricho وأي Ay ، لا يمكن الإقرار

(١) يكتب - على سبيل المثال - فرويد حول شخصية موسى مايلي : «إن موسى ، الرجل الذي كان للشعب اليهودي محرراً والذي وهب هذا الشعب شرائعه وديانته ، ينتمي إلى عصر موغل في القدم يبيح لنا أن نتساءل على الفور عم إذا كان ينبغي فعلاً أن نعده شخصية تاريخية أم أنه لا يعدو أن يكون شخصاً خرافياً . . ونحن لا نملك عنه من معلومات سوى تلك التي تقدمها لنا الكتب المقدسة والموروثات اليهودية المكتوبة» . (سيغموند فرويد : موسى والتوحيد - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١١) .

بحدوثها من موقع العلم الحديث ؛ وكذا الأمر فيما يتصل بكتاب صموئيل وكتب الملوك . فهذه وذاك كتب مشكوك بقيمتها التاريخية شكاً مسوّغاً . ويزداد الأمر إبهاماً وغموضاً وإشكالية حين لا يكون أمام الباحث نص آخر يرتكن إليه غير نص العهد العتيق . ولعل كتابي عزرا ونحميا يمثلان شاهداً بارزاً على ذلك . فهما يقدمان على أنها يتصلان بزمان غير معروف ، وذلك بسبب من غياب نصوص وثائقية خارج النص الذي يقدمه لنا «الكتاب المقدس» (١) .

ولعل الأمر يتضح أكثر ويفصح عن مزيد من أوجهه وتلوناتـه إذا وضعنا باعتبارنا أن تلك الكتب المسماة بـ «الكتب التاريخية» نيطت بها مهمة مزعومة ، هي «التأريخ» لليهود العبرانيين منذ دخولهم بلاد كنعان (فلسطين) وحتى مرحلة الشتات والنفي (الدياسبورا) الى بابل . وهذه كانت مرحلة طويلة مديدة تنطلق من نهايات القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، كما أثبتنا سابقاً على ذلك ، لتستقر في القرن السادس قبل الميلاد . فإلى جانب صعوبة التأريخ لهذه المرحلة ، بما تحتوي عليه مما سميناه «نسقاً كاذباً» من النصوص ومن تداخل هذه بالنسق الصادق منها ، لا بد وأن نلاحظ أن الخط «المنهجي» المتبع في عملية التأريخ المذكورة يضع لنفسه هدفاً مسبقاً ومحددأ ، هو الموائمة الدائمة للواقع التاريخي المشخص مع المقتضيات والاحتياجات اللاهوتية الكهنوتية ، ومن ثم تطويع ذاك لهذه على نحو لاهوتي وثوقي .

ولا يخرج عن ذلك الخط «المنهجي» ما يسمى «الكتب النبوية» . فهذه الكتب - وقد اتصلت أساساً بالمرحلة الممتدة من القرن الثامن الى القرن الثاني قبل الميلاد - تمثل مواقف وردود فعل على أحداث اجتماعية وسياسية واقتصادية ألت باليهود ، حيث كانوا في فلسطين ومع خروجهم منها ، وبعد عودتهم إليها من النفي البابلي . أما التخصيص التي جسدها تلك المواقف وردود الفعل فقد تمثلت برغبة جامحة مطاردة في تطويع الواقع المأساوي المشخص لها على نحو يجعل منه عقوبة ضرورية لـ «المختارين المصطفين» من «الشعب المختار المصطفى» ، وذلك

(١) انظر حول ذلك : موريس بوكاي - دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٣٣-٣٤ .

لتنكرهم لمبادئهم (الناموس والشرعية) ، وبحيث تتحول العقوبة إلى دعوة صارخة مباشرة للانصياع الى يهوه الرب ، وإلى طلب العفو والمغفرة منه استعداداً للولوج في مرحلة الخلاص والسعادة . ذلك ما نلقاه في رؤيا دانيال وكتاب يونس ، وغيرها .

يبقى أن نذكر أن ما يسمى «كتب الشعر والحكمة» يمثل وجهاً آخر من أوجه «العهد العتيق» . ففيها نواجه ما نطلق عليه «الموروث الشعبي» و«الحكمة الشعبية» وقد امتزجت بصور عديدة من الشعر والنثر المتحدرة من أصول كهنوتية وملكويتية (نسبة إلى مرحلة الملوك) . وعلى رأي رهط من الباحثين ^(١) ، كان الشعر أو النثر الغنائي سباقاً في النشوء أثناء المراحل البشرية الأولى - البدائية ، حيث لم تكن قد تكونت بعد - بطبيعة الحال - امكانات مناسبة ، بحد ضروري ، لصياغتهما كتابياً . وهنا ، نجد أنفسنا ثانية أمام الصيغة الشفهية للتداول الذهني ولتبادل الأفكار والتصورات ، وكذلك لحفظها وتقديمها من قبل السابق إلى اللاحق .

ذلك الأمر نفسه نتبينه ، وإن في إطار الخصوصية النسبية لذهنية اليهود العبرانيين ، في موروثهم «الشعري والحكمي» . وهذا الموروث نفسه تكوّن على امتداد فترات طويلة تتجاوز تسعة قرون من الزمن ، بدءاً من تكوناتهم القبلية قبل دخولهم فلسطين (وربما أيضاً مصر) ، وانتهاءً بالأشكال المتقدمة من هذا الشعر وتلك الحكمة ، وذلك بأقلام فريق من ملوكهم وكهنتهم ، ومن دار في فلكهم الديني السلطوي .

من تلك الأشكال الشعرية والحكمية المتقدمة ما يأتي في العهد العتيق تحت اسم «المزامير» ^(٢) ، التي انجز الملك داود جانباً منها وانجز ما تبقى منها فريق من

(١) مثل آدموند جاكوب وموريس بوكاي (انظر حول ذلك : نفس المرجع السابق ومعطياته ، ص ٢٠) .

(٢) «الزبور كلمة وردت في الشعر الجاهلي وفي القرآن . . ولم ترد في التوراة ، ويسمى المفسرون الزبور (مزامير داود) المعروفة عند اليهود والمسيحيين . واكثر المزامير ترجع لداود النبي ، وبعضها وضعت بعد . عرفت للزبور ترجمة عربية في تاريخ مبكر ، يذكر الكندي اجزاء منه في رسالته» .

الكهنة (وقد كانوا ، كما مر معنا في موضع سابق ، محتكري مجمل الأدوات الذهنية ، بما في ذلك وسائل التعبير عنها) . ويرز من ذلك ، أيضاً ، كتاب النبي الشهير بصبره وحكمته في الموروث الشرقي عموماً ، وهو أيوب . وبالطبع ، لا يجوز ، في هذا السياق من الحديث عن نصوص العهد العتيق ، اغفال النشيد المعروف باسم «نشيد الانشاد» . فهذا يمثل مواقف رمزية تعمر بالدلالات الجنسية الحسية والالهية والطبيعية ، التي تفصح - بكثير من الحسية الواضحة - عن أصول قديمة لها (سومرية وبابلية الخ . . .) .

ان «العهد العتيق» يغدو ، والحال على النحو الذي عرضنا له بشيء من التفصيل ، كتاباً في كتاب واحد ، وأسفاراً في سفر واحد ، ومشكلات تاريخية تراثية في مشكلة تاريخية تراثية واحدة . وإذا كانت صيغة العلاقة المهيمنة ، هنا ، بين «الواحد والمتعدد» ذات طابع تلفيقي يفتقد الوحدة البنيوية الداخلية المنطقية والتاريخية والتراثية بين النصوص الكثيرة التي ينطوي عليها ويعبر عنها ، فإنها (أي العلاقة) تظل قائمة بين هذه الأخيرة وتفصح عن نفسها وتشير إلى توجهاتها . إنها تفعل ذلك على أساس ذهنية تلفيقية تجمع بين المتناقضات والمتناقضات والمتعارضات ، دون إبداء أي حرج بسببها أو محاولة لتجاوزها أو إخفائها . ولما كانت المسألة ذات توجه مفتوح ، أي لا تتوقف عند ذلك الموقف بل تتعداه إلى طرح السؤال حول المصدقية التاريخية والسياق التراثي لتلك النصوص - كما مر معنا آنفاً - ، فإنه يصبح لازماً علينا ومن موقع «الكشف عن الأوراق الدرسية» أن نعلن ، مع موريس بوكاي ، بأن «التعرف على مصادر هذه النصوص اليوم عسير جداً في بعض الأحيان»^(١) .

(أحمد سوسه : العرب واليهود في التاريخ - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، جزء ٢ ، ص ٨٩٠ .

(١) موريس بوكاي : دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٨٤ .

ومن طبائع الأمور ، التي أتينا على ايضاحها ، أن تكون تلك الوضعية المتسمة بالغموض والإشكالية والاحتمالية قد لقيت تدعياً وتكريساً على أيدي الورثة الشرعيين للكهنة العبراني الكلاسيكي ؛ نقصد بذلك الكنيس اليهودي والكنيسة المسيحية (البولسية) . ذلك لأن انتزاعها (الوضعية) من سياقها التاريخي والتراثي ورفعها إلى ما فوق «شبهات» الإتساق المنطقي النصي ، من شأنها أن يظهرها بمثابة أمراً فوق التموضع التاريخي الزمني ، وبعبدة عن السياق التراثي ، ومكتفية بذاتها ولذاتها منطقياً . وهذا ، بالضبط ، ما نُظر إليه على أنه العنصر الأحسم أو - على الأقل - أحد العناصر الحاسمة في ديمومتها واطلاقيتها .

من ذلك الموقع المُصَرَّر عليه إصراراً ، كان قميناً برجال الكنيس والكنيسة وآبائهما العظام أن يتنطعوا لهذه المهمة الكبرى تدعياً وتوثيقاً ومنافحة . من هؤلاء القديس اوغسطين (٣٥٤-٤٣٠) ، الذي هو أبرز آباء الكنيسة عموماً والذي اعلن - في حينه وبوضوح - المبدأ «المنهجي» اللاهوتي الكنسي التالي: «إن مؤلفات الكتب المقدسة ، هذه التي تعرف بالقانونية هي فقط التي تعلمت أن اعطيها انتباهها واحتراماً كاعتقادي الحازم بأنه ليس هناك أحد من كتابها قد أخطأ . فعندما ألتقي في هذه الكتب بدعوى تبدو مناقضة للحقيقة ، فإنني عندئذ لا أشك في أن نص (نسختي) لا يحتوي على خطأ أو أن المترجم لم يترجم النص الأصلي بشكل صحيح أو أن مقدرتي على الفهم تنسم بالضعف» (١) .

وهكذا إذن وبعد تبيننا للإصرار الذي تأخذ به المؤسسة الكهنوتية إزاء ديمومة واطلاقية «النصوص المقدمة» ، نرى كم تكتسب المسألة تعقيداً بعد تعقيد وإشكالاً بعد إشكال ، بحيث يسهم ذلك بقوة في تضييع التراتب والتناسق التاريخيين للنصوص المذكورة . أما ما قد ترتب على ذلك فقد نهض على أنه أدى إلى تداخل الأزمنة التاريخية والعلاقات التراثية ، مما جعل من التاريخ تراثاً ومن التراث تاريخاً . وبذلك ، نكون وجهاً لوجه أمام الحصيلة المؤكدة والخطيرة التالية ، وهي تخييب الحقيقة التاريخية والأخرى التراثية بصيغتيهما الخصوصيتين ، لتبقى الحقيقة في صورتها العامة أو - وهذا هو الأغلب - في دلالاتها التاريخية والتراثية غير المباشرة

(١) ضمن : نفس المرجع السابق ومعطياته ، ص ٥٧ .

وغير المنضبطة وغير المضبوطة . وبتعبير آخر يضح أن نقول - على وجه التغليب والترجيح - ان ما هو حدث تاريخي ، يُقتطع من تموضعه التاريخي ، ليغدو - على أيدي «الورثة» - حدثاً تراثياً ، يمثل نسيج ذاته ، أي مقتطعاً من جذره التاريخي .

فالمجموع المؤلف من نصوص متنافرة تنافر الأيدي المتعددة المتعاقبة والفاعلة فيها تعديلاً وتطويراً وتقصيراً وتهميشاً وتضخياً وحذفاً وإتلافاً واختلاقاً أو إضافة الخ . . ، ان هذا المجموع لم يكن ليتوقع منه - في نهاية المطاف - أكثر من أن يتحول الى مجموعة متلاصقة من المواقف والنظرات الايديولوجية المنتظمة في إطار من عمليات الاستلهام التراثي والتبني التاريخي والعزل التاريخي . وهذا ، بالضبط ، ما يدعونا إلى ان نشك كبير الشك وأعمقه في أن تلك النصوص تقدم ، في شخصها ، وثيقة تاريخية أو تراثية مباشرة ؛ وإن ظلت - في كل الأحوال - تمثل موضوع بحث تاريخي أو تراثي ، إضافة إلى كونها موضوع أبحاث علمية أخرى متعددة ، آثارية ولغوية وجمالية الخ . . (١)

وإذا قلنا ان ذلك «المجموع» يصبح - في آخر المطاف - ذاك المركب من المواقف والنظرات ، فإن تحفظاً نسبياً على الصيغة المنوه بها لابد وأن يعلن عن نفسه . المسألة المعنية ، هنا ، تتحدد بأن مجموع النصوص المذكور ، أي نصوص الجهد العتيق ، لا ينطوي ، من حيث هو كذلك ، أي من حيث هو أمشاج ايديولوجية ملفقة ، على نقطة توقف بالمعنى الحدي المنطقي . فهو قابل ، أبداً وبصورة مضطردة ، لأن يكون موضوعاً لاتجاهات جديدة من التعديل والتطوير والتقصير والتهميش والتضخيم والحذف والاتلاف والاختلاق والاضافة الخ . . .

(١) الأمر يصل لدى بيير روسي الى حد التأكيد على مايلي : «ان التاريخ لا يعترف لداود أو سليمان في الحقيقة ، أكثر مما يعترف لأخيل أو أوليس . . . وانه من السفه ان نحسب الوثائق التوراتية ، المؤلفة باليونانية بعد حوالي ١٣٠٠ ، الى ١٥٠٠ سنة تلت الأحداث ، أو أنه من الصواب ان تكتب في أيامنا وتستعمل هذه الوثائق من قبل علماء جديدين يستمرون في سرد التواريخ الاستقرائية ، وسفر الملوك ، وكتاب صموئيل كما لو أننا نعني بهذا صوراً فوتوغرافية لرجال وأماكن . ان اليوم الذي يتوقف فيه العهد القديم عن تغذية علمنا التاريخي ، يغدو شرحنا لأمور الشرق محزراً من امبراطورية الأفكار المسبقة» . (بيير روسي : مدينة ايزيس التاريخ الحقيقي للعرب - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٤٨) .

وغالباً ما يحدث ذلك وفق الاحتياجات الايديولوجية والسياسية ، التي تنبعث من التحولات التي تطرأ على ظروف اليهود ومتغيراتهم الجغرافية والسياسية والاقتصادية (١) .

والأمر هو ، فعلاً ، كذلك . فنحن نواجه أمامنا مثلاً بالغ الدلالة على ما نحن في صددده . ذلك هو ما يسمى بـ «أسفار الابوكريفا» (٢) . فهذه الأخيرة ، التي عمّ استعمالها تحت هذا المصطلح على يد ايروني موس في عام ٤٢٠ م ، يُنظر إليها من قبل بعض الأوساط المسيحية واليهودية شذراً وبشيء من الامتهان ، اعتقاداً بأنها مؤلفات انجزت تحت اسماء ملفقة ، وبأنها لا تمتلك القدر الضروري من المصدقية التاريخية و«الدينية» . فإذا كانت الكنيسة البروتستانتية قد كفت نفسها بما أصبح شائعاً . ومهيماً من نصوص العهد العتيق ، التي تقع في تسع وثلاثين سفرأ تبدأ ، كما هو معروف ، بسفر التكوين وتنتهي بسفر ملاخي ، فإن الكنائس الأخرى - الكاثوليكية والارثوذكسية الشرقية - أقرت نسخة أخرى من العهد العتيق ، تتضمن ، اضافة الى ذلك ، خمسة عشر سفرأ آخر . أما هذه الأخيرة فهي التي اكتسبت اسم «الابوكريفا» .

(١) لتسمن ، مثلاً ، فيما نواجهه في «موسوعة الصهيونية واسرائيل - رافايل باتاي ، نيويورك ١٩٧١ ، ص ١٢٦٢ : «الصهيونية السياسية التي اطلقت للوجود من قبل هرتزل عام ١٨٦٨ والتي أدت إلى تكوين دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ ، ترجع جذورها الى التاريخ اليهودي ، والديانة اليهودية ، والتقاليد والإحساس الشعبي لدى اليهود . ان التاريخ اليهودي يبدأ من وصية الاله الموجهة لابراهيم (انطلق .. الى الارض التي أريك - سفر التكوين ١٢ / ١) ، ومن الوعد الالهي بأن أرض كنعان ستصبح ملكاً لذرية ابراهيم (سفر التكوين ١٢ / ٧) . ويعلمنا Mamle G.Gamoran ما يقترب من ذلك في كتابه The new jewish History- The Union of American Hebrew Congregation, New York, fourth Printing 1960, P.VII):

إن على الأطفال اليهود «ان يشعروا بأن تاريخ شعبهم قصة غير منتهية عليهم هم أن يشتركوا فيها» .

(٢) بالأصل ، كانت هذه الأسفار تعني «النصوص التي لم تُتضمن في القانون العبري للعهد القديم ، وإنما في ترجمته اليونانية السبعينية (Septuaginta) . من ذلك أسفار المكابيين ، وسفر يهوديت ، وسفر طوبيا ، وسفر الحكمة» . (Meyers Neues Lexikon, in acht Baenden 1, 1961 .

VEB Bibliographisches Institut, Leipzig, S. 312)

ولعل وجه الأهمية والطرافة في ذلك الأمر وبالنسبة الى ما نحن بصدد البحث فيه الآن ، يكمن في التحول الدلالي والوظيفي ، الذي طرأ صراحة على معاني ذلك المصطلح . فقد تحول معناها الأول ، الذي تحدد بكونها «خفية ومستورة» ، الى المعنى الأخير الذي ألحق بها ، وهو أنها كتب «موضوعية» و«غير متفق عليها» - أي لا وجود لها أصلاً في أسفار موسى الخمسة - ، مروراً بالمعنى الذي نُظر إليها ، بحسبه ، على أنها باطللة زائفة من حيث الأساس (١) .

في هذه العملية - بمجملها وعمومها - نلاحظ ما أشرنا إليه من قبل ، وهو خضوع الآلية الداخلية لتلك النصوص جميعاً (الواردة في العهد العتيق بمختلف طبعاته وصيغه) لاتجاهات ورغبات متنامية من التعديل والتطويل والتقصير والتهميش والتضخيم والحذف والاتلاف والاختلاق والاضافة الخ . . (٢)

والآن إذا وضعنا ذلك المركب الضخم و«الترهل» من القضايا والقضايا الفرعية باعتبارنا ، واجهنا إشكالية الموقف التاريخي على صعيد «العهد العتيق» ، بكل حدثها ومصاعبها المنبعثة - خصوصاً - من ضالة القدرة على ممارسة النقد الداخلي والنقد الخارجي لهذا الأخير .

فإذا ما تناولنا نصوصاً من هذا العهد بالصيغة الأكثر تخفيفاً ، فإننا سوف نشير إلى ما نراه تنويعاً للموقف : ان الذين جمعوها كانوا - في أحسن الأحوال - كتبة شهادات بأفعال انصرفت منذ وقت أو آخر ، وانهم - في أسوأ الأحوال - لم يكونوا

(١) انظر حول ذلك : محمد بيومي مهران - دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم ، جزء ٢ مطبعة الأمانة ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٥١-٥٢ ؛ وكذلك : صابر طعمه - التراث الاسرائيلي في العهد القديم وموقف القرآن الكريم منه ، دار الجليل بيروت ١٩٧٩ ، ص ٢٦٨-٢٧٠ .

(٢) لعلنا نضيف إلى ذلك ان «التمود» أسهم في تعقيد الصورة وفي جعلها أكثر تركيياً واتساعاً . فهذا المؤلف الضخم ، الذي أضيف على نحو قطعي الى «العهد العتيق» ، هو عبارة عن موسوعة تتضمن الدين والشريعة والتأملات الميتافيزيقية . . وقد بدأ تدوين التلمود مع بداية العصر المسيحي . ولم يتم ذلك إلا في القرن الخامس ، ويقال في القرن الثاني عشر ، أي ان تأليفه استغرق مايقرب من خمسمائة عام . . وان حوالي ألف حاخام قد اشتركوا في (تأليفه) . ويبلغ عدد صفحاته حوالي ستة آلاف صفحة . (عبد الوهاب محمد المسيري : موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية - القاهرة ١٩٧٥ ، ص ١٤١-١٤٢) .

أكثر من متحليلين لها على نحو جعلوا منها مطية دينية أو سياسية أو دينية وسياسية لهم . ولا بد من التعقيب بأن «الانتحال» في مثل هذه الحالة ، لا يمثل - بالمقام المنهجي الأول - تزويراً بالمعنى الأخلاقي القيمي ، بقدر ما يعني استلهاماً تراثياً وتبنيّاً تاريخياً غير معلن عنهما ، أي مقدمين على نحو يسمح بفهمهما على أنهما ، حقاً ، انتحال أو سطور .

ويبقى القول ضرورياً ، في هذا المعقد المُنْهَك من المسألة ، بأنه من موقع العلاقة بين الأيديولوجيا من طرف وحركتي التاريخ والتراث من طرف آخر ، تظل عملية الانتحال أو السطور تلك تنطوي على حدٍ ما من المشروعية الأيديولوجية . وهذا ، بدوره ، يشير إلى أن وضعية دينية ما حتى وإن كانت منطوية و على تلك السمة من الزيف (الانتحال أو السطور) ، فإنها تبقى محتفظة بدلالاتها الأيديولوجية والاجتماعية المشخصة ، تلك الدلالة التي تدخل - على كل حال - في إطار مصداقية متوسطة للأحداث التي تخبر وتتحدث عنها ؛ وهي ، لذلك ، لا تفتقد شرائط المشروعية الأيديولوجية والاجتماعية . ومن هنا ، فإن تعاملنا مع نصوص «العهد العتيق» لابد وأن ينطلق من أنها - حتى لو كانت جميعها زائفة أو متحلة أو مسطّواً عليها - تفرض نفسها على الباحث المؤرخ بمثابقتها موضوع بحث صادق ، بالمعنى الدلالي المأتي عليه . ولا يخفى ما لهذه الحصيلة من أهمية منهجية كبرى على صعيد البحث في التاريخ اليهودي عموماً ، وفي تاريخ «العهد العتيق» على نحو مخصص .

إن الأهمية المنهجية التي تنطوي عليها تلك المسألة تدعونا للاحاطة بها من موقع آخر لها لعل علم الدلالة قادر ، يداً بيد مع علم التاريخ ونظرية التراث (١) ، على الاسهام المعتمق في إيضاحه . هاهنا ، يصح أن نميز بين صيغتين من العلاقة بين الفكر والواقع ، أي بين فكر يصوغ الواقع ذهنياً بمعنى ما وباحتمال ما وبمنحى ما ، وواقع يبرز بمثابته مؤشراً إيجابياً أو سلبياً على ذلك الفكر . الصيغة الأولى تتحدد بأنها تشتمل على ثلاثة احتمالات رئيسية كبرى ، هي تخلف الفكر عن الواقع ، واستباقه له ، وأخيراً تطابقه معه على الصعيد الزماني . وفي هذه الحالات الثلاث

(١) نحيل القارئ إلى كتابنا «من التراث إلى الثورة - حول نظرية مقترحة في قضية التراث العربي ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً» .

يظل الحديث قائماً عن طابع مباشر واعتيادي ومنتظم للعلاقة المنوه بها . وهذا ، من طرفه ، يضبط هذه الأخيرة ، بحيث لا نجد أنفسنا مدعوين إلى ملاحقتها عبر ما نسميه «فوق»^(١) الأقنية» الفكرية ، بل عبر «الأقنية» الفكرية تحديداً ، أي عبر الوسائط التي يظل ممكناً أن نشير من خلالها إلى البعد الواقعي للفكر ، وإلى الانعكاس الفكري للواقع ، على حد سواء .

أما الصيغة الثانية فتقوم على تلك الـ «فوق أقنية» ، وتتحدد بأن الفكر يتصل بالواقع عبر «دلالات رمزية» يمكن أن تظهر على جانب كبير من اللاواقعية ، أي بعيدة عن الواقع الذي يحيط بها ، وغير متفقة معه اتفاقاً بنوياً . وهنا ، تبرز الـ «فوق أقنية» بمثابنها التعبير عن هذه العلاقة الناشئة بين الفريقين . وإذا ما قال كارل ماركس ، مرة ، بأن «اللغة هي الواقع المباشر للفكرة»^(٢) ، فإنسه من الممكن ، أيضاً ، أن يقال - في هذا السياق وإتماماً له وتعقيباً عليه - بأن «الفكرة» تمثل الواقع المباشر لتلك الدلالات الرمزية ، تلك الدلالات التي ترتبط ، بدورها ، بالواقع عبر الـ «فوق أقنية» .

في إطار تلك الوضعية المركبة والمتراكبة ، يسهم الحدث التراثي في خلق مزيد من التراكم في «الفوق - أقنية» ، بحيث نجد أنفسنا ، مجدداً ومجدداً ، أمام جملة متعددة متراكبة ومتداخلة من الأنسجة الدلالية الرمزية ؛ مما يعقد الرؤية إزاء هذه الأخيرة ، ويجعل مهمة إنفاذها فيها واستقصاء أبعادها وآفاقها أمراً يستدعي كثيراً من الحذر والتحفظ ، وكذلك الكثير من الدربة والدراية في البحث . فإذا كنا نواجه الفكر - في الصيغة الأولى من العلاقة بين الفكر والواقع - مستقلاً استقلالاً نسبياً حيال الواقع ، فإننا - في الصيغة الثانية لهذه العلاقة - نواجه «الدلالات الرمزية» وقد امتلكت ، هي بدورها ، حداً من الاستقلالية تجاه نفسه بصفته هو نفسه موضوع ومضمون هذه الدلالات . وربما صح التمثيل على ذلك بالفكرة الواحدة التي تنشعب باتجاهات متعددة ، لتقوم بأداء وظيفتها بأسيقة متعددة متباينة ، وأحياناً متناهضة متصارعة . وهذا يشترط أن تكون هنالك عملية

(١) فوق meta .

2) Marx Engels: Werke, Band 3, Dietz Verlag Berlin 1959, S. 432.

استدراج لهذه الفكرة المركبة المتراكبة من قبل مجموعة من أنساق الواقع المتباينة في الزمن التاريخي ، وفي الوضعية الاجتماعية الاقتصادية والسياسية والثقافية . وبيناً تماماً أن عنصر التأويل أو التفسير ، الذي يقترن - ضمن هذه العملية - بالاستلهم التراثي أو التبنّي التاريخي أو العزل التاريخي ، يمارس الدور الفاعل فاعلية الوضعية الاجتماعية المشخصة نفسها التي ينطلق منها ، ويتكىء عليها ، ويتجاوزها سلباً أو إيجاباً ضمن الأدوات المتاحة له والخاصة به .

ان هذا الذي توقفنا عنده لعله يقدم لنا واحداً أو أكثر من واحد من المداخل المنهجية الدقيقة للاحاطة جدلياً تاريخياً وتراثياً - أي - هنا - على نحو «غير توراتي» ، بالإشكالية التاريخية والتراثية لنصوص «العهد العتيق» .

وإذا كنا ، فيما سبق ، قد أوردنا طرفاً من مسألة تعدد الوثائق ، التي ألّفت ذلك الجمع التلفيقي المتنافر من نصوص العهد المعني - حيث وجدناها مؤلفة من أربع اكتشف لاحقاً طابعها المركب ونسيجها الأكثر تعقيداً - فإننا نلاحظ ، ايضاً ، حسب ادموند جاكوب ، انه «في البدء لم يكن هناك نص واحد فقط ، بل كان هناك تعدد في النصوص . ففي القرن الثالث قبل الميلاد تقريباً كان هناك على الأقل ثلاث مدونات للنص العبري للتوراة . كان هناك النص المحقق (الماصري) Massorethique ، والنص الذي استخدم ، جزئياً على الأقل ، في الترجمة إلى اليونانية ، والنص المعروف بالسامري (أو اسفار موسى الخمسة) Pentateuque Samaritain . ثم بعد ذلك ، في القرن الأول قبل الميلاد ، اتجه الى تدوين نص الكتاب المقدس لم يتم إلا في القرن الأول بعد الميلاد» (١) .

تلك اللوحة المركبة تضيف على الاشكالية المشار اليها آنفاً مزيداً من أوجه التعقيد والصعوبة في التقصي التفصيلي ، وذلك على نحو يدعم الرفض للزعم القائل بوجود نصوص متجانسة ومتوازنة منطقياً وتاريخياً وتراثياً . ولقد سبق أن أشرنا إلى ما كتبه بيير روسي من «أن أول ترجمة للتوراة اليهودية تتمثل في نص يوناني ألف في الاسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد تحت حكم بطليموس

(١) موريس بوكاي : دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٨ .

الثالث» (١) . وهذا يلقي ضوءاً على عملية تبلور النص العبري من مواقع النص المشار إليه ، الإغريقي السبعيني ، وعلى أساسه . فبحسب الباحث السابق الذكر ، يظهر أنه «من المنتظر أن تربك أصالة النص السبعيني الإغريقي التي لا تناقش والتي هي المصدر للتقليد العبري . . أصالة هذا النص هذه تربك علماء اليهوديات الذين يعاندون في ألا يروا إلا الترجمة العبرية . ذلك أنه قد قرر منذ القرن الثالث بعد الميلاد فقط أن تحرر بالعبرية تلك الترجمة اليهودية التي ظلت حتى ذلك الوقت مصنوعة باللغة العربية - الآرامية» (٢) .

أما ما يثير الانتباه ، حقاً ، على صعيد تعدد الأصول لنصوص العهد العتيق والمراحل الجديدة التي مرّت بها عبر عملية استكمالها ووصولها الى الصيغة الراهنة ، فنلاحظه في أن النص العبري للتوراة اكتسب وضعيته الثابتة - في حدود الموقف - فقط في الفترة الممتدة بين القرنين التاسع والعاشر بعد الميلاد . وقد تم ذلك على أيدي اساتذة مدرسة طبرية الماسوريين ، الذين انجزوه على أساس أربعة مصادر ، هي النص الإغريقي السبعيني السابق الذكر ، وترجمة القديس جيروم اللاتينية ، والنص الآرامي ، والعناصر السريانية (٣) .

ان ذلك من شأنه أن يقدم حوافز ومسوغات جديدة لتعميق ما أوردناه فوق من أن نصوص العهد العتيق لا يصح أن تكون مصدراً (بمعنى الكلمة المنهجية) للبحث التاريخي . أما السبب في هذا فيكمن في أنها تغيّب الحدث التاريخي في ردهات الحدث التراثي، ذلك التغيّب الذي لعله يصل إلى حدود السطو التراثي . ان وجه التعميق الوارد في الوقائع المأثي عليها يكمن في أن تلك النصوص تقدم صورة أو صوراً شرقية (عربية) مصرية وبابلية وكنعانية قديمة ممهورة بتوقيع يهودي عبراني . أما أن تكون ممهورة بهذا التوقيع ، فإن ذلك لا يعني النظر الى هذا الأخير على أنه «دخيل» على العملية ؛ انه يعني ، ضمن ما يعنيه ، أن النصوص العتيقة كانت من الترسانة الذهنية الشرقية بقدر ما كانت - عموماً وإجمالاً - ضدها وضد

(١) بيير روسي : مدينة ايزيس التاريخ الحقيقي للعرب - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢١ .

(٢) نفس المرجع السابق ومعطياته ، ص ٢١ - ٢٢ .

(٣) نفس المرجع السابق ومعطياته ص ٢٢ .

الإعلان والتصريح بها كمصدر بعيد لها ؛ إضافة إلى ذلك ، يجدر القول بأن عملية «السطو التراثي» تلك اذ حدثت ، فإنها انطلقت من آلية العلاقة المتجاذلة بين الداخل والخارج ، على نحو ما أوضحناه في مكان سابق .

وإذا عدنا إلى الصورة الشرقية الممهورة بتوقيع يهودي عبراني ، وجدنا أن ما يصح استخدامه ، على هذا الصعيد للتعبير عن واقع الحال ، متمثل بالعنوان الذي كتبه مديكو لأحد أبحاثه ، وهو «التوراة الكنعانية»^(١) . فإن تكون التوراة «اليهودية العبرانية» توراة «كنعانية» ، يعني أنها مستقاة من الكنعانيين ، بالرغم من أنها مقدمة باسم يهودي عبراني . ونحن نلاحظ أن القول بـ «كنعانية» التوراة ، كما طرحها الباحث المذكور ، أو بـ «بابليتها» أو بـ «مصريتها» - كما يحق لنا أن نستنبط الأمر من السياق القائم - يمكن بل يجب أن يؤدي بنا إلى طرح السؤال التالي ذي الدلالة الكبيرة بالنسبة إلى ما نحن في سبيل تفصيله : وهل يتبقى ، بعدئذ ، شيء لليهود العبرانيين ؟ نجيب على ذلك : بلى ؛ لقد تبقى لهم ، على الأقل وفي الحد الأدنى ، ما أنجزوه على صعيد عملية الاستلهام التراثي والتبني التاريخي والعزل التاريخي ، تلك العملية التي وجدت تجسدها وتجليها في شخص النصوص المعنية ذاتها . لقد تبقى لهم شخصيتهم التي برزت في سياق ما استخدموه وما أنجزوه إزاء تلك (النصوص) من أشكال التعامل الذهني معها ، تلك الأشكال التي يمكن تكثيفها بثلاثة ، هي الاستلهام التراثي ، والتبني التاريخي والعزل التاريخي .

وعلى أن نوضح ما هو جدير بالايضاح المبدئي للمنهج تعميقاً لما بعد ذلك السؤال والاجابة عنه . فإذا كنا قد أعلننا أن شخصية اليهود العبرانيين في العهد العتيق هي تلك التي برزت في سياق ممارسة تلك الأشكال الذهنية الثلاثة حيال الموروث الشرقي المذكور آنفاً ، فإننا بذلك لا نريد القول أبداً بأن اليهود العبرانيين لم ينجزوا شيئاً نوعياً خاصاً بهم ، بمعنى ما وبقدر ما . لقد حققوا ذلك ، ولاشك ؛ لكن هذا الذي حققوه فعلاً اندمج بذلك الذي تناولوه من الآخرين ، بحيث نتجت عن ذلك ، مجتمعاً ومجماً ، شخصية ثقافية ظلت ، رغم هجائتها ، موحدة متسقة بمعنى ما وبقدر ما . وهذا يشير بوضوح إلى أن عنصري الهجانة

(١) انظر : هـ . ي . ديل مديكو - اللآلئ ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً .

والانساق كليهما يمثلان وجهين متممين لبعضهما بعضاً في الشخصية التوراتية ، بحيث أننا ، هنا بالضبط ، نغدو مخولين بالتحدث عن «توراة يهودية عبرانية» ، كما كنا مخولين بالتحدث عن «توراة كنعانية أو بابلية أو مصرية» .

وبالطبع ، فإن الوضعية المشخصة لليهود العبرانيين ، كما ظهرت في مراحل تاريخهم الأولى ، هي التي أملت عليهم نمط التعامل مع ذلك الموروث الشرقي والأشكال الذهنية التي ابرزوها حيال عملية تحويله الى خاصيتهم . وحيث كان الأمر على هذا النحو البالغ العسر والتوسط والإشكال ، فإن الخارج (ذلك الموروث) غداً وجهاً من أوجه الداخل (تلك الوضعية) ، بل الوجه الأكثر حسماً وفاعلية في هذا الأخير . وهذا ، كله وبدوره ، لا بد أن يعني أننا إذ نؤرخ للعهد العتيق ، فإننا نؤرخ ، في نفس الحين ، للفكر الشرقي القديم بجمل مظاهره أو بمعظمها ، على الأقل . ويبقى مهماً بل بالغ الأهمية منهجياً ، في هذه النقطة بالذات ، أن نعمل على القبض على طرفي الخيط كليهما ، ذينك الطرفان اللذان يشتركان في صوغ الحقيقة التاريخية المنشورة في الأول منهما (وهو الشرقي) ، حيث الأصول ونقاط الانطلاق النصوصية ، وفي الثاني منهما (وهو اليهودي العبراني) ، حيث عملية التوظيف والتجوير ، أي عملية الاستلهام التراثي والتبني التاريخي والعزل التاريخي لتلك الأصول والنقاط . وإذا قلنا بهذا وذاك ، فإننا نبقي - على كل حال - بعيدين عن النظر الى الموقف التوراتي على أنه مقتصر على تلك العملية ومختزل بها ومستنفذ منها .

وقمين بنا ، إذ بلغنا تلك الزاوية المكثفة من المسألة المطروحة ، أن نلامس الفكرة التالية ، وهي أن ملكية الأصول والنقاط المذكورة آنفاً في تحولها من جيل إلى جيل ومن شعب إلى شعب ، تكتسب هي نفسها أبعاداً وظيفية جديدة ، ومن ثم شخصيات جديدة متغيرة . ومن هذا الموقع أيضاً ، نجد أنفسنا ثانية أمام مشروعية المصطلح التالي : «توراة يهودية عبرانية» ، وذلك الى جانب المصطلح الآخر «توراة كنعانية أو بابلية أو مصرية» . أما ما يتصل بتغيب الحدث التاريخي عبر الحدث التراثي في نصوص العهد العتيق ، فإننا نرى فيه وجهاً أولاً ؛ وهذا يشير إلى ان هنالك وجهاً آخر للمسألة نجده قائماً في شخصية تلك النصوص ، وإن على نحو أقل ظهوراً وحضوراً ورجحاناً من الوجه الأول ؛ ذلك هو غياب الحدث التاريخي

عبر الحدث التراثي بأشكال غير قصدية ، تلقائية ، وبألية داخلية غير مؤجلة مباشرة .

وفي الفصل التالي سوف يتعين علينا أن نلاحق تلك العملية وندقق فيها بصورة عينية مفصلة ، أي عبر الألفية التي تقدمها وتجسدها «النصوص المقدسة» ، التي تمت بموجبها ومن مواقعها وفي ضوئها . إذ إن إنجاز هذه الخطوة يساعد كثيراً على تدقيق وضبط تلك المواقف المنهجية ، التي أتينا عليها في حدود المسألة الكلية .



الفصل الرابع

موقف الكهنوت من الفكر الشرقي السابق عليه والمعاصر له

١

ما لِلْآخِرِ لَنَا ، أما الآخر نفسه فعدونا

سبق أن أوردنا ، في سياق البحث ، ان كتبة «العهد القديم» مارسوا ازاء التراث الشرقي الذهني موقفاً جسّداً قانونية «الاختيار التاريخي التراثي» ، وذلك على نحو ضمني وآخر مفصّل عنه . وجدير بالقول ان هذه الأخيرة تجد تطبيقها ، على صعيد الوضعية الانسانية المشخصة ، في كل المواقف التي يتخذها الناس من تراثهم وتراثات الآخرين . وغالباً ما يتم ذلك بأشكال عفوية تلقائية ، تدخل في إطار نشاطهم الاجتماعي والثقافي ، أي في إطار المهام والمشكلات التي يعالجونها ، ويتصدون لها على نحو أو آخر واستجابة لهذا الموقف الاجتماعي أو النظري أو ذاك .

أما مهمتنا نحن الآن فتنهض على دراسة واستقصاء تلك العملية ، كما تتجلى لنا في نصوص «العهد العتيق» ، في صيغتها الراهنة المقدمة لنا . في سبيل ابّضاح ذلك ، يصح أن نستعيد بعض ما ذكرناه في موضع سابق من أننا نستطيع فهم تلك النصوص على أنها كنعانية أو مصرية أو بابلية أو جزيرية عربية ، أو - كذلك - فارسية الخ . .^(١) فلقد تبنى كتبة النصوص المعنية معظم ذلك الموروث الشرقي .

(١) على صعيد العلاقة بين الناجز اليهودي العبراني من طرف والحضارة الشرقية الكنعانية والبابلية والمصرية من طرف آخر ، يعلن مؤلفو (تاريخ العالم - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٤٩١) مايلي : ان ماتجزه اليهود العبرانيون كان في معظمه مشابهاً للحضارة الكنعانية . وهذا واضح =

وإذا كنا نؤكد ، هنا ، على النسق العربي (الذي نستخدم تعبيراً له المصطلح الذي أظهرنا قصوره ، وهو السامي) من هذا الأخير ، فإن انساقاً أخرى منه «غير عربية» يمكن كذلك ضبطها وتبنيها . من ذلك ، على سبيل المثال ، الموروث الحثي ، الذي مثل ، على كل حال ، واحداً من الجذور البعيدة لليهودية العبرانية . وعبر عملية تبنيهم تلك ، اخضعوا جملة كبيرة وواسعة من عناصر ذلك الموروث (الشرقي) لمواقف استلهامية بأشكال جيزت (بمعنى وظفت) فيها هذه العناصر لصالحهم على نحو تفعوي مباشر . وهم ، اولئك الكتبة ، كانوا - في هذه العملية وتلك - ينجزون عملية ثالثة تمثلت بعزل وكبح العناصر الشرقية ، التي بدا لهم - بحكم تجربتهم وآفاقهم ومصلحتهم - أنها لا تدخل في دائرة احتياجاتهم ومقتضياتهم ورغباتهم المنطلقة من طبيعة المراحل التاريخية التي مروا بها وخضعوا لها .

والذي يلفت النظر في شخصية الموقف المركب المشار اليه يكمن في أن انجاز هذا الموقف تم في وضعية مفعمة بعداء عميق وحاد إزاء مبدعي الموروث الشرقي في انساقه المتنوعة عموماً ، والكتعاني منها بصورة خاصة . ولقد حاولنا أن نتلمس المداخل الأولية الكبرى لأسباب وخلفيات هذه الظاهرة فيما سميناه «العقدة الحضارية» ، تلك التي تولدت في الأوساط الارستوقراطية القيادية للكهنوت ، بوظائفه الاقتصادية والسياسية الاجتماعية والدينية (الايديولوجية) .

ومن البين أن الموقف المعني ، هنا ، انطوى على مفارقة منطقية وتراثية وإنسانية قادت الى ما يندرج في إطار «سطو تراثي» ؛ فلقد عزلوا من عناصر الموروث الشرقي ما لم يتوافق مع احتياجاتهم ومصلحتهم ، وذلك بأشكال من التسفيه والإدانة بالدونية والرجاسة ؛ وأظهروا ما أخذوه ، تبنياً أو استلهاماً على أنه منهم هم أنفسهم وهم دون غيرهم من شعوب المنطقة . بيد أن هذه المفارقة المنطقية

= من طبيعة الانتاج الفني الذي كان يحمل الى درجة كبيرة بصمات التأثير المصري الكبير ، وإن الانتاج الفني الاسرائيلي لم يكن ليختلف بشيء عن المصريين ويشكل أكثر تخصيصاً عن الفينيقيين . . كذلك ليس معروفاً لنا بالدقة منذ متى بدأ الاسرائيليون بالكتابة . . ولكن الكتابات اليهودية القديمة والتي ترجع الى القرن التاسع قبل الميلاد مكتوبة بأبجدية لا تختلف بشيء عن الفينيقية . . ومع ذلك فإن ما هو متوفر لدينا يدل بوضوح على انها قريبة جداً من الكتابات البابلية . وبعض الطقوس والأناشيد الدينية نجد شبيهاً لها في الأدب المصري القديم .

تجد حلها في المعطيات الواقعية ، التاريخية والتراثية ، التي أتينا عليها . وبذلك ، فان فهمها وحل مغاليتها لا يتحققان للباحث من خلال نصوص العهد العتيق نفسها وعلى نحو مباشر ، بقدر ما يتم عبر دراسة المعطيات التاريخية والتراثية ، التي احاطت بها ، واستكشاف الدلالات غير المباشرة ، التي تتضمنها (أي النصوص) ، وتشير إليها بأشكال رمزية في أحيان كثيرة .

وإذا ما دققنا في الأمر وأوغلنا في مزيد من خصوصيته ، استبان لنا أن كتبه تلك النصوص انطلقوا ، من حيث الأساس الإجمالي العام ، من التصور الديني الايديولوجي بأن التاريخ البشري ذو بعد واحد وذو نسيج واحد : فكل ما يتوافق مع احتياجاتهم ومقتضيات وجودهم المأزوم من موروث الآخرين الأغيار ، يغدو - ببساطة - موروثهم الخاص ؛ وكل ما لا يتوافق مع تلك المقتضيات وهذا الوجود ، يتحول - أيضاً ببساطة - إلى عدوهم الخاص . ومن هنا ، فإنهم إذ يدخلون عالمي التاريخ والتراث ، فان هذين القطاعين يكتسبان عبر ذلك تجسيدهما الأعلى والنهائي . وإذا كان الأمر على هذا النحو من أحادية النظر والتوجه ، فانه - حالئذ - يُصادَر على التاريخ والتراث البشريين ، وذلك بتحويلهما ، ببساطة وقطعية في آن واحد ، إلى تاريخهم الخاص وتراثهم الخاص .

وحين أعلننا - في معرض البحث - ان من نهض بتلك المهمات كانوا كتبة العهد العتيق ، أي الكهنة المالكين لوسائل الثقافة عموماً ، فاننا لابد وان نحدد هؤلاء بأنهم الفئة الدينية المتميزة ، التي نشأت وتنامت في صلب الارستوقراطية القبلية ، وتحولت شيئاً فشيئاً إلى الوجه الصميمي الفاعل منها والحاسم فيها . وجدير بالذكر أن الفئة المذكورة أخذت تنفصل ، في توجهاتها وتطلعاتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وكذلك الدينية ، عن الجناح النازع منزع الاندماج بالمجتمع الكنعاني الزراعي ، أي الجناح الذي أفصح عن توجهات ديمقراطية (مجتمعية زراعية) ، دون أن يفقد اصولاً ارستوقراطية له . لأنه كان من شأن هذا الاندماج ان يقود - في حال تحقيقه وتحوله إلى واقع اقتصادي واجتماعي (وديني) - إلى الاضرار بتلك التوجهات والتطلعات . وقد أخذت عملية الانفصال تلك وقائراً متسارعة مع نهاية عهد صموئيل وانفصال العهد الملكي الجديد نسبياً عن الهيمنة المحكمة للكهنة (الانبياء) .

ولعلنا نضيف الى ذلك أنه في مرحلة أولى كان الكهنة ضد مصالح الفقراء والمفقرين من أفراد القبائل والعشائر ، ومع الاريستوقراطية القبلية الذين كانوا يمثلون وجهاً من أوجهها . أما في مرحلة أخرى تالية ، حيث أخذ يبرز في تلك الاريستوقراطية انشطار لصالح تكوّن اقتصادي زراعي ، فقد وقف أولئك الكهنة المحافظون ، المتشبثون بامتيازاتهم الدينية الايديولوجية وماوراءها من مصالح اقتصادية واجتماعية ، ضد ذلك التكون الجديد ، بقدر ما وبمعنى ما ، والفقراء والمفقرين ، في آن واحد .

لقد تمت عملية التسجيل لنصوص العهد القديم من قبل الجهاز الكهنوتي (النهوي) الحائز بحكم موقعه على وسائل الكتابة والضبط الذهني ، وذلك وفق تلك المتغيرات والمعطيات الشديدة الأهمية والتأثير العميق . نعني بذلك أن العملية المذكورة لم تكن ذات طابع فردي ، قام بها شخص متميز أو أكثر من شخص من اليهود العبرانيين .

لقد كانت - على العكس من ذلك - جماع جهود جماعية أنجزتها فئة الكهنة ، ضمن أجواء من الخصومة والاحتكاك والتوتر والصراع في علاقتها مع الأطراف الأخرى داخل التجمعات اليهودية وخارجها . وهذا ، بدوره ، يشير إلى خطأ وخطل الاعتقاد الديني أو الوضعي القائل بأن «العهد العتيق» ماهو إلا حصيلة العنينات الشفوية الموروثة والكتابات التي سجلها والتقطها جمع محدود من الكهنة . ان مثل هذا الاعتقاد المبسط من شأنه أن يطيح بالتأثير الكبير والفاعل الذي مارسه الكهنة الرسميون الأعلون على أوساط المؤمنين ضمن الاريستوقراطيين والفقراء والمفقرين ، على حد سواء . ذلك أن التأثير المذكور لم يأخذ بعداً واحداً ، بل كان ذا اتجاهات متعددة واحتمالات مفتوحة . فتلك الأوساط أسهمت ، هي بدورها وبشخصها وعبر استجاباتها التلقائية والقصدية للروحانية الدينية ، في توسيع رقعة الكهانة بمثاباتها وظيفية اجتماعية ربما قبل أن تكون وظيفة دينية . وإذا قلنا ان الكهانة تعني ، هنا تحديداً ، الامكانية «المقدسة» لامتلاك «أسرار» اللغة المكتوبة ، أي «الكلمة المقدسة» ، فإنه يتضح الدور الكبير الذي اسهمت فيه تلك الأوساط - على الأقل عبر استجاباتها المذكورة آنفاً - باتجاه جعل الكهنة المحتكر لكتابة النصوص وتعديلها زيادة أو نقصاناً الخ . . ، وذلك بأشكال واسعة النطاق ومتعددة الاحتمالات

من قبل من توارد من الكهنة واتباعهم وأتباع أتباعهم الخ . . ومن الأهمية الفائقة
يمكن أن نشير إلى المعطيات التاريخية المباشرة ، التي احاطت بعملية تسجيل نصوص
«العهد العتيق» . ذلك لأن القيام بهذه الخطوة من شأنه أن يلقي ضوءاً ليس على آلية
تكونها التاريخي فحسب ؛ انه يقدم ، كذلك ، لوحة تكونها وتوضعها تراثياً
وبنيوياً . فإذا كنا - في موضع سابق من هذا البحث - قد أتينا على ما وصل إليه
البحث العلمي في تأريخ مراحل نشوء تلك النصوص ، فإن هذه الأخيرة ما كان لها
أن تكتسب صيغتها الأولية العامة إلا قبل بضعة قرون قبل الميلاد ، في حين أن
شكلها النهائي (في حدود إقرارها والاعتراف بها في حينه) لم يبرز إلى الوجود قبل
القرن الأول بعد الميلاد ^(١) .

إن الانطلاق من ذلك التحديد العام والتفريسي تترتب عليه نتائج لها
خصوصيتها على صعيد المراحل التي تمت فيها عملية التسجيل المنو بها . فلقد
جاءت هذه الأخيرة تجسداً لخطط مستقبلية وضعها كبار الكهنة وملاك العبيد
والمرايين في بابل تحسباً للمرحلة التي توقعوا قدومها ، مرحلة العودة من «النفي
والشتات» إلى بلد «الغربة» ، حيث «يسيل اللبن والعسل» . ضمن هذا الموقف
الانعطافي التاريخي بالنسبة إلى أولئك ، نستطيع القول مع مؤلفي «تاريخ
العالم» : ^(٢) «كثير من اليهود الذين نقلهم نبوخذ نصر الثاني ، والذين عمل
معظمهم في الحرف والنشاطات الأخرى ، وخاصة أن كثيرين منهم كانوا سابقاً
ملاك عبيد ، أو مرايين ، أو كهنة ، فإنهم أخذوا يضعون خططاً تتعلق بوضعهم
عندما يعودون إلى القدس . ولكي يضمّنوا لأنفسهم وضعاً مسيطراً حيثئذ ،
انتشرت بين هؤلاء حركة سياسية دينية ربطت نفسها بتقاليد ما يسمى بحركات
الأنبياء في المنطقة ، وكان من أبرز قياداتها في منتصف القرن السادس قبل الميلاد
حزقيا أحد وجهاء القدس» . ولا بد أن نضيف إلى ذلك أن الكاهن الأكبر عزرا ،
أيضاً ، أسهم إلى حد أساسي وعميق في كتابة الأسفار التوراتية ؛ وهذا تم في

(١) انظر : موريس بوكاي - دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ، نفس المعطيات
المقدمة سابقاً ، ص ٢٥ .

(٢) تاريخ العالم - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٤٩٣ .

المرحلة المشار إليها آنفاً ، وهي مرحلة ما بعد السبي ^(١) .

وهنا ، نغدو أمام وضعية مفضلة ، بدرجة ما ، وذات دلالة بنيوية ملفتة في دراسة نصوص «العهد العتيق» ؛ تلك هي أن هذا الأخير وإن كان يشكل وحدة عامة إجمالية وعمومية ، إلا أن هذه الوحدة ليست من النمط الذي يخنرق تلك النصوص عمقاً وسطحاً على المستوى البنيوي . وليس في ذلك ما يدعو إلى الدهشة أو التحفظ ، طالما أن الكتب التوراتيين لم ينطلقوا - أساساً - من مواقف ومواقع واحدة ومتجانسة . أما مبحث عدم الوحدة والتجانس هذا فيمكن أن يعزى إلى الوضعيات الاجتماعية التاريخية المشخصة ، التي ألمت باليهود (وضمنهم قاداتهم من الكهنة ومن حولهم) ، خصوصاً منذ السبي وحتى العودة أولاً ، وإلى كثير أو قليل من التمايز في المصالح الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للكتبة المذكورين ثانياً . ولعله وارد ، من طرفنا ، أن نمنح الأهمية الكبرى والرجحان للعامل الأول في صوغ النسيج اللامتجانس في النصوص المعنية . ذلك لأن نشوء النزوع والتوجه الروحانيين في بعض الأوساط الكهنوتية اليهودية لا يمكن فهمه بعيداً عن عملية السبي ومارافقتها وما ترتب عليها من عواطف حنين وتشوق إلى «المسيح المخلص» ، الذي سيقوم بتخليص اليهود من المحن التي ألمت بهم . ولا يجب أن يفوتنا - إضافة إلى ذلك - أن الأوساط العليا اليهودية كان من مهماتها ، مجتمعة ومتفقة عموماً ، أن توجج تلك العواطف وذلك الحنين على نحو يحيلهما إلى مترع من منازع ما اعتبروه «الشخصية اليهودية المتفردة» . وعلى ذلك ، فقد تكونت نصوص العهد العتيق وهي تحمل وشم ذلك الخليط المتسع والمتعدد من التوجهات والرغبات ، التي خضعت لتحولات الزمن والمكان اللذين تبلورت فيهما . وهذا ما يجعل الأمر أمامنا متاحاً ومشروعاً لكي نطلق على «العهد العتيق» ما أطلقه لاحقاً علي بن أبي طالب على «القرآن» من سمة إجمالية وتعميمية لتوجهاته واحتمالاته البنيوية ، تلك السمة هي أنه «خمال أوجه» . (علماً أن هذه السمة تنطبق كذلك وكما سيبرز معنا لاحقاً على نصوص «العهد الجديد») .

ومن الوارد ، حقاً ، أن تثير وضعية مترعة بالمحن والمصائب والأزمات ،

(١) محمد محفل : ندوة التوراة والتراث - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٨٥ .

التي تكاد تكون متصلة ، نزوعاً انسانياً صاخباً أو هادئاً مضمناً في نفوس فئة من المثقفين (الكهنة) ، يتجه نحو الكونية ويدعو - رداً على الآلام الخاصة - الى وحدة البشرية العامة ، ويشر بها ؛ كما كان - من وجه مقابل - وارداً أن تأتي فئة أخرى (كانت على كل حال هي الأقوى والأحسم) لتجعل من تلك الوضعية منطلقاً لتأريث الصراع والاقتتال بهدف التهديم والانتقام من الآخرين من «خطيئة» لم يرتكبوها بالأصل (لنتذكر «العقدة الحضارية» التي أتينا على الحديث عنها) . ونحن نعلم أن الفئة الأولى - وهي الأقل تأثيراً وفاعلية وحضوراً في التاريخ اليهودي اليهودي - هي التي بلورت وطرحت تصورات «الرؤيا» و«الخلاص» و«المسيح» . ومن هنا ، كان البحث في نصوص «العهد العتيق» مدعواً ، بالضرورة ، إلى أن يأخذ باعتباره هذه المسألة ، النموذجية على صعيدها . وهذا ، بدوره وحيث يؤخذ به شخصاً وتطبيقاً ، يتيح للباحث حق القول بأن التاريخ اليهودي اليهودي لا يخرج ، هنا وفي هذا السياق من المسألة خصوصاً ، عن دائرة التاريخ العالمي العادي ^(١) .

لعلنا بعد إذ أتينا على ما أتينا عليه من مسائل دقيقة حرجة ومخرجة منهجياً ، أن نتبين الجذور الاقتصادية الاجتماعية والايديولوجية والهيكلية التنظيمية والديموغرافية الإثنية لما غدا معلماً من معالم اليهود العبرانيين ، وهو أنهم «شعب مقدس» و«شعب الرب» و«الشعب المختار المصطفى» . بيد أنه لا ينبغي أن يُقهم من ذلك أن الكهنوت المتزعم تمكن ، فعلاً ، من تحويل اليهود العبرانيين جميعاً الى

(١) روجيه غارودي يدرك هذا الوجه من المسألة المعنية ، وإن بتدقيق مُقلّ فيما يتصل بالحديث عن «تيارين» اثنين يبدو أنه ينظر اليهما كما لو أنهما متساويان في حسم الموقف التوراتي . فهو يكتب مايلي : «إذا كان صحيحاً تعايش تيارين نابعين من التوراة ومن التأثيرات الخاخامية ، وهما : النعمة الروحانية الكونية المتمثلة في تبشير الرسل بالخلاص الكوني المنتظر ، والتزعة القومية الضيقة - كما تبدى على الأخص في كتاب (يوشيا) حول المذابح والابادة المقدسة ، أولدى عزرا ونحميا في كتب التمييز العنصري والحكم الديني بخدمة التعصب المتطرف - فإن الصهيونية تمثل (قراءة) وحيدة الجانب ، انتقائية ، نافخة في ابواق القومية ، على حساب نمو اليهودية الروحي» : (روجيه غارودي : ملف اسرائيل - جريدة السفير ، بيروت ٢٢/٣/١٩٨٣) .

صفوفه عن طريق أدلتهم باسم القداسة والتميز والاصطفاء ، التي اضيفت اليهم ، بشكل أو بآخر . فمع الإقرار بنشوء خصوصية نسبية مشددة للعلاقة بين الرب (أي الكهنوت) من طرف ، وبين اتباعه أولئك من طرف آخر ، فإن ما يهمننا في ذلك يكمن في ملاحظة الكيفية التي تمكن عبرها الكهنوت ، البابلي خصوصاً ، من تعبئة الموقف الايديولوجي اليهودي عموماً باتجاه تكريس صيغة المناهضة للشعوب الأخرى عبر التصور الكبير المثير : «مالاً آخر لنا ، أما الآخر نفسه فعدونا» تكريساً ظهر قوياً فاعلاً في «النصوص المقدسة» ، بل مهيمناً في متنها العام .

ولا ريب أن نظرة راصدة متفحصة في الكيفية التي برزت وفقها مواقف الكهنوت اليهودي ازاء العناصر الذهنية الشرقية ، تتيح لنا أن نكون مقاربات أولية وربما كذلك تقريبية حول المسألة التي نحن بصدد البحث فيها ، ومحاولات تجعلنا قادرين على تلمس خصوصياتها النسبية من الداخل ^(١) .

فعلى صعيد التصور الكوني ، نواجه تأكيداً مضمناً على أن الرب (الله) إذ يخلق العالم ، فإنه لا يخلقه من خواء كوني مطلق . «الخلق» يعني - هنا - صقل العالم عبر نقله من الفوضى السديمية ، التي تمثل مادة العالم الضمنية ، الى حالة النظام والانتظام :

«في البدء خلق الله السماوات والأرض . وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلامٌ وروح الله يُرف على وجه الماء» ^(٢) .

أما كيفية إنفاذ الخلق ، فإنها تكتسب صيغة الفعل بالكلمة وبالتسمية . فإن يلفظ الرب الشيء وأن يسميه ، يعني أن يكون كوناً :

«وقال الله ليكن نور فكان نور . ورأى الله النور إنه حسن . وفصل الله بين النور والظلام . وسمى الله النور نهراً والظلام سماء ليلاً . وكان مساءً وكان صباح يوم واحد . وقال الله ليكن جلدٌ في وسط المياه وليكن فاصلاً بين مياه

(١) حول العناصر الذهنية الشرقية الأساسية على هذا الصعيد ، انظر كتابنا : الفكر العربي في بواكيره وآفاقه الأولى - نفس المعطيات المقدمة سابقاً .

(٢) الكتاب المقدس - سفر التكوين ١/٢

ومياه . . . وسمى الله الجلد سماء . . . وسمى الله التيس ارضاً ومجتمع المياه
سماء بحاراً» (١) .

وإذا ما كان هنالك ابداع للإنسان من مادة غير انسانية ، فانه (الانسان) غداً
محتماً عليه ان يتخلى عن هوس الخلود . الخلود هو فقط للكون في كليته وعموميته ،
وليس للأشياء الكونية ، وضمنها الانسان ، بخصوصياتها وفردياتها . طبعاً ،
نحن لا نواجه ، على هذا الصعيد ، موقفاً واحداً موحداً في الفكر الشرقي المعني .
فهذه الوضعية نلقاها لدى المصريين بصورة مختلفة ومتميزة عما هي عليه لدى
الرافديين . و«العهد العتيق» اليهودي العبراني ، في تصوره عن الرب بمثابته القوة
الوحيدة المهيمنة المطلقة والتي لا تحتمل وجود قوى الهية اخرى الى جانبها (بالرغم
من أنه وجدت أمثال هذه القوى الأخرى لدى اليهود الذين اندمجوا بالشعوب التي
أحاطت بهم) ، ان العهد العتيق هذا يأخذ بتصوير الانسان «الطاريء» ، مقابل
الانسان «الخالد» ، الذي يرفضه رفضاً قطعياً ؛ وهو - في ذلك - ينطلق ،
بالأساس ، من رفضه لتصوير الشُّرك (المشاركة) (٢) . فرفض هذا التصور بل
مناهضته بحزم ، جسد أمراً ذا دلالة وظيفية مبدئية تمثلت بمطامح الكهنوت الأعظم
لمنع هيمنته ضمن الأوساط اليهودية العبرانية طابع القداسة التي لا تمس . إنها ،
والحال كذلك ، تجعل من تصور الشُّرك المذكور معادلاً للهرطقة التامة . ومن هنا ،
لم يكن هنالك تسامح بهذه المسألة : فالوصول الى القول بـ «الشُّرك» مثل طريقاً

(١) نفس المصدر السابق ومعطياته ١٠، ٨، ٦-٣ / ١ .

(٢) لقد تسامح الرب مع آدم حين أكل وزوجه حواء من «شجرة معرفة الخير والشر» ، حيث
أصبحا «كآلهة» يعرفان الخير والشر ، ولكنه بعد ذلك قرر وأنفذ قراره باخراجهما من جنة عدن
قبل أن تسوغ لهما نفساهما بمحاولة معرفة «شجرة الحياة - الخلود» :

«فقلت الحياة للمرأة لن تموتاً . انما الله عالم أنكما في يوم تأكلان منه تفتتح أعينكما وتصيران
كآلهة عارفي الخير والشر . . . وقال الرب الاله هوذا آدم قد صار كواحد منا يعرف الخير
والشر والآن لعله يمد يده فيأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل فيحيا الى الدهر . فأخرجه
الرب الاله من جنة عدن» . (نفس المصدر السابق ومعطياته ٣ / ٥-٤ ، ٢٢-٢٣) .

وسوف نتعرض لاحقاً لرأي جيمس فريزر في موقع «شجرة الحياة» من التوراة وفي علاقتها بـ
«شجرة الخير والشر» ، لأنه يضعنا أمام احتمال آخر لفهم المسألة .

باتجاه التشكيك بالهيمنة الدينية (الايديولوجية) وما وراءها من هيمنة اقتصادية واجتماعية وسياسية للكهنة إياه .

ومع ذلك بل بالرغم من ذلك ، كان هنالك من الآلهة من شارك الرب يهوه في الوهته . وكانت تلك الآلهة غالباً ما تكون منحدره من وسط الشعوب الأخرى . وقد أتينا في مواضع متعددة من هذا البحث - ومن موقع نصوص من العهد العتيق - على ذكر مجموعة من الأحوال التي كان فيها عامة اليهود عرضة للتشكيل الشديد من قبل هيئة الكهنة المتزعمة بسبب عبادتهم آلهة متعددة دون عبادة يهوه . ولاحظنا أن ذلك ارتبط بعملية اندماج أولئك بالكنعانيين خصوصاً ، وبالتالي بتمردهم عليها بأشكال اكتسبت أحياناً طابع الانتفاضات المسلحة . ومن ثم ، فإن اللجوء إلى آلهة أخرى مثل عملاً وظيفياً ذا أبعاد اقتصادية واجتماعية وايديولوجية . ان ملاحظة واقع الحال هذا لعلها تعيدنا إلى مسألة البنية الايديولوجية للمجتمع المشاعي القروي في كنعان . فهنا ، نتبين أن هيمنة مطلقة للطبقة الارستوقراطية لم تكن ممكنة ، وذلك - بحلو أدنى أولي - بسبب من مشاركة الطبقة الأخرى لها في بعض أوجه من الحياة الدينية والسياسية ، وكنا قد أعدنا هذه الحالة الى الوضعية التي قامت على «الملكية» و«الحيازة» . ألا نستطيع ، والحال كذلك ، أن نرى في واقع الحال هذا تفسيراً أو بعض تفسير لتلك «المشاركة» ؟ وإذا كان كلا الطرفين يجدان أن مصالحهما الحيوية الأساسية تتحقق بالمحافظة على تلك الحالة ، فانهما (ونعني بهما الكهنة المتزعم وجمهور اليهود) لم يكونا ليخرجا عن دائرة المجتمع الزراعي ؛ هذا مع الإشارة الضرورية الى أن الطرف الأول - الكهنة - ظل موقعه من ذلك المجتمع غير محسوم بصورة نهائية وقطعية ، وذلك بسبب ما حددناه تحت إطار «العقدة الحضارية» .

ان تفسير نشوء ظاهرة «الشرك» في الألوهة اليهودية نستطيع ، إذن ، أن نجد منطلقاته أو بعضها في الخصوصية النسبية التي تقوم عليها العلاقة بين الطبقتين المذكورتين (والحديث هنا عن «طبقتين» يلح بالدرجة الأولى على الدلالات الوظيفية الاقتصادية والسياسية والدينية الخاصة بهما) ؛ ومن ثم في العلاقة بين الملكية والحيازة .

ورغم ذلك ، فقد ظلت الطبقة الارستوقراطية الكهنوتية تطمح إلى الهيمنة المطلقة على كل الأصعدة - ومن ضمنها الصعيد الديني الالوهي - . وبالطبع . لم يتحقق لها ذلك بحكم آلية المجتمع المشاعي القروي وما أحاط به من أخلاط اجتماعية اقتصادية حملها اليهود العبرانيون معهم كبذو رعاة . ولكن ما يلفت النظر هو أن الطبقة المعنية قد استطاعت ، حقاً ، أن تقود هيمنتها الدينية إلى حدود الكلية ؛ ولكن ذلك لم يخرج عن حدود هيمنة ايديولوجية وهمية تمثلت لاحقاً بـ «يهوه الواحد الأحد» ، الذي عرّف ذاته حيث اعلن بأنه «هو الذي هو» .

وقد لاحظنا اتجاه فرض الهيمنة الكاملة والمطلقة في التفسيرات التوراتية الأولى لنشوء الانسان (آدم) . فهذا الأخير لم يكن مسموحاً له ، بدءاً وأصلاً ، أن يقارب الآلهة أو يشابهها أو يماثلها . وقد تمثل ذلك الحظر القطعي بأمرين اثنين كبيرين رأى الرب يهوه أنهما منه وإليه ، وهما المعرفة والخلود . ومن الطريف الدال أن نلاحظ كيفية انتزاع آدم (الانسان) الأمر الأول ، وعجزه عن تحقيق الأمر الثاني . ونحن ، من طرفنا ، نستطيع أن نرى في هذه العملية اللاهوتية الاسطورية موازنة لما كان يحدث على صعيد الواقع اليهودي العبراني المشخص أي أننا نحولون بأن نرى في اللوحة التوراتية المتمثلة بالرب والحياة وآدم وحواء وجهاً من أوجه التورية والتضمين والترميز لما كان يحدث من خصومة واحتكاك ربما وصلاً إلى حدود صراع لا آفاق له بين الكهنوت وجمهور اليهود إلا حيث كان الأمر يقود إلى الاندماج بالشعوب الأخرى ، أو - وهذا هو الحد الأعلى - إلى الانصهار فيها .

وإذا ما أخذنا النصوص التوراتية المتعلقة بمسألة الهيمنة تلك الطامحة لأن تكون مطلقة دون أن تصل إلى ذلك ، فإنا نقرأ مايلي منها ، على أن نضعها في سياقها التوروي الوظيفي المحدد آنفاً :

«وان الرب الاله جبل الانسان تراباً من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار الانسان نفساً حية . وغرس الرب الاله جنة في عدن شرقاً وجعل هناك الانسان الذي جبله . وأنبت الرب الاله من الأرض كل شجرة حسنة المنظر وطيبة المأكّل وشجرة الحياة في وسط الجنة وشجرة الخير والشر . . وأمر الرب الاله الانسان قائلاً من جميع شجر الجنة تأكل . وأما شجرة الخير والشر فلا

تأكل منها فإنك يوم تأكل منها تموت موتاً» (١)

وقد «تجراً» الانسان (آدم) على فعل تلك الفعلة المحظورة حظراً مبدئياً ، فآكل من شجرة المعرفة ، وأصبح قادراً - كالاله - على معرفة الخير والشر . ولكن هذا إن حدث ، فإن الأمر الثاني لا يجوز ، بحال ، أن يحدث : أن يصبح الانسان ندأً للاله الرب ومساوياً له في الخلود . اذ هاهنا ، تتعرض الهيمنة لعملية اختراق عميق يتصل بنشوء شرخ في بنيتها الداخلية المميزة عما سواها . ولكنها (الهيمنة) على الصعيد الواقعي كان عليها ان تتعرض لرياح مؤرقة عاصفة ، حين كانت اتجاهات الاندماج والانصهار تفرض نفسها على الكهنوت العلي (الرب يهوه) . ومن هنا ، فنحن نميل الى القول بأن «شجرة الحياة» نيّطت بها مهمة أساسية وحاسمة لا تقل - بالحد الأدنى - عن أساسية وحسمية المهمة التي نيّطت بـ «شجرة المعرفة» . وهذا القول يتعارض مع رأي جيمس فريزر في المسألة ، حيث اعتبر الباحث المذكور أن تلك «الشجرة الرائعة لا تلعب أي دور في قصة السقوط الحقيقية . فعلى الرغم من أن ثمارها كانت تتدلى منها يانعة القطوف ، وعلى الرغم من أنه لم يكن يحول بين الانسان وبين هذه الثمار أي تحريم إلهي ، على عكس ما حدث مع شجرة المعرفة ، فإن أحداً من الأبوين لم يفكر في قيمة تناول شيء من فاكهتها اللذيذة ، فيعيش الى الابد . . بل ان الرب نفسه لم يتذكر هذه الشجرة العجيبة التي تقف بإمكانيتها غير المحدودة مهمة وسط الجنة ، الا بعد ان قضي الأمر وانتهى كل شيء ، وقد خشي الرب بعد أن أصبح الانسان صنوه في المعرفة عندما أكل من ثمار شجرة المعرفة ، ان يصبح كذلك خالداً مثله إذا ما أكل من شجرة الحياة ، ولذلك فقد أسرع بطرده من الجنة» (٢) .

ولعله واضح أن فريزر ، في رأيه ذاك ، أهمل التحليل الاجتماعي والاقتصادي الذي يقود الى اكتشاف ما يوازي القصة إياها على صعيد الواقع الشخص ، ذلك الواقع الذي مارس في صوغه الكهنوت اليهودي وعلاقاته المركبة

(١) نفس المصدر السابق ومعطياته ١٧-١٦، ٩-٧/٢ .

(٢) جيمس فريزر : الفولكلور في العهد القديم - ترجمة د. نبيلة ابراهيم ، مراجعة د. حسن ظاظا ، الجزء الأول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢ ، ص ٤٨ - ٤٩ .

المعقدة مع «محيطه» الكنعاني ، بصورة خاصة . ولذلك ، ما كان عتملاً أن تُكتشف على يد فريزر الدلالات «الأخرى» لقصة «الشجرتين» . ولعله يبقى صحيحاً ما وصل إليه الباحث المذكور اذا وضعناه في اطار التحليل الذي مارسه على هذا الصعيد ، وهو التحليل والنقد الداخلي للنص التوراتي .

وجدير بالنظر - في هذا الحقل الذي يحتمل وجود عدة احتمالات ودلالات - «طبيعة» الرب يهوه ؛ لأن من شأن ذلك أن يعمق رؤيتنا لتصور «الهيمنة» المأتي عليه فوق . ان هذه «الطبيعة» ، كما يبدو ، تمتع الشيء الكثير من «آتون» المصري . وربما أتاحت لنا ، هنا تخصيصاً ، امكانية اكتشاف حدٍّ من التناقض في تلك الطبيعة وفي النظرة التوراتية الكهنوتية إليها . ان الرب اليهودي العبراني لا يجسد طبيعة مجردة معممة ، حسب ، بل تمتد شخصيته ، كذلك ، إلى جذور الشخص الحسي والمجسم . ان شموليته وهيمته الكلية ، وتجريدته وتعميمته تمثل - مجتمعة - الوجه الأول منه ؛ أما وجهه الآخر فيظهر في تشخصه وتحسسه وتجسمه . وبذلك ، يغدو يهوه الرب هو البعيد القريب ، والقريب البعيد . وربما سمحنا لأنفسنا أن نتبين ، في هذه الوضعية الباكرا ، ارهاصاً أو إرهابات على طريق ما سيقدم نفسه تحت تعبير «العناية الالهية» ، حيث يعرف الرب الاله الكليات والجزئيات ، وحيث يتدخل فيها قادراً فاعلاً .

ومن الهام ان نشير إلى أن ذلك التجادل بين وجهي الرب الاثنين لا ينطوي على دلالة ملفتة وأساسية فقط على صعيد الكيفية التي تمت بها عملية التبني التاريخي والاستلهام التراثي ، التي أنجزت على يد الكهنوت القيادي إزاء الفكر الشرقي السابق عليه والمعاصر له . إن هذه الدلالة تتضح ، كذلك وربما بأهمية اكبر واكثر تأثيراً ، على صعيد العلاقة العملية - الايديولوجية السياسية والاقتصادية - بين الرب يهوه (الكهنوت) وجمهور عبْدته والمؤمنين به . فأن يتسم ذلك الأخير بسمات الشمولية والهيمنة الكلية والتجريدية والتعميمية ، أمر لازب من أجل إنفاذ وحدة الموقف الايديولوجي الديني (الوهمي كما لاحظنا في موضع سابق) ، أي التصور بأن اليهود العبرانيين يمثلون الحقيقة الربانية الوحيدة ، المصطفاة . ولكن تحويل هذا الموقف الى فعل ناجز في أوساط اولئك وأوساط الأغيار «الغوييم» في جميع الحقول

الحياة ، يقتضي ان يكون الرب رباً في السماء ورباً في الأرض ، كليهما أو بالأحرى أن يكون الرب في الأرض أولاً ، وفي السماء ثانياً . وهذا يقتضي منه أن يكون قادراً على التقاط وسماع وشوشة الأذن للأذن والقلب للعقل . وفي هذا ، ولاشك ، قوة رادعة عظمى وللمدى البعيد والأكثر بعداً لمن يغامر إذ يعتقد أنه في مفلت من عينيه واذنيه ويديه العملاقين . وحيث يكون الأمر كذلك ، فإن خطأ مشتركاً عميقاً يخرق البنية النظرية والوظيفة الايديولوجية ، اللتين ينطوي عليهما الرب اليهودي العبراني :

«فقال موسى لفرعون اقترح علي متى تشاء أن اشفع فيك وفي عبيدك وشعبك فتقطع الضفادع عنك وعن بيوتك وتبقى في النهر فقط . قال غدا . قال كما قلت لكي تعلم أنه ليس للرب إلها نظير» (١) . وقال الرب لموسى «أما وجهي لا تستطيع أن تراه لأنه لا يراني انسان ويعيش . . ويكون إذا مرّ مجدي اني أجعلك في نقرة والصخرة وأظلللك بيدي حتى اجتاز . ثم ازيل يدي فتنظر قفائي وأما وجهي فلا يرى» (٢) .

ان امتناع رؤية المؤمنين الاتباع ربهم مواجهة ، أمر يدخل في سياق العملية التجريدية المشار إليها توتاً . ولكن - من طرف آخر ودون أن نكون قد قمنا بتحميل الموقف أكثر مما يحمله - نرى أنه كمنت في ذلك الامتناع القطعي دلالة ايديولوجية بالغة الوضوح تنهض على استحالة مراقبة ما يحدث على الصعيد الرباني (لنقرأ بوضوح : الكهنوتي) من قبل أولئك العجزة . ولكن ، لم ذلك ؟ الجواب يكمن - ببساطة - في «عجز الانسان» أصلاً عن أن يكون قادراً على الرؤية . فليس هنالك نذية تسمح بذلك (٣) .

وإذا ما حدث أن تجرأ أحدهم على الزعم بقدرته على رؤية الرب ، فإنه لا يعيش . بل ان الأمر يكتسب حداً من التحضير الشامل والرادع يغدو فيه لفظ اسم الرب غير جائز إلا في حالات استثنائية . فحسب اندريه شاروكي في كتابه حول

(١) الكتاب المقدس - سفر الخروج ٨ / ٩-١٠ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطياته ٣٣ / ٢٠ ، ٢٢ .

(٣) انظر حول ذلك : B. Spinoza- Der Theologisch- politische Traktat, a.a.o., S. 52.

الفكر اليهودي ، «لا يجوز ان يلفظ هذا الاسم الا مرة واحدة في السنة من قبل
الحاخام الاكبر في القدس بمناسبة عيد الغفران» (١) . فهنا ، يتحول لفظ الكلمة
أمراً مرهوناً بـ «الكلمة» نفسها ؛ ذلك ان هذه الأخيرة - مأخوذة بمثابقتها فعلاً أمراً
متجسداً بالتنفس والتفوه - هي الرب نفسه . وإذا كان الأمر كذلك ، فقداسة هذا
الأخير لا يرقى إليها الشك ولا يدانيها أحد . والحاخام الأكبر نفسه اذ يلفظ
«الاسم» ، اسم «الجلالة» ، فانه يفعل ذلك بصفته ممثله الشرعي . وعلى ذلك ،
يتضح أن القداسة هي من خصائص الرب (مثلاً ، كما لاحظنا ، بالعلوية) . فهي
تتخرقه اطلاقاً ، أي على نحو غير مشروط بالجهة والمكان والزمان ، مثله ، في
ذلك ، ربما مثل الفرعون الاله المصري ، الذي كانت رؤيته من قبل الآخرين
مواجهةً كأنما هي النار التي تحرق وتصدع . (وسوف نأتي على مسألة «المواجهة» هذه
في سياق آخر لاحق ، وذلك في الفصل السادس والفقرة ١) .

ولابد ، إذ بلغنا هذا المنعطف من المسألة ، أن نلاحظ أن الهيمنة المطلقة
للرب الاله لم تكن «لُتكتشف» مرة واحدة من قبل الانسان (آدم) . فقد كان على
هذا أن يمر بمرحلتين اثنتين على الصعيد المعني ، مرحلة ما قبل المعرفة ، ومرحلة
المعرفة . ففي الأولى لم يكن آدم يعرف أن الرب الاله كلي الوجود والحضور ،
وكلي المعرفة . فلقد اختبأ وزوجه حواء فيما بين شجر الجنة ، حين ناداهما بعد أكلهما
من شجرة الخير والشر ، خشية ان يراهما وهما عُريانان . فهما لم يعرفا ان يهوه
يدرك ويرى الكل والجزء ، ولم يعرفا أنه ذو حضور كلي ؛ فهو موجود ، حيث هما
موجودان (٢) . أما في المرحلة الثانية فتعدو معرفة دينك الأمرين واردة من قبل
الانسان (ورثة آدم وحواء) . وفي المرحلتين كليهما تبقى معرفة الرب هي الأكثر

(١) عن : غاستون بوتول وآخرون - الحروب والحضارات ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص

«فنادى الربُ الالهَ آدمَ وقال له أين أنت . قال إني سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأنني
عُرْيَانٌ فاخترتُ . قال فمن أعلمك انك عريان هل أكلت من الشجرة التي نهيتك عن ان
تأكل منها . فقال آدم المرأة التي جعلتها معي هي اعطتني من الشجرة فأكلت» . (الكتاب
المقدس - سفر التكوين ٣/ ٩-١٢) .

شمولا وكلية من أية معرفة انسانية . وجدير بالاشارة الى ان آدم وحواء ، اللذين أكلا من شجرة المعرفة ، استطاعا ان يحققا بعد ذلك حداً أول من المعرفة ، وهو معرفة نفسيهما : لقد عرفا انهما عريانان ، فحجلا ، فاختبأ . لكنهما لم يصلا الى المعرفة الأخرى ، وهي ان الرب يعرف كل شيء . هاهنا ، نلاحظ ما يقترب من نزوع أولي لتورخة (من تاريخ) المعرفة الانسانية ، مقابل المعرفة الالهية التي تتأبى على كل نمط من أنماط التورخة ^(١) . في هذه النقطة ، نجازف ونطرح التساؤل التالي : ألعنا نرى في تلك الوضعية لوحة لنمو معرفة الانسان للاله الرب معرفة تتوقف عند الحد السلمي منها ؟ فأنا يعرف الانسان ان الرب يعرف كل شيء ، دون أن يتقدم خطوة أخرى على هذه الطريق ، فيعرف ماذا يعرف الرب ، أي فيكشف عن المعرفة اللدنية الربانية ، إن هذا الأمر ذو أهمية وظيفية دلالية في نطاق ما نحن نبحث فيه الآن .

فلقد كان من مقتضيات الموقف الكهنوتي المتزعم أن يدع الأمر مغيباً فيما يتصل بالبنية الوجودية ليهوه ؛ لأن ما تجهله ، هو الذي يحيط بك ويقودك ، خصوصاً وان هذا المجهول معلوم بمعنى ما ، هذا المعنى الذي يؤكد طوعاً وقسراً على أن ذلك «المجهول» يعرف كل شيء ويملك كل شيء ، وهو كلي الوجود والحضور . واذن ، فنحن هنا إزاء نمط من المعرفة يتحول الى «لامعرفة» ، إذ يقر بأن ما يعرفه لا يعرفه إلا من حيث هو غير خاضع للتعريف الانساني ومتأب عليه .

ان تعميق المعالجة التي نقوم بها ، هاهنا ، أصبحت تشير إلى جانب آخر من المسألة لعله هام جداً بالنسبة إلى ما نضعه الآن نصب أعيننا . انه التصور اليهودي حول «النبي» و«الرب» . وقد نبه إلى ذلك ، في حينه ، الفيلسوف سبينوزا في بحثه اللاهوتي السياسي ، حيث كرم من عدة فصول لتصوير «النبوة اليهودية» ^(٢) .

(١) سبينوزا يتحدث في كتابه (Der Theologisch-politische Traktat, a.a.O.S., 49-53) عن مظاهر هذا التحول في المعرفة الانسانية انطلاقاً من آدم وانتهاء بموسى وغيره . ولكنه (سبينوزا) يظل بعيداً عن ملامسة ذلك التحول بمثابته عملية ذات بعد تاريخي على صعيد المعرفة الانسانية ، أي بمثابته تاريخاً انسانياً ، مقابل اللاتاريخ الالهي ، أي المطلق الكلي .

2) Siehe: Baruch Spinoza- Der Theologisch-politische Traktat, a.a.O., S. 17-76.

وجدير بالذكر ان مابينوزا ينطلق ، في طرحه للمسألة ، من نصوص «العهد العتيق» نفسها . وفي الحقيقة ، من الممكن صوغ رؤية أولية حول المسألة المعنية نستطيع عبرها أن نلقي أضواء مكثفة على ما عالجناه في أكثر من موضع من هذا البحث ، وهو العلاقة بين الدين والسلطة في المنظور اليهودي . وبطبيعة الحال ، فإن دراسة التصور النبوي اليهودي تقتضي الدخول في نصوص العهد العتيق بنيوياً ، أي في تموضعها النصي الأخير (نسبياً) ، دون أن يقود ذلك الى إهمال وجهها الآخر ، وهو التاريخي .

نقرأ على صعيد المسألة النص التالي ، الذي لعله ينطوي على مفتاح للدخول في عمق التصور النبوي المعني (وربما كان هذا النص هو الوحيد في العهد العتيق ، الذي يفصح بدقة ووضوح عن مسألة «الرؤية» و «الإرادة» واستحالتها مواجهةً ، وكذلك عن مسألة التراتب الهرمي السياسي والاجتماعي في التصور التوراتي) :

«فقال الرب لموسى انظر قد جعلتك الها لفرعون وهرون أخوك يكون نبيك . أنت تتكلم بجميع ما أمرك به وهرون أخوك يخاطب فرعون ان يطلق بني اسرائيل من ارضه»^(١) .

ان في هذا النص اموراً بيّنة وذات دلالة ملحوظة بالنسبة الى العلاقة بين الدين والسلطة ، وبين الايديولوجيا والسياسة ، بين الرب والاله ، واخيراً بين الاله والنبي . هاهنا ، نتبين علاقة تضائية بين الدين والسلطة وبين الايديولوجيا والسياسة . إذ لا يمكن - وفق الوضع القائم - تصور موسى (الكاهن والسياسي) بعيداً عن «ربه» ، كما لا يمكن - من طرف آخر - تصور هذا الأخير بمعزل عن ذلك . فبالإضافة الى أن الوضع المعني يقدم وثيقة واضحة وثمينة على انكسار تصور التعالي اليهودي ، فإنه - أي الوضع - يحمل إلينا ، على نحو وظيفي وبوضوح عميق ، الآفاق الأساسية والكبرى لتحول الكهنوت اليهودي الى كهنوت سلطوي فاعل ، بل حاسم على لصعيده . فهو يتحدث باسم الرب ؛ كما أن الرب يعلن تعاليمه وأوامره عبره وبصوته . وكلاهما ، من ثم ، يعبر عن الآخر ضمن علاقة

(١) الكتاب المقدس - سفر الخروج ٧ / ٢-١ .

متضايقة بنيويا ووظيفياً . هاهنا ، يظهر - بكثير من التشديد والتكثيف السياسيين
الايديولوجيين - الحق الرباني ، الذي يمتلكه الكهنوت وحده في قيادته السياسية
والاجتماعية والاقتصادية والدينية ، وذلك على نحو يغدو من مقتضيات الوجود
الكهنوتي أن يمارس الكهنوت ، علناً ودون غمغمة ، دور الملك والكاهن
والمالك . وهذا ، كله ومجتمعاً ، يتحول - والحال كذلك - إلى شخصية واحدة
موحدة تتجلى وتظهر عبر ثلاث أقنية كبرى ، هي تلك المذكورة .

وإذا كنا - قبل قليل - قد أوردنا ما أسميناه «انكسار التعالي اليهودي» ، فإننا
نجد هذا الأخير يبرز لصالح ما نكاد أن نعتبره وحدة وجود ، من درجة ما ، في
الذهنية اليهودية اليهودية . وليس خفياً أن مثل هذه الوحدة الوجودية إن أقررنا بها
حقاً ، فإنها تتجسد وتتشخص عبر صيغ لعلها متنوعة ، يبرز في طليعتها - دون
ريب - ذلك الثالث المذكور ترواً ، ثالث الملك والكاهن والمالك .

أما العلاقة بين الرب والاله وبين الاله والنبي ، فتبدو ، هنا في هذا الموقع
الدقيق ، ذات بعد خصوصي . نعني بذلك أننا - على صعيد مسألتنا التي نحن
بصددها - نواجه طرفاً من أطراف الايديولوجيا الكهنوتية اليهودية وقد تمثلت في
سلسلة هرمية متصلة ، تنطلق من الأعلى إلى الأدنى عبر ما يأتي بينها من حلقات
توسط . أما خصوصية هذه العلاقة فتبرز في النظر إلى «الاله» على أنه - وجودياً
(انطولوجياً) وزمانياً - أدنى من «الرب» وأقل مرتبة ، وفي النظر إلى «النبي» على أنه
«مترجم» أو ما يقترب منه وما يشير إليه . فـ «الرب» يمثل الحد الأقصى والحلقة
القصى بالقياس إلى الاله والنبي ، على السواء . ولعلنا نحيط بمدلول ذلك في ضوء
التصور الذي كنا نعرفنا إليه لدى المصريين تحت تعبير «ربوة» . ودون أن نعود إلى
التصور المذكور تفصيلاً (وقد بحثنا فيه تخصيصاً وتفصيلاً في الجزء الثاني من
«مشروع الرؤية الجديدة» ، أي في «الفكر العربي في بواكيره وآفاقه الأولى») ، نود
التنويه بأن «الألوهة» - في مصر وبصورة عامة - نشأت وأفصححت عن نفسها بمشابهتها
تمثيلاً لـ «الأعلى» و «الأسمى - من السماء» ، الذي يتولد في أعماق الطمي المتخمر
على ضفاف النيل ، وذلك بعد انحسار المياه المخصصة في حالات الطوفان .

وهذا هو ، بالضبط ، ما يجعلنا نرى في «الرُبي» و «الرُبوة» و «الرابية» خلفية

تاريخية وتراثية لتمييز «الرب» على «الاله» ، و «النبي» أيضاً ، في الذهنية الدينية اليهودية المقدمة في نصوص «العهد العتيق» ، خصوصاً .

ورغم ذلك ، أي مع احتفاظ تلك الوضعية بأهميتها في الذهنية المذكورة ، فإننا نحولون بالقول بأن النص التوراتي ، الذي نبحث في بنيته ، يقدم نفسه - إلى جانب الحكم الأول - على أنه تسويغ للتساوي بين الرب والاله ، ومن ثم ، على أنه تسويغ - ضمني في تقدير أدنى - للتساوي بين يهوه وموسى . وإذا ما صح ذلك ، فإننا نجد أنفسنا ، ثانيةً وبمزيد من التركيز الديني الداخلي ، أمام وحدة الرب الاله بالكاهن الملك المالك . والحق ، إننا نجد الأمر - في سياقه المحدد هنا - ينطوي على كلا الاحتمالين اللذين استنبطناهما من النصوص التوراتية . ولكننا إذا ما خرجنا من دائرة البحث البنيوي الذاتي لهذه الأخيرة واخترقناها تاريخياً تراثياً ، فإننا ، حائلد ، نكاد نصل إلى القول برفض المفاضلة بين التعبيرين المذكورين (الرب والاله) ، وبالأخذ بفكرة التساوي بينهما . ومن البين أن الأخذ بهذا الاحتمال الثاني ينطلق من موقع ذلك الاختراق التاريخي التراثي للنصوص التوراتية ، بحيث تتضح جلياً اللحظة السياسية المكثفة ، التي تحيط بالعلاقة بين ذينك التصورين وتملي نفسها عليهما ليس فقط وظيفياً (بمعنى الفعل السياسي ضمن أدوات وأهداف ما) ، وإنما كذلك بنيوياً (بمعنى التدخل في تحديد عملية تنميط وضبط بنيتيهما) . وإذا ذاك ، يغدو متطابقاً مع واقع الحال العيني أن نصل إلى النتيجة التالية ، وهي أن «موسى» يمثل - في النص التوراتي الذي اوردناه من قبل - شخصه هو نفسه والرب يهوه ، في أن واحد . وهذا ، بدوره ، من شأنه أن يقود إلى اثبات أولي للافتراض بأن بداية النص يمكن أن يُعاد ترتيبها وتنسيقها وضبطها بنيوياً على النحو التالي :

«فقال موسى لموسى» ،

أو على النحو الآخر التالي :

«فقال الرب للرب»^(١)

(١) يمكن الإشارة - على هذا المستوى من المسألة - الى مشاركة موسى لـ «الرب» في صفة أساسية . فكما أن هذا الأخير لا صورة له ولا يجوز تصويره ، كذلك لا يجوز تصوير موسى وتمثله . (انظر في ذلك : علي أبو عساف - ندوة التوراة والتراث ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١١١) .

وجدير بالاهتمام أن هنالك نصاً توراتياً يعزز هذا الافتراض ، ويجعل منه أمراً مقبولاً . فإذا صح القول باستحالة رؤية الرب مواجهةً ، وكانت - وفق ذلك - استحالة رؤية الاله (موسى) مواجهة أيضاً مُقرّةً ، فإن المواجهة تغدو ممكنة في حالة واحدة ، هي رؤية الرب لنفسه الها ورؤية الاله لنفسه ربّاً ، فكأنما يكلم المرء صاحبه :

«ويكلم الرب موسى وجهاً إلى وجه كما يكلم المرء صاحبه»^(١) .

وقد كنا شاهدين نماذج على هذين النحويين من الخطاب الرباني الذاتي في مجموعة من الأساطير الشرقية القديمة ؛ كما نشاهد نماذج أخرى من ذلك في العهدين العتيق والجديد ، حيث يتفوه الرب بـ «كلمة» أمام ذاته ، مخاطباً - بذلك - نفسه - فيحدث فعل ما أو يكف فعل ما عن أن يكون .

ان «الخطاب الذاتي» ، أو ما سيطلق عليه لاحقاً «الانجيل» ، وبعد ذلك «الحديث القدسي» ، يمثل نوعاً من الفعل الرباني (أو الالهي) الداخلي . وهذه مسألة ظهرت وأفصححت عن نفسها ، على سبيل الارهاص ، في الفكر الشرقي القديم الاسطوري ، كما في اليهودية والمسيحية والاسلام . وقد تم ذلك بدأ بيد مع الاهتمام الخاص والمركز باللغة (وبالكلمة المنطوقة بصورة أكثر تخصيصاً) . فلقد اعتبرت هذه (اللغة) نسقاً الهياً مقدساً يعلن عن ذاته ضمن الضرورات ، الخفية (بالنسبة الى الانسان) ، تلك الضرورات التي تقتضيها الحكمة الالهية ؛ ومن ثم ، فقد نظر اليها من موقع وظيفية ذاتية منبثقة عن الوجود الالهي نفسه . بتعبير آخر يمكن القول ، ان ذلك النسق الالهي المقدس (اللغة) يبرز من حيث هو تجلّ ذاتي وتلقائي للوجود الالهي عمومًا ، وللارادة الالهية الحرة إطلاقاً بصورة خاصة .

ان «الكلمة» هي الربُّ فاعلاً ، أي في طور الفعل ؛ ولكن الرب ، من حيث هو رب فاعل أبداً ، لا يمكن أن يكون إلا فاعلاً ، أي ان «السلب» لا يدخل

= وعلى ذلك ، فالقداسة والتعالى ، وكذلك وبقدرة ما المفارقة تشكل عناصر أولية في تحديد ذاتي الرب وموسى ، بحيث يغدو القول وارداً بـ «رب موسى» وبـ «موسى ربّي» . ويشير الباحث السابق الذكر (نفس المرجع ومعطياته) الى ان خطر منع تصوير الأرباب يرجع إلى اخناتون المصري ، الذي أخذ كتاب التوراة ذلك عنه وجعل منه أحد الأنماط السلوكية للرب .

(١) الكتاب المقدس - سفر الخروج ٣٣ / ١١ .

فيه بشكل من الأشكال ؛ ومن هنا ، فهو التجلي بالكلمة . فلقد سمعنا الرب قائلاً
أمراً (ليكن نور ، فكان نور) ، ومسمياً بالاسم النور نهاراً والظلام ليلاً^(١) . وهذا
يعني أن فعل القول والتسمية هو التجلي الأصلي للوجود الرباني . إضافة إلى
ذلك ، نعلم أن الرب (يهوه) أعلن عن نفسه لـ «شعبه» ولـ «إله شعبه» موسى عبر
«الوحي الحجارة والشريعة والوصية التي كتبها لتعليمهم»^(٢) .

كما نلاحظ أن «الكلمة» هي - في المسيحية - تجسيد لله ، وإن «الله» تجسيد
للكلمة ، منذ البدء وإلى الأبد^(٣) . وعلى هذا الصعيد ، يكتب اللاهوتي
Heinrich Schlier محددًا الإجابة عن السؤال التالي الذي يطرحه ، وهو : على أي
طريق يفصح الله عن ذاته ويعلن يسوع المسيح عن نفسه عبر الروح القدس ؟
«الإجابة عن هذا السؤال هي : بالدرجة الأولى بالكلمة ؟ فالكلمة هي الصيغة
والطريق للروح» القدس^(٤) .

ويبدو هاماً أن نستعيد صيغة اللاتساوي بين الرب والاله ، أي بين يهوه
وموسى ، وذلك للإشارة إلى أنها تمثل الوجه الآخر من وضعية واحدة يمثل وجهها
الآخر صيغة التساوي بين الفريقين . فإذا كانت هذه الأخيرة تفصح عن نفسها ،
بنيوياً ووظيفياً ، بمثابتها توحيداً للسلطة السياسية بالهيمنة الدينية (وكذلك بالهيمنة
الاقتصادية) ، فإن الصيغة الأولى تسلك طريقاً آخر لبلوغ هذه الغاية . إنها لا
تفصح عن مثل ذلك التوحيد بصورة مباشرة ، بل تنجزه عبر أقنية وهمية إيهامية .
هاهنا يظهر الرب رباً بذاته ، بعيداً عن أي نزوع للوحدة بـ «الاله» . وفي هذه يراد
لـ «الرب» أن يكتسب بعداً بنيوياً وآخر وظيفياً مختلفين ومتميزين عن نظيرهما لدى
الاله - موسى . هاهنا ، يلح على المفارقة والتعالي والاطلاقية من جانب الرب وحده
وباتجاهه وحده . وفي هذه النقطة ، نلاحظ أن جمعاً من الباحثين في تاريخ الأديان

(١) انظر : الكتاب المقدس - سفر التكوين ١/٣ ، ٥ الخ . . .

(٢) الكتاب المقدس - سفر الخروج ١٢/٢٤ .

(٣) انظر الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقدّيس متى ١/١ .

(٤) Heinrich Schlier: Grundzuege einer paulinischen Theologie- St. Benno- Verlag GMBH
Leipzig 1981, S.200.

يلحون على أن «يهوه» يجسد مرحلة متميزة ومتقدمة على طريق الاله المنزه (المفارق والمتعالي والمطلق) .

اننا نستطيع أن نستقرئ ذلك الوضع الربّي المتميز بثابته ايغالا في التجريد واللا تعيين واللاتشخيص ، ومن ثم بصفته طريقاً أساسياً لجعل الرب فوق أي تحديد ، لا من موقع ذاته فحسب ، وإنما كذلك وخصوصاً من موقع ما يمكن أن يوازيه (أي موسى الاله) :

«إنني أنا هو»^(١) ، «الآن علمت أن الرب عظيم فوق جميع الآلهة»^(٢) .
إن تدقيقاً معمقاً في الوضع المعني في ضوء البنية والوظيفة التي نيطتا بالرب هذا ، يمكنه أن يسمح لنا بالقول بأن الكهنوت اليهوي كان ، في صوغه «للتصوص المقدسة» ، يطمح - ضمناً وتلقائياً - الى الأبقاء على «الرب» فوق كل «فهم» وكل «تبصر» وكل «نقد» سلباً أو ايجاباً ؛ لأن مثل هذا الأمر من شأنه أن يجعل من «الرب» موضوعاً حوارياً وخلافياً ، وأن يولد - من ثم - تساؤلات ومواقف تهدد طموح «الوحدة» و«التجانس» في اطار «شعب مصطفى مختار» . وعلى ذلك وانطلاقاً منه ، فالإيهام في وجود يهوه الرب فيما يتصل ببنيته وبوظيفته أو بدلالته الوظيفية ، أمر يدخل في صلب الموقف الاجتماعي المباشر . وإذا كان الأمر على هذا الطراز ، فإنه لم يعد من المتاح أن يقال بوجود تناقض وظيفي بين صيغتي المساواة واللامساواة بين «الرب» و«الاله» ؛ إنما يبقى ممكناً وضرورياً أن نتحدث في هذه الحالة فقط عن تناقض بنيوي بينهما .

ان اكتشاف المداخل المأتي عليها إلى مسألة العلاقة بين الرب والاله لم يوصلنا ولا يمكن أن يوصلنا الى القول بوجود تطابق بينهما على الصعيد الذهني التوراتي . ففي حالتها التساوي واللاتساوي بينهما ، نلاحظ أن الأمر لا يؤدي إلى تطابقهما على الصعيد المنهوي به ، وإن كان ذلك ممكناً في حقل الايديولوجيا المباشرة، أي في حالة

(١) الكتاب المقدس - سفر تثنية الاشتراع ٣٢ / ٢٩ .

(٢) نفس المصدر السابق - سفر الخروج ١٨ / ١١ .

الحديث عن تساوي في الوظيفية المحددة لكليهما . وهذا ما يجعل الاحتمال قائماً لوجود عنصر ثالث يمثل الوسيط بينهما في حالة التساوي . ان هذا العنصر الثالث هو ، توراتياً ، «النبي» .

نستطيع الانطلاق من موقع فيه كثير من العمومية يحدد لنا «النبي» التوراتي على أنه «مترجم» أو «ناقل» ، أو - كما أشرنا من قبل - «وسيط» بين الرب والاله مجتمعين من طرف ، وبين جمهور المؤمنين من طرف آخر . وجدير بالذكر ان تعبير «נביא» العبري (أي نبي) يعني «خطيب» و «مترجم» . وفي التوراة ، يستخدم هذا التعبير - بصورة دائمة - معادلاً لـ «مترجم»^(١) . أما المهمة الكبرى التي تناط بهذا الأخير من قبل الرب أو الاله توسطاً وبدون توسط (أي في حال كون الاثنين متساويين وفي مستوى واحد وظيفياً وبنوياً) ، فتقوم على «إبلاغ» الارادة الربانية للناس . وهذا ينطوي على القول بأن العلاقة بين ذينك الطرفين تتحقق عبر وسيط لا يمكنه ، إطلاقاً ، أن يخالف تلك الارادة أولاً ، كما لا يمكنه أن يتعدى مهمته الى شؤون أخرى ثانياً . وبالطبع ، تلك المهمة تتمثل دائماً بـ «الكلمة» ، كلمة الرب المحايث ، القريب من العالم البشري والبعيد عنه ، أي الذي يوجد هذا العالم من حيث يوجد الرب ، ويوجد الرب من حيث يوجد العالم .

ان «المحايثة» بين الرب والعالم (الناس) وضعية مشروطة وجودها ضمناً مع وجود الرب بمثابته رب الشعب المصطفى المختار . ولابد من الملاحظة ، هنا ، أن وضعية المحايثة تلك ظلت تشغل المكان الحاسم والفاعل في «النصوص المقدسة» . وما نلاحظه - من طرف آخر - من نمو لظاهرة أخرى (هي اتساع شمولية الرب يهوه بحيث غدا فيما بعد رباً للجميع ، أي أيضاً رباً لغير اليهود العبرانيين) ، لا يمكن أن يحول دون النظر الى وضعية المحايثة تلك بمثابتها العنصر الأكثر حضوراً في النصوص المذكورة . وعلينا - فيما نرجح الترجيح المؤكد - أن نرجع تلك الظاهرة المشار إليها الى نمو وتعاضم اتجاه الاندماج والانصهار في بعض الأوساط اليهودية العبرانية ، وضمن الجمهور الفقير والفقير بصورة خاصة .

ان طرح المسألة على هذا النحو من شأنه أن يقدم تفسيراً أولياً وعاماً أو مدخلاً

1) Siehe: Baruch Spinoza- Der Theologisch- politische Traktat, a.a. O., S. 19 .

لتفسير غياب . خسعية المحايثة المعنية لصالح الظاهرة الجديدة .

ومن أجل مزيد من الضبط لما نحن في سبيل تقصيه ، يمكننا أن نطلق على صفة «العرقية - الإثنية» على المحايثة تلك . ونعني بذلك أن يهوه الرب هو ، في هذه الحال ، رب اليهود العبرانيين وحدهم ، وجد من أجلهم ووجدوا من أجله . وجدير بالإشارة إلى أن ذلك لقي تعزيزه وتوطيده بالدرجة الأولى على أيدي الكهنوت اليهودي المتزعم . ولكن الظاهرة الأخرى (اتساع شمولية يهوه وكونيته) وإن رأينا في اتجاه الاندماج والانصهار اليهودي بالكنعانيين ، خصوصاً ، خلفية كبرى لها ، إلا أنها (الظاهرة) لا ترتد كلياً إلى هذه الخلفية . لا بد ، في هذه الحال ، من أن تأخذ بعين الاعتبار النمو الذهني لدى بعض الأوساط اليهودية المؤمنة باتجاه انساني حكمي . وذلك تحت تأثير مجموعة من العوامل الداخلية والخارجية . هذا الاتجاه نلاحظ أنه تكون حيث نحا نحواً مناهضاً للكبرياء والصلف وتجميع الذهب والفضة ، أي مناهضاً لما كان الكهنوت المتزعم يسعى إلى توطيده في الحياة العامة لجمهور اليهود . أو لنقل ، كان ذلك الاتجاه ذا منحى مناهض ، خصوصاً ، لوهم «الشعب المصطفى المختار» ، بما ينطوي عليه من طغيان ضد الشعوب الأخرى . وجدير بالقول أن الاتجاه المذكور عبر عن نفسه أيضاً في بعض صفوف الكهنوت ، حيث كانت المآسي والتحويلات الكبرى تضغط على الجميع وتفرض عليهم نتائجها . لنتمعن في بعض الآيات التالية من «سفر الأمثال» ، فندرك - جزئياً على الأقل - أهمية هذا الاتجاه الانساني الحكمي :

«حوز الحكمة خير من الذهب وحوز الفطنة افضل من الفضة . عجة المستقيمين محيذهم عن الشر والذي يحفظ نفسه يرعى طريقه . . تواضع الروح مع الودعاء خير من اقتسام الغنيمة مع المتكبرين . . العقل ينبوع حياة لصاحبه وتأديب السفهاء السفة» (١) .

هكذا تتضح مهمة «الني» التوراتي بمثابرتها توطيداً بين طرفين تجمع بينهما وضعية المحايثة (العرقية الإثنية) ، كما يمكن أن تظهر في العلاقة بين يهوه الناهض صعداً باتجاه الشمولية والكونية من طرف ، والشعب اليهودي (المفهوم هنا فهماً انسانياً

(١) الكتاب المقدس - سفر الأمثال ١٦/١٦-١٧، ١٩، ٢١ .

حكماً والشعوب الأخرى من طرف آخر . وإذا كان النبي يقوم ، هنا ، بدور المعبر عن الإرادة الربانية الإلهية ، فإنه قد نيّطت به مهمة أخرى ، لا تدخل - بالأصل - في نطاق المهمة الأولى ، وهي «التنبؤ» بالمستقبل ، الذي عليه أن يحمل بشائر المسيح المخلص ويحقق حضوره المنتظر والمتوقع . ولعلنا نقول ، في هذا السياق ، أن تصور النبوة التوراتي (اليهودي العبراني) ذاك لا نجد ما يماثله أو يقترب منه في المسيحية ، أو في الإسلام ، لاحقاً . ففي الأولى ، ينعدم ليحل محله تصور «الرسول» ؛ أما في الثاني (الإسلام) ، فيكتسب التصور المذكور دلالة تؤدي ، هي بدورها ، إلى عنصر آخر من عناصر التوسط ، وهو «الوحي» ، الذي يقوم بمهامه رئيس الملائكة جبريل ؛ في حين أن العلاقة بين النبي اليهودي والرب ، كما لاحظنا ، ذات طابع مباشر (هذا بالطبع حين ننظر إلى الرب والاله على أنها متساويان ، على النحو الذي أتينا عليه في ماسبق) .

من ذلك يهمننا ، ضمن ما يهمننا ، أن نلفت الانتباه إلى أن الكهنوت اليهودي ، الذي مثل - من حيث الأساس وفي نهاية المطاف التحليلي - الرب نفسه أو الاله نفسه أو النبي نفسه أو هؤلاء جميعاً ، وقف على رأس السلطة بشعابها الكبرى الثلاث ، الاقتصادية الاجتماعية والسياسية والدينية الأيديولوجية . وقد حقق ، على هذه الطريق المباشرة وغير المباشرة ، وحدة الملك والمالك والكاهن في بنية مشخصة هي بدورها ذات ثلاث أقدية تتجسد بالتنفيذية والتشريعية والقضائية . وإذا عدنا إلى تصور امتناع واستحالة «المواجهة» أو «الرؤية المباشرة» للرب (وللاله موسى) من قبل الرعية ، وجدناه واحداً من الأبعاد الوظيفية لتلك الوحدة الثلاثية الأطراف . وعلى ذلك ، فنحن - في هذه الحالة - حيال عملية أدلة دينية كمنت في توليد منتظم ومستديم للوهم والايهام ، ولما يقتضيه ذلك من إنتاج لأدوات العمل التنظيمية الزاجرة والمناسبة (الهيكلي كمؤسسة سياسية مباشرة) ، والسيكولوجية الدينية (الهيكلي كمؤسسة رعوية) .

وإذا كنا ، في هذا الفصل ، قد انطلقنا من محاولة تفصي موقف الكهنوت اليهودي من الفكر الشرقي السابق عليه والمعاصر له ، فإن الإشارة - ثانية - تغدو غير نافذة الأهمية إلى أمر ذي دلالة خاصة ؛ ذلك هو أن تصور «امتناع واستحالة المواجهة» ذاك كان له من الجذور المصرية ما يكفي للقول بأن الكهنوت المعني الذي

أخذ (وقد قلنا في سياق آخر : سطا) من تلك الجذور ما شاء له أن يأخذ ، أدان المصريين ، كغيرهم من شعوب المنطقة ، حيث أدخلهم في دائرة «الآغار - الغويس» ، الذين انشئت من أجلهم ومن أجل الهراطقة والبقين من «الرعية» تلك المؤسسة الزاجرة (١) .

ونستطيع أن نتبين العملية الايديولوجية الالهامية ، أيضاً ، في إطار الكهنوت نفسه . فهنا ، كذلك ، لا وجود لإمكانية الرؤية المباشرة ؛ ذلك أن تواصلاً مباشراً بين الكهنوت المذكور وبين «رعيتهم» أمر لا سبيل إلى تحقيقه . فالكهنوت يمثل ظاهرة دينية وراثية ، أو - بتحديد أقل - ظاهرة لا تخرج عن نطاق الطبقة العليا . وهذا من شأنه أن يخلق شرحاً مستديماً بين «فوق» و «تحت» ، أي بين الرب الذي يمثل «الرابية والربى» والجمهور الذي هو دون ذلك . مثل هذا الموقف نواجهه في النص التوراتي التالي :

«وقال الرب لهرون أنت وبنوك وبيت أبيك معك تحملون وزر المقدس وأنت وبنوك معك تحملون وزر كهنوتكم . وأيضاً اخوتك سبط لاوي سبط أبيك قدمهم معك فيضافوا إليك ويخدموك وأنت وبنوك معك تكونون أمام خيباء الشهادة . وهم يقومون بما تقلدهم من الحراسة مع حراسة كل الخيباء لكن لا يقدموا إلى أمتعة القدس وإلى المذبح لئلا يموتوا وإياكم . يضافون إليك ويلون حراسة خيباء المحضر وجميع خدمته وأما الأجنيبي فلا يتقدم إليكم . . فإنني إنما خذت اخوتكم اللاويين من بين بني اسرائيل وجعلتهم هبة لكم للرب . . وأنت وبنوك تحفظون كهنوتكم . . وقال الرب لهرون اني قد اعطيتك ما يحفظ من تقادمي جميع أقداًس بني اسرائيل أعطيتكها حق مسحة

(١) نود التنويه باننا إذ أتينا ، ثانية ، على المصدر المصري للتصور المعني ، فإنما فعلنا ذلك للتشديد على دلالاته في مجال البحث في موقف الكهنوت اليهودي من الموروث الشرقي . وإذا كان الأمر بهذه الأهمية ، فإن مسألة أصل «موسى» المصري تصبح أمراً ذا شأن على هذا الصعيد . ففي حين الذي نواجه فيه «إجماعاً عالمياً يقول بمصرية (موسى)» (علي أبو عساف : ندوة التوراة والتراث - نفس المعطيات المقدمة سابقاً) ، لا يسعنا قبول القولة السَّوَّاثية التالية : «واسمه (أي موسى) المصري لا يغير طبيعة الأشياء» . (اسبيرو جبور : التوراة والتراث - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٩٦) . إذ فقط من موقع لاهوتي إيماني ، يمكن الاقرار بمثل هذه القولة .

لك ولبنيك رسم الدهر^(١)

ان الاتجاه إلى التميز الطبقي الهرمي يكتسب ، بحسب النص السابق ،
مذابحاً وراثياً تأييدياً - رسم الدهر - . فإن كانت عقوبة «الأجنبي» اذا تقدم من «داخل
الحجاب» ، القتل المباشر ، فإن عقوبة «أهل البيت» من غير اللاويين (الكهنة) هي
أن يظلوا دائماً خارج دائرة السلطة الدينية والاقتصادية الاجتماعية والسياسية . وهذا
يتضمن الإعراب عن أن عملية توليد الايديولوجيا الوهمية الايهامية ، على الصعيد
المعني ، تتم عبر موقفين اثنين ، موقف يمتد الى الخارج (أوساط المؤمنين الفقراء
ومتوسطي الوضعية الاقتصادية ، وكذلك اوساط الأجانب - الغوييم) ، وموقف
يتجه الى الداخل (أوساط النخبة الكهنوتية ذاتها وما يحيط بها من شرائح
الارستوقراطية القبلية ، خصوصاً) . ان الموقف الثاني - وقد أتينا على الأول -
يجسد عملية توليد الوعي الوهمي الذاتي ، الذي من شأنه أن يحدث تماسكاً
ايدولوجياً ضابطاً للنشاط الكهنوتي الارستوقراطي ازاء افراد الطبقة الواحدة ، كما
إزاء الطبقات والفئات الأخرى داخل «الشعب الخاص» وخارجه ، أي ضمن
«الأخرين» .

في ذلك الأمر ذي «الخصوصية الداخلية والخارجية» ، نتبين حالة من الانتاج
الايدولوجي الوهمي الايهامي ليس من الممكن أن نفهم على أنها حصيلة خديعة
«خبثية» ، استحدثها رهط أو أكثر من الكهنة اليهود العبرانيين بغية إنفاذ مآربهم في
السيطرة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . ان مثل هذا التبسيط الفج والمجحف
للمسألة لا يتيح لنا امكانية النظر المعمق إليها من حيث هي حاجة واقعية ملحة نشأت
للإجابة عن مسائل واقعية ، بل كثيفة الواقعية واجهت قادة اليهود العبرانيين ضمن
دائرة خريطتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والايدولوجية (الدينية) ،
وكذلك من موقع توجههم التاريخي والتراثي التلقائي والقصدي . ذلك أن من تقوم
احتياجاته على توليد مثل تلك الايديولوجيا الوهمية الايهامية ، يحتاج هو نفسه الى
امتلاك او استحداث ما يماثلها أو يوازيها في الوظيفة النفعية ، أو يلتقي بها على نحو
أو آخر . لنصدق في الصيغة المقررة والمسموعة التالية التي يعلن الرب (الكهنوت)

(١) الكتاب المقدس - سفر العدد ١٨ / ١-٤ ، ٨ ، ٦ ، ٤ .

فيها عن نفسه ، كي نتبين عمق الوظيفة النفعية التي تخترقها وتضبطها :

«اسمع يا إسرائيل ان الرب الهنا رب واحد» (١) .

ويصرح الرب أنه إن رُؤي ، فإن إرائته هذه تتم عبر أعماله وسجاياه وسماته الكبرى ، التي تحتل بوحدة منها ، هي الأعظم والأقصى :

«فقد أريت لتعلم أن الرب هو الاله ليس إله سواه» (٢) .

ويبلغ الموقف التجريدي والتشخيصي أقصاه في «العهد العتيق» ، حيث يعرف الرب ذاته بنفسه ، وذلك حيث يضعنا أمام حالة واضحة من التحديد لا تختمل التأويل أو المزاج أو التجاهل ؛ لأن الأمر يقود في هذه الاحتمالات الى «مالا يحمد عقياه» :

«إنني أنا هو ولا إله معي أنا أميت وأحيي وأجرح وأشفي وليس من ينقذ من يدي . إني أرفع يدي الى السماء وأقول حي أنا إلى الدهر . إذا صقلت بارق سيفي وأخذت بالقضاء يدي رددت الانتقام على مضايقي وكافأت مبغضي . أسكر سهامي من الدماء وسيفي يأكل لحماً من دماء الصرعى والسبايا ومن رؤوس فواد العدو» (٣) .

ان ذلك الرب الاله ، الذي يحيط بالعالم عمقاً وسطحاً ويهيم فوقه ، وهو المصفول (المخلوق) على يديه ، ان ذلك الرب الاله الذي إن رآه البشر مواجهة سقطوا صرعى جبروته ، هو نفسه الذي يتمشى في الجنة العدمية ، ويسمع آدم وحواء صوته فيختبئا من وجهه بين شجر الجنة إياها (٤) ، وهو ذاته الذي ينزل من ربوته (عليائه - سمائه)

(١) الكتاب المقدس - سفر تثنية الاشتراع ٤ / ٦ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطيته ٣٥ / ٤ .

(٣) نفس المصدر السابق ومعطيته ٣٢ / ٣٩-٤٢ .

(٤)

«فسمعا صوت الرب وهو متمش في الجنة عند نسيم النهار فاختبا ادم وامراته من وجه الرب الاله فيما بين شجر الجنة» . (نفس المصدر السابق - سفر التكوين ٨ / ٣) .

«لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم ينسونهما»^(١)

ولعل اسطورة «الطوفان» تقدم ، مع اسطورة «الخطيئة الأصلية» ، وما يقترن بها من أساطير أخرى مثل «الحية المخادعة» و«نكث العهد مع الرب» ، مثلاً غنياً على ما أشرنا إليه في إطار الحديث عن عملية التنبؤ التاريخي والاستلهام التراثي ، تلك العملية النموذجية التي قام بها الكهنوت اليهودي اليهوي تجاه الفكر الشرقي . فلقد أوصل هذه العملية الى صيغة مفصح عنها علناً من «السطو التاريخي التراثي» ، وذلك على نحو يحيل الأساطير المذكورة وغيرها الى قوة ايديولوجية جبارة تكرر شمولية وهيمنة الرب الاله (الكهنوت) ، على مجمل الأصعدة المشخصة والمجردة .

لقد أريد لـ «الطوفان» أن يحدث ويطيح بالعالم ، من موقع كونه رداً صارماً وحاسماً من الرب الاله على استفحال الطغيان البشري في هذا الأخير ، وقبل ذلك رداً منه على عدم انصياع آدم وزوجه لـ «كلمته» الالهية الأمرة ؛ أي ان ذلك أتى بسبب عدم الحفاظ على «العهد المقدس» ، الذي أخذه الرب على أبي البشر إياه . و «الحية» المخادعة الذكية تقوم ، في هذه الحال ، بدور المنافس للرب ودور المحرض لحواء وآدم على عصيان أوامره . فهي ، والحال كذلك ، تُحدث الشرخ الأول العميق في الهيمنة الشمولية ، التي يتمتع بها بلا منازع . وهنا نود - بعد أن نغض النظر عن الدلالة الكونية (الكوسمولوجية) للخلق التوراتي التي يجسدها ذلك العصيان من قبل الحية - أن نطرح التساؤل التالي : أليس من المحتمل أن نرى في العصيان المذكور شكلاً من أشكال الترميز والتضمنين الاجتماعيين المشخصين لما حدث في نطاق اليهود العبرانيين كهنة مترعمين وجمهوراً إبان انخراط قسم كبير أو ضئيل من هذا الأخير (الجمهور) في العملية الاندماجية بشعوب المنطقة الكنعانية المخترقة من قبل أولئك ؟! ان ما نطرحه هنا نرغب في أن يُنظر اليه على أنه - مع الدلالة الكونية الخلقية المنوه بها - واحد من احتمالات متعددة ومفتوحة لعلها تكون قائمة لتفسير العلاقة الخصامية بين الرب والحية : قال آدم للرب :

«المرأة التي جعلتها معي هي اعطتني من الشجرة . فأكلتُ . فقال الرب الاله للمرأة ماذا فعلت . فقالت المرأة الحية اغوتني فأكلتُ . فقال الرب الاله

(١) نفس المصدر السابق ومعطياته ٥ / ١١ .

للحياة إذ صنعت هذا فأنت ملعونة من بين جميع البهائم وجميع وحش البرية . . وقال للمرأة لأكثرن مشقات حملك بالألم تلدين البنين والى بعلك تنقاد اشواقك وهو يسود عليك . وقال لآدم إذ سمعتَ لصوت امرأتك فأكلت من الشجرة التي نهيتك قائلاً لا تأكل منها فملعونة الأرض بسببك . فأخرجه الرب الاله من جنة عدن ليحرث الأرض التي أخذ منها . فطرد آدم وأقام شرقي جنة عدن الكروبيين وبريق سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة» (١) .

وتستمر قصة الخطيئة والعقوبة المثيرة ، بحيث يظهر أن الدرب ما هو الا درب خطيئات وآلام وعقوبات تفرض من قبل الاله . وقبل أن نثبت النص التوراتي الذي يخبرنا عن ذلك ، نلقي بالرأي التالي ، وهو أن ذلك الدرب المفعم بالآلام والمقدم لنا بمثابة صورة لعملية خلق العالم والانسان ، يمكن أن نجد فيه تعبيراً اسطورياً مضمناً ومرمّزاً عن الطريق الصعبة المريرة التي كان البدو الرحّل من اليهود العبرانيين أن يسلكوه حتى دخولهم الى فلسطين ، وأن يختطّوا بعد ذلك طريقاً مماثلاً في وعورته وفي الالغام المنبثة فيه حين رفض معظمهم ، بإشراف سادتهم الكهنة ، الاندماج بشعب كنعان .

لقد كثر الشر وطغى ، واصبح الرب أمام ضرورة مواجهته . فلقد رأى الرب «أن شر الناس قد كثر على الأرض وأن كل تصور افكار قلوبهم إنما هو شر في جميع الأيام . فندم الرب أنه عمل الانسان على الأرض وتأسف في قلبه . فقال الرب امحو الانسان الذي خلقتُ عن وجه الأرض . . أما نوحُ فنال حظوة في عيني الرب وفسدت الأرض أمام الله ومُلثت جوراً . . فقال الله لنوح قد دنا أجل كل بشر بين يدي . . اصنع لك تابوتاً من خشب . . وهاأنذا آت بطوفان مياه على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة . . وأقيم عهدي معك فتدخلُ التابوت أنت وبنوك» (٢) .

(١) الكتاب المقدس - سفر التكوين ٣/١٢-١٤، ١٦-١٧، ٢٣-٢٤ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطيته ٦/٨٥، ١٣-١٤، ١٧-١٨ .

تلك نصوص ذات أهمية خاصة على صعيد البحث في مجموعة كبرى لاحقة من إشكالات «العهد العتيق» ، وخصوصاً منها تلك التي تتعلق بـ «النبوءات» النبوية والتي ينتظمها خط أساسي كبير ، هو التنبؤ بـ «المسيح المخلص» . فهي ذات نعمة فاجعية وخلاصية ، في آن واحد تنضح بكثير من الشكوى من «أهل البيت الطغاة» . (من تلك الإشكالات النبوية تبرز - على سبيل المثال - نبوءة أشعيا ، ونبوءة إرميا ، ومراثي إرميا ، ونبوءة حزقيال ، ونبوءة دانيال) . إضافة الى ذلك ، نلاحظ أن النصوص المذكورة ، التي تخبر عن أمور تحدث عنها السابقون الشرقيون ، تدخل في الهيكل الأساسي للأيدولوجية الدينية اللاحقة ، ممثلة على نحو خاص بالمسيحية والاسلام . فبحسب رأي الكاردينال دانييلو Danilou ، «رأى التقليد الكنسي الأقدم في لاهوتية الطوفان صورة للمسيح وللكنيسة» . فهو «حدث ذو دلالة عظيمة» ، و«حكم يقع على الأمة البشرية برمتها»^(١) .

والباحث المذكور يتابع اجتهاده وتأويله باتجاه الدلالات الرمزية التاريخية والتراثية التي تنطوي عليها النصوص التوراتية ، فيرى في الرقم (٨) - وهو رقم يعبر توراتياً عن عدد الأشخاص الذين أنقذتهم سفينة نوح - رمزاً غير مباشر لليوم الثامن الذي بعث فيه المسيح من بين الموتى . وإذا تابعنا التدقيق في الموقف وفق ذلك النظر للمسألة ، يغدو نوح الوليد البكر أو بكر الابكار في اطار خلق جديد ، ومن ثم ، فإن نوحاً هذا يظهر بمثابة المسيح نفسه ، الذي سيكون بإمكانه - هو وحده - تحقيق ما ينطوي عليه من قيم (هي في نظر الرب القادرة على ان تفتق مسيحاً مخلصاً) . أما «الخشب» الذي استخدم لصنع السفينة ، سفينة الانقاذ ، فيصبح ، والحال كذلك ، «خشب الصليب» المسيحي اليسوعي . وقد ترتب على هذا أن أصبح الخشب - وليس المعدن - هو المادة المفضلة لصنع الصليبان . أخيراً ، يبرز «ماء الطوفان» ، الذي عليه أن يحمل دلالة الحدث الكبير في صنع وبلورة المسيحية لاحقاً ، وهو «ماء التعميد»^(٢) .

(١) موريس بوكاي : دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٥٦ .

(٢) نفس المرجع السابق ومعطياته .

والأمر المعني ، هنا ، يصح كذلك فيما يتصل بمجموعة أخرى ليست ضئيلة من التصورات التوراثية . ذلك لأن نصوص «العهد العتيق» أتت - في جلها وعمومها - تسجيلاً «لأحداث» قديمة سابقة على عملية تسجيلها ، على نحو ما أوضحنا ذلك في حينه ، سواء كانت حقيقة أو وهمية ؛ كما أتت - في بعضها - نقلاً حرفياً أو معدلاً تعديلاً كبيراً أو قليلاً عن نصوص شرقية قديمة ومعاصرة لها . فإيراد نصوص في العهد المذكور ، على سبيل المثال ، حول حشاش من التصورات الشهيرة التي سنسمي بعضها ، يمثل أمراً ذا أهمية منهجية وتاريخية وتراثية فائقة بالنسبة إلى سياق العهد العتيق مما سبقه ومما عاصره ، وكذلك مما تبعه من «عهود مقدسة» شرقية . من تلك التصورات نورد التالية : نصوصاً حول «المخلص» ، و «البخور» و «المسح بالزيت» ، و «الدهن بالزيت» كطقس تقديس ، ونصوصاً حول «الأسبوع» المؤلف من ستة أيام عمل ومن يوم سابع للراحة ، وإلقاء «الطفل» اللقيط المحجزة في الماء والتقاطه ورعايته بعد ذلك ، والتحنيط و «آدم» و «دأمو» ، و «دموزي» ، و «البكارة والأبكار» ، و «إيل» ، و «بيت إيل» ، و «الختان» ، و «تقديم العشر» من كل شيء للرب ، و «الأصنام والنصاب» ، و «ازدراء العاقر والعقر الجنسي» ، و «التقدمة والاضحية» ، والقاعدة التشريعية «السن بالسن والعين بالعين» ، و «الخبز المقدس» ، و «الذكورة وخضوع الانوثة لها» ، و «الجنس القادي المخلص» ، و «الهيكل والمنارة ومكان العبادة المقدس» ، و «الكهانة الراعية لشؤون الرب وقواعده» ، و «الاعتراف أمام الرب» مباشرة أو عبر وسيط ، و «الثوب المقدس» ، و «العريس الالهي» ، و «الزواج المقدس» الخ . .

ان ما قد لاحظناه - على صعيد الموقف الذي اتخذه الكهنوت اليهودي اليهوي من الموروث الشرقي القديم - كان ، في أحد مظاهره ومستوياته الكبرى أو ربما في مظهره ومستواه الأكبر ، قد نهض على عملية اخضاع الثاني للأول ، وذلك من خلال تمثله وبعد تمثله واستنفاده ضمن علاقة من القسر والعسف ، أي من موقع علاقة بين فريقين صيغت من حيث هي متكافئة . فهي علاقة لم يجر صوغها - والحال كذلك - وفق آلية ومنطق الإقرار بـ «الآخر» إلا بغية تحطيمه وإدانتها وتجريده من شخصيته ، هذه الشخصية التي تقوم على العناصر المسطو عليها . وجدير

بالذكر أن هذه العملية اكتسبت صيغتها الأكثر عنفاً وحزماً وحساً من خلال تمييز
حدّي قطعي بين الـ «نحن» و«الآخر» أولاً ، ومن موقع أن هذا الـ «نحن» يمكنه أن
يمثل شيئاً ما ويجسده بقدر ما يكون قادراً على انتزاعه من «الآخر» ثانياً ، وأخيراً وثالثاً
على أساس التشهير بهذا الأخير وإدانته إدانة حضارية (بمعنى أنه ليس بشيء ولا يمكن
أن يكون شيئاً) وأخلاقية (بمعنى أنه ، «في جوهره» فاسدٌ ، نغل) .

إنها ، دون ريب ، عملية فيها كثير من المداورة والمكابرة والخبث والطرافة ،
يظهر فيها مدى التعقيد والتركيب الذي يمكن أن تأخذه علاقة المغلوب عسكرياً
حربياً بالغالب . وهي (أي العملية) وإن ظلت ، في التحليل الأخير للمسألة ،
محكومة ومضبوطة بقانون العلاقة الجدلية بين الداخل والخارج ، فإنها تبدو كما لو
كانت صعبة الترويض وفق المقتضيات الداخلية العميقة لهذا القانون . وتبقى
ملاحظة ضرورية ، وهي أننا إذ شددنا على ذلك النمط من موقف الكهنوت
التوراتي من الفكر الشرقي السابق عليه والمعاصر له ، فإننا ، مع ذلك ، لا نكون
قد أعلننا عن استنفاد «العهد العتيق» به ، أي بالنمط المذكور . فما قلناه عن هذا
«العهد» - في سياق سابق - ، يصح هنا ، أيضاً ، وهو أن نصوص «الكتاب
المقدس» تقدم نفسها على أنها «حمالة أوجه» ؛ وذلك بمعنى أنها تحتل أكثر من تأويل
وفهم ، وإن كان هذا الاتجاه ، على صعيد مسألتنا الحالية ، قائماً بلهجة غير مشددة
وبنبهة غير عالية .

إن صيغة تلك العلاقة بين الغالب والمغلوب عسكرياً حربياً يتعذر أن ننظر
إليها - إذا انطلقنا من دلالاتها الحضارية ، التاريخية والتراثية - على النحو المبسط (أو
لعلنا نقول : المبيض الوجه) الذي طرحه ارنولد توينبي . فلقد اعتبر الصيغة
المذكورة ، ببساطة ، شكلاً من أشكال «التبادل الأدبي» ^(١) بين اليهود العبرانيين
من جهة وشعوب الشرق السابقة عليهم والمعاصرة لهم من جهة أخرى . ومن المثير
والمدهش منهجياً أن يكون المؤرخ ارنولد توينبي قد خلص إلى النتيجة المنوه بها بعد
سرده لجملة دقيقة ومفصلية من وقائع التبنّي الكهنوتي اليهودي من الموروث

(١) ارنولد توينبي : تاريخ البشرية - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٣٨ .

الشرقي ، تلك الوقائع التي لا يمكن ادراجها في نطاق النتيجة المعنية إلا إذا ضُحي بالمنهج التاريخي النقدي ^(١) .



١) نورد ، الآن ، تلك الوقائع لأهميتها التاريخية الوثائقية ، لنري أنها (الوقائع) لا يمكن ، بحال ، أن تدرج في «النتيجة» التوينبية : «ان بعض الأساطير الواردة في التوراة - مثل الطوفان - هي ذات أصل سومري . وقد انتقلت عن طريق الأكديين والكنعانيين . والشرعة المسماة شرعية موسى إنما هي نسخة من مدونة القانون السومري الاكدي ، وقد اكتشفت مؤخراً النسخ البابلية والاشورية والحثية منها . والنسخة البابلية هي القانون الذي جمعه حمورابي . وقد ظهر من اكتشاف النصوص الأدبية الفينيقية المدونة بالكتابة الاوغاريتية التي تعود إلى القرن الرابع عشر ق.م. ، ان المزامير إنما وضعت على غط الترنيمة الكنعانية الأقدم عهداً ، وان الفصول (الاصحاحات) الثامن والتاسع من سفر الأمثال إنما هي ذات أصل كنعاني . وأمثال غيرها في هذا السفر هي نص يكاد يكون حرفياً للحكم الواردة في نصائح أينموب ، وهو كتاب مصري لعُله صنف في القرن الرابع عشر ق.م. وقد وضع تحت تأثير ادب مصري من النوع نفسه ، ولكنه أقدم عهداً . ولنا أن نخمن أن الأمثال المصرية هذه وصلت إلى الاسرائيليين بوساطة الفينيقيين» . (ارنولد توينبي : نفس المرجع السابق ومعطياته) .

وإذن ، إذا كان الأمر على ذلك النحو ، فهل يحق لنا أن نسمي العملية ، «هكذا بسنداجة» ، «تبادلاً أدبياً» ؟

الكهنوت اليهودي والمفارقتان الكبيران : «الشعب المختار المصطفى» و «الشعب المختار المصطفى ضد الغوييم»

كان ما أتينا عليه معالجةً وتمحيصاً في الفقرة السابقة مسائل ومواقف أساسية برزت في العملية المعقدة والمثيرة بمنازعتها القسرية التعسفية التي انجزتها القيادة الكهنوتية بصيغتي التبني والاستلھام (السطو) لإزاء ما وصل إلى أيديها من الفكر الشرقي عموماً ، ذلك الفكر الذي كانت تموج به المناطق التي وطئها العبرانيون استقراراً أو ترحالاً . وكان قد ترتب على تلك العملية أن طوّح بالحقيقة التاريخية والتراثية في وجهها الموضوعي الوثائقي ، وذلك عبر انتزاعها من سياقها الذي نشأت فيه وتعضّت ، وإقحامها في سياق آخر إقحاماً قسرياً تعسفياً ، هو ذلك الذي تمثل بمجموع المشكلات والتعقيدات الاقتصادية والاجتماعية الاندماجية والسياسية والدينية ، وكذلك الجغرافية الطبيعية .

ولانشك ، بطبيعة الحال المنهجي الذي نسير وفقه في هذا الكتاب ، أن عملية الإقحام تلك كان لها ضمن الوضعية اليهودية اليهودية كهوتاً أريستوقراطية وجمهوراً - مايسوغها ويمنحها مشروعية أيديولوجية معقدة ، هي ، بالأساس - مشروعية الظروف الخاصة والعامة التي أمنت نفسها ، بشكل أو بآخر ، في حينه . إلا أنه يبقى صحيحاً وضرورياً أن يشار إلى أن العملية الكهنوتية المعنية ، هنا ، أكسبت - على الصعيد الاجتماعي الشخص - أشكالاً فيها كثير من الخصوصية والفراة ، اللتين كمتا بكيفية الانجاز : تشهير شرس وشامل بأصحاب الفكر الشرقي المتبني والمستلھم سطواً ، وتثديد بهم وصل إلى حد الدعوة لآبادتهم جسدياً

جماعة وأفراداً . ولذلك ، يغدو صائباً التأكيد على الأطروحة التالية ، وهي أن ماهو خصوصي ومتفرد على هذا النحو وبهذا المنحى لم يكن قادراً على الاستمرار تاريخياً وتراثياً ؛ لأن لحظة العنف الأقصى - في حينه - إذ كانت تزول أو تُزال ، فقد كانت الطريق تفتتح - ثانية - أمام العناصر الفكرية الأكثر قدرة على الظهور بما هي عليه أساساً . ان العناصر الفكرية الكنعانية والمصرية والبابلية وغيرها من الموروث الشرقي برزت ، بل قفزت ، ثانية ، حيث ارتدت لحظة العنف تلك الى وراء نسبياً ، لتعلن عن نفسها (أي العناصر) بصفتها هذه . وجدير بالقول أننا ، باطروحتنا هذه ، لا نعني ما يحققه الباحث على صعيد التحليل والتركيب التاريخيين التراثيين للنصوص المثبتة والمستلزمة (المسطور عليها) . ان ما نعنيه ، هنا ، هو ذلك الاتجاه أو النزوع الموضوعي الذي تظهره تلك العناصر بصفتها قادرة على أن تعلن عن نفسها وتعرف بنفسها طالما ظل ممثلوها من الشرقيين في المناطق الثلاثة المعنية ومن اليهود المندمجين بهؤلاء ، موجودين ويمارسون حياتهم الاجتماعية والفكرية . ويعزز هذه الأطروحة ما نراه - مع غيزنا من الباحثين - من أن الشروط الاجتماعية والسياسية والأيدولوجية والإتنية التي خضع لها اليهود العبرانيون كان من شأنها - بدرجة ما وبصورة ما - أن تضعف من قدرتهم عمومياً على «تمثل فكر الغير» (١) .

(١) نستطيع ، من هذا الموقع المحدد للمسألة ، أن نفهم ما كتبه مؤلفو كتاب (ما قبل الفلسفة) بالنسبة إلى هذه الأخيرة ، وأن نقر به . فقد جاء في الكتاب المذكور ما يلي : ان «تمثل فكر الغير لم يكن قط من صفات الفكر العبري . بل إنه ، على العكس ، قاوم بعناد غريب وقحة حكمة جيمس ان اسراييل» . (هــ) فرانكفورت وآخرون : ما قبل الفلسفة - ترجمة جبرا ابراهيم جبرا ، مراجعة الدكتور محمود الأمين ، نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر ، بغداد - القاهرة - بيروت - نيويورك ١٩٦٠ ، ص ٢٦٧) . ولكننا إذ نتابع ما يكتبه مؤلفو الكتاب السابق ، نواجه أنفسنا وقد دُعينا الى التحفظ الشديد إزاء ما يبدو مفارقة تاريخية تراثية ومنطقية (وقد واجهنا مثل هذا الموقف لدى ارنولد توينبي) .- فما نقرأه في السطور التالية ، لا نجد له ما يسوغه في نطاق الشاهد الأخير : «ومع أننا نستطيع أن نثبت انعكاس المعتقدات المصرية والبابلية في كثير من فصول (العهد القديم) من التوراة ، لا يسعنا إلا القول بأن الانطباع العميق الذي يتركه هذا الكتاب لا يدل على مبلغ النقل بل على مبلغ الأصالة التي فيه» . (نفس المرجع السابق ومعطياته) .

أوتقرب منها ، بموضع أو بآخر ؛ إلا أن حالتنا المعنية ، هنا ، لعلها تجسد الصيغة الأكثر إثارة وإشكالية على صعيدها . ونستطيع أن نضبط خصوصية هذه الحالة - كما نتبينها بارزة في النصوص الكهنوتية الأريستوقراطية المناهضة للاندماج علناً وضمناً - من خلال الصيغة الثنائية التالية ، ذات البعدين الراقعي والمنطقي :

موروث شرقي (ديني وشعري وجمالي الخ . . .) مُقتطع من الشعوب المبدعة له ،
وشعب يهودي عبراني بلا رصيد ديني وشعري وجمالي الخ . . . ؛

أرض شرقية بلا شعوب ، وشعب يهودي عبراني بلا أرض .
إنها صيغة أيديولوجية مضمرة ومعلن عنها صراحة ، تقوم على عنصر المفارقة والتناقض تأكيداً وحسماً ، وعلى عنصر الاستفزاز والعداء تأريخاً وإشعاعاً ، وعلى عنصر التوهيم والخلط التاريخي والتراثي سطوً وارغاماً . ولعلنا نضبط هذه الصيغة ونقعدّها بمسألتين كبيرين ، كما يلي :

١- الانطلاق من مفارقة «الشعب المصطفى المختار» ؛ وتظهر ، بوضوح وبصور مكثفة ، في الصفحات التالية من «العهد العتيق» ، بطبيعته التي نعتمدها نحن هنا (١٢٩ ، ١٥٤ ، ٢٠٦ ، ٣١٢ ، ٣٢٣ ، ٣٤٣) . ونورد ذلك متتالياً كما هو في الأسفار المطابقة :

«والآن إن امتثلتم أوامري وحفظتم عهدي فإنكم تكونون له خاصة من جميع الشعوب لأن جميع الأرض لي . وأنتم تكونون لي مملكة أحبار وشعباً مقدساً» (١) ؛ يقول موسى للرب «فإنه بماذا يعرف أنني نلت حظوة في عينيك أنا وشعبك أليس بمسيرك معنا فتمتاز أنا وشعبك من كل أمة على وجه الأرض . فقال الرب لموسى هذا أيضاً الذي سألته افعله لأنك قد أصبحت حظوة في عيني وعرفتك باسمك» (٢) ؛

«وقلت لكم إنكم ستمتلكون أرضهم وأنا أعطيها لكم لتمتلكوها أرضاً تدُر لبناً وعسلاً أنا الرب إلهكم الذي فرزكم من بين الأمم . وكونوا لي قديسين

(١) الكتاب المقدس - سفر الخروج ١٩ / ٦-٥ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطيته ٣٣ / ١٦-١٧ .

لأنني قُدوس أنا الرب وقد فرزتك من الأمم لتكونوا لي» (١) ؛
«لأنك شعب مقدس للرب وإياك اصطفى الرب إلهك أن تكون له أمة خاصة
من جميع الأمم التي على وجه الأرض . لا لأنكم أكثر من جميع الشعوب
لزمكم الرب واصطفاكم فإنما انتم أقل من جميع الشعوب . لكن لمحبة الرب
لكم ومحافظته على اليمين التي أقسم بها لأبائكم . . . وتكون مباركاً فوق جميع
الشعوب ولا تكون عقيم ولا عاقراً فيك . . . » (٢) ؛
«لأنك شعب مقدس للرب إلهك وقد اصطفاك الرب لتكون له شعباً خاصاً
على جميع الشعوب التي على وجه الأرض» (٣) ؛
«وإذا أطعت أمر الرب إلهك . . . يجعلك الرب إلهك فوق جميع أمم
الأرض» (٤) .

إن مفارقة «الشعب المختار المصطفى» تبرز من خلال وضع تلك النصوص ،
التي اوردناها توأ ، بعلاقة مقارنة بنيوية ووظيفية مع نصوص أخرى من العهد
العتيق : أولاً - ان هذا الشعب «الأعلى» يرث ما لم يبدع ، يرث كل الأرض من
شعوبها وما عليها بطريقة «القرعة» . إنه يفعل ذلك بشكل كامل وحاسم ، بحيث
تطرد تلك الشعوب طرداً مما كان يعرف بأنه أرضها . وكلما هو واضح ، فبالرغم من
أن الشعب المذكور لم يبدع تراثاً خاصاً - وفق منطوق النص الكهنوتي - فإنه يفضل
على كل الشعوب المبدعة «الأكثر منها والأعظم» ، ويجعل منه - إضافة الى ذلك -
حكماً عليها وسيفاً مصلتا على رقابها :

«وكلم الرب موسى في صحراء موآب على أردن اريحا قائلاً . مُر بني اسرائيل
وقل لهم إنكم جائزون الأردن إلى ارض كنعان . فتطردون جميع أهل الأرض
من وجهكم وتبيدون جميع منقوشاتهم وأصنامهم المسبوكة ومشارفهم
تدكونها . وتلكون الأرض وتقيمون بها فإنني اعطيها لكم ميراثاً . ترثون

(١) نفس المصدر السابق - سفر الأحبار ٢٠/٢٤، ٢٦ .

(٢) نفس المصدر السابق - سفر تثنية الاشتراع ٧/٦، ٨، ١٤ .

(٣) نفس المصدر السابق ومعطيته ١٤/٢ .

(٤) نفس المصدر السابق ومعطيته ١/٢٨ .

الأرض بالقرعة على حسب عشائركم . . وان لم تطردوا أهل الأرض من وجهكم كان من تبقىونه منهم كإبرة في عيونكم . . »^(١)

«يطرد الرب جميع هؤلاء الأمم من أمام وجهكم فترثون أعماً أكثر وأعظم منكم»^(٢) ،

«وأنتم قد اصطفاكم الرب واخرجكم من أثون الحديد من مصر لتكونوا شعب ميراث كما في هذا اليوم . وان الرب قد غضب علي (أي موسى) بسببكم وأقسم أن لا أعبر الأردن ولا أدخل الأرض الصالحة التي يعطيها الرب الهك ميراثاً»^(٣) ،

«فإني اسلم إلى أيديكم سكان الأرض»^(٤) .

ثانياً - إنه شعب بلا ميراث ، وشرير وفاسد ، في آن واحد ، ويمنح رغم ذلك ، أو بفضل ذلك ، تراث الآخرين :

«وكلم الرب موسى وهرون قائلاً . إلى كم أحتمل هذه الجماعة الشريرة المتدمرة علي فلقد سمعت تدمير بني اسرائيل الذي تدمروه علي . فقل لهم حي أنا يقول الرب لأصنعن بكم كما تكلمتم علي مسامعي ، في هذا البر تسقط جثثكم كل المعدودين منكم . . لن تدخلوا الأرض التي رفعت يدي مقسماً أن أسكنكم فيها . . وأما جثثكم أنتم فتسقط في هذه البرية . . أنا الرب قد تكلمت فلا وقعت بجميع هذه الجماعة الشريرة المجتمعمة علي أنهم في هذه البرية ينقضون وههنا يموتون»^(٥) .

ثالثاً - إنه شعب يملك مدناً لم بينها ، ويحصد - من ثم - ثماراً لم يزرعها :
«مُر بني اسرائيل وقل لهم إذا دخلتم الأرض التي أنا معطيكم وحصدتم حصيدها فاتوا بحزمة باكورة حصيذكم الي الكاهن»^(٦) .

(١) الكتاب المقدس - سفر العدد ٣٣ / ٥٥-٥٠ .

(٢) الكتاب المقدس - سفر تثنية الاشتراع ١١ / ٢٣ .

(٣) نفس المصدر السابق ومعطيته ٤ / ٢٠-٢١ .

(٤) الكتاب المقدس - سفر الخروج ٢٣ / ٣١ .

(٥) الكتاب المقدس - سفر العدد ١٤ / ٢٦-٣٠ ، ٣٢ ، ٣٥ .

(٦) الكتاب المقدس - سفر الأحبار ٢٣ / ١٠ .

رابعاً - هو شعب لا أمانة له ، ولا يؤتمن على شيء ، حتى على «ربه» ، ويمنح - رغم ذلك أو بفضل ذلك - كل شيء :

«فرأى الرب واغتاض لما أغضبه بنوه وبناته . فقال أحجب وجهي عنهم وأرى ماذا تكون آخرتهم لأنهم جيل متقلب بنون لا أمانة فيهم . هم أغاروني بمن ليس الهأ وأغضبوني بأباطيلهم . . إنهم قوم لا رأي لهم وليس فيهم بصيرة» (١) .

خامساً - إنه شعب همجي لا أثر له بين الأمم ، يشرب الدماء ، ويأكل الفريسة حاقداً ملتاعاً :

«انه شعب سيسكن وحده ولا يحسب بين الأمم . . هو ذا شعب كئبوة يقوم وكشبيل ينهض لا يربض حتى يأكل الفريسة ويشرب دم الصرعى» (٢) .

سادساً - هو شعب متميز مصطفى عن الآخرين حتى في طعامه بالرغم من بؤسه وحينئذ الى طعام المصريين الشهى ، ومن تسلطه على طعام الكنعانيين :

«لأنك شعب مقدس للرب إلهك وقد اصطفاك الرب لتكون له شعباً خاصاً على جميع الشعوب التي على وجه الأرض . . . هذا ما تأكلونه من البهائم البقر والضأن والمعز . . ولا تأكلوا شيئاً من التباثل وإنما تعطوها للغريب الذي في مدنك فيأكلها أو تبيعها لأنك شعب مقدس للرب إلهك» (٣) .

٢ - أما المسألة الثانية ، التي تظهر فيها الصيغة الايديولوجية التي حددناها فيما سبق ، فهي التالية : «الشعب المختار المصطفى ضد الأغيار - الغوييم» . وهذه بدورها ، يمكن استكشاف أوجهها المتعددة والمتمة لبعضها بعضاً في العناصر التالية ، التي ربما كانت الأهم والأكثر حضوراً في حقلها :

أولاً - «الأعداء» هم دائماً وأبداً وفي كل الظروف والتحويلات الأضعف والأكثر خسارة في الحروب ؛ أما هم ، اليهود العبرانيون «شعب الرب المصطفى

(٣) الكتاب المقدس - سفر تثنية الاشتراع ٣٢/١٩-٢١، ٢٨ .

(٢) الكتاب المقدس - سفر العدد ٢٣/٩، ٢٤ .

(٣) الكتاب المقدس - سفر تثنية الاشتراع ١٤/٢، ٤، ٢١ .

المختار» ، فيد الرب تحميهم ، بحيث لا يسقط حتى واحد منهم في أعنف الحروب وأكثرها ضراوة وطولاً :

«فكانت الغنائم جملة الأسلاب التي غنمها رجال الحرب من الغنم ست مئة ألف وخمسة وسبعين ألفاً . ومن البقر اثنين وسبعين ألفاً . ومن الحمير واحداً وستين ألفاً . ومن الناس من النساء اللواتي لم يعرفن مضاجعة الرجال ثلاثمائة ألف وسبعة وثلاثين ألفاً وخمس مئة . . ثم تقدم إلى موسى وكلاء ألوف الجيش رؤساء الألوف ورؤساء المئين . فقالوا له ان عبيدك أحصوا جملة أهل الحرب الذين معنا فلم يقعد منا رجل» (١) .

ثانياً - الأعداء يُقتلون جميعاً قتلاً ، فرادى وجماعات ، ماعدى الإناث البكاريات منهن تحديداً ، حيث يُنحَن تقدمات «عزلاء شهية» للرجال ، رجال الحرب والسيف مكافأة لهم على صنيعهم بـ «نصرة الرب» في ساح الوغى :

«فكلم موسى الشعب قائلاً جردوا منكم رجالاً للجيش يغزون إلى مدين ليُحلوا نَقِمَةَ الرب بمدين . . فقاتلوا مدين كما أمر الرب موسى وقتلوا كل ذكر . . وقال لهم موسى هل استبقيتم الإناث كلهن . إن هؤلاء هن اللائي حملن بني إسرائيل بمؤامرة بلعام على أن يتمردوا على الرب في أمر فغور فحلت الضربة في جماعة الرب . فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال وكل امرأة عرفت مضاجعة رجل اقلوها . وأما إناث الأطفال اللواتي لم يعرفن مضاجعة الرجال فاستبقوهن لكم . وأنتم فانزلوا خارج المحلة سبعة أيام كل من قتل نفساً وكل من لمس قتيلاً وتطهروا في اليوم الثالث وفي اليوم السابع أنتم وسبيكم» (٢) .

ثالثاً - لا عهد يقطع مع الأعداء ، لأن مثل هذا القطع ، إن تم ، فإنه يقود إلى «انفلاش» الموقف ، أي إلى اغراء «الشعب المصطفى المختار» بمظاهر الحياة الزراعية التي ينعم بها «الأعداء» ، فيقعوا - حالداً - بأساره ويعبدوا آلهة أخرى غير «الرب يهوه» ، أي يقعوا فريسة «الوثنية التعددية» لدى الكنعانيين وغيرهم من

(١) الكتاب المقدس - سفر العدد ٣١/٣٢-٣٦، ٤٨-٤٩ .

(٢) المصدر السابق ومعانيه ٣١/٢، ٧، ١٥-١٩ .

شعوب المنطقة :

«لا تقطع لهم ولا لأهنتهم عهداً . ولا يقيموا في أرضك كيلا يجعلوك تحطاً
لي . . . »^(١) :

«وإذا أدخلك الرب إهلك الأرض التي أنت صائر إليها لترثها واستأصل أعماً
كثيرة من وجهك . . وأسلمهم الرب إهلك بين يديك وضربتهم فابسلهم
إيسالاً . لا تقطع معهم عهداً ولا تأخذك بهم رافة»^(٢) .

رابعاً - لا يجوز قطع عهد نهائي ، أيضاً ، مع «الحلفاء» ، بل يقتلون في
النهاية قتلاً (لاحظ الدلالة اللغوية والبنوية المشخصة التي تنتظم تعبير «الحليف»
و «القتل» التوراتيين ١) :

ملوك مدين وبلعام بن بعور (المقصود ببلعام بن بعور هذا هو ، توراتياً ،
ذلك الذي وقف إلى جانب الرب في حربه ضد بالاق)^(٣) قتلوه
بالسيف»^(٤) .

خامساً - إنه لمن المشروع والمطلوب ان يُسرق الأعداء وينهبوا ، حتى لو كان
السراق (جمهور الشعب المصطفى المختار) في بيوتهم وضيوفاً عليهم :

«وأهب الشعب حظوة في عيون المصريين فإذا انصرفتم فلا تنصرفون فارغين . .
بل تطلب المرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وذهب وثياباً تجعلونها
على بنيكم وبناتكم وتسلبون المصريين»^(٥) .

سادساً - الأعداء أرجاس أنجاس ، والرجاسة والنجاسة من طبائعهم وفي
جلودهم ؛ ولذلك فاحتقارهم «والابتعاد عنهم والاعتزال دونهم» هو المطلوب
الرباني :

(١) الكتاب المقدس - سفر الخروج ٢٣/٣٢-٣٣ .

(٢) الكتاب المقدس - سفر تثنية الاشتراع ٧/١-٢ .

(٣) ان كلام بلعام بن بعور هذا هو «كلام من سمع أقوال الله الذي رأى رؤيا القدير الذي يقع
فتفتح عيناه . . مباركوك مباركون ولا عنوك يلعنون» . (نفس المصدر السابق ومعطياته
٩،٤/٢٤) .

(٤) نفس المصدر السابق ومعطياته ٨/٣١ .

(٥) الكتاب المقدس - سفر الخروج ٣/٢١-٢٢ .

« فاحفظوا أنتم رسومي وأحكامي ولا تأتوا شيئاً من هذه الرجاسات الصريح والغريب الدخيل فيما بينكم . إذ جميع هذه الرجاسات صنعها أهل الأرض الذين من قبلكم فتنجست الأرض » (١) ؛
 « واصنع مذبحاً لإيقاد البخور . . لا تصعدوا عليه بخوراً غريباً . . » (٢) ؛
 « ومن يد ابن الغريب لا تقربوا طعام الحكم من جميع هذه لأن فسادها فيها بها عيبٌ فلا ترتضى منكم » (٣) .

سابعاً - لا تسامح مع الأجنبي (الغوييم) ولا اندماج به ، بل تصديع وتدمير لممتلكاته وآلهته ، وكذلك عزل للإبنة المتزوجة به «أجنبي» وإعلان زجاستها ، أي عدم قداستها ، ومن ثم ، فالحجر عليها هو الغاية على هذا الصعيد :
 « ولا تصاهرهم ابنتك لا تعطها لابنه وابته لا تأخذها لابنك » (٤) . . بل كذا تصنعون بهم تنقضون مذابحهم وتكسرون انصابهم وتقطعون غاباتهم وتحرقون تماثيلهم بالنار » (٥) ؛
 « وكل أجنبي لا يأكل قدساً . ونزيل الكاهن وأجيريه لا يأكلان قدساً . . وأي ابنة كاهن تزوجت برجل أجنبي فهي لا تأكل من قربان الأقداس . لكن أي ابنة كاهن صارت أرملة أو مطلقة ولا نسل لها ورجعت الى بيت أبيها كأيام صباها فمن طعام أبيها تأكل وأما الأجنبي فلا يأكل منه » (٦) .

(١) الكتاب المقدس - سفر الأحبار ١٨/٢٦-٢٧ .

(٢) الكتاب المقدس - سفر الخروج ٣٠/١ ، ٩ .

(٣) الكتاب المقدس - سفر الأحبار ٢٢/٢٥ .

(٤) ان حظر التزاوج مع «الآخرين» وجد صيغته القانونية الدقيقة والحازمة مع الاجراءات التي استحدثها الكاهن المتزعم عزرا في النصف الأول من القرن السادس قبل الميلاد ، وذلك تحت رعاية السلطة الفارسية . فلقد منع الزواج من خارج اليهود منعاً باتاً ، ونظم العلاقات الأسرية والاجتماعية في أوساط هؤلاء من موقع التأكيد على وجود فصيلتين بشريتين ، الأولى تندرج في إطار «المختارين المصطفين» ، في حين ان الثانية تندرج في دائرة «الاعداء الأرجاس» . وجدير بالقول ان هذا التنظيم انطلق من فروق اتية ودينية بين كلتا الفصيلتين . (انظر حول ذلك : تاريخ العالم - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٤٩٤) .

(٥) الكتاب المقدس - سفر تثنية الاشتراع ٣/٥ ، ٣٠ .

(٦) الكتاب المقدس - سفر الأحبار ٢٢/١٠ ، ١٢ ، ١٣ .

ثامناً - يمارس الربى على الأعداء بأشكاله وحدوده القصوى ، أما ضمن «الشعب المصطفى المختار» ، «شعب الرب» فمحرم قطعاً :

«لا تقرض أخاك بربى في فضة أو طعام أو شيء آخر بما يقرض بالربى . بل الأجنبي إياه تقرض بالربى وأخاك لا تقرضه بالربى لكي يبارك الرب إهلك جميع أعمال يديك في الأرض التي أنت داخل لتمتلكها» (١) ؛
«يفتح الرب لك السماء كنز خيره فيؤتي أرضك مطرها في أوانه ويبارك جميع عمل يدك فيقرض منه أمم كثيرون وأنت لا تقرض» (٢) .

تاسعاً - لا يجوز ، أبداً ، أن يُتغنى السلم مع الأعداء ومع ابنائهم وأحفادهم وأحفاد أحفادهم الخ . . فالكل يحمل وزر الجزء ، والجزء يحمل وزر الكل ، ولو في «الجيل العاشر أو الألف . . .» :

«لا تبتغ سلمهم ولا خيرهم طول أيامك أبداً» (٣) ؛
«لا يدخل مرضوض الخصيتين ولا محبوب في جماعة الرب . ولا يدخل زنيم في جماعة الرب ولو في الجيل العاشر لا يدخل منه أحد في جماعة الرب . ولا يدخل عموني ولا موآبي في جماعة الرب ولو في الجيل العاشر لا يدخل أحد منهم في جماعة الرب إلى الأبد» (٤) .

عاشراً - إذن ، يجب تدميرهم وإبادتهم حتى آخر نسمة ونسمة ، وفق الأمر الرباني اليهودي التالي :

«وأما مدن أولئك الأمم التي يعطيها لك الرب إهلك ميراثاً فلا تستبق منها نسمة . بل أبسلهم ابسالاً الحثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين واليبوسيين كما أمرك الرب إهلك» (٥) .

حادي عشر - السيادة المطلقة على العالم كله شعبياً وبلداناً وبهائم ، تقدم

(١) نفس المصدر السابق ومعطيته ٢٣/١٩ - ٢٠ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطيته ٢٨/١٢ .

(٣) نفس المصدر السابق ومعطيته ٢٣/٦ .

(٤) نفس المصدر السابق ومعطيته ٢٣/١-٣ .

(٥) نفس المصدر السابق ومعطيته ٢٠/١٦ - ١٧ .

مكافأة لـ «شعب الرب» لتقيده بتعاليمه المقدسة ، أي تعاليم

«لوحى الحجاره والشريعة والوصية التي كتبها»^(١) :

«فإني أسلم إلى ايديكم سكان الأرض ...»^(٢) .

وتخصص دائرة تلك «الأعطية الربانية» جغرافياً وبشرياً ، حيث يعلن أن «الشرق» ، الذي منه انطلقوا (اليهود اليهوديون) ، ومن خيراته كبروا وترعرعوا ، وبتراته صاغوا «برامجهم» الايديولوجية الدينية والاقتصادية والسياسية والجغرافية هو الهدف المقدس الأكبر والأسمى :

«لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات»^(٣) ؛

«كل موضع تطأه أقدامكم يكون لكم من البرية ولبنان من النهر نهر

الفرات إلى البحر الأقصى يكون تخمكم»^(٤) .

لقد أثبتنا ، في ماسبق ، نصوصاً من «العهد العتيق» عملنا على أن نتبين فيها وعبرها السمات النوعية الكبرى ، التي نرى أنها تخترق التصور الديني (الايديولوجي) للنخبة الكهنوتية الاريسوقراطية ، في بنيتها العامة وفي توجهاتها الرئيسية الدينية والاجتماعية المتمثلة - خصوصاً - بمناهضة اندماج جمهور اليهود العبرانيين بالكنعانيين . وقد حاولنا إظهار هذه السمات حيث أفصحت عن نفسها وتبلورت عبر احتكاك صدامي مباشر بالفكر الشرقي ، وذلك ضمن عملية مركبة ومديدة ولاهثة أطلقنا عليها حذئي الاستلهام التراثي والتبني التاريخي .

ونظن - إضافة إلى ذلك - أنه قد اتضح ، على نحو مباشر ومعلن عنه ، الموقف الإشكالي الذي يلف النصوص المأثي عليها من أولها إلى آخرها ، ذلك

(١) الكتاب المقدس - سفر الخروج ٢٤ / ١٢ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطيائه ٢٣ / ٣١ .

(٣) الكتاب المقدس - سفر التكوين ١٥ / ١٨ .

(٤) الكتاب المقدس - سفر تثنية الاشتراع ١١ / ٢٤ .

الموقف الذي أحطنا به وضبطناه ممثلاً بمفارقة كبرى ذات بعدين اثنين ، واحد باتجاه الواقع المشخص ، وآخر باتجاه البنية المنطقية النصية للنص .

ونحسب أنه من الأهمية المنهجية بمكان ألا يُنطلق في فهم تلك المفارقة من مواقع أخلاقية أو أيديولوجية دينية ، عموماً . إذ أن من شأن هذا الموقف أن يغيب الخيط الأحمر الناظم لتلك النصوص في ردهات مجموعة من التفسيرات الأخلاقية الذاتية ، التي تنتهي بإدانة ما للنخبة الكهنوتية المذكورة ، وذلك بمثابرتها عصاة احتيال وتزوير وخداع . ان نهجاً في النظر للمسألة مثل هذا لن يكون بمتسعه الكشف عن الآلية الداخلية الناعمة ، التي تمت بموجبها عملية تفتيق وتكريس المفارقة المنطقية والواقعية ، المحددة هنا . بل يمكن القول ، ان نهجاً مثل هذا هو نفسه يمكن ان ينظر اليه على أنه وجه آخر من أوجه التعقيد في تناول الظاهرة الكهنوتية ، بصيغتها اليهودية اليهودية . ولعلنا نضيف بأن هذا المنهج الأخير قمين بأن يجعل الظاهرة المذكورة ذات طابع أكثر تركيياً وتشابكاً واضطراباً ، بحيث يغدو هو نفسه (المنهج المنوه به) ، ومع مرور ما يكفي من الزمن ، امتداداً لها وتكريساً لإيهاميتها ووهميتها الأيديولوجية . وإذا ما سار الأمر على هذا النحو ، يغدو من السهل أن تصبح الإدانة والاثام الأخلاقية أحد المعالم الأساسية في تاريخ النخبة الكهنوتية إياها .

على العكس من ذلك النهج الأخلاقي (= اشتقاق كل الظواهر والمواقف الاجتماعية الإنسانية من مبادئ أخلاقية) ، يبرز النهج الجدلي التاريخي والتراثي من موقع تمييز دقيق بين الأنساق الضمنية والمعلن عنها ، تلك التي تشتمل عليها عملية الالتقاء أو التصادم بين موروث ما من طرف ومجموعة بشرية ما من طرف آخر . وقد لاحظنا ، في مواضع سابقة ، أن صيغة «الاختيار التاريخي التراثي» ، الذي هو إحدى الركائز العملية الضمنية أو المعلنة للموقف من موروث شعب ما ، اختزلت - في التصور الأيديولوجي النخبوي للكهنوت اليهودي المناهض للاندماج - واجملت بحركة ذهنية أيديولوجية تمثلت بـ «السطو» . وإذا كان مثل هذا السطو قد خرج ، من الناحية المظهرية ، عن الأشكال الثلاثة المكونة لصيغة الاختيار التاريخي التراثي المذكور تَوّاً ، فإنه ظل محكوماً بآليتها وبطريقة الفعل الناظم لموقف الكهنوت من الموروث الشرقي .

ذلك يشير ، من طرفه ، إلى أننا حيث نواجه بجمع كبير أو صغير من نصوص العهد العتيق نقوم على مواقف الشتم والادانة لـ «الآغار - الغويم» والتشهير بهم ، فإن من شأن النهج الجدلي التاريخي والتراثي أن يضبط هذه المواقف ويحصرها في إطار تلك «الآلية الناظمة» ، لا أن يذوب فيها (أي المواقف) ولا أن يتحول إلى واحد منها . بتعبير آخر ، الحديث القائم يدور على نمطين من التنهيج للمسألة المطروحة ؛ الأول يقدم نفسه من حيث هو منهج الإدانة والشتيمة (وما أكثر من مظاهر ومثلي هذا المنهج في العالم العربي ، خصوصاً على صعيد البحث في التاريخ اليهودي !) ؛ بينما يعرف الثاني نفسه بأنه منهج التحليل والتركيب الجدليين التاريخيين والتراثيين . وإذا كنا نحن سنعمل - فيما يلي - على تسليط ضوء فاحص مشخص على النخبة الكهنوتية اليهودية ، فإن ضرورة التمييز بين ذينك النمطين من التنهيج كان لابد لنا من الانطلاق منها منهجياً . وهذا يشير إلى أننا نولي النخبة المذكورة أهمية رئيسية في هذا البحث ؛ لأنها قامت بدورين كبيرين في التاريخ اليهودي (على الأقل حتى نشوء المسيحية) ، هما انتاج «العهد العتيق» بألوانه ومفارقاته وأبعاده المتعددة المتنوعة ، وقيادة جمهور اليهود العبرانيين على امتداد قرون طويلة بمثابتهما جهاز السلطة السياسية والدينية والاقتصادية ، أي - وكما ذكرنا في حينه - بمثابته الملك والمالك والكاهن .



حظر «إتني» باتجاه الداخل والخارج وآلية اشتها «الخارج» وازدراثة

في ثنايا صفحات منصومة أومأنا الى السمات التي رأينا أنها محدّدة لشخصية النخبة الكهنوتية اليهودية في اتجاهاتها العامة ، وفي اتجاهها اللاندماجي تحصيلاً . وقد كان علينا - في سياق ذلك - أن نميط اللثام عما أحاط بتلك الاتجاهات من مواقف ومهات ايدولوجية دينية وسياسية واجتماعية اقتصادية . أما الآن فنعمل على الكشف عن الدور الذي مارسته تلك النخبة في توليد الايدولوجيا الوهمية التوهيمية ، التي سبق أن أتينا على بعض مظاهرها ، وفي تكريسها ومنحها صيغاً عملية تطبيقية وصلت الى حدود الفعل السياسي المباشر .

في سبيل تكثيف الرؤية باتجاه الأمر المذكور ، نرى ضرورة الانتباه الى العناصر العقدية التالية ، وهي الدور المركزي للنخبة الكهنوتية السائدة ، وتداخل الوضعية الاجتماعية الاقتصادية بالوضعية الذهنية الدينية في أوساط جمهور غير ضئيل من اليهود العبرانيين ، والقوة الكهنوتية الرادعة حيال الخصوم في الداخل كما في الخارج .

لقد ظهر الدور المركزي الكهنوتي ذاك وبرز وتوطد عبر قناتين عريضتين . القناة الأولى تمثلت بتمكن الكهنوت المعني من فرض ايدولوجيته الدينية في الأوساط اليهودية العبرانية نفسها ، ومن جعلها - من ثم - مهيمنة سائدة على صعيدها . وقد اتضح ذلك عملياً من خلال اصراره ، العنيد حقاً ، على الظهور متميزاً بصفته عقل الاريسقراطية القبلية وسيفها ، ضمن وضعية كنعانية متقدمة ومتفوقة نوعياً على هذه الأخيرة (والتقدم والتفوق مأخوذان ، هنا ، بدلالاتهما التاريخية الحضارية) .

أما القناة الثانية فقد تبلورت وبرزت فاعلة بدأ بيد مع الصراع القبلي ذي الطابع الانتقامي الحاقد ضد المجتمع الزراعي المنظم والمتنظم ، والذي مثل عامل جذب كبير وعميق ومتصاعد لليهود العبرانيين للاندماج فيه ، وللتحول - من ثم - إلى وجه من أوجهه .

ذلك ما يتصل بالعنصر الأول من عناصر الأمر المطروح في هذا المعقد من المسألة . أما العنصر الثاني ، الذي حددناه بتداخل الوضعيتين الاجتماعية الاقتصادية والذهنية الدينية في نطاق الحياة اليهودية العبرانية ، فتبينه كامناً في دمج الوظيفة الاقتصادية للكهنة السائدين بوظيفتهم السياسية والذهنية الدينية . فهم ، بحسب ذلك ، القادة السياسيون والروحيون (الدينيون) لغالبية أفراد كياناتهم السياسية التي ظهرت هنا وهناك . وفي وظيفتيهما هاتين كانوا يجنسون من أولئك السريع والضرية ، اللذين لم يظهر الواحد منهما متميزاً عن الآخر إلا في مراحل متقدمة من احتكاكهم واندماج قسم منهم بالمجتمع الزراعي الجديد في كنعان خصوصاً . وبالطبع ، كان الويل لم تلكاً في تقديم ذينك «الواجبين» ، اللذين تمثلا بمجموعة متعددة متنوعة من الاضحيات والنذر والهدايا والمحرقات . . ولكن الذي تلكأوا كانوا ، رغم ذلك ، كثراً بسبب الفاعلية الحيوية لعنصر الاندماج والانصهار في المجتمع المذكور آنفاً .

كان اختراق الهيمنة الايديولوجية الدينية والاقتصادية الاجتماعية للنخبة المعنية يتحول ، شيئاً فشيئاً ، إلى تيار دافق يهددها في عقر دارها ، أي في الحقل اليهودي العبراني نفسه ، الذي كانت ترى فيه متكأها ومنطلقها الشريرين . أما البذرة التي ولدت تلك الوضعية وعمقتها كماً ونوعاً فقد نشأت في شخص حركة الاندماج بالكنعانيين وبغيرهم من شعوب المنطقة ، في حينه . وإذا ما لاحظنا هذه الحركة الاندماجية ، في آفاقها وامتداداتها التي انطلقت منها ، فإننا سوف نلاحظها وقد أحدثت شرخاً تعاضم على نحو مضطرب بين النخبة اليهودية الارستوقراطية بشرائعها العليا من طرف ، وبين أفراد القبائل ، ثم المزارعين من جمهور اليهود من طرف آخر . لقد كان ذلك الشرخ تغييراً عن نمو التناقض الطبقي والصراع الطبقي في حياة التجمعات اليهودية ، وإنْ بأشكال غير ناضجة ايديولوجياً وسياسياً وتنظيمياً في أوساط كلا الفريقين ، الأعلى والأدنى .

وانه لدومغزى عميق ، بالمعنى'الايدىولوجى والتاريخى الترائى ، أن نلاحظ
مخط العلاقة بين مظهرين كبيرين من مظاهر الايدىولوجيا الدينية فى صيغتهما اليهودية
العبرانية ، وهما الوجدانية الالهية والوثنية الشركية ، أو كما قلنا فى مكان سابق من
هذا البحث ، الوثنية التى تبدو شركية . فلقد ظهرت تلك العلاقة بمثابتها ضبطاً
لفريقين يمثل الثانى منهما (الوثنية الشركية) استجابة أعمق لتلبية حاجات التقدم
التاريخى والترائى فى مجتمع نهض على علاقات اقتصادية واجتماعية زراعية . وهنا ،
نستطيع أن نخلص الى فكرة اكتسبت أهمية خاصة فى نطاق العلاقة بين الكهنوت
اليهوى وجمهور اليهود ، تلك هي أن مظهر بصفته وثنية شركية لم يحل إطلاقاً دون
الانتقال اليه ، أي الى المجتمع الذى احتضنه (المجتمع الكنعانى الزراعى) ، وبذ
الوجدانية الالهية اليهودية وما كمن خلفها واحاط بها من علاقات قبلية رعوية ونخبة
سياسية كهنوتية .

لقد أدى تصور الوجدانية الالهية لدى الكهنوت اليهودى المتزعم وظيفتين
رئيسيتين ، تمتا بعضهما بعضاً . الأولى منها تمثلت بتقديم اطار دينى وثوقى
لتسويغ المقاومة العظمى والشاملة التى ابداهها الكهنوت المذكور إزاء تيار الاندماج
الاجتماعى والاقتصادى والدينى ، ذلك التيار الذى انطلق من صفوف اليهود ذوى
المنحدر القبلى الفقير والمفقر . فباسم المحافظة على نقاء العقيدة «التوحيدية»
المختارة ، أطلقت النخبة الكهنوتية اسلحتها باتجاه الأفراد والجماعات التابعة لها
سياسياً و«إتنياً» ، لكي تحول دون وقوعها فى «الكفر» بإلهها يهوه ، اله الشعب
الوحيد الذى اختاره واصطفاه . وعلى ذلك ، فقد بدا الأمر كما لو أن عملية
الاندماج بالشعوب ذوى العقائد الأخرى موقف موجه ضد الرب نفسه ، الذى
«انقذه» ذلك الشعب ، وورثه الأرض كلها . وبتعبير أكثر تدقيقاً وتقعيداً نقول ،
ان المسألة تلك أريد لها أن تظهر على أنها مسألة صراع دينى بين «المؤمنين» و
«الهرطقة المنحرفين» عن الايمان ، بين جماعة الرب واعدائه ضمن «شعب المختار
المصطفى» نفسه . وإذا كان هؤلاء قد تحولوا الى مواقع الهرطقة والانحراف بتأثير من
«الأخرين الاغيار» ، فقد كان ضرورياً أن ينسحب ذلك الصراع الى مستوى هؤلاء
أيضاً . ومن ثم ، غدونا أمام علاقة معقدة متراكبة بين «الداخل» اليهودى و
«الخارج» . بيد أن ذلك الداخل إذ ظهر منقسماً منشطراً ممزقاً ، فان الكهنوت
اليهوى عمل على إضفاء طابع الدينية على ظاهرة الانقسام والانشطار والتمزق

هذه . وهنا نقول ، ان الكهنوت هذا استطاع ، في مراحل باكرة من التاريخ اليهودي ، أن يحقق هيمنته وسيادته في أوساط اليهود العبرانيين عبر استبدال الوضعية الاجتماعية المشخصة هؤلاء بالوضعية الدينية الايديولوجية التي انتجها ونماها ، والوظيفة الاجتماعية الطبقية بالوظيفة الدينية الايديولوجية .

أما الوظيفة الثانية التي نيطت بتصور الوجدانية إياه فقد نهضت على تقديم الشرعية الدينية ليس للاستغلال الاقتصادي العام والمنظم فحسب ، وإنما كذلك للنهب الاقتصادي التعسفي الذي مارسه الكهنة النهمون تلقاء جمهورهم الغارق في الجهل والإملاق . وقد قدم لنا العهد العتيق ، بنصوص مختلفة متعددة منه ، صوراً فظيعة من عملية النهب تلك تمثل وثائق تاريخية واقتصادية واجتماعية (سوسيولوجية) هامة على صعيدها .

هذه النصوص تغص بالحديث وتفيض عن الأشكال المتعددة والمتنوعة للأعطيات والتقدمات والأضحيات والمحرقات الخ . . . ، التي كان على المؤمنين من «شعب الرب المصطفى» أن يقدموها لهذا الأخير طواعية (أو قسراً) ، تعبيراً منهم عن محبتهم له وخضوعاً لكلمته الأمرة المقدسة ، وكذلك اعترافاً بـ «العهد» الذي قطعه لهم في التحرير والتوريت ، تحريرهم من ربقة «الشعوب الزراعية» ، وتوريتهم أرضهم جميعاً .

وإذا أمعنا النظر في التصور الالهي المطروح هنا - في كلتا وظيفتيه المآتي عليهما - اتضح لنا أن جُماع القول الأساسي فيه يكمن في اتجاه الرب يهوه (أي الكهنوت) لتسنم زمام الموقف على الصعيدين الكبيرين بالنسبة الى الوضعية المشخصة آنذاك ، وهما الحياة الاقتصادية أولاً والمدخل إليها والمكرس لها ، أي الحياة الدينية ، بما تشتمل عليه من عقائد وتشريع وطقوس ثانياً . وقد جسد ذلك التصور ، فيما تصدى له من مهمات ، الشخصية القبلية البدوية لجمهور اليهود العبرانيين وقد انغمرت في أزمة عظمى من نخلها الخاص ، ومن خصب الآخرين . وجدير بالقول أنه كان لتلك الشخصية المؤجلة توراتياً (حتى قبل انجاز تسجيل العهد العتيق تسجيلاً شاملاً) أن تجدد في العنف والمراوغة والخديعة والقتل والسيي اسلوباً أمثل - في حدود الممكن آنذاك - لتحقيق المطامع اللاهثة وراء امتلاك ذلك

«الخصب» ، مع البقاء والانغلاق في دائرة الوضعية الخاصة . وإذا ما أحس الأذنون بانجذابهم الطبيعي الى الشروط الحياتية الجديدة الزراعية ، بما تحمله من استقرار واطمئنان ، فتركوا أنفسهم تنقاد باتجاهها بما يقتضي ذلك من اندماج أو انصهار اجتماعي واقتصادي وجنسي (اجتماعي عائلي) ، فإن السوط ، سوط الرب الواحد الأحد ، سوف يلهب أجسادهم التنتة و«أرواحهم» الشريرة .

ومن هنا ، فإن الطامة الكبرى تغدو «قدراً» و«مصيراً» لا عيب عنه ، حالما تطل «الوثنية الشركية» برأسها الخلاب المغري أمام قلوب وعقول من عمل من اليهود العبرانيين على الانخراط في أعماق أو في هوامش الأقوام الجديدة «المثيرة» وذات الجاذبية العظمى . وفي هذه الحال ، نلاحظ أن الفضول تجاه هذه الأقوام تبلور واتسع وتعمق ليس فقط لـ «معرفة» حياتهم وطرائق تفكيرهم ، وإنما كذلك - أو ربما بالدرجة الأولى - لـ «الالتحاق» بهم من حيث هم أقوام ليست جائعة وليست خوّافة . حالئذ ، لا يكون هؤلاء مستعدين للتفريط بربهم ، رب الجنود الغاضب الباطش الرهيب الغيور الصاعق ، فحسب ؛ إنهم يكونون كذلك - وكانوا فعلاً - على أتم استعداد للتخلي عما اعتبر انتفاءً إتيماً ودينياً لهم ، وعن وهم «الشعب المختار المصطفى» ، الذي لم يحنوا منه سوى الحية والآلام والحروب والإملاق وكسب عداوات الشعوب . لقد رأى هؤلاء - عبر تجربتهم الخاصة المريرة والمديدة والمباشرة - أن كهنتهم ومن استندوا إليه من رجال السياسة والحرب لم يعترفوا بوجودهم إلا لتأدية واجبين (ربانيين) ، هما محاربة الأغيار «الغوييم» والاستيلاء على أراضيهم أولاً ، وتقديم الوجائب إليهم (الكهنة) باسم ذلك الرب الذي لا يشيع ولا يرتوي ولا يرعوي ثانياً .

في تلك الوضعية المفعمة بالاضطراب والتوقعات المرعبة والآمال السرابية أو الواقعية ، نشأت المفارقة الدينية الكبرى : أن يحدث انتقال من وثنية شركية - توحيدية ضمناً - إلى وحدانية الهية صريحة ، فإن هذا ما يمثل الوضع النموذجي المألوف في التاريخ والتراث العالميين ؛ أما أن يجري العكس ، فإن الأمر - إذ ذاك - من شأنه أن يكون منطوياً على حالة ذات خصوصية ، نسبية على كل حال ، وعلى وضعية ذات إثارة بالنسبة إلى البحث في تاريخ الدين عموماً . فإذا كان يهوه قد مثل

عالمًا مغلقاً ، ضيق الأفق ، هزيل الكونية - رغم حضورها - ، فإن أرباب الكنعانيين والمصريين والرافديين وأصنامهم جسدوا عالماً رحيباً واسع الشطآن متعددة ، عميق الجذور في حياة زراعية مستقرة آمنة . نقول ذلك مع العلم أن هذا العالم الأخير « الربوبي » ظل ينطوي على نمط من الوحدة الداخلية والاتساق الداخلي في التصور الرباني (الالوهي) ، وذلك على نحو ملفع بحالة توحى بحضور «التعدد الالهي» فقط . فالتعدد ، هنا ، وإن كان الوجه الأكثر مباشرة وظهوراً ، فإنه استقى مشروعيته من الخط العميق الذي يخترقه ويحيط به ، وهو الشخصية الخصوصية التي يمتلكها المجتمع الزراعي ، والتي تمثل نسقاً نوعياً مختلفاً ومتميزاً عن النسق النوعي الذي تتمحور فيه وحوله وضعية الترحال القبلي الرعوي . ولعلنا نبرز في هذا النسق فقط أحد أوجهه الهامة على هذا الصعيد ، ذلك هو «التعدد الذهني الايديولوجي» بحد ما وبمباشرة تعبيراً عن انفتاح سياسي وذهني ديموقراطي ، بالمعنى الذي تحتمله تلك المرحلة .

ذلك الأمر ، بما يحيط به من أغلفة صفيقة دينية واسطورية ، نتيجه أو نتبين ملامح أساسية منه ، بعمق رمزي وطرافة ترميزية ، في العلاقة الثنائية الصيدامية الشهيرة ، التي برزت بين الشخصيتين التوراتيتين هابيل وقابيل . فقابيل المزارع ، الملتحم - بحسب النص التوراتي - بالأرض الزراعية خصباً واستقراراً وكذلك تازماً وقحطاً ، يقدم لنا - مع الحبة المخادعة - على أنه جد المتمردين على الرب (١) ، ذلك الرب الذي ينظر بعين عطوفة الى هابيل الراعي ، دون أن يفعل الشيء ذاته تجاه أخيه ذاك الكادح في عمله الزراعي الإخصابي .

وإذ يقتل الأول الثاني «غيرةً منه على عطف الرب عليه» ، فإنما هو ، بذلك ، يعلن انتصار الحضارة الزراعية في المجتمع الفينيقي والبابلي والمصري الخ . . والانتصار هذا يبقى انتصاراً معترفاً به ومُقرّاً بوجوده حتى بعد أن لعن الرب القتيل وأدانه بوشم «أبدي» في وجهه . وهو - بسبب ذلك - يظهر كأنه قذى في

(١) انظر حول ذلك مع المقارنة :

Alan W. Watts- The Two Hands of God (The Myths of Polarity), Collier Books, New York 1959, Page 121- 122.

أعين الأدنين من جمهور اليهود العبرانيين ، الطامحين الهائجين . بيد أنه (أي الانتصار) لم يكن في أعينهم قذى بذاته وبصورة عامة ، بقدر مامثل موقف النكوص والاختفاق والاضطراب ، الذي أحاط بحياة أولئك الرعاة المتنقلين بقيادة كهنوتهم (ربهم) . وإذا كان الأمر كذلك ، فإننا - حائذ - لن نجانب الصواب إذا رأينا في موقف قابيل ومصيره تعبيراً رمزياً مكثفاً (عنيفاً) عن عملية الاندماج بالمجتمع الكنعاني والرافدي ، التي انخرط فيها جمهور ليس ضئيلاً من اليهود العبرانيين . وهذا ، بدوره ، يضع الباحث أمام مهمة تقصي الدلالات الظاهرة والخفية للأفعال التوراتية ، ذلك التقصي الذي واجهنا سماته وآفاقه واحتمالاته ضمن ما اطلقنا عليه في موضع سابق من هذا الكتاب «القراءة المركبة» للنص «المقدس» .

هكذا ، إذن ، تبرز الوظيفة المركزية التي حققتها عملية تبني «الوثنية الشريكية» الكنعانية والرافدية ، وكذلك الى حد ما المصرية ، من قبل ذلك الجمهور . فهي قدمت المسوغات الضرورية لفتح الطريق أمام مطامح الاندماج بالشعوب المحيطة الأخذة بتلك «الوثنية» نسقاً رئيسياً في تصورهما الديني والاسطوري . في سياق ذلك ومن موقعه ، تبلورت كيفية الرد على الوجدانية اليهودية (الكهنوتية) المغلقة اريستوقراطياً و «إتياً» وكذلك المؤطرة بحدود «الشعب المختار المصطفى» ، من قبل تلك «الوثنية» الديموقراطية التعددية ضمن الأفاق المتاحة في مجتمع زراعي ذي علاقات مشاعية قروية . وبطبيعة الحال ، فإن المسألة اذا كانت على ذلك النحو ، فإننا نستطيع أن نستنبط القول بأن «الوثنية الشريكية» المعنية - وقد رأيناها أيضاً توحيدية ضمناً - مارست دوراً تقديمياً بارزاً ومُلفتاً في عملية التسويغ الذهني السيكولوجي والديني لاندماج من اندمج من اليهود العبرانيين بغيرهم من شعوب المنطقة ، وتخصيصاً الشعب الكنعاني أولاً ، وفي إحداث ما يقترب من القطيعة الحضارية الزراعية بينهم من طرف وبين فئة الكهنوت المتزعم ومن ظل تحت هيمنته من طرف آخر . بل لعلنا نكتشف الموقف إذ نقول ، أن الوثنية الشريكية المتوه بها كانت شريكية (تعددية) ، حقاً ، بقدر ما كانت واحدة توحيدية ، حقاً . ومن ثم لم يكن من تعارض بين الموقفين ، وإنما كانت هنالك علاقة تجادل بينهما أفصححت عن وحدة المجتمع المعني وعن تعدديته (النسبية) . ولذلك ، يمكننا أن نضع صيغة العلاقة الاجتماعية المشخصة بين

الوحدانية اليهودية من طرف والشركية الوثنية الكنعانية من طرف آخر بمثابتها علاقة تناقض وحدة السلطة السياسية الاستبدادية مع وحدة السلطة السياسية التعددية الديمقراطية .

لقد كمن وراء تلك الوضعية صراع كان يشتد باشتداد وتأثر عملية الاندماج واتساعها ، صراع بين الكهنوت المهيمن من جهة ، وبين الشعوب «الوثنية» واليهود «الآبقيين» - معاً - من جهة أخرى . وجدير بالانتباه النشاط الذي استطاعت فئة الكهنة المتزعمة اليهودية أن تقوده باتجاه خلق وعي جمعي (شعبي) يُقر بعصمتها الدينية ، تلك العصمة التي سمحت لها أن تتصرف بـ «حرية شبه كاملة وقطعية» في عملية المجابهة والمناهضة لذينك الفريقين المتحالفين من الخصوم . وإذا كانت هذه الفئة قد شغلت المركز الحيوي الفاعل في الاريستوقراطية اليهودية وظهرت ، من ثم ، بمثابتها وجه هذه الأخيرة وعصبها ، فقد ظهر الاندماجيون على أنهم خصوم وأعداء الكهنوت من حيث هم اريستوقراطيون ؛ هذا بالرغم من أن الكهنوت المذكور عمل - منطلقاً من حسنه المصلحي المباشر - على تعمية ذلك .

ولاشك أن «العصمة» ، التي تكونت حول فئة الكهنوت ، دفعت بها باتجاه فتح كل الاسلحة ضد «الأغيار» ، و «الآبقيين» الذين أخذوا يبرزون في أعينها ، شيئاً فشيئاً ، على أنهم مندرجون في إطار اولئك (أي الأغيار) ومصنّفين في دائرتهم . وهذا ما عقد الموقف المنطلق من زعم «الاصطفاء الإلهي» ومن «وحدة التصور الديني» . وبإمكاننا أن نشير إلى أن نصوص «العهد العتيق» مليئة بمظاهر هذا الموقف وبدلالاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والسيكولوجية . وعلينا أن نقرر ما هو أكثر من افتراض تأملي ، وهو أن الكثير من عناصر الشك والتشكيك أخذت تبرز في وجه وهم «العصمة الكهنوتية» ذاك ، مؤدية الى طرح الوظائف الرئيسية للكهنوت بمثابتها التعبير المشخص عن الوعي الذاتي لهذا الأخير .

لم تُخف نصوص «العهد» مظاهر تلك الوظائف ، بل اُحت عليها الحاحاً مشدداً ، بعد أن جعلت منها مواقف متصلة بالرب وبعلاقته مع سدنة هيكله ، الكهنة . ومن الهام أن نتناول هذه المسألة ، هنا ، لاتصالها بصورة وثيقة بما انطلقنا منه في هذه الفقرة تحت أطروحة الحظر الإلهي والديني ، الذي عمل ذلك الأخير

على تنفيذه بحق الطامحين الى الاندماج من جمهور اليهود العبرانيين .

من خلال تقصص منهج لنصوص «العهد العتيق» ، يتسنى لنا أن نلخص الاتجاهات الوظيفية الرئيسية الكبرى ، التي انطلقت من الوعي الذاتي للكهنة اليهودي باربعة ؛ تلك هي التسالية ، الوظيفة الاقتصادية ، والاجتماعية ، والحربية ، وأخيراً الدينية الايديولوجية (بما في ذلك السياسية) .

فعلى صعيد الوظيفة الاقتصادية ، تتضح المطالب التالية التي يفرضها الكهنة على «المؤمنين» بمثابتها أحد واجباتهم إزاء «السرب» : أن يقدموا لهم بواكير حصادهم ، وأن يجعلوا منهم مخطط اهتماماتهم في تقديم الطعام والشراب . وهذا ، من طرفه ، يتصل بانتاج الارض والبهائم والناس ، وكذلك بافتداء الناس والبهائم النجسة . ولعل أمراً ذا أهمية بارزة يتضح من سياق ذلك ، وهو أن الكهنة كانوا متفرغين لشؤون السلطتين (الزمنية والروحية الدينية) ، بحيث أن الباحث قد يصل الى الافتراض بأن مؤسسة الدولة أو ما يقود إليها كانت قد أخذت تبلور في نطاق تلك الفئة الكهنوتية ، وذلك على نحو يؤدي لاحقاً (خصوصاً مع عهدي القضاة والملوك) إلى تشكيل مؤسسات ضمن الدولة لها حد من الاستقلالية النسبية . وجدير بالقول أن ذلك التحول كان يزداد تبلوراً ووضوحاً واتساعاً مع تعاظم الاستقرار الجغرافي والاقتصادي والحربي ، ومن ثم مع تعاظم الاتجاهات الاندماجية التي خلقت ، بدورها ، تحديات سياسية في نطاق التكونات اليهودية العبرانية .

نلجأ الى النصوص «المقدسة» ، لتبين الأشكال التي اتخذتها الوظيفة الاقتصادية للكهنة اليهودي ، فنورد منها التالية :

«وكلم الرب موسى قائلاً . مر بني اسرائيل وقل لهم إذا دخلتم الأرض التي أنا معطيكم وحصدتم حصيدها فأثروا بحزمة باكورة حصيدكم الى الكاهن . فيحركها بين يدي الرب للرضى عنكم في غدا السبت يحركها الكاهن . وقربوا في يوم تحريك الحزمة تحلاً صحيحاً حولياً محرقة للرب . . . وخبزاً وفريكاً وسنبلاً طريئاً لا تأكلوا الى ذلك اليوم عينه إلى ان تأثروا بقربان الهكم . . . وقربوا مع الخبز سبعة حملان صحاح حوليات وعجلاً من البقر وكبشاً يكونان محرقة للرب . . . وقربوا تيساً من المعز للخطاء وخمسين حوليين للسلامة .

فيحركها الكاهن . . . وللكاهن تكون»^(١) ؛

«فإن لم يكن للرجل وليٌ ليرد إليه ما أوثم به فليكن المردود مما أثم به للرب يأخذه الكاهن لنفسه فضلاً عن كبش الكفارة الذي يكفر به»^(٢) ؛ وأول برك وعصيرك وزيتك وأول جزاز غنمك تعطيه له»^(٣) ؛

«وقال الرب لهرون إني قد أعطيتك ما يحفظ من تقادمي جميع أقداس بني إسرائيل أعطيتكها حق مسحة لك ولبنيك رسم الدهر . هذا يكون لك من قدس الأقداس مما يحرق جميع قرابينهم وتقادمهم وذبائح خطائهم وذبائح الإثم التي يؤدونها لي إنما قدس أقداس لك تكون ولبنيك . . . جميع خيار الزيت والعصير والبز بواكيرها التي يجعلونها للرب لك جعلتها . بواكير ما في أرضهم التي يأتون بها للرب لك تكون كل طاهر في بيتك يأكلها . وكل حرام في إسرائيل يكون لك . كل فاتح رجم من كل جسد يقدمونه للرب من الناس والبهايم يكون لك لكن تُفدي بكور الناس وتفدي بكور البهايم النجسة . فداء الناس من ابن شهر يكون بحسب تقويمك خمسة مشاقيل فضة بمئقال القدس وهو عشرون دقاً . . . وأما بنو لاوي فإني جعلت لهم كل عشر في إسرائيل ميراثاً عن خدمتهم التي يخدمونها في خيلاء المحضر . كلّم السلاويين وقل لهم متى اخذتم من بني إسرائيل الأعشار التي جعلتها ميراثكم فقدموا منها مقدمة للرب عشراً من العشر . . . وليكن ما تقدمونه للرب من جميع عطاياكم خيارها المقدس منها»^(٤) .

(١) الكتاب المقدس - سفر الأحبار ٢٣/٩-١٢ ، ١٤ ، ١٨-٢١ .

(٢) الكتاب المقدس - سفر العدد ٨/٥ .

(٣) الكتاب المقدس - سفر تثنية الاشتراع ١٨/٤ .

(٤) الكتاب المقدس - سفر العدد ١٨/٨-٩ ، ١٢-١٦ ، ٢١ ، ٢٦ ، ٢٩ . وفي هذا السياق نورد ما يذكره ول ديورانت (قصة الحضارة - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٣٤٦) من بعض الامتيازات التي تمتع بها الكهنة ، بحيث أصبحوا أقوى من الملوك أنفسهم (في عهد الملوك) : «كانوا معفيين من الضرائب وفرضة الرؤوس وسائر الأتاوات على اختلاف أنواعها . وكانوا يأخذون العشور على نتاج الضأن ، ويتفعلون بما يبقى في الهيكل من القرابين التي لم تستنفدها = الآلهة . ونمت ثروة الكهنة بعد نفي اليهود بنمو المجتمع اليهودي الجديد ؛ وإذ كانت هذه الثروة =

وبعد أن تعدد التوراة الشرائع الملزمة للمؤمنين دَفَعَةَ «الضرائب والأتاوات الخ . . .» إزاء الرب على النحو التالي :

«هذه شريعة المحرقة والتقدمة وذبيحة الخطأ وذبيحة الإثم والتكريس وذبيحة السلامة ، التي أمر الرب بها موسى في طور سيناء يوم أمر بني اسرائيل بأن يقربوا قربانهم للرب في بركة سيناء» (١) ،

تعلن التوراة إياها على لسان ذلك الرب (الكاهن) تهديدها الحازم القطعي لكل من يتلكأ في الخضوع لها بأنه «يُقطع . . من شعبه» (٢)

ذلك ، مجملًا ، هو ما يتصل بالوظيفة الاقتصادية التي ناطها الرب بالكهنة (الكهنة بأنفسهم) ، بحيث يمكن الاستنتاج بأن الفئة المعنية استطاعت أن توسع نفوذها الاقتصادي على نحو جعل منها ، فعلاً ، السلطة الفعلية ضمن السلطة العامة الممثلة بطبقة الأريستوقراطية القبلية ، الناحية ، بقدر أو بآخر ، نحواً زراعياً . ولعلنا نستجلي هذا الأمر بمزيد من العمق نوعاً وكماً حين نضم إلى دائرة بحثنا ما يندرج في نطاق الوظيفة الاجتماعية ، التي انجزتها نفس الفئة ، ويمثل الحزم الذي أظهرته على صعيد الوظيفة الأولى : هاهنا وبصورة أولية ، نلاحظ أن الكهانة حُصرت في موسى وأخيه هرون ، وفي بنيه من بعده . وبالطبع ، فإن موسى والآخرين يمثلون تلك الفئة مأخوذة من حيث هي نسق اجتماعي متميز نسبياً في نطاق الطبقة المذكورة آنفاً . ولعلنا نقول ، ان تقسيم العمل برز على هذا الصعيد وقد اكتسب طابعاً مركباً في نطاق الطبقة الواحدة . والطريف الملفت في ذلك أن فئة الكهنوت وإن برزت ، بالدرجة الأولى ، في دور ديني ايديولوجي ، فإنها كانت - في هذا الدور - متكئة بعمق على دور اقتصادي فاعل تشريعياً وقضائياً وتنفيذياً . ومن هذا الموقع المضاعف وظيفياً ، أتيحت لها امكانيات القبض على مداخل المجتمع

=المقدسة قد أحسن القيام بها ، فقد جعلت كهنة الهيكل الثاني في دمشق ، كما كان أمثالهم في طيبة وبابل ، أقوى من الملوك أنفسهم .

(١) الكتاب المقدس - سفر الأحبار ٧/ ٢٧-٢٨ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعانيه ٧/ ٢٠-٢١، ٢٥، ٢٧ . . .

الأخرى . ان «يهوه» كان ، بهذا المعنى ، قد استطاع الدخول في هذا الأخير والقيام فيه بدور كبير ، وربما كذلك حاسم في مظاهر الحياة الدينية والعاطفية والسيكولوجية ، تلك المظاهر التي برزت محددة في صيغة يهوه . ولعلنا إذ بلغنا هذه النقطة الدقيقة من المسألة ، أن نكون غوّلين بالقول بأن اليهوية لم تمثل موقفاً دينياً عقيدياً فحسب ، بل استطاعت أن تتحول الى ما سنسميه لاحقاً وفي سياق الحديث عن الاسلام الى دين شمولي . ان التكهّن والكهانة جسداً ، هنا ، موقفاً وظيفياً باتجاه كل الاتجاهات والمناحي ، التي برزت في التجمعات اليهودية العبرانية ، في حينه .

وإذا عدنا ، ثانية ، إلى مسألة «الدولة» ، بمثابتها سلطة رادعة ومنظمة للحقول الاجتماعية المختلفة من موقع النسق الطبقي المهيمن ، وإن بقليل من الظهور المباشر ، فإننا نجد الكهانة أرهاصاً هاماً بل بالغ الأهمية على طريق تبلورها وبروزها في مراحل لاحقة من التاريخ اليهودي . وكما نلاحظ ، فإن عنصر التوريت يمثل ، هنا ، القاعدة الناظمة للتحوّلات التي تطرأ على الكهانة . فلقد اوكلت لهذه الأخيرة تلك السلطة «إلى مدى الدهر» . وبصيغة أكثر تخصيصاً ، يظهر التوريت ذاك في شخص «النبي» وآله . والنص التوراتي غني بالمواقف والاشارات ، التي تحدد ذلك الأمر وتضبطه تفصيلاً ، بحيث لا ينشأ - بمقتضى ذلك - أي لبس :

فالقداسة «لهرون وبنيه رسم الدهر من بني اسرائيل . وثياب القدس التي لهرون تكون لبنيه من بعده يُمسحون فيها وتكرّس فيها ايديهم» (١) ؛
«وصر الى الكهنة اللاويين والى القاضي الذي يكون في ذلك الزمان واسألهم فيرشدوك في أمر الحكم . واعمل بمقتضى القول الذي يفتونك به في ذلك الموضع الذي يختاره الرب وتحمّر العمل بجميع ما يلقونه اليك . بحسب الشريعة التي يلقونها اليك والحكم الذي يقولون لك تصنع ولا تحدّ عن القول الذي يفتونك به بمئة ولايسرة» (٢) .

(١) الكتاب المقدس - سفر الخروج ٢٩/٢٨-٢٩ .

(٢) الكتاب المقدس - سفر تثنية الاشتراع ١٧/٩-١١ .

ان دور الكهنة الكبير في الحقلين الاقتصادي والاجتماعي يتعزز على صعيد الحياة الحربية والخصامية ، حيث يبرز هؤلاء بمثابة القادة العسكريين الذين يتقدمون الجيوش ، وحيث يقومون بمهمة القضاة والحكام الذين يفصلون في «كل خصومة وكل ضربة» . وهذا يشير إلى أنهم (الكهنة) أسياد الموقف في حالتي السلم والحرب ، لا يخرج عن «اختصاصهم» أمرهما صُغر ومهما كبر . لنقرأ الآيتين التاليتين اللتين تفصحان ، على نحو بين ، أن سدة الحرب والسلم الحقيقيين هم هؤلاء الكهنة :

«وعند تقدمكم للحرب يتقدم الكاهن ويخاطب الشعب»^(١) ؛
«ثم يتقدم الكهنة بنولاوي لأن الرب الهك إياهم اختار ليعلموا ويباركوا باسم الرب وبكلامهم تفصل كل خصومة وكل ضربة»^(٢) .

ولعلنا لاحظنا أن ممارسة الحرب شبه الدائمة من قبل الطبقة العليا اليهودية ومن خلفها جمهور يكبر أو يصغر ضد شعوب المنطقة ، في حينه ، كانت تشغل حيزاً رئيسياً في نشاط الكهنوت . فلقد عرف هؤلاء - عبر تجاربهم الخاصة - ان الحرب أداة فعالة لخلق اوضاع دائمة التوتر ، من شأنها أن تبقي على جمهورهم في حالة من التحفز والخوف والقلق الدائمة أو شبه الدائمة ، بحيث يحول ذلك دون التفكير في الاندماج بتلك الشعوب أولاً ، وبحيث تكون الطبقة العليا - وفي قلبها الكهنوت - قادرة على التذرع بهذه الحالة لاجداث اوضاع «استثنائية شبه مستديمة» من الملاحقات وتشديد القبضة على المنحرفين أو الأبقين أو المتمردين . (بتعبيرنا المعاصر نتبين تلك الوضعية في إطار ما يطلق عليه قانون الطوارئ أو الأحكام العرفية) . ومن ثم ، فان العيش بسلام في الداخل والخارج يمكن ان يجسد خطوات على طريق انفلات «البقرة الحلوب - جمهور اليهود الفقراء والمفقرين» من أيدي أصحابها . هاهنا ، يصح أن نورد ما كتبه البرايت حول مقاصد الحروب التي قادها الكهنوت السياسي اياه ضد الكنعانيين : «لقد أقرت الأعراف المتأخرة أن تدمير جزء كبير من السكان الكنعانيين قد انقذ اسرائيل من عملية الانصهار الثقافي

(١) نفس المصدر السابق ومعطيته ٢/٢٠ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطيته ٥/٢١ .

التي كان من الممكن ان يكون لها عواقب وخيمة على الايمان الجديد» (١) .

وبطبيعة الحال ، فان السّدانة العسكرية كانت تقتضي وجود سدانة نفسية (سيكولوجية) تمثل حافزاً ودافعاً للفعل العسكري . ومن هنا ، نشأت ضرورة «الحرب النفسية» ، التي استطاعت أن تجد صيغتها الأكثر نفاذاً ، حتى ذلك الحين ، في الايديولوجيا الدينية التوراتية نفسها . وهذا يطرح مسألة «الوعي الديني المهيمن» والعمل على تعميمه في الداخل (ضد جمهور الأكثرية من الفقيرين والفقراء) ، وفي الخارج (ضد «الأعداء» المتمثلين بشعوب المنطقة ، أي بكل ما لم يندرج في اطار اليهودي) . ومن أجل تحقيق هذا ، كان يُلجأ الى كل ما من شأنه أن يؤدي الى تضخيم وتعظيم دور «شعب الرب» في القتال ، وذلك يبدأ بيد مع نزع استعلائية من الصّلف النخبوي والتزوير التاريخي . وقد كنا فيما سبق قد نقلنا نصوصاً من «العهد العتيق» تظهر أن «الحروب الدامية» ، التي قادها رؤوس اليهود ضد كذا وكذا من الشعوب أو القبائل ، لم تكلفهم مقتل «رجل واحد» ؛ في حين أن الخصوم كانوا يُقتلون ، أو يسبون نساء ورجالاً ، إضافة إلى أن بهائمهم كانت تساق الى «شعب الرب» هدية مطوعة .

وإذا كنا ، هنا ، قد رأينا التلاحم الوظيفي (على الأقل) بين «الرب» و «الكهنوت» ، بحيث جعلنا هذا الأمر ننظر إلى الفريقين على أنها صيغتان لوضعية دينية ايديولوجية واحدة ، فإن بعض الباحثين لم يتبينوا دلالة وأفق الترميز القائم بينهما ، مما يغيب الوظيفة العسكرية التي انجزها الكهنوت باسم رب هو «يهوه» . وهذا النمط الديني التوراتي من الدرس للحروب اليهودية يقود إلى الاعتقاد بأن يهوه وليس الكهنوت هو الذي كان يقودها . فعلى سبيل المثال ، يكتب غاستون بوتول وآخرون في (الحروب والحضارات) (٢) مايلي : «وعلى الرغم من أن هذا الإله لا يرد على شكل انسان أو أي شيء آخر ، فإنه يظل دائماً (إله الجيوش) الاسرائيلية يقف في وسط المحاربين ويدير عملياتهم ويقدم لهم النصائح والارشادات أثناء الالتحام بالمعارك» . وإذا كان في هذا الرأي ما يدعو الى الاكتباء ، فهو أنه يشدد على العلاقة

(١) نقلاً عن : بدعة أمين - المشكلة اليهودية والصهيونية ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص

(٢) انظر هذا الكتاب - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٤٣ .

بين الموقف الديني والآخر العسكري . وهذا ، من طرفه ، إبراز لدور «العهد العتيق» في الحياة اليهودية العبرانية ، كما أرادها الكهنوت أن تكون .

إن ذلك الذي أتيناه عليه في نطاق الوظائف الأربع التي ناطها الكهنوت بنفسه ، جعل منه مقياساً ناظماً للعلاقة مع الرب وإرادته . وهذا ما سمح بتوليد الحوافز والمسوغات التي انطلق منها الكهنوت في إقامة الايديولوجيا الدينية (التوراتية) ، من حيث هي العقل الكلي الناظم لكل مظاهر الحياة اليهودية العبرانية . ولما كان هذا العقل الكلي قد أعلن عنه بمثابة عقل الرب المنزه ، القريب البعيد ، فقد أضحي أي عمل أو نشاط يخالف له ، صراحة أو ضمناً ، مداناً ، ويجعل من صاحبه واحداً من «الزنادقة» أو «المهرطقة» أو «الآبقين» أو «المتحالفين مع أعداء الرب» . الخ . . والنص التوراتي يعلن هذا الموقف بكثير من البوضوح وبعيداً عن أي غمغمة :

«إن عيونكم قد رأت ما صنع الرب ببعل ففوراً فإن كل من اتبع بعل ففوراً أباده الرب الهكم من بينكم . أنتم المستعصمون بالرب الهكم فكلكم أحياء اليوم . يوم وقفت أمام الرب الهك في حوريب حين قال لي الرب اجتمع لي الشعب حتى اسمعهم كلامي لكي يتعلموا مخافتني طول الأيام التي يحيونها على الأرض ويعلموا بينهم . . فاحذروا لأنفسكم من أن تنسوا عهد الرب الهكم الذي قطعه معكم . . لأن الرب الهك هو نار آكلة إله غيور . . ويشتمكم الرب فيما بين الشعوب حتى تبقوا جماعة معدودة في الأمم الذين يسوقكم الرب إليهم» (١) .

فإذا كان الرب الكهنوتي أو الكهنوت الربّي غيوراً ، وبطاشاً ومتقماً لغيرته ، فإن من يتجرأ على الشرك به ، أي على استفزاز غيرته هذه ، فإنه يرجم رجماً بالحجارة حتى الموت :

«إذا وجد فيما بينكم في بعض مدنك التي أعطاك الرب الهك رجلاً أو امرأة صنع الشر أمام الرب الهك فتعدى عهده . ومضى فعبد آلهةً أخرى . . . واخبرت وسمعت وتقصيت جيداً فكان الأمر صحيحاً ثابتاً وقد صنع هذا الرجس في

(١) الكتاب المقدس - سفر تثنية الاشتراع ٤/٣ - ٤ ، ١٠ ، ٢٣ - ٢٤ ، ٢٧ .

اسرائيل . فانخرج ذلك الرجل أو تلك المرأة الذي صنع هذا الأمر المنكر الى أبوابك رجلاً كان أو امرأة وارجمه بالحجارة حتى يموت . . وأي رجل كان متجبراً حتى لا يسمع من الكاهن الواقف هناك ليعلم الرب الهك أو من القاضي فليقتل ذلك الرجل واقطع الشرم من اسرائيل . فيسمع الشعب ويخافوا ولا يتجبروا ايضاً» (١) .

ولعلنا لاحظنا التركيز على اتجاه الإرعاب والتخويف والارهاب بمثابته اسلوباً ضرورياً للمحافظة على الهيمنة المطلقة لسلطة الرب الكاهن . واذا كان الأمر على هذا النحو ، فإنه يشير إلى أن الحوافز الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المباشرة لتحقيق هذه الهيمنة لم تعد كافية ، بحيث أن الضرورة كانت قد تولدت لتقديم حوافز رادعة غير مباشرة تمثل امتداداً لتلك وضبطاً لها : ان الحافز الاقتصادي الردعي اصبح دون مستوى التحولات التي طرأت على البنية الاقتصادية والاجتماعية في الكيانات اليهودية العبرانية ، التي نشأت وتموضعت على أطراف الكنعانيين ، ثم في قلبهم . ومن هنا ، كان منشأ وتبلور الدين اليهودي اليهودي المسجل في «العهد العتيق» والمكتسب فيه سماته الرئيسية . وفي هذه الحال ، يغدو من المرجح أو الأكثر ترجيحاً أن نرى في عملية التحول تلك من المباشرة الى اللامباشرة ، أي في التحفيز الردعي اليهودي اليهودي ، المواقف الوظيفية البعيدة والقريبة ، التي كمننت وراء عملية نشوء وتبلور الشخصية الكهنوتية اليهودية اليهودية . وعلى ذلك ، يصبح بوسعنا أن نتبين الأصول الشخصية التاريخية التراثية لنشوء يهوه بصفته المدخل والمتن في نصوص العهد العتيق .

لقد واجهنا مركباً من المسائل والمسائل الثانوية ، التي وجدناها تتصل بحصيلتها المقدمة توراتياً ، وهي سيادة يهوه في كل الانحاء والجهات . وقد وجدنا هذا الأخير ، كما صاغه الكتبة الكهان ، «ناراً آكلة وغيوراً» . وحيث نحول هذه التصورات اللاهوتية الى أخرى سياسية ، نجد أمامنا الهاً سمته الأساسية هي ، كما

(١) نفس المصدر السابق ومعطياته ١٤/٢-٥ ، ١٢-١٣ .

حددها Heinrich Heine ، أنه «طاغية»^(١) . وجدير بالنظر أن «طغيانية» الاله المعني (وعليها ، بالطبع ، أن نضع بحذاء هذا الأخير تعبيراً آخر له ، هو الكهنوت) اندفعت باتجاهين اثنين ، واحد هو الداخل ، داخل «الشعب المصطفى المختار» ، وآخر هو الخارج ، الذي يشمل كل ما لا يتصل بذلك الداخل . وإذا كنا قد أومأنا الى هذه الفكرة في موضع سابق ، فاننا نرغب ، الآن ، أن نلاحقها بشيء من خصوصية الموقف الشخص . ان هذه الخصوصية تبرز في ممارسة «الصلب» للمتمردين من اعلى ومن تحت ، اولئك المتمردون الذين كانوا يرون في الاندماج بـ «الأغيار» طريقاً كبيراً لاعتناقهم ؛ كما تبرز (تلك الخصوصية) في حظر الاندماج فيما بين الاسباط (القبائل) أنفسهم :

«وأقام اسرائيل بشيظيم واخذ الشعب يفجرون مع بنات موآب . فدعون الشعب الى ذبائح الهتهن فأكل الشعب وسجدوا لألهتهن . وتعلق اسرائيل ببعل فغور فاشتد غضب الرب على اسرائيل . فقال الرب لموسى خذ معك جميع رؤساء الشعب واصلبهم للرب أمام الشمس فتصرف شرة غضب الرب عن اسرائيل . فقال موسى لقضاة اسرائيل اقتلوا كل واحد من تعلق من قومه ببعل فغور»^(٢) .

هكذا إذن وبكل وضوح ، يكون الصلب والقتل من نصيب أولئك الذين يتعدون حدود الرب ، إذ يحاولون الاتصال «المشبو» بشعوب المنطقة ، التي يعيشون فيها . ولكن إذا كان هذا الحزم الرذعي من مقتضيات الموقف مع الغوييم - الأعداء ، فانه يبرز ، أيضاً ، على صعيد العلاقة فيما بين «الأغيار المصطفين» أنفسهم . ولا ريب أننا إذ نبليغ هذا المنعطف في المسألة ، فإن الوجه الاجتماعي الطبقي ينجلي ، بقسماته الكبرى وبوضوح ، في سلوك الكهنوت السياسي المهيمن . وهنا نكاد نقول ، ان تصور «الهامش والمركز» ، الذي جرى الحديث عنه سابقاً مفصلاً ، يحسم لصالح اتجاه واحد ، هو رفضه وتجاوزه ، أو وضعه في سياق

(١) انظر : Heinrich Heine- Zur Geschichte der Religion und Philosophie in Deutschland, a.a. O., S. 107.

(٢) الكتاب المقدس - سفر العدد ٢٥ / ١-٥.

آخر . أما هذا الأخير فيكمن في النظر الى الهامش مكوّنًا من الغوييم (الأغيار) وجمهور «الخطاة» من اليهود العبرانيين ، معاً ، والنظر الى المركز على أنه مكون فقط من الطبقة الارستوقراطية بـ «عقلها» ، أي بكهنوتها .

وبعد أن أتينا على «النتائج الوخيمة» ، التي لحقت بأولئك اليهود العبرانيين ممن عبد من الآلهة غير الرب يهوه وممن تزوج من بنات الشعوب الأخرى ، نشير إلى أن مثل هذه النتائج أو ما يقترب منها أصابت ، كذلك ، اليهود الذين تزوجوا من اسباط غير سبطهم . وهنا ، نلاحظ أمراً على غاية الأهمية ، ذلك هو انهيار الوهم الكهنوتي التوراتي الذي تمثل بالعلاقة بين الهامش والمركز . لقد كانت الضربة الكبرى له قد تمثلت بالاضطهاد الاقتصادي الذي وجه لجمهور اليهود من قبل كهانهم أولاً ، وبالخطر الجنسي العائلي بين قبائلهم ثانياً . ومن ثم وعلى هذا النحو ، كان على الوهم الكهنوتي الآخر المتمثل بتصور «الغوييم - الأغيار الاعداء» ان يسقط هو كذلك ؛ إذ في هذه الحال يغدو السؤال الساخر التالي وارداً : مَنْ مِنْ الذين تبقى نطلق عليه «الغوييم» ؟ ان الايديولوجيا التوراتية الكهنوتية تقوم ، كما هو بين ، على تناقض مشير بين طموحها الأقصى وواقعها الأقصى ؛ طموحها للايهام بأن اليهود العبرانيين يمثلون نسيجاً واحداً موحدًا في نطاق التصور الربّاني «الشعب المصطفى المختار» ، وواقعها المتمثل بممارسة الكهنوت النخبوي وطبقته العليا كل أشكال العنف والخطر والاستغلال على الأدنين من هذا «الشعب» . وهذا يدعونا لأن نطلق على تلك المواقف مصطلح ايديولوجيا الأقصيين ، تلك الايديولوجيا التي تسمح بتعميق رؤيتنا لما توصلنا اليه في موضع سابق تحت حد «عقدة الحضارة» التي تشكلت في الأوساط اليهودية عامة ، والوسط اليهودي المتزعم ضمنها بصورة خاصة .

إننا ، والحال كذلك ، سوف لا نقع في الدهشة حين نواجه مواضع في العهد العتيق تلح الحاحاً «ربّانياً» مبدئياً على ضرورة ألا يجري التزاوج اليهودي العبراني الداخلي مجرى طبيعياً اندماجياً . فلا يجوز ، بمقتضى ذلك ، أن تتزوج بنات سبط يهودي من أبناء سبط يهودي آخر . فكأننا نواجه ، هنا ، في الدائرة اليهودية العبرانية ، نمطين من اليهودي ، أولنقل نمطاً يهودياً وآخر غير يهودي . وهذا يضعنا ، مجدداً ، أمام اطروحة اليهودي واللايهودي ، بحيث يصبح في متسعنا

القول أن اللايهودي هو الغوييم (الآخر - العدو) . ولما كان الحظر في التزاوج الداخلي قائماً على صعيد الأسباط (القبائل) كلها ، فقد ترتب على ذلك أن يكون كل سبط بالنسبة الى سبط آخر وإلى مجموع الأسباط الأخرى «غوييم» ، غريباً ، آخر ، عدوً . وهكذا يتحول اليهودي - في التصور الكهنوتي هذا - الى نوع من علاقة تضاد شاملة وقطعية بين الانا والهو ، بين الصديق والعدو ، الخير والشرير ، أي بين اليهودي واللايهودي ، كما أشرنا فوق . والأمر يكتسب شخصيته الحازمة والجلية ، حين نضع في اعتبارنا ان منع التزاوج بين اليهود لم يؤخذ به بسبب الخروج من دائرة التزاوج المغلق ، وإنما لاعتبار مالي يتصل بالإرث .

ان النص التالي يعرض الموقف المعني بوضوح ، بحيث يغدو واحدة من قواعد الشريعة الملزمة :

«هذا ما أمر الرب به في بنات صلفحاذ يتزوجن بمن حسن لديهن لكن يجب أن يكون من عشيرة سبط أبيهن . حتى لا يتحول ميراث بني اسرائيل من سبط إلى سبط بل يحافظ بنو اسرائيل كل منهم على ميراث سبط آبائه . وكل بنت ترث ميراثاً من أسباط بني اسرائيل فلتكن زوجة لواحدٍ من عشيرة سبط آبائها لكي يرث بنو اسرائيل كل منهم ميراث آبائه . ولا يتحول ميراث من سبط الى سبط آخر بل يحافظ كل سبط من بني اسرائيل على ميراثه . . هذه هي الوصايا والأحكام التي أمر الرب بها بني اسرائيل على لسان موسى في صحارى موآب على اردن أريحا» (١) .

ان المجتمع اليهودي العبراني يبرز ، والحال كذلك ، بمثابته تجمعاً قبلياً (سبطياً) طائفياً وعميقاً من الداخل . ولا نتردد في الافصاح عن أن في تلك الوضعية المهشمة كمنت حدود ملحوظة من قوة الكهنوت . ففي هذه التجزئة السبطية الطائفية (منع الاندماج السبطي الطائفي) ، وفي التمييز المطلق بين الأسباط مجتمعةً من طرف وبين «الاغيار - الشعوب الأخرى» من طرف آخر ، في هذين المطلبين الرئيسيين نستطيع ان نبحث عن أحد أهم العوالم التي جعلت من الكهنوت ذاك ليس ذا قوة مادية فقط ، بل كذلك ذا قوة دينية

(١) نفس المصدر السابق ومعانياته السابقة ٣٦/٩-١٣ .

ايدولوجية ناظمة . وهذا لعله يدعنا نحدد صيغة التناقض الاجتماعي الطبقي في التجمعات اليهودية ، في حينه ، على نحو تبرز فيه بعض أشكال الخصوصية النسبية : إنها صيغة الخطر الإثني باتجاه الداخل والخارج . ومن هذا الموقع وضمن التمحور حوله ، أساساً ، وجدت الوظائف الكهنوتية ، المعالجة فيما سبق ، الاقنية التي ظهرت عبرها وانطلقت باتجاه تكريس الهيمنة الكلية للكهنوت اليهودي . وفي هذه الحال ، تبرز العلاقة بين هذا الأخير وبين جمهور اليهود على أنها علاقة الناظم الكلي بالمنظوم الفردي .

اننا وقد وجدنا أنفسنا أمام تلك الصيغة من الوجود الاجتماعي ، نتيبن ما يدعونا الى ان نتقدم خطوة أخرى الى أمام ، حيث نعلن أن المجتمع اليهودي العبراني - التوراتي - لا يصل الى حدود الاقرار بالتجانس الاتني ، أو على الأقل ، يرفض ، من موقع قيادته الاقتصادية والسياسية والدينية ، مثل هذا التجانس . ان هذا يحدث بالرغم من النغمة القوية المنافقة ، التي نواجهها في العهد العتيق على الطالع والنازل وعلى قدم وساق ، نغمة «الشعب المختار المصطفى» . اذن ، لا يصح ان يجري حديث ، هنا ، عن وحدة أقوامية (قومية بالتعبير الحديث) . هل ثمة ما يشير إلى وجود مفارقة في هذه الوضعية ؟ نعم ؛ بيد أن العودة الى جذور الوضعية المعنية ، المتمثلة بالبنية الاجتماعية القبلية للمجتمع اليهودي العبراني ، بما في ذلك الفئة الكهنوتية المتزعمة فيه ، تضع أيدينا على مفاصل هامة من اجابة جدية على تلك المفارقة .

هكذا نكون قد عملنا على تحديد وضبط موقف وآفاق الكهنوت اليهودي اليهوي من الفكر الشرقي السابق عليه والمعاصر له . وهذا له دور خاص في تحديد مجريات الأمور على صعيد التاريخ اليهودي الواقعي والتوراتي الذهني . ومن الهام ، على نحو خاص ، أن نستبقي في أذهاننا ما أدرجناه في سياق البحث تحت مصطلح «العقدة الحضارية» ، التي حددت - من زاوية رئيسية - علاقة ذلك الكهنوت بالآخرين من الشعوب ، بما في ذلك الفكر

المشار إليه . إذ أن هذه «العقدة» حيث توضع في موقعها من الحالة المشخصة التي أحاطت بحياة اليهود العبرانيين البداة (البدو) ، فإنها ، إذ ذاك ، تلقي أضواء ساطعة على ما سنأتي للبحث فيه في الفصل التالي ^(١) (وهو اكتشاف آلية التحول القانوني من الوحدة النسبية ، التي اخترقت الوجود الاجتماعي اليهودي في أوائله ، إلى الصدام بين أطراف هذا الوجود ، ومن ثم سقوطهم الوحدة وبروز واقع التمايز والصدام) .

وأخيراً تجدر الإشارة إلى أن التعامل مع نصوص العهد العتيق ينبغي أن يكون حذراً إلى أقصى حد فيما يتصل بمسألة المصادقية التاريخية ، التي يمكن أن تقدمها هذه النصوص . لكن مع ذلك وبصورة مجملة عامة ، يمكن القول أنها (النصوص) جسدت المطامع الايديولوجية الدفينة والمفصح عنها ، أيضاً ، لفئة الكهنوت المهيمن .

فهذه ، بإنجازها تلك النصوص بصيغ تليفقية تجميعية ، هدفت إلى تكوين ذهنية (ايديولوجيا) لها ولسائر الأنساق الطبقيّة والفئويّة في التجمعات

(١) يفسر مؤلفو كتاب (ما قبل الفلسفة) هذه «العقدة الحضارية» التي كمن وراءها ، أساساً ، موقف الكهنوت المهيمن اللاندماجي ، بطريقة لا تخلو من نقاط دقيقة صائبة - جعلنا منها نحن أحد متكاتنا في هذه الفقرة من البحث - وإن من موقع نهج ذاتوي - غير مشخص - أي بعيداً عن السياق الاجتماعي الاقتصادي والسياسي للعقدة المنوّه بها : «لقد كان العبرانيون ، مهما قيل عن أسلافهم وأصلهم التاريخي ، قبائل رحلاً . ولما كانوا رحلاً في الشرق الأدنى ، فقد عاشوا لا في السهوب الخضراء التي لا تنتهي ، بل في رقعة تقع بين البادية وبين الزرع ، بين أخصب الأراضي وبين نقي الحياة التام ، إذ في هذه البقعة العجيبة من العالم يتجاور الخصب والبوار . فلا بد أنهم اختبروا رفاه الحياة وعنتها في كلا المكانين .

وقد تاق العبرانيون إلى الاستقرار في السهول المرعة . ولكنهم كانوا يحلمون بأراضٍ تسيل لبناً وعسلاً ، بأراضٍ تفيض غلالاً كذلك التي تخيلها المصريون لأخوتهم . فالظاهر أن الصحراء ظلت تجربة متفاوتة ضخمة في حياة العبرانيين ولوّنت كل تقييم صدر عنهم . ولعل التوتر بين تقيمين - بين الشهوة في شيء وبين ازدراء المشتبه - قد يفسر بعض تناقضات المعتقدات العبرانية» . (هـ . فرانكفورت وآخرون : ما قبل الفلسفة - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٧٣) .

اليهودية العبرانية (هذا إذا تهيئنا الحديث عن طبقات اجتماعية في هذه التجمعات) . ولذلك ، كان صحيحاً أن نرى في النصوص اياها ايديولوجيا وهمية وايهامية ، أي وعياً متوسطاً ومناهضاً للواقع المشخص ، أريد له أن يحبط تلك الأنساق ، محققاً - في نهاية المطاف - الهدف الكبير للكهنة بمثابته العمود الفقري لطبقة الارستوقراطية القبلية (السبطية) .



الفصل الخامس

من «الوحدة» إلى التمايز والصدام ومن الوهم الايديولوجي اليهودي الى «فضيحة» الواقع

ان المقولة الدينية (الأيديولوجية) ، التي رأينا فيها موقفاً دينياً نموذجياً متجلباً في الأنساق الاجتماعية والطبقية للتجمع اليهودي العبراني ، ظلت - في أساس الأمر وفي عموميته - تمثل ، في بدايات القرن الأول من تأريخنا (الميلادي) كما في القرون السابقة ، وضعية لا جدال في واقعيتها . ففي هذه المرحلة الجديدة ، كما في تلك التي سبقتها ، بقي وهم «الشعب المقدس» و «شعب الرب المصطفى» يمثل المداك الأساسي في الذهنية الدينية لليهود العبرانيين ، بصورة عامة . وإذا كنا وصفنا تلك المقولة بـ «الواقعية» وحددناها هنا بأنها «وهم» الشعب المقدس المصطفى ، فإنه ليس في ذلك ما يدعو إلى الاستنكار أو التحفظ المنطقي والاصطلاحي . فوهمية المقولة المذكورة فرضت نفسها في الأوساط اليهودية ، أو بتعبير أدق ، في بعض هذه الأوساط ، بحيث غدت واقعاً كثيفاً في فاعليته الزائفة الكاذبة ، بالمعنى النظري المعرفي (الابستمولوجي) . ومثل هذا الأمر نلاحظه في تاريخ الايديولوجيا الدينية بصورة عامة .

وقد كان من خصائص ذلك «الوهم» ، الذي ظهر - على كل حال - بصيغ مفعمة بتجسيدات واقعية متنوعة ، أن مثل دريئة ضرورية ومنيعة لمواقف اجتماعية واقتصادية وسياسية ، متباينة ومتخاصمة الى حد الاقتتال في حالات لم تكن نادرة . بل لقد أشرنا إلى أن الوهم المعني جسد القاع الأعمق في الوعي الجمعي لمعظم اليهود العبرانيين ، بأنساقهم الاجتماعية والطبقية المتعددة . فهؤلاء جميعاً كان عليهم أن يأووا إليه ليمتحووا منه ما اعتقدوا أنه تدعيم لوضعيتهم المشخصة ، بما اخترقها من اضطرابات وأزمات وحروب الخ . .

ان نزوع ذلك الوعي الجمعي الى العمومية والشمول ظل نسبياً بمنحيين ؛
المنحى الأول منهما عُبر عنه باستخدام عنصر التأويل من قبل الفرقاء أو الخصوم
المختلفين . فلقد قاد هذا التأويل أحياناً - على الأقل - إلى الخروج عن الخط
اللاهوتي العام والمهيمن ، بل وإلى الخروج عليه وتكوين هرطقات شتى مارست
أدوارها في تعميق مشكلة الوجود الداخلي اليهودي ومشكلاته مع محيطه البشري
(شعوب المنطقة) . حدث ذلك في الحالات التي كانت عملية الاندماج بـ « الغويم »
تصل فيها إلى حدود تبني « الوثنية الشريكية » الكنعانية ، أو حتى الواحدة الالهية
الصریجة ، ممثلة بأحد الالهة العظام في بابل أو في كنعان أو في مصر (وكذلك
فارس) . أما المنحى الثاني فقد تجلّى بالصراع الديني السياسي بين الأطراف اليهودية
العبرانية المتنازعة أثناء النفي البابلي وبعده ، ولكن بصورة خاصة في إطار المواجهة
القاسية والمديدة مع روما الامبراطورية في نزوعها الى العالمية وتحقيقها لهذا النزوع
الذي كلفها الكثير من العنف والدماء .

بيد أننا إذا دققنا في الأمر ، بمزيد من العمق والتمحيص ، استبان لنا أن
دينك المنحيين كانا - بمعنى ما وبدرجة ما - محكومين بثلاثة عوامل فرضت نفسها ،
شيئاً فشيئاً ، على التجمعات اليهودية اليهودية في فلسطين . العامل الأول تمثل
بتعاظم وتائر الاضطهاد والاستغلال لجموع اليهود الفقراء من قبل ساداتهم
الارستوقراطيين والمرابين المحميين والباركين «توراتياً كهنوياً» . وقد سار ذلك يدا
بيد مع إخفاق هؤلاء الجزئي في أن يحولوا دون اندماج فئات من أولئك بالكنعانيين
أولاً ، ومع تزايد رغباتهم هم وحاجاتهم الاقتصادية والطبقية الاقتصادية النهمه
من أضحيات ومحرقات ونذر الخ . . ثانياً . وقد نستطيع أن نعثر على نصوص كثيرة
من «العهد العتيق» ، نتبين منها وفي ثناياها تلك الحالة من الاضطهاد والاستغلال
التي تمت «تحت مرأى الرب - الكهنوت» ، دون أن يكون «بمستطاعه التخفيف
منها» . والجدير بالاهتمام أن تلك النصوص سجلها كهنة ينتمون إلى الطبقة العليا
دون أن يكونوا مندغمين فيها بصورة تامة ايديولوجياً أخلاقياً ، في أقل تقدير .

إن أولئك الكهنة ، الذين يمكن أن نطلق عليهم «الحكام أو المصلحين» ،
أظهروا بعض الاتجاهات النقدية حيال عملية الاضطهاد والاستغلال المنوه بها ،
بحيث أننا نتبين وجود ما يسوّغ إطلاق تلك التسمية عليهم . من هؤلاء ، مثلاً ،

من يدرج في العهد العتيق تحت اسم «سفر أيوب» . ففي هذا السفر نلاحظ بوضوح خطأ رئيسياً ناعماً من الشك والتشكيك بالرب يهوه ، وبقدرته على صنع «الخير» ، وبعده . فأمام عينيه تحدث أفسى أشكال الاضطهاد لـ «الأخيار المصطفين» الفقراء والمفقرين ، دون أن يحرك ساكناً . فكيف ، إذن ، يوثق به ؛ وإذ ذاك يغدو السؤال قائماً : من هو هذا الذي يسوغ اضطهاد «شعبه الذي اختاره هو» ؟ وقبل أن نوغل في تحليل النص المعني ، نورد مقطعاً رئيسياً منه :

«كيف القدير لا تخفى عليه الأزمنة وعارفوه لا يشهدون يومه . فإن من الناس من ينقلون التخوم ويسلبون القطعان ويرعونها . يستاقون حمار اليتام ويرتهنون ثور الأرملة . يطردون المساكين عن الطريق فيختبئ بائسوا الأرض جميعاً . ثم هم كالقراء في القفر يخرجون الى عملهم مبكرين الى العنم ولهم الصحراء طعام لبنهم . يحصدون حقلاً ليس لهم ويقطفون الكرم اغتصاباً . يبيتون العراة بلا لباس لا كسوة لهم في البرد . فيبتلون من مطر الجبال ولا مأوى لهم فيلطأون الى الصخور . يخطفون اليتامى عن الثدي ويرتهنون ماعلى البائسين . فيذهبون عراة لا لباس لهم ويحملون الحزم وهم جائعون . يصهرون بين خطوط المحراث ويدوسون في المعاصر وهم عطاش . وفي المدن أناس ينتحبون ونفوس المجروحين تستغيث والله لا يلتفت الى البغي . فإنهم ما برحوا متمردين على النور ولم يعرفوا طرقة ولا استقروا في سبله . عند الصبح يقوم القاتل ويذبح البائس والمسكين وفي الليل يكون لصاً . وعين الزاني ترقب العتمة يقول لا تبصرني عين فيجعل برقاً على وجهه . ينقبون البيوت في الظلام ويغلقون على أنفسهم في النهار بلا يعرفون النور» (١) .

في ذلك النص المتين والرائع في تعبيريته ، تبرز أمامنا تلك الطرق من الاغتصاب والتسخير والمصادرة لما ينتجه المنتجون ، التي كانت سوطاً في أيدي الأغنياء لتوسيع غناهم ، وذلك دون أن يكون هنالك من يردع المغتصبين والمسخرين والمصادرين ، والقتلة . إنه ، ولاريب ، نص كبير الأهمية المنهجية والتاريخية . فالذين كتبوا تاريخ اليهود حتى ذلك الحين هم الذين نقلوا إلينا تلك

(١) الكتاب المقدس - سفر أيوب ٢٤ / ١ - ١٦ .

الصور الفظيعة الحادة للاضطهاد الاقتصادي الاجتماعي بحق المنتجين . وإذا استعدنا ما ذكرناه ، في موضع سابق من هذا الكتاب ، حول الوضعية التي اتسمت بها التجمعات المشاعية القروية في فلسطين ، وجدنا أن الحالة التي نواجهها الآن تدخل في نطاقها ، على نحو أو آخر . فمزارعو المشاعات القروية مضطهدون ومضطهدون ، في آن واحد ، مضطهدون من الطبقة العليا المالكة واقعياً وحقوقياً ؛ ومضطهدون لمن دونهم ، من عبيد خصوصاً . ومن ثم ، فإن التعبير النظري (الديني في حالتنا الآن) عن ظروفهم لم يكن ممكناً ، بشكل جزئي ، فقط من موقعهم هم أنفسهم ، بل كان ذلك ممكناً ومحتملاً من موقع أولئك «الحكماء المصلحين» ، الذين انشقوا نسبياً عن طبقتهم العليا تحت تأثير أسباب متعددة . من هذه الأسباب ما هو ذو طبيعة إنسانية (إنسية) ، ومنها ما يعود إلى وضعية الاضطراب والقلق والتمزق التي كانت آخذة في التصاعد في صفوف هذه الطبقة نفسها ، خصوصاً في المرحلة التاريخية الكبرى ، التي نبحث فيها الآن ، وهي مرحلة الانتقال من اليهودية إلى المسيحية . ومع الاقرار بأهمية تلك الأسباب وراء ظهور «الحكماء المصلحين» ، لاسبيل إلى تجاهل ما قد يكون قد حدث بين هؤلاء ونظرائهم في طبقتهم من خصومات كبرى أو صغرى وتباين في النظر على صعيد التمكين للهيمنة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية . وأخيراً يمكن القول ، أن هذا النزوع «الحكمي الاصلاحى» يجد أحد الحوافز ، التي اسهمت في صوغه وبلورته ، في الاحتكاك «الحضارى» ، الذي كان يتم بصورة أو بأخرى (حربية أو سلمية) مع الجيران من الشعوب التي قطعت شوطاً في طريق التقدم التاريخي الزراعي^(١) .

(١) فيما يتصل بالسبب الانساني (الإنسي) لعننا نقول ، بثقة ، أن هذا لم يقد فقط إلى خلق اضطراب وقلق وتبعثر في البنية الاجتماعية الطبقية والسياسية للكهنوت الارستوقراطي ؛ لقد أسهم ، كذلك وعلى نحو يبين ، في تمهيد الطريق للانتقال إلى «يهوه المسيحى يسوعى» . يكفي أن نتمعن في النص التالي ، لنقبض على وجه الأهمية والطرافة في المسألة التي نحن بصدد البحث فيها :

«... لكنك ترحم الجميع لأنك قادر على كل شيء وتتغاضى عن خطايا الناس لكي يتوبوا . لأنك تحب جميع الأكوان ولا تغمض شيئاً مما صنعت فإنك لو ابغضت شيئاً لم =

أما العامل الثاني ، الذي أسهم في تكوين القاع البعيد للمنحيين المذكورين آنفاً ، فقد تمثل بما يمكن اعتباره انقساماً طبقياً في طبقة الارستوقراطية الكهنوتية ، استمد بواعثه الأساسية من موقعين اثنين متضايين في الفعل الوظيفي الذي عبر عن هذا الانقسام ؛ موقع أول يتصل بالمصلحة الاقتصادية والاجتماعية التي أفصحت عن نفسها - في هذه الحالة المحددة - بتعاظم اتجاه الاندماج الاقتصادي والاجتماعي والديني بشعوب المنطقة ، وبصورة خاصة بالكنعانيين . فلقد قاد هذا الاتجاه شريحة من تلك الطبقة تمثلت بمتوسطيها وصغارها ، أي أولئك الذين اكتشفوا ، بتجربتهم المباشرة ، أنهم غير قادرين على منافسة «عظمائهم» من الطبقة التي يشتركون معهم في الانتماء إليها ، ومن ثم على الحصول على المكاسب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية الطبقية ؛ وإذا كان الموقع الأول الذي عبر عن عملية الانقسام الطبقي الذاتي (في الطبقة الواحدة) ذا بعد اتجه الى أعلى ، فإن الموقع الثاني صيغ تحت تأثيرات انبعثت من الأدنى ، أي من صفوف الأنساق الطبقيّة والفئوية الفقيرة والمفكرة ، تلك الأنساق التي وجدت بعض أشكال التضامن مع متوسطي وصغار أفراد الطبقة العليا المأتي على ذكركم للوقوف في وجد الفصائل العليا من هذه الأخيرة بمؤسساتها وامتيازاتها أولاً ، وفي وجه حلفائها الخارجيين الممثلين بالرومان ، بصورة مخصصة ، ثانياً .

نستطيع أن نتيّن مفاصل رئيسية لذلك العامل المنوه به في بعض نصوص العهد العتيق ، التي تقتضي منا ، من طرفها ، أن نتمعن فيها بغية اكتشاف وضبط ما تنطوي عليه من دلالات ورموز ووظائف تؤدي إلى إيضاح ما نحن في معرض تبيانهِ . وقبل أن نورد ذلك ، ينبغي القول أن اختراق البنية الطبقيّة والفئوية والجيلية لطبقة الكهنوت الارستوقراطية بأقنيتها وهياكلها المتنوعة ، كان من خصائص الاتجاه الذي أسهم في بعثتها من الداخل . ففي «سفر عزرا» يجري إخبارنا بأن عملية الاندماج الاجتماعي الجنسي كانت قد امتدت ، بأشكال ملحوظة متسارعة ، الى الكهنة وأبنائهم ، بل كذلك الى بعض «رؤسائهم وعظمائهم» ،

تكوّنه . . انك تشفق على جميع الأكوان لأنها لك ايها الرب المحب للنفوس» . (الكتاب المقدس - سفر الحكمة ١١/٢٤-٢٥ ، ٢٧) .

بحيث كان ذلك قد شكل خطراً على «الوحدة الإثنية والعقيدية» في نظر القيمين
الأعلىين . لنقرأ ما يعلنه أحد الكهنة ، وهو عزرا الشهير بحقده الطاغى على
«الغوييم - الاغيار» :

«وبعد تمام هذه الأمور أقبل الرؤساء إلى يقولون ان شعب اسرائيل والكهنة
واللاويين لم ينفروا عن شعوب الأرض ورجاساتهم من الكنعانيين والحثيين
والفرزيين واليوسيين والعمونيين والموآبيين والمصريين والاموريين . لأنهم
اتخذوا من بناتهم لهم ولبنيتهم فاختلط النسل الطاهر بأمم الأرض بل يد
الرؤساء والعظماء كانت الأولى في هذا التعدي . فلما سمعت هذا الكلام
مزقت ثوبي وفتفت شعر رأسي ولحيتي ولبشت متحيراً» (١) ؛

«وكان فراغهم من جميع الرجال الذين اتخذوا نساء غريبات في اليوم الأول من
الشهر الأول . فوجد بين بني الكهنة الذين اتخذوا نساء غريبات من بني
يشوع بن يوصاداق واخوته . . . الخ» (٢) .

ولعلنا نشير إلى زاوية أخرى من المسألة ، وهي تلك التي تتمثل فيما يمكن
اعتباره تحالفاً أولياً وضمنياً بين «الغوييم» من طرف وبين فقراء اليهود والمفقرين من
طرف آخر . لقد ظهر ذلك حتى في الحروب المتلاحقة ، التي كانت تقوم بين جيوش
شعوب المنطقة من بابليين ومصريين وكنعانيين الخ . . وبين المحاربين اليهود .
فنحن نلاحظ ان الجيوش الأولى كانت بعد أن تدخل اورشليم تأخذ ما تستطيع
أخذه من الغنائم ، وتسوق معها من هو موجود من العلية ، فتقتل شطراً منهم
وتأخذ معها الشطر الآخر لتسخيره وتشغيله في بلادها ؛ بينما تستبقى الفقراء العاملين
في الأرض من فلاحين وعبيد ، دون أن تسيء إليهم في شيء . وهذا ما حدث حين
دخلت جيوش نبوكد نصر الى اورشليم ، حيث جلست الجميع من اليهود معها ، ولم
تبق

«الامساكين شعب الأرض» (٣) من «كرامين وفلاحين» (٤) .

(١) الكتاب المقدس - سفر عزرا ١/٩-٣ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطيته ١٧/١٠-١٨ .

(٣) الكتاب المقدس - سفر الملوك الرابع ٢٤/١٤ .

(٤) نفس المصدر السابق ومعطيته ٢٥/١٢ .

ولاشك أن وضعاً مثل هذا على ماهو عليه من القدرة على «الإطالة على الغوييم» ، استطاع أن يفرض نفسه على الكهنوت المتزعم فرضاً اكتسب طابع دورة اقتصادية مشروع وجودها واستمرارها بتعامل الطرفين تعاملاً مباشراً (١) .

أخيراً يبرز العامل الثالث ، الذي رأينا نظيره السابقين قابعين ، بقدر أو بآخر ، وراء منحى التفسير الهرطقي لنصوص «العهد العتيق» ومنحى المجاهبات الدينية السياسية بين الأطراف اليهودية المتنازعة في أثناء النفي البابلي وبعده . إن هذا العامل الثالث نستطيع أن نحيط به أو - على الأقل - بواحدة من سماته الكبرى ، حين نضع في اعتبارنا الضغوط الصغرى والكبرى التي خضع لها المتجاهون ، وذلك انطلاقاً من مواقع «الغوييم» ، تلك الضغوط التي اكتسبت اشكالاً وصيغاً متعددة ، من الحروب المسلحة الى الدخول في دين الشعب «المصطفى المختار» .

وإذا كنا قد واجهنا مواقف عديدة برزت فيها الصراعات المسلحة بين التجمعات اليهودية وشعوب المنطقة ، فإن ظاهرة تهود ناس من هذه الشعوب لم تكن مألوفة . ولم يكن الأمر على ذلك النحو بسبب من أن هذه الشعوب رفضت ذلك ، وإنما لأن الأعلين القيمين على الصعيد اليهودي يرفضونه ، من حيث الأساس ، رفضاً قطعياً . وقد رأينا أن عزرا أطلق على كل من هو غير يهودي تعبير

(١) نقرأ نصوصاً بالغة الأهمية تحبونا عن أن الاندماج اكتسب ابعاداً اقتصادية عملية بدلالات دينية . من ذلك ، مثلاً ، المبيع يوم السبت ، أي الخروج عن تعاليم «الشرعية» : «وكان الصوريون المقيمون بها يأتون بالسّمك وكل نوع من المبيعات ويبيعون في يوم السبت لبني يهوذا وفي اورشليم . فخاصمت عظماء يهوذا وقلت لهم ماهذا الشر الذي تفعلونه وتدنسون يوم السبت» .

ويتابع نحميا في (سفره ١٣/٢٣-٢٦) حانقاً متحسراً على الوضع الذي وصل إليه «الشعب المصطفى المختار» من السحاق لـ «وحدته الدينية والإتنية واللغوية» : «وفي تلك الأيام أيضاً رأيت يهوداً قد تزوجوا نساءً أشدوديات وعمونيات وموآبيات . وكان نصف كلام أولادهم بلغة أشدود ولم يكونوا يحسنون التكلم باليهودية بل بلسان شعب وشعب . فخاصمتهم ولعنتهم وضربت منهم رجالاً وفتفت شجرهم . . ألم يكن أنه بهذا أئتم سليمان ملك اسرائيل مع أنه لم يكن في كثير من الأمم ملك مثله» .

«نجس» . وعلى هذا ، فحين كان البعض ينتمي إلى اليهودية ، كموقف ديني ، ينظر إليه أولئك القِيمون شذراً ، ويشكّون في أمره ، ويعتبرون انتفاء هذا إما نتيجة لـ «خوفه» من اليهود أو طريقاً غير مباشر لتدمير هؤلاء من الداخل . وفي المحصلة ، يجد القِيمون إياهم أنفسهم تحت هاجس «الآخر الغازي» أو «الأقلف الجاسوس» ، بحيث يؤدي هذا الموقف ، ثانية وعبر قناة أخرى ، إلى أسرّ الايديولوجيا الكهنوتية اليهوية ، ايديولوجيا الأقصيين : ماهو يهودي موجة فطرة ضد اللايهودي (الآخر) ، وماهو لا يهودي (آخر) موجة فطرة ضد اليهودي ؛ ومن ثم ، فإن تصور علاقة طبيعية سلمية بين الطرفين أمر يخالف «طبائع الاشياء» .

ففي «سفر عزرا» نقرأ شيئاً عن أولئك «اللايهود» الذين رغبوا في المشاركة ببناء هيكل «للرب» ، تعبيراً منهم عن رغباتهم الدينية في اتخاذها لهم ، أيضاً ؛ لكن «رؤساء الآباء» رفضوا ذلك :

«وسمع أعداء يهوذا وبنيامين بأن بني الجلاء يبنون هيكلًا للرب إله اسرائيل . فاقبلوا على زُرْبَابِلَ ورؤساء الآباء وقالوا لهم نحن نبني معكم لأننا نطلب إلهكم مثلكم ونحن نذبح له من أيام أسرّ حَدُون ملك آشور الذي صيرنا إلى هنا . فقال لهم زربابل ويشوع وسائر رؤساء آباء اسرائيل ليس لكم ولنا أن نبني معاً بيتاً لإلهنا ولكن نحن نبني للرب إله اسرائيل كما أمرنا الملك كورَشُ ملك فارس» (١) .

(١) الكتاب المقدس - سفر عزرا ٤ / ١-٣ .

انطلاقاً من ذلك الأسرّ الايديولوجي للكهنوت اليهودي اليهودي ، أي علاقة التضاد والعنف البنيوي بين «النحن والغير» ، ومن ثم عدم احتمال وجود علاقة ندية بين الشعوب قائمة على حدّ من الثقة والاعتراف بالوجود المتبادل ، نقرأ مايلي في (سفر استير من الكتاب المقدس ٨ / ١٧) :

«وفي كل إقليم فإقليم وكل مدينة فمدينة حيث ورد أمر الملك وحكمه كان لليهود فرح وسرور ووليمة ويوم حبور وصار كثير من أمم تلك الأرض يهوداً لأن خوف اليهود حل عليهم» .

وفي الفصل التاسع من نفس السفر (آية ٣) ، نتابع الموقف الدرامي المعقد ، الذي نخبرنا بقليل من المصادقية وبكثير من الغرور ومن الحقد على «الآخرين» ومن الشناعة بهم :

«وكان جميع رؤساء الأقاليم والأقطاب والولاة ووكلاء عمل الملك يساعدون اليهود لأن خوف مرّدكاي وقع عليهم» .

تلك كانت عوامل ثلاثة برزت - مع غيرها من المؤثرات والبواعث - بمثابرتها محركاً فاعلاً لبروز المنحيين اللذين ظهرا في الأوساط الدينية اليهودية اليهودية تأويلاً نصياً هرطقياً وصراعاً دينياً وسياسياً . وإذا كانت المسألة قد اكتسبت تلك الأبعاد والخلفيات والمظاهر ، فإن الحكم التالي يغدو وارداً ومقبولاً ، وهو أن التصور اليهودي كان يلقي - في سياق ذلك - تغيراً وتحولاً بنيوياً ووظيفياً عميقاً ؛ ممهداً عبره ومقدماً لتصور «يسوع - يشوع المخلص» ، الذي يمثل مرحلة نوعية جديدة في التاريخ البشري الديني والسياسي .

ان الحديث عن وجود تيارات دينية (وسياسية) متخاصمة ومتصادمة في داخل الحركة اليهودية العبرانية له ما يسوغه تاريخياً مع بدايات المرحلة الانتقالية من القرن الأخير السابق على الميلاد إلى القرن الميلادي الأول (١) .

هاهنا ، نقف وجهاً لوجه مع عدد وفير من التيارات الدينية ضمن تلك الحركة ، تبرز في مقدمتها الأربعة الأساسية التالية : (١) الصادوقية ؛ (٢) الفريسية ؛ (٣) ثارة الله ؛ (٤) الإسينية .

(١) مما هو جدير بالذكر أن هذا الانقسام يمكن اكتشاف مصادره ليس في الوضعية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأخرى الدينية ، التي هيمنت في الأوساط اليهودية العبرانية وأوساط من حولهم من شعوب المنطقة فحسب ؛ ان ذلك يسمح بالكشف عن نفسه كذلك في الوضعية التوراتية نفسها ، تلك الوضعية التي شكلت في القرن الميلادي الأول موروثاً شرعياً لمجموع التيارات اليهودية التي لجأت ، على نحو أو آخر وحسب مصالحها المتباينة ، إلى تفسيره وتأويله رغبة منها في الإجابة عن المسائل التي كانت تعرض لها في الحياة العامة والخاصة . وهذه الوضعية التوراتية ، بما انطوت عليه ، بالأصل ، من وجود بعض التمايز في أنساقها ، كونت إحدى قواعد الانطلاق في تلك العملية . فإذا استعدنا في أذهاننا ما أوردناه عن المصادر الأربعة «الوثيقة اليهودية والوثيقة الألوهيمية وسفر التثنية والنص الكهنوتي» - وهي منحدره من عصور مختلفة متباعدة» ، أدركنا احتمال وجود مثل ذلك التمايز على مجمل الأصعدة ، الدينية والاقتصادية والاخلاقية والسياسية والتشريعية الخ . . . (انظر في ذلك : موريس بوكاي - دراسة الكتب المقدمة في ضوء المخاريف الحديثة ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٨ - ٢٩ ؛ وكذلك أحمد سوسة - العرب واليهود في التاريخ ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٩٠ - ٢٩١) .

ان تلك التيارات الأربعة مثلت اللوحة الدينية والسياسية للحركة المعنية ، على الأقل ، حتى الإرهاصات الأولى لانتصار المسيحية ^(١) . وجدير بالاهتمام العميق ما كمن وراء ذلك التوزع الديني السياسي ، أو ما عبّر عن هذا التوزع من وضعيات اجتماعية وطبقية مشخصة . وما يثير الانتباه ، حقاً ، في هذه المسألة هو بروز لحظة الوعي الذاتي الايديولوجي والوضوح المفصّل عنه في تلك الوضعيات . ان ممثلي وأنصار التيارات الأربعة المنوه بها آنفاً لم يكونوا ليجدوا أنفسهم مدعوين الى إخفاء وضعياتهم هذه ، بحيث أن مؤرخاً يهودياً بارزاً هو فلافيوس يوسفوس استطاع ، من ذلك الموقع ومن موقعه هو كمؤرخ ، أن يقدم لنا صورة حية ومفصلة عنهم على الأصعدة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية .

وفي سبيل إيضاح الحالة الأساسية المشتركة التي نمت فيها تلك التيارات إيجاباً أو سلباً ، لابد من التنويه بالمعطى التاريخي التالي ؛ ذلك هو أن التيارات المعنية حصدت - في شخصها وعلى امتداد عشرات السنين - ثمار الموقف من الامبراطورية الرومانية ، التي تحولت ، قسراً وخطوة فخطوة ، إلى طرف مباشر وفاعل من

(١) يشير الشهرستاني ، مؤرخ الفلسفة والأديان الاسلامي من القرن الثاني عشر ، إلى أن اليهود «اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة» . (انظر كتابه : الملل والنحل - الجزء الأول ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، مصر ١٩٦١ ، ص ٢١٤) ؛ ولكنه لا يذكر أسماء هذه الفرق ، بل يقول بأنه يريد أن يذكر «منها أشهرها وأظهرها عندهم» . (نفس المرجع السابق ومعطياته) . فهو لا يعلمنا شيئاً عن المصدر الذي استقى منه ذلك ، إضافة إلى أنه يكفي نفسه بالحديث عن أربع فرق يعتبرها الكبيرة من بين تلك ، مهملاً ومغفلاً تلك الفرق الأربعة التي أوردناها فوق . وكان الكاتب اليهودي يوسفوس فلافيوس (ولد في القدس عام ٣٧م ومات حوالي عام ١٠٠) قد أخبرنا بهذه الأخيرة وبأهميتها . وهو في هذه المسألة موضع ثقة (انظر حول ذلك Prosper Alfari: Die sozialen Urspruenge des Christentums- a.a.O., S.43).

ويبدو أن بعض الأخطاء تظهر لدى الشهرستاني حين ينقل آراء هذه الفرقة اليهودية أو تلك . فهو يعلن أن الربانيين كالمعتزلة عندنا ، بينما القراءون كالمجبرة والمشبهة ؛ (انظر نفس كتابه : الملل والنحل - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢١٢) ؛ في حين أن أحمد سوسة ، الذي لعله هو الثقة في هذا الحقل ، يشير إلى أن عنان ، الحبر المؤسس لفرقة القرائين وكان . . . متشبعاً بآراء المعتزلة القائلة بأن العبد مسؤول عن عمله . (أحمد سوسة : العرب واليهود في التاريخ - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، الجزء الأول ، ص ٢٩٩) .

أطراف الوضعية اليهودية العبرانية . فكل منها كان يجد نفسه ، على نحو أو آخر ، بدءاً من المواقف السياسية المتحالفة وانتهاءً بالصراع العسكري ، أمام ضرورة الاستجابة على ما يصدر عن مركز الامبراطورية وفي امتداداته وملايساته الفلسطينية . ومن المفهوم أن يكون للوضعية الداخلية لكل من تلك التيارات الأربعة فعل الحسم في تحديد وصوغ وتنمية تلك الاستجابة ؛ مع العلم ، ضمناً ، أن عنصر الحسم هذا تبلور واتضح وافصح عن نفسه باقتران مباشر بنشاط سياسي أو عسكري أو أيديولوجي ديني ، أو بكل هذه المظاهر ، مجتمعة .

لقد برز ذلك المركب من الوضعيات ، وتعاظم عمقاً وسطحاً ، مع تعاظم الأزمة التي أحاطت بالمجتمع الروماني الهليني واخترقته ، ذلك المجتمع الذي كان قد فرض مشكلاته الداخلية الخاصة على المناطق والبلدان التي كانت ملحقة به ، ومن ضمنها فلسطين . تلك الأزمة يمكن النظر إليها - في أساس الأمر وعموميته - على أنها أزمة المجتمع العبودي الامبراطوري ، الذي أخذت تهزه من أركانه وركائزه ، وتدعو بعض قواه الاجتماعية الى التفكير في الأفاق والمصائر والبدائل ^(١) . وبطبيعة الحال ، كان على التجمعات اليهودية في فلسطين وخارجها أن تجد نفسها مرغمة على أن تتخلى ، كثيراً أو قليلاً ، عن كثير من أوهامها الايديولوجية ، التي كونتها عبر عقود من السنين عن نفسها وعن الآخرين . كان ذلك قد غداً ضرورياً وملحاً أمام القوة المهددة المتصاعدة لروما الامبراطورية ، على الأصعدة الاقتصادية والعسكرية والسياسية ، وربما كذلك الدينية .

ومن موقع ذلك الاحتكاك القسري ، في غالب الأحيان ، نشأت وبرزت مسألة الهلينة أمام الجمهور الأعظم من اليهود ، تلك المسألة التي ما فتئت ان تحولت الى مشكلة سياسية كبرى عبرت عن نفسها بأشكال متعددة ، منها ما كان قد اتخذ طابع الصراع المسلح بين أولئك أنفسهم أولاً ، وبينهم جميعاً من طرف وبين روما من طرف آخر ثانياً . بل لعلنا نضيف قائلين بأن هذه المسألة كانت ، حيث نشأت وتبلورت في الأوساط اليهودية ، ذات بعد سياسي عملي واضح ومباشر . ولقد كان

(١) انظر في ذلك :

Martin Robbe- Der Ursprung des Christentums, a.a.O., S. 107- 120.

من طرائف الأمر وتعقيداته ذات الطابع المركب أن تحولت المسألة المعنية إلى مستوى المحور الأول للصراع الثنائي ذاك . فالموقف السياسي والاقتصادي والديني من روما ظهر - وكان فعلاً كذلك - على أنه ، أيضاً ، موقف من الهلينة ، التي عنت ، هنا تخصيصاً ، اتجاه الاندماج في الحضارة الرومانية اليونانية ، وإنهاء حالة الاضطراب والتهشم في الشخصية .

والعنصر الآخر الذي يتمم ذلك الأمر قام على أن جميع أطراف الصراع انطلقت ، في صراعها المرير المديد ذاك ، من الوضعية الايديولوجية الدينية ، توحيدية كانت أو «تعددية وثنية» . وحتى تلك الأطراف ، التي وصلت الى مشارف المعارضة السياسية العميقة والمسلحة للبنى الايديولوجية الدينية في التجمعات اليهودية أو في روما ومقاطعاتها المنتشرة في أرجاء متعددة ، لم يكن في متسعها أن تحرق الإجماع الايديولوجي القائم على أن المنطلق الايديولوجي الديني هو وحده ، أو هو الأهم في إسباغ مشروعية أي نشاط سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي أو عسكري أمام أصحابه أنفسهم أولاً ، وأمام الخصوم والأصدقاء ثانياً ، على حد سواء .

ولعل مشكلة الموت استأثرت باهتمام خاص ومركزي لدى تلك الأطراف ، تعبيراً عن مواقفها المتباينة من «الخلاص» و«المخلص» . ذلك لأن الإقرار بـ «موت نهائي» من شأنه أن يؤدي إلى نتائج مغايرة ومناقضة للإقرار بـ «موت طارئ» ، وكذلك مناهضة له . وهذا ، بدوره ، ولّد وأثار مشكلات أخرى من غمط الخلود والبعث والقدر والعهث والالحاد والهرطقة وغيرها . ودون أن نفهم مشكلة الموت هذه بمثابرتها حالة خاصة وذاتية ، نستطيع القول ، مع جاك شورون : «كانت الصعوبة التي عاناها الكثيرون في المصالحة مع الموت هي . . التي عجلت بظهور تيار الهرطقة في اليهودية ، وهو تيار عبرت عنه الغنوصية اليهودية» (١) .

إن ذلك ينطوي على القول بأن التيارات الدينية الأربعة المعنية ، هنا ، كان عليها ، لكي تبلور مواقفها الدينية بدلالاتها السياسية المباشرة والضمنية ، أن تسلك طريق مواجهة الموروث «المقدس» سلباً أو إيجاباً ، وذلك على نحو قرّبها ،

(١) جاك شورون: الموت في الفكر الغربي - ترجمة كامل يوسف حسين ، مراجعة وتقديم د. إمام عبد الفتاح إمام ، ضمن سلسلة (عالم المعرفة) ، الكويت ، إبريل ١٩٨٤ ، ص ٨٨ .

بقدر أو بآخر ، من الغنوصية . وقد وجدت في هذه الأخيرة - التي نشأت في أواخر القرن الأول قبل الميلاد وأوائل القرن الأول الميلادي - طريقة ناجحة لإخضاع ذلك الموروث لعملية تنظير قادت إلى انتزاعه من النزعة الايمانية الساذجة والمطلقة (١) . بيد أننا إذ نشير إلى أهمية الغنوصية على هذا الصعيد ، فإنه - من طرف آخر - لا يجوز النظر إليها أكثر مما كانت عليه ، والبحث عن تأثيراتها حيث لا توجد . فهي استخدمت من قبل جميع الأطراف لتدعيم مواقفها وتكريس اتجاهاتها وآفاقها وفق احتياجاتها الذهنية الايديولوجية والاجتماعية والسياسية .

انطلاقاً من تلك الوضعيات المنهجية والتاريخية وفي ضوءها ، يغدو الآن ممكناً أن نتقصى ونتفحص التيارات الدينية الأربعة الكبرى المأثي على ذكرها من قبل ، وذلك بغية استكمال الوضوح الشخص في رؤيتنا للعملية التاريخية والتراثية ، تلك العملية التي غطت مرحلة الانتقال من اليهودية الى المسيحية ، أولاً . كما أننا سنعمل على إنجاز ذلك في سبيل ضبط اتجاه التبلور في تصور «يهوه» ، بصفته وريثاً شرعياً للتصور اللاهوتي الشرقي القديم ، وحلقة إشكالية ومتميزة على الطريق الى «الله» (٢) .

١ - الصادوقية

تعود نسبة هذا التيار الديني إلى الكاهن الأعظم «صادوق» ، الذي كان له - بحسب أخبار متواترة - شأن في عهد الملك سليمان . وقد كان الانتساب الى هذه الشخصية أو تلك يتم ، عادة ، انطلاقاً من اعتبارين رئيسيين ؛ تمثل الأول منهما بالوضع الاجتماعية العينية للشخصية المتسبب إليها ؛ في حين أن الاعتبار الثاني تحدد بالبنية الدينية لهذه الشخصية وافتاقها المستقبلية ، التي يمكن ادراجها في إطار مسألة «الخلاصية» . ولا بد من الإشارة إلى أن عملية التمحور حول شخصية ما كانت خاضعة - كذلك وفي التحليل الأخير للموقف - لخصوصية المشكلات التي

(١) انظر حول ذلك : برتراند رسل حكمة الغرب ، ترجمة د. فؤاد زكريا ، الجزء الأول ، ضمن سلسلة (عالم المعرفة) ، الكويت ، فبراير ١٩٨٣ ، ص ٢٤١ - ٢٤٢ ؛ وكذلك :

Mayers Neues Lexikon, in acht Baenden, dritter Band, Leipzig 1962, S. 704.

(٢) انظر حول التيارات المعنية في كثير من تفصيلاتها ، وعلى نحو مقارن :

1- Prosper Alfari- Die sozialen Urspruenge des Christentums, a.a. O.

2- Martin Robbe- Der Ursprung des Christentums, a.a. O.

كانت تبرز على صعيد اليهود في الداخل أولاً ، وفي مجال العلاقة بينهم وبين «الآخرين» ثانياً . ومن أجل مزيد من تدعيم مواقع هذا التيار ، كان الصادوقيون قد نظروا إلى «صادوق» على أنه يتحدر من «أصول دينية مقدسة» تعود إلى «هرون» أخ «موسى» ، وإلى «لاوي» المعروف في التوراة بأنه ابن يعقوب .

إن ما يلفت النظر فيما يتصل بانتساب الصادوقيين إلى لاوي ، هو ارتباطهم بالفئة الكهنوتية اليهودية العليا ، أي بـ «اللاويين» . وجدير بالاهتمام المنهجي أنهم (الصادوقيين) كانوا ، على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي والأيديولوجي الديني ، يمثلون الطبقة الاجتماعية (الارستوقراطية) في شرائحها العليا . ومن هنا ، نستطيع أن نرى فيهم الهيكل الديني التنظيمي والسياسي لهذه الطبقة . وإذا وضعنا في اعتبارنا ما كنا - في مواضع سابقة من هذا الكتاب - قد أتينا عليه من أن الكهانة تجسدت بموقف اجتماعي واقتصادي وسياسي محدد في الكيانات اليهودية السياسية ، فإننا نلاحظ أن الصادوقيين كانوا في قمة الهرم الكهنوتي . وهذا ما يتضح ، على نحو مشخص ، من خلال معالجة موقعهم الاقتصادي والسياسي ، وأفاقهم اللاحقة التي وضعوها نصب أعينهم .

لقد حصد الصادوقيون ثمار الامتيازات الاقتصادية ، التي وجدوا ، بسهولة ، تكريسها الديني وضبطها التنظيمي في «الشرعة الموسوية» نفسها . أما أهم هذه الامتيازات فقد تمثلت بالأشكال التالية : الحصول على قسم من بواكير المنتجات الزراعية الطبيعية (مثل التين والعنب) ، والمصنعة (مثل الطحين والخبز والخمر والزيت) . وقد وصلت نسبة هذا النوع من الانتاج إلى ٦٠ / ١ . وتأتي كذلك الولادات الأولى من الحيوانات الأهلية الزراعية (مثل الخراف والنعاج) . والولادات الأولى من النساء كان يدفع عليها ما يقترب من خمس شيكلات فضية . إضافة إلى ذلك ، كان على الفلاحين أن يدفعوا عُشر منتجات الموسم من الفاكهة والأشجار والبهاائم الصغيرة والعجول . ولا بد أن تأخذ بحسباننا ، أيضاً ، الضريبة التي كانت تدفع على الرأس الواحد . ثم ، هناك المناسبات - التي لا تنقطع - لتقديم ما تنوع من الأضحيات والنذر والهبات ، بحيث أن المال كان يؤدي ، ضمن دورته المضطربة ، إلى مزيد من المال ، والجبروت الاجتماعي الاقتصادي إلى مزيد منه ؛ في حين أن الفقر كان يولد الفقر ، وينشره في أوساط

واسعة ومضطردة الاتساع من الطبقة الدنيا . وكما يخبرنا فلافيوس يوسفوس ، كانت ثروات الكهنة الكبار تكبر في بعض المناطق اليهودية في بابل وآسيا الصغرى الى درجات أثارت طمع اللصوص والمتلصّصين ، وحتى كذلك إهتمام وطمع حكام رومانيين (١) .

ان تلك الوضعية الاقتصادية المتميزة للصادوقيين كان من شأنها أن تسهم ، بعمق ، في إرساء أسس واضحة للموقف السياسي الذي اتخذوه في الداخل ، كما في الخارج : في الداخل ، قمع لا هوادة فيه لكل تحرك سياسي أو ديني أو اقتصادي يمكن أن يتعرض لهيمنتهم على مختلف الأصعدة ؛ وفي الخارج ، انفتاح شامل على روما ، بحيث نشأ الاعتقاد بوجود تواطؤ شامل ومديد بينهم (الصادوقيين) وبين قادة روما ، ذلك التواطؤ الذي كان من مهماته ان يسهل لهؤلاء تمكين أقدامهم في الأوساط اليهودية المحلية . ومن هنا ، فقد رأى الصادوقيون في الحروب الداخلية خطوة على طريق الحروب ضد روما وانذاراً بها ، وذلك في المناطق المأهولة باليهود والتي وجدت فيها مصالح ومؤسسات اقتصادية وعسكرية استراتيجية لروما .

في تلك الحالة المحددة على النحو المأتي عليه ، لعلنا نتبين الدلالة الكبرى التي انطوت عليها الدعوة الصادوقية إلى الهليانة . فبحسب ذلك ، يصبح الارتباط بروما ، أيضاً ، ذا أبعاد وآفاق ثقافية . وفي هذا الموقف ، بالضبط ، تنبىء عن نفسها ارهاصات أولى لعالمية التصور المسيحي اليسوعي اللاحق ، الذي سيمثل - في حينه - بديلاً عن الانغلاق اليهودي ذي التقاليد الطويلة والصارمة ، على وجه الإجمال والعموم . ومن هذا الموقع نفسه ، نلاحظ أن فكرة «الغويم» سوف يطرأ عليها تحول يغدو ، في فترات لاحقة ويبدأ بيد مع التطورات الاقتصادية والسياسية والدينية في المنطقة ، هاماً وخطيراً : انه (أي التحول) يقود الى «الأخوة المسيحية» .

والشيء الذي يدعو إلى التأمل العميق ، في هذا السياق المنهجي للمسألة ، هو أن تكون الدعوة إلى الهليانة قد تمت بقيادة الصادوقيين بالذات ، أي الجناح الكهنوتي الأعلى المتزعم وذي المواقع الارستوقراطية المتميزة الصريحة . فلقد عهدنا هذا الجناح المحافظ اقتصادياً واجتماعياً بمثابته معادياً مناهضاً لأي توجه نحو الاندماج

1- Flavins Josephus- Juedische Altertuermer XV III, 9, I.

بالشعوب المحيطة المجاورة ، وكان ذلك قد برز ، خصوصاً ، في مراحل أولى تزامنت مع مرحلة اقتحام فلسطين والفترة التالية حتى بدايات الدياسبورا (الشتات) ، ثم بعد ذلك وبصورة مخصصة حتى نشوء الامبراطورية الرومانية . بيد أن الوضع كان قد خضع لتغير عميق برز في موقف الصادوقيين ، وذلك تحت تأثير عوامل متعددة ومتفرعة ، يمكن أن نلح على اثنين منها ، نرى فيهما أهمية خاصة على الصعيد المعني :

العامل الأول تمثل في استنباط الصادوقيين القاعدة التالية في التعامل مع «الداخل» و«الخارج» ، وهي ان المحافظة على المصالح والامتيازات الداخلية مرهونة بالالتكاء على قوة خارجية ، هذه القوة التي غدت - في حينه وفي شخص الامبراطورية الرومانية - ذات حضور فاعل في الوضعية اليهودية الداخلية نفسها . أما العامل الثاني فقد كمن في ادراك التيار الديني (السياسي) الصادوقي ان نجاحه في اخضاع الأبقين والمتمردين من أفراد أسباطهم أو أولئك الذين كانوا في طور التمرد والعصيان وغيرهم من المتعاطفين معهم لاعتبار أو آخر ، يقتضي الالتكاء على قوة نافذة أجنبية تعسكر عندهم . في هذه الوضعية ، بالذات ، أعلن عن نفسه تواطؤ طبقي وسياسي واقتصادي (وكذلك ثقافي - عبر ظاهرة الهلينة) بين قادة الرومان والصادوقيين هدف الى التمكين لأولئك في فلسطين وتعزيز سلطتهم الامبراطورية عبر التمكين لهؤلاء (الصادوقيين) وتعزيز سلطتهم الطبقية على الفقراء والمفقرين من قومهم ؛ مما عاد ، بما فيه الكفاية ، من الغنائم الاقتصادية والسياسية على الطرفين ، واسهم - من ثم - في المحافظة ، بشكل أو بآخر ، على أركان سلطتهما .

وإذا دققنا في المعالم الكبرى والصغرى للموقف الايديولوجي (الديني) ، الذي مثله الصادوقيون وناقحوا عنه ، فإننا نراه وقد تبلور واتسق بجملة من التصورات الوظيفية ، التي كان من شأنها أن ضبقت شخصيتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، ونظمتها وكرستها وأغنتها ونشطتها . ان يوسفوس يعلمنا أشياء هامة تتصل برفضهم المبدئي لكل ما يخرج عن «الشرعية الموسوية» من مبادئ دينية وعليها ^(١) . ولكن المثير والدال تاريخياً وراثياً يكمن ، على هذا الصعيد ، في

1) Flavius Josephus: Ebenda, XIII, 10,6.

أنهم فهموا تلك الشريعة على نحو يغطي شخصيتهم تلك ، ويلبي احتياجاتها ،
ويطرح مشروعاتها المستقبلية الطموح . فلقد رفضوا الاعتقاد بأن النفس (الروح)
تستمر في الوجود بعد الموت : لا خلود لها ، ولا وجود للبعث بمعنييه الجسدي
والنفسى . . أما الوجود ، حقاً ، فهو - بالنسبة اليهم وبصيغة مفصح عنها - هذه
الحياة ، ليس إلا . والبحث عن حياة «أخرى» ، ليس إلا جهداً عابثاً ، باطلاً ،
ينبغي التخلص منه للتفرغ للحياة المعاشة .

وإذا عدنا إلى ذلك «النحو» الصادوقي من الفهم أو التأويل أو التفسير لبعض
نصوص العهد العتيق ، وجدنا أنه لا بد وأن يكون قد نهل من مثل الموقف التالي :
«أما الرجل فإذا مات لبث هناك والبشر متى فاضت روحه فأين يوجد . . لا
يستيقظون ولا ينبعثون من منامهم . . إذا مات الرجل أفيحيا . اذن لا تنتظرت
كل أيام تجتدي حتى يحين ابتدائي»^(١) .

ها هنا ، نحس ونلاحظ الوجه الدنيوي الهرطقي من موقفهم الديني اللاغبيي
(بالمعنى اللاهوتي) . . لكن هذا الوجه يتضح بمزيد من الدنيوية الهرطقية حالما يبرز
أمامنا مبدأ هم الثاني الكبير ؛ ذلك هو أطراحهم الاعتقاد بوجود «قدر» أو «مصير»
ماخوذ بمثابته موقفاً غائباً قُبلياً . لقد قالوا بأن «الكل يحدث وفق ارادتنا ، بحيث
نكون نحن الباعث الأصلي لسعادتنا ، كما تكون تعاستنا نتيجة لجهلنا (عدم
فهمنا)»^(٢) .

لا شك أن ذلك الموقف المزدوج ينضح بلحظة ضخمة وكثيفة من لحظات
الدعوة الحسية الى الاستماع «بهذه» الحياة البهيجة ، على كل حال ؛ ومن ثم ،
نكاد ، هنا ، لا نعثر أبداً على ملامح من التصورات المسيانية (الخلاصية) كذلك
التي سنواجهها في بعض مواقف التيارات الدينية اليهودية الثلاثة الأخرى . إذ حينما
يكون هذا العالم حائزاً - بحد ما - على دواعي ومقتضيات السعادة «الانسانية» ،
فإن الضرورات الملحة والمباشرة لتلك التصورات المسيانية تسقط ، على الأقل ، على
صعيد من يعيش هذه السعادة ويتمتع بمظاهرها المادية والروحية . وقد ترتب على

(١) الكتاب المقدس - سفر أيوب ١٤/١٠ ، ١٢ ، ١٤ .

(2) Flavius Josephus: Ebenda, XIII, 5, 9.

ذلك ، عموماً ، ان تكون نظرة الصادوقيين للتوراة (العهد العتيق) ، الذي يقرون به ككتاب ديني وحيد وملزم ، نظرة فيها كثير من العزوف عن تقديسه بدون تحفظ ؛ بل لعلنا ندقق القول فنضيف ، ان نظرتهم تلك فقدت المسوغات لكي تكون تقديسية بالمعنى الغيبي (الماورائي) الاطلاقي ، وتحولت الى موقف يلح على أن «العهد» المذكور هو «كتاب مفتوح» باتجاه الحياة بكل ما تنطوي عليه من متع ومسررات ؛ لأنها هي وحدها التي تمتلك القدرة على تحقيق «الخلاص»^(١) .

ولابد ، في هذا السياق الدقيق من المسألة الصادوقية ، من أن نفكر ملياً وبعثق فيما كتبه الفيلسوف سبينوزا ، الضليع بالنصوص التوراتية ، حول موقف الصادوقيين من «الشريعة الموسوية» المكتوبة . فهؤلاء ، بحسب ذلك ، مثلوا المرحلة الثانية من تطور النظر اليهودي الى تلك الشريعة ، بصيغتها المقدمة فيها . أما هذه المرحلة الثانية فقد نهضت على اعتبار الشريعة المعنية قانوناً ليس مكتوباً على ألواح مادية ، وإنما في القلوب ؛ ومن ثم يغدو التشكيك وارداً بجدوى الاستمرار بالأخذ بما ساد في المرحلة الأولى من تطور ذلك النظر اليهودي ، أي الانطلاق من ان الشريعة هي شريعة مكتوبة على مثل تلك الألواح المادية^(٢) . ان هذا الموقف

(١) جدير بالتنويه ، على هذا الصعيد من المسألة ، ان الصادوقيين يمثلون - في آرائهم الدنيوية الهرطقية تلك - وريناً بارزاً للتصورات الدينية القديمة لدى اليهود العبرانيين . فلم يكن لـ «الجنة» مكان ما ضمن هذه الأخيرة . أما في مراحل لاحقة ، خصوصاً أثناء السبي وبعده ، فقد أخذ هذا التصور الماورائي (الجنة) يكتسب وجوداً ملحوظاً في المنظومة الدينية اليهودية . ولاشك أن بعض التأثيرات المصرية كانت فاعلة ، بصورة خاصة ، في هذا الحقل . (انظر حول ذلك : برتراندرسل - حكمة الغرب ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٣٩ ؛ وكذلك ول ديورانت - قصة الحضارة ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٣٩١ ، ٣٤٥) .

والصادوقيون إذ دفعوا إلى الوجود بفكرتهم الرافضة والمناهضة لـ «العالم الآخر» ، فانهم لم يكونوا ، في تلك ، امتداداً مبسطاً لآراء أسلافهم حول هذا الأمر . فعلى خلاف كتبة العهد العتيق ، الذين لم يكن لديهم «فلسفة» وإنما إيمان بسيط ومطلق ، على حد قول هريبرت ج مولر في كتابه (استخدامات الماضي - نيويورك - اكسفورد ، مطبعة الجامعة ١٩٥٢ ، ص ٨٥) ، كان الصادوقيون قد استطاعوا بلورة فكرتهم تلك بصيغ فكرية دينية متميزة بحدود أولية ، وتخرقها أشكال من الضبط الديني المعرفي (الغنوصي) .

(٢) انظر كتاب سبينوزا الذي استشهدنا به فيما سبق : Der Theologisch-politische Traktat - a.a.O., S. :

217-218.

الصادوقي يشتمل على ثلاث نقاط عقدية سنلحظ استمرارها ، بشكل أو بآخر ، في مظاهر التحولات اليهودية الدينية اللاحقة . النقطة الأولى تمثلت بثبني الصادوقيين «شريعة موسى» وحدها دون غيرها (وقد ورد معنا ذلك في مكان سابق) . أما النقطة الثانية فتبرز عبر أخذهم بتيار الهلينة ، الذي كان من شأنه أن اسهم في تمزيق البناء الجيتوي (السُّنْعَزِي) للتجمع اليهودي . وأخيراً النقطة الثالثة ، وتعلن عن نفسها بكون الصادوقيين قد مهدوا تمهيداً جدياً لتجاوز الكتابة عبر القلبية ، والحرفية عبر الروحية ، والطقسية المادية عبر الفعل الذاتي الداخلي ، والختان القلبي بالختان القلبي .

والفيلسوف سبينوزا ، الذي نبهنا الى تلك النقطة الثالثة في الذهنية الصادوقية ، بشير ، بحق ، إلى موضعين هامين في «العهد العتيق» تثبت فيهما ذلك التحول (أو النزوع) إلى ما سيفقدوا لاحقاً معلماً هاماً من معالم المسيحية البولسية . في الموضع الأول ، نقرأ مايلي :

«ويختن الربُّ الهك قلبك وقلب نسلك لتحب الربُّ الهك بكل قلبك وبكل نفسك لكي تحيا» (١) .

وفي الموضع الثاني ، يتضح الأمر بعمق وعلى نحو يشير إلى تحول جذري في شخصية يهوه :

«هاإنها تأتي أيام يقول الرب اقطع فيها مع آل اسرائيل وآل يهوذا عهداً جديداً . لا كالعهد الذي قطعته مع آبائهم يوم أخذت بأيديهم لأخرجهم من ارض مصر لأنهم نقضوا عهدي فاهملتهم أنا يقول الرب . ولكم هذا العهد الذي أقطعه مع آل اسرائيل بعد تلك الأيام يقول الرب هو أنني أجعل شريعتي في ضمائرهم وأكتبها على قلوبهم وأكون لهم الها وهم يكونون لي شعباً» (٢) . ان الصادوقيين الذين ارتابوا - بحسب سبينوزا - بأهمية الشريعة «المكتوبة» ، يجعلون من هذه الأخيرة وجهاً من أوجه ما يقترب من «الضمير الذاتي» أو «الوجدان الذاتي» ، بحيث تبرز عملية التشكيك في السلطة الخارجية بروتاً شديداً ، بما في

(١) الكتاب المقدس - سفر تثنية الاشتراع ٦/٣٠ .

(٢) الكتاب المقدس - نبوة إرميا ٣١/٣١-٣٣ .

ذلك السلطة السياسية والدينية الطقوسية . وفي هذا تأكيد جديد على «الكتاب المفتوح» ، الذي وجدناه طرازاً من طرز حياتهم المباشرة ، المناهضة لـ «الماروائية» . ونلاحظ أن كلا الموقفين ، رفض السلطة الخارجية والتأكيد على «الكتاب المفتوح» أديا الى الوقوف في وجه اليهودية الطقوسية ؛ ولكن موقفاً واحداً منهما قاد إلى المسيحية الخلاصية (وهو الأول) ؛ أما الموقف الثاني فقد وقف في وجه الاثنين : لا كهنوت سلطوياً ، ولا آفاق خلاصية (مسيانية) مزعومة . وبالطبع ، إذا كان الموقف ، هنا ، معقداً ومركباً ، فإن مهمة الباحث لا تقوم على البحث عن مخرج يؤدي الى تجاوز دينك التعقيد والتكريب ، باسم رؤية تبسيطية تكاملية . ان الصادوقية اذ طرحت ذلك كله مجتمعاً ، لم تحل الإشكال بقدر ما حرصت على الإيمان فيه .

ومن تعقيدات الموقف الصادوقي إياه ، أن ممثليه - كما رأينا فوق - أوصدوا الكثير من الأبواب أمام التصور اليهودي التوراتي «الغوييم» ؛ ومن ثم فتحوا بعض الأبواب أمام الذهنية العالمية (الكونية) ، التي تبلورت وتجلست ، فيما بعد ، في المسيحية البولسية . لكنهم ، من طرف آخر وعلى هذا الطريق ، حالوا دون ازدهار «المسيانية - الخلاصية» ، التي ستشكل الركيزة المحورية في بناء المسيحية ، عموماً . ومع ذلك ، نستطيع الزعم بأن الصادوقيين قدموا - في صيغة وضعيتهم الاقتصادية والسياسية في الداخل وصيغة علاقتهم التواطؤية مع الرومان في الخارج - عناصر استغزاز وتحفيز للمسيانية تلك في أوساط الفقراء والمفقرين من اليهود وغيرهم . وقد يبدو أن في سلوكهم هذا تناقضاً أو مفارقة ؛ بيد أن نظرية تاريخية مشخصة ومتفحصة يمكن أن تكشف عن أن الصادوقيين كانوا يرون المسيح في أنفسهم ، إنما دون «يسوع المسيح» أولاً^(١) ، ودون انتظار طويل أو قصير لـ «يوم دينونة» ما ثانياً .

(١) من هنا ، ندرك أهمية ما يجبرنا عنه أرنولد توينبي في كتابه (تاريخ البشرية - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٩٠) من أن الصادوقيين «وافقوا السلطات الرومانية المحلية لما حكمت على يسوع بالموت لأنه سمح لليهود والمقيمين في القدس أن يخاطبوه على أنه (المخلص) ، أي الانسان المحرر الملكي للشعب اليهودي» . ولنا ، الآن ، بحاجة إلى التفصيل في أننا وإن رفضنا الاعتراف بوجود شخص تاريخي واقعي تحت اسم العلم (المسيح) ، فإن دلالة ذلك الموقف تبقى =

ان ذلك كله - وماخوذاً بمجمله وفي آفاته اللاحقة - يُري إلى أي حد قاد إليه الصادوقيون تصوراتهم اللاورائية (الدنيوية) تلك ، وبأي أشكال يمكن أن يكونوا قد أثروا في الحياة اليهودية الدينية الايديولوجية ، تخصيصاً ، في مرحلتهم والمراحل اللاحقة من التاريخ اليهودي . وإذا كان الأمر على ذلك النحو المعقد والمركب ، فإننا نجد أنفسنا أمام ظاهرة تتمتع - حقاً - بخصوصية وطرافة هامتين بالنسبة إلى البحث التاريخي والتراثي في مصائر اليهودية اليهودية ، التي أفضت إلى المسيحية اليسوعية برّب جديد يرفض ما يمكن اعتباره كونيّة يهودية ناقصة أو كاذبة ، بالمعنى النظري اللاهوتي .

لقد طرحت الصادوقية - بطريقتها الارستوقراطية المناهضة للحظة الدينية الماورائية التوسلية - من القضايا الاجتماعية والاقتصادية والثقافية عموماً ما أثار النظر باتجاهين اثنين كبيرين ، واحد صوب المسيح المخلص الكوني إتنياً ودينياً بمثابته البديل عن يهوه ، من حيث هو مخلص «الأخيار المصطفين» إتنياً ودينياً ، وآخر صوب الإصرار على المحافظة على الوضع الراهن ، الذي لا يعد له وضع «آخر مزعوم» في عالم «آخر مزعوم» ، مهما كانت الصيغ التي يمكن أن يأخذها ، ومهما كان حجم الناس الذين يتوسلون إليه ويصدقون ابصارهم باتجاهه .

٢ - الفريسية

التيار الديني الثاني ، الذي ظهر وتبلور وانتشر بصورة واسعة في الأوساط اليهودية على امتداد المرحلة الانتقالية من القرن الأخير قبل الميلاد إلى القرن الأول الميلادي ، تمثل بالفريسية . على صعيد هذه الأخيرة تبين موقفاً مخالفاً للموقف الأساسي للصادوقية ومناهضاً له في حالات محددة ، وإن لم تكن غير ثابتة . وقد تآتى ذلك عن التأثيرات المباشرة لأصولهم الاجتماعية الطبقية ، ولواقفهم السياسية المفصح عنها بأشكال مباشرة ، في غالب الأحيان .

وما يمكن قوله على صعيد انتائهم الاجتماعي ، هو أنهم - بالصيغة العامة

= قائمة بالنسبة إلى «الكُثر» من الذين أعلنوا أو أعلنوا بأنهم «المسيح - المخلص» . (وسنأتي على قضية تاريخية المسيح في موضع لاحق من هذا الكتاب) .

الاجمالية - يتحدثون من الطبقة الوسطى . وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار ملاحظتنا في نطاق الصادوقين من تداخل عميق ومباشر بين وضعيتهم الاقتصادية ووضعيتهم الدينية الكهنوتية ومن تعاضل امتيازاتهم واتساعها في كلتا الحالتين الاقتصادية والدينية ، فإننا - على صعيد الفريسيين - نواجه أمراً آخر متميزاً ، هو اقترابهم من حدود الجموع العديدة من فقراء اليهود وأنصاف الفقراء ضمنهم . ان توريث المنصب الكهنوتي المغطى بامتيازات اقتصادية واجتماعية كبيرة كان «حقاً مكتسباً» في أيدي الصادوقيين ، بحيث يمكن القول بأنهم مثلوا جناح طبقة اريستوقراطية تحافظ على موقعها وراثته . ان هذا الوضع ، تماماً ، هو الذي نفتقده لدى الفريسيين ؛ مما جعلهم ليس فقط لصيقيين بتلك الجموع من الفقراء وأنصاف الفقراء (المفقرين) ، وإنما كذلك ، وعلى نحو واضح وفي حالات خاصة ، في موقع العداء المستحكم للصادوقيين فكراً (عقيدة) وممارسة . ويبدو أن هذه السمة ، بالذات ، هي التي كانت بمثابة نقطة التخلخل وعدم التماسك ، وأحياناً الاضطراب ، في بنائهم السياسي والايدولوجي الديني والتنظيمي .

كان العداء للصادوقيين يستحكم ويتعاضل من قبل الفريسيين حينما كان العداء يستعر بينهم (أي هؤلاء الأخيرين) من طرف ، وبين الرومان من طرف آخر . أما في حالات خمود هذا العداء أو ضموره ، فقد كان شيء من التقارب ينشأ بين الجبهتين الكبيرتين المتعارضتين ، الفريسيين من جهة والصادوقيين والرومان من جهة أخرى . وجدير بالذكر أن هذه العملية المتواترة بين الصعود والهبوط كانت ، بشكل أساسي وعام ، مرتبطة بموقف الرومان من الفريسيين ، بعقائدهم الدينية الايدولوجية ومواقفهم السياسية والتنظيمية . فحين كان الرومان يشددون قبضتهم عليهم ، يلجأون الى تحريض وتحفيز الطبقة الدنيا الفقيرة ضدهم ؛ في حين أنه في الحالات التي كان الرومان يتساهلون فيها معهم ويعقدون معهم ، اذا اقتضى الأمر ، تحالفات أو اتفاقيات ، كانوا (الفريسيون) يحذرون جمهور تلك الطبقة من الانتفاضات أو التمردات ضد روما والصراع معها .

ان ذلك الموقف المساوم والقلق والمنتهم وغير المتوازن هو ما جعل خصوم الفريسيين يرمونهم بتهمة النفاق والمنافقين ، ويسحبون منهم ، من ثم ، ثقتهم

بآرائهم وشخصياتهم السياسية والدينية . وفي معظم الأحوال ، ظلوا (الفريسيون) أكثر نزوعاً وميلاً إلى المواقف السياسية والدينية الايديولوجية وأكثر بعداً عن الرغبة في الدخول في صراعات مسلحة ، سواء كان الأمر متعلقاً بالسلطات المحلية أو بالخارجية الاجنبية (١) .

ومن الهام مبدئياً الاشارة الى أن الفريسيين كانوا ، بالرغم من موقفهم المساوم والقلق ذاك ، ميّالين الى الاعتقاد بأنهم متميزون عمن حولهم من اليهود ومن الشعوب والأقوام الأخرى ، الذين كانوا - والحال كذلك - يُدخلون في دائرة «الاغيار - الغوييم» . وهذا ، بدوره ، جعلهم أقرب إلى أن يكونوا في صفوف خصوم الإرهاصات الأولى لـ «العالمية» الجديدة ، التي ستطرح نفسها تحت الاسم الكبير الفضةفاض «المسيحية» .

وهنا ، على صعيد هذه المسألة ، يغدو ذا أهمية مخصصة أن نثبت المعنى اللغوي الحرفي لتعبير (الفريسيون) . فهذا يتضمن معنى «المتعزلين» عمن سواهم (عن اولئك) ، والمنشقين عنهم ، والمتميزين عليهم وعنهم .

ونستطيع أن نضبط ذلك الوجه من المسألة ونعمق رؤيتنا له ، حين نتمعن النظر في التصورات الدينية الكبرى للفريسية . ففي طبيعة هذه التصورات تبرز النفس (بمعنى الروح) من حيث هي وجود خالد ، لا يقنى بفناء الجسد الانساني . لكن أمراً آخر يحدث لها (أي النفس) ؛ ذلك هو انتقالها ، في «العالم الآخر» الى جسد آخر ، إذا كانت - بالأصل - من طبيعة خيرة ، في حين أنها في حال كونها من طبيعة شريرة ، تعيش حالة من «العقاب الدائم» . اضافة الى ذلك ، نواجه اهتماماً فريسياً خاصاً بتصوير «القدر» أو «المصير» القبلي الغائي . فهذا يقدم ، فريسياً ، من حيث هو الفعل الالهي الناظم للأفعال الانسانية في القبل والآن والبعد ؛ ومن ثم ، فليس هنالك من المظاهر الانسانية ما يخرج عن حدود ذلك المصير الحتمي . وهذا يتضمن القول بأن ما كان ، كان بقدر ، وما سيكون ، سيكون بفعل قصد إلهي على نحو مسبق . وإذا كان الأمر كذلك ، فإن «الخلاص» لا يخرج عن أن يكون خلاصة لتجربة على المؤمنين الصابرين أن يجتازوها بنجاح .

(١) انظر : ارنولد توينبي - تاريخ البشرية ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٩٠ .

في ذينك التصورين الدينيين الفريسيين يكمن عنصر هام من عناصر الاختلاف والخصومة مع الموقف الديني الصادوقي ، وهو الاهتمام المركز بالتصور «المسياني» . بل ربما أكثر من ذلك ؛ فلعلنا نقول ان ذينك الاعتقادين الكبيرين ، اللذين صنعنا من الفريسيين ما هو مناقض ومناهض (بحد ما) للصادوقيين ، كانا بمثابة عامل ايضاح وإبراز وتأجيج لموقف هؤلاء من المسيحية المسيانية ، التي ستنشأ لاحقاً من حيث هي امتداد للنزوع المسياني لدى بعض التيارات الدينية التي نعالجها ، وبديل عنها وعن العالم اليهودي برمته . ان هذا الأمر يحدونا الى القول بأن مزيداً من التفحص والتدقيق في ملابسات المواقف الفريسية يدعنا نضع ايدينا على مفصل هام من العلاقة «السلبية» بينها وبين المسيحية . فهي - تلك المواقف - وإن ظهرت لاحقاً على أنها ، بالمعنى السياسي المباشر ، خصم للمسيحية اليسوعية ، إلا أن الفريسية ، عموماً ، ظلت تمثل أحد الخوافز التي أسهمت في توليد غريمتها هذه ، المسيحية . فهي (الفريسية) ، في اهتمامها على نحو ما بالمسيانية والعالم الآخر والحساب والعقاب والثواب الخ . . . عملت على شدّ العيون باتجاه «مسيح مخلص» ما ^(١) . وقد لاحظنا قبل قليل إلى أي مدى كان لتصور «القدر» الفريسي أن يمارس دوراً فاعلاً باتجاه إبراز المسيانية والنهوض بها والدعوة اليها .

وجدير بالذكر أن الفريسيين كانوا - في خلافهم مع الصادوقيين - يحتكمون إلى آرائهم الخاصة والمغايرة لآراء هؤلاء والمناهضة لها . فقد انطلقوا من الاقرار بوجود «عالم آخر» ، ينتهي اليه الانسان بعد موته ، ويبحث فيه ، ويُقاضي على أعماله . وهذا من شأنه أن يوضح لنا ان الفريسية مثلت - في أحد أوجهها الناظمة الكبرى - نسقاً دينياً ايديولوجياً قاد ، بما هو كذلك ، الى التركيز على «ساعة الدينونة» التي ستحل مع بزوغ المخلص من وراء الأفق . ولكنهم ، أي الفريسيين ، إذ بلغوا هذا المعقد من المسألة ، فاتهم - من طرف آخر - تمكنوا من

(١) لعلنا نكون ، اذا انطلقنا من هذا الموقع ، مغولين بالقول بأن المسيحيين الأوائل كانت لهم علاقات إيجابية ، بقدر أو بآخر ، مع الفريسيين . ومع الأخذ باحتمال وجود شخصية تاريخية واقعية لـ «يسوع المسيح» ، يمكن الافتراض والتخمين بأنه (المسيح) كانت بينه وبين اولئك علاقات ومشاركات ما بحدود أولية ، على الأقل . (راجع حول ذلك : ارنولد توينبي - تاريخ البشرية ، نفس المعطيات السابقة) .

توليد حوافز لتقبل تصورات تعلن عن مسيح جديد يخلص العالم مما وصل اليه من مأس واضطراب . بيد أن هذا «المسيح» ظل ، في المنظور الفريسي ، توراتي الأصول والطابع . وذلك لأنهم اعتبروا التوراة موجودة من الأزل ؛ ومن ثم ، فهي وحدها التي تهيم سبل الخلاص وتنظمها وتقودها . ومن هنا أيضاً ، كانت الشرارات التي اشتعلت بينهم وبين طلائع المسيحية ، البولسية تحديداً : هل ننطلق من «نبي» أو «إله» جديد في تحقيق «الخلاص» محاطاً بعناية «الرب يهوه» وبهيمته ، أم من «إله» يوازي ويخترق الرب ويتداخل فيه ، هو يسوع المسيح ؟ (نذكر هنا بالفرق الذي لاحظناه توراتياً بين النبي والاله والرب) . ذلك كان سؤالاً أخذ مداه الأقصى ، حين حسمت المسيحية البولسية الموقف لصالح يسوع المسيح ، الذي - كما سنلاحظ - سيلخص في شخصيته المقولات الثلاث: الرب والاله والنبي . وضروري أن نقول بأن هذا الحسم وجد آفاقه البعيدة عبر تصور «الثالوث» ، الذي سيمر فيه يسوع المسيح بمثابته جماع القول .

ولابد من الإشارة إلى أن الفريسية حتى في تلك الحلقة العليا من المسألة لم تكن حازمة حاسمة . فقد أظهرت ميلاً لأن تكون مصهراً للمتناقضات والمفارقات . وقد نتبين أحد مظاهر وعوامل هذه الوضعية ، مرة أخرى ، في شخصيتها الطبقية «الوسطية» ، التي تجدد نفسها مستعدة ، بطواعية ، للمساومة على موقف ما فيما إذا كان هنالك من المكاسب ما يوازيه ، في نظرها . وهكذا ، فحين كان تأثيرها السياسي (والاقتصادي) يتسع ويتعاظم في الأوساط اليهودية وخارجها ، كنا نشاهد اهتمامها المسياني وحاستها لـ «المسيح المخلص» يتضاءل ، ويفقد فاعليته الدينية والسياسية . وحالئذ ، تجدد نفسها (أي الفريسية) وقد التقت ، مباشرة وبدأ بيد أو على نحو غير مباشر ، مع الصادوقية ، مُطِحةً ، بذلك بـ «يهوه المخلص» ، بمثابته رباً وإلهاً .

ولقد برزت تلك اللحظة من العقم المسياني لدى الفريسيين ، خصوصاً حين أتيح لهم تسنم مهام القيادة السياسية التنظيمية في التجمعات والمؤسسات الدينية . وكان شطر كبير منهم قد تحلى ، أساساً ، عن الاعتقاد المسياني ، متبنياً رأي معلم الشريعة هليل القائل بأن المسيح قد ظهر منذ زمن ، وانتهى الأمر ، بحيث تغدو

الدعوة إلى «مسيح ما» أمراً إما نافلاً وإما مضاداً للمسيح «الأصلي الذي سبق وظهر». وهذا ما قاد أولئك الفريسيين إلى أن يشطبوا من مراسيمهم الدينية دعاءً ذا مدلول خاص بليغ ويتعلق بالحث على ظهور المسيح ، وهو دعاء يقدم في الصلاة المعروفة بـ «صلاة الأدعية الثمانية عشرة»^(١) .

على ذلك النحو غير الأحادي الجانب ، تبرز الفريسية أمامنا تياراً دينياً وسياسياً على غاية التعقيد والاشكالية والتركيب . ولكنها ، بالضبط ، حيث برزت بهذه السمة القلقة والملففة ، فإنها فتحت أبواباً كبرى واقنية متعددة للتحويل والتغير ؛ منها ما قاد - بتلكؤ أو بعنفوان - إلى المسيحية الخلاصية ، ومنها ما أوصد الأفاق أمامها ، ومنها ما قاد إلى قلب روما على سبيل التواطؤ طوعاً أو الخضوع قسراً ، وأخيراً منها ما حاول أن يقف فوق هذا الطرق جميعاً ، منتقلاً إلى مسالك الزهد و«قطع العلائق بالخلاتق» .

ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى أن الفريسيين لقوا على يد بولس نفسه مقاومة عنيفة وحادة . فلقد رأى فيهم خطراً مباشراً على الدعوة المسيحية اليسوعية ، التي حاولوا - بحسب رأيه - تهويدها عبر فرض مظاهر الشريعة الموسوية على المؤمنين المسيحيين من «الأمم» ، مثل الحفاظ على الختان ، والنظر إلى التوراة بمثابة كتاباً «أزلياً» لا يطرأ عليه تغيير ، كما أومأنا إلى ذلك من قبل . وقد وصل الأمر بالفريسية إلى درجة أنها اديننت ورفضت بصورة رسمية قاطعة . حدث ذلك إجماعاً في مؤتمر الرسل والكهنة بالقدس عام ٤٩ م ، حين أعلن بولس :

«إن تيطس الذي كان معي وهو يوناني لم يضطر إلى الختان . ولا لأجل الإخوة الكذبة الداخلين زوراً الذين استرقوا الدخول ليتجسسوا حريتنا التي نحن عليها في المسيح يسوع فيستعبدونا . الذين لم ننقد اليهم خاضعين ولا ساعة ليستديم فيكم حق الانجيل»^(٢) .

(١) انظر حول ذلك : Martin Robbe- Der Ursprung des Christentums, a.a.O., S.61.

(٢) الكتاب المقدس - رسالة القديس بولس إلى أهل غلاطية ٢/٣-٥ . انظر كذلك : الاستاذ الحداد - القرآن دعوة «نصرانية» ، في سبيل «الحوار الاسلامي المسيحي» ، بدون ذكر تاريخ النشر ومكانه ، ص ٥٦ .

وبالرغم من أن بولس تمكن من تقديم تحديد أولي لوضعية القلق الفريسي بين اليهودية التوراتية والمسيحية اليسوعية ، إلا أنه لم يكتشف انهم مثلوا تياراً حقيقياً أصيلاً غير مفتعل (أي ذا وجود كثيف ومتميز بحدود مواقفه) في إطار عملية الانتقال من تلك الى هذه . وما تسميته لهم بـ «الجواسيس» ، مثلاً ، إلا تعبير عن أحد أوجه القصور في تحديد موقعهم التاريخي الديني وآفاقهم وتأثيراتها المعلنة والخفية .

٣ - ثارة الله - السيلوتية

في نطاق الحديث عن هذا التيار الديني اليهودي ، نلاحظ أنه نشأ وأفصح عن نفسه في مرحلة لاحقة متأخرة ، بالقياس الى التيارين السابقين الصادوقي والفريسي . كان ذلك في العام السادس من القرن الميلادي الأول ، أي في مرحلة عمق الأزمة التي كانت مستحكمة بمجتمع الامبراطورية الرومانية العبودي . وقد حدث في تلك السنة أن فرضت ضريبة جديدة في إحدى ملحقات تلك الامبراطورية ، في حينه ، فلسطين ، بحيث جعلت متوسطي الحال والفقراء والعيبد يشعرون باستفزاز اقتصادي جديد يمس حاجاتهم الأولية المباشرة على نحو ، شامل وعميق ، في هذه المرة ، من قبل الاريستوقراطية الصادوقية (الكهنوتية) العليا والمتواطئة ، علناً ، مع الرومان . فاندلعت انتفاضة ، في سياق ذلك وبأعقابها ، ضمن تلك الأوساط ممثلة خصوصاً بالفلاحين والحرفيين والصيادين ، ومعدومي الملكية بصورة عامة . وقد دعا اليها يهوذا الجليلي وقادها ، بحيث تحولت - بعد حين - الى حركة تمرد مسلحة وواسعة ، اكتسبت اسم «ثارة الله» أو «السيلوتية» .

قام أولئك المتمردون بأعمال انتقامية كبرى تجاه المالكين الأثرياء ومن حولهم ، فأحرقوا بيوت ومحال الكثير منهم ، ونهبوها ، وقتلوا أصحابها . أما على الصعيد السياسي ، فكانوا يهدفون إلى إسقاط تحالف الاريستوقراطية اليهودية مع الرومان ، وإخراج هؤلاء من البلاد ؛ مع علمهم بأن أمراً مثل هذا أكثر من صعب ، ويحتاج الى جهود كبرى هم ليسو بمستواها . انطلاقاً من هذا الهدف الاستراتيجي البعيد ، كانوا يعقدون تحالفات مع الفريسيين وغيرهم من التجمعات اليهودية المحلية ، وذلك في الحالة التي كان فيها هؤلاء الآخرون يُظهرون خطأً مناوئاً ، كثيراً أو

قليلاً ، للرومان ، وفق شخصيتهم «الوسطية» .

وقد سادت في تلك المرحلة اضطرابات وهزات كبرى على مجمل الأصعدة ، وسالت دماء كثير من الأغنياء والمتواطين مع الرومان . فاسلوب المجابهة الذي لجأ إليه «الثارة» تمثل بالعنف والاعتقال واحداث الرعب والاضطراب والفوضى في صفوف أعدائهم . وقد كان من شأن ذلك ، بالنسبة الى جمهور الفقراء والمفقرين عموماً ، أن ولد - بعد إذ خلق لنفسه تقاليد من القوة والثقة بالنفس - تصورات جديدة ملوثة بألوان قديمة تدور حول ضرورة قدوم مسيح مخلص ما يحررهم من أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية البالغة حداً فظيماً من البؤس .

ولعلنا نقول - في سياق ذلك وإتماماً له - ان تصور الخلاص والمخلص ترعرع وازدهر بعمق واتساع في المرحلة المعنية ، وظهر - من ثم - من حيث هو الأساس الأكبر لحركة ثارة الله . فلقد اخبرنا فلافيوس يوسفوس ان اندفاع هؤلاء للحرب اندفاعاً جباراً كان بسبب اعتقادهم أن واحداً من أرضهم «المقدسة» سوف يجيء في ذلك الزمان ، ويتزع السيادة الشاملة والمقدسة على العالم ، ويقيم - تنويحاً لذلك - العدل والسعادة . (وجدير بالذكر أن مثل هذا التصور ورد كذلك في «كتاباتهم المقدسة»^(١) . وهنا بالضبط ، يبرز أمر لغوي على غاية الأهمية والدلالة التاريخية والتراثية الدينية ، ويقتضي منا أن ننتبه إليه لما يمكن أن يلقي من أضواء على عملية تشكل «المسيحية اليسوعية» لغوياً وعقيدياً ؛ ذلك هو أن «يشوع» العبري ، الذي بشر به ثارة الله ونادوا ، تحول - بعد أن ترجم للغة اليونانية - إلى «يسوع» . وهذا يدعونا الى أن نتبين ، على الأقل ، الأصول القريبة لـ «المسيح» المسيحي ، بحيث يصبح الافتراض التالي قوياً إلى درجة القبول ، وهو أن التصور المسيحي عن يسوع وإن اكتسب لاحقاً سمات خاصة به ومتميزة ، فإنه متح واستقى أصوله من عدة مصادر ، كان المصدر السيلوتي واحداً من أهمها ، عموماً وخصوصاً .

وإذا كان الأمر حقاً كذلك ، أفلا يصح أن نطرح الآن السؤال البسيط والخطير

(١) انظر :

Flavius Josephus- Geschichte des jüedischen Krieges, Uebersetzt und mit Einleitung und Anmerkungen versehen von Heinrich Clementz. Koeln, VI, 5, 4.

التالي ، الذي سيرز لاحقاً أمامنا بكثير من الالحاح والأهمية المنهجية التاريخية : هل وجد ، فعلاً ، «يسوع» مسيحي بشخصية تاريخية محققة ؟ وعلى كل حال فإن هذا السؤال المفعم - مع الاجابة عنه - بالحساسية المنهجية التاريخية التراتبية والعقيدية - لا يهمننا الآن كثيراً ، بقدر ما تستحوذ على اهتمامنا تلك الوضعية الانتقالية من اليهودية التوراتية الى المسيحية اليسوعية . فهذه الوضعية الانتقالية كانت تعج بأفكار وتصورات وآمال وعواطف ثرة ومتنوعة اتجهت جميعها صوب الهدف المركزي «الخلاص» و «المخلص» ، بحيث كانت الأرض خصبة شديدة الخصب لانبعاث وتبلور عدة اتجاهات وحركات «خلاصية» مسلحة و عدمية زهدية (صوفية) ، وظهور عدد كبير من «المخلصين» المزعومين والمخادعين ، على حد ما أعلمنا به فلافيوس يوسفوس في كتابه «العاديات اليهودية» (١) .

لقد قادت حركة ثارة الله الى ما يقترب من مشارف العملية الكبرى ، التي ستمخض عن نشوء الحدث الكبير ، المسيحية اليسوعية . أما الحركة التي قادت ، فعلاً ، الى تلك المشارف فهي تلك التي ستدخل التاريخ اليهودي (وكذلك المسيحي) تحت اسم الإسينية . فهذه - مع غيرها من بعض المظاهر الرؤياوية الخلاصية (رؤيا يوحنا تخصيصاً) - ستكون جبل السرة الفاصل بين اليهودية والمسيحية والمفتحم هذه الأخيرة نفسها .

٤ - الاسينية

حينما نتحدث عن هذه الحركة ، فكأنما نجد أنفسنا وقد شرعنا بالحديث عن البدايات الأولى الباكورة للمسيحية . ان هذا القول يبقى صحيحاً وضرورياً بوجه من أوجه المسألة وبمعنى من معانيها ، وبالرغم من أن بعض التحفظ يمكن أن يبرز ازاءه ، وهو أن الحركة المعنية وإن كانت قد جسدت مثل تلك البدايات ، إلا أنها ظلت تقدم موقفاً فيه شيء من الاستقلالية النسبية حيال الذي اسهمت في توليده ، المسيحية .

أخذ التيار الإسيني يرسى بعض ركائزه في بدايات القرن الثاني قبل الميلاد ،

(١) انظر هذا المصدر بمعطياته المقدمة سابقاً - XX, 5, 1.

واستمر فاعلاً ، بدرجة أو بأخرى ، حتى القرن الثاني بعد الميلاد ^(١) . وقد تبلور واكتسب سماته الرئيسية الكبرى في خط مضطرب متصاعد من العداء السافر والمعلن لظاهرة ذات منحيين . الظاهرة تجسدت بـ « الهلينة » عامة ؛ أما منحها الأول فهو الروماني ، في حين أن ثانيهما تمثل باليهودي . هذا يشير إلى أن الاسينيين وضعوا على عاتقهم مهمة مركبة صعبة كمنت في التصدي لأكبر حركة ثقافية في ذلك الحين على المستوى العالمي .

في سياق تلك العملية ، كان الاسينيون يفصحون عن أنفسهم من حيث هم رجال « أتقياء منصوفون » يرفضون بحزم وبتقزز كل مامن شأنه أن يكون منتبياً إلى « مستنقع هذا العالم الفاسد » . ولما كان مثل هذا « العالم الفاسد » قائماً في المناطق الحضرية المدنية ، فقد كانوا يجدون أنفسهم مدفوعين دفعاً باتجاه الهجرة إلى مناطق صحراوية ، حيث أملاوا من ذلك أن يحققوا حياة كاملة من العزلة ، والقلية ، والعبادة ، التي لا يعكرها شيء منبعث من « عالم الخطيئة » و « القهر » و « البؤس » .

وقد كان ، ولا شك ، حدثاً كبيراً حين اكتشفت « مخطوطات البحر الميت » ، وذلك ابتداءً من عام ١٩٤٧ . إذ تبين أنها تحتوي أشياء تمثل ثورة في تاريخ الدين ، كما يرى المستشرق الأميركي وليام ألبرايت ^(٢) ، بحيث تنطوي على الدعوة إلى إعادة النظر في هذا التاريخ . والذي يهمننا ، بالدرجة الأولى من ذلك ، هو ما يتصل بالتيار الديني الاسيني . فلقد ظهر أن الأمر يدور في المخطوطات المعنية حول « معلم للعدالة » تتحقق على يديه مهمة إعادة بناء هذا « العالم الفاسد » ، وذلك

(١) فيما يتصل ببيدايات نشوء الاسينية ، يبدو أنه من الصعب أن يحدد تاريخ دقيق أو حتى تقريبي لها . فيحسب Philo ، يعود تاريخ نشوئها إلى عهد « موسى » ، الذي قام ، بمقتضى ذلك ، بتأسيسها هو نفسه . أما Plinius فيعلن أنها نشأت منذ « الوف السنين » . (انظر حول ذلك : Prosper Alfari- Die sozialen Urspruenge des Christentums, a.a.O., S.70)

ولعله من قبيل الدقة أن يقال بأننا « لسنا نعرف تماماً كيف نبتت رملة الاسيين ولا متى كان منبتها ، ولكننا نعرف أن الاسيين كانوا يعيشون في عهد يونان مكابيو من سنة ١٥٠ ق.م » . (عصام الدين حفني ناصف : المسيح في مفهوم معاصر - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٤٢ - ١٤٣) .

(٢) ضمن : Martin Robbe- Der Ursprung des Christentums, a.a.O., S.65.

بحيث يعم ، إثر ذلك ، السلام والعدل والحب . وجدير بالذكر أن «معلم العدالة» هذا اكتسب ، في تلك المخطوطات ، أسماء أخرى تتصل باسمه المذكور من حيث التوجه الرئيسي ، منها «معلم الصلاح» و«معلم الحق»^(١) .

وإذا وضعنا في اعتبارنا أن الاسينية مثلث الم شروع الأول للمسيحية ، كما يرى ارنست رينان في كتابه «حياة يسوع»^(٢) ، فإنه يعدو مقبولاً ما يُنقل إلينا من أن «معلم العدالة» الاسيني مات بين عام ٦٥ وعام ٦٣ قبل الميلاد ، في حين أن يسوع المسيح يراد له أن يكون قد مات صلباً في عام ٣٠ بعد الميلاد تقريباً . ان اثبات هذين التاريخين ليس هاماً وحاسماً بذاته^(٣) ، بقدر ما يشير إلى دلالة ذات خصوصية بالنسبة إلى موضوعنا . هذه الخصوصية تكمن في ان الإسينية هي ، حقاً ، تلك الحركة التي جسدت الارهاصات الأولى للمسيحية ، فكانت سابقة عليها بهذا المعنى ، ولم تكن معاصرة لها ، من حيث الأساس ، حتى وإن ظلت قائمة إلى القرن الثاني بعد الميلاد^(٤) .

(١) انظر في ذلك : حسين عمر حمادة - مخطوطات البحر الميت ، دار منارات للنشر ، عمان ، الطبعة الأولى ١٩٨٢ ، ص ٦٠ - ٦٥

(٢) انظر : Martin Robbe- Der Ursprung des Christentums, a.a.O.S. 75

(٣) فيما يتعلق بتاريخ «صلب يسوع المسيح» - هذا إذا أقررنا أن شخصاً تاريخياً واقعياً بعينه قد وجد في المرحلة المعنية ، هنا ، تحت هذا الاسم المذكور - يُنقل إلينا خبر عن باحثين بريطانيين يصرحان بأنها استطاعا ، أخيراً وبدقة كبرى ، أن يحددوا تاريخ موته ، وذلك هو يوم الجمعة الواقع في الثالث من نيسان من عام ٣٣ . (جاء ذلك في

Der Spiegel (Bundesrepublik Deutschland, Nr. 1,2, Januar 1984, S. 126) .

(٤) العلاقة بين هذين الطرفين الدينيين تتحدد ، بحسب «بعض المحدثين» ، على النحو التالي ، الذي يجعل منهما حلقتين في سلسلة واحدة ، والذي يقود - من ثم - إلى تعليق ورفض صحة نسبة الاناجيل إلى الرجال الذين سميت بأسمائهم :

«أ - ان الاسيين (الاسينيين) هم مسيحيون حقيقيون عاشوا قبل يسوع المسيح .

ب - ان المسيحيين هم الاسيون المتأخرون ، وان اسم المسيحية - في اجمع الفطن - قد صيغ في انطاكية .

ج - ان الاناجيل كتبها الاسيون من قبل وكانت كتابتها بلسان يونان وهو اللسان الذي ألف إسو الاسكندرية ان يدونوا به مؤلفاتهم .

ولعله على غاية الأهمية التاريخية والتراثية والاجتماعية ، معاً ، بالنسبة إلى القضية التي نحن في صدددها ، أن ننوه بالأمر التالي ، وهو أن تاريخي الصلب المذكورين يمكن أن يكتسبا أهمية حقيقية وليست وهمية ، حين نضعهما في سياقيهما من الأحداث التي سبقتها ورافقتها وأعقبتهما . ولايضاح ذلك نقول ، ان القتل بواسطة «الصلب» كان أمراً مألوفاً في الامبراطورية الرومانية ، التي كان قادتها وحكامها وولايتها يلجأون الى صلب أعدائهم من السياسيين والعسكريين وجمهور المتفضين والمتمردين ، وكذلك من اللصوص وقطاع الطرق وغيرهم^(١) . وإذا وضعنا باعتبارنا أن «المسيح» يمثل ذهنية تعود إلى عقائد اسطورية ودينية شرقية قديمة ويونانية ، بحيث ان المسيح يسوع لم يعد أوثق تاريخية من اوزيريس وأيتس وديونيسيس ومثرا^(٢) ، وبحيث أن الحديث يغدو وارداً عن وجود «مسحاء متعددين» قبل يسوع المسيح ذاك^(٣) ، نقول ، اذا فعلنا ذلك ، فإنه - في هذه الحال - يصبح من غير الناجع وغير الهام أن نضع افتراضات وآراء حول شخص أو آخر خضع هو بعينه لتلك الطريقة من القتل . ان هذه الافتراضات تجد تدعياً تاريخياً موثقاً لها في أن ملك اليهود العبرانيين كان يلقب ، بالضبط ، بذلك التعبير : «المسيح»^(٤) .

ان عدم نجاعة مثل ذلك الافتراض يبرز مسوغاً ، بصورة خاصة ، حين نستعيد ما كنا أشرنا إليه ، ضمناً وفي مواضع سابقة ، من أن كلمة «يسوع - يسوع» ، التي كانت منتشرة على نطاق واسع في الحركات الدينية الخلاصية ، لم تكن

أما أولئك الأربعة التي عزيت اليهم الاناجيل فهم صيادو سمك أميون ليس لديهم من المعارف غير مالدی عامة اليهود منها وذلك ما يقطع بأنهم ليسوا المؤلفين الحقيقيين لها . (عصام الدين حفني ناصف : المسيح في مفهوم معاصر - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٤٩) .
إن تلك الصلة التاريخية والتراثية بين الاسينية والمسيحية تُرفض من موقع إيماني مسيحي أو غير مسيحي ، حين يعلن أحد الكتاب (حسين عمر حماده : مخطوطات البحر الميت - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٦٧) أن «موضوع مخطوطات البحر الميت التي كتبت فيها أكثر من ثلاثة آلاف دراسة استهدفت أولياتها زعزعة العقيدة المسيحية التي بشر بها السيد المسيح» .

(١) انظر في ذلك : Martin Robbe- Der Ursprung des Christentums, a.a.O., S. 78.

(٢) راجع حول ذلك : عصام الدين حفني ناصف - المسيح في مفهوم معاصر - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٤٩ ، ٦٦-٧٠ ، ٣٠ . جيمس فريزر : أدونيس أو تموز - ترجمة جبرا ابراهيم جبرا ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٨٢ ، ص ٢٩ .

تعني ، من حيث الأساس ، اسم علم أو اسماء علم ، بقدر ما كانت تدل على الشخصية الدينية والوشم الديني لهذه الحركة أو تلك (١) .

ان تلك المعطيات هي التي تملي علينا ضرورة أن نأخذ الاسينية - وكذلك السيلوتية ، وإن بدرجة أقل - بمثابة تياراً حاسماً في تأثيره على مجريات ما تمخضت عنه الحركات الدينية الخلاصية (المسيانية) من دفع إحيث باتجاه المسيحية الأولى ، ومن تحفيز على بلورة البنية الداخلية لهذه الأخيرة ولأفاقها اللاحقة .

ولابد من أن نذكر هنا شيئاً ذا أهمية بارزة في البناء الداخلي للاسينية ، لكي نتبين ما وضعته من مثل عليا على الأصعدة الاقتصادية والاجتماعية والجنسية .

لقد لخص Prosper Alfaris تلك المثل بأن حددها بكونها «شيعية صوفية» (٢) . أما هذه الأخيرة فقد تمثلت برفض كامل وصارم للملكية الخاصة ، ولاندماج بالأغيار من اليهود ومن غيرهم من شعوب المنطقة ، وللزواج ؛ وبدعوة كل فرد من أفراد الجماعة إلى العمل من أجل أن يقوم بأود نفسه . لقد فعلوا ذلك طوال فترة مديدة ، منتظرين أن ينبعث ذلك «المعلم المخلص» ، الذي نسجوا حوله في أذهانهم صوراً مفعمة بالحياة والحرارة والراهنية ، اقترنت ب «يوم الحساب - اليوم الآخر» ، وباندحار «الدجال - سيد الشر» في عالم الفساد .

وقد غدا من الراجح جداً أن يكون الإسينيون - في أفكارهم تلك أو في بعضها على الأقل ، وخصوصاً ما يتصل منها بالصراع بين «المخلص المسيح» و «الدجال» وانتصار الأول على الآخر في نهاية المطاف - قد تأثروا بالبراهمة والبوذيين ، وغيرهم من العقائد الشرقية السابقة والمعاصرة لهم . كما قد يجوز التنويه المخصص بتأثير فيثاغوري عليهم ، تمثل بطريقة الحياة التي مارسها الفيثاغوريون كمجموعات دينية صوفية والتي نواجه ما يشابهها أو يقترب منها لدى الاسينيين .

(١) على هذا المستوى وضمن هذا الإطار من معالجة تاريخية «المسيح» ، لا يصح الرأي التالي على العهد العتيق فحسب ، بل كذلك على العهد الجديد : «وبرهنت أن (المسيح) في التوراة مصطلح يكتنفه الغموض» . (نلرة اليازجي : رد على التوراة - الطبعة الثانية ، شباط ١٩٨٤ ، دمشق ، ص ٨) .

(٢) انظر ذلك في كتابه : Die sozialen Urspruenge des Christentums, a.a.O., S. 71.

وقد فهم بعض الدارسين هذا التأثير على أنه ذو أصول فينيقية قديمة (١) .

تلك كانت التيارات الأربعة الأكثر أهمية وهيمنة في الوضعية الدينية -
والسياسية - اليهودية خلال مرحلة الانتقال التاريخية الكبرى من القرن الأخير
السابق على الميلاد الى القرن الأول الميلادي ، أي المرحلة التي تبلورت فيها
ونضجت ظروف ومعطيات العملية التي أدت إلى الدين الجديد ، المسيحية . وكما
لاحظنا فإن تلك التيارات ، مجتمعة ، كانت قد قدمت حوافز كبرى ، بالمعنى
الوظيفي السليبي والايجابي ، باتجاه تكوين ذلك الدين بنيةً ووظائفًا . ومن هنا ،
فإن دراسة التيارات المعنية وتقصي آفاقها يمثلان أمراً يدخل في صلب البحث في
المسيحية اليسوعية . وبطبيعة الحال ، فحيث ينجز مثل هذا الجهد ، فإن تلك
الأخيرة تستعيد شخصيتها ، حقاً ، أي كما تولدت في نطاق تحول عميق وشامل في
المجتمع الزراعي (المشاعي القروي الفلسطيني) ، وعلى مستوى المجتمع
الامبراطوري العبودي .

والشيء الجدير بالاهتمام المنهجي الأولي - في هذا السياق الختامي - هو أن
تلك التيارات الأربعة تبلورت سماتها وآفاقها الدينية والسياسية في إطار الأزمة
الكبرى والعميقة ، التي أخذت تهز بعنف محذّر وواعد أركان المجتمع العبودي في

(١) من ذلك ما يأتي ، مثلاً ، في كتاب حسين عمر حمادة (مخطوطات البحر الميت - نفس
المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٧٠) : «ومن الجذور الفينيقية في عقيدة الاسينيين يقول جبليك
الفينيقي بأن والد بيتاغور كان تاجراً من ساموس إحدى جزر بحر ايجه . وقد نذرت زوجته
برتنيس للرب اودناي ابنها بيتاغور . فجاءت به الى هيكل ألقا وعمدته هناك بالماء خضوعاً لعادة
آبائها أو لمراسم الطائفة التي تنتمي إليها . والعماد بالماء لأجل التطهير عادة كنعانية قديمة . وبيتاغور
الذي تربى ونشأ على أيدي أشهر فلاسفة عصره ، انفرد في جبل الكرمل متنسكاً متصوفاً ، وبعد
أن عاد إلى كرتون التي كانت محطة تجارية كنعانية ، أسس مدرسته الفكرية . فحقق بيتاغور
حلمه الفريد وطبق جميع المبادئ السامية والمثل العليا . وبناء على ذلك الا يجوز الاعتقاد بأن
بيتاغور طوال المدة التي انعزل فيها في جبل الكرمل قد نشر رسالته الكنعانية فائز بها على
الاسينيين ؟ وبالتالي ألا يجوز الاعتقاد بأن بيتاغور هو مؤسس النحلة الاسينية ؟ » .

مقاطعات الامبراطورية ، ومن ضمنها فلسطين . وهذا يلزمنا ، منطقياً وتاريخياً بالنظر إلى التيارات إياها في خضوعها ، بدرجات مختلفة ، لمشكلات الامبراطورية ولبوسها وآفاقها ، مع ضرورة المحافظة على القول بالخصوصية النسبية لمقاطعات هذه الامبراطورية ، ومن ضمنها فلسطين . وكان عليها - وفق ذلك - أن تواجه الأسئلة الدينية والسياسية والاجتماعية الاقتصادية (وكذلك الإثنية) ، التي طرحت في حينه ، وأن تقدم - من ثم - اجابات عليها ، شكلت ، هي بدورها ، أوجهاً من برامجها ومشاريعها التي طرحتها على جمهورها . كان ذلك قد حدث ، بالرغم من ظهور اتجاهات انفصالية في وسط هذا التيار أو ذاك ازاء روما ، وحيال مسألتي الهلينة والاندماج . بصيغة أخرى يمكن القول ، ان السمة الكونية (العالمية) لتلك المشكلات برزت في التيارات المذكورة جميعها ، على نحو أو آخر وسلباً أو ايجاباً ، وأثرت بعمق في الشخصية الوليدة الجديدة ، التي تمثلت بالمسيحية البوأسية .

ان ذلك يضعنا أمام واحدة من النتائج الكبرى التي ترتبت على المرحلة الانتقالية المنوه بها ؛ تلك هي ان اليهود العبرانيين (التوراتيين) كان عليهم - والحال على ذلك النمط - أن يمروا ، أو لنقل ، أن يخضعوا لمرحلة جديدة في تاريخهم ، هذه المرحلة التي اتسمت بعوامل التمزق والانشطار ، وولادة احتمالات جديدة متعددة لاستمرارهم التاريخي ، تمثل أهمها في الاتجاه التلفيقي الذي نهض على الأخذ باليهودية والمسيحية ، في آن واحد (اليهودية المسيحية) . ومما ترتب على ذلك ، أيضاً ، أنه كان على تصوراتهم عن «الرب الاله يهوه» أن تخضع لتلك التحولات، مكسبةً، بذلك ، تجليات جديدة كثيراً أو قليلاً في الحقلين البنيوي والوظيفي .

وعلىنا أن نحدد منذ الآن المهمة التالية التي سنضع على أنفسنا واجب الاضطلاع بها : انها تقصي وضبط تلك الوضعية التي تمثلت بدخول العالم الروماني ، آنذاك ، في مرحلة الاستنفاد التاريخي في مجمل الحقول ، بما في ذلك الحقلان الديني والاخلاقي القيمي (بحدود الفصل النسبي الممكن بين هذين الحقلين في المرحلة المعنية) ؛ سنفعل ذلك بهدف الوصول الى المقتضيات التاريخية الاجتماعية عموماً والبنيوية والوظيفية (في نطاق اتجاه تداعي واحتضار المشروع اليهودي اليهودي في الخلاص) ، تلك المقتضيات التي قادت الى انبثاق المسيحية من

جوف اليهودية ، والى خروجها عنها وعليها ، فيما بعد . وهذا يعني ، بالنسبة إلينا ، أن نتحرى التحول العميق ، ولكن الخفي حتى مرحلة متقدمة ، الذي طرأ على «يهوه» وعلى ما جسده من بنية لاهوتية ومن وظائف دينية تنظيمية واجتماعية واقتصادية (وإثنية) .

وبصيغ عامة أولية يمكن القول بأن المسألة إذ وصلت الى ذلك الحد من التمزق والتبعثر في الوضعية اليهودية - التي أتينا على معالجتها فيما سبق - فإنه غداً من الاستحالة بمكان أن يستمر أي من الأنساق الكهنوتية اليهودية في مكابرتة واصراره على البقاء ضمن هذه الوضعية . لم يعد ممكناً ضمن جل الاحتمالات ، بما فيها احتمال الأدلجة السوهمية ، أن يزعم أي من تلك الأنساق بأنه يمثل اليهود عامة في الحقلين الاجتماعي الشخصي والديني الذهني . وهذا ، بدوره ، ما قاد إلى انقشاع - إن لم نقل سقوط - الوهم الايديولوجي الديني اليهودي ، الذي غذته ورعته الانساق اليهودية الكهنوتية من مواقع الهيمنة الاقتصادية والسياسية ، وكذلك من خارج هذه المواقع ، وهو الوهم المتجسد بأمثال المقولات التالية : «الشعب المصطفى المختار» ، و«الفريسي» ، و«القدرة المطلقة ليهوه على الاغيار» الخ . . . لقد ظهر أن هذه المقولات ليست سوى لوثات ايديولوجية (دينية) ثمتها وعززتها الفئات الكهنوتية المهيمنة اقتصادياً وسياسياً والضالعة مع «يهوه» بصفته المخلص الذي لا يخلص ، وذلك على نحو أتيح لها فيه - ضمن ظروف محددة أتينا عليها - أن تتحول الى الوضعية الايديولوجية المهيمنة باتجاه المجتمع اليهودي عامة .

كان الواقع ، هذه المرة ، أقوى وأحسم من كل التهويمات الدينية اليهودية ، فظهر (الواقع) على أنه «فضيحة» كبرى ليهوه ، أي لسدنته العظام . لقد ظهر - في هذه المرة - عنيفاً قاسياً ومخيباً للآمال ، حتى لدى أولئك السدنة العظام ، وذلك بسبب من أن الصدمة المهشمة تأتي الآن ليس من داخل اليهودية اليهودية فقط ، وإنما أيضاً من خارجها . فلقد بدا كما لو أنه قد «بُتَّ في الأمر» : على اليهودية اليهودية أن تسقط ، لتفسح الطريق واسعة عريضة أمام الدين الجديد ، الذي أخذ يلوح في الأفق كونياً انسانياً (انسياً) ، يعلن انتهاءه لمن لا يزال ينتظر الخلاص ويطمح الى الانعتاق . وإذن ، ما على أولئك الذين كانوا ، يوماً ، سدنة عظاماً إلا أن يقرروا

بالأمر الواقع ، أو أن يشهروا - على سبيل المكابرة - اسلحة لم تعد ماضية (١) .
فالتمايز - الكبير في بعض مظاهره - الذي ظهر على صعيد اللحظة الدينية
وتجسدها السياسي والاجتماعي والاقتصادي في التيارات اليهودية السابقة الذكر ،
مثل حركة واقعية كثيفة تولدت ونمت في نطاق الإجابة أو الاجابات عن المسائل
الحيوية والمصيرية ، التي طرحها الواقع اليهودي الداخلي المتواطىء والمتداخل ،
قسراً وعبر اقنية متعددة ، بالواقع الخارجي ، واقع الامبراطورية الشائخة والمستنزفة
والمثحفزة . وقد تحول ذلك التمايز في البنية المحددة ، هنا ، الى صراع مسلح
مكتشف بين الأطراف المعنية . وجدير بالانتباه والمتابعة تلك الصيغة التي ظهر فيها
ذلك الصراع . فلقد ظهر بمثابته موقفاً دينياً يتصل باكثر خصوصيات اليهودية
حساسية ، وهي «اليهودية» ، التي تُغيب في ثناياها كل مظاهر الواقع المشخص ،
بالرغم من أن هذا الأخير فرض حضوره فرضاً ، وإن بأشكال مهشمة دعت إلى
الالتفاف عليه وإلى سربلته ثانية باللحظة الدينية .

هكذا نجد أنفسنا على عتبة «العالم الجديد» ، الذي كان عليه أن يقاتل بعنف
لكي تستقيم له الأوضاع . وإذا كان الأمر على هذا النحو ، فما هي التحولات التي
طرأت على «يهوه» وجعلت منه قوة دينية تنصاع لـ «يشوع - يسوع» الجديد ، بل
تكرسه وتدفع به إلى أمام ؟

(١) لنقرأ بعض نصوص «العهد العتيق» ، التي تضعنا أمام مثل هذه الصورة المروعة من خيبات
الامل والشعور بالفجيعة واليأس من الرب «يهوه» ، وكذلك الاحتجاج عليه :
«بعد ذلك فتح أيوب فاه ولعن يومه . وأجاب أيوب وقال . لا كان نهار ولدت فيه ولا ليل
قيل فيه قد حُبلَ برجل» . (الكتاب المقدس - سفر أيوب ٣ / ١-٢) .
«أبحرُ أنا أو تنينٌ حتى تجعل حولي سُداً . . لقد يشست فلا حياة لي الى الأبد . كُفَّ عني
فإنما أيامي نفس» . (نفس المصدر السابق ومعطيائه ١٢/٧ ، ١٦) .

ولقد دعوته فأجابني لما آمنت أنه أصغى الى صوتي . ذلك الذي يسحقني في الزوابع ويشخني
بالجراح لغير علة . . أما قوة القاهر فإنها له وأما القضاء فمن ذا يحاكمه . . إنه يستأصل السليم
والمناق على السواء . . وفي ابتلائه الأزكياء يتلاعب . . انه ليس بانسان مثلي اجاوبه حتى نتفاد
كلانا الى القضاء . . ليرفع عني عصاه ولا ترؤعني مخافته . حينئذ اتكلم ولا ارتاع منه لاني لا
أجد مثل تلك التهم في نفسي» . (نفس المصدر السابق ومعطيائه ١٦/٩ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢٢-٢٣ ،
٣٢-٣٥) .

الفصل السادس

من يهوه إلى يسوع

١

يهوه ، الرب الكامل المنقوص

جاء في جريدة New York Times بتاريخ ٩ أيار ١٩٣١ ، خبر انطوى على أهمية كبرى في تاريخ الأديان عامة ، والدين اليهودي بصورة خاصة . فلقد ورد في الخبر المذكور أن «من بين الآثار التي وجدت في كنعان (عام ١٩٣١) قطع من الخزف من بقايا عصر البرنز (٣٠٠٠ ق.م) عليها اسم اله كنعاني يسمى ياه أو ياهو»^(١) .

لقد ألقى هذا الاكتشاف الضخم ضوءاً ساطعاً على الأصول التاريخية لـ «ياهو» أو «يهوه» أو «يهوى» أو «يهوي» . وإذا كانت تلك الأصول قد استبانَت للباحثين ، في حدودها الاجمالية العامة ، فإن أمراً آخر ظل مستغلقاً ؛ ويبدو أنه سيظل هكذا . ذلك هو طريقة لفظ كلمة «يهوه» .

ولعل أحد الأسباب الكبرى الكامنة وراء تلك الوضعية المستغلقة يتمثل في

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٣٤ .

وعلى صعيد التاريخ المصري ، يحدثنا الراهب دي فو DeVaux في كتاب له بعنوان «تاريخ اسرائيل القديم منذ الأصول حتى الاستقرار في كنعان» . عنوان البحث الأول فيه «ظهور اسم يهوه خارج اسرائيل» لـ «مورتونين» ، والثاني بعنوان «اسم يهوه في نقوش وادي النيل الأعلى» لـ «هيرمن» . ونقش هيرمن هذا يعود الى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر ، أي الى عصر الامبراطورية الحديثة في مصر . وفي هذا النقش يذكر اسم (شاسوسعير) و (شاسو يهوه) . والمنطقة هذه تقابل منطقة المدينيين . ومنطقة (شاسو) في المصرية القديمة تعني (البدو المتنقلين) .

محمد محفل : ندوة التوراة والتراث - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٩٧ .

الصيغة التي اكتسبها ذلك الإله في مرحلته الأخيرة ، أي المقدمة في «العهد العتيق» بصفته نصوص «الدين اليهودي»^(١) . فلقد بلغ ، هنا ، حداً عالياً من التجريد والكونية ، وإن كان قد ظل قائماً - عموماً - في حدود «الشعب المصطفى المختار» ، أي «شعب الرب» . ومن المعتقد أن ذلك حدث في مراحل الشتات البابلي وما بعدها ، حيث اتبحت لليهود امكانيات واحتمالات واسعة للرؤية الكونية ، وللخروج من دائرة القبيلة (السطية) ، والدخول في عالم تجمع بشري عالمي - في حينه - بوضعيات اجتماعية طبقية وحضارية وإتنية جديدة ومتنوعة .

(١) من الكتاب والباحثين من يتحفظ على هذا التعبير ، أي «الدين اليهودي» . وسبب هذا التحفظ يعود ، برأي نذرة اليازجي ، مثلاً ، إلى أنه - أي التعبير - «نسبة إلى اسم هو يهودا بن يعقوب» . وهكذا لا يسمح باشتقاق دين من اسم . فالدين الحقيقي هو اسرائيل ، نسبة إلى ايل - ويعني الله . (نذرة اليازجي : رد على التوراة - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢١) . بيد أن ذلك التحفظ يقوم على أساس غير وارد وغير مقبول من الناحية الذاتية والأخرى التاريخية . فعلى صعيد الأولى ، نجد المؤلف المذكور نفسه يستخدم في كتابه إياه تعبير «المسيحية» نسبة إلى المسيح ، الذي يتحدث عنه - أيضاً - تحت هذا الاسم . فهو يورد عناوين تنحدر من هذه التسمية مباشرة ، مثل «مقدمة لدراسة نشأة المسيحية ص ٢٧» ، و «اليهودية والمسيحية ص ٤٥» ، و «المسيحية بين بولس وبطرس ص ٨٥» ، و «أزمة المسيحية المعاصرة ص ١٩١» . كما يورد كلمة المسيح كاسم علم ، مثلاً على الصفحات ٦٠ و ١٠٦ و ١١١ الخ ..

أما الناحية التاريخية للمسألة فتبرز من خلال تفصي الجذور التاريخية لكلمة «ايل» (وقد كنا أتينا على ذلك تفصيلاً في كتابنا حول بواكير الفكر العربي) . ونكتفي هنا بإيراد بعض الفكر المتعلقة بالمسألة . فلقد كان السومريون والاكاديون يضعون إشارة (ال) إلى جانب تسمية أحد الآلهة لتمييز صفته .. ووفق هذا المنهج ، انطلق إلى تسمية (اله) تحت شعار (ال) لكل مبدأ طبيعي أو حرفة إنسانية ، بحيث أن ما ندعوه اليوم تعدد آلهة لم يكن لديه أكثر من تنوع اختصاص لاله واحد هو (ال) أو (آن) بالسومرية .. وهذا الإله (أي رحمان) كان يأتي اسمه غالباً مسبوقاً بإشارتين لاهوتيتين ، (أل أل) ، أي (الاله) الذي أصبح فيما بعد (الله) بالادغام : وهنا نفترض أن الإشارة الأولى للآلهة كانت أصبحت (أل التعريف) ، التي غدت توضع ، بعد ذلك ، قبل إشارة الآلهة الثانية لتفيد الآلهة المطلقة . (يوسف الحوراني : البنية الذهنية الحضارية في الشرق المتوسطي القديم - دار النهار للنشر ، بيروت ١٩٧٨ ، ص ١٧٣ ، ١٤٧ ، ١٧٧) . وعلى هذا النحو ، أصبح (ايل) كبير الآلهة لدى شعوب الشرق العربي القديم . (انظر كذلك : الدكتور وديع بشور - سومر واكاد ، دمشق ١٩٨١ ، ص ٢٠٦) .

في سياق تلك التحولات والتغيرات ، نلاحظ أن «يهوه» يكتسب مزيداً من القداسة والهيمنة والردعية ، على الأقل حتى سقوطه تحت قبضة «يسوع الرب والاله والنبى» . وقد كان ذلك ، من وجه آخر ، ايغالياً في المحظورات والتحريمات على صعيد العلاقة بينه وبين «شعبه» . من هنا ، نشأت مشكلة كيفية لفظ هذا الاله السالك طريقاً متعاضمة في اتجاه «التعالى» و «المفارقة» ، المفهومين بمعنى الانفلات المضطرد من امكانية ضبطه انسانياً وعقلياً .

ان طريقة لفظ كلمة «يهوه» ما تزال «مجهولة» . وتطلق عليها عبارة Tetragramme أو Tetragrammation ، أي (الكلمة الرباعية) ، وتكتب YHWH دون أحرف علة ، وتكتب أحياناً Jehowah باعتبار أنها الأقرب الى طريقة لفظها المقدرة . يقول (ايزدور ابشتاين) (ان طريقة لفظ الكلمة الرباعية مجهول ، لذلك يجدر بنا أن نترك التسمية الالهية دون أحرف علة) (١) .

أما سبب اندثار طريقة لفظ الكلمة ، فيحاول تفسيره الاستاذ (شاوول ليبرمان Saul Liebermann) استاذ الأدب الفلسطينى وعميد كلية اللاهوت العبرية في امريكا ، اذ يقول «بسبب تفسير غريب للأصحاح ٢٠: ٧ من سفر الخروج : لا تحلف - أو تنطق - باسم الرب الهك باطلاً ، وكذلك الأصحاح ٢٤: ١١ وما يليه من سفر الأحبار : وجُدّف ابن الاسرائيلية على الاسم . . فقادوه الى موسى . . فآلقوه في السجن ، اعتبر الاسم أقدس من أن يلفظ . . وهكذا فقدت طريقة لفظ اسم اله اليهود» (٢) . وحتى اذا أخذنا بالرأى القائل بأن هذا الاسم كان يلفظ مرة واحدة كل عام من قبل الحاخام الأكبر في القدس بمناسبة عيد الغفران ، كما كنا قد

(١) ويكتب محمد محفل في هذا الصدد (ندوة التوراة والتراث - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٩٧) : ان اسم يهوه يرجع لفعل (هَوَّه) . تأني أيضاً (هوا) و (حوا) . ويأتي في النصوص التي وصلت إلينا على شكلين (يهوه) . . و (يه)

(٢) سهيل ديب : التوراة - تاريخها وغاياتها ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٩٤-٩٥ . وجاء ، كذلك ، في سفر الأحبار ٤٤/ ١٦ من الكتاب المقدس مايلي :

«ومن جُدّف على اسم الرب فليقتل قتلاً ترجه كل الجماعة رجماً غريباً كان أو صريحاً إذا جدف على الاسم يقتل» .

أشرنا إلى ذلك من قبل ^(١) ، فإنه لم يكن من شأن ذلك أن يؤدي إلى الحفاظ على لفظ الاسم بسبب الاضطرابات الكثيرة والمتتالية التي اخترقت ومزقت حياة اليهود عمقاً وسطحاً ، والتي كثيراً ما أدت إلى إخراجهم من القدس .

ولابد أن يضاف إلى ذلك أن الكهنوت اليهودي المتزعم كان يحظر تمثيل يهوه أو تجسيده أو تصويره أو تشبيهه ^(٢) ، بحيث كان على المرء أن يصنع لنفسه صورة خاصة عنه تشكل عالمه الخاص إلى جانب كونه عاماً . وهذا ما قاد إلى الشعور بأن المرء اليهودي يملك كل شيء ، ولكن - في نفس الوقت - دون أن يكون مالِكاً لشيء . ولا ريب أن ذلك ولد في الأوساط اليهودية وضعاً من الشعور المضطرب بالخشية والرغبة والهول والهلع إزاء كائن «موجود وغير مرئي» في آن واحد . وقد استطاعت هذه الحالة ، بالذات ، أن تمنح يهوه قدرة «خارقة» على الاستمرار والفاعلية في حياة أولئك ، وأن تجعل منه التاريخ من حيث هو ، كما تجعل من التاريخ يهوه من حيث هو . وهذا ما عبر عنه بوبر في قوله ، الذي أوردهناه في سياق آخر سابق ، وهو أن «التاريخ وحي والوحي تاريخ» ، وأن اليهود ، من ثم ، «أمة تحمل وحيًا عبر تاريخها المقدس» .

إن «يهوه» ، إذن ، هو - في حدّه الأدنى دون حده الأقصى - الإله الذي يمكن أن يُقترَب منه عبر عنصرين اثنين يطلقان ويُتلفظ بهما على سبيل التجوُّز والمقاربة ، ليس إلا . أما هذان العنصران فهما القداسة والتجريد الكوني . فهذان ، اللذان يمثلان صفتين لموضوعهما ومحمولين لحاملهما ، هما - بدورهما - بعيدان عن التوصيف الشخصي . وإطلاق لفظين عليهما ليس إلا من قبيل التعريف السلي . أما السبب في ذلك فيعود إلى أن حاملهما لا يخضع للتعريف والتحديد ، مثله في ذلك مثلها . (وهذا الموقف سوف يطرح لاحقاً على صعيد التفكير الكلامي الإسلامي في نطاق ما سيسمى بالصفات والذات) . وبين أن هذه الوضعية تعبر عن نفسها بمثابتها «فردة مطلقة» ، هذه الفردة التي لا بد وأن تنطوي ، هنا ، على

(١) انظر : غاستون بوتيول وآخرون - الحروب والحضارات ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٧٨ .

(٢) علي أبو عساف : ندوة التوراة والتراث - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١١١ .

التعارض مع كل مالا يدخل فيها ويندرج في حقلها ، بحيث يظهر أنه «الآخر»
عموماً وإطلاقاً ، وأنه - من ثم - النفي لهذا الآخر نفيّاً يقي على وجوده ولكن يجعل
منه موضوعاً يستمد مشروعيته الوجودية (الانطولوجية) والدينية منه .

وإذ نكون قد بلغنا هذه النقطة الدقيقة ، فأننا لابد وأن نستعيد في أذهاننا
التصور الكهنوتي اليهودي ، الذي كنا واجهناه - على قدم وساق - في نطاق
المشكلات الماثي عليها ، وهو معارضة «اليهودي المصطفى المختار» بـ «الغوييم -
الغني» . ان هذا التصور يجد تعبيراً «لاهوتياً» عنه في التعارض السابق الذكر بين
«يهوه» و «الآخر» . وهذا يسمح لنا باستخلاص حصيلة تؤكد ، ثانية ، على فاعلية
المخزون الكهنوتي الغني من التصورات الايديولوجية الوهمية والايهامية . تلك
الحصيلة تكمن في النظر إلى التعارضين المنوه بهما على أنها وجهان لوضعية واحدة .
إضافة إلى ذلك ، نلاحظ أن أحد مظاهر القوة السلطوية (السياسية والدينية
الايديولوجية) ، التي مارسها الكهنوت المتزعم ، تتمثل وتبرز في التوحيد بين ذينك
الموقفين (الاتني والسياسي ، والديني اللاهوتي) .

إن النص التوراتي لا يعدم القدرة على تقديم الشواهد على ما اعتبرناه رفضاً
قطعياً لتوصيف الرب يهوه ، إلا ما اندرج منه في نطاق السلب . من ذلك نقرأ ،
مثلاً ، مايلي :

«انظروا الآن . إنني أنا هو ولا إله معي» ؛ ^(١)

«وسمى بنو رأوبين وبنو جاد المذبح شاهداً لأنه شاهد بيننا ان الرب هو
الله» . ^(٢)

ويعلن ، كذلك - وهنا معقد المسألة - :

«إنه لا نظير لك يارب . . انه بك لا يليق ذلك لأنه بين جميع حكماء الأمم وفي
الممالك بأسرها لا نظير لك» ^(٣) .

إن ما ينبغي أن يقال ، هنا ، أن في المسألة المطروحة وجهين اثنين مبدئيين .

(١) الكتاب المقدس - سفر تثنية الاشتراع ٩/٣٢ .

(٢) الكتاب المقدس - سفر يشوع ٣٤/٢٢ .

(٣) الكتاب المقدس - نبوة إرميا ١٠/٦-٧ .

الأول يتمثل في المصدر البعيد لـ «يهوه» ؛ أما الوجه الآخر فينهض على الشخصية المجردة والكونية ، التي بلغها هذا الأخير في بعده اليهودي . فأن يكون المصدر البعيد لـ «يهوه» كنعانياً ^(١) ، أمر يقودنا إلى عالم الوثنية الكنعانية (الواحدية بمعناها الآخر) ، التي انتجت وأخصبت العشرات من مثل ذلك الرب . ومن ثم ، يغدو من مقتضيات البحث الذي نقوم به أن نتقصى «يهوه» في الحلقة السابقة على صيغته اليهودية (التوراتية) . ففي انجاز هذه المسألة تأكيد على مصداقية القول بالتأثير الكنعاني ، وكذلك مدخل لفهم لواحق التحول المتشعب ، على ما يبدو ، الذي طرأ على الرب إياه ^(٢) .

(١) يعلن أحد سوسه في كتابه (العرب واليهود في التاريخ - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٤) أن يهوه لم يكن - في أصله - إلهاً يهودياً . فاليهود «ليسوا أصحاب حضارة . . وحتى إلههم يهوه لم يكن سوى كبير آلهة القينيين (والقينيون من القبائل العربية التي سكنت أرض مديان) . وكل الوثائق والمكتشفات الأثرية التي بين أيدينا تدعم ذلك» . وهو ، في هذا ، ينسجم مع الوثائق والمكتشفات الأثرية التي يعلن عنها . بيد أنه ، في موضع لاحق من نفس الكتاب (ص ٣٢) ، يكتب مايوحي بأن «يهوه» من «البدع والانحرافات» التي أتى بها اليهود : «وبعد أن انحرف اليهود عن ديانة موسى بعد عهد موسى ، عبدوا الأوثان ، ثم ابتدعوا الآلهة (يهوه) ، عندما دَوّن الكتبُ التوراةُ ، إلهاً خاصاً بهم . . .» .

إن ذلك الموقف المتناقض لعله متأثراً عن غياب التماسك المنهجي على صعيد هذه المسألة ؛ أو عن هيمنة نسق من الأيديولوجيا القذحية في ذهن الكاتب ، التي قد تقود - على يد صاحبها - إلى نتائج يسعى هو نفسه جاهداً إلى تجاوزها ؛ أو ربما كان ذلك متأثراً عن وجود العاملين الاثنين معاً . فاليهود ، الذين يجردهم أحد سوسه من أن يكونوا «أصحاب حضارة» ، يغدون على يده وبمنطوقه الخاص «أصحاب حضارة لاهوتية» .

ذلك موقف ؛ وموقف آخر ، يقترب منه منهجياً ، يتمثل بالتشكيك بقيمة وأهمية الآثار المكتشفة في جقل الأصول اليهودية . هذا الموقف الأخير نلقاه عند اسبيرو جبور في «رده على ندوة التوراة والتراث المنشورة في مجلة المعرفة (دمشق) والتي اقتطفنا منها بعض الشواهد - تاريخ نشر الرد ايلول ١٩٨٤ ، ص ١٩٥ . يكتب جبور مايلي بلغة المؤمن الوثوقي : «أما لفظة (يهوه) فليس من دليل قاطع على وجودها لدى الأمم الأخرى (يعني من غير اليهود) . وليس لمحتواها في الكتاب المقدس أي مثيل» .

(٢) قبل أن يكون يهوه رباً لليهود ، كان - إذن - أحد الأرباب التي سادت في منطقة الشرق العربي القديم . لقد كان «رب المدينيين» . والمدينيون قبائل عربية عاشت إلى الشرق من ساحل البحر =

ان الاكتشاف الأثاري المتمثل بالاله الكنعاني «ياه» أو «ياهو» ، يضع أيدينا على أحد المفاتيح الكبرى والحاسمة لمشكلة المصائر التاريخية والتراثية للأيديولوجيا اليهودية الدينية . فلقد عبد اليهود آلهة كنعانية متعددة وكثيرة ، كان منها يهوه وبعل ^(١) . ولكنهم - في معظمهم وبقيادة الكهنوت اليهودي الأريستوقراطي - استطاعوا ، عبر تبلور وجودهم الاجتماعي والاقتصادي والأيديولوجي (الديني) في كنعان ، أن يحسموا الموقف لصالح يهوه . ولعلنا نذكر ، من أجل احاطة معمقة بهذه المسألة ، بما أطلقنا عليه في موضع سابق من هذا الكتاب «الصراع الطبقي والحضاري» بين ذلك الكهنوت من طرف ، وبين جموع اليهود المندمجين في المجتمع الجديد ، الكنعاني ، والآخرين الذين كانوا في طور الاندماج ، إضافة الى المجتمع الكنعاني نفسه ، من طرف آخر .

= الأحمر وامتد نفوذها في صحراء سيناء حتى غزة ، ويمكن جتى جبال سيناء - إذا اعتبرنا أنها هي جبال الطور - وامتد نفوذها أيضاً إلى مدينة الخليل ، أي إلى أطراف فلسطين الجنوبية وتجاوزها في الشرق المنطقة الصحراوية الى (مواب) وإلى الجنوب منها دولة (ادوم) وجميعها تخضع لتفوذ (المدينين) . ويمكن أن يكون المدينون قد غطوا تلك الرقعة من الأرض التي سيطر عليها (الأنباط) فيما بعد ؛ وهي اطراف بادية الشام الجنوبية طبعاً مع فلسطين باعتبارها تابعة لبلاد الشام . (علي أبو عساف : ندوة التوراة والتراث - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٩٣-٩٤) .

وعلى مستوى آخر للمسألة ، يعلمنا يوسف الخوراني في كتابه «البنية الذهنية الحضارية في الشرق المتوسطي الآسيوي القديم» - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٧٨) أن «بعض الأسماء الصفوية وردت تحمل اشارة (ال) في آخرها بدل التشوين الذي كان يستعمله الجنوبيون ، كالمعنيين والسبثيين . وقد اعتبرها الباحثون اسماء مركبة منسوبة للاله ، حيث كان السبثيون يستخدمون أداة التعريف (ها) كالعبرانيين» . ومن الراجح أن أداة التعريف هذه تفقدنا الى «هوه» أو «ياهو» ومن ثم الى يهوى ، يهوه ، تلك الأداة التعريفية التي تحولت الى الاسم المعروف به ، على سبيل الاختزال والتعميم والتجريد .

١) ول ديورانت : قصة الحضارة - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٣٤٢ . ويعلن باحثون آخرون أن اليهود إذ عبدوا آلهة أخرى إلى جانب يهوه ، فإن هذه الأخيرة كانت متنوعة متعددة ، منها - بصورة خاصة - الكنعاني والمصري . «واكبر مثال على ذلك عبادتهم للاله المصري في سيناء و(الصالح) المصري في سيناء ايضاً» . (محمود عبد الحميد : ندوة التوراة والتراث - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٠٣) .

ان يهوه ، بانطلاقه من البانثيون الالهي الكنعاني - والشرقي عموماً - ، خطا خطوات الى امام باتجاه التجريد والكونية (العمومية) . فهذا العنصران المكتسبان - عبر مدّ وجزر من التحولات الاجتماعية والاقتصادية والتلاقح الديني بالصيغ التي أتينا على ذكرها في مواضع سابقة - وإن لم يبرحا نهائياً النسيج اليهودي الكهنوتي بنيوياً ووظيفياً ، كما سيأتي معنا بعد قليل ، فإنهما أتاحا لـ «يهوه» أن يستوعب شخصية الرب «بعل» وأن يتجاوزها، واصلاً - عبر ذلك - أيضاً إلى أن يتضمن شخصية الإله «ايل» .

لقد جرى حسم هذه العملية المركبة والمديدة - نسبياً - من موقع الهيمنة التي حققها «يهوه» على الالهين الآخرين وعلى غيرهما من الالهة والأرباب ، تلك الهيمنة التي غدت ، مع التحول الاجتماعي والاقتصادي (العقدة الحضارية المنسوبة بها خصوصاً) ، من مستلزمات وجوده الأولى . وإذا نظرنا إليه من هذا الموقف ، ودققنا في بنيته ووظائفه التي افصححت عن نفسها عبر عنصري القداسة والتجريد المذكورين آنفاً ، فإنا نلاحظ أن الأمر قد أصبح محسوماً ، بصورة قطعية ، لصالحه ، وضد بعل وايل كليهما ، وكذلك ضد كل الالهة الأخرى . وجدير بالانتباه البالغ أن الهيمنة المطلقة ليهوه ، في الحقل التوراتي ، مثلت قطيعة معلنة مع تصور «التناقض والخصومة الالهيين» ، الذي كان قد مثل السمة الرئيسية للتجمع الالهي الكنعاني (١) .

لقد كانت تلك القطيعة بمثابة الافصح الديني والسياسي (والاثنوي) عن نشوء الهيمنة للايديولوجيا الكهنوتية الارستوقراطية ضمن الجموع اليهودية . وقد كان من شأن هذا التحول العقيدي أن يجسد ، بالنسبة للكهنوت اليهودي المعني ، نهاية الحياة «الديموقراطية القبلية» غير المستقرة ، وبداية التصدي الصعب والمديد والمخفق في حالات عديدة لمن اندمج من اليهود الأبقين في نسيج «الآخرين» أو حاولوا ذلك ؛ معرضين - بفعلهم «الهرطقي» هذا - سلطة الكهنة الأغلين للتعزيع ، أو للتدخل . وبطبيعة الحال ، فقد كان تحقيق ذلك الأمر الكبير يقتضي إيجاد شكل

(١) انظر مع المقارنة : يوسف الحوراني - البنية الذهنية الحضارية في الشرق المتوسطي الاسيوي القديم ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٣٢٨ - ٣٣١ .

من الاتحاد السياسي والاقتصادي والديني ، الذي وإن تم انجازه ، في حالات معينة ، الا أنه ظل - بصورة دورية مقلقة - مهدداً وغير مكتمل من خلال تحقيق الكثير من اليهود اندماجهم وانصارهم في وسطهم الجديد .

لقد ألغيت ، تحريماً وتحظيراً قطعياً ، عبادة كل الآلهة ماعدي عبادة يهوه ، إله «العالم الجديد - القديم» ، الذي وُحِدَ نسبياً ووقف على رأسه الكهنة العظام . وفي سبيل الاطمئنان الى ذلك ، سُنّت القواعد والتشريعات العديدة ، التي يلجأ إليها في حال «تطبيق الحد» على المنحرفين والمتمردين ، وعلى غيرهم من الخارجين عن الخط الارثوذكسي (المستقيم) . وهذا ما ولد ، بدوره ، صيغة من الحكم التيوقراطي الارهابي ، الذي يجعل من حق السلطة الكهنوتية ان تتدخل «بكامل صلاحياتها المنوطة بها» في عمليات التنظيم (أو القمع) السياسي والايدولوجي والاقتصادي والاجتماعي . أما شرعية ذلك فقد استمدت من كونه حدث بإسم «يهوه» ومن أجل الحفاظ على «وصاياه وشرائعه» . نقول ذلك دون أن نعني أن الوضعية المذكورة نشأت تحت تأثير مجموعة من «المحتالين» و «المستفيدين» و «المخادعين» في إطار الكهنة الاريستوقراطيين الماسكين بزمam السلطة السياسية العليا . فلقد نشأت الوضعية المذكورة ، ومالحق بها من تغيرات على الصعيد الديني ، بفعل آلية التحول النسبي من التجمع القبلي (القبلي) المبعثر الى وجود اجتماعي قام على نوع من الوحدة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . ولكن هذا إذ تم ، فإنه وصل ، في عملية تنفيذه ، إلى درجة أن المتنفذين فيه منحوا هذه الوحدة وجهاً آخر مضخماً على نحو وهمي استطاع ان يكتسب مع الوقت طابعاً واقعياً ايهاياً هو «الوحدة الإلانية» .

من هنا ، كانت السلطة لمن سمي بـ «الانبياء» ولفترة غير قصيرة ، أولئك الانبياء الذين برز منهم ، خصوصاً ، صموئيل . لقد تولدت سلطتهم وتوطدت بفعل تأثيرهم الكبير الذي مارسوه على أوساط الجمهور اليهودي ، بحيث أن «القضاة» ، الذين كانوا زعماء عشائر وقبائل ، وكذلك وفي حالات عديدة ، كهنة ، لم يكونوا دائماً قادرين على الوقوف في وجههم ، أو على التصرف واتخاذ قرارات تخص وضع «شعب الرب» . ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل اكتسب بعداً أكثر حسماً وفاعلية . فالانبياء المعنيون كانوا ، كلما سنحت لهم الظروف ، يحاولون

أن يسيطروا على «الملوك» ، الذين أتت مرحلتهم تنويعاً لتعاضد الدعوة إلى الوحدة بين القضاة وقبائلهم لمجابهة الوجود الفلسطيني القريب والكثيف حضارياً ، على نحو مخصص . وهذا يشير إلى الإقرار بوجود أشكال من التناقض والصدام برزت بين «الملوك» و «الأنبياء» ، الذين كانوا جميعاً يعلنون أنهم يتكلمون باسم الرب يهوه . فهذا الأخير يوحد ، توراتياً وعلى نحو «مطلق» ، بين الجميع الذين لا يمكن توحيدهم ؛ ومن ثم ، يبدو أمامنا مستويان متناقضان متنازعان ، مستوى المطلق ومستوى النسبي . وعبر هذين المستويين كانت الأوهام تتشقق وتبرز وتزول لتحل محلها أوهام أخرى ، ثم أخرى .

هكذا ، نتبين أمامنا وضعية نموذجية ، تتمحور حولها مواقف متعددة ؛ إنها الوضعية اليهودية الكهنوتية ، ومن حولها القضاة والأنبياء والملوك . وقد بلغت هذه الأخيرة من الأهمية ، على الصعيد الاقتصادي ، ما جعل «الأرض من الوجهة النظرية ملكاً ليهوه»^(١) ، أي ملكاً لمثليه وحماته والمنافحين عن وصاياه وتعاليمه وشرائعه ، الكهنة الأعلى . وهذا ، من طرفه ، قدم تسوية دينياً أيديولوجياً في يد أولئك للتحديث باسم يهوه قمعاً وسلباً ونهباً وسطواً ضرائبياً ، ولكن كذلك ضبطاً وتنظيماً وتوحيداً . ومن هنا ، كان على الحاكم أن يظهر ، كذلك ، كاهناً ، أو أن يستند إلى سلطة الكهنة لكي يستطيع أن يقيم سلطته ، مع صعوبة الفصل بين السلطتين^(٢) . . ومن مظاهر الهيمنة الكهنوتية في الوسط اليهودي الصدام الذي دار بين شاول ، أول ملك يهودي ، و «النبي» صموئيل ، المعروف بعنفه وتزمته العقيدي المبدئي . فشاول هذا الذي نُصّب ملكاً ببركة صموئيل ، وجد نفسه لاحقاً تحت قبضته الموجعة ، اعتقاداً من هذا الأخير (صموئيل) أن الملك انحرف عن الخط الأساسي الذي وضعه هو له . وهناك في «العهد العتيق» نصوص تظهر المواقف الحادة ، التي نشأت بين الشخصيتين ، إضافة إلى أنها تظهر إلى أي مدى كان صموئيل مهيمناً على الوضع عامة ، وعلى شاول المهان المُرذل خصوصاً :

(١) انظر : ول ديورانت - قصة الحضارة ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٣٨٠ .

(٢) يكتب جيمس فريزر حول العلاقة بين الآلهة والملوك اليهود العبرانيين الأفكار الهامة التالية : «مهما يكن من أمر فإن في تاريخ الملوك العبرانيين نواحي يمكن تأويلها - دون إرهابها - بأنها بقايا

«وقال صموئيل لشاول أنا الذي ارسلني الرب لأمسحك ملكاً على شعبه على اسرائيل فاسمع الآن قول الرب . هكذا يقول رب الجنود . . فهلسم الآن واضرب عماليق وأبسل جميع ما لهم ولا تعف عنهم بل اقتل الرجال والنساء والصبيان والرضع والبقر والغنم والإبل والحمير . . وعفا شاول والشعب عن أجاج وعن خيار الغنم والبقر وكل سمين والحملان وكل ما كان جيداً . . فكان كلام الرب الى صموئيل قائلاً إني قد ندمت على إقامتي شاول ملكاً لأنه مال أتباعي ولم يُقم كلامي . . فقال شاول لصموئيل قد خَطِئْتُ حيث تعديت أمر الرب وكلامك لأنني خفت من الشعب وسمعت لصوتهم . فاغفر الآن خطيئتي وارجع معي فأسجد للرب . فقال صموئيل لشاول لا ارجع معك لأنك ردلت كلام الرب وقد ردلك الرب عن أن تكون ملكاً على اسرائيل . وتحول صموئيل ليتصرف فأخذ شاول بطرف رداءه فأنشق» (١) .

إن ذلك وإن أظهر السيادة العليا لـ «الأنبياء» أو الكهنة عموماً ، فإنه يظل (أي هذا الموقف) مشروطاً بعلاقة متواترة بين «الملك» و«الكاهن - الاله» . فإذا كان الأمر قد برز في المرحلة الأولى من موقع الكاهن الملك (الحاكم أو القاضي) ، فإنه في المرحلة التالية افصح عن نفسه من موقع الملك الكاهن . وهذا يشير إلى أن «الملوك»

== عصر كانوا هم أو اسلافهم فيه يلعبون دور اله ما ، وعلى الاخص دور ادونيس ، رب البلاد . فكان الملك العبراني يدعي في اثناء حياته (آدوني هاميلخ) أي (سيدي أوربي الملك) وينوحون عليه بعد موته صارخين (هوى آحي ا هوى آدون) أي (وأخواه ا وارباة ا) . . لأنشك في أن عبارات إلامى هذه على موت ملك من ملوك يهودية هي نفس العبارات التي كانت ترددها نساء اورشليم النائحات في مدخل الهيكل الشمالي على موت (تموز) . . ولكن سواء ادعى الملوك العبرانيون بأنهم ادونيس أم لا فانهم ولا ريب انزلوا من الناس منزلة لها صبغة الهية ، كممثلين (ليهوه) على الأرض وكصورة له نوعاً ما . وذلك ان عرش الملك كان يسمى بعرش يهوه ، ومشحه بالزيت المقدس ، كان يفسر بمنحه مباشرة جزءاً من الروح الالهية ، ولهذا كان الملك يلقب بالمسيح . . وقد بقي الاسرائيليون يرون يد الله في تعبيرات أوجه الطبيعة» . (جيمس فريزر : ادونيس أو تموز - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٩ ، ٣١) .

(١) الكتاب المقدس - سفر الملوك الأول ١٥/١-٣ ، ٩-١١ ، ٢٤-٢٧ . انظر حول ذلك أيضاً : جيمس فريزر - ادونيس أو تموز ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٣٠ .

حيث حل عصرهم واستتب بحدود ما ، فقد كان عليهم أن يُظهروا بعض الاستقلالية عن الكهانة المباشرة . وقد وجدوا في ذلك دعماً من جمهور اليهود نفسه ، الذي كان يقف ضد «الأنبياء» . وفي الحالين ، يبقى الكاهن فاعلاً بالمعنى السياسي والديني الوظيفي ، بحيث لم يكن ممكناً أن تنشأ سلطة سياسية بعيداً عن السلطة الدينية . ولذلك كانت القبيلة أو العائلة الكبيرة (العشيرة) من المصادر الأولية الراسخة ، التي استند إليها الملوك في حكمهم :

«وبنوداؤد كانوا كهنة» (١) .

ويهمنا ، في هذا السياق ، ما تولد من أبعاد وآفاق اندماجية في نطاق ما كان ينشأ من تناقض وصدام «الملك الكاهن» من طرف و «الكاهن الملك» من طرف آخر ، فإذا كان العهد العتيق قد أخبرنا أنه قد أبى

«الشعب أن يسمعوا لصوت صموئيل وقالوا كلا بل يملك علينا ملك . ونكون نحن أيضاً كسائر الشعوب فيقضي بيتنا ملكنا» (٢) ،

فإن في ذلك أمراً ذا دلالة كبرى ، حقاً ، فيما يتصل بطموح جمهور اليهود (الشعب) للانعتاق من ربقة السلطة الارستوقراطية اليهودية المغلقة . ان الطموح الى العيش «كسائر الشعوب» كان بمثابة الحكم التاريخي على قصور يهو وتخلفه عن مسامرة التحول البنيوي والوظيفي الذي طرأ على نمط الوجود الاجتماعي لليهود العبرانيين ، مما مهد الطريق واسعة للخطو باتجاه «المخلص الجديد» ، الذي سيعيش مع الناس الحالمين بالخلاص ويدخل الى القدس «راكباً على جحش» ، ضارباً بذلك ، بعمق ، يهو المتعالي والمفارق ، بمعنى أساسي .

لقد حوّل جموع اليهود العبرانيين على أيدي الكهنة (وصموئيل اكبرهم على هذا الصعيد) الى ما سيسميه لاحقاً Heinrich Heine «الشبح الشعب» (٣) ، الذي كان عليه ان يعيش «ليس كسائر الشعوب» ، بل كما تقتضي الايديولوجيا الكهنوتية

(١) الكتاب المقدس - سفر الملوك الثاني ١٨/٨ .

(٢) الكتاب المقدس - سفر الملوك الأول ١٩-٢٠/٨ .

(٣) انظر كتابه الذي سبق أن استشهدنا به : Zur Geschichte der Religion und Philosophie in Deutschland - a.a.O., S.84

الرذعية . وهذا ما عنى العيش في حالة من الرعب الدائم ، والوهم الدائم ،
والحقد الدائم الخ . . . تحت رعاية ، أو لنقل وطأة «رب» لا يهدأ له بال مالم
يكتسح العالم ، ويضعه تحت قدميه .

على ذلك النحو ، نلاحظ أن يهوه البعيد في أصوله ، أي الكنعاني ، يُحول
إلى يهوه يهودي يهوي ، أي كهنوتي ، وُضع أمام مطلب تلبية احتياجات الأوضاع
المستجدة وتحولاتها ، تلك الاحتياجات التي تمثلت بتحويل التناقض والصدام بين
تجمعات بشرية وما يوازئها من «تجمعات إلهية» ، إلى تناقض وصدام بين أطراف
تلك التجمعات البشرية لصالح إله واحد ، وبقيادته . وإذا استقر الوضع في هذا
الاتجاه النموذجي والمفصّل عنه توراتياً ، فإن الكهنوت اليهودي ذاك (القيادي) ،
ممثلاً بـ «القضاة» أو بـ «الأنبياء» أو - إلى حد ما - بـ «الملوك» ، يغدو سيد الموقف
والشرف عليه من علو ، وكذلك عن قرب ، يستثمر نتائجه ويقودها باتجاهات
جديدة ، تصب في مصبه الذي هو يريد ^(١) .

(١) يوسف الحوراني يلامس هذه الفكرة بكثير من الدقة ، ولكن مع إغفال دلالاتها الكهنوتية
والاجتماعية المشخصة . ولعلنا نقول ، ان المسألة المذكورة إذا وضعت في نصائها التاريخي
المشخص ، استبانت بصفتها موقف الكهنوت اليهودي السياسي أولاً بأول . ومن ثم ، فظهور
التناقض والصراع على المستوى البشري - دون الإلهي - ولكن بقيادته بمعنى ما أساسي ، كان
تجسداً للوظيفة الجديدة التي اكتسبها الموقف الكهنوتي المعني . (انظر : يوسف حوراني - البنية
الذهنية الحضارية في الشرق المتوسطي الآسيوي القديم ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص
٣٢٨) .

ولما كان ذلك الموقف التاريخي من التحول اليهودي المعني هنا بعيداً عن الاحاطة بما اعتبرناه
دلالات كهنوتية واجتماعية مشخصة له ، فقد نجد أنفسنا ، ثانية ، أمام شاهد آخر يتعين علينا ألا
نقبل به على عواهنه ، وإنما ضمن التحفظ الذي أبديناه ازاء الشاهد الأول .

يكتب ول ديورانت ما يقود إلى ذلك النمط من التاريخ للتحول اليهودي : «ويبدو أن اليهود
الفاتحين عمدوا إلى أحد آلهة كنعان فصاغوه في الصورة التي كانوا هم عليها ، وجعلوا منه الهاً
صارماً ، ذل نزعة حربية ، صعب المراس» . (ول ديورانت : قصة الحضارة - نفس المعطيات
المقدمة سابقاً ، ص ٣٣٩ - ٣٤١) . بيد أننا نقرأ في نفس الموضع ما يمكن أن يضيء تلك
الدلالات : «ويلوح أنه كان في بداية الأمر إلهاً للرعْد يسكن الجبال . . . وحول كاثبوا سفار موسى
الخمسة ، وهم الذين كانوا يتخذون الدين أداة للسياسة ، إله الرعد هذا إلى إله للحرب» .

في هذا السياق المتشعب من معالجة الموقف ، تبرز نقطة ذات اعتبار منهجي ؛ تلك هي أنه بسيادة يهوه المطلق والمجرد توراتياً ، يسود في الأوساط اليهودية الايديولوجية العليا تصور عن التاريخ مطابق - في الخلفية البعيدة - بنيوياً ووظيفياً - للموقف المتوخى من «يهوه» والمستهدف من عملية تهويده . ان التاريخ ، بحسب ذلك - يمثل حصيلة فعل الهي ينطلق من الاله الواحد والوحيد ، ويجسد - من ثم - موقفاً غائياً قدرتياً ذا أصول قبلية قاهرة . ضمن هذا الاطار ، يغدو الوجود الانساني متقاطباً مع الوجود اليهودي ضمن خطين متوازيين لا يلتقيان ؛ وهذا من شأنه أن يولد وعياً كثيفاً ومديداً بمأساة القطيعة بين الوجوديين . فيهوه هو الرابض أبداً في عليائه وكبريائه ، يوحى لشعبه «المصطفى المختار» بأن يوماً ما من الخلاص سوف يأتي (الخلاص ثمن 19) . ولما كانت عملية التوتر قائمة ومتصاعدة بشكل مضطرب بين الكهنوت ، بضروراته المنطلقة من مبدأ الحفاظ على «نقاء ووحدة المختارين المصطفين» من طرف ، وبين نزوع هؤلاء للاندماج بـ «الاغيار الاعداء» من طرف آخر ، فإن مأساوية تلك العلاقة بين الوجوديين (اليهودي والانساني) تكتسب طابع الفجيعة الدائمة ، والإشكالية المتأصلة ، وخيبة الأمل المأزومة المزمنة .

وإذا ما أضفنا إلى ذلك أن «المستقبل» في التصور الكهنوتي المعني ، وإن جسد ما يوحد بأنه الفعل التاريخي اليهودي ، إلا أنه يبقى ، بالرغم من ذلك أو لنقل بفضل ذلك (بفضل يهوه الرابض علوياً مفارقاً) ، بناءً شامخاً في السراب . ذلك لأنه (أي يهوه) ، بما هو الرب الشامخ الأعظم والذي لا شريك له ، امتص - في شخصه - واستوعب الواقع في تشخصه أولاً ، وفي تناقضاته وصداماته وإشكالياته ثانياً . لقد استوعب ودفن ، في ذاته الربانية المتعالية والمفارقة ، التاريخ المشخص في امتداده (وعمهقه) التراثي ، ليغدو هو نفسه التاريخ ، أي التاريخ الالهي . لقد انتزع التاريخ ، في امتداده (وعمهقه) التراثي ، من ذاته ، ليلحق ، قسراً وإقحاماً ، في ذات ربانية متمنعة على أن تكون - بتواضع - لحظة من لحظات التاريخ أو سياقاً من أسبقته . وهذا ما يشير إلى أن التاريخ اليهودي يغدو هو نفسه «كشفاً عن ارادة الله الدينامية»^(١) . ومن ثم ، فإن «مصادقية» هذا

(١) هـ. فرانكفورت وآخرون : ما قبل الفلسفة - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٧١ .

التاريخ يُصَادَر عليها ، من البدء ومنذ البدء ، بمثابتها مصداقيةً تتلخص بامتثال السابق واللاحق (والراهن بينهما) لإرادة يهوه ، التي هي كل شيء وفوق كل شيء . وبين أن ما يقال هنا ويُطلق ، يصح بالنسبة الى الماضي والحاضر والمستقبل ؛ ذلك لأن هذه ، جميعاً ومجتمعةً، تمثل جُماع الموقف اليهودي الشمولي والمطلق .

ان الزمان اليهودي اليهودي هو زمان المستقبل الدائم ، أي المَدَوْم ، هكذا على عواهنه . وهذا الأخير ليس فيه من المقومات الذاتية ما يجعله يتحول ، يوماً ما ، إلى «حاضر» . لأن ذلك إن حدث ، فسوف يكون خاتمة المطاف ونهاية الأفاق اليهودية اليهودية . وهذا ، بدوره ، من شأنه أن يكون بمثابة إعلان عن «نهاية الأحزان» ، وعن «بداية السعادة القصوى» ، تلك السعادة التي تغدو ، أكثر فأكثر وأعمق فأعمق ، مُتَشَبِّهاً بها ؛ ولكن يمكن ، أيضاً ، أن يكون من شأنه أن يجسد «الكارثة العظمى النهائية» ، التي استدعو «المختارين المصطفين» إلى أن يخرجوا من دائرة الأزمة المستديرة والمزمنة ، والتي تمثل عملية التقاطب المتواتر والمتوتر بين يهوه وشعبه . ان ذلك - في احتماليه الاثنين - إن حدث ، فسوف ينهي المشكلة كلها؛ وتزول ، من ثم ، «الاسطورة - والوهم» .

هكذا ، تبرز اللحظة السياسية الكثيفة كثافة الواقع اليهودي المأساوي المتجهم ، والذي تحكمه وتخرقه مأساوية المنبوذين المقهورين من جمهور اليهود من طرف وطغيان الكهنوت اليهودي المهيمن من طرف آخر . وعلى هذه الحال المغلق الأفاق والمستنفدها توراتياً يهويًا ، يتجمد الزمن ، ويتمحور حول بعد كوني (وهمي) واحد أحد ، هو الرب النكرة والمعرفة ، والمنكر والمعرف ، في آن . وهذا الأخير ، من حيث هو كذلك ، يظل ينظر إليه ويرمق بمثابته القريب والبعيد ، الكلي والجزئي ، الحاكم فوق وتحت ، المالك لكل شيء ، والذي ليس كمثله شيء . إنه - والأمر كما هو بين - احتضان ذهني (ايدولوجي) كاذب ، بالمعنى الانطولوجي والمنطقي ، للمعنى الشخصي ، الذي يفوح بؤساً وعنفاً وخذلاناً ، وكذلك نشوة وتآلقاً ومُلكاً .

من هنا ووفق المنظور الذي يغيب الشخص بالمجرد والواقع بالوهم ، يغدو من العبث أن نتحدث عن فعل تاريخي ما في الفكر اليهودي اليهودي ، بما يقتضيه

هذا الفعل من تأكيد على التناقض والخصومة أو الصراع بين أطرافه أو طرفيه أولاً ، وعلى النحو التصاعدي أو الدائري لمجراه ثانياً . لقد حقق «يهوه» اليهودي ، حقاً ، خطوة كبرى على طريق التجريد والتعالي والمفارقة ، والكونية (الى حد ما سنأتي على ايضاحه بعد قليل) . بيد ان ذلك حدث على حساب تاريخيته (وتراثيته) ، التي أطيح بها باصرار واحتقار وقسوة ، تلك التاريخية (والتراثية) التي كانت أحد أوجهه الحاسمة في نطاق الترسانة الدينية الكنعانية ، وإن كان ذلك من موقع تاريخية تقوم على تصور التقدم الدائري الدوري .

إن يهوه الكنعاني هو أحد أشكال الموجودات الالهية الضالعة ، حتى العمق ، في تناقض وخصومة وصدام بين بعضها بعضاً (مع الملاحظة بأن هذا الصدام كان محكوماً بآلية الترميم وليس التغيير الجذري ، أي بأفاق المجتمع المشاعي القروي) ، بحيث أن اتجاهات وتائر هذه العملية كانت تتحدد بتحول وتغير دائريين ودورين . فهنا ، تمثل أمامنا حركة تاريخية مشخصة ومترعة بالحياة وبدينك البعدين ، الدائري والدوري . ويين ان هذه الوضعية الذهنية لم يكن تولدها ممكناً ، بعيداً عن الوضعية الاقتصادية الزراعية ، حيث تعاقب الفصول وتآلفها وتضادها وجماعها . والطبيعي الجدير بالتنويه في المسألة أن تلك الصورة الضحلة المدقعة لـ «يهوه» اليهودي كانت متطابقة مع العلاقات الاجتماعية والاقتصادية القائمة على الرعي والتجوال وبعض النشاطات الزراعية البسيطة أولاً والتي نمت وتطورت في إطار نمو وتطور كثير أو قليل من مظاهر ونتائج عملية الاندماج بشعوب المنطقة ، والشعب الكنعاني منها بصورة خاصة . وهذا ، في ذاته ، يتضمن الاجابة على السؤال التالي أو إحدى الاجابات الأساسية عليه : لِمَ برزت كونية يهوه بقطر ناقص مجتزأ ، لِمَ ظل الرب يهوه ، على الأقل حتى النفي البابلي والشتات ، رب اليهود العبرانيين ، أي «شعبه المختار المصطفى» ؟

ان مرحلة الانتقال من البداوة الجؤالة المؤرقة إلى العلاقات الزراعية المستقرة ، بدرجة أو بأخرى ، تلك المرحلة التي استمرت طويلاً في حياة أولئك واقتضت الكثير من العنف والخصومات والصدامات ، هي التي كانت - إلى جانب غيرها من العوامل ربما الأقل أهمية - من وراء الإبقاء على يهوه رباً لليهود

العبرانيين ، المنخرطين في حركة واسعة من التجنّد والقتال ضد «الغير» ، بالدرجة الأولى . ولنقل بصيغة أخرى ومن موقع زاوية أخرى للمسألة المعنية ، ان النزعة الانسانية قُمعت إلى حدود كبيرة ملحوظة في الأوساط الايديولوجية المهيمنة ، وذلك - على الأقل - تحت تأثير «عقدة الحضارة» ، التي كنا قد أفضنا الحديث عنها سابقاً . ولكن «النفى» و«الشتات» فتحا عَصراً جديداً من عملية الإيغال عمقاً في مزيد من التجريد والتعالي والمفارقة ، وكذلك الكونية ؛ إنّما دون أن تتاح له الامكانيات لقطع جذوره الكنعانية البعيدة ، ودون أن ينفي وجود آلهة أخرى إلى جانبه ، خصوصاً ما أتى منها مع عملية الاندماج الى حد أو آخر ^(١) .

ان ذلك يلزمنا بالنظر إلى التحول الذي لحق بيهوه اليهودي الكهنوتي على أنه مرّ بثلاث مراحل رئيسية كبرى من تاريخه . المرحلة الأولى تمثلت في اعتباره إلهاً ضمن آلهة أخرى متعددة ، أخذت بها القبائل اليهودية العبرانية . وقد نستطيع تحديد الحقبة الزمنية لهذه المرحلة بتلك التي تم فيها دخولهم إلى فلسطين وتبنيهم يهوه عن الشعب الكنعاني . أما المرحلة الثانية فقد تفوّقت بتحول يهوه الى اله مهيمن لليهود ، ولكن ليس بصفته وحيداً . وقد برز ذلك ، خصوصاً ، في أثناء مراحل التوحيد السياسي ، الذي كان يظهر بين الحين والآخر مع تعاظم الضغوط الخارجية المنبعثة من مواقع تأثير حضاري (زراعي ثقافي) أو أعمال عسكرية ؛ كما كان قد ظهر في فترتي الحكم الملكي لداود وسليمان . أخيراً تتلو المرحلة الثالثة ؛ وهي تلك التي خرج فيها «يهوه» ، نظرياً ، عن الطوق اليهودي الكهنوتي ، ليغدو - في نظر اليهود غير المندمجين والكهنوت الأعلى - رب الأرباب ورب الجميع .

وهنا يلاحظ أن عملية الاندماج بشعوب الشرق ، وفي بابل خصوصاً ، اتسعت واغتننت ، بحيث قاد ذلك الى الاعتقاد والاقرار الواقعي بأن هنالك اكواناً

(١) «لم يكن جميع اليهود ، اللهم الا أعظمهم علماً ، يعدون تموز الها حقاً فحسب ، بل ان عبادته فضلاً عن هذا كانت في وقت من الأوقات منتشرة في بلاد اليهود حتى لقد شكّا حزقيال من أن البكاء حزناً على تموز كان يسمع في الهيكل . لقد كان ما بين اليهود من فوارق وما كان لهم من استقلال كافيين لأن تبقى لطوائفهم آلهتهم الخاصة» . (ول ديورانت : قصة الحضارة - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٣٤٣) . ويمكننا أن نضيف إلى ذلك أن المعنيين كانوا أخذوا بعبادة آلهة أخرى ، مثل الصل المصري ، وادونيس وبعل الكنعانيين (وقد أتينا على ذلك في حينه) .

أخرى غير «الكون اليهودي» ، و «شعوباً» أخرى «غير» الشعب اليهودي . ومن ثم ، فقد كان من شأن ذلك أن وسع الأفق الديني اليهودي اليهوي على أصعدة ثلاثة رئيسية ، هي البنية والوظيفة والشمول الجغرافي البشري . ورغم ذلك ، يبقى التحفظ قائماً على القول بوجود «واحدة كاملة ليهوه» ، وذلك بسبب من أن الواحدة اليهودية هذه ظلت ، بصورة أو بأخرى وبهذه الدرجة أو بتلك ، مختلقة من قبل آلهة أخرى طارئة كثيراً أو قليلاً .

على صعيد هذه المرحلة الأخيرة ، الثالثة ، من التحول اليهوي ، نقرأ ما يلي من نصوص «العهد العتيق» :

«هَلِّلُويا»^(١) . سبِّحوا يا عبيد الرب سبِّحوا لاسم الرب . ليكن اسم الرب مباركاً من الآن وإلى الأبد . من مشرق الشمس إلى مغربها اسم الرب مسبِّح . الرب متعال على كل الأمم وفوق السماوات مجده»^(٢) .
«يا إله الآباء يارب الرحمة يا صانع الجميع برحمتك . وفاطر الإنسان بحكمتك لكي يسود على الخلائق التي كونتها . ويسوس العالم بالقداسة والبر ويجري الحكم باستقامة النفس»^(٣) .

ولابد من القول إن يهوه ، في هذه المرحلة ، يكاد أن يكون قد أحدث قطعة تامة مع النزعة الطبيعية ، التي خضع لها في مرحلتيه السابقتين^(٤) .

(١) وتكتب أيضاً : هَلِّلُوجاه ، إضافة إلى طرق أخرى لكتابتها (انظر : علي فهمي خشيم - هَلِّلُوجاه ضمن مجلة : الثقافة العربية ، طرابلس ليبيا ، تموز ١٩٨٢ ، ص ٥٥) .

(٢) الكتاب المقدس - سفر المزامير ١١٢ / ١-٤ .

(٣) الكتاب المقدس - سفر الحكمة ٩ / ٣ .

(٤) إن ما يكتبه Arthur Drews ، فيما يلي ، حول تصور الآلهة في اليهودية ، يصبح على وجه العموم على المرحلة الثالثة من تحول يهوه اليهودي (نعني بذلك أنه في ما قبل هذه المرحلة ساد الأفق الحسي المباشر ، في حين أن التجريد من المعطيات الأساسية للمرحلة الثالثة هذه) : «لقد وجد في العصر القديم دين واحد وقف بقوة ضد النزعة الطبيعية Naturallismus وسار بوعي باتجاه تصور عقلي محض للآلهة ؛ وكان ذلك اليهودية» . Arthur Drews: Geschichte des Monismus im

Altertum- Heidelberg 1913, Karl Winters Universitätsbuch handlung, S.353).

= ويمكن أن يدخل في دائرة هذا الفهم للمسألة ما ينقله نذرة اليازجي عن كتاب The secret Doctrine

وتجدر الملاحظة ، في هذا الإطار من المسألة ، بأن المراحل الثلاث من تاريخ التصور الالهي اليهودي اخترقت ، هي بدورها ، من قبل مراحل ثلاث أخرى من نمط آخر . فلقد اكتشف الباحثون - وهذا ما أتينا عليه في سياق آخر - على مدى عدة مراحل تاريخية وجود أربعة مصادر للتوراة ، شكلت ما نعرفه تحت اسم «التوراة - هاتوراه» ؛ تلك هي التالية : الرواية اليهودية ، والرواية الإيلوهيمية ، والرواية الكهنوتية ، وسفر التثنية . وضروري أن يذكر أن الرواية الأولى (اليهودية) كانت ، من حيث الترتيب التاريخي الزمني ، الأولى من بين تلك . فلقد تم تحرير نصها ربما في القرن العاشر أو القرن التاسع قبل الميلاد ؛ مما يضعنا ، ثانية ، أمام الأمر التالي ، وهو أن اليهود أخذوا بيهوه الكنعاني في المراحل الأولى من دخولهم إلى فلسطين ، وكان ذلك تعبيراً أساسياً أول على قدرة الكنعانيين على فرض شخصيتهم الحضارية (الزراعية والدينية) عليهم .

أما الرواية الثانية ، وهي الإيلوهيمية ، فقد حُرر نصها بعد النص الكهنوتي بزمان قليل . وأصبحت التوراة ، من ثم وفي سفر تكوينها ، تضم نصين لاهوتين جنباً إلى جنب . ولعل ذلك يظهر بمثابة أمراً مدهشاً ، ومثيراً للشك أو التساؤل . إذ كيف يجري التغاضي عن إدخال نصين اثنين في كتاب واحد يُنظر إليه - ضمن اعتبارات «قداسته وفرادته» بين من يأخذون به - على أنه موحد ؟

لقد أظهرت الدراسات الأثرية والتاريخية أن عنصر التناقض وعدم الاتساق

من أن كلمة «يهوه» تمثل - مع كلمات «السابع» و«زحل» و«إبراهيم» - رمزاً واحداً لشيء واحد . وعلى ذلك ، فإن يهوه يظهر ، هنا ، بمثابة وجهاً من أوجه الآلهة الطبيعية ، التي كان عالم الشرق القديم عامراً بها . (انظر : ندرة اليازجي - رد على التوراة - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٥٠) .

بيد أن المسألة لا تتصل بـ «يهوه» فقط . ذلك لأن النزعة الطبيعية الحسية المباشرة فرضت نفسها في التصورات الدينية اليهودية قبل تبنيهم يهوه وحسمهم الموقف لصالحه . فلقد كانوا «في ظهورهم على مسرح التاريخ بدواً رحلاً يخافون شياطين الهواء ، ويعبدون الصخور والماشية والضأن وأرواح الكهوف والجبال . ولم يتخلوا قط عن عبادة السجل والكيش والحمل . . وظلوا زمناً طويلاً يتخلون هذا الحيوان القوي آكل العشب رمزاً لإلههم» . (ول ديورانت : قصة الحضارة ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٣٣٨) .

ليس بعيداً عن نصوص «العهد العتيق» عامة وخاصة ، بل هو ما يطبع هذه النصوص بطابعه البارز ؛ أو لعل وجوده في هذه النصوص هو ما يجسد الوضعية النموذجية المهيمنة ضمن وضعيات أخرى ثانوية تتسم بالاتساق والتوازن . نستطيع أن نشين مصداقية ذلك ، على الأقل ، حينما نضع باعتبارنا أن اليهود لجأوا إلى كتابة تصوراتهم ، سواء أكانت صادرة عنهم أو عن الآخرين ، في القرن الحادي عشر قبل الميلاد ؛ وانتهوا إلى تثبيت نصهم النهائي للعهد العتيق بين القرنين التاسع والعاشر الميلاديين ^(١) ، بحيث استحوذ الأمر - كما هو واضح - على مرحلة تاريخية مديدة ، تصل إلى عشرين قرناً من الزمن .

بيد أننا وإن أقررنا بالتناقض ، الصريح الفاضح أحياناً ، بثابته عنصراً بيناً فعالاً وفاعلاً في نصوص «العهد» ، إلا أننا - على صعيد الحديث عن الروايتين اليهودية والايلاهيمية ، بالذات ، نكاد نواجه حالة أخرى مخالفة ومتميزة . ان ما نعينه بذلك يتصل ، أولاً ومن حيث الأساس ، بالتسميتين أو باللفظتين المستخدمتين في الروايتين المذكورتين . فـ «يهوه» و «ايلاهيم» ، في اصولهما البعيدة ، ليسا غريبين عن بعضهما بعضاً ؛ وهما ، ثانياً ، يمتحان في بنيتها الدينية الايديولوجية واللغوية ، من مصدر واحد أساسي .

لايضاح ذلك ، ننطلق من جذر الموقف (الكلمة) ، الذي يبرز في شخصية الاله «إيل» ، تلك الشخصية التي نواجهها في نصوص كنعانية ، تعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد . والطريف أن «العهد العتيق» يورد اسم هذا الاله بلفظه إياه (وسنأتي على دلالة ذلك فيما بعد) . وقد عبرت تلك الكلمة (إيل) عن الأصل والمبدأ والعلة . وهذا ما وضع ، بصور ملحمة ممتعة ، في ملحمة «البعل» - من الألف الثاني قبل الميلاد - حيث يوصف (إيل) بأنه «م ل ك ، أب ، ش ن م» ، أي الملك أبو السنين . كما ترد تسمية (إيل) ، في النص المذكور ، في حالة الجمع ، وذلك تحت اسم «ايلاهيم» ^(٢) .

(١) انظر في ذلك : موريس بوكاي - دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٨-٢٥ ؛ وكذلك بيير روسي : مدينة ايزيس التاريخ الحقيقي للعرب - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٢ .

(٢) انظر في ذلك : علي فهمي خشيم - هملوجاه ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٥٥ .

نضيف الى ذلك ما قد تكون له أهمية خاصة على صعيد المسألة التي نحن بصدددها . إن كلمة «هللوياء» ، التي ترد في العهد العتيق مراراً ، لعلها تقدم مدخلاً مناسباً ومقبولاً الى مسألتنا المعنية . فلقد رأى مؤلفو قاموس اكسفورد فيها معنى أولياً ، هو «المجد ليهوه» . كما يقدمونها مكتوبة بخمس صور ، هي التالية :

بالانجليزية Hallel Vifah, Hallelulah

بالعبرية Halleluyah

باليونانية Alleluia, Allelouia

وتختصر في الرسم بالعربية بثلاث صور ، هي «هللوجاه» ، و «اللوجاه» و «اللوياء» . ولعلها ، كذلك ، تأخذ صورتين أخريين ، هما «آليلسويه» و «هاليلويه» ، بحسب ما يكتبها باحثون آخرون ^(١) . فإذا ما حللنا الكلمة هذه ، وجدنا أن «ها» تمثل أداة التعريف لدى العرب الشماليين ولدى اليهود العبريين ، كما أشرنا الى ذلك في حينه ، بينما نجد أن «ال» أو «ايل» أو «أل» تعيدنا الى جذور ايلوهيم ، التي هي «ايل» ، بحيث يبرز «ايلوهيم» جمعاً لـ «ايل» . أما «اوياء» أو «يوا» أو «ياه» ، فهي صيغة تكونت منها صيغة «يهوه» أو «ياهو» أو «ياهو» ^(٢) .

نضيف إلى ذلك ما كنا قد أوردناه بصيغة شاهد عن ول ديورانت ، وهو أنه

(١) انظر في ذلك : محمد محفل - ندوة التوراة والتراث ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٩٨ .

(٢) جدير بالذكر ، هنا ، أن علي فهمي خشيم (هللوجاه - نفس المعطيات المقدمة سابقاً) يرجع كلمة «هللوياء» الى أصول لغوية ليبية - عربية ، مفنداً أن تكون أصولها عبرية أو يونانية . وإذا كان لنا أن نناقش هذا الرأي ، فإننا نقول بأن أصلها لا يمكن أن يكون يونانياً . فهي تنحدر ، في جذورها الأصلي ، من اهل الكنعانية والبابلية . أما أن يُرفض أن يكون أصلها عبرياً ، فإن ذلك يثير التباساً . فالمعارضة والتعارض بين العبرية والعربية أمر لا معنى له ، في هذا السياق . فلقد أصبح معروفاً أن العبرية هي احد مظاهر وامتدادات الآرامية - العربية ، ومن ثم ، تصبح العبرية واحدة من الأقنية المتعددة ، التي تقود الى العربية . وحالئذ ، يصح النظر الى «هللوجاه» على أنها برزت واشتهرت في العبرية تخصيصاً ، وإن كانت تعود الى مراحل أقدم في التاريخ اللغوي العربي بمعناه العام . وقد رأينا هذه المراحل ممثلة بالفينيقية والبابلية .

وجد في بلاد كنعان في الألف الثالث قبل الميلاد إله يسمى «ياه» أو «ياهو» ، مع الإشارة الهامة جداً إلى أن هذا الإله ، الذي لعله ظهر أيضاً باسم «ياو» ، أي (ي و) Yw ، اعتبر ابناً لـ «إيل» . وهناك وجه تاريخي آخر للمسألة يتمثل في أنه اكتشف ضمن نصوص بابلية معاصرة لخمورابي اسم «ياو» ، و«ن «الياهو» كانت تعتبر نسقاً من الصفات الإلهية (١) . إن هذه العناصر الهامة من المسألة المطروحة تسمح لنا أن نعتبر يهوه ابناً لإيل وصفة له ، في نفس الحين . وهذا من شأنه أن يدحض القول بوجود اختلاف بين يهوه وإيلوهيم ، من حيث المصدر التاريخي (٢) .

ولعلنا نتقل بالمسألة كلها إلى مستوى آخر من الطرح ، حيث نواجه في

(١) انظر : قاسم الشواف - مع الكلمة العاصية ، دراسة فلسطينية ، منشورات دار الأحيال ، دمشق ١٩٦٩ ، ص ٢٤٣ .

(٢) بعض الباحثين يرون أن الروايتين ، اليهودية والإيلوهيمية في التوراة ، تشكلان تيارين متعارضين ، من حيث البعد السياسي الأيديولوجي ، وربما كذلك من حيث المصدر التاريخي . فقاسم الشواف يرى (انظر : المرجع السابق ومعطياته ، ٣٢٨) أن «التيار الإيلوهيمي هو كنعاني الأصل . وقد اصطلم بالتيار اليهودي منذ موسى ، ولم يتمكن التيار اليهودي من اقتلاعه ، بدلالة بقاء آثاره في التوراة حتى زمن متأخر ، أي إلى زمن كتابة التوراة ذاتها . والتيار الإيلوهيمي كان تياراً دينياً صرفاً على الأرجح . أما التيار اليهودي فقد كان عنصرياً وسياسياً واستيلانياً . ويلتقي هذا الرأي مع مجمل ما قدمه الاستاذ الفرد المر في كتابه ، إيل يهوه ويسوع» .

وكما هو ملاحظ من الشاهد ، فقد وقع الكاتب في تناقض بين رأيه ، هنا ، من طرف ، وبين رأيه الذي أوردناه في الشاهد السابق من طرف آخر . هذا ما يتصل بالأصول التاريخية ليهوه وإيلوهيم . أما ما يتعلق بالتمييز بين هذين الأخيرين ، من موقع الوظيفة السياسية والدينية في السياق التوراتي ، فلعل هنالك من عناصر الصحة التاريخية ما يشفع لرأي الشواف ويدعمه . وقد أورد أحمد سوسة في كتابه (العرب واليهود في التاريخ - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٨٨) ذينك الرأيين للشواف في صيغة الموافقة عليهما ، وهذا ما لا يمكن الأخذ به ، على الأقل انطلاقاً مما بحثناه في إطار الأصول التاريخية الكنعانية ليهوه . كذلك لدى باحثين آخرين ، نقرأ ما قد يوحى بوجود تيارين اثنين متعارضين على صعيد «النصوص المقدسة» ، وهما «الإيلوهيمي» ، نسبة إلى إيل ، و«اليهودي» ، نسبة إلى يهوه . من هؤلاء الباحثين نشير ، مثلاً ، إلى أحمد محفل في (ندوة التوراة والتراث - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٩٨) .

مصادر تاريخية اسلامية ما يلقي ضوءاً كاشفاً على العلاقة بين «إيل» و«يهوه» . ففي كتاب «اصلاح المنطق» لابن السكيت ، نقرأ ما يمكن أن يضع أيدينا على أمر بالغ الأهمية التاريخية والدينية واللغوية بالنسبة إلى ما نحن بصددده . فالمؤلف الاسلامي المذكور (وقد عاش في المرحلة ما بين ١٨٦ - ٢٤٤هـ) . ينقل بيتاً شعرياً عن «الراجز» ^(١) ، يقول فيه «مَهْرَ أَبِي الحِجَابِ لَا تُشْلِي بَارِكُ فَيْكَ اللَّهُ مِنْ ذِي آلٍ» ^(٢) . ويشرح ابن السكيت ما أتى في هذا البيت من الفاظ ، ومن ذلك لفظ «آل» ، فيقول في هذا : «وهو فرس مثْلٌ ، أي سريعٌ . والآلُ : العهدُ والذِمةُ» ^(٣) . وينقل المحققان والشارحان المذكوران تحت نصاً في هامش الصفحة ، يقولان فيه : «بعده في الهامش : (والآل القرابة ، والآل الربوبية ، ومنه قول أبي بكر لوفد بني حنيفة ، وسألهم عن قول مسيلمة فتكلموا بشيء منه ، فقال : أعلم ان هذا كلام لم يخرج من آل . وفي بعض القراءة : جبر إل . قال ابن عباس : جبر رجل ، وإل هو الله . كما تقول عبد الله وعبد الرحمن» ^(٤) .

إننا نرى في ذلك الذي نقلناه عن ابن السكيت في متن كتابه وهامشه نافذة جديدة على الأصول التاريخية والدينية واللغوية لـ «إيل» و«يهوه» و«العهد» جميعاً . فإذا كان يهوه ، بمعنى معين أتينا عليه ، ابناً لإيل وصفة له ، فإن هذا الأخير يبرز في الحشيات المبدئية التالية : إنه العهد والذمة ، والقرابة ، والربوبية ، كما هو - أخيراً - الله . ولا ريب أن تلك المعاني وإن ظهرت متعددة ومتباينة ، إلا أن رباطاً خفياً وناظماً عاماً يقومان بينها جميعاً ، ويعملان منها ماهي عليه في هذا السياق .

(١) يورد محققا وشارحا كتاب ابن السكيت هذا ، وهما أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون ، في هامشه تحت رقم (٣) تعقيبا على اسم «الراجز» ذاك وتصحيحاً لمصدر بيت الشعر ، الاضافة التالية : «في اللسان : (قال ابو الخضر اليربوعي يمدح عبد الملك بن مروان)» . (انظر الكتاب المذكور تحت عنوان : اصلاح المنطق لابن السكيت - شرح وتحقيق احمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون ، دار المعارف بمصر ، ١٩ مارس ١٩٤٩ ، ضمن سلسلة : ذخائر العرب ٣ ، ص ٢٠) .

(٢) نفس المرجع السابق ومعطيته .

(٣) نفس المرجع السابق ومعطيته .

(٤) نفس المرجع السابق ومعطيته .

فإيل ، بما هو عهد وذمة ، يُقضي إلى يهوه ويشير إليه وينطوي عليه ، في آن .
ونستطيع ، في ضوء ذلك ، أن نتبين العلاقة القائمة بين ما تولد لاحقاً تحت اسم
«العهد» ، الذي أخذه يهوه على عاتقه تجاه «شعبه» من طرف ، وبين «يهوه» نفسه
من طرف آخر . و «العهد» يغدو ، ضمن هذا الأفق ، «ذمة» في عنق الرب يهوه
لا بد وأن يوفيهها أمام شعبه ذاك . وهذا يدعونا إلى القول بأن «يهوه» هو ، في أساسه
التاريخي اللغوي ، عهد يقطعه كائن انساني ما حيال كائن انساني آخر ، ومن
ثم ، فالعنصر النفعي المصلحي يشكل مشن يهوه ، بمقتضى ذلك الأساس
التاريخي ، وكذلك بحسب المراحل اللاحقة التي كان عليه أن يجتازها بصيغ
يهودية .

وحيث نأخذ بعين الاعتبار معنى «القراءة» ليهوه ، فإنه سوف تتاح لنا إمكانية
اكتشاف بعد آخر هام لهذا الأخير . فهو (أي يهوه) «القراءة» ، التي أفضت إلى
الشعب الخاص ، بحيث أن يهوه اذ يظهر متعاهداً مع شعبه ، فإنما يفصح ،
بذلك ، عن نفسه هو نفسه . لقد انتظمت وتكرست العلاقة بين اليهود العبرانيين
وربهم عبر علاقة قرابة بينهما ، بحيث لا يسع تلك العلاقة أن تُفسخ يوماً ما .
وهذا ، بدوره ، تضمن وجهين اثنين من يهوه لا يمكن فصلهما عنه ، في صيغته
اليهودية ، وإن كان قد انطوى عليهما ، أيضاً ، في أصوله البعيدة الكنعانية انطواءً
بقي - على كل حال - متميزاً نسبياً عن واقع الحال ذاك . الوجه الأول هو الأصل
الطوطمي ليهوه متمثلاً بعنصر القرابة ، التي أريد لها أن تجمع بين اليهود العبرانيين
وتتجسد بأحد الحيوانات أو إحدى الظواهر النباتية أو الطبيعية . (وقد سبق أن
أومأنا إلى بعض ذلك ، في سياق آخر من المسألة) . أما الوجه الثاني فيمثل حصيلة
الأول وبعده الأقوامي ؛ ذلك هو الاشتراك في انتاء اتني واحد . وفي هذه الحال ،
يغدو ممكناً بل ضرورياً أن نلحق هذا الانتاء بـ «يهوه» ، بحيث نقول «انتاء
يهوياً» ، و «شعباً يهوياً» . وعلى هذا ، نفهم أصول ودلالات التصور المهيمن في
نصوص «العهد العتيق» تحت اسم «شعب الرب» . ولكن إذا صح ذلك ، من
موقع المنظور المعني هنا ، فإنه يصح - كذلك - الأخذ بالتصور المقابل ، وهو «رب
الشعب» . وأخيراً ، إذا كان ذلك «الرب» قد اختار هذا «الشعب» ، فإن الأمر ينبغي
أن يفهم على أنه اختيار متبادل بسبب من «القراءة الأصلية» ، التي تجمع بينهما ،

وتضبط العلاقات الثابتة والطارئة بينهما التي تترتب على ذلك وتحكمه .

ان تناولنا معني «العهد والذمة» و «القراة» لـ «إيل» بالمنحى الذي فعلناه ، يقودنا إلى «ربوبيته» . فإذا كان يهوه ابناً لايل وصفة له ، في حين واحد ، فإنه يغدو - والحال كذلك - أولى بأن يطلق عليه «رباً» ؛ وهذا يصح كذلك على «الله» ، من حيث هو تعبير عن «إيل» . فهو ، بذلك ، حائز على الربوبية (رب) وعلى الألوهية (اله - الله) .

ان ماجاء في كتاب ابن السكيت «اصلاح المنطق» قد يكون ذا أهمية خطيرة . فهو يفتح أمامنا ، كما هو واضح ، آفاق نوعية جديدة باتجاه الكشف عن الجذور اللغوية والتاريخية واللاهوتية (الدينية) ليهوه ، ومعه إيل ، ومن ثم ايلوهيم . ولذلك ، فإن الحديث عن تناقض بنيوي وتاريخي جذري بين يهوه وايلوهيم في نصوص «العهد العتيق» يفتقر الى التوثيق التاريخي . فلقد تبين أنها كليهما (علماً أن ايلوهيم ، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً ، هو اسم جمع) بمتحان - بصورة عامة - من مصادر واحدة ، هي الكنعانية والبابلية . ومن هذا الموقع ، نكون - نحن بدورنا - قد وضعنا أيدينا على مصادر نصوص أساسية من «العهد العتيق» ^(١) .

ولعل تساؤلاً يبرز ، على هذا الصعيد من المسألة المطروحة ، حول تلك الوضعية الماثية عليها والملفتة للانتباه ، من حيث اتسامها ، على الأقل ظاهرياً ، بازدواجية الألوهية ، أو ربما كذلك بثلاثية الألوهية أو رباعيتها الخ . . . بيد أن هذا التساؤل يمكن أن يجد إجابة عليه ، حالما نستعيد ما كنا قد أتينا عليه جزئياً ، في مواضع سابقة من هذا الكتاب ، وما تناولناه ، تفصيلاً ، في كتابنا الأخير حول بواكير الفكر العربي من أن تعدد الأسماء في الألوهية لم يكن يعني - ضمن التصور

(١) بطبيعة الحال ، كانت هنالك مؤثرات أخرى في اليهودية ، وضمن ذلك - بدون شك - الصيغة التي اتخذها يهوه يهودياً . من تلك المؤثرات نستطيع أن نبرز المصرية والفارسية واليونانية . (انظر حول ذلك : Arthur Drews- Geschichte des Monismus im Altertum, a.a.O., S. 356- 364 ؛ وكذلك : برتراند رسل - حكمة الغرب ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٣٨ - ٢٤٠ ؛ وأحمد سوسة - العرب واليهود في التاريخ ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٥٩ ، الخ . . . وقد كنا أشرنا الى ذلك في ماسبق لمأماً) .

الالوهي الشرقي عموماً - ثنائية أو ثلاثية أو رباعية ألوهية ، على هواهنا . فلقد هيمن ، هاهنا ، التصور الواحد كثرورياً ، أي عبر تجليه الضروري بعدد كبير أو صغير من الألوهيات . وعلى ذلك ، فحين تبرز واحدة من تلك الألوهيات دون غيرها في هته أو تلك من المراحل ، فإن هذا كان قد مثل وضعية نوعية اشتركت في توليدها وبلورتها جملة من الظروف والتحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وأخيراً الدينية الايديولوجية .

إن إقصاء أسماء هذه الآلهة أو تلك في مراحل معينة من تاريخ الشرق العربي ، مثل «إيل» و«آن» ، و بروز آلهة أخرى ظهرت ، حتى حين أو آخر ، ثانوية ، لم يكن ليعني إقصاء كلياً لتصور الوجدانية ، بقدر ما كان يمثل تجليات جديدة لأشكال جديدة ، من التوحيد الالهي ، تستجيب للشروط الجديدة المشخصة في الحقول الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وبالطبع ، في هذا القول لا يجري التأكيد على «التوحيد المطلق» لتلك الألوهيات ، وإنما تبرز عملية التوحيد الالوهي بمثابتها جماع التعدد الالوهي . وهذا ، من طرفه ، يؤدي إلى أن التعدد ذاك كان حاضراً ورئيسياً ، بقدر ما كان جاضراً ورئيسياً أيضاً التوحيد . وبتعبير آخر يمكن صوغ الموقف إذ نقول ، إن ما يظهر في تلك الألوهيات على أنه متعدد فقط ، إنما هو أيضاً غمط من أنماط التوحيد الالوهي . ولذلك ، ليس صحيحاً أن يعلن أن التعددية الالوهية المعنية تترد - في نهاية المطاف وفي الصيغة النهائية - إلى غمط ما مهيم من أنماط التوحيد الالوهي . وإذا ما أقررنا بذلك ، اتضح لنا أن الالوهية في الشرق العربي القديم مارست وظيفتها الدينية والاجتماعية المشخصة ببنية (هوية الواحد والكثير ، والكثير والواحد ؛ دون أن يكون ذلك قد أدى إلى التطويح هيمنة ما «للواحد» (العاهل - الملك - الفرعون - الاله) .

من تلك الحصيلة الأخيرة ، نشق أمرين اثنين من شأنهما أن يلقياً مزيداً من الضوء على العلاقة بين يهوه الكنعاني (خصوصاً) من طرف ، وبين يهوه اليهودي من طرف آخر . الأمر الأول يتمثل بجدلية الواحد والكثير ، والجزء والكل ، والخاص والعام في البنية الداخلية لالوهية يهوه الكنعاني . أما الأمر الثاني فيكمن في جدلية التطابق بين هذه البنية الداخلية ليهوه ذاك من طرف ، وبين الوظيفة أو الوظائف الاجتماعية المشخصة التي نيطت به من طرف آخر . فبنياً يبرز الموقف بمثابته قائماً

على وجود «مجلس آله» يتشاور في المسائل التي يطرحها ، ممارساً بذلك الحوار ، وإن كان حسم هذا الموقف - في الحلقة الأخيرة - من حق سيد المجلس ، إله الآلهة . إن هذا «الحوار» نجد له ما يوازيه وظيفياً على الصعيد «الخارجي» ، أي الاجتماعي . فهنا نواجه طبقتي المجتمع الزراعي الكنعاني (المشاعي القروي) ، اريستوقراطية الأرض والتجارة من طرف والفلاحين من طرف آخر ، وقد انخرطنا فيه ضمن مصالح مشتركة بمعنى محدد ، هو حق الملكية للأولى وحق الحيازة للثانية . وهذا الانخراط كان يعود على الطرفين كليهما بالغنائم ، وإن كان ذلك بالنسبة الى الطرف الثاني ضئيلاً مُقْلاً . إنما في هذا الاطار بالذات ، نستطيع أن نتبين ما اطلقنا عليه سابقاً «ديموقراطية هذا المجتمع الزراعي المشاعي القروي» .

وإذا أجَلْنَا النظر في بنية ووظائف يهوه اليهودي ، استبان لنا ما هو مبين لبنية ووظائف يهوه الكنعاني ذاك ومناقض لها ، بل كذلك مضاد لها . هاهنا ، نواجه الموقف ، في صيغته التوراتية ، بمثابة احادي البنية وأحادي الفعل الاجتماعي الوظيفي : ان يهوه واحد أحد ، لا منافس له ولا شريك . ولما كان يهوه هذا ترميزاً لفئة الكهنوت المهيمن يهودياً ، فقد ظهر ، كذلك واقعياً ، بصفته ذا فعل أحادي البعد والتأثير . أي اننا ، هنا أيضاً ، نعدم ثنائية الفعل الاجتماعي ، انطلاقاً من أن الفئة الكهنوتية. المعنية هي وحدها صاحبة القرار والفعل .

وإذا كان الأمر كذلك ، واجهنا أمامنا غمطين اثنين من النظامين السياسيين ، واحداً ديموقراطياً ديموقراطية التوزيع السياسي في المجتمع الكنعاني ، وآخر استبدادياً استبدادية التوزيع السياسي في التجمعات اليهودية العبرانية . وإذا كان لنا أن نقول ، ان النظام السياسي الأول (الكنعاني) انطلق من علاقات المجتمع المشاعي القروي الذي كان مهيمناً هناك ، فإننا لا نستطيع أن ننفي أن يكون النظام السياسي الثاني (اليهودي العبراني) ذا ارتباط بعلاقات مشاعية قروية ظهرت ، أيضاً ، في نطاق تلك التجمعات حيث استقرت في فلسطين وعلى مقربة من الكنعانيين أو - أحياناً - في قلبهم . اننا ، بذلك ، نشير إلى أن العلاقات الاجتماعية التي سادت - في حينه - ضمن التجمعات اليهودية إياها كانت قد انطوت على سمات من الوجود الاجتماعي المشاعي القروي ، وإن لم يكن ذلك قد وصل إلى حدود النضج الاجتماعي والاقتصادي على هذا الصعيد . وهذا ما يسمح لنا

باستنباط نتيجة هامة وذات آفاق ودلالات بارزة في نطاق فهم «عظ العلاقات المشاعية القروية» : ان هذا النمط الاجتماعي الاقتصادي ليس مقترباً ، بالضرورة ، بهذا النمط السياسي أو ذاك ، الديمقراطي أو الاستبدادي . فهذان كلاهما يمكن أن يوجدوا ضمن العلاقات المشاعية القروية . ومن ثم ، فإن هذه الأخيرة ليست مرتبطة بواحد من النمطين السياسيين المنوه بهما .^(١)

ان النظر إلى المسألة على هذا النحو يجنب الباحث من أخطاء كبيرة أو صغيرة وقع فيها بعض الدارسين والكتاب الأجانب والعرب . من هذه الأخطاء الكبيرة النظر إلى أن المجتمع الشرقي القديم (المشاعي القروي) على أنه يتسم أولاً بحضور ظاهرة «الاستبداد» ، الذي يحدد ذلك المجتمع بموجبه «مجتمع الاستبداد الشرقي» . ومعروف أن Wittvogel كان قد أرسى معالم هذه المقولة^(٢) . ان الأخذ بهذه الأخيرة من شأنه أن يحول دون اكتشاف النقاط والنواظم المشتركة بين تجمعين بشريين ، لاختلاف في النظامين السياسيين اللذين هيمنوا فيهما . ونحن نأخذ هنا مثلاً على ذلك التجمعين الكنعاني واليهودي ، وإن وضعنا بعض التحفظ على الشخصية المشاعية القروية للتجمع اليهودي . إضافة إلى هذا ، نلاحظ أن مقولة Wittvogel تطيح بخصوصية الموقف الذهني الأيديولوجي وعينيته ، ذلك السلي برز في التجمعين المشار إليهما ، محولة يهوه اليهودي العبراني إلى امتداد ذي بعد واحد ليهوه

(١) من المفيد جداً أن نورد ، هنا ، التعريف الذي اعتبره سوريه - كانال دقيقاً لـ «المجتمع المشاعي القروي» ، وكنا قد أوردناه في كتابنا (الفكر العربي في بواكيره الأولى - نفس المعطيات المقدمة سابقاً) ، وأخذنا به : «يجب ألا يسجل التعريف لنمط الانتاج الآسيوي إلا ما أعطاه ماركس منه في (الأسس) ، وهو الآتي : (هناك مستوى للقوى الانتاجية مازال منخفضاً غير أنه يسمح مع ذلك بتخليص فائض من الانتاج . وعلى هذا الأساس يظهر مجتمع طبقي في إطار أشكال الملكية الأرض ما زالت جماعية . وليست السمات الأخرى - الأعمال الكبرى ، الري ، الطغيان - بجوهرية لهذا التعريف ، ولا تتعلق بنمط الانتاج نفسه ، بل بمجتمعات آسيوية معينة يجري وصفها - مصر الفرعونية ، الهند - . (Surut- Canal: Les Premieres de Classe, P. 14) . ضمن : ست دراسات في النمط الآسيوي للانتاج - دراسة عبد القادر جغلول ، بيروت ١٩٧٩ ، ص ٢١ - ٢١) .

(٢) انظر كتابه :

K.A. Wittvogel- Die orientalische Despotie. Eine Untersuchung totaler Macht, Koeln- Berlin 1962.

في أصوله وأسيقته الكنعانية .

إذن كان يهوه ، في صيغته ما قبل التوراتية ، واحداً من التجليات الالهية ؛ أي إنه - في هذه الحال - كان يقوم بقسط من المسؤوليات الالهية الكبرى ، مشاركاً ، في ذلك ، من قبل آلهة أخرى . ونستطيع أن نقول ، انه حتى في المراحل اللاحقة ، التي هيمن فيها يهوه بقوة وتركيز ، ظل مرغماً على أن يفسخ مكانا الى جانبه لغيره من الآلهة ^(١) . وهذا ما كان يثير حنق وحفيظة الكهنوت الأعلى ، المعادي والمناهض لـ « الغوييم » ، ولليهود الأبقين المندمجين أو الذين كانوا في طور الاندماج بأولئك . إن ذلك يظهر أن الرب يهوه ما كان له ، بحال ، أن يفقد جذوره نهائياً بالبانثيون الشرقي (الكنعاني والرافدي والمصري تخصيصاً) ، رغم الجهود الايديولوجية السذنية والعملية الكبرى التي بذلها في هذا الاتجاه ذلك الكهنوت . فلقد استطاع يهوه أن يحافظ على لحظات هامة من النمطية اللاهوتية الشرقية القديمة ، تلك اللحظات التي تواجهنا مراراً في نصوص «العهد العتيق» .

بوسعنا أن ندرك ذلك ، حيث نأخذ بعين الاعتبار المنطلق الذي تمت على أساسه هذه العملية . هذا المنطلق تمثل بالحسية الانسانية والطبيعية ، التي ضببطت العلاقة بين يهوه من طرف وبين قومه من طرف آخر ، وذلك على نحو كان فيه التقاطب (التناقض) الذي ظهر بين الانسان ويهوه قد أخذ صيغة مضادة لهذا الأخير . أما هذه الصيغة فقد تحدت من الانسان نفسه ، كما من الآلهة الأخرى . في هذا الاطار من المسألة ، نقرأ مايلي في «العهد العتيق» :

فسمع آدم وحواء «صوت الرب الاله وهو متمش في الجنة عند نسيم النهار

(١) «عرف الشرق المتوسطي مثل هذه الفترات ، حيث كان يهمل شأن الآلهة العظام ، مثل أنو وإيل ليحمل مسؤولياتهم آلهة مثل : إنليل ومردوخ والبعل ويهوه وهدد» . وإذا كنا نبحث عن اثبات لفكرة التوحيد للاله (إيل) خلال النصوص ، فإن هذا الاثبات نجده في تنوع الآلهة القوميين والمحليين وتعدد تسمياتهم في أرض كنعان مثل : البعل ويهوه ورشف وهدد وملكارت (يوسف الخوراني : البنية الذهنية الحضارية في الشرق المتوسطي الآسيوي القديم - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ١٧٠) .

فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الاله فيما بين شجر الجنة . فنادى الرب الاله آدم وقال له أين أنت . قال اني سمعت صوتك في الجنة فخشيت لانني عريان فاخترت^(١) .

«وبقي يعقوب وحده فصارعه رجل الى مطلع الفجر . ورأى أنه لا يقدر عليه فلمس حُقَّ وركه فانخلع حق ورك يعقوب في مصارعه له . وقال اطلقني لأنه قد طلع الفجر . فقال لا أطلقك أو تباركني . فقال له ما اسمك . قال يعقوب . قال لا يكون اسمك يعقوب فيما بعد بل اسرائيل لانك إذ رؤُستَ عند الله فعلى الناس أيضاً تستظهر . وسأله يعقوب وقال عرفني اسمك . فقال لم سؤالك عن اسمي وباركه هناك . وسمى يعقوب الموضع فنوئيل قائلاً اني رايت الله وجهاً الى وجه ونجت نفسي»^(٢) .

في ذينك النصّين ، نتبين البعد الحسي الانساني الطبيعي للانساني والالهي كليهما ، على حد سواء . وهنا ، نواجه تاريخية ذلك البعد بحديه الاثنين المومي إليهما ، من حيث هي نسق وجودي يضبط وجود يهوه ويظهر فيه وعبره . فهذا الأخير لا يجسد ، بمقتضى ذلك ، وضعية ناجزة نهائية بنيته ووظائفها ؛ ومن ثم ، فإن تصور المطلق والكامل والكلي غريب عنه . وكذلك الأمر فيما يتصل بغريمه ، يعقوب الانسان . فهذا ، بدوره ، هو مشروع انسان كلي ، أي ربّاني . إنه سوف يتعيّن عليه أن يسلك طريقاً طويلاً ووعراً قبل أن يبلغ درجة المخلص يشوع ، أو من يمثله في ذلك ، وبطبيعة الحال ، لا نستطيع النظر إلى يهوه اليهودي ذاك وكأنه ظل محافظاً على بنيته ووظائفه الكنعانية . ليس في ما قلناه ما يؤدي إلى هذا الزعم ، وإنما نعلن أن «العهد العتيق» انطوى على «يهوه» في تحوله من الكنعانية إلى الكهنوتية اليهودية ، بحيث نواجه عملية التصاعد من الحسي الى المجرد عبر نقاط تقاطع وانتقال عديدة بينهما .

ومن هنا ، فإن التمييز بين ذينك اليهوديين أو بين تينك الصيغتين ليهوه أمر لابه منه في سبيل تحقيق عملية عزل التاريخي عن اللاتاريخي في شخصيته ، بالرغم

(١) الكتاب المقدس - سفر التكوين ٣/٨-١٠ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطيانه ٣٢/٢٤-٣٠ .

من أن عزلاً كاملاً لهذين الحصرين عن بعضهما أمر لا وجود له في نصوص العهد المعني . وحيث يكون الأمر كذلك ، فإن العلاقة بين الإلهي والإنساني في يهودية العهد العتيق المهيمنة هي تعبير عن عملية افتقاد مضطرد للعنصر التاريخي لصالح تصور المطلق والكلي والكامل والناجز ، على الصعيدين الإلهي والنبوي . وهذه العملية سوف تتابع اضطرابها مع «يسوع المسيح» ، الرب المخلص ، ومع «الله» وبنيه «محمد» ؛ طبعاً مع احتفاظ كل من هذه الحلقات بخصوصياتها النوعية النسبية .

وجدير بالذكر أن اضطراب العملية المعنية نتبينه في شخص العلاقة اللاحقة بين موسى ، خلف يعقوب ، وربه يهوه . فهنا ، نلاحظ المسألة وقد اندرجت ضمن مستويين اثنين متضايفين تضائفاً جدلياً ، وهما المستحيل والممكن . فإذا كان على لوحة المصارعة بين يعقوب والرب (الرجل المجهول - المصير) أن تنحسر ، فإن لوحة أخرى تحل محلها ، وتتحدد بطموح موسى ورغبته أن يرى ربه وجهاً لوجه . كيف له أن يراه ، وقد غادره (فارقة) ؟ أن طموح موسى ذاك وإن كان مشروعاً من موقع سلفه «المؤسس» يعقوب ، إلا أنه غداً غير مسموح به ، مع أنه ظل ممكناً . هاهنا ، تكمن احتمالات وآفاق العلاقة التي يمكن أن تفصح عن نفسها على نحو حميمي بين الرب وموسى ، بين السيد الأعلى والسادة الأدنى .

وإذا كان لنا أن نغامر بافتراض على هذا الصعيد ، فإنه يمكننا القول بأن العلاقة بين كلا الطرفين المذكورين تكتسب طابع العلاقة بين زوجة وزوجها ، وزوج وزوجته . ومن الطريف الهام أن نذكر أن «الأنبياء» هوشع وأرميا وحزقيال وغيرهم شبهوا علاقة يهوه بمختاريه (شعبه المختار) بعلاقة الزوجة وزوجها . وهذا يعيدنا إلى ما تعرفنا إليه ، في موضع سابق ، في إطار العلاقة بين اليهود العبرانيين ويهوه من حيث هي علاقة قرابة ذات شخصية طوطمية وإتنية^(١) . ويبقى القول ضرورياً بأن يهوه يمثل - هنا - سيد السادة ضمن الأريستوقراطية الكهنوتية ، أي

(١) انظر المقدمة المثبتة قبل سفر نشيد الأنشيد - الكتاب المقدس ، ص ٢٢٦ . ولعلنا نقول إن «سفر نشيد الأنشيد» يبرز تلك العلاقة القرابية الحميمة (الجنسية بالمعنى العام) على نحو مفصّل عنه . لنقرأ ، مثلاً ، الآيات التالية من هذا السفر :

جميع جودتي أمامك وأنادي باسم الرب قدّامك وأصفح عمنّ اصفح وأرحم من أرحم . وقال أما وجهي فلا تستطيع أن تراه لأنه لا يراني انسان ويعيش . وقال الرب هوذا عندي موضع . قف على الصخرة . ويكون إذا مرّ مجدي اني اجعلك في نقرة الصخرة وأظملك بيدي حتى اجتاز . ثم أزيل يدي فتتظر قفائي وأما وجهي فلا يرى» (١) .

ان عملية الرؤية للرب ليست جائزة ، وإن كانت غير مستحيلة . ذلك لأنه اذا كان «الوجه» تعبيراً عن الشيء على عواهنه - وجه الشيء - فان هذا التعبير قد يُنتقص منه إذا انزل الى مستوى أقل منه . أما ما دون ذلك ، أي ما يتصل بالهيكل الرباني ، فان رؤيته ممكنة ؛ لأنها (الرؤية) ، هنا ، هي بمثابة تقديم الأدلة المباشرة على وجود غير مباشر . ان معارضة «الوجه» بـ «القفا» هي - في هذا الحقل من المسألة - معارضة الجوهر بالظاهر ، والعزير (أي المتمنع) بالظاهر ، والخفي بالمباح . وجدير بالقول أن هذا الاتجاه سوف يتدعم ويتعمق ، على نحو واضح ، على يد «القبالة» في كتابها الرئيسي المدعوب «الزهر» ، وذلك في مراحل مابعد انجاز كتابة التلمود في القرن الحادي عشر . ولعلنا نجد في هذا الاتجاه امتداداً للارهاصات الباطنية ، التي نلفاها في «العهد العتيق» ، وللتزوع الباطني القائم في نصوص التلمود ؛ مع الإشارة إلى أن ذلك الامتداد «القبالي» ربما كان أكثر ايغالا في باطنيته (٢) .

وإنه ل ذو دلالة خاصة هامة أن نتبين وراء ذلك كله وضعية سياسية واجتماعية اقتصادية محددة ، كان لها حضور كثيف في الذهنية الشرقية القديمة (وقد كنا أتينا على الحديث عنها في موضع سابق وضمن علائق أخرى) ؛ تلك هي تحريم رؤية الملك الاله من قبل رعاياه . وإذا ما حدث أن تم ذلك على سبيل العرض أو الخطأ ، فإن من شأنه أن يؤدي إلى انمحاق الرأي . فهذا الأخير ، في أساس الأمر ، لا يصمد لمقتضيات و«مخاطر» رؤية الملك الاله : فهو شمس تبهر الأبصار ، أبصار الناظرين إليها ، وتقود إلى إفقاد البصر والبصيرة . وهذه العملية تتجلى بحلقتين كبيرين ،

(١) الكتاب المقدس - سفر الخروج ٣٣/١٢-٢٣ .

(٢) كانت القبالة قد دعت ، في بادئ الأمر ، بـ «الحكمة المستورة» ، التي استفتت =

الأولى منها تتمثل بالرب ، في حين تتجسد الثانية بنبيه موسى ، الذي وجدناه ، كذلك ، الهاً (انطلاقاً من التراتب الثلاثي ، الرب والاله ، والنبى بينهما) . فإذا كان قد حُظر على هذا الأخير أن يرى «ربه» ، أن يواجهه ، فإن «الشعب» ، بدوره ، محظور عليه قطعاً أن «يصدق» في عيني موسى ، اللتين تحملان عنوان وجهه ، أي جوهره النوراني والناري المكنون :

«وأقام هناك عند الرب أربعين يوماً وأربعين ليلة لم يأكل خبزاً ولم يشرب ماء فكتب على اللوحين كلام العهد الكلمات العشر . وكان لما نزل موسى من طور سيناء ولوحا الشهادة في يد موسى عند نزوله من الجبل أن موسى لم يعلم أن أديم وجهه قد صار مشعاً من مخاطبة الرب له ، فنظر هرون وجميع بني اسرائيل إلى موسى فإذا أديم وجهه قد صار مشعاً فخافوا أن يدنوا منه . فدعاهم موسى فرجع إليه هرون وجميع رؤساء الجماعة فكلهم موسى . . ولما فرغ موسى من مخاطبتهم جعل على وجهه برقعاً . وكان موسى عند دخوله بين الرب ليكلمه يرفع البرقع إلى أن يخرج ثم يخرج ويكلم بني اسرائيل بما يؤمر به . فكان بنو اسرائيل يرون وجه موسى أن أديمه مشع فبرد البرقع على وجهه إلى وقت دخوله لمخاطبته»^(١) .

وإذا ما حدث أن غامر أحدهم ونظر إلى وجه الرب ، فإنه ، بذلك ، يكون قد صكّ كتاب موته صكاً (وجدير بالذكر أن هذا الموقف سنواجهه بمزيد من التشدد في الاسلام ، الذي يتبنى نفس الواقعة التوراتية وينطلق منها في ترسيخه للعلاقة بين «الله» والانسان المسلم^(٢)) . لنقرأ الحوار بين الرب وموسى بخصوص ذلك :

«وقال الرب لموسى مر هرون أخاك بأن لا يدخل القدس في كل وقت الى داخل الحجاب إلى أمام الغشاء الذي على التابوت لئلا يموت لأنني متجلّ في الغمام

= مصادرهما ، حسب رأي الحاخام بوكس ، من «الروايات الباطنية التلمودية ومذهب التصوف الذي راود الغاؤونيم والفلسفة العربية الافلاطونية» . (ضمن : أحمد مرسية العرب واليهود في التاريخ ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٣٠٢) .

(١) الكتاب المقدس - سفر الخروج ٣٤/٢٨-٣١ ، ٣٣-٣٥ .

لنقرأ في القرآن حول ذلك مايلي (اية البقرة ٥٥) : «واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون» .

فوق الغشاء» (٢)

وعلى ذلك النحو ، تكونت العوالم الثلاثة ، عالم الربوبية ، وعالم النبوة المندمج في حالات معينة بالعالم الالهي - وهو غير الربوبي - ، وعالم العامة . وبصيغة أخرى نقول ، انها درجات الربوبية ، والتوسط ، والتلقي . ولما كانت هذه الأخيرة مختلفة متمايزة على سبيل الجوهر لا العرض ، فإنه لا يجوز أن تتداخل فيما بينها إلا من موقع الفعل (الكلمة) الأمر من أعلى الى أدنى (٣) . وهذا ما يمكن أن نفهمه بمثابة واحداً من مقومات السلطة الشمولية ، التي يمارسها الحاكم المستبد في المجتمع الشرقي القديم ، الذي وجدناه متصلاً ، بشكل أو بآخر ، بمجتمع المشاعات القروية (٤) . لكن لا بد من أن نضيف أن «الرب» و«الوسيط» يمكن أن يتعانقا ويلتقيا ، على الأقل بسبب من أن الثاني يجد نفسه أمام مهمة إيصال «الكلمة» من أعلى الى أدنى . ومن ثم ، يمكننا أن نختزل الدرجات الثلاث باثنتين ، هما الرب ووسيطه من جهة وعامة الشعب من جهة أخرى .

على ذلك النحو ، نلاحظ أن تقسيم الوجود الى شقين كبيرين ، واحد مرثي وآخر غير مرثي ، واحد يتجه نحو الفساد والعرضية والخطيئة ، وآخر من خصوصياته الكمال والديمومة والاطلاقية ، سوف يبرز لاحقاً باعتباره إحدى السمات الأساسية الكبرى لليهودية المتأخرة ، وللمسيحية والإسلام كذلك ، وإن عبر أشكال متميزة خاصة بكل من هذه الأديان الثلاثة ؛ إضافة إلى هذا ينبغي القول أن ذلك التقسيم الثنائي سوف يؤثر كذلك ، بصور ودرجات مختلفة ، في ذهنية

٢ الكتاب المقدس - سفر الأحبار ٢/١٦ .

٣ «اليس انه هو أبوك مالك الذي فطرك وأبدعك» . (الكتاب المقدس - سفر تثنية الاشتراع ٦/٣٢) .

٤) حول هذا الحاكم المستبد في المجتمع المعني ، نقرأ مايلي : «كان شخص فرعون الإلهي يعتبر أقدس من أن يخاطبه أحد مباشرة . فمن كان بشراً عادياً لا يستطيع التكلم (مع) الملك ، إنما يتكلم (في حضرة) الملك . وعلى المرء أن يلجأ الى أساليب من اللف والدوران ليتجنب الإشارة المباشرة إلى الملك : (فلتسمع جلالتك) بدلاً من (فلتسمع) ، أو (يصدر أحد الأمر) بدلاً من (يصدر هو الأمر) . واحدى هذه العبارات (بر - عا) أي (البيت الكبير) ، اعطتنا كلمة فرعون . وهي أشبه بقولنا نحن : (اعلن القصر الجمهوري اليوم ...) وفي هذا ... مايعت على =

اليونان الأسطورية والفلسفية اللاحقة^(١) ، مُرسياً - بذلك - دعائم تصور «المتعالي المقارق» على الصعيدين الديني والفلسفي .

ولقد عمل ذلك التوجه على صوغ وبلورة الحدّ اليهودي اليهوي اللاحق ، الذي سبق أن واجهناه في سياق آخر : إنني أنا هو ولا ربّ معي ؛ وإنه ليس للرب إلهنا نظير لا في القبل ولا في الآن ولا في البعد ؛ وأنه هو الإله ليس إله سواه^(٢) . وقد اتضح هذا الحد ، حيث جرى حتى نفي «الاسم» عن يهوه ، ليصبح مجرداً من كل تعيين ، ما عدى التعيين السلبي بأن غيره ليس هو ماهو ، وإن ماهو ليس هو غيره :

الظن بأن كل ماهو جزء من شخص الملك ، كظله مثلاً ، مترع بالقداسة ، فلا يقوى البشر على الدنونه . . . وكما كان شخص الملك مشحوناً بطاقة هائلة خطرة ، كانت مسؤولياته العليا أيضاً تتطلب علماً ومقدرة فوق طاقة البشر . (هـ - فرانكفورت وآخرون : ماقبل الفلسفة - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥) .

وإذا وضعنا في الحسبان العلاقة الأبوية الحميمة بين الرب وموسى ، كما لاحظناها في المواقف السابقة ، فإننا سوف ندرك أحد مصادرها وحوافزها البعيدة ، حين يواجهنا ما يماثل النص التالي من الذهنية الأسطورية (الميثوبية) الشرقية . والنص التالي مستنبط من الصور المنقوشة على جدران المعابد المصرية القديمة ، وهو من نشيد يخاطب الملك فيه أحد الآلهة على نحو تبرز فيه تلك العلاقة : «لا يعرفك أحد إلا ابنك (الملك) ، وهو الذي جعلته يفهم خططك وجبروتك» . (ماخوذ عن : نفس المرجع السابق ومعطياته ، ص ٩٦) .
انظر حول ذلك أيضاً :

Martin Robbe- Der Ursprung des Christentums, a.a.O., S.,36-37.

(١) نذكر هنا ، على سبيل المثال وعلى سبيل المقاربة التاريخية التراثية بـ «أسطورة الكهف» ، كما وردت في الموروث الفلسفي لافلاطون اليوناني (٤٤٧-٣٤٧ ق.م) . فالتمعن التاريخي والبنوي في هذه الأسطورة ربما كان من شأنه أن يظهر ما يمكن أن توحيه اللوحة الذهنية التوراتية (والشرقية القديمة من حيث الأساس) من آفاق وتوقعات أو افتراضات على صعيد تأثير توراتي (وشرقي قديم) في الذهنية اليونانية الكلاسيكية ، الأسطورية والفلسفية ، على حد سواء . ويهمن أن نبرز ، هنا في هذا الإطار التاريخي التراثي ، خط التواصل الذهني الذي يجمع بين عدة مراحل تاريخية شرقية (وغير شرقية) ؛ مع الإشارة - بطبيعة الحال - الى اللحظات الخصوصية في كل من هذه المراحل .

(١) انظر : الكتاب المقدس - سفر تثنية الاشتراع ٣٢/٣٩ ، سفر الخروج ٨/١٠ ؛ سفر تثنية الاشتراع ٤/٣٥ .

«فقال موسى لله هاأنذا سائر الى بني اسرائيل فاقول لهم إله آبائكم بعثني اليكم فان قالوا لي ما اسمه فماذا أقول لهم . فقال الله لموسى أنا هو الكائن . وقال كذا قل لبني اسرائيل الكائن ارسلني اليكم . . . هذا اسمي إلى الدهر» (١) . وإذا كان الأمر كذلك ، غداً أمراً مفهوماً ما أثبتناه في موضع سابق من أن طريقة لفظ كلمة «يهوه» مجهولة أو أصبحت في يوم مضى مجهولة ، تلك الطريقة التي تعرف تحت عبارة «الكلمة الرباعية» . ومن ثم ، فإن ضياع تلك الطريقة كان أمراً متوقفاً بسبب القيود العقيدية اللاهوتية ، التي فرضت ازاء لفظ الاسم . وإذا كان الأمر على هذا النحو ، فإن الاسم المعني يغدو أكثر وأرفع من أن يضبط في التعبير «الاسلامي اللاحق» لفظ الجلالة» (٢) .

(٢) الكتاب المقدس - سفر الخروج ٣/١٣-١٥ . في نص انكليزي للتوراة ، يرد جواب الله لموسى هكذا : «أنا الذي أنا - I AM THAT I AM» . (Holy Bible- Printed in U.S.A. 1978, by N.P. Company) . وكذلك في ترجمة أخرى للتوراة غير تلك التي نعتمدها هنا ، نقرأ الجواب ، كما يلي : «أهيه الذي أهيه» . (انظر : هـ . فرانكفورت وآخرون - ما قيل الفلسفة ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٦٨ ، وهامش هذه الصفحة المحرر بقلم المترجم جبراً ابراهيم جبراً) . ومن الملفت الهام الترجمة التي أنجزها مارتن لوثر إلى الألمانية للنص المعني . فجواباً على سؤال موسى للرب ، يقول هذا الأخير : Ich werde Sein, Der ich sein werde. (انظر ذلك في : Die Bibel oder die ganze Weltliche Schrift des Alten und Nenen Testaments- nach der deutschen Uebersetzung D. Martin Luthers, Kleinoktav- Ausgabe, Stuttgart

وترجمة الآية هي : «أنا أصبح كائناً ، هو الذي أنا أصبح كائناً» . وملاحظ ، هنا ، ما يلح عليه لوثر من صيرورة الرب ، مما يفصح عن توجهه (لوثر) الذي كمن - في حينه - في خلق كنيسة جرمانية وطنية دينامية (اصلاحية) مناوئة للكنيسة الرومانية الثابتة (المحافظة) .

(١) من هذا الموقف المنهجي ، يصبح الأخذ بالقول التالي حين يُنظر إليه في ضوء المرحلة العليا المتقدمة من مراحل تحول يهوه : «ان المعتقد الغالب على الفكر العبري هو فوقية الله المطلقة . ليس (يهوه) في الطبيعة ، ولا الأرض ولا الشمس ولا السماء بإلهية ، وليست حتى أشد مظاهر الطبيعة بطشاً إلا انعكاسات لعظمة الله . بل انه لا يجهوز للانسان حتى ذكر اسم الله» . (هـ . فرانكفورت وآخرون : نفس المرجع السابق ومعطياته ، ص ٢٦٧ - ٢٦٨) .

هذا الموقف ، مأخوذاً في صيغته الإجمالية المعجمة والمكثفة ، يمكن التعبير عنه بالعلاقة بين النكرة والمعرفة ، بين المنكر والمعرف . فهو الرب لكي يكون في نظر «شعبه المصطفى المختار» معروفاً ، مطاعةً أوامره ، نافذة بالكلمة والفعل ، يُشترط فيه أن يكون نكرة ، غير معروف وغير محدد ، وغير قابل مستقبلاً لأن يعرف ولأن يحدد . بل من أجل تحقيق هذه العلاقة المتضايقة ، بحدودها القصوى ، من الضرورة القصوى بمكان أن يحوّل المنكر إلى غائب ، مع التركيز الكبير على تقديم هذا الأخير على أنه المجهول بذاته ، من حيث علاقة «الغير» به . وإذا كان يهوه ، والحال بهذا النحو ، هو المنكر والغائب والمجهول ، وكذلك المتعالي ، فهو ، أيضاً وبمقتضى الموقف نفسه ، المعرف والشاهد والمعروف والمحاث . وهذا هو أقصى ما أمكن الوصول إليه ، حتى حينه ، التجريد والتعميم ، وفي نفس الوقت التشخيص والتخصيص على صعيد التفكير الديني الذي كانت تعج به المنطقة وتجعل منه الايديولوجيا المهيمنة بلا منازع^(١) .

بيد أن المسألة ، في وضعها الأكثر تحديداً وتضييقاً ، تأخذ مساراً متميزاً بصورة واضحة عن ذلك المسار من عناصر التجريد والتعميم ، والتشخيص والتخصيص . فهو اليهودي هو - توراتياً - رب اليهود أولاً وأخيراً . فليس ثمة - على الصعيد العقيدي - ما هو غير ذلك . هاهنا ، نجد تلك العناصر إحدى نقاط ضعفها ، بل نقطة ضعفها الأكثر حساسية وإثارة . ذلك لأننا نواجه العناصر المعنية وقد ارتدت الى الدرجة الثانية أو الثالثة من الأهمية ، أو بتعبير أكثر ضبطاً ، تلك العناصر إياها تكتسب - مع انغلاقها في دائرة يهودية يهوه - بنية مطابقة لهذا الانغلاق ، وكذلك فيما يتصل بوظيفتها . وفي هذه الوضعية ، بالذات ، كمنّت أهم المسوغات الايديولوجية (الدينية) لتبلور الوظائف السياسية والاجتماعية

(٢) لنتمعن في أحد نماذج تلك الجدلية اللاهوتية ، مأخوذة من نصوص العهد العتيق :
«ان الله متعال بقلوبه فمن يماثله في المسترعين . من سَنَ له طريقه أو قال له قد فعلت شراً . . . كل بشر يراه والانسان يبصره من بعيد . ان الله عظيم فوق ما نعلم وعددُ سنيه لا يحصى . . . ورعده ينهى به عباده عند هملته» . (الكتاب المقدس - سفر أيوب ٢٢/٢٣-٢٥ ، ٢٦ ، ٣٣) .

والاقتصادية للكهانة بصفتها الوجه الديني للسلطة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ضمن التجمعات اليهودية المتقدمة ، أي ضمن مؤسسة الدولة . وهنا ، كذلك ، نواجه الرب يهوه كاملاً متقوصاً ، يحمل في شخصه من الإشكالات العقيدية (والاجتماعية والسياسية) أكثر من تلك التي خلّفها وأثار التفكير لاييجاد حلول او افتراضات حلول لها .

وإذا ما استعدنا التعريف التوراتي ليهوه الرب ووضعناه في اطار المسألة الأخيرة ، مسألة المعرف والمنكر ، وجدنا أنفسنا أمام جملة من القضايا الخطيرة التي اسهمت مباشرة وعلى نحو غير مباشر في صوغ مبدأ الهوية عند ارسطو ومبدأ التعريف بالسلب عند سينيوزا . وإذا كان سينيوزا قد تأثر بشكل أو بآخر بتلك القضية التوراتية ، فإننا لاهتمامه المركز بالنصوص التوراتية ودراستها على نحو تاريخي جعل منه ، كما أشرنا في موضع سابق ، رائداً للنقد التاريخي لتلك النصوص . وليس غريباً أن نواجه مثل ذلك التأثير التوراتي على شخصية فلسفية أخرى كبيرة ، هي هيغل . فبعد دراسته الموسوعية لتاريخ الأديان ، اتصل اتصالاً مباشراً بـ «يهوه» ، وواجه فيه ذينك المبدئين . وأخيراً ، يمكن القول بأن الفيلسوف العربي الاسلامي ابن سينا - على وجه التخصص - ينطوي ، عبر تأثره بارسطو ، على أصداء من التأثير التوراتي في حقل المبدئين المذكورين ، وخصوصاً في كتابه الرئيسي «الشفاء» .

وإذا وضعنا النصوص التوراتية (العهد العتيق) في اطارها التاريخي الزمني - وقد كنا آتينا عليه في موضع سابق من هذا الكتاب - استطعنا القول بأن تلك النصوص أثرت في ارسطو ، كما أن ارسطو المنطقي أثر في كتبها ، وإن كان ذلك قد تم خصوصاً في مراحل متأخرة (على سبيل المثال في مرحلة تصاعد واتساع تأثير الهلينية في الحياة الثقافية ضمن الامبراطورية الرومانية بمقاطعاتها الكثيرة والمترامية الأطراف) .

وإذا كانت نصوص العهد العتيق قد أثرت في تلك الشخصيات الفلسفية الكبرى ، فإنها هي نفسها كانت - بمعنى ما رئيسي آتينا على ايضاحه مسبقاً - قد مثلت امشاجاً من الأفكار والتصورات الدينية والاسطورية المتحدرة من العالم الفكري الديني والاسطوري الشرقي القديم .

من «يشوع - يسوع» اليهودي إلى «يسوع - يشوع» المسيحي . أو من «وعي الإثم والخيبة» إلى «وعي الغبطة والاقترام»

إذا كنا ، في الفقرة السابقة ، قد ركزنا جهودنا باتجاه عملية التحول العسيرة والمديدة ، التي طرأت على يهو الرب من المواقع الكنعانية إلى موقعه اليهودي الخاص ، فإن ذلك كان مستهدفاً بذاته ، أي بهدف ضبط تلك العملية في حدودها الأولية ؛ كما كان - من طرف آخر - مدخلاً بنيوياً وتاريخياً تراثياً إلى معالجته في صيغه الوظيفية المتعددة والمتباينة ، التي نيطت به من قبل التيارات الدينية اليهودية الكبرى . وهذه المعالجة هي ، بدورها ومن موقعها ، ستكون قميئة بأن تنقلنا إلى عمق مرحلة الانتقال إلى يسوع المسيح (المسيحي) . وبطبيعة الحال ، فإن من شأن مثل هذا البحث أن يجعلنا نتلمس - عن قرب - تلك المواقف والآفاق المشخصة ، التي ظهرت لاحقاً في ما سنواجهه بصيغ «اليهودية المتأخرة» ، واليهودية المسيحية» ، و«المسيحية البوئسية» الخ . . .

ولعل نقطة الانطلاق أو ربما إحدى نقاط الانطلاق الكبرى في عملية انجاز تلك المهمة تكمن في البنيات السياسية والدينية الايديولوجية للتيارات الاربعة الكبرى ، التي تكلمنا عنها تفصيلاً في موضع سابق من هذا الكتاب . وهذا يجعلنا مدعوين للعودة ثانية إليها ؛ إنما ، الآن ، من موقع المسألة المطروحة في هذا السياق . وعلى هامش هذه الأخيرة ، تبرز الملاحظة المنهجية الأولية التالية ، وهي ان التيارات المنوّه بها مارست دوراً ناظماً وضابطاً للأحداث التي ستتم لاحقاً على صعيد تبلور والاتساع للوعي الديني الجديد ، المسيحية . وهذا نجولنا بالقول بأن البحث في تلك التيارات يشكل في ذاته عملية ذات أبعاد متعددة تخرق البنيات والوظائف الخاصة بها (بالتيارات) عمقاً وسطحاً .

ثمة سؤال مركزي ومحدد يظهر ، بادىء ذي بدء ، ملحاً شديداً اللاحاح في أهميته على صعيد ما نحن في سبيل تقصيه ؛ ذلك هو : لماذا ظهرت اليهودية عموماً (أي بغض النظر عن تمايزاتها وانقساماتها الداخلية البنيوية والوظيفية) بمثابتها الحاضنة الخصبة الكبرى ، التي تولدت فيها المسيحية ، وترعرعت ، وامتلكت ، من ثم ، الكثير من عناصر تطوراتها اللاحقة ؟ وبالمقابل وبنفس اللاحاح في الأهمية المركزية ، يفرض السؤال التالي نفسه : لم ظهرت المسيحية عموماً (أي بغض النظر عن تمايزاتها وانقساماتها الداخلية البنيوية والوظيفية) من حيث هي البديل عن اليهودية ؟

ان ذلك السؤال المركب يحلنا ، إذ ندرك مشكلته الأساسية ، إلى أمرين اثنين خطيري الأهمية بالنسبة إلى تقصي آلية وبواعث عملية احتضار اليهودية أو - على الأقل - بالنسبة إلى فهم ظهورها بمظهر العاجز عن تلبية عملية الاندماج في الشرط الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والايديولوجي (الديني) في حينه (في القرن الأول قبل الميلاد وما بعده ، وخصوصاً في المرحلة الانتقالية من المرحلة النهائية مما قبل الميلاد إلى البدايات الأولى الباكورة لهذا الأخير) . الأمر الأول تمثل باتساع الصدامات السياسية والعسكرية بين اليهود أنفسهم أولاً ، وبينهم وبين المحيطين بهم والمناوئين لهم في القرب أو في البعد ثانياً . أما الأمر الثاني فقد تجسد بنشوء عقيدة «العالم الآخر» في اليهودية ديناً ومجتمعاً ، وبانتشارها على نطاق شمولي تقريباً ، وخصوصاً في أوساط جمهور الفقراء والمفقرين .

فيما يتصل بالأمر الأول ، نستطيع القول بأن الصراع المركب - بين اليهود أنفسهم وبينهم وبين الآخرين - اكتسب معالمة الأولى واتجاهات تحولاته العامة مع بدايات دخول أولئك إلى فلسطين . فاندفاع مجموعات منهم باتجاه الاندماج بغيرهم من الأقوام الكنعانية وغيرها ومقاومة الكهنوت اليهودي المهيمن اريستوقراطياً لذلك من جهة ، ومحاربة الكنعانيين الفلسطينيين وشعوب أخرى بعيدة لهم كالأشوريين والبابليين والرومانيين من جهة أخرى ، كان من شأنه أن حال دون أن يعيشوا باستقرار اقتصادي واطمئنان أمني وهدوء سيكولوجي - ما عدى فترات قليلة واستثنائية - .

وبنتيجة نظرة تاريخية ميدانية ، يمكن القول بأن حالة الاضطراب والهلل والقلق تلك ظهرت في عقد خطيرة من التاريخ اليهودي . ففي عام ٧٢٢ قبل الميلاد ، اسقط الآشوريون ، بقوة السلاح ، اسرائيل ، أي المملكة الشمالية في حينه ، متبعين ذلك بترحيل معظم سكانها وبشتيتهم خارجها ؛ وبعد قرن وثلاث قرن من الزمن (عام ٥٨٦ قبل الميلاد) ، وقف المحاربون البابليون بقيادة نبوخذ نصر في ساحات مملكة يهوذا الجنوبية ليدكوا معاقلها ، مستولين ، في سياق ذلك ، على اورشليم (القدس) ، التي أحرقوا «معبدنا المقدس» ، ومُدخلين اعداداً هائلة من اليهود في طريق الأسر إلى بابل المزدهرة اقتصادياً وثقافياً ، في حينه .

نضيف إلى ذلك ما حدث في عهد الاخوة المكابيين وبعده . فلقد وقف هؤلاء - في النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد - بعنف وصلابة ضد عمليات الهلينة في الأوساط اليهودية بقيادة الملك انتيوخ Antiochus . وهم وإن حققوا ، في ذلك انتصاراً أو بعض انتصار ، فإنهم - من طرف آخر وبالمقابل - قدموا الكثير من التضحيات ، التي كان من أبرزها أن تعاضم البؤس واليأس في حياتهم ، ودخل القنوط والتسليم في تفكير وقلوب معظم أوساطهم . وفي إطار هذه الوضعية من الإحباط العميق ، كان صراع قد نشأ بين ذهيتين اثنتين إن التقيتافي أن الواحدة منهما لم تعترف بالأخرى إلا اعتراف العلوي بالدوني . ف «الشعب المصطفى المختار» ، الذي وصل على أيدي كهنوته اليهودي الاريستوقراطي إلى مستوى العقيدة الإلتهية القصوى ، يتحول - في نظر الاريستوقراطية الرومانية العبيدية المسيطرة - إلى أحد أنساق من سمّتهم هذه الأخيرة بـ «البرابرة» . في هذا الحقل ومن موقعه ، اتجه الأمر إلى يكتسب طابع الصراع بين تصورين متضايين ومكوّنين - في نفس الوقت - وجهين لموقف واحد في بنيتهم ووظائفه العامة ؛ الأول منهما تمثل بالمعارضة الاصطلاحية الثنائية التالية ذات التوجه الإلتهى والثقافى «شعب مصطفى مختار - غوييم» من طرف ، و «رومان - برابرة» من طرف آخر . أما الموقف الثقافى والسياسى ، الذي تبلورت في سياقه وحوله تلك المعارضة الثنائية ، فقد تمثل بسياسة الهلينة الرومانية تجاه اليهود خصوصاً ، والشعوب التي كانت منضوية في اطار الامبراطورية بصورة عامة .

ولاشك أن سقوط اورشليم عام ٧٠ ميلادية بأيدي الرومان وبعد معارك

قاسية ومريعة ، كان قد حمل - في نتائجها القرينة والبعيدة - تنويجاً لـ «الفاجعة» في أوساط اليهود ، إجمالاً . فلقد هدم «المعبد المقدس» للمرة الثانية ؛ وتشتت اليهود ، هذه المرة في أنحاء متعددة من الامبراطورية الرومانية المترامية الأطراف ، وكذلك خارجها . وجدير بالذكر أن هذه العملية وما تلاها (على الصعيد العسكري والاقتصادي) برزت بمحاثاتها تطبيقاً حديدياً قسرياً لسياسة الهلينة الرومانية ، أي بصفتها أمراً بانجاز الاندماج اليهودي بروما . وبصيغة أخرى يمكن القول ، أن ذلك الموقف ظهر كما لو أنه نقض لتصور الكهنوت اليهودي المتزعم حول «المركز والهامش» ، الذي سبق وأتيننا على معالجته من ناحية ، وفرض لتصور سادة روما المقابل والذي هو «روما المركز - الأطراف»^(١) .

إن تلك السلسلة المتصلة والمديدة من الصدمات الداخلية والصراعات الخارجية لم تبق في حدود الموقف السياسي والعسكري ؛ بل انما جلبت ، أثناء حدوثها وإثر ذلك ، سلسلة أخرى من التصدعات الاجتماعية والاقتصادية والعقيدية ، وكذلك السيكولوجية والعاطفية ، في مجمل الأوساط اليهودية ، حيثما كانت ، في فلسطين أو في الشتات . في نطاق هذه العملية المركبة المعقدة ، كانت العقيدة الدينية اليهودية تنحدر باتجاه مزيد من التصلب والجمود والتزمّت ، إضافة إلى اتجاهات من تصاعد العدوانية والشراسة حيال الآخرين . وفي هذه الحال ، لا يجوز أن ندع ذلك التعميم في الموقف اليهودي الجديد دون إبداء ملاحظتين اثنتين . الأولى منهما تقوم على القول ببعض التخصيص على صعيد الموقف المنوّه به ، بحيث تبرز ، هنا ، الأوساط الارستوقراطية اليهودية المنسدة في قمته (أي الموقف المعني) ، وفي عمق الدعوة الى تصليبه وإلى التشدد فيه وإعلان زندقته الخارجين عنه وعليه . أما الملاحظة الثانية فتنهض على الإشارة إلى أن تلك الوضعية عموماً خلقت الكثير من المسوغات الذاتية لطرح المقولة الكهنوتية اليهودية التالية في أوساط المحبطين والمخيبين الآمال من جمهور اليهود : إن ما يحدث هو عقاب على

(١) انظر : محمد خليفة التونسي - الخطر اليهودي ، بروتوكولات حكماء صهيون ، الطبعة الرابعة ، مع مقدمة لعباس محمود العقاد ، المكتب العربي ، بيروت ، دون ذكر لتاريخ النشر ، ص ٥٤ .

الخطيئة التي ارتكبها هؤلاء بحق «ربهم» ، حيث عبدوا آلهة أخرى سواء ، أي حيث اندمج منهم قسم أو آخر «بشعوب النجاسة» ، الغوييم .

على ذلك النحو ، كانت نوازع الحقد على الشعوب الأخرى ، بعقائدهم ومسالكتهم المعاشية ، قد أخذت تتعزز وتجدد أصداً واسعة في أوساط «المقهورين» . ولكن في نفس الوقت ، كانت هي النزعات المسيانية (الخلاصية) قد أخذت - هي بدورها - في التعاظم والاتساع في الانتشار ؛ فكثر الحديث عن اقتراب «يوم الخلاص» و «المخلص» و «الفرج» ، ومن ثم عن حلول عصر «المسيح الدجال» . ونستطيع القول ان ظهور تلك النزعات ، بالصيغ الجديدة العظمى (القصوى) ، كان من السمات الكبرى لتأنيج التصدع الداخلي (اليهودي) ، بصورة خاصة .

ولعل حركة المكابيين ، بما حققته من ظفر نسبي ، كانت أهم العوامل التي أسهمت في الإبقاء على العقيدة اليهودية عموماً ، وبصورة أو بأخرى . فهي ، والحال كذلك ، كانت بمثابة القوة التي وقفت في وجه عملية تفتيت العقيدة الدينية اليهودية وبعثرتها في العقائد الأخرى ^(١) . ولكنها (الحركة المكابية) وإن ظهرت متغلبة على خصمها التاريخي القوي ، الذي تمثل بالتيار الهليني الكاسح ، فإنها ، بالرغم من ذلك ، لم تنج من تأثيراته وتأثيرات غيره ، بدرجة أو بأخرى . فلقد اندمجت جموع ليست ضئيلة من يهود الشتات ، وخصوصاً من أولئك الذين فضلوا البقاء في بلدان نفيهم ، في الشعوب الجديدة عليهم ، وتحولت - بأفق ما ودرجة ما - إلى بُعد بشري (ديموغرافي) من أبعادها . وعلى هذا ، فإذا وضعنا في الاعتبار أن

(١) انظر حول ذلك ، مع المقارنة ، برتراند رسل - حكمة الغرب ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٣٩ . ويبدو أن تأثير المكابيين في توطيد اليهودية أو في الحيلولة دون سقوطها ، بمثابة ديناً وموقفاً إتنياً ، كان كبيراً . وقد ظهر ذلك ، على سبيل المثال ، في أن عادة الختان الهامة في الحياة اليهودية والتي أرادها اليهود (بتأثير ضخم من الأوساط الكهنوتية العليا) أن تكون تمييزاً لهم وتمييزاً عن غيرهم من شعوب الشرق الأدنى القديم - بالرغم من أنها انحدرت في الأصل من المصريين وغيرهم - لم تتخذ صورتها التي هي عليها الآن إلا في مرحلة متأخرة كثيراً من مراحل التاريخ اليهودي ، وهي مرحلة المكابيين (عام ١٦٧ قبل الميلاد) . (راجع هذا الرأي لدى برفولت Briffault ضمن : ول ديورانت - قصة الحضارة ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٣٧١) .

العلاقات الاجتماعية والدينية العقيدية والمالية لم تنقطع نهائياً بين هؤلاء اليهود من جهة وبين أولئك الذي ظلوا في فلسطين أوجعوا إليها أو كانوا قريباً منها - كما هو الحال بالنسبة إلى المكابيين إياهم - فإن ملامح وميولاً من الهلينة والبيئنة (نسبة إلى بابل) والأرينة (نسبة إلى إيران) لابد وأن تكون قد فرضت نفسها ، أو تركت آثاراً لها في حياة أولئك (المكابيين) .

أما الأمر الثاني ، الذي وجدناه متمثلاً بدخول عقيدة «اليوم الآخر» في صلب اليهودية ، فقد كان من ورائه ذلك الجو المحموم الذي تصاعد برؤى وتصورات المسيح الجديد والخلاص من أوضاع تتسم «بالهول والفظاعة» . ولقد كان للتأثير الإيراني (الفارسي) ، خصوصاً ، دور عميق في التحريض على تكوين تلك العقيدة في الأوساط اليهودية التي رأت تحررها يتم على يدي كورش . في هذا المعقد الدقيق للمسألة ، نذكر بما أضافاه «المحررون» أولئك على يدي هذا الملك الفارسي من صفات العظمة والجلال . وكان في طليعة هذه الأخيرة صفة «المسيح المخلص» . والحق ، أن امرأً يستوقفنا في هذه النقطة . فلقد عرفنا الأيديولوجيا الكهنوتية اليهودية من حيث هي موقف يقوم - ضمن ما يقوم عليه - على تصور «المركز - الهامش» بأحد شقيه ، وهو «الشعب المصطفى المختار - الغوييم» . ومن شأن ذلك أن يصبح الوجود الانساني منقسماً انقساماً مطلقاً قطعياً بين ذلك الشعب ، الذي يُعتبر في هذه الحال «شعب الرب» بقدر ما يعتبر هذا الأخير «رب ذلك الشعب» ، من طرف ، وبين كل ما هو غير مندرج في نطاقه (نطاق الشعب المعني) من الشعوب طرّاً ، من طرف آخر . وإذا كانت المسألة على هذا النحو من الحدية والحسم في التمييز الإثني الديني أو الديني الاتني بين الفريقين المذكورين ، فكيف حدث أن أطلق اليهود ، بكهنوتهم الأعلى ، لقب «المسيح المخلص» على ملك لا يتصل - حسب تصنيفهم - بـ «المركز اليهودي» ، أي بالشخصية اليهودية المتميزة والمتمايزة حيال غيرها من شخصيات شعوب الأرض ، في حينه ؟ لقد فكر في هذه الوضعية رهط من الباحثين والكتاب ، وطرحوا على أنفسهم هذا السؤال ، معتقدين أن ذلك يمثل مفارقة في النسق الذهني لليهود عموماً ، أو أنه ينطلق من رغبة الرب اليهودي يهوه^(١) .

(١) يكتب ، ضمن هذا الفهم للمسألة ، فالخ مهدي مايلي : «وكما نعرف فإن كورش شخصية =

لا شك أن تلك الظاهرة لا تمثل خرقاً وحيداً في ذلك النسق الذهني ، على الأقل وفق ما تقدمه نصوص «العهد العتيق» من مواقف مماثلة . ونحن ، من طرفنا ، نرى في الظاهرة المعنية دالتين اثنتين بالغتي الأهمية . الدلالة الأولى تتصل بالايديولوجيا الكهنوتية المهيمنة ؛ فهذه تغدو ، بمقتضى ذلك ، غير قادرة على أن تحافظ على شخصيتها التي قدمت لنا في توجهها اليهودي الصارم ، الذي لا يقبل منازعاً ولا شريكاً جزئياً أو مناصفة . أي إن الخط التي نواجهه حازماً صارماً في هذه الايديولوجيا عامة ، يتلاشى تحت تأثير مكاسب يعتقد أنها تغني الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الخاصة . في هذه الحال ، كان السماح لليهود بالعودة من بابل إلى فلسطين معادلاً لمنحهم لقب «المسيح المخلص» لصاحب هذا القرار ، كورش الفارسي (علماً أن الكثير من اليهود رفضوا العودة مفضلين البقاء في بابل مندجين بدرجة أو بأخرى بمن عاشوا معهم زمناً ليس قصيراً ، وذلك اعتقاداً بأن «مسيحهم» قد وجدوه في ربوع بابل الزراعية والحرفية والتجارية) (١) . من موقع

فارسية فيما الذي دعا اليهود إلى اعتباره مسيحاً ومنقذاً ونحن نعلم أن العبريين متعصبين لا يرتضون بقيادة من غير الاسرائيليين ، إضافة إلى أن كتبهم المقدسة اكدت أكثر من مرة على أن المسيح المنتظر سيكون من بيت داود ٢... ويظهر... أن الله قد اختار مسيحه وعنده كورش لانقاذ شعبه المختار أي اسرائيل - وارسله لخلاصهم الأبدى ، وكما يظهر فإن الله هو الذي يسير أمام المسيح كورش - ويمهد له الطريق ويفتح له كل الأبواب المغلقة فهو المنقذ لإرادة الله . (فالح مهدي : البحث عن منقذ - دراسة مقارنة بين ثمانى ديانات ، دار ابن رشد للطباعة والنشر بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨١ ، ص ١٠٥ - ١١٠) .

(١) إن إغفال أهمية هذه الواقعة التاريخية يؤدي لدى بعض المؤرخين والباحثين إلى الظن بأن اليهود الذين فضلوا البقاء في بابل كانوا «خونة» أو «عملاء» لبابل أو ما يقترب من ذلك ؛ بينما أولئك الذين رجعوا من السبي على يد كورش لا يرون فيهم خونة أو عملاء لكورش هذا أو ما يقترب من ذلك . مثل هذا النظر إلى الأمور نواجهه لدى مؤرخ مثل ول ديورانت الذي يكتب عن إرميا أنه «قد يكون... خائناً أو لا يكون» في موقفه من دعوة كورش لليهود بالعودة إلى اورشليم . (انظر : ول ديورانت - قصة الحضارة ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٣٥٨) .

وللمقارنة بين إرميا ذاك ، الذي قد يكون «خائناً» برأي ديورانت وبين أشعيا الذي يعتبره هذا الأخير «من أعظم شخصيات التاريخ العبري» - انظر : نفس المرجع السابق ومعطياته - ص ٣٥٢ ، نورد نصاً لكل منهما لتبين خطئ المنهج الذاتي الذي ينطلق منه ديورانت :

هذه الدلالة للحدث المعني ، نستطيع أن نعيد النظر في بنية التصور اليهودي اليهودي المشار إليه آنفاً ، أي لتصور «المركز - الهامش» في صيغته التالية ، وهي «تعارض وتضاد الشعب المصطفى المختار مع الغوييم» ، بحيث يغدو على النحو الآخر التالي : «تطابق الكهنوت الاريستوقراطي اليهودي مع المصلحة الاقتصادية الاجتماعية المباشرة من أي مصدر كانت» . ومن ثم ، فليس من الحق النظر إلى التصورات الكهنوتية اليهودية من حيث هي صارمة حازمة ومتأسكة مع ذاتها . ومن ثم ، لم يعد ما يدعونا لأخذها على محمل الجد .

أما الدلالة الثانية فتمثل في أن صفة «المسيح المخلص» ، التي أطلقت على كورش ، كانت - بمعنى ما - تعبيراً عن تصاعد الاتجاهات المسيانية (الخلاصية) . وإذا كنا قد وجدنا في اعتبار كورش «مسيحاً» من قبل الكهنوت الأعلى ، أمراً يدل على تضعف قوة هذا الأخير وهيمنته يهودياً ، فإن اتساع ظاهرة المسيانية يشير إلى تضعف قوة اليهود عموماً . ان الملك كورش يذكر باسمه في «نبوءة أشعيا» ؛ ولكن في نبوءات أخرى يجري الحديث عنه دون ذكر لاسمه مباشرة . وبطبيعة الحال ، نحن نبتين في الحالتين تأكيداً على الخلاص ، ومن ثم وبصورة غير مباشرة على «العالم الآخر» ، الذي سيشكل البديل عن «هذا» العالم بكل ما نجم عنه من دمار واضطراب وتصدع .

= «والآن قد جعلت جميع هذه الأراضي في يد نبوخذ نصر ملك بابل عبيدي وإعطيت أيضاً وحوش الصحراء لتتعبد له . فتعبد له جميع الأمم ولايته ولاين ابنه الى أن يبلغ أوان أرضه أيضاً وتتعبد له أمم كثيرة وملوك عظماء . . . فلا تسمعوا لانبيائكم وعرافيتكم وحالميتكم ومتطيريتكم ومتفائليكم الذين يكلمونكم قائلين إنكم لاتعبدون لملك بابل . فإنهم إنما يتنبأون لكم بالزور ليبعدوكم عن أرضكم . . . خط التشديد مشي : ط. تيزيني» . (الكتاب المقدس - نبوءة إرميا ٢٧/٦-٧ ، ٩-١٠) ١

«هكذا قال الرب لمسيحه لكورش الذي أخذت يمينه لأخضع الأمم بين يديه وأحل أحقاء الملوك لافتح أمامه المصاريع ولا تُغلق الأبواب . إني أسير قدماك فأقوم المعرج وأحطم مصاريع النحاس وأكسر مغاليق الحديد . وأعطيك كنوز الظلمة ودقائق المخايب لتعلم أني أنا الرب الذي دعاك باسمك اله اسرائيل . (الكتاب المقدس - نبوءة أشعيا ٤٥/١-٣) .

وقبل أن نورد نصاً نموذجياً من الرؤى المسيانية في العهد العتيق ، نود الإشارة إلى أن كتابة هذه الأخيرة كانت تتم في إحدى حالتين رئيسيتين ؛ الحالة الأولى بعد الحدث الرؤياوي المعبر عنه ، والحالة الثانية «قبل» ظهوره .

أما الكهنوت الكاتب (المثقف) فكان يزعم أن كتابة الرؤى جميعاً تمت قبل وقوع أحداثها ؛ وهذا وهم كهنوتي أملت مقتضيات الموقف المشخص الواقعي والذهني الذاتي . وبالرغم من ذلك ، فقد مارست تلك الرؤى دوراً مثيراً في تحفيز العواطف اليهودية باتجاه انتظار المخلص والتهيئة لاستقباله . وجدير بالذكر أن كتابة رؤيا «قبل» الحدث ، كانت أمراً وارداً ؛ دون أن يعني ذلك تطابقاً بين الكتابة وما يُزعم أنه تصديق لها . لكن لما كان الوضع الاجتماعي الاقتصادي والديني والسياسي والجغرافي قد تدهور باتجاه «المأساة» ، فقد كان ما يكتبه الكهنة رؤياوياً سهل التصديق ؛ لأنه يتحدث عن «المأساة» و«الخلاص» ، دون أن يكون الحديث محدداً . بل ربما أكثر من ذلك ؛ فالكتابات الرؤياوية تحولت في أوساط جمهور اليهود الفقراء والمفقرين ، خصوصاً ، إلى ما يشبه «برامج عمل» مستقبلية آن أوان تحقيقها .

سننقل نصاً رؤياوياً من «نبوءة دانيال» التي كتبها «بعد حدوث ما تنبأ به» ، وهو أن ملك فارس ومادا هو الذي سينقذ اليهود من الشتات في بابل . وإذا تذكرنا أن شطراً ليس ضئيلاً من هؤلاء أبي العودة إلى فلسطين ، فاننا نتبين ، بصيغة عامة ، مَنْ الذي كتب تلك الرؤيا ولمن كُتبت . وتبقى الإشارة ضرورية إلى أننا نواجه في النص المعني أسلوباً في العرض يقوم على الترميز الطبيعي والحيواني ، الذي يضيف على الرؤيا بعداً كونياً يستجيب لمقتضياتها :

«في السنة الثالثة من مُلك بَلْشَصَرَّ الملك ظهرت لي أنا دانيال رؤيا بعد الرؤيا التي ظهرت لي في البداية . فرأيت رؤيا وكنت عند رؤياي في شوشن العاصمة التي بإقليم عيلام ورأيت الرؤيا وأنا على نهر أولاي . رفعت طرفي ورأيت فإذا بكبش واقف عند النهر وله قرنان والقرنان عاليان والواحد أعلى من الآخر والأعلى طلع أخيراً . ورأيت الكبش ينطح نحو الغرب والشمال والجنوب فلم يقف أمامه حيوان ولم يكن منقذ من يده فصنع كيف شاء وصار عظيماً . وبينما

كنت متأملاً إذا يتيسر معز قد أقبل من الغرب على وجه الأرض كلها وهو لا يمس الأرض وللتيس قرنٌ عجيب المنظر بين عينيه . فأتى إلى الكبش ذي القرنين الذي رأيته واقفاً عند النهر وهجم عليه بشرة بأسه . ورأيته قد بلغ إلى جانب الكبش واستشاط على الكبش وضربه فكسر قرنيه ولم تكن في الكبش قوة للوقوف أمامه وصرعه على الأرض وداسه ولم يكن منقذ لكبش من يده . فتعاضم تيس المعز جداً وعند اعتزازه انكسر القرن العظيم وطلع من تحته أربعة قرون عجيبة المنظر نحو أربع رياح السماء . وخرج من واحد منها قرن صغير ثم تعاضم جداً نحو الجنوب والشرق ونحو فخر الأراضي . وتعاضم حتى على جند السماء وأهبط إلى الأرض بعض الجند والكواكب وداسها . وتعاضم حتى على رئيس الجند وبأمره نُزعت المحرقة الدائمة وهدم موضع مقدسه . وجعل جندٌ على المحرقة الدائمة بسبب المعصية فطرح الحق على الأرض وفعل ونجح . فسمعت قديساً يتكلم قال قديس لفلان الذي يتكلم معه إلى متى الرؤيا رؤيا المحرقة الدائمة والمعصية المدمرة وحتى متى يجعل القدس والجند مدوسين . فقال لي الفين وثلاث مئة مساءً وصباح ثم يطهر القدس . فلما رأيت أنا دانيال هذه الرؤيا والتمستُ بيانها إذا بشبه رجلٍ قد وقف أمامي . وسمعت صوت إنسان من وسط أولايٍ قد نادى وقال يا جبرائيل بين الرؤيا لهذا . فأتى إلى موقفى فلما أتى ارتعبت وخررت على وجهي فقال لي استبين يا ابن البشر فإن الرؤيا تتم في الوقت المحدود . . وقال إنني أعلمك بما سيكون في آخر السُّحُط فإنه يتم في الميعاد المحدود . ان الكبش الذي رأيته ذا قرنين هو ملوك ماداي وفارس . وتيس المعز هو ملك ياوان . والقرن العظيم الذي بين عينيه هو الملك الأول . أما انكساره وقيام أربعة من تحته فهو أن أربع ممالك تقوم من الأمة ولكن لا تكون في قوته . وفي آخر مملكها عند تمام المعاصي يقوم ملكٌ وقح الوجه ذو فطنة في الأحاجي . وتعز قوته ولكن لا بقوته فيفسد وينجح ويفعل ويدمر الأقوياء وشعب القديسين بما يفوق الوصف . وبدماته يجعل المكر في يده نافذاً ويتعاضم في قلبه وفي خصبه يدمر كثيرين ويقوم على رئيس الرؤساء وبغير اليد ينكسر^(١) .

(١) الكتاب المقدس - نبوءة دانيال ٨/ ١٧-١٩ ، ٣٥ .

ان هذا النض الذي أوردناه ، على طوله ، قدم مادة خصبة للاتجاهات المسيانية ، التي كانت تزدهر بقوة في مراحل التأزم السياسي والديني والاقتصادي والاجتماعي والجغرافي (أي الانتقال من منطقة إلى أخرى بما في ذلك الطرد والتهجير) ، تلك المراحل التي لم تكن قصيرة أو قليلة في التاريخ اليهودي ، والتي تعود ، كذلك ، إلى زمن النفي البابلي . ويهمننا من ذلك ، بصورة خاصة ، المرحلة الانتقالية من القرن الأخير مما قبل التاريخ الميلادي إلى القرن الأول من هذا التاريخ ؛ ذلك لأنها تلقي ضوءاً على البواعث التي كانت من وراء نشوء المسيحية اليسوعية نفسها . وجدير بالقول أن هذه المرحلة الانتقالية استتقت تصوراً ذا أهمية بالغة من العقائد الفارسية ، وذلك في سياق دخول كورش (أي الذهنية الفارسية) إلى بابل وسماحه لليهود بالعودة من الأسر ؛ نعني بهذا تصور الثنائية بين عالم الخير الإلهي وعالم الشر الشيطاني . أي أن ذلك التأثير حدث خصوصاً في مرحلة ظهور كورش «مسيحاً يهودياً» ، مما ولد ثقة جديدة في نفوس من فقدوها بوجود آفاق أخرى تحقق السعادة في عالم افتقدت فيه للأكثرية العظمى ضمن التجمعات اليهودية والأخرى المنضوية في إطار الامبراطورية الرومانية .

ان تلك «الثنائية» تقوم على أن الرب إذ كَوّن الانسان ، فقد كونه شبيهاً له وعظيماً وبديمومة متصل ، بمعنى ما ، بالخلود . وبعد وجود الانسان (آدم - الذكر) ، يجد الفعل الرباني فعلاً آخر منافساً له تمثل بما صنعه الشيطان (وهو هنا الحية المخادعة) مع آدم وسليته حواء . وعلى ذلك ، يدان الانسان بعد غوايته على أيدي الشيطان ، بحيث يرغب على أن يهبط إلى عالم الخطيئة ^(١) . وقد عبر ذلك السلوك التناقضي الصدامي عن شخصية التناقض والصدام التي تخيلها الكتبة وأطنبوا في وصفها بين القوى الطبيعية . فالظلمة والضياء يمثلان هذا الوضع ، بحيث أن الأولى تجسد الشر ، في حين أن الثاني يجسد الخير . ولا يخفى أن مثل هذا التصور كنا واجهناه لدى المصريين والبابليين والفينيقيين ؛ مما يجعلنا نرجح أن يكون اليهود ، الذين كانوا ما يزالون يحملون أصداء قوية كثيراً أو قليلاً من تلك

(١) انظر في ذلك: Arthur Drews- Geschichte des Monismus im Altertum, a.a.O., S. 363 وكذلك : هـ . فرانكفورت وآخرون - ماقبل الفلسفة ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٢٧٥ .

الوضعيات التي عاشوا فيها أو عايشوها من قبل أو في حينه ، قد تأثروا بها على صعيد التصور المعني هنا ؛ هذا - بالطبع - إذا ظل مائلاً في أذهاننا التأثير اليوناني الهليني^(١) .

والآن ، إذا وضعنا ذلك الذي وصلنا إليه وما سبقه في سياق الأحداث الكبرى والصغرى ، التي برزت في القرن الأخير السابق على الميلاد ، استبانست أمامنا احتمالات التحول والتطور في الحقل الديني الايديولوجي في اتجاهاتها العامة الرئيسية . لقد كان من مقتضيات الأمور ، والحال على ذلك النحو ، أن يُدرج خصوم اليهود وأعدائهم في دائرة «الشر» ، بحيث يغدو «الشيطان» التجسيد المباشر والمكثف لهم . وفي هذه الوضعية المفعمة بالقلق والخوف والتوقع ، لم يُنظر إلى أولئك الخصوم والأعداء ، الذين أُكسبوا تلك الشخصية في أوساط اليهود (غير المندمجين وبطليعتهم الكهنوت الأعلى) ، أي في أوساط «الشعب المصطفى المختار» ، على أنهم العامل الحقيقي الكامن وراءها ، وإنما تغدو «الخطيئة» التي اقترفها هذا الشعب بحق «ربه» هي ذلك العامل بالذات^(٢) . وما أولئك الخصوم والأعداء - في هذه الحال - إلا أدوات قهر سلطها الرب على «شعبه العاق» . وغالباً ما تكون «الخطيئة» قد تمثلت بـ «تجاوز الحدود» ، التي رسمها الرب له (للسعب) ، والتي طالبه في «عهده» معه بالآ يتجاوزها ، مثل التلكؤ في دفع

(١) انظر ثانياً : Arthur Drews- Geschichte des Monismus im Altertum, a.a.O., S. 362- 364.

(٢) لنقرأ مثلاً ما يعلنه أشعيا في «نبوءته» عن «الاسباب» ، التي أدت إلى دخول الاشوريين إلى اورشليم وسبيهم لليهود ؛ فيتضح لنا أن «الرب» يقف لهؤلاء دائماً بالمرصاد إذا خطشوا اليه (والخطيئة هنا تقوم على تحالفات عسكرية موجهة ضد الرب) :

«سيجلب الرب عليك وعلى شعبك وعلى بيت أبيك أياماً لم تأت من يوم اعتزل أفرائيم عن يهوذا وذلك على يد ملك آشور . في ذلك اليوم يصير الرب للذباب الذي في أقصى أنهار مصر وللنحل الذي في أرض آشور . فتقبل وتحمل كلها في الأودية المقفرة . . . في ذلك اليوم يحلق السيد بموسى مستأجرة في غير النهر بملك آشور الرأس . . . وفي ذلك اليوم كل موضع كان فيه ألف جفنة بألف من الفضة يصير قتاداً وشوكاً . ولا يدخل الى هناك إلا بالسهم والقوس لأن الأرض كلها تكون قتاداً وشوكاً» . (الكتاب المقدس - نبوءة أشعيا ١٧/٧ - ٢٠ ، ٢٣ - ٢٤) .

الضرائب ، وتقديم الاضحيات ، وعدم احترام قدسية اللاويين - الكهنة بالقدر المحدد المطلوب الخ وجدير بالذكر أن هذا الموقف كان غالباً ما يبرز في حالات المصائب والهزائم ، مثل تلك التي مني بها اليهود على أيدي أعدائهم المتمرسين الاشوريين ، «عقاباً لهم من ربهم على ما اقترفوه بحقه رغم تحذيره وإنذاره»^(١) . وينبغي القول بأن «الشيطان» ، في نظر عليّة اليهود الارستوقراطية ، لم يقتصر تجسده على الخصوم والاعداء «الخارجيين» من شعوب المنطقة ، بل امتد ذلك إلى الأوساط اليهودية الفقيرة والمفكرة ، التي وجدت نفسها أمام ضرورة التصادم ، بشكل ما ، مع تلك العلية ؛ خصوصاً وأنا لاحظنا وجود بعض مظاهر ذلك مضمراً ومفصلاً عنه في التيارات الدينية السياسية ، التي أتينا عليها آنفاً . وقد كان من شأن هذا أن أوجد «تعديلات» متتالية ومضطردة في تصنيف «الشيطان» وتوصيفه وفق مقتضيات واقع الحال الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والأقوامي .

في ضوء ذلك كله ، لعننا نستطيع القيام ببعض التعميم للمسألة المطروحة حيث نعلن أن الطرق كانت تفتح وتتسع سالكةً باتجاه «العالم الآخر» و«الخلاص» و«المخلص - المنقذ» و«الآخرة» و«القيامة» و«ثار الله» و«غضب الله» ، وما يدور حول هذه التصورات المسيانية . أما المرحلة التي انتشرت فيها هذا الأخيرة فكانت

(١) في النص التالي تنضح «الخطيئة» من حيث هي التورط في عبادة آلهة الآخرين ، تعبيراً عن الاندماج بهم اجتماعياً ودينياً :

«وفي السنة التاسعة لهوشع أخذ ملك آشور السامرة وجلا اسرائيل إلى آشور . . . وكان بنو اسرائيل قد خطثوا إلى الرب إلههم الذي أخرجهم من أرض مصر من تحت يد فرعون ملك مصر واتقوا آلهة أخرى . وجروا على سنن الأمم التي طردها الرب من وجه بني اسرائيل وعلى ما سنته ملوك اسرائيل . وعمل بنو اسرائيل في الخفاء أموراً غير مستقيمة في حق الرب إلههم . . . وأقاموا لهم أنصاباً وغابات على كل أكمة عالية وتحت كل شجرة خضراء . . . وعبدوا أقلر الأصنام . . . فأشهر الرب على اسرائيل ويهوذا على السنة جميع أنبيائه وكل راء قائلاً توبوا عن طرقكم السيئة واحفظوا وصاياي ورسومي على حسب الشريعة التي أوصيت بها آبائكم . . . فلم يسمعوا واصلوا رقايمهم . . . فردّل الرب جميع ذرية اسرائيل وأذلهم وأسلمهم إلى أيدي الناهيين حتى نبذهم من وجهه» . (الكتاب المقدس - سفر الملوك الرابع ١٧/٦-١١) .

القرن الأول قبل الميلاد ، تخصيصاً . ومايلفت النظر ، في هذا المعقد من المسألة ، ان تلك التصورات تكاد تكون معدومة في القرون الأخيرة قبل الميلاد . أما في ذلك القرن الانتقالي فقد بدا أن جموعاً كبيرة من اليهود «أخيراً» أدركت ان لا رجاء لهم على هذه الأرض . هاهنا تبلور «الرجاء» مجسداً بـ «العالم الآخر» ، ولكن على طريق انتهاء هذا العالم ^(١) .

واستكمالاً لتلك التصورات المسيانية ، نشأت حسابات فلكية أعلنت أن نهاية عالمنا ستكون بعد انقضاء ستة آلاف أو سبعة آلاف من السنين . أما العلائم التي تنبئ بهذه الحال ، فتظهر ضمن أوضاع يرى فيها المرء من ألوان الفضاء والهول ما «تقشعر له الأبدان» ، تلك الفضاءة وهذا الهول اللذان سوف يكونان الخطوة الأولى من المشهد الكوني المسياني ؛ ونعني بذلك الخطوة التي تُدخل العالم القائم المستنفذ في طور «الانتقال الجديد» . أما الخطوة التالية فتتمثل بظهور «الملك الديان» ، الذي سيعلمن حكمه بكل ما حل في هذا العالم من مظالم ومساوئ ودمار (بما يعادل الخطيئة حيال الرب) ، ليُحل محلها الحالة القصوى والمثلث ، حالة السعادة والطمأنينة . وهنا ، يحدث توقف في الزمن ، ليخلد الناس المؤمنون ، نفوساً وأجساداً ، إلى راحة ربانية خالدة .

ولابد ، في هذا السياق من التحول الكبير ، أن يكون «من طبائع الأمور» أن يُسبقَ ظهورُ «الملك الديان» أي «المسيح المخلص» بظهور «مسيح دجال» ، تكون مهمته الكبرى إيصال الموقف إياه إلى حالة الكارثة العظمى ، حيث لا يبقى حجر على حجر . وسوف يبدو ، وفق ذلك ، ان انقضاء تلك الألف من السنين يعني ظهور ملكوت الله ، واختفاء المسيح الدجال ، الذي ملأ الكون ظلماً وجوراً وطغياناً ^(٢) .

(١) يمكن الإحالة ، هنا ، إلى عدد جهم من الأبحاث والدراسات ، الذي تناولت - عرضاً أو تخصيصاً - هذا الموضوع . من ذلك ، مثلاً العناوين التالية : ول ديورانت - قصة الحضارة ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٣٤٥ ، ٣٩١ Prosper Alfari-Die

sozialen Urspruenge des Christentums a.a. O., S 114- 118; ,

Martin Robbe- Der Ursprung des Christentums, a.a.O., S. 54.

1) Martin Robbe: Ebenda.

تقدم «رؤيا القديس يوحنا» ضمن ما يناظرها في العهدين ، العتيق والجديد ، التمثيل الأكثر وضوحاً وحدة وضراوة على «يوم الدينونة الرهيبة» . ولكن الى أن ظهرت هذه الرؤيا المتميزة ، كان ينبغي ان تسبقها ظواهر عديدة ، حملت اشارات وإيماءات مضمنة ومفصلاً عنها إلى ذلك «اليوم المشهود» . ان ما يشير الانتباه ، هاهنا ، ينهض على أن الاتجاهات والنزعات المسيانية (الخلاصية) ، بما اقتضته من تأكيد مأساوي على فساد العالم وعلى ضرورة انبثاق «العالم الآخر» الكامل في اعقاب ذلك وبديلاً عنه ، كانت قد ظهرت قبل ذلك بمرحلة من الزمن ليست قصيرة . هذا ما كنا قد أعلنه في موضع سابق من هذا البحث . لكن ما يستحق العودة إليه ، يكمن في أننا نستطيع أن نتبينه بوضوح في التيارات الدينية (والسياسية) الأربعة الكبرى ، التي كانت قد أفصحت عن نفسها مع الخطوات الأخيرة لليهودية وبروز الارهاصات الأولى الباكورة للمسيحية . تلك كانت الصادوقية ، والفريسية ، والسيلوتية ، والإسينية .

في نطاق تلك التيارات ومن موقع المسألة الخلاصية المطروحة ، تشير الانتباه التصورات التالية ، التي وجدت ازدهاراً متبايناً في تلك الأخيرة . ونعني بهذا الازدهار ما تجسد في المواقف التي اتخذتها التيارات المعنية سلباً أو ايجاباً من هذه التصورات ، التي هي : الآخرة ، والبعث ، والنفس ، والخلص ، ومن ثم يوم الدينونة . وإذا ما حددنا ذلك وضبطناه في حدود الموقف المنهجي ، أمكننا التعرف إلى المصائر الأخيرة التي انتهى إليها «يهوه» ، قبل ظهور المسيحية في صيغتها المتبلورة الناضجة ، أي البولسية .

فلقد لاحظنا ، في حينه وعلى صعيد الايديولوجيا الصادوقية ، أن مبدأها الأساسيين كانا ، من حيث الخط العام الاجمالي ، قمينين بإخراجها من دائرة التصور الايديولوجي المثالي . فالمبدأ الأول منها تمثل في رفض الاعتقاد باستمرار «النفس» بعد الموت . وقد ترتب على ذلك أن رفض ، كذلك ، الاعتقاد بعقاب وثواب بعد ذلك ، أي الاعتقاد بـ «يوم دينونة» . لم يكن لدى الصادوقيين من القول أكثر من أن «هذا» العالم هو مبتدى ومنتهى الوجود . ولذلك ، فإنه لجهد لا طائل تحته أن يبحث الانسان عن عالم «آخر» مزعوم ، وان يشغل نفسه بالتفكير فيه . أما مبدأهم الثاني - ويتمم الأول ويعمقه ويكرسه - فقد انطلق من رفض قطعي للقول بوجود

«قدر» أو «مسير» ، يتحدد من موقع غائية قبلية ربانية . وعلى هذا ، يغدو مفهوماً ما نقله فلافيوس يوسفوس عنهم من أن «الكل يحدث وفق ارادتنا ، بحيث نكون نحن الباعث الأصلي لسعادتنا ، كما تكون تعاستنا نتيجة لجهلنا (عدم فهمنا)»

والطريف ، والإشكالي في آن واحد ، يعلن عن نفسه فيما وصلنا - مرة أخرى عن طريق يوسفوس - من أنهم ، أي الصادوقيين ، أعلنوا بوضوح تعليقاً ورفض كل مبدأ ديني يخرج عن حدود الشريعة الموسوية بحسب فهمهم لها ، أي دون تقديسها . إن ذلك أمر يدعو ، ولاشك ، إلى التبصر والتفكير العميقين في الدلالة الوظيفية للمفاهيم والتصورات ، التي تأتي في أسيرة وعلاقات مختلفة ، موضوعية مشخصة وأخرى ذاتية .

لقد فهم الصادوقيون «شريعة موسى» على نحو يغطي احتياجاتهم الملحة آنذاك ، خصوصاً على الأصعدة السياسية (تواطؤ مع روما ضد خصومها في أوساط اليهود وخارجها) ، والاقتصادية (إحكام السيطرة الاقتصادية على جموع اليهود الفقراء والمفقرين) ، والاجتماعية الثقافية (تسوية عملية هليئة اليهودية والدفاع عنها وقيادتها إلى حدودها الكبرى التي هي الاندماج) . وقد كان على واقع الحال الصادوقي هذا أن تترتب عليه حصيلة مبدئية وذات أهمية نظرية (دينية) واجتماعية مباشرة ؛ تلك هي أن «يهوه» يغدو - بمقتضى ذلك - رب السعادة والسعداء ، أي أولئك الذين يعرفون ما يفعلون ، ويقررون ما يريدون ، وينفذون هذا الذي يقررونه - وهم يملكون القدرة الاقتصادية والسياسية اللازمة لانجاز ذلك - . إن يهوه ، هنا ، ليس رباً للفقراء والمفقرين ، الباحثين ، بظماً ولهاث ، عن خلاص في عالم «آخر خارج هذا العالم» . ومن هنا ، لم يعد هذا الرب متعالياً مفارقاً ، يمتطي الاقدار والمصائر الكونية والانسانية الضاربة في أعماق الغيب ، ويظهر لشعبه فيما وراء الأفق . وكذا التاريخ والتراث لم يعودا ، وفق هذا التصور الدينيوي التفاؤلي ، مرتين بارادة يهوه ورغباته ، بقدر ما أصبح هذا نفسه (يهوه) واحداً من تجلياتها وصيغة من صيغ تظاهراتها . وهنا ، تفصح عن نفسها حالة مثيرة طريفة من التخاصم والتصادم بين يهوهين يتحدث باسمهما وينطلق منها فريقان من اليهود لم يعد التوحيد بينهما ممكناً في ظل وهم «المصطفين المختارين» ،

ذلك الوهم الذي ظل الصادوقيون يعلقون عليه آمالاً كبرى بصفاتهم رأس أولئك وسادتهم .

لقد كان من شأن إلغاء تصوريّ خلود النفس والقدر ، أو على الأقل اضعاف حضورهما وتأثيرهما في البنية الذهنية اليهودية ، الإطاحة بأكبر معقل ليهوه الرب ، ذلك المعقل الذي تمثل بامتلاكه العلم كلياً وجزئياً ، بالكلّيات وبالجزئيات ، ومن ثم محاسبة « المنحرفين » في الدنيا والآخرة أمام محكمة ربانية . فبدلاً من الإرادة الإلهية الكلية والمطلقة ، يأخذ الصادوقيون بالقول بإرادة إلهية لا تتعارض مع الإرادة الإنسانية وقدرتها على تنفيذ غاياتها بقدر ما تتطابق معها وتتممها وتوازيها . وبذلك ، لم يكن بوسع أولئك أن يدركوا « الرب يهوه » كما هو مقدّم في الآيات التالية ، التي تنطلق من رب كلي الإرادة ومطلقها :

« أنا أميت واحيي وأجرح وأشفي وليس من ينقذ من يدي . إني أرفع يدي إلى السماء وأقول حيّ أنا إلى الدهر . إذا صقلت بارق سيفي وأخذت بالقضاء يدي رددت الانتقام على مضايقي وكافأت مُبغضي . أسكر سهامي من الدماء وسيفي يأكل لحماً من دماء الصرعى والسبايا » (١) ؛

« الرب المحكم هو المحارب عنكم » (٢) ؛

« الرب يميت ويحيي يحدر إلى الجحيم ويصعد . الرب يفقر ويغني يحط ويرفع . ينهض المسكين عن التراب يقيم البائس من المزبلة . . . هو يحفظ أقدام أتقيائه والمنافقون في الظلمة يصمتون لأنه لا يغلب إنسان بقوته . . . الرب يدين أقاصي الأرض يهب للملكة غرة . . . » (٣) .

في تلك النصوص وغيرها - وهو كثير - يبرز الرب بمشابهة قدرة مطلقة ، تتحكم بالكون كلاً وجزءاً ، أي بالماضي والحاضر والمستقبل زماناً ومكاناً ، بحيث يغدو الحديث عن فعل إنساني حقاً ليس أكثر من وهم أو من أمر مجازي ؛ إذ « لا يغلب إنسان بقوته » ، بل بقوة الله وحده . ومن ثم ، فالله هو الذي يحارب

(١) الكتاب المقدس - سفر ثنية الاشتراع ٣٢/٤٢-٣٩ .

(٢) الكتاب المقدس - سفر يشوع ٢٣/٣ .

(٣) الكتاب المقدس - سفر الملوك الأول ٢/٦-١٠ .

ويقود الجيوش ، حين «يُخَيَّل» إلينا أن شعبه هو الذي يحارب وأن كهنوته هو الذي يقود .

هكذا ، تحددت الآفاق اللاهوتية (والسياسية) الكبرى ، التي انطلق منها الصادوقيون ورفضوا عبرها ما رفضوا ، واصلين - من خلال ذلك - إلى صورة للرب متميزة أساساً عن صورته تلك : إله الرب الذي يسهم في رعاية شؤون قومه ، ويقدم لهم المشورة في نصوص الشريعة التي قدمها هو لهم عوناً في تنظيم معاشهم ، والتي هي ملزمة بحدود هذا الموقف . مثل هذا الرب يتجلى في نصوص غير تلك التي أوردناها ؛ ومن ذلك النص الهام التالي :

«وقد أشهدت عليكم السماء والأرض بأنني قد جعلت بين أيديكم الحياة والموت والبركة واللعنة فاختر الحياة لكي تحيا أنت وذريتك» (١) .

هاهنا نسمع لهجة الخيار الانساني والحرية الانسانية والمسؤولية الانسانية ، ترن بوضوح وتشديد ، بحيث يغدو ذلك كله شكلاً بارزاً من أشكال التضيق على الرب (المتعالي والمفارق) ومحاصرته ، ومن ثم إقصائه عن الفعل المباشر في الحياة الانسانية ؛ أو (وهذا احتمال وارد) بحيث يصبح ذلك صيغة من صيغ أنسنة الرب أولاً ، ورؤية الانسان ثانياً . وإذا كان الأمر على هذا النحو ، هل يغدو ممكناً أن نقرر وجود ملمح قوي أو ضعيف من ملامح التصور اللاهوتي «الديشي : deistic» الذي يحسبه يبرز فعل الاله في عملية الخلق الأولى فقط ؛ أو وجود سمة من سمات التصور اللاهوتي التوحيدي ، الذي يتحول الرب والانسان ، بمقتضاه ، إلى وجهين اثنين لوجود واحد ؟ لعل مثل هذا وذاك وارد ، ويمكن أن نقرر وجوده وحضوره الواضح ، وإن بدلالات ضمنية مضمنة نتيئها في شطر من النصوص «المقدسة» ليس ضئيلاً .

بعد هذا الذي أتينا عليه ، نرى أنه لم يعد مُلغزاً وغير مفهوم إذا افتقدنا - في الرسالة الدينية الصادوقية - أية صيغة من صيغ المسيانية (الخلاصية) ، اليهودية أو البعلية أو التموزية أو الاوزيريسية الخ . . . ذلك لأن الصادوقيين لم يكونوا بحاجة إلى مخلص يأتي من «عالم الغيب» . فهم يرون في أنفسهم - وليس في قوة

(١) الكتاب المقدس - سفر تثنية الاشتراع ٣٠/١٩ .

أخرى يهودية أو غير يهودية - المخلص على جميع الأصعدة ، بما فيها الاجتماعي والديني . بل ان دلالة ووظيفة «المخلص» تغدوان ، من ذلك الموقع الصادوقي ، مسألتين تتصلان بـ «الراهن» ، وليس بمستقبل ما . وهنا يصح القول بما أطلقه لاحقاً الفيلسوف الألماني لايبنتز : ليس في الامكان أفضل مما هو قائم من العوالم .

إن هذا مجملًا يُري كيف وقفت الصادوقية الدينية والسياسية عائقاً حيال نشوء جل التصورات والمشاريع ، التي انطلقت من «الخلاص والمخلص» ودارت في فلكهما ، مثل يوم القيامة (الدينونة الرهيبة) ، والعقاب والثواب ، وظهور المسيح الدجال عشية ظهور المسيح الرباني ، ودخول العالم في حروب طاحنة ، وكسوف الشمس ، وخسوف القمر ، وما إلى ذلك من المظاهر الكونية الخارقة «راهنًا ومستقبلًا» .

إن يهوه الصادوقي هو ، اذن ، تلك القوة الكونية (الطبيعية والانسانية) ، التي لا تبحث عن مسوغاتها الاخلاقية البعيدة في عالم خلاصي يحققه هو نفسه . بتعبير آخر ، انه (يهوه) الصادوقي لا يستمد مشروعيته الكونية والاخلاقية أمام شعبه من تقديم بديل مستقبلي لراهن مستفقد . فهو ليس هذا الذي يتحول ، كونياً وأخلاقياً ، إلى فاعل يصادر على المستقبل باسم راهن جعل منه تجربة غواية . على العكس من ذلك ، يبرز ذلك «الرب الصادوقي» بمثابة رباً ناجزاً فاعلاً من علو . وهذا من شأنه أن يعلق اللحظة التاريخية التراثية والسياق التاريخي التراثي للحدث اليهودي ، تعبيراً عن رفضهما بالاعتبارين الكوني والأخلاقي : اننا لا نعيش للتاريخ اللاحق بامتداده التراثي ، وانما نعمل على تمثيل الحدث الراهن ، لنصنع منه مسيحاً متجديداً مستمراً ، أي لنعيش لحظتنا المسيحية الآن - المتجددة .

ان انكماش يهوه تاريخياً تراثياً ، ومحافظته على صيغة نهائية ناجزة ، واعتباره الراهن خير الأبعاد الكونية ، ان ذلك كله يقدم لنا التصور الصادوقي اللاهوتي ، ويلخصه في أوجهه الرئيسية . ونحن نستنبط من هذا الموقف ومن موازياته ودلالاته الاجتماعية المشخصة وجهاً هاماً من أوجه الوعي الاريستوقراطي الصادوقي المتسم بالتمنع والامتناع عن اكتساب تجليات مستقبلية جديدة له . فكأنما الكمال ، هنا ، متمثل بالثبات والناجزية و«الاكتفاء الذاتي» ، بما يتضمن ذلك من رفض للتحويل

وإدانة له . لكن ذلك الانكماش اليهودي التاريخي والتراثي نواجهه وقد تخلخل واضطرب وفقد تماسكه وقدرته على الاستمرار ، حيث ننظر إلى يهوه الصادوقي وهو يفتح أبوابه ونوافذه واسعة طليقة للعوالم الأخرى ، التي ظلت - طوال قرون مديدة - مدانة بأنها «الآغيار - الغويم» . والفضل الكبير في ذلك التخلخل المخصب يعود ، كما لاحظنا في موضع سابق ، إلى الرياح التنويرية العاتية التي حملت ألويتها العملية الثقافية التاريخية المأثري على ذكرها ، وهي الهلينة . وإذا كنا نشدد على أهمية هذه الأخيرة في السياق القائم ، فإننا لا ننفي أن يكون هنالك عوامل أخرى كمنت وراء التخلخل المعني . لكننا ، هنا ، نرى أنه من الأهمية بمكان أن يُنظر إلى الهلينة في دورها الكبير ، الذي مارسه في حقل التغيير البنيوي والوظيفي للتصورات الرئيسية لليهودية بصورة عامة . فهذا التغيير تمكن من اختراق الستر الصفيفة التي أحاط الكهنوت المهيمن نفسه بها ، تأكيداً منه على مركزية «الشعب المصطفى المختار» وهامشية الغويم «الحثالة» . (ولا يخفى أن وراء مركزية هذا «الشعب» كانت قد كمنت مركزية الطبقة الارستوقراطية - الكهنوتية - إزاء جموع الفقراء والمفقرين ضمن هذا الأخير وضمن الغويم ، على حد سواء) .

إذن ، في تلك الوضعية المركبة (ذات الأبعاد والاحتمالات المتعددة) ، نتبين عناصر هامة أهمية حاسمة فعلاً في عملية إضعاف وإحلال الانكماش التاريخي التراثي على صعيد الهوية الصادوقية ، وذلك لصالح نوع من إعادة الاعتبار لتاريخية يهوه وتراثيته ؛ إنما - وهذا يبقى راسخاً - من موقع لامسياني ارستوقراطي .

إن الصادوقية ، ديناً وسياسة ، وإن شغلت حيزاً هاماً في الدائرة اليهودية - ضمن المرحلة الانتقالية من العصر السابق على التاريخ الميلادي إلى العصر الميلادي - فإنها كانت ، بنفس القدر من الأهمية والجدية ، جزءاً واحداً من هذه الدائرة مجاوراً لأجزاء أخرى لها ومتداخلاً بها ومتصداً معها . وغني عن التنويه بأن تمايز وتباين الصيغ اليهودية في العقائد الدينية والاتجاهات السياسية للتيارات الأربعة ، التي نعمل الآن مبضع بحثنا فيها ، يتوازيان مع الوضعيات الاجتماعية الطبقيّة المحددة

لها ، ويخترقانها إفصاحاً وإضماراً . بقول آخر ، إن ملاحقة التصور اليهودي - في سياق الوظيفة وبما يدور حوله من تصورات ومواقف أخرى - تبرز بمثابة ملاحقة للبنى الاجتماعية الطبقية والفئوية في صفوف التجمعات اليهودية العبرانية . وهذا ما يسمح لنا بالنظر إلى الأمر المعني على أنه أحد الأوجه الكبرى من العلاقة الطريفة المثيرة والمعقدة بين يهو من طرف ، وبين «شعبه» المنقسم والمتناقض والمتصادم اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً (اندماجياً) ودينياً ايديولوجياً ، من طرف آخر .

هاهنا ، يُطل الموقف الفريسي من يهو ، من حيث هو توجه وظيفي انطلق من بنية اجتماعية طبقية بعينها ، وعاد إليها تكريساً وتنظيراً . ان الموقف المذكور يبدو لنا أكثر تعقيداً وتركيباً وقلوناً من ذاك الذي واجهناه في الصورة الصادوقية . ولعله بين ، في هذه الحالة بما فيه الكفاية ، ان مبعث ذلك كمن - بالدرجة الأولى - في الوضعية السياسية المشخصة التي نهضت على أساسها الفريسية ، تلك الوضعية التي اتسمت بالنومسان والقلق والاضطراب والتراكم ، وانطوت من ثم على متغيرات واحتمالات شتى . فتحدر الفريسيين من أجنحة الطبقة الوسطى ، وتحالفاتهم السياسية مع الصادوقيين (ومن ورائهم الطبقة العليا المتنفذة) ضد الطبقة الدنيا (بوجهها الايديولوجي الديني ممثلاً بالسلطوتيين والاسينيين) تارة ، ومع هذه الأخيرة ضد أولئك تارة أخرى ، ثم بروز هذا وذاك في الموقف من روما ، ان هذا كله منفرداً ومجتمعاً كان - مع عوامل أخرى - من وراء الموقف الفريسي المشوب به نوّاً .

ولاسبيل - في معرض الحديث عن الوضع إياه - إلى تجاوز المعطى التالي ، وهو أن تصور الفريسيين حول يهو لا يمكن أن يحدد ويضبط ، بنيوياً ووظيفياً ، بعيداً عن تلك الدائرة من المواقف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . فهنا ، تبرز أطروحتان اثنتان تمثلان المحور الهيكلي المكون لذلك التصور . إضافة الى ذلك ، سنلاحظ أن تينك الأطروحتين جسدتا خطأ فاصلاً ، بكثير أو قليل من الخزم ، بين الفريسية من طرف وبقية التيارات اليهودية من طرف آخر .

تقوم الأطروحة الأولى على الاعتقاد بخلود النفس (بمعنى الروح) ، أي باستمرار كينونتها بعد فناء الجسد ، إثر حدوث الموت . وهذا - من موقعه - يستتبع الأخذ بعقيدة الشواب والعقاب الالهيين ، تلك العقيدة التي ترى ان النفوس

الشريرة ، إذ يحل الموت فإنها تدخل حالة مستديمة من العذاب الأبدي ؛ في حين تستمر النفوس الخيرة في نطاق أجساد جديدة ، بحيث يغدو «التقمص» ، بصورة أو بأخرى ، موضوع تساؤل وإثارة . أما الاطروحة الثانية فتتحدد بالاعتقاد الجازم بوجود قدر رباني ينظم الكون وينظمه ضمن غائية قبلية ، تحكم مصائر هذا الكون من «أوله» إلى «آخره» . ومن ثم ، فإن ما حدث ، تم بمقتضى ذلك القدر ؛ كما أن ما سيحدث ، لا يخرج عن ذلك مهما اجتمع من «الإنس والجن» ومن «المسحاء الكاذبين - الدجالين» وحاولوا الوقوف في وجهه .

إن تينك الاطروحتين كنا قد واجهناهما في موضع سابق ؛ إنما الآن نواجههما في سياق بنيوي ووظيفي آخر ، يتضح من خلال كيفية ظهورهما في شخص الوجود اليهودي الرباني ، أو - ربما بتعبير أدق - في ظهور هذا الأخير عبرهما .

كان الموقف الديني والسياسي ، كذلك هنا ، قلقاً وغير مستقر ، وخاضعاً في غالب الأحيان للتحول ، متوافقاً بذلك مع قلق وعدم استقرار وتحول الوضعية السياسية في الداخل والخارج . وعلى هذا الصعيد ، كان على تصورات المخلص والخلص و يوم الدينونة والثواب والعقاب الخ . . . أن تخضع لتلك الوضعية ، وتمتدح آفاقها واحتمالاتها منها . ومن طرف آخر ، نلاحظ أن تلك التصورات نفسها أسهمت في ضبط وصوغ هذه الأخيرة وتكريسها سلباً أو إيجاباً . فلقد عمل الفريسيون على إبراز «يهوه» ، من حيث هو مخلص يدعو إلى تجاوز هذا العالم ، الذي أصبح - بمقتضى الموقف الفريسي - مفعماً بالفساد والظلم والطغيان . وقد ظهر التشديد على هذه الحالة ، حيث كانت مراحل التأزم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والعسكري ، التي مر بها الفريسيون في علاقاتهم مع غرمائهم الصادوقيين وحلفائهم الرومان .

وإذا وضعنا في الاعتبار ما واجهناه لدى الصادوقيين من مواقف تتصل ، خصوصاً ، بنفهم لتصورات المخلص وخلود النفس والقدر (المصير) الرباني ، فإن الفريسيين يظهرون أمامنا - في الحالة التي نحن بصدد البحث فيها - بمشابهم ايدولوجيين (فقهاء) مسيانيين ، بصيغ متميزة . ذلك لأنهم - وقد انحدروا أساساً وإجمالاً من الطبقة المتوسطة المسورة ، الحائزة على أقدية وأدوات التعليم والتعلم

والاستنارة الرئيسية والكبرى ، في حينه - كان بمتسعهم أن يمنحوا المسيانية تعبيرات وصيغاً شيقة وفاعلة في الأوساط الواسعة من الجمهور اليهودي المتوسط والأدنى . وما يلفت النظر حقاً أن كتاب «النصوص المقدسة» وأسائذة «الشرعية الموسوية» ومؤوليهما والحافظين لـ «نقائهما» كانوا من الفريسيين ^(١) . وهذا ، بحد ذاته ، يمثل عنصراً هاماً وخطيراً من عناصر السلطة الدينية (والسياسية) ، التي مارسها هؤلاء في الحياة اليهودية العامة . ويلحق بذلك ، بطبيعة الحال ، أن الفريسيين ، تخصيصاً ، استطاعوا - من المواقع الأنفة الذكر - أن يؤثروا تأثيراً فاعلاً ومباشراً في صوغ «الوعي الاجتماعي» اليهودي في إحدى أهم حلقاته ، وهي تلك التي تمثلت بالأيديولوجيا الدينية ذات الانتشار الواسع والعميق في الأوساط اليهودية ، الفقيرة والمفقرة خصوصاً .

وإذا كان الفريسيون قد امتلكوا بأيديهم زمام اللحظة الذهنية الدينية ، فإن الصادوقيين كانت لهم الكهانة المباشرة . ومن هذا الموقع ، برزوا (الفريسيون) من حيث هم كهان المعبد غير المرثيين والحريصون ، بتشبث ، على المحافظة على مبادئ العقيدة والعبادة والزام الآخرين بها . ولاشك أن هذا الموقع وإن كان أقل بروزاً على الصعيد الديني الذهني ، إلا أنه كان أكبر فاعلية وتأثيراً في السلوك الجماعي العام للمؤمنين . ويمكن القول ، بمزيد من التخصيص والتدقيق ، بأن الفريسيين كانوا في الموقع الذي سمح لهم بالتغلغل في حياة الفئات المثقفة ضمن الطبقة الوسطى وشريجة من الطبقة العليا ، وكذلك لدى جمع من المؤمنين من الطبقة الدنيا ، بينما ظل تأثير وفاعلية الصادوقيين محصوراً ، بالخط العام الرئيسي ، في نطاق الطبقة العليا ، أي في حدود «الوجاهة العامة» ، المتصلة بالقيام بالمراسم الدينية المباشرة ^(٢) .

وقد أتاح ذلك الوضع للفريسيين أن يوطدوا مواقعهم بطرق «غير رسمية وغير

(١) يكتب سبينوزا حول ذلك ما يمكن أن يكون له أهمية كبرى في فهم نصوص «العهد العتيق» . فكتب هذا العهد ، حسب الفيلسوف المذكور ، «جرى اختيارها من كتب كثيرة ، وجمعت أخيراً واعترفت بها بمقتضى ما قدمه فريسيون من خبرة (نصيحة) على هذا الصعيد» .

Baruch Spinoza: Der Theologisch- Politische Traktat- a.a.O., S.224)

(٢) انظر في ذلك : Martin Robbe- Der Ursprung des Christentums, a.a.O., S.59.

مباشرة غالباً» وعلى مختلف الأضعدة وكذلك باتجاه معظم الاحتمالات والأفاق ، بحيث كان على الصادوقيين أن يحسبوا حسابهم في كلتا الحالتين الرئيسيتين ، الهدوء والاضطراب . وبطبيعة الحال وكما هو بين ، لم يكن لتصور المخلص (المسياس) أن يكتسب صيغة حازمة وكفاحية عميقة . فالوضعية كانت مترعة باحتمالات المساومة والتنازل والضعف والاعراضات ، وكذلك المخاوف أمام ما قد يحدث ، أي أمام «مالايكنا معرفته مسبقاً» . ولقد وردتنا نصوص إنجيلية تتحدث - بطريقة اللاهوتية الخاصة - عن موقف أولئك الانجيليين ، الذين وقفوا ضد الفريسيين بسبب انكارهم «مسيحية» يسوع . فلقد رأوا فيه مجدفاً هرطيقاً ، ليس إلا ، ينبغي مكافحته وإيقاف تأثيره في عقرداره ، قبل أن يستفحل أمره :

ودخل يسوع «المجمع أيضاً وكان هناك رجل يده يابسة . وكانوا يراقبونه هل يشفيه في السبت لكي يشكوه . فقال للرجل اليابس اليد قم الى الوسط . ثم قال لهم أخيراً أن يفعل في السبت أم شر أن تخلص نفسي أم تهلك . فصمتموا . فأدار نظره فيهم بغیظ وهم مغتم لعمى قلوبهم ثم قال للرجل أمد يدك فمدها فعادت يده صحيحة . فخرج الفريسيون وللوقت تأمروا عليه هم والهيرودسيون لكي يهلكوه . فانصرف يسوع مع تلاميذه الى البحر وأما الكتبة (١) الذين نزلوا من اورشليم فقالوا ان فيه بعل زبوب وإنه برئيس الشياطين يخرج الشياطين» (٢) .

وانجيل متى يحدثنا عن الخصومات التي غالباً ما كانت تحدث بين الفريسيين و«يسوع المسيح» ، وكذلك بين هذا والصادوقيين ، الذين كانوا - في حال كهذا - لا يتأخرون عن التحالف مع الفريسيين ضد ما يعتبرونه ، ولو الى حين ، عدواً مشتركاً يجب إيقاف تأثيره في أوساط الفقراء المتعاطمة :

«وفي ذلك اليوم دنا الصّادوقيّون الذين يقولون بعدم القيامة وسالوه . قائلين يا معلم قال موسى إن مات أحد وليس له ولد فليتزوج أخوه امرأته ويُقَم نسله لأخيه . . فأجاب يسوع وقال لهم قد ضللتكم لأنكم لم تعرفوا الكتب ولا قوة

(١) أي الفريسيون .

(٢) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس مرقس ٣/١ - ٧ ، ٢٢ .

الله . . . ولما سمع الفريسيون أنه قد أقحم الصدوقيين اجتمعوا معاً» (١) .

هكذا ظهر الفريسيون خصوصاً عنيدين لـ «المخلص يسوع» ، محاججين له بنصوص «الكتاب المقدس - الشريعة الموسوية» ، يعملون على احراجهم وتعجيزه ، وعلى اظهاره بمظهر العجز والخذلان أمام المتحلقين حوله . وكان هذا أحد وجهين للمسألة المطروحة هنا . أما الوجه الثاني فقد تمثل في المعطى الهام والخصوصي التالي ، وهو أنهم لم يكونوا يرفضون تصوري «الخلاص» و «المخلص المسيح» ، من حيث الأساس العام وعلى عواهنه ، بقدر ما كانوا من ذوي المواقف المضطربة القلقة ، وكذلك المساومة بكثير أو قليل من الخِفة . فمن طرف أول ، يأخذون بالنصوص الشريعية ويستنتقونها للوصول الى ما يؤيد تصور «خلاص العالم» ، مستخدمين في ذلك طرائق شتى من التفسير والتأويل والاجتهاد . ولكنهم - من طرف آخر وبالمقابل ، لا يعملون بها إلا في الحالات التي لا يجدون أنفسهم فيها ملتزمين بمواقف محددة تمس مصالحهم وامتيازاتهم الاقتصادية وتنظيمهم السياسي الديني . وهذا ما كان من شأنه أن أدخلهم - في حالات عديدة - في مواقف كثيرة من النفاق والرياء والادعاء ، وإن جعل منهم ، من ثم في نظر الآخرين ، عصاة مارقين مراوغين مكابرين ، وأعداء للمسيح المخلص والخلاص . وجدير بالذكر أن هذا الموقف عقد الرؤية الخلاصية في أعين الكثير من الفقراء والمفقرين ، الذين وجدوا أنفسهم تحت تأثير أولئك (الفريسيين) .

ومن أجل تحديد الصورة الفريسية انجيلياً ، لنقرأ الوصف التالي الذي يطلق عليهم بكثير من الدقة والوضوح :

«حينئذ كلم يسوع الجموع وتلاميذه . قائلاً ان الكتبة والفريسيين جالسون على كرسي موسى . فمهما قالوا لكم فاحفظوه واعملوا به وأما مثل أعمالهم فلا تعملوا لأنهم يقولون ولا يفعلون» (٢) .

ولابد من الإشارة ، في هذا السياق ، إلى أمر ذي بال ويستحق انتباه الباحث ، وهو أن تصور «المخلص» يكتسب ، لدى الفريسيين ، شخصية تنبؤ

(١) الكتاب المقدس - انجيل ربنا يسوع المسيح للقديس متى ٢٢/٢٣-٢٤، ٢٩، ٣٤ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعانيه ٢٣/٣ .

عن وجود بعض الميول الشعبية ، الديمقراطية ، مما يلقي ضوءاً على الانتشار الذي كانت الاتجاهات الفريسية تلقاه ، في حالة أو أخرى ، ضمن صفوف الجمهور اليهودي الفقير والمفقر ومما ساعد على ذلك أسلوب معيشتهم . فقد «كانوا متزوجين ، ويعيشون الحياة اليومية العادية»^(١) . وعلى ذلك ، فهم بدلاً من أن يأخذوا بتصور المخلص «الواحد الأعظم» ، الذي يمسح الآلام والطغيان من العالم حين «يحين الوقت» ، يلحون على أن كل «المعلمين والمدبرين» - وغيرهم من «الأنبياء» و«المصلحين الذين يدخلون أنفسهم في دائرتهم» - يمكن أن يقوموا بمهمات ووظائف المخلص المنجّي . وهذا الموقف لعله ينفض ويغدو مفهوماً ، في أبعاده وحدوده الفريسية ، إذا أعدنا للذاكرة ما قلناه ، من قبل ، من أن الفريسيين كانوا هم المستحوذين على المراكز الأساسية لتعليم «الشرعة الموسوية» وتقديمها مفسرة مؤولة ؛ وكانوا - من ثم - في موقع المهيمن على عملية التنظير الايديولوجي (الديني) ، وكذلك السياسي في حالات كثيرة . ومن هنا ، كان من المرجح أن نتبين في التيار الفريسي ميلاً أو نزوعاً باتجاه حدٍّ ما من العقلانية ، أو من عقلنة النصوص الشرعية ، أو ضبطها - على الأقل - ضبطاً ذهنياً منسقاً ، مما أوجب الاعتقاد بإمكانية فهمها ومناقشتها في أوساط المؤمنين .

فمن الملاحظ أن في التأكيد الفريسي على تعدد المصادر والمواقف والأقنية ، التي تمر بها «الشرعة الموسوية» ، شكلاً ما من أشكال الحدّ من الجموح الكهنوتي النخبوي على صعيد الجمود في فهم تلك الشرعة ، والنظر إليها على أنها ذات بعد واحد تؤخذ دفعة واحدة وبرمتها . وكما هو ملاحظ ، فإن من شأن هذا القبول أن يؤدي إلى النظر للفريسية على أنها متميزة ، نسبياً ، عن ذلك الفهم الكهنوتي ، الذي ظهر في مراحل سابقة من الوجود اليهودي ، وكذلك - وهنا المفارقة المدهشة - لدى التكوينات المسيحية الخلاصية الباكّة . ذلك أن هذه الأخيرة أخذت تلح على «الواحد الأعظم» ممثلاً بـ «يسوع المسيح» ، واصله إلى ذلك إما عن طريق الإفصاح عن ضرورة إبعاد «الناموس الموسوي» القائم على «ختان اللحم» واستبداله بـ «كلمة

(١) الأب الياس زحلاوي : حول الانجيل و«انجيل برنابا» - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص

يسوع» المتمخضة عن «ختان القلب» ، وإما بتفسير وتأويل مواضع منه على نحو يقود إلى ذلك «الواحد الأعظم» .

ان ذلك التوجه الفريسي ، الشعبي المستنير بدرجة أو بأخرى ، نستطيع أن نستنبط ملامحه أو بعضاً منها عبر تفحصنا للدلالات الوظيفية والبنوية ، التي تنطوي عليها أمثال الأقوال التالية :

«كل أعمالهم يصنعونها رثاءً أمام الناس فيعرضون عصائبهم ويعظمون أهدابهم . ويحبون أول المتكآت في العشاء وصدور المجالس في المجتمع . والتحيات في الأسواق وان يدعوهم الناس معلمين . أما أنتم فلا تدعوا معلمين فإن معلمكم واحد وانتم جميعاً اخوة . ولا تدعوا لكم أباً على الأرض فإن أباكم واحد وهو الذي في السماوات . ولا تدعوا مدبرين لأن مدبركم واحد وهو المسيح . . . الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المرءون فإنكم تغلقون أبواب السماوات في وجوه الناس . . . من أجل هذا أنا أرسل اليكم أنبياء وحكماء وكتبة فم منهم من تقتلون وتصلبون ومنهم من تجلدون في مجامعكم وتطردون من مدينة الى مدينة» (١) .

وتبقى ملاحظة تتصل بالعلاقة بين الفريسيين من جهة وبين «الخلاص» على يد «مخلص أوحد أعظم» من جهة أخرى . فلقد أشرنا فيما سبق إلى أن أولئك قد جسدوا على الصعيد الذهني الديني موقفاً شعبياً مستنيراً ، إذ طرحوا تصور الخلاص عبر جهود متعددة من «المعلمين» و «المدبرين» ، قاد - بدوره - إلى توسيع رقعة الوعي الخلاصي وإثارة حد ما من الثقة في الفعل الانساني الاجتماعي ، دون أن يكون هنالك ، بالضرورة ، شخص بعينه يعلن ان الخلاص يتم على يديه . وبتعبير آخر يمكن القول ، ان الفريسيين أوصلوا الموقف الذهني الديني إلى حدود وعي ذاتي جماعي ، يخاطب المجموع بقدر ما يخاطب الفرد . بيد أن الوجه الواقعي العملي للمسألة كان قد اختط طريقاً آخر مختلفاً عن الطريق الفريسي : ان إسقاط المشروع اليهودي الطقوسي والجيتوي لم يكن ممكناً بصورة حازمة إلا عبر «فعل اعجازي» يلح على نقضه ، من حيث الأساس الكلي (لاطقوسية بل جوانية ، ولا

(١) نفس المصدر السابق ومعطيته ٢٣/٥-١٠ ، ١٣ ، ٣٤ .

جيتوية بل انفتاح وتفتح) . أما «إعجازية» هذا الفعل فقد برزت على أنها البديل عن ذاك المشروع بسبب من أن حلاً عادياً واقعياً لمخلفات اليهودية اليهودية لم يكن وارداً وممكناً . فلقد «ظهر» الأمر خارقاً ، اعجازياً ، فوق طاقات كل البشر ، الذين غدوا - على كل حال - مفسدين ومفسدين .

ومع ذلك ، استطاعت الفريسية ، باثارتها الوعي الخلاصي الجمعي والفردى أن تهىء أرضاً خصبة ، بالذات ، لنشوء «المخلص الأوجد الأعظم» . وهذا ما يطرح علينا ، مرة ثانية ومن زاوية أخرى ، السؤال حول المصادقية الواقعية والتاريخية لـ «يسوع المسيح» ، تلك المصادقية التي قد تبخر لصالح مصادقية واقعية وتاريخية تُلحق بما يمكن أن نعبّر عنه بـ «الوضعية اليسوعية المسيحية» ، التي قادت إلى نشوء المسيحية . هذا الرأي يلقي دعماً ليس فقط في نتائج مجموعة من الدراسات التاريخية الدينية ، التي كنا قد أتيناً على بعضها في سياق سابق وبالقدر الذي يقتضيه البحث ؛ إنه يجد مثل هذا الدعم أيضاً في «النصوص المقدسة» نفسها . ففي تلك المرحلة الانتقالية شهدت المنطقة المعنية عدداً كبيراً من «المسحاء» ، الذين استمدوا مشروعاتهم من تلك «الوضعية اليسوعية المسيحية» ، بالضبط (١) .

ذلك هو ، بصورة رئيسية وعامة ، التصور المسياني الفريسي ، بما يثيره من احتمالات متعددة ، تضيف عليه مزيداً من الأهمية بالمعنى السلبي والايجابي ، أي بمعنى الأخذ به أو رفضه مع تقديم بديل عنه . وإذا كان من المقبول أن نجد في ذلك التصور ما قد يكون إرهاباً للتصور المسياني الذي كان مطروحاً في حينه على بساط البحث الاجتماعي والديني ، فإن وجهاً آخر للمسألة يجعلنا نتحفظ بعض الشيء حيال هذا الرأي . ذلك هو أن الفريسيين ظلوا يحتفظون بالموقف اليهودي الكهنوتي المنوه به سابقاً والذي واجهناه ممثلاً بما أطلقنا عليه «عقدة حضارية» إزاء المجتمع الكنعاني الزراعي ، أي الموقف من «الغوييم» بصورة عامة .

(١) نقرأ ، مثلاً ، في انجيل متى مايلي (نفس المصدر السابق ومعطياته ٢٤/٢٤) :
«فسيقوم مسحاء كذبة وأنبياء كذبة ويعطون علامات عظيمة وعجائب حتى إنهم يُضلّون المختارين إن أمكن» .

فلقد فهم الفريسيون تحت حد «الغوييم» ليس الأغيار من الشعوب الأخرى ، «غير اليهودية» ، فحسب ، بل اعتبروا ، كذلك ، الاختلاط بالفئات والطبقة الفقيرة من جمهورهم أمراً مهيناً ، ينبغي أن يتجنب في الحدود الضرورية . أما هذه «الحدود» فتملئها التحالفات والتحركات التي تنشأ في سياق النشاط السياسي والايديولوجي (الديني) في الداخل والخارج . وهذا ما جعل موقفهم الإثني مخترقاً من موقفهم الطبقي الاجتماعي ومتشابكاً فيه ، بحيث ظهر الاثنان وجهين لوضعية واحدة . وفي الواقع ، فقد كانوا ، على صعيد الحياة الاجتماعية العامة ، يتحاشون مثل ذلك الاختلاط ، متوافقين - في ذلك - مع لقبهم : فريسيين . فهذا اللفظ ينحدر من الجذر اللغوي «Parasch» ، الذي يعني «انعزاليين» أو «انفصاليين»^(١) .

فالموقف الفريسي ذاك من «الأغيار» أضعف ، والحال كذلك ، إلى حد ملحوظ من مخزون مشروعهم المسياني ، الذي واجهناه - في أحد أبعاده - شعبياً مستنيراً ، والذي لعله أثار من المشكلات وحرض على التفكير فيها أكثر مما قدم من حلول لها . ذلك لأن تجاوز الموقف الجيتوي من «الأغيار» عبر موقف «ألمي» منهم مثل شرطاً سياسياً - ضمن شروط أخرى - للانتقال إلى المشروع الديني الجديد ، المسيحية .

إذا كنا قد تعرفنا إلى التصور الفريسي المسياني في أبعاده وآفاقه النبوية والوظيفية فوجدناه موقفاً مضطرباً ومُشكلاً ، فأننا على صعيد التيار اليهودي الديني الثالث ، السيلوتي ، نكون وجهاً لوجه أمام ظاهرة مسيانية مثلت - في حينه - تحولاً كبيراً وعميقاً باتجاه المسيحية . ولعل المسيانية السيلوتية اقتربت ، في أهميتها ، من نظيرتها لدى الاميين ، بحيث اسهم ذلك - مجتمعاً وعجماً - في إحداث منعطف حاسم على صعيد المسألة المطروحة ، وقاد - من ثم - إلى الآفاق الرحبية الجديدة .

كان السيلوتيون قد انطلقوا ، في أصل الموقف ، من أن مخلصاً سينبثق من بين صفوفهم هم أنفسهم ، يعيد للعالم العدل والسعادة المفقودين ، ويمكن ، من

1) Prosper Alfari: Die sozialen Ursprünge des Christentums- a.a.O., S. 51.

ثم ، لقوى العدل والسعادة في هذا العالم . لقد كانوا ، كما اتضح من قول سابق ، فقراء الجمهور اليهودي المضطهدين من سادتهم الارستوقراطيين ومن الرومان ، في آن واحد . ومن هنا ، لم يكن متوقفاً أن يشغل «يهوه» السيلوتي مكاناً ما خارج الدائرة الخلاصية (المسيانية) ذات البعد الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الكفاحي . ان «المخلص» اليهودي الجديد ، ذا الملامح والقسيمات السيلوتية ، نيطت به ، من قبل أولئك «الظالمين الى الخلاص» مهمة كبرى ، بل المهمة الكبرى الحاسمة ، في حينه ، ألا وهي تصديع «القديم» وبناء «الجديد» . ذلك ما كان قد تجسد بـ «يشوع» ، المسيح الجديد ، الذي «سيسمح» الآلام بقدر ما سيكون هو نفسه «المسوح» من يهوه الرب ؛ بل لعلنا نقول ان يشوع هذا كان مدعواً إلى أن يمارس لدى «شعبه» ، الفقير هذه المرة «دور «يهوه جديد» ، أو أن يتقمص شخص يهوه ، بعد أن خذله يهوه التاريخي (رب الجنود والقتلة والأثرياء) ، أي رب الصادوقيين والفريسيين ومن قبلهم . ولعلنا نعيد بناء هذه الصيغة بصيغة أخرى محتملة ضمن السياق السيلوتي العام ، وهي ان «يشوع - يسوع» ذاك كان مدعواً الى القيام بالدور الجديد ، بعد أن خذله جمهوره من عليّة القوم (الكهنوت الارستوقراطي) ، حيث «فسخوا» - بأعمالهم الشائنة والوضيعة - «وثيقة العهد» التي أقامها بينه وبينهم . فلقد طُفح الكيل ووصل السيل الزبي ، وأصبح «الكون» من الانتفاضة الكبرى قاب قوسين أو أدنى ؛ فاقترب ، بذلك ، يوم الدينونة الرهيب ، يوم القيامة ، حيث تشق فيه الأجداث قبورها لتمثل ، مع كل من بقي في العالم ، أمام الديان والمخلص ، أمام «الأب وابنه» . ان في ذلك اليوم المشهود لا بد وأن يُتقم الانتقام الهائل من أولئك الكهنة والفجرة

«وملوك الأرض والعظماء (الذين) ائتمروا على الرب وعلى مسيحه» (١) .

من هنا ، نفهم البواعث العميقة التي كمنست وراء تلك الحركات والانتفاضات ، التي اندلعت كألجنة النيران بقيادة «مسحاء» متحدرين من كل فج عميق وعلى امتداد النصف الأول من القرن الأول الميلادي . فنحن نجد أنفسنا ، هاهنا ، في جو مفعم بالتململ والاستياء والقلق والتحفز ، وكذلك باليأس

(١) الكتاب المقدس - سفر المزامير ٢/٢ .

والإحباط ، ولكن أيضاً ، بل خصوصاً ، بالأمل والرجاء في ظهور «المخلص الأعظم» أخيراً . حول هذه الوضعية الخصبة مسيانياً حتى حدود عظمى ، نجبرنا فلافيوس يوسفوس مايلي : «كذلك اثناء الفترة التي كان فيها فادوس سيد أرض اليهودية ، حرض أحد المخادعين - واسمه ثيوداس - تجمعاً كبيراً من الناس على التوجه نحو الاردن بما يمتلكون . وقد أعلن عن نفسه بأنه نبي ، وأكد بأنه قادر من خلال قوة الكلمة على تقسيم مياه الأردن ، وعلى التمكن لعبورها من قبل تابعيه . فمن خلال مثل هذه الخزعات استطاع أن يضل الكثير منهم» (1) .

إن كلام يوسفوس ذلك يتصل بالحركة المسيانية ، التي ازدهرت ، على نحو خاص في عامي ٤٥ و ٤٦ ميلاديين ، أي في إحدى اللحظات التاريخية الكبرى التي قادت إلى الحدث الجلل ، المسيحية اليسوعية . ومن دواعي تعميق النظر إلى تلك «اللحظات» والبحث فيها ، من الهام أن نذكر أن المؤرخ اليهودي الأنف الذكر ، يوسفوس ، نجبرنا عن المزيد من مثل تلك الأحداث الزائفة - الحقيقية وذات الدلالات الخطيرة بالنسبة إلى المشروع التاريخي والتراثية لنشوء المسيحية . فهذه الأخيرة قادها مسحاء «مضللون مخادعون» ملأوا الأرض صراخاً ، وخلقوا حولهم تجمعات بشرية من المشردين و«السفلة» ، الذين ضاق بهم الأفق ، فلاهم يموتون ولاهم قادرون على العيش . وهو يشير ، بصورة مخصصة ، إلى تلك الشخصية التي دخلت التاريخ الخلاصي (المسياني) تحت اسم «النبي المصري» . لقد تخلق حوله ثلاثون ألفاً من «المفلوكين» البؤساء الجياع ، الذين لم يكونوا ليملكوا شيئاً سوى الانتظار ، انتظار هذا النبي أو نبي «آخر» . فلقد فقدوا كل شيء في هذا العالم ، بما في ذلك الرجاء في أن يكونوا شيئاً . ومن هنا ، فقد تسمرت انظارهم ، خاشعين متحفزين ، باتجاه «المخلص الحبيب» ، الذي سيملا الأرض «عدلاً ومحبة» ، بعد أن امتلأت «ظلماً وقسوة» .

لقد كان ذلك على غاية الأهمية السيكولوجية في تحديد وضبط وتسوية القدرات الهائلة التي كانت ترعى وتحمي وتحفز كل ظاهرة مسيانية ، مهما كانت صداقيتها الذاتية . ويمكن القول بأن تلك الوضعية قد لا تكون انطوت على شيء

1) Flavius Josephus: Juedische Altertuermer- XX,5.1.

هام آخر سوى أنها شكلت قدرة بشرية مرموقة لانتاج «الجديد» ، هذا الجديد الذي كان عليه أن يختبر نفسه أولاً وأخيراً عبر تلك السيكلولوجية البشرية العارمة . وهنا ، يصح القول بأن السيلوتيين كان لهم ، في ذلك ، قصب السبق باتجاه ضبط وتوجيه تلك الوضعية وتحويلها الى فعل اجتماعي واقتصادي وسياسي مشخص ، وكذلك عسكري صدامي . لقد انتقلوا إلى مستوى الهجوم على بيوت ومعامل الأغنياء والأثرياء من ملاك الأرض والمصارف والعقارات ، ناهين منها كل ما تطله أيديهم الخشنة الهادرة ، غير منتهيين القتل والاغتيال واحداث الرعب والارهاب في صفوف «الخصوم التاريخيين» : لقد دقت الساعة ، ساعة الخلاص ، لقد اقتربت الساعة ، بل حلت وأذنت ، وما على «اعداء الخلاص» إلا أن يذهبوا إلى الجحيم !

وهنا ، تبرز أمام أعيننا الواقعة التاريخية التالية ذات الخصوصية التراثية الوظيفية البارزة على صعيد ما نحن في سبيله ؛ تلك هي لجوء السيلوتيين إلى استلهاهم حدثٍ رأوه كبيراً عظيماً في تاريخهم (تاريخ اليهود) ، وهو ذلك الذي اتجزه ملك يهودا من القرن السادس قبل الميلاد . أما الحدث هذا فقد تجسد بشخصية «يشوع»^(١) ، بصفته حالة هامة وذات خصوصية بيّنة في التاريخ اليهودي ، من وجهة نظر السيلوتيين . فلقد اعتبر أن هذا الملك قاد مملكته (يهودا) إلى الحدود العليا النهائية من الازدهار .

لقد عمل السيلوتيون ، الذين أتوا متأخرين كثيراً عن يشوع إياه (في النصف الأول للقرن الميلادي) ، على تحويله إلى بطل خلاصهم الجديد ، إلى مسيح الآلام الجديد . ولكنهم إذ فعلوا ذلك ، فإنهم أوصلوه إلى حدوده الخلاصية (المسيانية) القصوى . وقد تم ذلك الفعل الاستلهامي التراثي على نحو جعل ، بمقتضاه ، من حدث يشوع التاريخي الحدث الأعظم باتجاهين اثنين متضايين بشكل قطعي ، اتجاه الخلاص واتجاه الفاجعة ، الفاجعة من أجل تكثيف كل الحوافز الرهيبة لاستحداث الخلاص والتمكين له ، والخلاص من الفاجعة بوضع حدٍ مطلق لها . وهذا ، من طرفه ، يضعنا أمام جدلية لاهوتية خلاصية استطاع السيلوتيون على أساسها أن يدركوا المسوغات الكبرى لـ «الخلاص الكبير» .

(١) انظر في ذلك : Martin Robbe- Der Ursprung des Christentums, a.a.O., S. 63.

من موقع تلك الوضعية التاريخية والتراثية الدينية الإشكالية ، تولّد الالتباس التاريخي التراثي الشهير والخصب بدلالاته واحتمالاته الأيديولوجية (الدينية) : اندغام يشوع يسوع ، وولادة يسوع المسيحي . لقد ترجم الاسم إلى اليونانية ، لغة أهلينة المظفرة والصاعدة قُدماء ، في حينه ، باتجاه الهيمنة والشمول الثقافيّين ؛ فطغت الترجمة على الأصل . وإذ حدث ذلك ، فإن الترجمة اعتُبرت أصلاً ، بالمعنى الدلالي الثقافيّ . لم ذلك ؟ يمكننا أن نجيب على سبيل الافتراض المدعم تاريخياً وراثياً ، بأن يسوع لم يمثل التباساً بالدرجة الأولى ، وإنما جسّد الإيقاع الجديد للدين الجديد . وفي هذا ، لا نرغب القول بتغييب الخصوصية المحلية التي انطوى عليها ذلك الدين في بداية الأمر وتجلّى هو نفسه فيها (في البقعة الفلسطينية الكنعانية تحديداً) . وهذا ، بدوره ، يسمح لنا أن نقود المسألة إلى النقطة التي نعلن فيها بأن «يسوع» لم يعد يمثل التباساً لغوياً ، بقدر ما أضحيّ يقدم في شخصه بؤرة التحول الجديد من عالم قديم مستنفذ حتى الشمالة إلى عالم جديد واعد ، بطريقة دينية ترميزية . ان يشوع ذاك ويسوع هذا كليهما أضحيا العنوان الكبير الجديد للمخلص ، وتجسيدا للمخلص الجديد الأعظم . وإذا كان ذلك قد تمثّل بالتباس تاريخي تراثي ، فإنه وضعنا ، بنيوياً ووظيفياً ، أمام الحدث الجديد بشخص عتيق . لقد غدت الأزمة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والروحية ذات أبعاد بلغت الأقصيين ، السطح والعمق . ان أزمة المجتمع العبودي الامبراطوري الكبير ، وأزمة المجتمع الكنعاني المشاعي القروي المحاصر من روما العبودية ومن جحافل اليهود العائدين من بابل ومن جموع أخرى تحدّرت من مابين النهرين ومصر ، إن ذلك ، مجتمعاً ، كان قد مثل بواعث وحوافز عميقة فاعلة لـ «اليسوعية - اليسوعية» الجديدة ، التي اكتسبت - والحال كذلك - أمداء عالمية (أهمية) حقاً .

على هذا النحو ، تبلورت المصائر الجديدة لـ «يهوه» ، وتحدّدت الاحتمالات التي كان عليه أن يواجهها . فهذا وقد دخل في طور الشيخوخة والاحتضار والاستنفاد التاريخي التراثي ، تتاح له ، الآن ، امكانيات لاستعادة شبابه مجدداً ، وذلك بصيغة تحمل على الاعتقاد بأنه «سيخف لمساعدة» الخلاصيين في مآزقهم . وعلى ذلك ، فإنه لم يكن متوقّعا منه أن يفعل غير ذلك ، أن ينكث عهداً متجدداً

بينه وبينهم . لماذا ؟ لأن هؤلاء هم الذين يرغبون فيه ، وهم الذين يريدون أن يقولوه إياه (أي الخلاص) ، وهم الذين يصنعونه وفق مطامعهم واحتياجاتهم وآفاقهم المسيانية ؛ وبكلمة ، لأنهم فقدوا كل شيء في هذا العالم المخصص ، ويصنعون منه المدخل إلى العالم «الآخر» ، الذي يمتلكون فيه كل شيء .

إن «يهوه» العتيق هو نفسه الذي يتجسد في «يهوه جديد» إسمه «يشوع» . واستبدال الاسم باسم آخر حل في طياته اتجاه استبدال البنية والوظيفة العتيقتين بأخرين جديدتين . وجدير بالملاحظة أن التجسيد ، هنا ، لا يعني «الابتلاع» ، بقدر ما يدلّ على تحول بنيوي ووظيفي اقتضاه الموقف الديني (الايديولوجي) المستجد ، ومن ورائه الوضعية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المشخصة . وعلى أساس ذلك ، غدا مقبولاً ومفهوماً ومطلوباً أن يكون معنى «يشوع» منطقياً على العناصر أو على العنصر المطلوب في العملية المعنية . وإذن ، فيشوع يعني «يهوه يُساعد» ، ولا يمكن أن يكون غير ذلك ، كما لا يجوز إلا ذلك .

إن «مساعدة يهوه» تلك تغدو أمراً أكثر إلحاحاً ، و«قَدَرًا» أكثر حضوراً ومباشرة على أيدي المتضرعين المعتكفين ، الذين سيدخلون التاريخ اليهودي المسيحي تحت اسم «الاسينيين» . فهؤلاء ، الذين فقدوا ، بكل المعاني وضمن كل الاتجاهات والآفاق ، الأمل في عصرهم «المروع» (القرن الأول قبل الميلاد والنصف الأول من القرن الميلادي الأول) ، وجدوا أن الحل (الربّاني) الأمثل يكمن في الانسحاب حثيثاً من مجتمعهم النغل الأبق ، وفي الاعتكاف في عالم آخر متوحد ، لم تره العيون المبصرة الفاجرة ، ولا تستطيع أن تراه . ففي هذا العالم وحده تنجح لهم أن يمارسوا حياتهم كاملة وخالصة لـ «وجه الرب» ، الذي سيقدم - في هذه الحال - مساعدته لهم . أما أن يكون الأمر كذلك ، فبسبب من أن المرء في ذلك العالم «المتوحد» يتمكن - بقواه الذاتية - من خلق حوافز مباشرة عظمى لظهور الرب ، الذي سيرى أن هنالك من الجهود التي يبذلها جمهوره ما يدعوه ، حقاً ، لأن يقابلها بـ «ظهور» جديد له . في مقدمة تلك الحوافز والجهود يبرز «التعميد

بالماء المقدس ، ماء الحياة ، و «المائدة المقدسة» ، و «الاغتسال بالماء المقدس»
الوافد من «بئر ماء الحياة الخالدة» الخ . . .

ولقد غدا معروفاً في أوساط البحث العلمي التاريخي في التاريخ اليهودي
المسيحي أن اكتشاف مخطوطات البحر الميت ، التي أتينا على ذكرها في موضع سابق
من هذا الكتاب ، وضع أيدينا على مفاصل كبرى من التصور اليهودي الخلاصي ،
الذي قدم وهياً لنشوء نظيره المسيحي ؛ وإن كانت عملية التقديم والتهيئة هذه قد
تمت على نحو غير مباشر ، بصورة عامة رئيسية . فإذا كانت نهاية العالم ، بمقتضى
ذلك ، قد أصبحت وشيكة الوقوع وليس بيننا وبينها أكثر مما بين البياض والسود -
نظراً إلى أن ذلك الأخير (العالم) بلغ حدوده القصوى من «الظلم» والفجيرة
والمساوية - فإن «معلم العدالة» لابد وأن يكون «على الأبواب» ؛ ثم ، إذا كان
«الباطل» قد دخل الأعماق وهيمن بقبضة حديدية من «الخطيئة» والمكابسة في
الخطيئة ، فإن «معلم الحق» أصبح الصيحة العظمى القادمة الواعدة ؛ وأخيراً ،
إذا ما بلغ «الصلاح» في هذا العالم مبلغ السيل الزبي ومبلغ «الطوفان» ، فإن «معلم
الصلاح» يلتصق في الأفق القريب ، معلناً عن قدومه الميمون وهو راكب سحب
السماء المتلبدة بالفجيرة والرجاء . إن أولئك «المعلمين الثلاثة» لم يكونوا إلا المعلم
الواحد ، الذي يلخص في شخصه ، ببساطة ، «البشارة» .

تلك «البشارة» العظمى ، التي كان عليها أن تتجسد بـ «معلم العدالة» أو
«معلم الحق» أو «معلم الصلاح» أو - كما قلنا - بـ «المعلم الواحد» ، هي التي حملت
خلاص العالم . إن «يهو الإسيني» لابد أن يكون يهو جديداً ، وإن انطلق من
نظيره الشيخ العتيق . فهو ، هنا ، فقير يبحث عن نظرائه من الفقراء ، ليكرس
الفقير والفقراء ويجعل منهم جماع القول في «قصة الخليقة» ومن ثم ، فإن عدوه
الأكبر تمثل بالملك والملكية وأنا والأنت ، ذلك العدو الذي إن أريد دحره إلى حيث
لا عودة له ، فإنه - حاله - لابد من الرجوع ، بكل العمق وكل التلقائية ، إلى
بكرة الحياة المقدسة وبساطتها بكل الاتجاهات والأفاق والاحتمالات ؛ وهذا هو
المبدأ الأول الأقصى ، الذي ، بمقتضاه ، يصبح الإنسان قادراً على القول بأنه ولج
عالم الخلاص . ثم ، إذا كانت المرأة (الأنثى) ، بما هي أنثى ، من عناصر الفرقة

والفساد والإفساد ، فإن لفظها من الحياة الذاتية على نحو قطعي وكامل ، يغدو مبدأً ثانياً كبيراً في الوجود اليهودي الإسيني . بل إن هذا المبدأ نفسه يرتد ، بسهولة ، إلى مبدأ المبادئ ، وهو أن الرب يهوه ذاته ذكر ، تمثل في خليفته الكوني الأول آدم ، الذي سحب من اضلاعه واحداً وصنع منه عنصر الخطيئة ذاك ، الأنثى حواء .

إن يهوه المعلن عنه يتجلى ، الآن ، تجلياً شمولياً وفاعلاً في معلم العدالة ومعلم الحق ومعلم الصلاح ، هؤلاء «المعلمون» الذين يغدون - والحال كذلك - أوجه متعددة (ثلاثة) لكيثونة واحدة ، هي «المعلم الواحد» . ولا نظن ، إذ بلغنا هذه النقطة ، أن «ثلاثية المعلمين» المعنية تتطابق مع ما يبرز في شخص المعلم المسيحي اللاحق «يسوع» تحت اسم «الثالوث المقدس» . ولكن إذا لم يكن الحديث صحيحاً ووارداً عن وجود مثل ذلك «التطابق» بين الأمرين المذكورين ، فإنه من المحتمل أن نتحدث عن أفق دلالي تنطوي عليه «ثلاثية المعلمين» تلك ، من شأنه - على الأقل - أن يشير إلى الثالوث إياه . فالعدالة والحق والصلاح وإن كانت تؤدي إلى بعضها بعضاً ويشير الواحد منها إلى الآخر ، فإنها - منظوراً إلى كل منها منفرداً - تمتلك شخصيات مستقلة بمعنى ما . وفي كلتا الحالتين ، يظهر يشوع (يهوه الجديد) فاعلاً في مناح ثلاثة : ارساء العدل بين الجميع (على الصعيد اليهودي وحده أولاً ثم على الصعيد الأعمى ، كما سيقال في التعبير المسيحي اليسوعي ، لاحقاً) ؛ والفعل بمقتضى الحق (الحقيقة) ؛ والسلوك وفق المبدأ القويم (الصالح) . ويبقى تحقيق تلك المناحي منوطاً ، أولاً وأخيراً ، بـ «الديان» وفي «عالم الدينونة» .

بيد أن الأمر كله الخاص بـ «المعلم» يبدو وكأنه أصبح ملتبساً شكلاً . فلقد ظهر هذا المعلم «حقاً» ؛ ولكنه مات ما بين عامي ٦٥ و ٦٣ قبل الميلاد ، كما سبق والمعنا إلى ذلك ، دون أن تقع «الواقعة» ويحدث الأمر الجلل : انهيار العالم هذا ، وقيام القيامة ، وانبعاث الأموات ، وحلول يوم الدينونة الرهيب . إذن ، لا بد وأن يكون في الأمر ما يدعو إلى التساؤل والحيرة ، وكذلك القلق إزاء «فارس الأمل» - يشوع المخلص . من هذا الموقع الانعطافي ، نكون قد اطللنا على المبدأ الثالث من المبادئ الإسينية ؛ ذلك هو دعوتهم الصارمة إلى «الارتضاع» عن هذا العالم وعليه ارتفاعاً روحياً خالصاً ، بمعزل عن اللجوء إلى أية محاولة لمجاوبته عيناً وكفاية . إن الإسيني لم يجد ، بمقتضى ذلك ، أية ضرورة لتكوين قوة بشرية ما ،

فردية كانت أو جماعية ، للوقوف في وجه هذا الظلم وهذا الباطل وهذا الطلاح ، ذلك لأن هدفه الاسمي كان قد تجسد بالدخول في تجربة ذاتية فريدة ، تنهض على ممارسة لدنية جَوَانِيَّة تنتج خلاصاً ذاتياً فريداً وتعيد ، بصورة مضطردة ، انتاجه . أما فُرَادَة هذا الخلاص فتكمن في أنها نسيج ذاتها ضمن كل شخص اسيني ، لا تستمد بنيتها ووظيفتها من أي حدث مواز له (للشخص) أو محيط به : إن المحيط الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الشخص يُفقد جبروته وحضوره الكثيف ، إذ يُحوَّل الى وضعية وهمية عَرَضِيَّة . وبذلك يغدو «الخلاص» مرتيناً بتحقيق تلك التجربة الذاتية الفريدة .

لقد كان من مقتضيات ذلك التصور الاسيني الخلاصي أن أضحي الاسينيون قادرين على الاندماج في أي شرط اجتماعي اقتصادي وسياسي ، دون أن يكون في ذلك أي حرج لهم . وحيث كان الأمر كذلك ، فقد تمكن الاسينيون أن يتبأوا مع كل سلطة سياسية حكمت في حينه ^(١) . وهذا ما أتاح لهم أن يعيشوا ويمارسوا حياتهم (تجربتهم) الخاصة دون أية ملاحقة أو أي تشكيل من الاطراف السياسية المتعاقبة . لقد تُرك هؤلاء «الودعاء الحالمون» وشأنهم ، يمارسون «سلطتهم الروحية الذاتية» ؛ ففي ذلك لم يكن ثمة أي خطر على أية سلطة «زمنية» . وهذا ، من طرفه ، يقود إلى النظر للتمييز المطلق بين كلتا السلطتين المذكورتين على أنه اللحظة الأكثر حساساً في البنيان الصوفي الاسيني : الابتعاد عن العلائق فيما بين الخلائق ، كما سيعبر لاحقاً في نطاق الصوفية الاسلامية .

والآن ، اذا كان الاسينيون (الورعون - الودعاء الحالمون) قد تحدروا من الطبقة الدنيا وظلوا مصرّين على المكوث ضمن هذا الانتماء اصراراً يثير الإنقباض والتأمل ، فإنهم رفضوا ، والحال كذلك ، أن يصلوا ، كما وصل غيرهم (السلوتيون) ، إلى فكرة مجابهة الطبقة الثرية المتسلطة على صعيد الواقع

(١) انظر في ذلك :

Prosper Alfaro- Die sozialen Urspruenge des Christentums, a.a. O., S. 72; Flavius Josephus- Geschichte des juedischen Krieges, a.a. O., II, 8, 7.

المشخص ، أو على الأقل إلى التشكيك في مشروعيتها الاجتماعية (والدينية) ؛ بل على العكس من ذلك ، كانوا يرون في مثل هذه المهمة أمراً لا يستحق أدنى اهتمام . لقد أرادوا أن يبنوا مثلهم العليا «الجديدة» في عالم صوفي روحي يرفض الملكية الخاصة لا يستعيد لها بصيغة ملكية عامة منظمة في إطار اجتماعي سياسي جديد وقادرة على إثراء المجتمع وإغنائه . إن ما هو موجود على صعيد الواقع إياه ، يجد مشروعيته الدنياء والقصوى في أنه وجد بإرادة الرب ، وبمعرفة ، وبحمايته وتكريسه . وعلى ذلك ، فإنه «لا يجوز امرؤ على سلطة ما ، دون أن تكون ممنوحة من قبل الرب»⁽¹⁾ ، أي دون أن تكون قد حصلت على وجودها الشخص من قبله . ولما كان الرب شاملاً كلياً الإرادة والتدخل في الكون ، لا تفوته صغيرة ولا كبيرة ، فإن كل سلطة سياسية ، مهما كانت أشكالها التنظيمية والقمعية ، تتحدر وتنطلق من الرب وحده ، وهو مسؤول عنها .

لقد أدى ذلك الموقف المركب إلى مفارقة صارخة في السلوك الديني والاجتماعي لـ «الورعين» ، تمثلت في أن «معلمهم المخلص» وجد «فعلاً» في الحقل الذي ارتأوه ، وهو العالم الروحي الصوفي ، دون أن يكون قد وجد فعلاً على صعيد الواقع الشخص : ومن هنا ، تتبين العلاقة الشائكة المزدوجة والمشكلة بينهم وبين جمهور الفقراء من اليهود الذين تحذروا منهم هم أنفسهم من طرف ، وبينهم وبين الملوك والحكام والولاة من اليهود والرومان من طرف آخر . لقد كانت علاقة باهتة جعلت من تأثير الاسينيين في ذلك الجمهور ، خصوصاً ، محدوداً باهتاً ضيقاً ، وربما كذلك مُسيئاً . لقد تحول «المخلص الاسيني» - بالضبط - إلى مكرس لوضعية الظلم والباطل والطلاح ، تلك الوضعية - بالذات - التي يستهدف رجاء الجمهور المذكور إسقاطها . وحيث كان الأمر على هذا النحو البالغ الحساسية ، فإن السؤال التالي يغدو وارداً وملحاً : هل ، إذن ، سقط مشروع الخلاص على أيدي الورعين الاسينيين ؟ لانظن أن الاجابة بنعم أمر قادر على حل مغاليق الموقف ؛ ذلك لأن هذا الأخير ، الذي دخل عالمنا أكثر اتهامية وإشكالية والتباسية ، لم يكن ليجد طريقاً آخر يقود إلى احتمالات جديدة واقعية . لم يحن الوقت بعد فعلاً . ان الازمة

1) Prosper Alfaris- Die sozialen Urspruenge des Christentums, a.a.O.,S.72,

العظمى التي احترقت الامبراطورية الرومانية العجوز لم تجد بعد متنفساً لها ، ذلك المتنفس الذي سيبرز لاحقاً في شخص المسيحية اليسوعية ، وإن بكثير من أقية الاحتراز الرومي الاليامي .

لقد أخبرنا Philo اليهودي أن الاسينيين أثاروا اعجاب ناس من أوساط جمهور الفقراء ، بقدر ما فعلوا ذلك أيضاً في صفوف الملوك والعلية . ولعل هذا الأمر يتصل ، خصوصاً ، بالملك اليهودي الصادوقي هيرود الكبير ، الذي كان خاضعاً للامبراطورية الرومانية ^(١) . وهذا الخبر ، من طرفه ، يشير أمامنا ، ثانية ، ما أشرنا إليه في موضع سابق من أن التحالفات السياسية الدينية بين التيارات الدينية السياسية اليهودية الأربعة كانت خاضعة - بدرجة ملحوظة - للتحويلات والاحداث التي ارتبطت ، بشكل أو بآخر ، بالموقف من روما : لقد وحد يهوه الاسيني (المعلم العادل الحق الصالح) بين الأقصيين ، الصادوقي والاسيني ، أي وحد ذهنياً وهمياً بين مالم يكن موحداً على صعيد واقع الحال الشخص . ولكنه ، كذلك وعبر هذا الموقف ، ولد خيبة أمل كبيرة ومزاجية نكوصية في أوساط الجمهور اليهودي الذي هبط الى الحدود ما بعد الدنيا من الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، مما جعل من مسألة الخلاص أمراً أكثر اضطراباً ووهمية وابتعاداً عن العيني .

هكذا ، استطاع الاسينيون - على الأقل ضمناً وتلقائياً ولكن من المؤكد بتشجيع الأوساط الدينية والسياسية العليا - أن يسهموا في «بعثرة الأوراق» في أوساط الجمهور اليهودي ، الديني أولاً وبالدرجة الأولى . فلقد تحول «يهوه المساعد - يشوع» إلى زوبعة وهمية ايهامية ، مافتىء الأعلون أن استوعبوها واستنفدوها وجيروها ، بحيث استجابت لاحتياجاتهم الاجتماعية الاقتصادية والأنيولوجية (الدينية) . وهذا ، بدوره ، عنى أن هؤلاء لم يرفضوا «يهوه الاسيني المخلص» ، بقدر ما تركوه يفعل فعله باتجاه صوفي ارتدادي ؛ ذلك لأنهم ادركوا أنه - في بنيته ووظائفه الاسينية - أعزل ، منزوع السلاح ، ومن ثم غير قادر على انجاز فعل ما ، اللهم إلا بالاتجاه الذي يطمحون هم إليه ، ويعملون في سبيله . وإتماماً لعملية البعثرة والاستيعاب هذه ، نواجه الاسينيين أنفسهم وقد التقوا ، وجهاً لوجه ويداً

1) Prosper Alfart: Die sozialen Urspruenge des Christentums- a.a.O.,S.73.

بيد ، مع الصادوقيين ، الذين رحبوا بذلك كل الترحيب ، وقدموا له كل المسوغات أمام الجمهور الخاص من اليهود ، وأمام سادتهم خارج الحدود ، الرومان .

ان المبادئ العقيدية لم تتمكن من تكريس التناقض الاجتماعي الاقتصادي بين كلا التيارين المعنيين ، بل ربما أحلت محله «وهم الوحدة بين الأخوة في الدين» . فرفض الصادوقيين لعقيدتي خلود النفس والمصير (القدر) الرباني الغائي ، لم يجعل منهم خصوماً وأعداء خطيرين في أعين الاسينيين (الورعين) ، الذين رأوا - بالضبط - في هذين الأمرين أهم الأركان العقيدية الدينية التي أخذوا بها . أما الخصوم الخطرون للصادوقيين أولئك فقد كانوا ، بحق ، السيلوتيين ، ثورة الله ، الذين فتحوا بعقائدهم الدينية ونشاطهم السياسي والاجتماعي الاقتصادي أبواباً عريضة أمام تصور يهوه ، المخلص الجديد ، واغلقوا - من طرف مقابل - أبواباً أخرى دون ذلك (خصوصاً في تصورهم عن الغويم) : ان النظر إلى «الخطيئة» مجسدة بأفعال «شعب الرب - الصادوقيين خصوصاً» ومنفذه بأيدي «الأغيار» ، حدد مواقع الحراب السيلوتية ووجه بوصلتها .

وهناك في التيار الديني الاسيني عنصر جدير بالانتباه ، في هذا السياق . فلقد تحدث الاسينيون - ربما تحت تأثير مصري وفارسي - عن «طريقين اثنين» حاسمين أمام السالكين ؛ الأول هو طريق الضوء ، في حين أن الثاني تمثل بطريق الظلمة . وقد تحدثوا عن سماتهما العامة والرئيسية ، التي على المرء أن يدركها ، لكي يعرف ما يختار ويحدد موطىء قدمه الكوني خلاصاً أو بقاءً في «الراهن المظلم» . لكنهم ، هنا أيضاً ، ظلوا قابعين في حقل التصعيد الروحي الصوفي للواقع العيني وفي حدود استبطانه روحياً جَوَانِيّاً . وهذا الاتجاه الاسيني يظهر للعيان حتى في الحالة التي يتحدثون فيها عن «الأعداء والخصوم» ، بمثابتهم تجسيدا لطريق الظلمة وتجلياً له . ان الاعداء (كتيم) المعلنين يتمثلون - في نظر الاسينيين - أولاً ، بفئة الكهنة المتميزة ، بصورة أولية جوهرية ، بالنفاق والكذب والرياء . وهنا ، في هذه الدائرة ، يندرج الفريسيون (المنافقون الانعزاليون) والصادوقيون . فعداية هؤلاء تظهر ، والحال كذلك ، بالأخلاقية أساساً ، بما تنطوي عليه من مراوغة وجشع . أما الموقف الاجتماعي والاقتصادي ، الذي من جمهور الفقراء اليهود

بأشكال قاسية ، فلا يبرز ضمن اهتماماتهم المسيانية ، أو يظهر بصيغ ضمنية وجانبية وهامشية . وذلك يفيد أن الاسينيين وإن رفضوا الملكية الخاصة لأنفسهم بشتى أنواعها ، فإنهم - على صعيد الآخرين - لم يجدوا فيها وبما يظهر في سياقها السياسي أمراً ذا خطورة تصل إلى درجة تقتضي التصدي له .

وعلى سبيل المقارنة بين الاسينيين والسلوتيين ، نلاحظ أن الآخرين كان لهم نظرة مكثفة تجاه الاعداء المتمثلين بالوافدين من وراء الحدود بغية السيطرة على اليهود وتحويلهم إلى بقرة حلب . ولا ريب أن الرومان كانوا يعتبرون في مقدمة هؤلاء . فلقد نظروا إليهم من موقعين اثنين يؤديان إلى بؤرة واحدة . الموقع الأول تمثل في كونهم مضطهدين اقتصادياً مالياً ، يجبون الضرائب ويفرضون الأتاوات والسخرة ويجندون الآخرين في جيوشهم لقتال اعدائهم ، الذين لم يكونوا دائماً اعداء اليهود (السلوتيين) . أما الموقع الثاني فقد تجسد في ظهورهم (الرومان) بمظهر الوثنيين (المشركين) ، الذين يعملون لفرض هيمنتهم الثقافية الشاملة ، تلك الهيمنة ، التي تمثلت باتجاه الهلينة .

ولم يكن الأمر بالنسبة الى الاسينية على ذلك النحو . فلقد كان الرومان اياهم خطرين ، حقاً ، على ممثلي هذا التيار الديني الصوفي ، ولكن فقط في حدود البعد الذهني الديني . وحتى هنا كانت بعض المساومات والتنازلات تنشأ بين الطرفين . ان الاسينيين لم يكونوا ليمتنحوا الموقع الأول الذي اخذ به السلوتيون في مواقفهم الصارمة من الرومان أية أهمية . كانت كل انظارهم متجهة إلى ما قد ينشأ من مخاطر في حياتهم الروحية إذا ما هيمنت أركان الهلينة . وفي هذه النقطة بالذات ، كان الرومان يلجأون الى التوازنات المختلفة بين مختلف التيارات اليهودية المناوئة لهم ، بدرجة أو بأخرى . وكذلك في هذا المجال ، كانت تظهر بعض المواقف التي توحى بالسكوت على الرومان ، حين كان هؤلاء يبدون أحياناً «تفهماً» أو «بعض التفهم» ، فيحدون من نشاطهم الهليني أو يتغاضون عنه ، وفق الحالات المعنية التي كانوا يجدون أنفسهم فيها . ان ذلك يشير بوضوح إلى أن الاسينيين كانوا مساومين حتى في حقلهم الخاص ، حقل المخلص والخلاص ، بحيث أنهم وصلوا ، في نهاية المطاف وأساس الأمر ، إلى طرح المسألة الخلاصية على النحو

التالي : إذا سكت الآخرون علينا ، سكتنا عليهم . وهذا ما قاد إلى أن يعيشوا عيشة اكتفاء ذاتي ، بعيداً عن المدن والناس عموماً ، في كهوف الهضاب والمناطق القاحلة المنزوية . وبذلك ، فقد عاشوا خلاصهم الخاص ، إذ وصلوا - مرة ثانية - إلى «يهوه المختارين المصطفين» . وهذا ما نلاحظه من خلال التمعن في دلالة الكهوف التي اكتشفت فيها مخطوطاتهم ، تلك الكهوف التي كانت مناطق سكنهم وتنسكهم .

في نطاق البحث في تصور الخلاص والمخلص لدى التيارات الدينية الأربعة المأثري عليها ، وبصورة مخصصة التيار الاسيني ، يبرز وجه هام من أوجه المسألة الخلاصية (المسيانية) ، تمثل في من سُموا «الحسيديين» . فمن المعتقد أن هؤلاء كَوَّنوا ، في القرون الأخيرة السابقة للميلاد ، ^(١) نزعة دينية خطيرة في تأثيراتها أتيح لها ، في مراحل لاحقة - وخصوصاً في المرحلة الانتقالية من العصر السابق على الميلاد إلى العصر الميلادي - أن تتبلور وتفصح عن نفسها بقوة وفاعلية تحت ما عرف بـ «الرؤياوية» . وهناك من الباحثين من يعتقد أن الاسينيين كانوا يمثلون امتداداً للحسيديين ، أو فرقة من فرقهم ، أو أحد مصادرهم الدينية ، فضلاً عن وجود باحثين آخرين من علماء الآثار استخدموا تعبير «الحسيديين» إسماء لسكان قمران ، أي الاسينيين أنفسهم ، بحسب المخطوطات المكتشفة في كهوف قمران عند البحر الميت . وفي هذه الحال ، يكون المقصود بهم جميع الفئات اليهودية المتمسكة ، بتزمت وانغلاق ، بعقائدها وتقاليدها الجديدة ؛ مما يجعل من المرجح أن «الحسيدية» لم تعد تعني - وفق هذا الرأي - تياراً أو شيعة أو فئة دينية بعينها ، بقدر ما أصبحت تمثل توجّهاً دينياً أو صفة دينية عامة تتصل بهذه الفئة الدينية أو تلك أو عدداً من الفئات الدينية ^(٢) .

(١) انظر حول ذلك :

Martin Robbe- Der Ursprung des Christentums, a.a.O., S.53.

(٢) انظر ذلك ضمن : حسين عمر حمادة - مخطوطات البحر الميت ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٣٧ ، ٥١ .

ان ما يهم في المسألة القائمة هو أنه مع الحسيدة تكونت النزعة الرؤياوية المنوه بها ، تلك التي استمرت فاعلة محرصة على امتداد مراحل طويلة ، ومثلت ، من ثم ضمن صيغ متعددة ومتمايزة نسبياً ، قاسماً مشتركاً ملحوظاً بين اليهودية المتأخرة والمسيحية الباكورة ^(١) (بغض النظر الآن عن القول بأن مظاهرها يمكن ملاحظتها ، أيضاً ، في البنية الاسلامية نفسها) .

لقد نهضت الرؤياوية على هاجس كبير وخطير في دلالاته وتأثيراته الخلاصية ؛ ذلك هو اقتراب «نهاية العالم» وشوك حدوثها ، وما يترتب على ذلك من مهمات وواجبات وطقوس دينية تدخل في زمن التوقع لحدوث ذلك . ومما يجدر ذكره أن النزعة المذكورة بلغت درجة عليا من الراهنية الدينية والسياسية ، وذلك حيث «بلغ السيل الزبى» في المرحلة الانتقالية مما قبل الميلاد إلى ما بعده . حدث ذلك في إطار تعاظم الأزمة الكبرى التي عمّت المجتمع العبودي في الامبراطورية الرومانية الشائخة . فلقد أخذت هذه الأزمة تقتلع الجميع من «جذورهم» ، مشتتة إياهم ، عاصفة بهم بكل اتجاه ، مثيرة فيهم التساؤل المصيري الكبير : إلى أين ، هل سيقع «الحدث الأعظم» ، دمار العالم ، وإن كان ذلك كذلك ، فما هي علائم هذا الحدث ، وأخيراً ، ما الذي سيعقب ذلك كله ؟ ان احتضار المجتمع الامبراطوري العملاق ، الذي دوخ العالم زمناً طويلاً بقبضته العسكرية الفولاذية وعمل على صوغه وفق مثله العليا التي تمثلت بالهلينة ، أخذ يبدو كما لو كان إيذاناً باحتضار العالم وانحساره ، من حيث هو وعموماً . وهو إذ يحتضر وينحسر ، فإنه يستوعب - بذلك - كل الجيوب والزوايا والأوجه والتيارات والانتفاضات والفئات والطبقات ، التي ولدت فيه أو بعلاقة معه ، وفرخت وتناولت . إن «القيامة» تقوم ، أو على الأقل تشير إلى اتجاهاتها في إطار الحدث الراهن . ان النبوءات والرؤى جميعاً يصح ، اذن ، ان يُقر بها ، كما يجب ، أيضاً ، ان يُتعلق بها ، فهي وحدها التي تملك القدرة على ايضاح «الطريق» ، طريق «الخلاص» . وإذا كان ذلك يصح على العمومي ، فإنه يصح ، كذلك وبمزيد من القوة ،

1/ Meyers Neues Lexikon- 1961, Bibliographisches Institut, Leipzig, in acht Bänden, erster

Band, S.312.

على بعض الخواص ، ومنها اليهود . فهؤلاء ، الذين حُكموا ، أبداً ، بتلك العلاقة المأزومة المربعة بين «العهد» الذي قطعه الرب لهم في ان يكونوا «الشعب المختار المصطفى» و «أمة الأحبار المقدسة» من طرف ، وبين خيبات الأمل المريرة والمتتالية باضطراد والتي ألت بهم وتلم بهم ، حتى حينه ، من طرف آخر ، إن هؤلاء يجدون أنفسهم الآن وقد «اقتربت الساعة» منهم ، الساعة التي تزجر بيوم دينونتها الرهيب . ولكن بقدر ما تكون هذه الدينونة رهيبة مذهلة قارعة ، فإنها تنطوي ، كذلك بضرورة ربانية ، على الرجاء في الخلاص على يدي «مخلص عظيم» يعلنها ، دفعة واحدة وبالقوة الكونية القصوى ، حرباً ضرورياً على كل القوى المناهضة لـ «العدالة» و «الحق» و «الصلاح» . وهو ، بهذا كله ، يحقق النصر المؤزر على أعدائه حيث كانوا .

ان ذلك التصور الخلاصي ، الذي مثل - في أساس الأمر - الوضعية الذهنية التي انطلقت منها اليسوعية المسيحية وبنيت عليها ، أسهم في تأزيم العلاقات العبودية من الداخل ، وفي دفعها بقوة إلى السقوط ؛ ولكنه إذ فعل ذلك ، فإنه قدم - في شخصه المسيحي الخلاصي - بديلاً عن العالم القديم الوشيك السقوط . ان تصور «المسيح المخلص» أعلن عن نفسه ، إقصاحاً وتضميناً ، في عدد كبير من النصوص من كلا العهدين ، العتيق والجديد . ولكنه ، على تعدد هذه النصوص التي يظهر فيها ، يهدف الى أمر أساسي مشترك ، هو تقديم «البشارة» باقتراب الدمار ، وبعده بالمباشرة بالبناء . واذ ذاك ، ستكون الحياة أبدية خالدة ، لا عودة عنها ولا نكوص . وقد أشرنا في مكان سابق ان تصورات «الجنة» و «القيامة» و «البعث» لم تجد أرضاً خصبة لها في الذهنية اليهودية الدينية الا في مراحل متأخرة من تاريخهم ، ونخص منها المرحلة الانتقالية مما قبل الميلاد إلى ما بعده . كما رأينا أن ذلك - الذي حدث في معمران الأزمة في المجتمع الامبراطوري العبودي - كان قد قاد إلى نشوء المسيحية . وإذا كنا قد أوردنا رأي ول ديورانت بأن اليهود قد تأثروا ، في تلك التصورات ، بالفرس أو المصريين أو بكليهما ^(١) ، فإننا نحد ضرورة منهجية مبدئية للاضافة الى ذلك بأن التأثير المذكور ، مع الاقرار به

(١) انظر : ول ديورانت - قصة الفلسفة ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٣١٥ .

على نحو أو آخر ، يبقى - في الخط الأخير - خاضعاً للوضعية الداخلية ، التي تكونت في فلسطين أولاً وخصوصاً ، وفي مجتمع الامبراطورية الرومانية بصورة عامة . أولعلنا نقول ، بصيغة أكثر تدقيقاً وانضباطاً ، بأن التأثير الفارسي والمصري كان فاعلاً بسبب من أنه وجد في أرض تقبلته بعمق وظماً .

في سياق تلك العملية ، التي بحثنا فيها تفصيلاً في اثناء معالجة التيارات اليهودية الأربعة الكبرى ، كانت «الرؤياوية» قد لقيت انتشاراً واسعاً وأصداء بعيدة في التجمعات اليهودية الدينية . وفي سبيل ضبط المسألة وايضاها ، نورد نصين اثنين نموذجيين على هذا الصعيد . النص الأول يتمثل ببعض مقاطع من «نبوءة دانيال» ؛ في حين أن الثاني ينطلق من «رؤيا القديس يوحنا» . أما الباحث الكامن وراء هذا الاختيار فينطلق من أن الأول من النصين يمثل النص «النبوي» الأخير من النصوص النبوية اليهودية ، التي ظهرت في المرحلة الممتدة من القرن الثامن الى القرن الثاني قبل الميلاد ، أي المرحلة التي تولدت فيها النزعة الرؤياوية ، التي نحن بصدد البحث فيها . وبحسب رأي بعض الباحثين ، يكون هذا النص (نبوءة دانيال) مؤلفاً يرجع الى القرن الثاني قبل الميلاد ؛ وهو القرن الذي هيمن فيه المكابيون ^(١) .

أما النص الثاني (رؤيا القديس يوحنا) فهو ، وفق النتائج التي تحققت عبر مجموعة من الدراسات الحديثة والمعاصرة ^(٢) ، باكورة النصوص التي تمثلت فيها المسيحية الباكرة والتي تفصح بوضوح عن الرؤياوية المعنية . وإذا أضفنا الى ذلك ماأعلنه ا . جاكوب من أن كاتب الرؤيا الأولى (دانيال) «أراد اقناع مواطنيه في عصر (منتهى الشر) بأن ميعاد الخلاص قريب وذلك حتى يغذي ايمانهم» ^(٣) ، اتضح لنا

(١) انظر مع المقارنة : موريس بوكاي - دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٣٦ .

(٢) من ذلك ماأشرنا إليه في سياق آخر :

Prosper Alfaris- Die sozialen Urspruenge des Christentums, a.a.O.,S.3; Friedrich Engels- Zur Geschichte des Urchristentums, a.a.O.,S.262.

(٣) ضمن : موريس بوكاي - دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ، نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٣٦ .

أن قيمة اختيار النصين المذكورين ذات بعد تاريخي وآخر ديني ذاتي .

في الفصل (الأصحاح) السابع من نبوءة دانيال (ولعله أكثر دقة أن نقول «رؤيا دانيال» وفق سياق النص نفسه أولاً وانطلاقاً من مقتضيات الداخلية للنزعة الرؤياوية الخلاصية ثانياً) ، نقرأ مايلي - علماً بأننا كنا في موضع سابق من هذا الكتاب قد أوردنا نصاً رؤياوياً آخر من نبوءة دانيال هذه يطرح تصور كوروش المسيح الفارسي :-

«في السنة الأولى لبشّصّر ملك بابل رأى دانيال حلماً ورؤى رأسه على مضجعه فكتب الحلم وأخبر بجملة الكلام . أخبر دانيال وقال رأيت في رؤياي ليلاً فاذا بأربع رياح السماء قد هجمت على البحر الكبير . فطلع من البحر أربعة حيوانات عظيمة يخالف بعضها بعضاً . الأول مثل الأسد وله جناحا نسر . وبينما كنت أرى إذ اقتلع جناحاه ثم ارتفع على الأرض وقام على رجليه كإنسان وأوتي قلب إنسان . وإذا بحيوان آخر شبيه بالذئب فقام على جنب واحد وفي فمه ثلاث أضلاع بين أسنانه فقبل له قم فكلّ لحماً كثيراً (لنلاحظ تماماً تعبير «اللحم الكثير» - تيزيني) . وبعد ذلك رأيت فإذا بأخر مثل الثمر وله أربعة أجنحة طائر على ظهره . وكان للحيوان أربعة رؤس وأوتي سلطاناً . وبعد ذلك رأيت في رؤيا الليل فإذا بحيوان رابع هائل شديد قوي جداً وله أسنان كبيرة من حديد فكان يأكل ويسحق ويدوس الباقي برجليه . وهو يخالف سائر الحيوانات التي قبله وله عشرة قرون . فتأملت القرون فإذا بقرن آخر صغير قد طلع بينها وقلعت ثلاثة من القرون الأولى من أمامه وإذا بعيون في هذا القرن كعيون إنسان وفم ينطق بعظائم . وبينما كنت أرى إذ نُصبت عروش فجلس القديم الأيام وكان لباسه أبيض كالثلج وشعر رأسه كالصوف النقي وعرشه هيب نار وعجلاته ناراً مضطربة . ومن أمامه يجري ويخرج نهر من نار وتخدمه ألوف ألوف وتقف بين يديه ربوات ربوات . فجلس أهل القضاة وفتحت الأسفار» (١) .

وفي هذه اللحظة العظمى الخامسة

(١) الكتاب المقدس - نبوءة دانيال ٧/١-١٠ .

«كنت أرى ماذا يكون عن صوت الأقوال العظيمة التي ينطق بها القرن وبينما كنت أرى إذ قتل الحيوان وتلف جسمه وجعل وقوداً للنار - أما باقي الحيوانات فأزيل سلطاتها لكنها أوتيت طول حياة إلى زمان ووقت» (١) .

وإذا ما وصل الأمر إلى هذه النتيجة القصوى ، التي جبت كل ما سبقها من اكوان وأحداث ، فإن سلطان الأكوان المخلص ، المسيح الأعظم ، يأتي ، أخيراً ، تتويجاً لها وتجسيداً لوجهها الآخر ، الجديد عدالة وحقاً وصلاًحاً ، فيتحدهم بمقتضى ذلك - «القديم الأيام - الرب» بـ «مثل ابن البشر - المخلص» ، ليعلن هذا الكائن الجديد الأعلى فاتحة الأيام الجديدة ، التي تجسد القديم الأيام بصورة الفاتح الجديد :

«ورأيت في رؤى الليل فإذا بمثل ابن البشر آتياً على سحب السماء فبلغ إلى القديم الأيام وقرب إلى أمامه . وأوتي سلطاناً ومجداً وملكاً فجميع الشعوب والأمم والألسنة يعبدونه وسلطانه سلطاناً أبدي لا يزول وملكه لا ينقرض» (٢) .

ويصاب دانيال بحالة من الروع والذهول . ويرغب في معرفة «النبا العظيم» ، فيسأل ، ويقدم له الجواب ، وهما هو :

«ان هذه الحيوانات الأربعة العظيمة هي أربعة ملوك يقومون من الأرض . لكن قديسي العلي يأخذون الملك ويجوزونه إلى الأبد وإلى أبد الأبد . . وقد رأيت فإذا بهذا القرن يحارب القديسين فغلبهم . حتى جاء القديم الأيام فأوتي قديسو العلي القضاء وبلغ الزمان وحاز القديسون الملك . . ثم يجلس أهل القضاء فيزال سلطانه ويدمر ويباد على الدوام» (٣) .

وإذا ما رغبتنا في معرفة من من الشعوب ستناط به مهمات حكم العالم الجديد ، أو فيما إذا كانت هذه الأخيرة ستناط بكل الشعوب ، فإن دانيال يخبرنا - بحسب ما رآه في رؤياه العجيبة - بأنه إذ ذاك سيُعطي

(١) نفس المصدر السابق ومعطيته ١١-١٢ / ٧ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطيته ١٣-١٤ / ٧ .

(٣) نفس المصدر السابق ومعطيته ١٧-١٨ ، ٢١-٢٢ ، ٢٦ .

«الملك والسلطان وعظمة الملك تحت السماء بأسرها لشعب قديسي العليّ وسيكون ملكه ملكاً أبدياً ويعبده جميع السلاطين ويطيعونه»^(١) .
«إلى هنا نهاية الكلام»^(٢) .

كما يُعلم دانيال ، وكذلك ، الى هنا نهاية العالم ، التي تتطابق مع ظهور «المسيح الدجال» أولاً ، وتبلغ غايتها القصوى والأبدية بظهور «المسيح الحق» ثانياً . وجدير بالقول أن هذا المسيح «الحق» يظهر ، في رؤيا دانيال المشوقة ، بتعبيرات متعددة تشير كلها - مجتمعة ومنفردة - الى سمته العظمى : أن يكون معجزاً ، خارقاً ، عملاقاً ، مظفراً ، مخلصاً . . . فهو ، أي دانيال ، يسميه «مثل ابن البشر» ، كما ورد آنفاً ، و«الرجل»^(٣) ، و«شبه بن بشر»^(٤) ، و «المخلص» الصانع»^(٥) . ونلاحظ في النص ، اضافة الى هذا ، ورود تعبيرات ملفتة للانتباه ، مثل «مُسح قدّوس القديسين» و «المسيح»^(٦) ، وذلك ضمن المعنيين الكبيرين المتقاطعين ، السليبي والايماني ، بحسب الرؤيا الدانيالية .

أما «المسيح الدجال» فإن قديمه المشؤوم والمتوقع يكون ، حيث يبلغ السخط مداه الذي لامدى آخر له في «الميعاد» المحدد . وجدير بالقول أن ظهور هذا الدجال يكون الوجه الآخر من موقف واحد وجهه الأول يتمثل ببلوغ «الكفر والفساد» حده الأقصى . فبرأي البعض ، يتسم هذا «الدجال» بأنه «شخص معين بصفات معينة ، يظهر في زمن معين - لم يجد بالتاريخ والتوقيت - في شعب معين هم اليهود ، فلا سبيل الى إنكاره»^(٧) . وإذا وضعنا باعتبارنا أن «المآسي والفواجع» متصلة ببعضها بعضاً ، فإن «مسحاء دجالين» يمكن أن يظهر وا على نحو دوري

(١) نفس المصدر السابق ومعطيته ٢٧/٧

(٢) نفس المصدر السابق ومعطيته ٢٨/٧ ؛ وخط التشديد متي .

(٣) نفس المصدر السابق ومعطيته ٩/١٢١٢١/٧ .

(٤) نفس المصدر السابق ومعطيته ١٠/١٦ .

(٥) نفس المصدر السابق ومعطيته ١٣/٦٠ ؛ ١٤/٤٢ .

(٦) نفس المصدر السابق ومعطيته ٩/٢٤ ، ٢٥-٢٦ .

(٧) أبر الحسن علي الحسيني الندوي : الصراع بين الايمان والمادية - دار الايمان ، بيروت ١٩٧١ ، ص ١١٢ .

متتابع ، وفقاً للحالات والوضعيات المأساوية المشخصة (١) .

وهذا ، بدوره ، يعلن عن أن ظهور هذا الدجال يمثل جماع القول في مرحلة أصبحت مستنفدة مطلق الاستنفاد ، بحيث يغدو ذلك «خاتمة الأحرار» و «بداية السعادة الابدية» .

ويعبر دانيال في رؤياه عن تلك الخاتمة ، المأساوية والسعيدة في حين واحد ، إذ يعلن أن آخر مملكة فاسدة تسقط ، يكون عليها «مسيح دجال» ؛ ومن ثم ووفق السياق المعني ، فإن تلك «الخاتمة» هي ، كذلك ، «بداية» ، بداية عصر جديد ، هو عصر «المسيح الرب» ، أي «الحقيقي» .

«وقال إني اعلمك (يادانيال) بما سيكون في آخر السُّخْط فإنه يتم في الميعاد المحدود . . .» (٢)

ويسوق دانيال تفاصيل الموقف ، التي كنا قد أتينا على بعض منها . ولعله من الضروري أن نشير ، في هذا المعقد من المسألة ، إلى أن إبلاغ دانيال بتفسير ما رآه في رؤياه يتم من قبل «جبرائيل» ، رئيس الملائكة ، أي الوسيط الذي يقع مكانه فيما بين الرب ويسوع المسيح القادم ، بحيث يكون دانيال أقل شأناً منه ، كما يكون جبرائيل أقل شأناً من يسوع وأعلى مقاماً من دانيال «النبي» . ولندقق في كيفية الإبلاغ ، تلك الكيفية التي تتم بـ «الكلمة» و «الرؤيا» . يقول دانيال :

«بينما كنت أتكلم بالصلاة إذا بالرجل جبرائيل الذي رأيته في الرؤيا عند البداة طار سريعاً ولسني في وقت مقدمة المساء . وبيّن وتكلم معي وقال يادانيال اني خرجت الآن لاعلمك فتفهم . عند بداءة تضرعاتك خرجت الكلمة وأتيت

(١) يعلن مؤلف الكتاب الأخير أن وقت ظهور «الدجال» غداً الآن قائماً ، بحيث أن هذا «الدجال» يبرز مثلاً بمن يحمل لواء الفكر المادي والباطل على المسرح العالمي ، وكذلك بالصراع بين من يدعو إلى الحق والعدالة (ومقصود بذلك الشعب الفلسطيني المهجر من وطنه) من طرف ، وبين من يدعو إلى نفي هذا الوضع والوقوف في وجهه مثلاً بالصهيونية واسرائيل . (انظر : نفس المرجع السابق ومعطياته) . وبحسب ما يُنقل إلينا في (المرجع السابق ، ص ١١٤) ، فإن سمة الدجال الكبرى ، كما حددها النبي محمد ، هي «الكفر» ، بحيث يلاحظ أنه مكتوب بين عينيه ك ف ر يقرأه كل مؤمن كاتب أو غير كاتب» .

(٢) الكتاب المقدس - نبوة دانيال ٨ / ١٩ .

أنا لأخبرك لأنك رجلٌ رغائب فتأمل الكلمة وافهم الرؤيا» (١) .

ومما يدعو إلى التأمل التاريخي والديني الخلاصي تلك المقارنة التي يعلنها جبرائيل أمام دانيال بين عملية التدمير التي كان عليها أن تصيب مدينة أورشليم على يد المسيح الدجال من طرف ، وبين تصور «الطوفان» من طرف آخر (٢) . فلقد بدأت عملية غسل الخطيئة بالطوفان الأول ، الذي انقذ منه نوح (أي المسيح الأول) ؛ وعليها الآن ، بحسب دانيال النبي ، أن تنتهي بدمار (طوفان) أورشليم بمن فيها ، ثمناً لظهور المسيح الجديد وتخليص العالم من فواجعه .

هكذا تتحدد الأبعاد والآفاق ، ولا نقول : الاحتمالات ، المرسومة والمحتومة قدرأ . وإذا كانت تلك اللوحة الرؤياوية قد نشأت في القرن الثاني قبل الميلاد ، فإنه يتضح أمامنا إلى أي مدى ستكون اللوحة الرؤياوية في المنعطف التاريخي مما قبل الميلاد إلى ما بعده أكثر قتامة ورهبة وهولا . يضاف إلى ذلك أن رؤيا دانيال ، على محاولتها أن تكون ذات بعد كوني شمولي بشري وطبيعي ، ظلت محكومة بمعطيات «المأساة اليهودية» ، و«مأساة الشعب المصطفى المختار» أي أنها لم تخرج عن حدود «العهد الرباني» المقطوع مع هذا الشعب ، إن لم نقل ، أيضاً ، وعلى حدوده . فإدانة شعوب المنطقة عامة ، والشعب الكنعاني منها مخصصاً ، تبقى نعمة قوية في أفواه الكثير من الدعاة والأنبياء اليهود . وهذه النعمة اذ بقيت على ذلك النحو من التواصل والاستمرار ، فإنما أريد منها القول بأن الكوارس والمآسي والمخازي الكبرى والصغرى ، التي أصابت اليهود (والأصح أن نحصر الأمر إذ نقول : قسماً من اليهود، العلية)، كمن وراءها وولدها «الزيغ الكنعاني» : إن «الخطيئة» غدت ، بمقتضى ذلك ، ذات أصول غير يهودية . وهذا يشير إلى أننا نواجه توجهاً آخر مختلفاً عما واجهناه لاحقاً في إطار اعتبار الخطيئة ذات أصول يهودية .

تلك النتيجة ذات أهمية خاصة بالنسبة إلى تبين الآلية الداخلية المحركة للاتجاهات الخلاصية على الصعيد اليهودي . فإذا كانت نتائج الخطيئة تلك لصيقة

(١) نفس المصدر السابق ومعطياته ١٩/٨ .

(٢) انظر : المصدر السابق ومعطياته ٢٦/١٠ .

بمبائرهم ، فإنهم هم أنفسهم ليسوا مسؤولين عنها . وهذا يقضي بأن تكون هنالك «حكمة ربانية» من هذه الوضعية ، التي تبدو ظالمة ، مع العلم أنها عادلة كل العدل . ولعل تصور «التجربة» التوراتي يحل ما يبدو ، هنا ، إشكالاً . فالرب يوقع «شعبه» ، الذي اختاره واصطفاه لنفسه ، في «تجربة» يتحقق فيها من قدراته ومن ارتباطه بـ «عهده» مع ربه هذا . وإذا كنا قد تبينا في نصوص توراتية ما يعلن من أن هذا الشعب «المختار المصطفى» كان ، في حالات معينة ، عاقاً بربه ، فإن ذلك لا ينبغي أن يفهم بحيث يكون العقوق من جبلته . إن «الخطيئة» هي في أصل الآخرين ، الأغيار (الغوييم) . هكذا اوضحت الرؤى البنيوية ذات العيسق الرباني . وبذلك ، تغدو وصمة وسبب أن يتهم الواحد من اليهود بأنه مُس من «نسل كنعان» ، أو أنه من «نسل كنعان لا يهوذا» أو «اسرائيل» (١) .

إن الوضعية المأزومة المتوترة ، التي ستستجد مع بواكير العصر الميلادي ، سوف تشكل استمراراً وامتداداً نوعيين لما سبقها ومهد لها من مراحل الشتات والبؤس والمأساة ، بقدر ما كانت ، كذلك ، قطيعة معها . إن هذا القول يتضح من خلال اكتشاف الخططين الناظمين لرؤيا دانيال المأتي على بعض منها ولرؤيا يوحنا . ففي الأولى ، كان الأمر قد اتصل بتوليد الارهاصات الأولى البعيدة لـ «المسيح» الجديد ، وبتحفيز النفوس للاستمرار في انتظاره ، انتظار «الآتي القريب» . ولكن هذه الرؤيا ظلت ، كما مر معنا ، مشدودة إلى «شعب الأحبار المقدس» وحده دون غيره من الشعوب التي كانت ، في حينه ، تعيش من الاضطراب والحروب ما ليس هو أقل من ذاك الذي مر به اليهود ، طبعاً مع الإقرار بخصوصية كل من الوضعيتين المشخصتين . وعلى ذلك ، فإن حدود هذه الرؤيا الدانيالية القصوى - بالمعنى التاريخي - كان محكوماً عليها بأن تتوقف عند أشكال أخرى من الرؤى المسيانية (الخلاصية) ، من أمثال تلك التي ستخلف وراءها مهاتياً العقدة التاريخية المستحكمة حيال «الغوييم - الأغيار» . ذلك لأن ما سبق أن عالجناه تحت حد «العقدة الحضارية» ، أخذ في الضمور في تضاعيف التطورات المتلاحقة على صعيد المجتمع الامبراطوري العبودي عموماً ، وضمن المجتمع الكنعاني على نحو

(١) نفس المصدر السابق ومعطياته ٥٦/١٣ .

مخصص . وهذا ، من طرفه ، كان تعبيراً عميقاً عن أن اتجاه الاندماج اليهودي في شعوب المنطقة كان قد حقق آفاق ملحوظة ، بحيث أصبح الوضع مهيئاً لاستقبال لحظة جديدة في التاريخ العالمي لا يمكن ردها إلى واحد من شعوب الامبراطورية منفرداً .

وقد برزت تلك اللحظة الجديدة على الصعيد اليهودي عبر ثلاث أقية كبرى كان لها دور مرموق في قيادة «العقدة الحضارية» المنوه بها الى الضمور ، إن لم يكن إلى التلاشي . القناة الأولى تمثلت بظاهرة الكنعنة ، التي نشأت تاريخياً مع دخول اليهود العبرانيين إلى فلسطين الكنعانية ، وظلت قائمة مستمرة الى المرحلة الانتقالية مما قبل الميلاد إلى ما بعده ، أي إلى حيث أخذت «البشارة» المسيحية تطرح نفسها . أما القناة الثانية فقد تجسدت بظاهرة البيلنة (من بابل) . وهذه الأخيرة وإن لم تكن قد حافظت في المراحل الأخيرة مما قبل الميلاد على قوتها ، إلا أنها ظلت تمثل نسقاً من أنساق التوجه الثقافي الديني في نطاق شطر من الفئات اليهودية . ومما أسهم في استمرارية هذه الظاهرة ما كنا قد ذكرناه من أن التواصل بين اليهود الذين فصلوا البقاء في بابل - وكان معظمهم من الشباب -^(١) من طرف وبين الذين عادوا إلى فلسطين بمساعدة كورش الفارسي من طرف آخر ، ظل - بدرجة أو بأخرى - قائماً . من موقع عدة عوامل . من هذه الأخيرة ، مثلاً ، ضرورة أن يشتري كل يهودي بابلي ، نظرياً ، قطعة أرض من فلسطين تذكيراً له بـ «أرض العهد» ، الخ . . . بل نستطيع القول بأن العائدين أنفسهم خضعوا لتأثير البيلنة بالرغم من أوهام «المصطفين المختارين» ، التي كانت منتشرة في صفوف معظمهم ، على الأقل .

أما القناة الثالثة فقد عبرت عن نفسها بالظاهرة التي عمل أصحابها وممثلوها

(١) بسبب الأهمية النظرية الثقافية لهذه الواقعة بالنسبة إلى المراحل التاريخية اللاحقة على الصعيد اليهودي ، نثبت ما أورده ول ديورانت بصدد ذلك : «ولم يتحمس شباب اليهود لهذا التحرير لأن الكثيرين منهم قد تأقنوا في التربة البابلية وامتدت اصولهم فيها ، فترددوا طويلاً في ترك حقولهم الخصبة وتجارثهم الرائجة ليعودوا إلى القفار الخربة في المدينة المقدسة . ومرت ستان بعد مجيء قورش قبل أن تبدأ الفصيلة الأولى من اليهود المتحمسين رحلتها الطويلة التي دامت ثلاثة شهور . . . ولم يجد هؤلاء العائدون ترحيباً كبيراً . . . » . (ول ديورانت : قصة الحضارة - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٣٦٤ - ٣٦٥) .

على نشرها أو فرضها بقوة السلاح وبمخاطبتها تعبيراً عن هيمنة اقتصادية وسياسية وعسكرية . ان الهلينة ، التي تقصينا تأثيراتها خصوصاً في الاتجاهات اليهودية الاربعة الكبرى في المراحل المهيثة لـ «يسوع المسيح» ، كان لها قصب السبق في الفعل ضمن الأوساط اليهودية ، وذلك على نحو مفصح عنه افصاحاً ذهنياً متقدماً تقدّم الوضعية المشخصة التي احاطت به وغذته . ويمكن القول على سبيل تعميم الموقف ، ان هذه الظاهرة الثالثة كان من شأنها ، حيث دخلت العالم اليهودي الذهني ، أن تفرض نفسها على الجميع ، سواء رغبوا أو رفضوا ، وذلك بأشكال وردود فعل متفاوتة . وكان قد ترتب على ذلك أن اتسعت الرؤية اليهودية أفقاً وعمقاً ، مما أضعف من الجيتوية النخبوية في صفوف معظم اليهود ، وهيا الأذهان لاستقبال عالم آخر من التصورات وتوزيع عالم أصبح شائخاً . وبطبيعة الحال ، فقد تعين على تصور «الأمم» أن يعاد النظر فيه بنوياً ووظيفياً ، بحيث أخذنا نواجه مواقف رؤياوية جديدة تنطوي على تعبيرات تلح على «ختان القلب» و «المحبة» و «عهد القلب والمحبة» . وهذا ما كان عليه - في النتائج الكبرى - أن يعني تضالو القيمة الخلاصية للرؤى اليهودية ، من أمثال رؤيا دانيال ^(١) ، تلك الرؤى التي أرغمت على أن تفسح الطريق واسعة أمام «الجديد الآتي» .

(١) ان الموقف النخبوي من «الأمم» ، الذي واجهناه في رؤيا دانيال ، لا نعدم مثيلاً له في أسفار رؤياوية أخرى من «المهد العتيق» . وهذا يتضمن القول بأن ذلك الموقف ليس حالة خاصة ، بقدر ما هو حالة نموذجية في تلك الأسفار . ولابد من القول بأن ذلك يظهر ، خصوصاً ، في المسألة التي نحن الآن بصدد البحث فيها ، أي «يوم الدينونة» ، وظهور «المسيح الدجال» ، وبعده «المسيح يسوع» . وفي سبيل ايضاح تلك الوضعية الرؤياوية المناهضة ، بصورة مخصصة ، للكنعانيين ، نسوق نصاً من نبوة زكريا في العهد العتيق (الكتاب المقدس - نبوة زكريا ١٤/٧ ، ٩-١٢ ، ٢٠-٢١) :

«ويكون يوم وهو معلوم عند الرب ليس بنهار ولا ليل بل يكون وقت المساء نور . . . ويكون الرب ملكاً على الأرض كلها وفي ذلك اليوم يكون رباً واحداً واسمه واحد . وترجع جميع الأرض حتى الغور من جبع إلى رمون في جنوب اورشليم وترتفع وتُسكن في مكانها من باب بنيامين الى موضع الباب الأول والى باب الزوايا ومن برج حنثيل الى معاصر الملك . ويسكنون فيها ولا يكون إسأل من بعد فتعمر اورشليم بالأمن . وهذه هي الضربة التي يضرب بها الرب جميع الشعوب الذين تمجدوا على اسرائيل . لحومهم تذهب =

كان ذلك قد حدث مع انفجار «الواقعة العظمى» متمثلة بالأزمة التي طغت على الامبراطورية الرومانية المتسارعة الخطى باتجاه التجزؤ والتفسخ . ومن الضروري أن يشار إلى أن هذه الأزمة المستجدة ستقترن في أذهان المسيانيين الجدد بالأزمة الطاحنة «القديمة» ، التي أتى بها ، في حينه ، عصر الشتات على أيدي آشور وبابل . من طرف آخر مقابل ، برز مشروع الخلاص الجديد بمثابته استعادة لـ «الأيام الأولى» ، «أيام البداعة» ، حيث هيمنت مظاهر المجد والعظمة والبطولة (وهي المرحلة التي اتسمت بالحماسة البدوية المتأخية مع العهد الجديد ، في حينه ، «عهد الرب مع شعبه»)^(١) . وهنا ، نلاحظ تغلب النزوع السلفوي على النشاط الديني اليهودي ، مقترنا وممزجاً بتوجه مستقبلي مسياني . ومعنى ذلك أن تاريخية هذا التوجه الأخير لم تستطع أن تتحرر من كوابح ذلك النزوع .

لاشك أننا نواجه في ذلك الموقف وضعية طريفة على صعيدي البنية والوظيفة الخاصتين بالرؤياوية اليهودية الجديدة ، أي التي ترنو إلى المسيحية اليسوعية بعين ، وتحنو على «الأيام الأولى» بالعين الأخرى . هاهنا ، نكون قد ولجنا عالم الرؤيا اليوحناوية ؛ وهاهنا ، بالضبط ، نكون قد فتحنا باب البيت المسيحي ، بيت «يسوع المسيح» ، ودخلناه بمتعة و«سرّة» غامرة ؛ مع الملاحظة المنهجية المبدئية ، وهي أننا في ولوجنا ذلك البيت ، أبقينا على «السُرّة» التي توصلنا باليهودية ولم نقطعها نهائياً . ورغم ذلك ، سوف نلاحظ أن الرؤيا المعنية يمكن أن يتضح مكانها التاريخي الخلاصي بمزيد من العمق والدقة ، حين لا نطلق - في دراستنا لها - من وجود «سرّة التواصل» تلك مع اليهودية .

هكذا يبدأ يوحنا «الأخ والشريك» في حديثه عن رؤياه المسيحية اليسوعية «المدهشة» ، أي التي حملت في ثناياها «أسرار» ما سيكون في «يوم الدينونة» :

وهم واقفون على أرجلهم وعيونهم تذب في وقوبها . . في ذلك اليوم يكون على جلاجل الخيل قُدسٌ للرب . . . بل كل قِذِرٍ في اورشليم وفي يهوذا تكون قدساً للرب الجنود وجميع الذابحين يأتون ويأخذون منها ويطبخون فيها ولا يكون بعدُ كنعانيٌّ في بيت رب الجنود في ذلك اليوم» .

(١) انظر :

Prosper Alfaris- Die sozialen Urspruenge des Christentums, a.a.O.,S.3.

«أنا يوحنا أناحكم وشريككم في الضيق وفي الملكوت والصبر في المسيح يسوع كنت في الجزيرة التي يقال لها بطمُسُ لأجل كلمة الله وشهادة يسوع . وصرت في الروح يوم الرب فسمعت صوتاً عظيماً كصوت بوق . قائلاً اكتب ما تراه في سفر وابعث به الى الكنائس السبع» (١)

ان يوحنا الرؤياوي هذا يقدم «البشارة» ، إذ يعلن عن اسم جديد لا يعرفه أحد إلا الآخذ» (٢) .

أما «جدة» الاسم الجديد فتكمن ، أولاً بأول ، في أن «ساعة دينوته قد أتت» (٣) .

وملاحظ أن رؤيا يوحنا تتسع وتفتح لـ «الكل» من مظاهر الكون الكبير ، جماداً وحيواناً وإنساناً ، وكذلك ما فوق ذلك أو تحته من خوارق الشياطين والملائكة والحيوانات والطبيعة . ويترتب على هذا ، ضمناً وافصاحاً ، أن يتوجه الخطاب الرؤياوي لدى يوحنا إلى جميع البشر . وهنا لابد من التنويه بأن رؤيا دانيال تتمزق حجبها ، وتنحل حدودها ، لتتحول ، في الصيغة اليوحناوية المكثفة ، إلى «كتاب مفتوح» لجميع البشر من جميع الجهات والاركان والإتنيات :

«ورأيت ملاكاً آخر قوياً نازلاً من السماء ملتفحاً بسحابة وعلى رأسه قوس غمام ووجهه كالشمس ورجلاه كعمودين من نار . وبيده كتاب صغير مفتوح فوضع رجله اليمنى على البحر واليسرى على الأرض . وصرخ بصوت عظيم كأنه أسد يزار ولما صرخ تكلمت الرعود السبعة بأصواتها . ولما تكلمت الرعود السبعة بأصواتها هممت بأن اكتب فسمعت صوتاً من السماء يقول إختتم على ما تكلمت به الرعود السبعة ولا تكتبه . . . ثم ان الصوت الذي سمعته من السماء كلمني ايضاً وقال اذهب خذ الكتاب الصغير المفتوح في يد الملاك . . . فأخذت الكتاب الصغير من يد الملاك . . . فقال لي لابد لك من أن تتنبأ ايضاً على شعوب وأمم وألسنة وملوك كثيرين» (٤) .

(١) الكتاب المقدس - رؤيا القديس يوحنا ١/٩-١١ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطيته ١٧/٢ .

(٣) نفس المصدر السابق ومعطيته ٧/١٤ .

(٤) نفس المصدر السابق ومعطيته ١٠/١-٤ ، ٨ ، ١٠-١١ .

ان «الخطاب اليوحناوي» هو ، والحال كذلك ، «خطاب المخلص الكوني» ،
أوهو ، كما سيقال لاحقاً ، «خطاب الأمم كلها» . أما «الكتاب المفتوح» ذاك فيقدم
معمداً من قبل رب «المخلص الجديد» الأعظم ، أو رب «الاسم الجديد» ، بحيث
يصبح كلاهما شيئاً واحداً ، وذلك على سبيل التحول من المخلص الى الرب ومن
الرب الى المخلص . إن «يهوه الرب» ، الذي مرّ عليه حين من الدهر طويل كان فيه
مغرقاً ومغرقاً في التعالي والمفارقة ، يخضع ، هنا ، لموقف جديد (وقديم في صيغته
القديمة الكنعانية) يتمثل في انبعائه حياً ضمن هذا العالم . ومن ثم ، فنحن نلاحظ -
في السياق النوعي من المسألة المطروحة - أن يهوه (راكب السحاب) يمر بثلاث صيغ
كبرى في مجرى تبلوره وتظهره وتحوله . الصيغة الأولى تجلت في حسيته وتداخله
البشري ، وبدءاً من المرحلة الثانية ، يظهر يهوه متعالياً مفارقاً ؛ أما في المرحلة
الثالثة - وهي هذه التي يبرز فيها الآن - فنجدته يمثل جماع العلاقة بين الصيغتين
السابقتين .

ان الرب ، كما يقدمه يوحنا في رؤياه ، يتجلى شاهداً وغائباً ، قريباً وبعيداً ،
حسباً ومجرداً ، ويظهر مجسداً في الأب والابن ، لاهوتاً وناسوتاً . وإذا قلنا إنه -
يهوه - يمثل في صيغته الأخيرة جماع تجليّه السابقين على الصعيد اليهودي ، فلنأخذ
لنعلن أنه ، هنا ، وإن ظهر حسباً مشخصاً بشرياً ، فإن عناصر حسيته وتشخصه
وبشريته هذه لا تمثل عودة إلى وراء (في صيغته الأولى) . ان النوعية الجديدة ، التي
ينطوي عليها ويفصح عنها ، تكمن في أن شخصيته تتحدد بنوع ما من التجادل بين
الخاص والعام ، بين الجزئي والكلي ، الذي يعني - في الحالة التي نحن فيها - تجادلاً
بين الانساني واللاهوتي . ذلك أولاً ؛ من ناحية أخرى ، يبدو «العام» ، في هذا
الإطار ، وقد صدع كل الحدود والسدود الضيقة الضيقة ، التي كانت تحيط بـ
«عام» يهوه اليهودي الكهنوتي في صيغته الثانية ، وتخرقه من قمته إلى قاعه ، معمداً
بالتصور الجيتوي (الانعزالي) ، تصور «الشعب المختار المصطفى» . ان عملية
التصديق هذه نشاهدها لدى يوحنا في رؤياه بصور بالغة الأهمية الدلالية :

«وبعد ذلك نظرت فإذا باب مفتوح في السماء والصوت الأول الذي سمعته
كأنه صوت بوق يخاطبني ويقول اصعد الى هنا فأريك ما سيكون من بعد .
وللوقت صرت في الروح فإذا بعرش موضح في السماء وعلى العرش

جالسٌ . ومنظر الجالس كحجر اليشب والياقوت الأحمر وحول العرش قوسٌ غمام منظره كالزمرد . . . وحول العرش أربعة وعشرون عرشاً وعلى العروش أربعة وعشرون شيخاً وحول العرش أربعة حيوانات مملوكة عيوناً من قدام ومن وراء . فالحيوان الأول يشبه الأسد والحيوان الثاني يشبه العجل والحيوان الثالث له وجه كوجه الانسان والحيوان الرابع يشبه النسر الطائر . . . ولا تزال ليلاً ونهاراً تقول قُدّوس قُدّوس قُدّوس» (١) .

ان الرب لا يعبر عنه باكثر من أنه «جالس» على العرش . فهو ، بهذا ، يكون قد وُصف من موقع التشديد على «ذاته» . لقد وصف يوحنا الرؤياوي لنا العرش من حيث هو ، وليس من حيث نحن . تم ذلك عبر «اكتشاف» تجلياته الحيوانية العظمى وتحديداتها ، التي يقف «الأسد» على رأسها . أما هذا الأخير وإن ظهر «أسداً» ، فإنه ، في وجه آخر له متمم ومقابل ، «حمل» . وهذا ، من طرفه ، يشير إلى تنوع الموقف تنوعاً كونياً مشروطاً بالتضاييف في العلائق المتعددة والمتشعبة ، التي تجمع ما بين تجلياته وظواهره . ولا بد من الإشارة إلى أن الحمل يمثل ، هنا ، الوريث الشرعي لأوزيريس المصري وبعل الكنعاني وتموز الرافدي الخ . . . ، أي لأعرق التقاليد الاسطورية الشرقية (العربية) ، بالرغم من بروز التحفظ التالي ، وهو أن «الحمل الجديد» ينطوي على خصوصية نسبية تبلورت في سياق العلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والايديولوجيا الخلاصية في مجتمع متقدم (عبودي ومشاعي قروي) (٢) .

لنتمعن ، في سبيل استقصاء المسألة المعنية ، النص اليوحناوي الرؤياوي التالي ، حيث يقدم لنا المشهد الخلاصي بعنصره (شخصيته) الكبيرين ، الأسد والحمل :

«ورأيت يمين الجالس على العرش كتاباً مكتوباً من داخل ومن خارج مختوماً بسبعة ختوم . ورأيت ملاكاً قوياً ينادي بصوت عظيم من المستحق ان يفتح

(١) نفس المصدر السابق ومعطياته ٤ / ١-٤ ، ٨٦ .

(٢) انظر حول العلاقة بين تلك الالهة الشرقية :

J.G.Frazer- The Golden Bough, New York 1922, P. 94, 534, 221, 495.

الكتاب ويفضّ ختمومه . فلم يستطع أحد في السماء ولا على الأرض ولا تحت الأرض أن يفتح الكتاب ولا أن ينظر إليه . فجعلت أبكي بكاء كثيراً لأنه لم يوجد أحد يستحق أن يفتح الكتاب ولا أن ينظر إليه . فقال لي واحد من الشيوخ لا تبك فهذا قد غلب الأسد من سيط يهوذا أصل داؤد فهو يفتح الكتاب ويفضّ ختمومه السبعة» (١) .

ان يوحنا إذ يتحدث عن «الأسد» ، الذي سيكون بمقدوره فضّ الأختام الربانية السبعة وفتح الكتاب الرباني ، ينتقل ، مباشرة ودون توسط ، إلى الحديث عن «حمل» يحمل على عاتقه انجاز تلك المهمة «الخارقة القصوى» ؛ وكأنه يكون مع ذاك (الأسد) واحداً . ومن البين والملفت أن تصوري «المخلص الضحية» و «المخلص المنتقم» يكمنان في ذلك الفهم اليوحناوي ، الذي لا يفتقد ، كما نلاحظ من مجرى النص ، وجود عنصر من التجادل اللاهوتي بين البداية والنهاية ، الفرح والفاجعة ، المذهل السعيد والمذهل الفاجع . نضيف إلى ذلك أن التصورين المذكورين يميلاننا إلى غمط من الوحدة الوجودية التي ستُنهى لاحقاً - مع استكمال النصر ليسوع المسيح - الثنائية التقليدية (اليهودية وغيرها) في العلاقة بين المخلص والمخلص . ومن هذا الموقع الدقيق بالمعنيين البنيوي والوظيفي ، يتابع يوحنا حديثه عما رآه في «الرؤيا» :

«ورأيت فإذا في وسط العرش بين الحيوانات الأربعة في وسط الشيوخ حمل قائم كأنه مذبوح له سبعة قرون وسبع أعين وهي أرواح الله السبعة المرسلّة إلى الأرض كلها . فأتى وأخذ الكتاب من يمين الجالس على العرش . ولما أخذ الكتاب خرت الحيوانات الأربعة والأربعة والعشرون أمام الحمل . . . وهم يسبحون تسبيحة جديدة قائلين مستحق أنت أن تأخذ الكتاب وتفضّ ختمومه لأنك ذُبحتَ وافتديتَنا بدمك . . . » (٢) .

ان يوحنا ، بحسب ذلك وبمقتضاه الداخلي ، يرى أن «الكارثة» لم تعد وشيكة الوقوع فقط ، بل انها وقعت فعلاً ؛ وقعت حيث افتُضّ سابع الأختام الربانية باليد

(١) الكتاب المقدس - رؤيا القديس يوحنا ٥/١-٥ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطيته ٥/٦-٩ .

المقدسة المذمية للحمل المخلص (وكانت الأختام الستة السابقة قد فتحها هو أيضاً) . وعلينا أن نعقب على ذلك بأن يوحنا في استعراضه لـ «الخاتمة السعيدة» تلك ، يقدم ايضاحاً مضمناً بكونه قد مثل «آخر العنقود» في مرحلة ما قبل يسوع المسيح ، و «أول العنقود» في مرحلة ما بعد هذا الأخير . فهو ، والحال كذلك شاهدٌ على الارهاصات الباكرة لولادة دين «الحمل الجديد ، المذبح» .

بيد أن اللوحة الدرامية وإن خُتمت بالختم السابع ، فإنها تبدأ ، بذهول ، بفتح الختم الرابع . فهنا ، يعلمنا يوحنا أنه رأى فرساً «أصفر والراكب عليه اسمه الموت والجحيم تتبعه وقد سُلطا على ربع الأرض ليقتلا بالسيف والجوع والموت وبوحوش الأرض»^(١) .

وبعدئذ ، فتح الختم الخامس ، وإذا بيوحنا يرى «تحت المذبح نفوس المقتولين لأجل كلمة الله ولأجل الشهادة التي شهدوا بها . فصرخوا بصوت عظيم قائلين حتى متى أيها القدوس الحق لا تنقضي ولا تنتقم لدمائنا من سكان الأرض . فأعطي كل واحد منهم حُلَّة بيضاء وأمرُوا أن يستر يحوا مدة يسيرة بعدُ إلى أن يكمل عدد شركائهم في الخدمة واخوتهم الذين سيقتلون مثلهم»^(٢) .

نلاحظ من النص ذاك المتعلق بـ «الختم الخامس» أن «الخلاص» لا يمثل هاجساً يأخذ على المضطهدين الأحياء فقط اهتمامهم ويملك عواطفهم ، بل هو ، كذلك ، من المطامح الكبرى للأمم الذين جبلت الأرض بدمائهم البائسة . هاهنا ، نتبين تصور الخلاص وقد تحول إلى موقف شمولي ، مما يجعله أكثر عتفواناً وتواضعاً بين أجيال الظالمين إلى الخلاص . ولعلنا نقول ، ان الرؤيا اليوحناوية تقدم ، في هذه الزاوية منها ، بعداً خلاصياً متميزاً ، يجعل من «الحمل المذبح - يسوع المسيح» الوريث الشرعي لكل الخلاصيين في التاريخ ، بقدر ما يُظهره على أنه نهاية التاريخ وقمته ، في آن . وهنا ، مرة أخرى ، تبرز الأهمية المخصصة للرؤيا المذكورة : انها الفيصل بين حقبتَي التاريخ عامة ، حقبة «العبودية في الخطيئة» ، وحقبة «الحرية في يسوع المسيح» .

(١) نفس المصدر السابق ومعطياته ٨/٦ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطياته ٩/٦-١١ .

وتستكمل الرؤيا اليوحناوية المشهد المذهل بفاجعته ، إذ مع افتضاض الختم السادس ، تحدث اختلاطات واضطرابات عظمى في الكون ، تنبىء ، كلها ومجتمعة ، عن أن «الساعة» قد أصبحت تُطل من الأفق القريب :

«فإذا بزلزلة عظيمة وقد اسودت الشمس كمسح الشعير والقمر كله صار مثل الدم . وتساقطت كواكب السماء على الأرض واندرجت السماء كما يطوى الكتاب . وتوارت ملوك الأرض والعظماء والقواد والأغنياء والأقوياء وكل عبد وحر . . . وهم يقولون للجبال والصخور اسقطي علينا واخفينا من وجه الجالس على العرش ومن غضب الحمل . لأنه قد جاء يوم غضبه العظيم فمن يطيق الوقوف» (١) .

أخيراً ، تقع الواقعة ، ويحدث ما لا عين رأت وما لا أذن سمعت . يفتح الختم السابع والأخير ؛ يخيم سكون وسكوت في السماء نحو نصف ساعة ، فكأنما هي الريح قبل العاصفة العملاقة المدمرة المصدعة لكل شيء ، والتي لا تلوي على شيء . وإذا ذاك ، حتى الموت يغدو مفقوداً إنقاذاً للموقف :

«في تلك الأيام يطلب الناس الموت فلا يجدونه ويتمنون أن يموتوا فيهرب الموت عنهم . وهيئة الجراد تشبه خيلاً معدة للقتال . . . وعدد جيوش الفرسان مئة ألف ألف وقد سمعت عددهم» (٢) .

إنه الهول بعينه : وقد سمع يوحنا ذلك «بأذنيه» ! ان هذا «وثيقة دامغة» . وهنا نكاد نقول ، إن حسية الموقف تمثل عنصراً متمماً للمشهد الرؤياوي ، بحيث يغدو الوصول إلى صوغه ذهنياً أمراً متعذراً إذا لم يكن في صلب العملية ذاتها . ولا ريب أننا ، هنا ، نواجه ظاهرة طريفة للغاية على صعيد المسألة الدلالية . فيوحنا إذ يسرد أحداث الرؤيا ، فإنه - وهو الذي صنعها في ذهنه - يعود إليها في حال من الاقتناع الداخلي بها . فهي الوهم الذي ينجز على أيدي الرؤياويين ، والذي يشكل فيما بعد الوعي الذاتي لصانعيه هؤلاء ولأولئك الذين يتلقونه . وتبقى الرؤيا هذه أو تلك مفعمة بالصورة الحية المرئية ، والتي يمكن اكتشاف قاعها المشخص في العالم المشخص ، الذي انتجت فيه .

(١) نفس المصدر السابق ومعطيته ١٧-١٢/٦ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطيته ١٦،٧-٦/٩ .

أما التبيان. الأفصح بحلول يوم الدينونة فيكمُن في «توقف الزمان» ، ذلك الزمان الذي أوجده الرب اطاراً لاحتواء أحداث ومشاهد الخطيئة . ومن ثم ، يغدو الحدثُ التاريخي أثراً بعد عين :

«ثم ان الملاك الذي رأيته واقفاً على البحر وعلى الأرض رفع يده اليمنى الى السماء . وأقسم بالحي إلى دهر الدهور خالق السماء وما فيها والأرض وما فيها والبحر وما فيه أنه لا يكون زمان بعد» (١) .

وبذلك ، تحدث الخاتمة المأساوية ، «خاتمة الأحزان الطويلة» ، لتتبعها أبدية السعادة العظمى ، حيث يحل دهر الدهور ، وزمن الأزمنة ، وحيث تتلاحم «الأيام الجديدة» بـ «الأيام القديمة» ، ويركن المؤمنون إلى لذة التمتع بمشاهدة الرب وهو جالسٌ على عرشه وإلى يمينه «الحمل» :

«ونفخ الملاك السابع في بوقه فكانت في السماء اصوات عظيمة قائلة إن مُلك العالم قد صار لربنا ولمسيحه فهو يملك إلى دهر الدهور . . . وانفتح هيكل الله في السماء وظهر تابوت عهده في هيكله» (٢) . وهنا «سمعت صوتاً عظيماً في السماء قائلاً الآن صار الخلاص والقوة والملك لإلهنا والسلطان لمسيحه» (٣) .

ان «المتهى» ، الذي اوصلنا إليه يوحنا في «ملحمته الرؤياوية» ، هو أسُّ الموقف الخلاصي المندغم في نسيج المسيحية الجديدة ، دون أن ينقطع تماماً عن خلاصية يهوه اليهودي . ويوحنا يعمل على استكمال الموقف المعني عبر صور أخرى يقدمها في رؤياه . وليس بوسعنا ، بطبيعة الحال ، أن نهمل هذه الصور ، لأنها تغني ذلك الموقف ، وتكشف عن ألوان أخرى ودقائق فيه ، وإن ظل هذا الأخير محكوماً بتصوير أقصى ، هو «ساعة الدينونة» ، التي يسود فيها «العدالة والحق والصلاح» . ونظراً إلى أن ساعة الدينونة تلك لا تحدث إلا بعد أن تكون قد سبقتها عصور طويلة مديدة من «الظلم والزنى والتجديف» ، فإن يوحنا يرى في «رؤياه» أن الأمر

(١) نفس المصدر السابق ومعطيته ٦٥/١٠ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطيته ١٩،١٥/١١ .

(٣) نفس المصدر السابق ومعطيته ١٠/١٢ .

يستدعي حدوث «قيامتين اثنتين» ، تكون الأولى منهما تهيبداً للثانية ، وتحذيراً لـ «الظلمة والزناة والمجذفين» .

وعلى نحو أكثر تحديداً ، يرى يوحنا أنه في القيامة الأولى ، يحيا «الذين قتلوا لأجل شهادة يسوع . . . مع يسوع ألف سنة»^(١) .

وهذه القيامة الأولى تحقق بعض الانتصار للانسان (المؤمن) على الخطيئة ، وذلك بنهوض «النفس من الخطيئة ودخولها دون جسد في السعادة الأبدية»^(٢) . أما في القيامة الثانية فيخلد هؤلاء المؤمنون إلى الحياة الأبدية . «إلى دهر الدهور»^(٣) .

والجديد في هذه الجولة الثانية يكمن في أن الأجساد أيضاً - إضافة إلى الأرواح التي قامت في القيامة الأولى - تقوم ، «فتتم حينئذ غبطة الانسان نفساً وجسماً»^(٤) .

تلك هي المعاهد الكبرى التي انطوت عليها الرؤيا اليوحناوية وشكلت قطعة دينية وإتنية حاسمة مع اليهودية الدينية . وهذا يجعلنا ننظر إليها على أنها وثيقة ثمينة ، بالمعنيين البنيوي والوظيفي ، بالنسبة للعالم الذهني الجديد ، المسيحية اليسوعية . ومع أن تلك القطيعة كانت حاسمة ، إلا أنها لم تكن كلية ؛ ذلك أن بعض عناصر «الرؤيا» تتردد إلى مصادر يهودية يهوية (مثل تابوت العهد ، والهيكل) . أما الذي حدث فهو أن يوحنا أعاد النظر في بنيتها إلى حد ما وفي وظيفتها إلى حدود كبيرة ، بحيث توافقت مع السياق الجديد . ولعل أمراً من الأمور التي مرت معنا ضمن النصوص الرؤياوية ستحوذ على اهتمام خاص ، ذلك هو عنصر «المشاهدة الربانية» في «القيامة الثانية» .

ذلك أمر نعلن أنه ذو أهمية خاصة على صعيد تحديد عملية الانسلاخ

(١) نفس المصدر السابق ومعطياته ٤/٢٠ .

(٢) حواشٍ على المجلد الثالث من الكتاب المقدس (ضمن : الكتاب المقدس - نفس المعطيات المقدمة سابقاً ، ص ٥٠٥) .

(٣) الكتاب المقدس - رؤيا القديس يوحنا ٥/٢٢ .

(٤) حواشٍ على المجلد الثالث من الكتاب المقدس - نفس المعطيات المقدمة سابقاً .

الرؤياوي اليوحناوي من العالم اليهودي اليهودي . فلقد كنا - في فصل سابق من هذا الكتاب - قد عالجنا تصور «المواجهة المحظورة» بين الرب وشعبه ؛ ولاحظنا ، في حينه ، امكانية الدغم والدمج بين «الرب» و «الاله» (الذي تمثل بمسوى) ، بحيث يغدوان وجهين لكائن واحد يفعل فعلاً واحداً بكل الاتجاهات والأنحاء . وقد اوضحنا ، من موقع النص التوراتي ، أنه في مرحلة أولى من «تاريخ الرب يهوه» كان من غير المستحيل ان تتم مشاهدة الرب مواجهةً ، وإن لم تكن واردة ومسموحة . ثم ، في مرحلة تالية ، غدت المشاهدة مستحيلة وغير واردة ؛ وكان ذلك قد ارتهن ونتج عن موقفين ، تمثل الأول منهما في تصاعد وتعمق القطيعة الاجتماعية والاقتصادية والايديولوجية بين الكهنوت اليهودي الارستوقراطي من طرف ، وبين «شعبه المختار المصطفى» من طرف آخر . أما الموقف الثاني فقد تجسد في التضخم الذاتي (التمحور الذاتي) الذي طرأ على يهوه باتجاه التجريد والمفارقة والتعالي ، بحيث بلغ مرحلة التعريف السلبي القطعي ، الذي حددناه - من موضع النص التوراتي - بكونه تحديداً لـ «يهوه» من حيث هو في ذاته ولذاته . وكان ذلك بمثابة الوصول إلى أن يقال «هو هو» ، ليس إلا .

والآن ، وقد دخلنا الإرهاصات الأولى للعالم المسيحي اليسوعي ممثلة برؤيا يوحنا المأتي عليها ، فإننا نجد أنفسنا ، في تلك المسألة بالذات ، أمام آفاق جديدة كبرى لعلنا نعتبرها - على الصعيد الذهني الديني - الأكثر أهمية ودلالة بالنسبة إلى ادراك القطيعة البنيوية والوظيفية التي أحدثتها تلك الرؤيا بين اليهودية اليهودية وذلك العالم الجديد . لنقرأ ما أعلنه يوحنا في رؤياه بعد أن حلت «القيامة الثانية» ، كي نتبين أن الموقف برمته أعيد بناؤه مسيحياً يسوعياً (ولعل هذا النص أهم ما في الرؤيا المعنية أو - على الأقل - أحد أهم نصوصها فيما يتصل بتلك القطيعة) :

«وقال الجالس على العرش ها إني اجعل كل شيء جديداً . . . وقال لي قد انقضى أنا الألف والياء البداء والنهاية أنا اعطي العطشان من ينبوع ماء الحياة مجاناً . من غلب يرث هذه وأنا أكون له الها وهو يكون لي إينا . . . وجاءني واحد من الملائكة السبعة . . . وكلمني قائلاً هلم فأريك العروس امرأة الحمل . وذهب بي في الروح إلى جبل عظيم عالٍ وأراني المدينة المقدسة اورشليم نازلة من السماء من عند الله . . . ولم أر فيها هيكل لأن الرب الاله

القدير والحمل هما هيكلها» (١) .

وبعد ذلك ، يوغل يوحنا في «العبق الرباني» ، اذ يتحدث عما يراه من أنوار جديدة و«مفاجآت» مذهلة سيتمتع بها «الخالدون جسداً ونفساً» جزاء عملهم :
«ولا حاجة للمدينة إلى الشمس ولا إلى القمر ليضيئا فيها لأن مجد الله أنارها ومصباحها الحمل . وستمشي الأمم في نورها ويأتي ملوك الأرض بمجدهم وكرامتهم إليها . . . ولا يكون لغن من بعد وسيكون فيها عرش الله والحمل فيعبده عباده . وينظرون وجهه ويكون اسمه على جباههم . ولا يكون هنالك ليل ولا يحتاجون إلى سراج ولا إلى نور الشمس لأن الرب الإله ينير عليهم ويملكون إلى دهر الدهور» (٢) .

من ذلك النص الخطير نستنبط اللحظات التالية ، التي ستمثل - ضمناً وإفصاحاً - أحد المداميك التأسيسية في البناء المسيحي اليسوعي :

(١) كل شيء أصبح جديداً ، وممنوحاً على سبيل المجان : من ينبوع إلى ينبوع ، ومن القلب إلى القلب ؛

(٢) لقد سقط ، أخيراً ، هيكل يهو الكهنوتي ، هيكل المختارين المصطفين ، فتصدعت بذلك «قبلة» هؤلاء التي كانوا يتجهون باتجاهها حيثما كانوا ويحملون «كتابها» إلى كل بقعة يدفعون إليها ؛

(٣) النور الإلهي غدا الموجود الوحيد من كل «الأنوار الباهتة» ، ولم يعد من حديث عن «الظلمة» التي اندحرت ، أخيراً ، على يد الحمل الجالس إلى يمين «الجالس على العرش» ؛

(٤) «الذين كتبوا في سفر الحياة للحمل» ، أي أبناء «الجنة» - الفردوس الرباني - يرون وجه الرب مباشرة ، وإسمه يكون على جباههم ، دونما وسيط وبعيداً عن أي حاجز ؛

(٥) إن التوافق بين «الرب» و«أبناء ينبوع الحياة» هو نمط من التواحد الوجودي ، بحيث يظهر الأول في الثاني والثاني في الأول .

(١) الكتاب المقدس - رؤيا القديس يوحنا ٢١/٥ - ٦ ، ٩ - ١٠ ، ٢٢ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطيته ٢١/٢٣ - ٢٤ ، ٢٢/١ - ٥ .

ان ما يهمننا من تلك اللحظات اثنتان كبيرتان ، هما شمولية النور الالهي ، ورؤية الرب الاله مواجهة . ومن موقع هاتين ، يمكن - كذلك - أن نكشف عن الدلالات التي تنطوي عليها اللحظات الثلاث الأخرى . ونرى ، في هذا السياق ، أن اللحظة الأولى من تينك المذكورتين تشير إلى تأثير خضعت له من طرف التيار الديني الصوفي في الدولة الرومانية ممثلاً ، بدرجة أو بأخرى ، بالفيلسوف اليهودي الاسكندراني فيلو (Philo أو Philon) ، الذي ظهر نشاطه الفكري في النصف الأول من القرن الميلادي وعاش تقريباً من عام ٢٥ ق.م إلى عام ٤٠ م . وهذا الأمر يغدو أكثر وضوحاً إذا وضعنا في اعتبارنا أن «رؤيا يوحنا» كتبت في عام ٦٨ أو في شهر كانون الأول من عام ٦٩ ميلادية ^(١) . ومن هذا الموقع ، نلاحظ أن هذا (يوحنا) وذاك (فيلو) يميلاننا إلى «نظرية المثل» الأفلاطونية ، التي تشبهها هنا وقد هيّكلت - صوفياً ورؤيائياً - بمقتضى احتياجات الموقف الجديد . فيوحنا يخبر أن «أبناء ينبوع الحياة» هم وحدهم القادرون على رؤية وجه الله وهو جالس على عرشه وإلى جانبه الحمل «المذبح من بداءة العالم» . وهذه «الرؤية» لا تغشي أبصار أولئك بالرغم من النور الساطع الهائل والشامل الذي ينطلق من «وجه الحق» ؛ بل أكثر من ذلك ، فهؤلاء يظهرون ، هنا ، كما لو كانوا الوجه الآخر من «الحق» - الرب . فـ «إسمه» على جباههم ، حيث يغدو الاسم مسمى والمسمى اسماً ؛ بما يميلنا إلى ما سينشأ لاحقاً في إطار مسألة «الذات والصفات أو الذات والأسماء الحسنى» والعلاقة بينهما .

وإذا كان بمقدور «أبناء ينبوع الحياة» أولئك أن يحدّقوا في «وجهه» ، محققين بذلك اللذة القصوى ، فإن «الآخرين» الذين عاشوا من الظلم والباطل والظلام ، ومن الزنى والتجديف ، لن يكون بوسعهم أن ينظروا في «وجه الجالس على العرش» ^(٢) ؛ لأن من شأن ذلك أن يجعل ذعرهم أكبر واضطرابهم أكثر هولاً وغيوبتهم أعمق شخصاً ورعباً أمام الغضب المميت . فمثل هذا الموقف نرى فيه ،

(١) انظر :

Friedrich Engels- Das Buch der Offenbarung. In: Marx, Engels- Ueber Religion, a.a.O., S. 165.

(٢) الكتاب المقدس - رؤيا القديس يوحنا ٦/١٦ .

على الأقل على نحو غير مباشر ، وريثاً لـ «أسطورة الكهف» الأفلاطونية ، التي تعرض أنماطاً بشرية متشابهة مع أولئك «الزناة والمجدّفين» ، مقابل من يحدّقون في النور الإلهي بعيون واثقة مفعمة بالفرح ، وقادرة - من ثم - على الاتصال المباشر بالعالم الإلهي «المثالي»^(١) .

وفي نطاق تحول امكانية الرؤية مواجهةً الى نسق من انساق الوجود الإلهي الواحد ، يغدو القول مُلزماً بأن تحولاً عميقاً كان لابد وأن يكون قد حدث على صعيد الدخول في الدهنية المسيحية اليسوعية ، ممثلاً على الأقل بالسرؤياوية اليوحناوية ، ذلك التحول الذي وضعنا أمام دين جديد ينهض على عمليتين اثنتين ، واحدة تهاديية وأخرى بنائية . أما الأولى فقد أدت الى رفض أن يكون الرب مفارقاً ومتعالياً ، وفي نفس الوقت قادراً على التدخل ، بجهامة وصرامة و «تعالٍ» ، في الكليات والجزئيات ؛ في حين ان الثانية قادت إلى تكوين دين توحيدى يجعل من «الأنا» و «الأنتب» و «العالم المادي» و «العالم الإلهي» نسقاً وجودياً واحداً وموحداً ، تحكمه - من الداخل - علاقة «المحبة» و «التقاء - الختان القلبي» . إن مثل هذه الحصيلة لا نجد لها منبئة في تصور «الرؤية المباشرة» فقط ، وإنما تفصح عن نفسها ، كذلك ، في أن «إسمه» ، إسم «الجالس على العرش وعلى يمينه الحمل» أصبح أيضاً اسم «عباده» الذين مروا بـ «التجربة العظمى» بـ «نجاح» . وهنا ،

(١) فيما يتصل بفيلو ، نلاحظ أنه ، من طرف ، نظر إلى الإله على أنه لا نهائي في وجوده المتعالي على العالم المادي ؛ ولكنه ، من الطرف الآخر ، تصور أن الهوة بين الإله وذلك العالم تزول عبر التأثير الذي يمارسه الأول في الثاني عن طريق جواهر وسيطة ، بمثابة لـ «المثل الأفلاطونية» والتي يفهمها فيلو من حيث هي والملائكة اليهودية أمر واحد . إضافة إلى ذلك ، تتوحد المثل ، حسب فيلو بـ «العقل الإلهي الكلي» ، الذي يملأ الهوة الواقعة بين الإله والعالم والذي يجسد الرباط بينهما . أما الهدف الأقصى للحياة فقد رآه فيلون في الوجد الصوفي ، الذي يجعل الإنسان شبيهاً بالإله ، (Geschichte der Philosophie- Band I, VEB Deutscher Verlag der Wissenschaften, Berlin 1960, S. 142) .

و «الشبه بالإله» يصل - عبر العلاقة بين الإنسان والعقل الإلهي الكلي Logos - إلى وحدة بين الإنسان والإله ، وذلك عن طريق تحول الإنسان إلى «ابن للعقل الإلهي» ومن ثم «ابن للإله» . (أنظر حول ذلك أيضاً : Arthur Drews- Geschichte des Monismus im Altertum, a.a.O., S. 378) .

نلاحظ اللون التوحيدي الفيلوني وقد برز بمثابته اللون الأساسي والأكبر في اللوحة الرؤياوية اليوحناوية .

من ذلك الموقع اليوحناوي ، إذن ، نواجه رصيذاً جديداً وتحريضاً من المشكلات ، التي ولدت وانتجت ، بدورها ، مشكلات أخرى انتهى معظمها إلى تكريس الدين الجديد ديناً لعالم عبودي (ومشاعي قروي) دخل مراحل احتضاره في مفاصله الكبرى الجامعة ، ومفسحاً الطريق واسعة عريضة لعالم اقطاعي (في أوربا تحصيلاً) ، يجعل منه (من الدين) شكله الايديولوجي الأكثر شمولاً وهيمنة . وإذا كان هذا قد «حل» المشكلة الروحية في العالم الهليني على ذلك النحو «الديني الوهمي الكثيف» ، فإنه استمر فاعلاً ، أيضاً ، في اطار بلدان الشرق آنذاك ، وإن كان على نحو استجاب فيه للشرط الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، الذي كان سائداً هناك ، رغم تبعيته السياسية والدينية المؤسسية لروما ، في حينه .

* *

ومن الاتجاهات الكبرى التي برزت إلى الوجود مع رؤيا يوحنا ما نتبينه في هذه الأخيرة من تقديم المسيح الجديد ، يسوع ، على أنه ويوحنا ذاك كليهما شخصية واحدة ، أو على أنها شخصيتان اثنتان ذاتا مهمتين متبادلتين متداخلتين . ان هذا الأمر يقدم نفسه في مجريات الرؤيا إياها . فـ «الكتاب الصغير» ، الذي يتناوله يوحنا من يد الملاك الرباني ، ينطوي في داخله على المهمة الجليلية ، التي نيّطت به من قبل الرب الجالس على العرش ، وهي التنبؤ للشعوب والأمم الكثيرة» ، ونشر هذه النبوءة في أوساطهم السدائية والقاسية . وإذا ما أخذنا - في هذا السياق - بعين الاعتبار أن اسم «يوحنا» يعني بالعبرية «الله رحيم أو غفور» وأن اسم «يسوع» اليوناني هو «يشوع» العبري (ويعني «الله يساعده») ، فلعله يغدو ، حالئذ ، من غير المستبعد ، أو ربما كذلك من المرجح أن يكون هنالك ما يصل بين الإسمين أو ما يقود إليهما ، مجتمعين وعلى نحو أو آخر . وإذا صح ذلك بحدوده الأولية ، فإن «يوحنا» يصبح - والحال كذلك - هو نفسه المخلص يسوع (يشوع - يهوه - يوهانه أو يوهنا أو يوحنا . . .) .

ان «المخلص» ، في الرؤيا اليوحناوية ، يعلن عن نفسه تحت أسماء (أو صفات) متعددة ، يثير واقع تعددها ما يؤدي إلى تدعيم ذلك الترجيح . من هذه

الأسماء (أو الصفات) ، تبرز التالية : «يسوع المسيح» ، «الشاهد الأمين» ، «بكر الأموات» ، «الآتي على السحاب» ، «شبه ابن الانسان» ، «السيف الصارم ذو الحدين» ، «اسم جديد» ، «مَنْ له ارواح الله السبعة والكواكب السبعة» ، «الأمين الصادق» ، «الراكب على الفرس» ، «الأسد» ، «الحمل» ، «المسيح» ، «الجالس شبه ابن البشر» ، «الروح والعروس» ، «ملك الملوك» «رب الأرباب» .

ومن طرف آخر مقابل ، نتحدث «الرؤيا» عن «المسيح الدجال» ، إذ تقرنه باسم «النبي الكذاب» و«الوحش» ، و«التنين الحية القديمة» ، و«ابليس» ، و«الشيطان» ؛ مما يجعلنا نخولين بالقول بأن المعجم الاصطلاحي في رؤيا يوحنا يتسع لكلا العالمين الكبيرين والواقعيين ، عالم «الطلاح» وعالم «الصلاح» ، بحيث نلاحظ أننا أمام مشروع ديني جديد يعيد النظر في ما قدم حتى حينه ليبنى على أنقاضه الموقف البديل .

والذي يميز المعجم الاصطلاحي المذكور آنفاً يقوم على التعارض الوجودي والأخلاقي بين كلا العالمين المعنيين . ومن الملاحظ أن هذا التعارض اقتضته الضرورات المسيانية (المخلصية) ، التي وضعت المسألة البشرية أمام الحسم التالي : إما إسقاط العالم القديم وبناء العالم الجديد على أنقاضه ، وإما استمراره بما ينطوي عليه من «ظلم وزنى وتجديف» . فالأمر لم يعد يحتمل مواقف وسطية تتمثل به «التحذير» أو «الإنذار» ، الذي يبثه الرب عبر أنبيائه وقديسيه . فلقد أفصح «الوحش» عن نفسه وعما في نفسه ، وحلت ، من ثم ، «الساعة» :

«وبعد ذلك سمعت صوتاً عظيماً من جمع كثير في السماء قائلاً هلموا إن لإلهنا الخلاص والمجد والقوة . . . وسمعت كصوت جمع كثير وكصوت مياه غزيرة وكصوت رعود شديدة قائلة هلموا لأن الرب الإله القدير قد ملك . فلنفرح ونبتهج ونمجده لأن عرس الحمل قد حضر وعروسه قد هيأت نفسها . . . ورأيت السماء قد انفتحت وإذا بفرس أبيض والراكب عليه يسمى الأمين الصادق وهو يقضي ويحارب بالعدل . . . ورأيت الوحش وملك الأرض وجيوشهم قد حشدوا ليحاربوا الراكب على الفرس وجيشه . فقبض على الوحش وعلى النبي الكذاب الذي معه»^(١) .

(١) نفس المصدر السابق ومعطياته ١/١٩ ، ٦-٧ ، ١١ ، ١٩-٢٠ .

وإذا ما انتهت هذه المعركة الكونية العظمى بانتصار ملك الملوك ورب الأرباب ،
فإن ساعة الحساب تبدأ لتأخذ الأمور مجراها العادل . هاهنا ، ينقلنا يوحنا إلى المهمة
الثانية ، التي تتمثل بـ «البناء» على انقاض القديم الذي انتصر عليه :

«ورأيت عرشاً عظيماً أبيضاً والجالس عليه الذي هربت السماء والأرض من
وجهه ولم يوجد لها موضع . ورأيت الأموات كبارهم وصغارهم واقفين أمام
العرش وقد فتحت الأسفار وفتح سفر آخر الذي هو سفر الحياة ودين الأموات
على مقتضى المكتوب في الأسفار بحسب أعمالهم» (١) .

وفي هذه الحال ، حيث يخلو الكون من «الظلمة والمجذفين والزناة» ، يدخل الكون
هذا في دهر الدهور ، الذي يتوقف معه التاريخ البشري ليستحيل إلى وجود
رباني . وهنا ،

«يمسح الله كل دمة من عيونهم ولا يكون بعد موت ولا نوح ولا صراخ ولا
وجع لأن ما كان سابقاً قد مضى» (٢) .

وينتهي يوحنا رؤياه الخلاصية باعلان «البشارة» ، بشارة يسوع ، الذي يتحدث عنه
بالاسم ، واضعاً بذلك يده على مفصل الموقف الجديد الحاسم :

«هاأنذا آت سريعاً وجزائي معي لأكافئ كل واحد على حسب أعماله . أنا
الألف والياء البداية والنهاية الأول والآخر . طوبى للذين يغسلون حللهم
بدم الحمل ليكون لهم سلطان على شجرة الحياة ويدخلوا المدينة من الأبواب .
ليبق خارجاً الكلاب وأصحاب السموم السحرية والزناة والقتلة وعبد الأوثان
وكل من يحب الكذب ويعمل به . أنا يسوع أرسلت ملاكي ليشهد لكم بهذه
في الكنائس . . . والروح والعروس يقولان هلم ومن سمع فليقبل هلم ومن
عطش فليأت ومن شاء فليأخذ ماء الحياة مجاناً» (٣) .

ومن الطريف الدال أن يذكر ما حدث على الصعيد السياسي الامبراطوري
الروماني في المرحلة التي كتبت فيها الرؤيا اليوحناوية ، لأن ذلك يلقي ضوءاً ساطعاً

(١) نفس المصدر السابق ومعطيته ١٢-١١/٢٠ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطيته ٤/٢١ .

(٣) نفس المصدر السابق ومعطيته ١٧-١٢/٢٢ .

جداً على «أحداث» الرؤيا ، في اتجاهها وتصاعدها صوب «الفاجعة» و «الخلاص» في آن واحد . فلقد دخلت الامبراطورية العجوز ، في مرحلة نيرون ومن بعده ، في اضطراب وتمزق شاملين . وكان من المظاهر الكبرى لذلك أن هاجم غالبا Galba روما حيث أتى من اسبانيا ، وذلك لكي يسقط سلطة نيرون الذي ادخل البلاد في نار مضطربة وأشعلها حرباً ضد خصومه وكثير من حلفائه . ولكن نيرون هرب وأمر أحدهم بقتله . في أثناء ذلك ، أي في الوقت الذي تنادى فيه قادة الجيوش في روما وفي المقاطعات لايقاف هجوم غالبا ، انتشرت ، في الشرق خصوصاً ، شائعة بسرعة هائلة مؤداها ان نيرون لم يميت ، وإنما جرح فقط ، وهو ، من ثم ، في طريقه عبر الفرات باتجاه روما ليشعل مجازر جديدة تأتي على ما تبقى من الحياة والاستقرار الاجتماعي والاقتصادي .

إضافة إلى ذلك ، ظهر في وقت تحرير الرؤيا اليوحناوية نيرون كاذب (مزيف) ، جمع حوله حشداً كبيراً من الأنصار، وأخذ يدعو لنفسه كمخلص من الكوارث التي حلت بالمجتمع الروماني الامبراطوري . ولكي ندرك دلالة ذلك البعيدة ، لا بد وأن نشير إلى أن الملاحقات الكبرى الأولى التي حدثت ضد المسيحيين الأوائل ، كانت قد نُظمت من قبل نيرون نفسه في روما^(١) . وإذا استعدنا تاريخ تحرير الرؤيا إياها (عام ٦٨ أو ٦٩ م) ، ووضعناه في سياق دينك الحدثين الكبيرين (سقوط نيرون الحقيقي وظهور نيرون المزيف) ، اللذين برزا أيضاً في تلك المرحلة ، استباننا أمامنا واقعة لها خطورتها المنهجية التاريخية الكبرى على صعيد فهم الدلالة الخلاصية لرؤيا يوحنا عموماً ، وللشخصيتين الرئيسيتين فيها خصوصاً (نعني بذلك الجالس على العرش أو الراكب على الفرس أو السيف الصارم ذا الحدين ، والنبي الكذاب أو المسيح الدجال أو الوحش أو الثنين الحية القديمة) . تلك الدلالة تتمثل بشخصية نيرون الحقيقي والكاذب (المزيف) ، التي يقدمها يوحنا تمثيلاً على المسيح الدجال المنبعث لتدمير العالم عن بكرة أبيه ؛ فيكون ذلك تجسيداً للقوة القصوى الأخيرة ، التي تتصدع تحت قبضة القوة القصوى الجديدة ، قبضة المسيح يسوع .

(١) انظر حول هذه المرحلة التاريخية :

Friedrich Engels- Zur Geschichte des Urchristentums, a.a.O., S. 274- 275.

تلك كانت الأوجه والمعالم الرئيسية لما قدمه يوحنا تحت اسم رؤيا Apocalypse . وكما لاحظنا ، فإن الصور والمشاهد النبئية التي قدمها فيها ، كانت قد متحت مصادرهما من الأحداث المعاصرة في حينه ، وكذلك من التصورات الدينية التي كانت ذائعة ومهيمنة في الأوساط الدينية الخلاصية والتي انطلق منها «يسوع المسيحي» ، أي الاتجاه الذي طرح نفسه في ظل هذا الاسم ^(١) . وهذا ، من طرفه ، يشير بوضوح إلى أن «الرؤيا» المعنية أتت إذ ذاك لتصب في اتجاه تحفيز وتعميق التعبئة الدينية والروحية الدينية بأفق «الخلاص إلى دهر الدهور» . وهذا ، بمجمله ، يسمح بالقول بأن اصطناع شخصية «نيرون الكاذب» مثل أمراً على غاية الأهمية الواقعية بذلك لأنه أنجز مهمة التمكين لشخصية «المسيح المخلص» وجعلها شعبية وكبيرة وشاملة بمستوى ما أحدثه نيرون من كوارث كبرى وشاملة . وإذن ، ليس من الممكن أن نفهم شخصية الواحد من هذين الاثنين بمعزل عن الثانية ، فالعلاقة بينهما متضايفة تضايفاً وظيفياً .

إن ما انطلق منه يهوه (يسوع - يشوع) المسيحي (الأمي) هو ما توقف عنده يهوه اليهودي (النخبوي) . فهذا الأخير مثل المستقبل النموذجي المطلق ، أي الذي لا يمكن أن يلغي ، يوماً ما ، تصور «الانتظار الدائم» للخلاص . فالمستقبل يظل ، أبداً ، مستقبلاً ، أي المستقبل الذي على المؤمنين أن يتوقعوا وصوله ، دون أن يصل أبداً وإطلاقاً . ومن ثم ، فالحاضر المأساوي لا يمكنه إلا أن يستمر على الدوام وضمن آليته الداخلية نفسها ، مجسداً المأساة الأبدية ، التي انطبعت وشهاً مستديماً في حياة المبهوظين بأثقال الاستغلال والاضطهاد «في الداخل والخارج» . وقد لاحظنا ذلك حين رأينا الأمر قد قُدِّرَ لـ «قابيل» تقديراً مطلقاً بأن يدان من قبل الرب ، وذلك حيث يحمل في وجهه الوشم الأبدي الذي يدل على شخصه أمام العالمين جميعاً . وهذا ، عموماً وإجمالاً ، جعل من الخلاص اليهودي وضعية مستديمة من التوتر الدائم ، والتواتر المستمر بين الواقع الكثيف بالأهوال والرؤيا المفعمة بالآمال ، بين المأساة بما هي وضعية تنيخ بكلكلها على أولئك المبهوظين من طرف ،

(١) انظر مع المقارنة : كارل ياسبرز - فلاسفة انسانيون ، ترجمة عادل العوا ، منشورات عويدات ، بيروت ، الطبعة الأولى آذار ١٩٧٥ ، ص ١٩٠ .

وبين وعيها الذاتي الوهمي بما يولده من آفاق ايهامية تنفلت ، عبر سحبها ، أحلام
يقظة مريرة من طرف آخر . وإذا دققنا في هذا الحال الاشكالي . وضع الطاعن
طعناً ، وتشابكت الضحية بالقاتل ، وتآلق الشبح واقعاً ، وغدا الأفق مسدوداً
ومستنفداً .

ولعلنا أحسنا تلك الروح القلقة النهممة الظمئة إلى الانفلات من عبء
الواقع في النصوص اليوحناوية ، بحيث تبين في شخصية يوحنا ذلك النزوع
المأساوي الطامح إلى تحقيق تجاوز الواقع المعني عبر صور تلخص شخصية اهترأت
تاريخياً من المأساة . وقد نقول ، إضافة إلى ذلك ، ان هنالك العديد من
شخصيات العهد العتيق ، التي تقدم لنا في ثناياها ذلك النمط الانساني .
فهناك ، مثلاً ، شخصية شاؤول المأساوية الاشكالية ، وشخصية داود الاشكالية
المأساوية ، اللتين تتوزعهما الاتجاهات المتناقضة قطعاً والمتألفة وهماً^(١) .

ان الوعي اليهودي اليهودي يمثل ، والحال كذلك ، ضحية التاريخ
«المأساوي» حتى الثمالة ؛ كما يشكل ، في نفس الحين ، شكلاً حاداً من أشكال
تزوير وتوهيم هذا التاريخ ؛ إضافة إلى أنه هو نفسه أسهم في صنع مأساوية هذا
الآخر وفي تكريسها وتسويغها ورفعها إلى مستوى الفاجعة . وبصيغة أخرى ، هو
ورطة الحاضر المأساوي ، الذي يطمح لتجاوز مأساويته من موقع الامساك بالمستقبل
عبر الماضي وبالماضي عبر المستقبل ، دون أن يكون قادراً على ذلك ، على الأقل لأنه
شريك في صنعه . فكأنما نحن ، هنا ، أمام القولة الشعبية الشهيرة النافذة :
«قتلني وبكى ، وسبقني واشتكى» . وبذلك ، فهو الوعي الذي يصوغ نفسه عبر
حركة محبطة من خلال النظر إلى «الأيام الأولى العظيمة» وإلى «الأيام الربانية القادمة»
بأعين راهنة مغشاة بأوهام «الأمة المختارة المصطفاة» ، أمة «العهد» ، وأوهام
«الغوييم» ، العدو الأبدي . وعلى هذا النحو أيضاً ، يغدو الوعي اليهودي ضحية
«العهد الرباني» ، الذي يقطعه الرب على نفسه ابداً ، وينكته دائماً . ومن هنا ،
لم يغد كافياً أن يقال بأن «المستقبل لدى اليهود نموذجي مطلق»^(٢) . ذلك أن

(١) انظر مع المقارنة : هـ . فرانكفورت وآخرون - ماقبل الفلسفة - نفس المعطيات المقدمة
سابقاً ، ص ٢٧٢ .

(٢) نفس المرجع السابق ومعطياته - ص ٣٩ .

المستقبل والماضي هما - في الوعي اليهودي اليهودي - سواء بسواء ، مطلقان ووهميان ومثاليان ؛ إنما كل ذلك من موقع «الطموح» اليهودي ، وليس من منطلق «الواقع» اليهودي ، أي من موقع مستقبل متوهم وليس انطلاقاً من الواقع القائم الراهن بثقله وأعبائه الشخصية .

هكذا ، إذن ، نجد أنفسنا أمام نمط مثير من وعي الخيبة ووعي الإحباط ووعي التأزم ، الذي انتج ، من طرفه ، واعد انتاج وعي حاقق . وإن ما عالجناه سابقاً في نطاق ما أطلقنا عليه «عقدة الحضارة» ، كما ظهرت في سلوك اليهود العبرانيين بقيادة كهنتهم الأريستوقراطي حيال الكنعانيين الزراعيين ، يمكن أن يقدم إضاءة نافذة حول هذه الوضعية . ولعل الصرخة الشهيرة المنسوبة إلى «شمشون الرباني» تعبر عن الموقف المعني هنا بفاجعية ولادته القيصرية المسعورة : «لِئِمَّتْ نَفْسِي مَعَ الْفَلَسْطِينِيِّينَ»^(١) .

وبذلك ، يكون قد تعيّن على «السعيد» أن يدفع ثمناً باهظاً لتلقاء سعادته له «المفجوع المخيب الأمل» .

وإذا كانت الحركة اليهودية اليهودية تنطلق من الماضي إلى المستقبل ومن هذا إلى ذاك دونما فاعلية خلاصية مشخصة في سياق الحاضر ، فإن يهوه (يسوع - يشوع) المسيحي ينجز حركة ذات بعد آخر وأفق آخر . فهو يجد حده الأقصى ومهمته القصوى في انجاز مثل مستقبلية هي ، بالنسبة إليه ، قابلة للتحقيق . إن المخلص الجديد يرى أن المستقبل يحسد هدفه الأقصى والأمثل ، وإن كان إنجاز ذلك مرتين ، جزئياً وبمعنى محدد ، بتحقيق تطابق بين هذا المستقبل من طرف وبين ماضي الآباء من طرف آخر . ذلك لأن شرط «الانجاز الجديد» هو الانطلاق من «الانجاز القديم» . وبالطبع ، فإن هذه الشرطية ليست كلية ومطلقة على الصعيد النبوي الديني ؛ ذلك لأن «الجديد» وإن انطلق من «القديم» ، فإنه يظل حائزاً على شخصيته المتميزة بهذا القدر أو ذاك . والحق أن المسألة ، هنا ، تستدعي مزيداً من التدقيق والتعميق . فإذا كان «الماضي» يمثل لحظة شرطية في انجاز الفعل الخلاصي «المستقبلي» ، فإن ذلك يفهم بحدّين اثنين . الحد الأول منهما يتمثل

(١) الكتاب المقدس - سفر القضاة ١٦ / ٣٠ .

يكون الماضي هو ماضي الأباء «الشهداء»، الذين قدموا أرواحهم فداءً لـ «الكلمة الموعودة». وهنا، يصبح القول بأن المستقبل الخلاصي هو من أجل هؤلاء المنحدرين من مرحلة الكفاج والصراع من أجله، أي من أجل هذا المستقبل. أما الحَدّ الثاني فيظهر من خلال خط التعارض والتناقض المطلقين بين «عصر الخطيئة الأصلية» و«عصر الخلاص»، أي «عصر الحمل المظفر».

وإذا كان ذلك الحَدّ الثاني من العلاقة المسيحية بين الماضي والمستقبل هاماً وحاسماً من أجل فهم التوجه المسيحي لـ «المستقبل»، إلا أنه (أي الحَدّ) يبقى يستمد شروطه البنيوية والوظيفية بصورة أولية من الحَدّ الأول. بصيغة أخرى ينبغي القول، أن خط التعارض والتناقض بين الماضي والمستقبل هو، من المنظور المسيحي اليسوعي (بما في ذلك اليوحناوي)، الوجه المتمم لخط التعاشق والتشابك بينهما. ولعل هذا الأمر الأخير يتضح بمزيد من الدقة، حين نأخذ بالاعتبار شخصية يسوع المسيح في تمظهرها الاثنين الأكبرين، اللذين يغطيان خط التعاشق والتشابك ذاك، وهما «الحمل المذبح مند بدءا العالم»، و«الحمل الجالس على يمين الجالس على العرش». وإذا كان الأمر كذلك، فإن ما يعلنه لودفيج فويرباخ على هذا الصعيد يصبح الأخذ به على أنه وجه واحد من الموقف المطروح. يكتب فويرباخ: «إن المسيحيين توقعوا أن يحدث انهيار العالم بالقرب...، لأن كل ما تطور في المسيحية فإنما تطور فقط بالتعارض مع جوهره الأصلي (أي جوهر العالم)»^(١). فهنا، يتبين فويرباخ الوجه الأول من المسألة - وهو ولا شك هام حاسم في الخلاصية المسيحية اليسوعية. ولكنه اذ يهمل الوجه الآخر منها، فإنه يكون قد ألقى ظلالاً على إمكانية اكتشاف تينك الأهمية والحسمية في التصور المسيحي اليسوعي لما هو نقيض للخلاص اليسوعي.

وقد كنا لاحظنا أن تميز الشخصية المسيحية الجديدة برز في عشرينين اثنين مشروطين ببعضهما بعضاً. البعد الأول تمثل في الانفتاح على عوالم جديدة، وبتصديق الجيتو «الرباني القديم»، الذي جعل - زيفاً ووهماً - من الواحد اثنين.

1) Ludwig Feuerbach: Das Wesen des Christentums- zweiter Band, 1965, Akademie- Verlag, Berlin, S. 484.

ومن الجزء كلاً . أما البعد الثاني (وقد اتسم بأهمية نظرية قصوى) ، فإنه تجسد في الأفق التوحيدي الوجودي التضائفي ، الذي ربط بين الرب ويسوع ، بحيث يصبح هذان وجهين لكيان واحد ، أو يغدو هذان منطلقاً لتنوع واسع ثر في التجليات الوجودية ، أهمها أو أكثرها جوهرية هي الرب والابن وما يوحد بينهما (الروح القدس) . وسنأتي على ذلك لاحقاً .

ولكننا إذ نبلغ هذا المنعطف النبوي والوظيفي من التصور الخلاصي (المسياني) ، فإنه يغدو مترتباً علينا أن نتخصص «الوليد الجديد» ، الذي تمثل به «الحمل - الأسد» ، بما انطوى ذلك على تحولات جمة في حقول متعددة ومتنوعة وكذلك باتجاهات وآفاق محفزة . ولكن قبل الانتقال إلى هذه الحلقة النوعية من البحث ، لا مندوحة لنا عن العودة إلى الفكرة المركزية في المسألة المطروحة الآن ، وذلك على نحو يحيلنا فيها من المقدمات إلى النتائج ، ضمن حركة تلاحق السابق في اللاحق وتستنبط اللاحق من سابقه .

فلقد وجدنا أن الانتقال من اليهودية اليهودية إلى المسيحية اليسوعية ، تخصيصاً ، هو تحول من «يشوع - يسوع» اليهودي إلى «يسوع - يشوع» المسيحي ، بما يقابله - بطبيعة الحال . ويوازيه ويتممه ويخترقه من تحول نوعي من «وعي الإثم والخيبة» إلى «وعي الغبطة والافتحام» ، ومن «وعي الفاجعة» إلى «وعي السعادة» (١) .

ويهمنا ، على هذا الصعيد المحدد ، أن نقرب من «وعي الإثم والخيبة» ذاك بمزيد من التدقيق والضبط ، بحيث يتاح لنا أن نضع اليد على العلاقة الخفية

(١) في (سفر عزرا - الكتاب المقدس ٨٦/٩ ، ١٠-١١ ، ١٣ ، ١٥) نواجه أكثر أشكال هذا الوعي فاجعية على «الأهل» وحقداً على «الغوييم» . فهنا ، نقرأ عزرا وهو يخاطب الرب :
«اللهم إني أستمحي نجلاً من أن أرفع اليك وجهي يا إلهي لأن ذنوبنا قد تكاثرت على رؤوسنا وتفاقم إثمنا إلى السماوات . إنا من أيام آبائنا في إثم عظيم إلى هذا اليوم ولأجل ذنوبنا قد اسلمنا نحن وملوكنا وكهنتنا إلى أيدي ملوك الأرض للسيف والجلد والنهب ولخزي الوجوه كما في هذا اليوم . والآن كأنما مند هنيئة كانت لنا راحة من لدن الرب إلهنا ليبقي لنا نجاة . . . والآن يا إلهنا ماذا نقول بعد هذا فإننا قد أهملنا وصاياك . التي أمرت بها على السنة عبيدك الأنبياء قائلاً إن الأرض التي تذهبون إليها لتملكوها هي أرض منجسة =

والمباشرة ، في آن ، بينه وبين تصور «الدينونة» ، وبحيث تتبين الحركية التراجعية أو القائمة على المرافقة والتي تحكم العلاقة بين هذين الطرفين .
فمن الملاحظ أن «الدينونة» إذ تحدث ، فإنما تحدث في ظل علاقة مضطربة متساوقة بين رب تكمن رغبته الخبيثة الدفينة في «امتحان» متصل لـ «شعبه المصطفى المختار» بهدف جعله معباً دائماً وأبداً وملتقاً دائماً وأبداً حوله ، من طرف (١) ، وبين شعب (لنقل : كهنوت) يتمثل شعوره الأقصى بالاثم وبمحاولة ذنوبية لتجاوزه ، ومن ثم الوقوع في الخيبة تلو الخيبة ، من طرف آخر . ان التركيز على «الاثم» والبحث عن سبب كل موقف انساني (أو حتى كوني) غير متطابق مع «وصايا الشريعة الكهنوتية» ، بشكل أو بآخر وبدرجة أو بأخرى ، في الاثم ، كان من شأنه أن أحدث شعوراً متصلاً ومضخماً بالذنوبية حيال الرب ، وبالحاجة إليه على نحو احتياج المتبوع الى تابعه . وهذا ما يتيح لنا أن نستنبط الدلالة الوظيفية من الأسلوب الترهيبى التقريعى الصارخ . الذي لجأ إليه عزرا في كتاباته ، مما يجعلنا ، ثانية ، إلى قضية «المركز - الهامش» ، التي وجدناها فاعلة حاسمة بمعنيين وباتجاهين اثنين على صعيد اليهودية اليهودية (الكهنوتية الارستوقراطية) (٢) .

ومن هنا ، فحين يحل «يوم الدينونة» ، فإنه ، بذلك ، يحمل تبشير (بشارة) «نهاية الاحزان» ، التي لن تعود ثانية أبداً ضمن التصور اليهودي اليهودي ، أي من

بأدناس شعوب الأرض من رجاساتهم التي ملأوها بها من الطرف إلى الطرف بنجاستهم . . . وبعد كل ما ورد علينا من أجل أفعالنا السيئة وإثمتنا العظيم إذ أنك يا الهنا قد عاقبتنا بأقل من ذنوبنا . . . هانحن بين يديك بأثامنا لأننا لا نملك الوقوف بين يديك من أجل هذا .

(١) ، ان تصور «الامتحان» أو «التجربة» يكتسب هنا ، حقاً ، بعداً خلاصياً . ولكن هذا البعد ، بما هو وجه من أوجه «وعي الاثم والخيبة» ، لا يخرج عن ان يكون تعبيراً طارئاً عن وهم خلاصي . وهذا ما نتبينه في مثل النص التالي :

«أما أنا فأعلن لكما الحق وما اكنتم عنكما أمراً مستوراً . انك حين كنت تصلي بدموع وتدفن الموتى وتترك طعامك وتحب الموتى في بيتك نهراً وتدفنهم ليلاً كنت أنا ارفع صلاتك الى الرب . وإذ كنت مقبولاً أمام الله كان لابد ان تمتحن بتجربة» . (الكتاب المقدس - سفر

طوبيا ١٢/١١-١٣) .

(٢) انظر ثانية - مع الانتباه إلى البعد الوظيفي - في آخر شاهد مأخوذ عن سفر عزرا .

موقع «وعي الأثم والحيية» . بيد أن ما يمكن أن يحدث في الحد الأقصى هو التوهم باحتمال حدوث ذلك اليوم وتلك النهاية ، ليس إلا . إذ أن الأمر إن حدث فعلاً وحقاً ، فسوف تكف القوة الكهنوتية عن أن تكون الناظم والحكم والضابط للعلاقات فيما بين «الشعب الأثم المختار» . وبتعبير آخر ، إن «وعياً بالغبطة والاقتحام» لا يمكنه أن يكون - بحال - مقبولاً في أوساط تلك القوة الكهنوتية ، لأنه - إذ ذاك - سوف يكون التعبير الفعلي عن «نهاية الأحران» ، ومن ثم عن نهاية الوضعية المشكلة القائمة ضمن ذلك الشعب أولاً ، وبينه وبين شعوب (الغويم) ثانياً ، وهذا مالا ينبغي أن يكون .

وإذا كان الأمر على ذلك النحو ، فإنه أضحي من طبائع الأمور أن تترتب على تلك العملية المركبة والمعقدة والمديدة مواقف حاسمة مفصلية كان لابد وأن تبرز بروزاً متميزاً وفاعلاً في بنية ووظيفة النسق الديني الجديد ، المسيحية اليسوعية . من تلك المواقف أن هذا النسق الديني مثل - في شخصيته المتبلورة (البولسية تخصيصاً) - جماع القول في الفكر الديني والفلسفي المسياني (الخلاصي) ، حتى ذلك الحين ، وعلى صعيد ما برز آنذاك بمثابة مركزاً للثقافة العالمية ، أي الامبراطورية الرومانية برصيدها الثقافي الكبير والمهدّد للآخرين ، أو الجاذب لهم ، ونقصد بذلك «أهلينة» .

ولعل جانباً بعينه من ذلك الموقف يهمننا - هنا - تخصيصاً وبمزيد من الإلحاح ، ألا وهو انتصار أهلينة في الدين الجديد . فإذا كان هذا الأخير قد انطلق - في أسس الموقف - من حاجات وحوافز اجتماعية واقتصادية وسياسية وإنسانية روحية (خلاصية) على صعيد البقعة الفلسطينية العامة ، فإنه استطاع - مع تطور الأحداث وتلاحقها في صيغة الأزمة العميقة والشاملة آنذاك - أن يتحول إلى محرقة التفتت واندغمت فيها وعبرها أهم التيارات الفكرية والدينية والسياسية ، التي كانت نشطة فاعلة في أجواء الامبراطورية المترامية الأطراف . ولعلنا نخصص هذا القول فنشير إلى أن المقصود بهذه التيارات ما دخل منها - بصورة رئيسية - في دائرة المعارضة والمهرطقة ، وكذلك وفي نفس الحين ما انتمى منها إلى أصول محافظة . كيف تم ذلك ؟ لقد تم انطلاقاً من أن المسيحية اليسوعية تمكنت من أن تستشير وتستفسر

وتخاطب كل التيارات والتجمعات الفكرية والدينية والسياسية والاقتصادية ، كلا منها بلغته ومن موقعه ؛ أو ربما بصيغة مقابلة مثممة نستطيع القول ، لقد تم ذلك لأن تلك التيارات والتجمعات وجدت في هذه «البدعة الجديدة» ما استثارها واستفزها أولاً ، ولكونها (التيارات والتجمعات المعنية) أدخلت في تلك البدعة - شيئاً فشيئاً ومع تبلور الأحداث وتصاعدها عمقاً وسطحاً - ما يستجيب لاحتياجاتها على صعيدي البنية والوظيفة .

وينبغي القول - تعقياً على ذلك وتتمياً له - بأن التطور الذي طرأ على الدين الجديد كان من مقتضياته ونتائجه القريبة والبعيدة أنه استطاع الاسهام ، بشكل عميق مُلفت ، في ضبط وتنسيق تلك التيارات والتجمعات دينياً نظرياً ، وكذلك وعلى نحو خاص وبأهمية خاصة في بلورة مواقفها السياسية المضمرة والمعلنة ونقلها إلى حيز الفعل الوظيفي المباشر . فلقد كان منها ما أخذت مواقفه تنجلي وتعلن عن نفسها باتجاه المعارضة والمناهضة ، ومنها ما أخذت مواقفه ومطامحه وآفاقه تكتشف نفسها وأرضها الخصيبة في الالتحام بالمشروع الديني الجديد ؛ مما يدخلنا في الموقع المنهجي الذي يسمح بالقول بأن هذا الأخير مثل - في حينه وبوتائر مضطردة ومتصاعدة - المظلة الكبرى التي كان على الجميع أن يستظلوا بظلها ، وأن يستنبطوا منها مسوغات ومشروعية مواقفهم الفكرية والدينية الروحية والسياسية ، وكذلك الاقتصادية والاجتماعية الطبقية والفئوية . وهذا ، من طرفه ، يجعلنا ننظر إلى المشروع الديني إياه - في هذا السياق بالذات - من حيث هو موقف تلفيقي استمد مصادره من مجموعة من التيارات والتيارات الهامشية الدينية والسياسية ، وإن كان التيار الديني والسياسي اليهودي عامةً في مقدمتها منطلقاً وتحفيزاً واستفزازاً .

وإذا كان الأمر على النحو المقدم ، هل يغدو الرأي صحيحاً بأن المسيحية شكلت - على الأقل في مراحلها الأولى - أمشاجاً فكرية وسياسية على النمط الذي واجهناه في اليهودية ، خصوصاً في مقدماتها وارهاساتها الأولى ؟ لعل هذا الرأي صحيح في أحد أوجهه ؛ ولكنه - على صحته - لم يكن ليجسد اللحظة الأكثر حضوراً في الدين الجديد البكري ، تلك اللحظة التي تمثلت بـ «وعي الغبطة والاقترام» ، الذي دخل أوساط الجمهور الواسع من الفقراء والمفقرين والعبيد على

نحو عميق وفاعل وواعد . وإذا كانت المسيحية قد اكتسبت تلك الشخصية التلقيفية في مراحلها الأولى ، فإنما تم ذلك بسبب من أن تكونها الأولى كان خاضعاً لمجمل الحركة الدينية والفلسفية في الداخل والخارج ؛ وهي - في ذلك ، لم تخرج عن قانونية التكون الذهني في المجتمع المتعدد المظاهر الطبقيّة والذهنية .

تبقى مسألة أخيرة تتصل ، مباشرة ، بالعالم الديني الجديد ، تلك هي مسألة «الثالوث المقدس» ، الذي ينبىء عن نفسه بأشكال أولية في الرؤيا اليوحناوية ، إضافة إلى نصوص أخرى نلقاها في «العهد العتيق» . فبصورة عامة يمكن القول ، إن «الثالوث» المذكور حين يظهر هنا وهناك من تلك النصوص ، فإنما في إطار من الوظيفية التي تقود إلى مشارف الدين الجديد ، وتتهيء له بالتساوق المباشر مع تصور الخلاص عبر الفداء . ولكن في حدود هذا الفهم للمسألة ، يبرز «الثالوث» ما قبل المسيحي اليسوعي بأشكال لم تحقق وضوحاً وتماسكاً كافيين ، بحيث أن الباحث يجد نفسه مدعواً إلى قراءة ما وراء الكلمات وما بينها . ومن هنا ، نلاحظ أن ما كتبه A.F.Groener (١٨٠٣ - ١٨٦١) على صعيد التثليث اليهودي ليس صيغة عامة ملزمة لجميع الفرقاء اليهود أولاً (وهذا ما يشير إليه هو نفسه) ؛ كما أنه ، من طرف آخر ، لا يعني القول بوجود مواقف حازمة وقطعية في إطار المسألة المعنية هنا . يكتب الباحث المذكور مايلي : «في التصوف اليهودي وحسب واحد من الفرقاء (التيارات) اليهودية ، يكون الله جوهرأً أول ذكرياً ، في حين أن الروح القدس جوهرأً أول اثني . ومن تزواج الاثنين جنسياً ينشأ الابن ، ومعه العالم» (١) .

إن هذا الأمر ، مأخوذاً في سياقه من السابق اليهودي اليهودي واللاحق المسيحي اليسوعي ، يؤدي إلى تعميق ما كنا نخلصنا إليه فيما قبل من أن نشوء وتبلور المشروع المسيحي الجديد كان مشروطاً ومرتهناً بنشوء وتبلور المقدمات الباكورة التي قادت إليه . أما هذه المقدمات نفسها فكانت تعبيراً تاريخياً عن مرحلة انتقالية بخلفية يهودية وبآفاق مسيحية يسوعية . ولقد أشرنا فيما سبق وعبر الحديث عن فيلون أن

1) In: Ludwig Feuerbach- Das Wesen des Christentums, erster Band, a.a.O.,
o., S. 133.

«الملائكة» قامت في اليهودية مقام الروح القدس . ولكن لم تكن هذه الملائكة دائماً من جوهر انثوي ، بل اننا نواجهها ايضاً بجوهر ذكري . ونستطيع أن نأخذ مثلاً على ذلك ، نصوصاً من رؤيا دانيال ورؤيا يوحنا ، بحيث يحيلنا الموقف إلى أن «الثالوث المقدس» لم يكن تصوراً غريباً على الذهنية اليهودية ، وخصوصاً في مرحلة الانتقال إلى ما بعد العصر الميلاي .

لدى دانيال ، نواجه «الرجل جبرائيل» الملاك يقوم بدور الوسيط بينه وبين الرب ، بحيث يغدو أمامنا ثلاثة أطراف وفاعلاً فعلاً باتجاه وظيفي متميز ذاتاً وصفات . وإذا ما اعتبرنا العملية التي ينجزها جبرائيل بمثابة «وحي» يوحى لدانيال ، استبان لنا أن «الثالث» ، أي جبرائيل الذي يبلغ الرسالة لدانيال ، هو «الروح القدس» :

«وبينا كنت اتكلم وأصلي واعترف بخطيئتي وخطيئة شعبي اسرائيل والقبي تضرعي أمام الرب إلهي لأجل جبل قدس إلهي . بينا كنت اتكلم بالصلاة إذا بالرجل جبرائيل الذي رأيته في الرؤيا عند البداة قد طار سريعاً ولمسني في وقت مقدمة المساء . وبينَ وتكلم معي وقال يا دانيال إنني خرجت الآن لأعلمك فتفهم . عند بداة تضرعاتك خرجت الكلمة وأتيت أنا لأخبرك لأنك رجل رغائب فتأمل الكلمة وأفهم الرؤيا» (١) .

لنلاحظ ماورد في النص : «الكلمة» تخرج في بداية التضرع ، و«جبرائيل» يأتي طائراً لإبلاغها دانيال . فالكلمة ، هنا ، وجه من أوجه الرب ذاته ، وتغدو الفعل الوسيط النافذ عبر يدي جبرائيل ، في حين أن النبي دانيال يتلقاها لإبلاغها للناس . وجدير بالقول ، اذ نبغ هذه الحلقة من المسألة أنه ليس من الصعوبة أن نتبين ملامح كبرى لـ «الثالوث» في رؤيا دانيال ، ذلك الثالوث الذي ينطوي على دلالة خلاصية (مسيانية) واضحة . وهذا ، بدوره ، يُبرز خطوط التواصل التي تولدت بين المسيحية الباكرة لاحقاً واليهودية في حلقاتها الأخيرة ؛ ومن ثم ، يجعل من «ولادة» الأولى حدثاً مفهوماً وطبيعياً ومتوقعاً في ضوء الدلالات الكبرى والصغرى التي انطوت عليها مرحلة الانتقال المعنية هنا .

(١) الكتاب المقدس - نبوة دانيال ٩/ ٢٠-٢٣ .

ولكن خطوط التواصل تلك تزداد كثافة ووضوحاً ، حين نقرأ نصاً آخر متمماً
لذلك لا يضعنا أمام العالم المسيحي اليسوعي فقط ، بل يجعلنا ، كذلك ، نتلمس
بعض الآفاق التي تقود إلى «النبوءة الإسلامية» و«الوحي الإسلامي» وإلى «الرعدة»
التي تصيب النبي محمداً أثناء مجيء الوحي . فبالإضافة إلى «الكلمة» ، التي نراها
تتحول إلى «أصل العالم» في المسيحية اليسوعية وإلى «جوهر الله» في الإسلام
القرآني ، تواجهنا «يد الملاك» التي تلمس النبي دانيال ، ونفاجأ بـ «الرجل
المتخف كتناناً - بياضاً» والذي هو «بشبه ابن بشر» ، وكذلك الذي يطالب دانيال بـ
«الفهم» ، فهم الكلمة ، أي «قراءتها» للوصول إلى فحوى الرؤيا (الوحي) :

«رفعت طرفي ورأيت فإذا برجل لابس كتناناً . . . وجسمه كالزبرجد ووجهه
كمرأى البرق وعيناه كمشعل نار . . . وصوت أقواله كصوت جهنم .
فبقيت أنا وحدي ورأيت هذه الرؤيا العظيمة فلم تبق في قوة وتحولت نضرتي في
إلى ذبول ولم أملك قوة . وسمعت صوت أقواله وعند سماعي صوت أقواله
كنت في سبات وأنا على وجهي . . . فإذا بيد لمستني وأقامتني على ركبتي وعلى
كفّي يدي . وقال لي يا دانيال رجل الرغائب افهم الأقوال التي أنا أكلّمك بها
وانتصب في موقفك فإنني الآن أرسلت إليك . فعندما كلمني بهذا الكلام
انتصبت مرتعداً . فقال لي لا تخف يا دانيال . . . فإذا بشبه ابن بشر قد لمس
شفتي ففتحت فمي وتكلمت وقلت للواقف أمامي ياسيدي . . . وقال لا تخف
يارجل الرغائب سلام لك تقو وتشدد» (١) .

تلك مواقف رؤياوية تدخل في نطاق وحي ترميزي يقودنا إلى ما يمكن النظر
إليه على أنه إرهاصات عامة باكراً لكثير من المواقف الدينية ، التي ستتصّب أمامنا
في المسيحية اليسوعية (وكذلك الإسلام) ؛ ومن ذلك «الثالوث المقدس» ، وإن
ظهر ملفعاً بكثير أو قليل من الغموض والحجب . ولعل مثل هذه الوضعية المتسمة
بالغموض والتحجب تغدو أقل حضوراً فيما نواجهه لدى يوحنا في رؤياه ، التي
ظهرت لنا بمثابرتها المشروع الأول الأكثر تبكيراً ومباشرة للدين الجديد ، المسيحية
اليسوعية . ففي نهاية الرؤيا ، يتحدث «يسوع نفسه» معلناً عن الرسالة التي

(١) نفس المصدر السابق ومعطياته ١٠/٦٥ ، ٨-١٢ ، ١٦ ، ١٩ .

أرسلها للنبي يوحنا كي يبلغها للمؤمنين الصابرين ، ويحذّر عبرها
«الكلاب وأصحاب السموم السحرية والزناة والقتلة وعبداء الأوثان وكل من
يجب الكذب ويعمل به»^(١) .

ولنلاحظ أن يسوع يُقدّم لدى يوحنا الرؤياوي وفي النص التالي من حيث هو
الرب (الاله) نفسه ، في حين أننا وجدناه في نص آخر سابق حملاً يجلس على يمين
الرب الاله «الجالس على العرش» . ولعلنا نقول ، ان الأمر وإن ظهر على ذلك
النحو الثنائي (رب - يسوع) ، فإنه إذا اخذ من وجه آخر محتمل ، يقود إلى امكانية
تفريع أو تفتيق «الواحد» إلى «ثلاثة» ، بحيث نجد أنفسنا أمام الثالث . نجبرنا
يوحنا عمّ تكلم يسوع ، أي بالتعبير الذاتي :

«أنا يسوع أرسلت ملاكي ليشهد لكم بهذه في الكنائس . أنا أصل داوود وذريته
وكوكب الصبح الساطع . والروح والعروس يقولان هلمّ ومن سمع فليقل
هلم ومن عطش فليأت ومن شاء فليأخذ ماء الحياة مجاناً»^(٢) .

ان يسوع يرسل «ملاكه» ، النبي هو «روح» أو «عروسه» ، ليبلغ
ويشهد . وهو إذ كان رباً ، فإنه يكون كذلك «الكلمة» المتجلية بالفعل الملاك .
ومن ثم ، تغدو «الثلاثية» قائمة في «الأحادية» ، التي تندغم هنا وتندمج بـ
«الواحدية» . ولعل ما يهمنا في ذلك ، بشكل خاص ، هو التصور اليوحناوي
حول «ديمومة» يسوع في القبل والآن والبعء . ذلك لأننا نتبين ، هنا ، أمرين
حاسمين في العلاقة فيما بين يوحنا ويهو اليهودي من جهة ، وبينه وبين يسوع
المسيحي من جهة أخرى . وهما حاسمان من حيث أنها يتصلان اتصالاً بنوياً بما هو
قبل المسيح وبما هو المسيح نفسه وبما هو بعده أو الافاق التي يفتتحها .

الأمر الاول يتمثل في القول بأن «يسوع أصل داود» . وهنا ، نلاحظ «السرة»
التي تربط بين اليهودية والمسيحية عبر الرؤياوية اليوحناوية . ولقد سبق أن أتينا على
ما اعتبره بعض الباحثين ، بدون حق ، مفارقة وتناقضاً في موقف اليهودية الكهنوتية
المتصل بإعلانها كورسّ الفارسي «مسيحاً» ، منطلقين من مثل ذلك الاعلان

(١) الكتاب المقدس - رؤيا القديس يوحنا ٢٢/١٥ .

(٢) نفس المصدر السابق ومعطياته ٢٢/١٦-١٧ .

اليوحناوي عن أن اليهود ألحوا على الأصل الداودي (اليهودي) للمسيح إلحاحاً لا يسمح بفهم ذلك الاعلان من موقع اليهودية نفسها . إن في هذا الموقف لحظة أخرى غير تلك المتمثلة بالاعلان عن الأصل المعني ؛ إنها لحظة التأكيد على أن يسوع المسيح (الجديد) كلي الحضور مطلقاً ؛ أي كما أنه ذو حضور راهن (ومن ثم أيضاً مستقبلي) ، فهو ، كذلك ، كان في الماضي . وتأكيد مثل هذا برز على أنه ضروري كل الضرورة بمثابته المدخل إلى طرح شخصيته الخلاصية ، أي الشخصية التي من شأنها أن تهيمن في الكون عموماً (الطبيعي والنباتي والحيواني والانساني ، وكذلك «الروحاني الملائكي ، والشيطاني») . وبصيغة أخرى ينبغي أن نقول ، إن كلية وإطلاقية شخصية يسوع المسيح كان لابد من الاقرار بهما والتأكيد عليهما من موقع بنيوي ووظيفي يتيح التمكين لعملية تغليب ذاك (يسوع المسيح الجديد) على كل المسحاء الذين سبقوه ، ويجعل منه «سيد الأكوان كلها والاقدار كلها» .

وإذا كان هذا الأمر يلح ، ضمناً وإفصاحاً ، على تلك الشخصية السكلية الإطلاقية ، فإنه ، كذلك ، يسمح لنا أن نضبط الخيوط التي تمتد ، نكوصاً ، من رؤيا يوحنا باتجاه اليهودية اليهودية ؛ بما يدعم ما كنا قد أقررناه من أن هذه الرؤيا قادت إلى مشارف المسيحية اليسوعية دون أن تندغم فيها من طرف ، ودون أن تقطع «علاقة القربى» باليهودية تلك من طرف آخر .

أما الأمر الثاني ، الذي يستوجب التوقف في التصور اليوحناوي المنوه به حول «ديمومة يسوع» ، فيتمثل في اعتبار هذا الأخير نفسه «ذرية» داود . وهنا ، نواجه الذرية وكأنها مع «الأصل» سواء ، أو - وهذا قمة المفارقة المنطقية التاريخية والتراثية في المسيحية - كأن الإلحاق يفسر السابق ويسبقه وجودياً وأخلاقياً . ولا ينبغي أن نثقلهم «الذرية» ، هنا ، على أنها امتداد داود امتداداً إتنياً ودينياً عقيدياً . فلقد انطلق «يسوع اليوحناوي» من التبرؤ من اليهودية الإتنية والدينية العقيدية ، وإن احتفظ باليهودية وأقر بها تصديقاً لديمومته في القبل . وبهذا ، تكون «الذرية» أكثر كلية وإطلاقية ، وكذلك مصداقية على الصعيد الخلاصي (المسياني) . ولعل تعبير «أنا . . . الصبح الساطع» يقدم تدقيقاً مسيحياً لاهوتياً لهذه النقطة من المسألة . فإن يكون يسوع المسيح كذلك ، أي صبحاً ساطعاً ، لابد وأن ينطوي على التصور

الدّلاي التالي : إنه (يسوع هذا) بداية ونهاية ؛ بداية الصبح ، ونهاية الليل (الظلام) . والتضاييق بين هذين القطبين من دواعي التأكيد على أن الأولى وإن انطوت على نوعية جديدة ، فإنها تظل محكومة بالثانية (النهاية) ، أي بما قبلها . ولننقل بتعبير آخر أكثر تكثيفاً واستجابةً لتصوير المسيحية اليسوعية نفسها عن نفسها : إن محكومة المسيحية هذه باليهودية ليست من قبيل الاشتراط ، بل بمثابة التصديق ، حيث أن تلك (المسيحية) إذ تبرز كلفة ومطلقة ، فإنها لم تعد - في نشوئها وظهورها عموماً - مرتبهة بعصر الخطيئة السابق عليها ؛ إنها النقض لهذا العصر في القبل كما في الآن والبعد . وهي ، بهذا ، لذاتها وبذاتها : إن الدين عند الرب المسيحية ، وإن المخلص عند الرب هو يسوع ، الذي يستحيل ، على هذا الطريق ، إلى الرب نفسه .

وإذا ما استبقنا الأحداث ، فأننا نواجه ما كتبه لاحقاً بولس على صعيد «الخطيئة» مضيئاً - من الموقع المسيحي - جوهرية التباين بينها بصفقتها «عصر الخطيئة» وبين «الخلاص اليسوعي» :

«اتجهلون أيها الإخوة . أكلم الذين يعرفون الناموس . أن الناموس يسود على الإنسان مادام حياً . فإن المرأة التي تحب رجل هي مرتبطة بالناموس برجلها مادام حياً فإن مات الرجل برثت من ناموس الرجل . . . هكذا يا اخوتي انتم أيضاً قد أمثتم عن الناموس بجسد المسيح حتى تصيروا لآخر للذي أقيم من بين الأموات لكي نثمر لله . لأننا حين كنا في الجسد كانت أهواء الخطايا التي بالناموس تعمل في أعضائنا حتى نثمر للموت . وأما الآن فقد برثنا من الناموس إذ مُتْنَا عن الذي كان يمسكنا حتى نعبد بجسد الروح لا بعنق الحرف . فماذا نقول هل الناموس خطيئة . حاشي . لكني ما عرفت الخطيئة إلا بالناموس فإني لم أعرف الشهوة لو لم يقل الناموس لا تشته . وبالصيغة إتخذت الخطيئة سبيلاً لتتم في كل شهوة لأن الخطيئة بدون الناموس ميتة . وقد كنت حياً زماناً بدون الناموس فلما جاءت الوصية عاشت الخطيئة ومُت أنا ووجدت الوصية التي للحياة هي نفسها لي للموت» (١) .

(١) الكتاب المقدس - رسالة القديس بولس إلى أهل رومية ٧/١-٢ ، ٤-١٠ .

لاشك أننا نستطيع أن نسجل ، على هذا المستوى البولسي ، أمرين اثنين يجسدان نمواً نوعياً حدث مع اعلان المسيحية عن نفسها ومع تبلورها في مراحل متقدمة . ولا يهمننا أن نثير ، الآن ، الحديث في هذين الأمرين إلا لأننا نواجه ملاحظتهما الأولية في رؤيا يوحنا . الأمر الأول يتمثل بالاحتياجات الاجتماعية والاقتصادية والروحية (الثقافية) المتصاعدة في المرحلة الانتقالية مما قبل الميلاد إلى ما بعده ، أي مرحلة التآزم العظيم في مجتمع الامبراطورية الأخذة بالترهل . وقد عبر بولس عن ذلك بالانتقال من عصر الخطيئة إلى عصر المغفرة والمحبة ، وكان يوحنا قد صاغ ذلك أو ما يقترب منه ، حيث رأى في «الكلاب وأصحاب السموم السحرية والزناة والقتلة وعبداء الأوثان وكل من يحب الكذب ويعمل به» سيادة لعصر ما قبل «السيادة المطلقة للجالس على العرش وإلى يمينه الحمل» . وهذا ينطوي على الاعلان عن أن الموقفين ، البولسي واليوحناوي ، يتضمنان - على سبيل الترميز والتأشير - بعداً اجتماعياً مشخّصاً يقود إلى مجتمع الامبراطورية ذاك .

أما الأمر الثاني فيفصح عن نفسه في صيغة المستوى الاصطلاحي النظري ، التي نلقاها لدى بولس ويوحنا . ولابد من القول - في هذا الحقل من المسألة - بأن بولس يتجاوز يوحنا تجاوزاً بيّناً ، حيث نلاحظ الكثير من العمق والدقة في التعبير عن واقع الحال الجديد . وعلى كل حال ، فسوف نأتي على هذه المسألة وغيرها في سياق القسم الثاني التالي ، وذلك بمزيد من التفصيل والتعيين (التشخيص) . هذا يعني ، بالنسبة إلينا ، أن يوحنا الرؤياوي سيظل يمثل المشكلة الدينية المركزية على صعيد الدخول في العالم اليسوعي المسيحي . ولذلك ، فسنعود إليه ثانية ، بعد أن نكون قد أعملنا مبضع البحث في مسألة «تاريخية وواقعية» المسيح تأكيداً أو نفياً . وفي الحالتين كليهما ، سيظل يوحنا الرؤياوي ذا دلالة كبرى من حيث هو المحطة التي تستجمع فيها البشرية أنفاسها ، لتتدافع باتجاه ذاك المعلوم - المجهول ، يسوع المسيح .



باتجاه يسوع المسيح

أيها الأب ، أبونا في السماوات والأرض ، أيها الأب الذي جعل ابنه يفتدينا
بدمه مرة واحدة وإلى الأبد ، أيها الأب الابن الروح القدس ، أنت وحدك الذي
تتصدّر الموقف برّمته فتجعل من القاصي دانيّاً ومن الداني قصيّاً ، وتعيد - من ثم -
بناء العالم من أجلنا نحن المنكوبين البؤساء المفلوكين ؛

أيها الابن الأب الروح القدس ، الحبيب الذي لفعّ بدمه القاني المسفوح
شفاه وقلوب المقهورين المذمّيين المطاردين ، فأعاد لهم - بذلك - ذكرى حبيب
لا يموت ، ذكرى أوزيريس وادونيس . . .

أيها المخلص الذي سقط على الصليب ليغدو صليب العالم المستنفد ، ذلك
العالم الذي هدّه وصدّعه القتلّة ؛

يا أيها الذي لم يكن له مُتكأ يسند إليه رأسه وغدا حجر الزاوية الاعظم ؛
يا أيها الذي أنتَ بواكير العالم وعواقبه ، عيوننا نصبو الى يوم دينوتك
الأكبر ، حيث الملكوت لنا بك وفيك وعبرك ، وحيث القتلّة والمجد فون الاغنياء
كالجمال يستحيل عليهم الدخول فيه كما يستحيل على الحمل أن يدخل في خرم
ابرة ؛

هَلِّلُويا ، هَلِّلُويا ! مجدّوا الرب الابن الحبيب الذي غدا ظهوره قاب قوسين أو
أدنى ؛

هكذا ، كان الخطاب الديني الذي اخترق الوضعية الذهنية التي بلغت
حدودها القصوى في مرحلة الانتقال مما قبل الميلاد الى ما بعده . وسوف يكون لهذا
الخطاب أهمية كبيرة نافذة أهمية التحولات الكبرى التي كانت تخترق البنيات
الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والروحية في الامبراطورية الرومانية بمعظم
ولاياتها ، وخصوصاً فلسطين . ان العمومية وإن كانت ذات حضور عميق وفاعل
على صعيد المكونات الجغرافية لتلك الامبراطورية ، فإنها ظلت - بمعنى ما رئيسي -

تعبيراً عن جماع القول في خصوصياتها (أي المكونات) . فالأزمة التي شرعت تأكل الأخضر واليابس في العالم الامبراطوري المترامي الأطراف ، وجدت أعمق وأشمل تعبير عنها في أحد «جيوبه» ، فلسطين .

وقد نعلن أننا ، هنا ، أمام وضعية في غاية الطرافة الواقعية المشخصة والمنهجية النظرية : أن يبرز الجزء تعبيراً عن الكل ، يعني أمرين اثنين من أمور كثيرة . الأمر الأول يتمثل في النظر إلى «العمومية» على أنها وضعية حية وليست مغلقة ، وضعية تقوم على التجادل بين الخاص والعام تجادلاً يؤدي إلى تعميق متنام لكلا الطرفين . ومن ثم ، فإن عمومية الوضعية في الامبراطورية الرومانية ، في حينه ، لم تكن الا حالة من حالات الخصوصيات المندرجة في اطارها . أما الأمر الثاني فيبرز في تبين إحدى الخصوصيات وقد كادت أن تتحول - في زمن معين وكان محدد - إلى الوجه الأكثر حضوراً وفاعلية في العمومية التي تشتمل عليها وعلى غيرها من الخصوصيات الدينية والاجتماعية الاقتصادية والثقافية . هكذا فإن حال فلسطين ، التي انطلقت منها البواكير الكبرى لوجه «المخلص الجديد» ، يسوع المسيح ، أو للمسيحية التي سنطلق عليها لاحقاً ما يقترب من «مسيحية الواقع» مقابل «مسيحية الاناجيل» .

وسوف لن نكون في الموقع الذي يتيح لنا أن ندرك «اللاحق - المسيحية» بعد تضعض «السابق - اليهودية» إذا لم نضع في اعتبارنا أن هذه الأخيرة في تضعضها وتصدعها هي التي مكّنت لنشوء تلك ، المسيحية ، ولتبلورها وتطورها على نحو لم يعهد لدين آخر من قبل . ولكن كلتا العمليتين ، تضعض الأولى وتصدعها أولاً ونشوء وتطور الثانية ثانياً ، كانتا مشروطتين بمجموعة من التحولات البنيوية الوظيفية التي طرأت عمقاً وسطحاً على الواقع الشخص (الاجتماعي والسياسي والثقافي) في فلسطين بذاتها ومن حيث هي إحدى الولايات الرومانية الكبرى .

ان الانتقال من «يسوع» إلى «يسوع» هو انتقال من التأزم العميق والشامل إلى الانفراج العميق والشامل باتجاه عالم رحيب مفعم بأحلام المحبة والمساواة . ولكن هذا العالم وإن لم يكن متمثلاً بعالمنا الذي نحيا أو الذي سنحيا ، فإنه ظل يحمل وشم هذا الأخير ويدلّ عليه بينيته القائمة وبآفاقه المحتملة ؛ كما ظل يحمل همومه

والآلام وإن بطريقة وهمية إيهامية ، أي بطريقة تبتلع (تجاوز) الخاص لصالح العام ، والمخصص لصالح المجرّد ، والواقعي لصالح الماورائي . ورغم ذلك ، بقيت «المسيحية الجديدة» تمثل - في حينه - أفقاً كبيراً ناهضاً من آفاق التعبير عن الاحتجاج على عالم أصبح خاوياً مستخوي ونافداً مستنفداً . في كل الأحوال ، يطرح السؤال نفسه : كيف قامت الأحجار الكبرى للبناء المسيحي الجديد ، وما هي الاتجاهات والإشكالات الكبرى التي طرحت نفسها في سياق هذا العملية ؟ إن الصفحات التالية (المجلد الثاني من هذا الجزء الثاني) تطمح أن تطرح إجابة على ذلك هي بمثابة افتراض جرىء ويزعم بأنه يستجيب لاحتياجات ومقتضيات موضوع البحث الذي نحن بصدده وأدوات البحث التي نمتلكها .



ثبت بمواضيع المجلد الأول من
«من يهوه إلى الله»

٦-٥	تنويه
١٢-٧	مقدمة ١
١٥-١٣	٢

القسم الأول :

٥٢-١٧	تمهيد في ما هو عام ومدخل إلى ما هو خاص
٣٦-١٩	١ - في ما بين الأديان «الشرقية» الثلاثة من تواصل تراثي وتفصيل تاريخي أو العمومية والخصوصية التي تحتكم اليهما
٥٢-٣٧	٢ - إشكالية العلاقة بين «الشرق» و«الدين» : بين الجغرافية والدين ، وبين الاقتصاد والدين

القسم الثاني :

٦٧-٥٣	في رحاب يهوه رب البدو والرعاة والجنود والمسيح المخلص
-------	--

الفصل الأول :

٨٠-٥٥

من «اليهودي» إلى

«اليهودي» ومن

اليهودي إلى «الغير- الغورييم»

١ - تصور «المركز ، الهامش»

٦٨-٥٥

ونقيضه ، أي اندماج بـ «الغير- الغورييم»

٨٠-٦٩

٢ - تصور «المركز- الهامش»

ووجهه الآخر «الشعب - الطبقة»

الفصل الثاني :

١٥٩-٨١

التاريخ اليهودي - من الوحي إلى

الواقع المشخص

٨٦-٨١

١ - «التاريخ وحي والوحي تاريخ»

١٠١-٨٧

٢ - خطوط رئيسية في التكون التاريخي

اليهودي : النص التاريخي

١١٧-١٠٣

٣ - من النص التاريخي إلى النص الاقتصادي

الاجتماعي أو من هابيل إلى قابيل

١٣٩-١١٩

٤ - مواجهة العالم الجديد عبر إشكالية الاقنية

الثلاث : الاندماج والحرب والتجارة

١٥٩-١٤١

٥ - موقع الفكر اليهودي من الفكر العربي

الفصل الثالث :

٢٠٢-١٦١

إشكالية المسألة التاريخية للعهد

العتيق

١٨١-١٦١

١ - «القراءة المركبة» لنصوص العهد

العتيق

٢٠٢-١٨٣

٢ - هُزال الحدث التاريخي بتغييبه

عبر الحدث التراثي

الفصل الرابع :

- ٢٧٢ - ٢٠٣ موقف الكهنوت من الفكر الشرقي
السابق عليه والمعاصر له
- ٢٣٦ - ٢٠٣ ١ - ما للآخر لنا ، أما الآخر نفسه فعدونا
- ٢٤٩ - ٢٣٧ ٢ - الكهنوت اليهودي والمفارقان الكبريان :
«الشعب المختار المصطفى» و «الشعب المختار
المصطفى» ضد الغوييم»
- ٢٧٢ - ٢٥١ ٣ - حظر «إنني» باتجاه الداخل والخارج
وآلية اشتها «الخارج» وازدراة

الفصل الخامس :

- ٣٠٩ - ٢٧٣ من «الوحدة» الى التمايز والصدام
ومن الوهم الايديولوجي اليهودي الى «فضيحة»
الواقع
- ٢٩٣ - ٢٨٥ ١ - الصادوقية
- ٢٩٩ - ٢٩٣ ٢ - الفريسية
- ٣٠١ - ٢٩٩ ٣ - ثارة الله - السيلوتية
- ٣٠٩ - ٣٠١ ٤ - الاسينية

الفصل السادس :

- ٤٣٤ - ٣١١ من يهوه الى يسوع
- ٣٤٩ - ٣١١ ١ - يهوه ، الرب الكامل المنقوص
- ٤٣٤ - ٣٥٠ ٢ - من «يشوع - يسوع» اليهودي الى
«يسوع يشوع» المسيحي أو من «وعي الاثم
والخيبة» الى «وعي الغبطة والافتحام»
- ٤٣٧ - ٤٣٥ باتجاه يسوع المسيح

مشروع رؤية جديدة للفكر العربي
مقدمة تأليف عبد الرحمن النجدي
في ١٢ جزءاً

- صدر منه :
الجزء الأول : من التراث إلى الثورة - حول النظرية مقترحة في قضية التراث
العربي .
الجزء الثاني : الفكر العربي في بواكيره وأفاقه الأولى
الجزء الثالث : من يهود إلى الله - مجلدين
الجزء الرابع : يصدر قريباً .